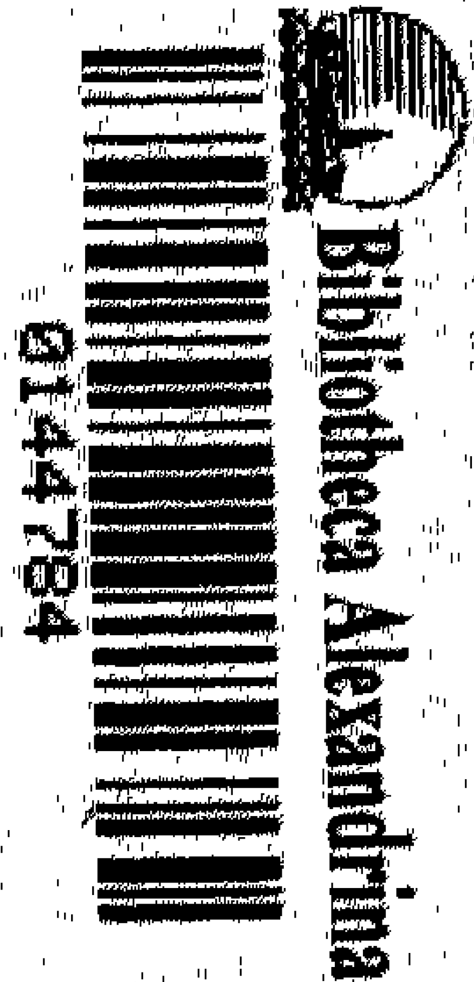
دكتور علي ليلة

# النظرية الاجتماعية المعاصرة

دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع

«الأنساق الكلاسيكية»




منشأة المعارف

سلسلة علم الاجتماع المعاصر
الكتاب التاسع والثلاثون

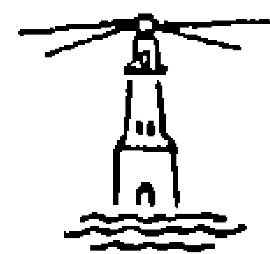
# النظرية الاجتماعية المعاصرة

## دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع

«الأنساق الكلاسيكية»

تأليف
دكتور على ليله
أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب
جامعة عين شمس

الطبعة الثالثة
١٩٩١



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج.م.ع

بسم الله الرحمن الرحيم

« ربنا إفتح بيننا وبين قومنا بالحق

وأنت خير الفاتحين »

صدق الله العظيم

# المحـــتويات



## الباب الأول

## حول مفهوم النظرية السوسيولوجية

## مدخل نظرى



### الفصل الأول

### التفكير العلمى طبيعته ومكوناته



### الفصل الثانى

### النظرية السوسيولوجية بناؤها ووظائفها

## الفصل الثالث
## الاستراتيجيات الأساسية لبناء النظرية السوسيولوجية



# الباب الثانى
## النظرية الماركسية
## والبحث فى أصل النظام الرأسمالى



## الفصل الرابع
## النظرية الماركسية كتاباتها وجذورها الفكرية



## الفصل الخامس
## مقولات البناء المنهجى للنظرية الماركسية

## الفصل السادس
## تصور الماركسية للنظام الرأسمالى
## من النشأة إلى الأنهيار



# الباب الثالث
## إميل دوركيم
## والتأكيد على الحتمية الاجتماعية



## الفصل السابع
## إميل دوركيم
## والاتجاهات النظرية العامة

## الفصل الثامن
## الاسهامات المنهجية لإميل دوركيم



## الفصل التاسع
## نظرية إميل دوركيم
## وتصورها لواقع المجتمع والانسان



# الباب الرابع
## نظرية ماكس فيبر
## والبحث المضاد فى أصل الرأسمالية المعاصرة

## الفصل العاشر
## نظرية ماكس فيبر السياق الفكرى والواقعى



## الفصل الحادى عشر
## البناء المنهجى لنظرية ماكس فيبر



## الفصل الثانى عشر
## النظرية السوسيولوجية لماكس فيبر
## رؤيتها للنظام الرأسمالى وتفاعلاته

## الباب الخامس

## فلفريدو باريتو

## ودورة الصفوة فى إطار النظام



## الفصل الثالث عشر

## فلفريدو باريتو

## الجذور الفكرية والسياق الواقعى



## الفصل الرابع عشر

## المنهج عند فلفريدو باريتو

## طبيعة القضايا الأساسية

# الفصل الخامس عشر

# النظام الاجتماعى

# ودورة الصفوة فى اطار النظام

## مقدمة الطبعة الثالثة

منذ نشر الطبعة الأولى لهذه الدراسة توقعت صعوبة استقبال القارئ لها ، وذلك لاعتبار ان التأليف فى النظرية الاجتماعية يتناول عادة القضايا المجردة ، التى لاتتصل بوقائع أو احداث اجتماعية معينة ، الامر الذى يجعل من السهل متابعتها لأن القارئ يلمس التفاعلات الواقعية المرتبطة بها . بيد ان هذه الطبعة مالبثت ان نفدت فى اقل من عامين .

ولقد دفعنى ذلك الى ان بذلت جهدا فى اعداد مخطوطة الطبعة الثانية ، لتصبح أكثر تنظيما ، فقمت بتعديل بعض الفقرات ، اضافة الى كتابة جزء كامل عن عالم الاجتماع فلفريدو باريتو . وبالطبع خرجت هذه الطبعة الى النور ، وأنا اعتقد انها كانت تفضل كثيرا الطبعة الأولى . غير انها بدورها مالبثت ان نفدت هى الاخرى ، وازدادت ثقتى فى القارئ العربى ، غير ان ذلك فرض علىّ احساسا بالخوف من قدرة هذا القارئ على المتابعة الأمر الذى دفعنى الى الاهتمام الجاد بالطبعة الثالثة ، التى انتهيت الآن من صياغتها .

وفى إعدادى لأصول الطبعة الثالثة قمت باعادة تنظيم جذرية لهذا الكتاب ، بحيث تجعل من اليسير على القارئ متابعة مختلف الانساق النظرية التى ظهرت فى المرحلة الكلاسيكية من تاريخ النظرية السوسيولوجية . وان كنت لم أضف سوى مجموعة من المقدمات للأبواب والفصول، اضافة الى معالجة بعض القضايا ، على سبيل المثال محاولة تحديد الأطر التحليلية لدراسة النظرية السوسيولوجية وارتباطا بذلك اطارنا المقترح لتحليل النظرية الاجتماعية . اضافة الى تقديم دراسة عن قضية العلاقة بين الايديولوجيا والعلم ، أو بالأصح بين الايديولوجيا والنظرية السيوسيولوجية فى اطار الباب الأول .

واعتقد ان هذا المؤلف قد أخذ شكله النهائى - حتى الآن - واعتقد انى بذلت الجهد لابرازه بشكل افضل عن الشكل الذى برز من خلاله فى الطبعات السابقة . وانى لأتمنى ان اكون بهذا الجهد قد عبرت عن شديد احترامى للقارئ العربى ، وايضا كتعبير عن الأمل فى علم اجتماع عربى يعكس واقعنا الاجتماعى والتفاعلات التى تقع فيه .

وانى لأتوجه بالشكر الى زملائى الذين كانت لملاحظاتهم القيمة الأثر الكبير فى تطوير هذه الطبعة وأخص بالذكر الزميل العزيز الأستاذ صالح سليمان المعيد بقسم الإجتماع – جامعة عين شمس للمعاونة القيمة والمخلصة التى بذلها لمساعدتى فى إخراج هذه الطبعة ، كذلك اشكر طلابى بالجامعة لما طرحوه من قضايا شكلت مادة للحوار والجدل بينى وبينهم ، وأسهمت فى النهاية فى الارتقاء بهذا العمل الى مستويات تجاوزت الطبعات السابقة .

والله الموفق أولا وأخيراً

العجوزة فى ١٩٩٠/١٢/٢٩

# مقدمة الطبعة الثانية

يكشف تتبع الحركة التاريخية للنظرية الاجتماعية عن تطورها عبر أربعة مراحل أساسية يمكن تمييزها على النحو التالى :

١ - ففى الفترة التى امتدت بين بداية القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، عاش التفكير الاجتماعى فى اطار المرحلة التى يمكن تسميتها بمرحلة التمهيد . وهى المرحلة التى شهدت ازدهارا للتفكير العقلى خلال مرحلة التنوير .

ولقد كان تأسيس النظام الاجتماعى فى قلب الفوضى الواقعية التى شهدتها أوربا خلال هذه الفترة ، هو الموضوع الرئيسى الذى انصب عليه الاهتمام . كيف يمكن استئناس الجوانب الغريزية والوحشية للانسان لتخلق النظام الاجتماعى استنادا الى ذلك . وفى محاولة بحث هذه القضية أفرزت هذه المرحلة نظريات العقد الاجتماعى ، التى حاولت أن تقدم حلولا لمشكلة تأسيس النظام الاجتماعى . بحيث تراوحت هذه الحلول بين الحلول الديموقراطية ( روسو ) والحلول الدكتاتورية ( هوبز ) لقضية النظام .

٢ - وتغطى المرحلة الثانية الفترة الواقعة بين قيام الثورة الفرنسية التى أسست النظام السياسى الحديث ، والثورة الصناعية التى أسست النظام الرأسمالى الحديث أيضا . ويمكن القول بأن طبيعة النظام - وليست نشأة النظام كما فى المرحلة السابقة - هى القضية التى شكلت جوهر اهتمام هذه المرحلة . وفى مواجهة هذه القضية أفرزت هذه المرحلة نموذجين من التنظير .

**الأول** يتمثل فى الاتجاهات النظرية العامة - المثالية ، الوضعية ، النفعية - التى ظهرت فى بداية هذه المرحلة ، والتى نشأ فى ظلها الحوار الذى يتعلق بشرعية النظام الاجتماعى القائم ، ومشروعية قيام علم للاجتماع يتصدى للمشكلات التى تتعلق بطبيعة النظام .

أما **الثانى** فيتمثل فى الأنساق النظرية التى ظهرت فى نهاية هذه المرحلة . وخلال هذه الفترة دار الحوار أساسا حول من الذى يتحمل عبء العملية الاجتماعية ، ومن الذى له أن يستفيد منها . وتمثلت هذه الأنساق النظرية فى الماركسية ، نظرية دوركيم ، نظرية فيبر ثم نظرية باريتو ، ومارشال وغيرهم . وبغض النظر عن الحلول التى قدمت لمشكلة - طبيعة - النظام فى هذه المرحلة فقد تركز الاهتمام خلال هذه المرحلة على المجتمع الصناعى والرأسمالى المعاصر لهذه الأنساق .

٣ – ويمكن أن نسمى المرحلة الثالثة بمرحلة الاستمرار والنضج وقد تميزت هذه المرحلة بأنها لم تضف قضايا جديدة بقدر ماحاولت تعميق قضايا الأنساق النظرية للمرحلة السابقة . ويمكن القول بأن طبيعة النظام الاجتماعى شكلت مجال اهتمامها . ونستطيع التأكيد بأن الاسهام الحقيقى لهذه المرحلة قد تم على مستوى مناهج البحث الاجتماعى من ناحية ، ومن ناحية أخرى على مستوى التفاعلات الاجتماعية البسيطة فلم يهتم التنظير فى هذه المرحلة بالنظام الاجتماعى كاطار شامل بقدر ماتركز الاهتمام حول التفاعلات التى تتم بداخله ، نذكر من الأنساق النظرية لهذه المرحلة ، البنائية الوظيفية ، الماركسية المحدثة ، التفاعلية الرمزية،النظرية السلوكية ، نظرية التبادل ، نظرة المباراة أو اللعب .

٤ – وتعتبر المرحلة الرابعة هى المرحلة النقدية لكل منجزات المراحل الثلاث السابقة ، سواء على المستوى النظرى أم على المستوى المنهجى . وإذا كانت المراحل الثلاث السابقة قد اهتمت بقضايا تأسيس النظام الاجتماعى واستمراره . فان اهتمام المرحلة النقدية انصب بالأساس على وطأة النظام الاجتماعى وتأثيره على الانسان واختزاله الى انسان البعد الواحد . تهتم هذه المرحلة أيضا بتحرير الانسان مما يمكن أن نسميه بالنظام الفائض قياس على مفهوم الكبت الفائض لهربرت ماركيوز .

واذا كانت الاتجاهات النقدية قد ضمت فصائل عديدة يعجز بعضها عن أن يطور موقفا نظريا محددا فاننا نجد أن مدرسة فرانكفورت ونظريتها التى تنصب أساسا على نقد المجتمع ، تقدم أفضل تعبير عن موقف هذه المرحلة النقدية .

ويكشف البحث فى طبيعة أفكار هذه المراحل الأربعة ومواطن اهتمامها ، أنها ألهمت باطارين مرجعيين .

١ – وتمثل عقلانية التنوير الاطار المرجعى الأول الذى وجه أفكار وقضايا المراحل الثلاث الأولى . حيث نجد أن الأنساق النظرية لهذه المراحل الثلاث تشترك فى الايمان بقدرة العقل على تنظيم الواقع الانسانى والاجتماعى ، وتشترك أيضا فى التأكيد على استخدام مناهج العلم الطبيعى ، ويستهدف جهدها العلمى الوصول الى مجموعة من القوانين التى تساعد على ضبط التفاعل الاجتماعى والسيطرة عليه ، أو لنقل تأكيد وطأة النظام على الانسان وقهره .

٢ - ويتحدد الاطار المرجعي الثاني بالفكر النقدي الذي يتضمن قضايا كثيرة ومتنوعة بعضها ينتمي الى المثالية النقدية أو الموضوعية ، بينما ينتمي البعض الآخر الى الفلسفة الوجودية أو فلسفات العبث واللامعقول . ومن الطبيعي أن تتحرك هذه القضايا التي تنتمي الى مجالات متعددة الى تشكيل اطار متماسك لفكر اجتماعي مشرق وجديد وانساني ، يؤكد على انسانية البشر ، ويعمل على تحريرهم من القهر أو الكبت الفائض للنظام . ومن الطبيعي أن يشكل الاطار المرجعي لهذه المرحلة جدلا مع فكر التنوير ومنجزاته أو لنقل نفيا له .

ويحاول هذا الكتاب - بعد تعديله - أن يعرض بشكل موجز للأنساق النظرية التي سادت مرحلتي التمهيد والانطلاق . ويبقى علينا واجبا أكاديميا يتمثل في ضرورة التعرض بالمعالجة لمرحلتي ( الاستمرار ) و ( النقد ) حتى يمكننا أن نقدم للعقل الاجتماعي العربي ، خريطة توضح معالم النظرية السوسيولوجية ، نتمنى أن تمتلك قدرا من الشمول والعمق .

وأخيرا فبرغم الكلمات المشرفة التي قدمني بها استاذي الأستاذ الدكتور محمد الجوهري في تصديره للطبعة الأولى ، داخلني احساس بالقلق والخوف من العجز عن آداء المهمة التي عينت لي ، وأني لاتمنى أن أكون قادرا على الانجاز الذي يجسد شموخ هذه الكلمات .

وعلى الله قصد السبيل

العجوزة في ١٩٨٣/٦/٢٦

# تصدير

## بقلم

## الدكتور محمد الجوهرى

## استاذ ورئيس قسم الاجتماع

## وعميد

## كلية الآداب - جامعة القاهرة

يستوجب التسجيل لنشأة النظرية السوسيولوجية وتطورها - أيا كانت بؤرة اهتمام الباحث القائم بهذا التسجيل - أن نأخذ فى الاعتبار بعدين أساسين :

أما البعد الأول فيتمثل فى التفاعلات الواقعية التى عاصرت نشأة النظرية موضع الاهتمام ، أو تلك التى جردت عنها . ونقصد بذلك البحث عن العلاقة بين مجموعة الأحداث الواقعية من ناحية ، وبناء النظرية من حيث مقولاتها الأساسية وموقفها من هذه الأحداث من ناحية أخرى .

ويتمثل البعد الثانى فى ضرورة أن نأخذ فى الاعتبار الأصول الفكرية للنظرية موضع الاهتمام ، وفى هذا الاطار ننظر الى النظرية موضع الاهتمام من حيث أنها حلقة متنامية فى اطار نسق نظرى شامل له أبعاده التاريخية والمعاصرة .

وفى محاولة ادراك طبيعة وبناء النظرية السوسيولوجية - فى تطوراتها التاريخية والمعاصرة - فاننا نجد أنه من الضرورى أن نأخذ هذين البعدين فى الاعتبار بهدف أن يكون ادراكنا أكثر كفاءة بقدر الامكان ، وأكثر تجنبا لنواحى النقص والقصور .

وفى اطار البعد الأول - حيث فاعلية الأحداث أو المعطيات الواقعية - نرى أن علم الاجتماع نفسه ، ونظريته العامة قد ولد فى اطار حركة شاملة لمحاولة تعقل الوجود الذى يعيشه الانسان ، بحيث دفع الى ذلك وقوع ثلاثة أحداث هامة كان لها تأثيرها فى اشاعة حالة من الفوضى فى مختلف جوانب الوجود الواقعى للانسان مما جعل حياته فى نطاقها صعبه ومستحيلة .

ويمثل انهيار الكنيسة الكاثوليكية تحت وطأة انتصار الثورة البروتستنتيه أول هذه الأحداث ، حيث انهار معها بناء كل من القيم والمعتقدات وأنماط السلوك . ومن ثم شكلت

نظريات العقد الاجتماعى بالاضافة الى بدايات الاتجاهات النظرية العامة الوسائل التى طرحها العقل البشرى محاولا عن طريقها اعادة تنظيم واقعه .

أما الواقعة الثانية فقد تمثلت فى الثورة الفرنسية . واذا كانت الأحداث الأولى والفكر الذى تخلق عنها قد تعلقت أساسا بالنظام الاجتماعى ، من حيث تشخيص أسباب انهياره وأكثر الاستراتيجيات ملاءمة لاعادة البناء ، فان أحداث وفكر هذه المرحلة قد تعلق أساسا بالانسان ، كيف نحفظ له هويته فى مواجهة المجتمع الذى خلقه ، بينما نجده الآن يقهره .

ومثلما كان قائما أن يعيش المجتمع الفرنسى ابان ثورته عصرا من الرعب تخلص فى اطاره الثوار - من خلال القتل والتصفية - من النظام القديم بكل مظاهره الفاسدة ، فلقد كان رائعا أن تكتب الدماء التى سالت وثيقة حضارية تؤكد حرية الانسان وحقوقه الأساسية . ومن ثم فاذا كانت الواقعة الأولى قد حررت النظام ، فان الثانية هى التى تولت تحرير الانسان المتضمن فى هذا النظام .

وتعتبر الثورة الصناعية هى الواقعة الثالثة التى صاحب ولادتها حالة من الفوضى وانهيار التنظيم الاجتماعى فى بعض جوانبه ، هذا بالاضافة الى أنها دفعت النظام الرأسمالى بطابعه الحديث . وانعكاسا لذلك تأسس نظام من التفكير يحاول اعادة تنظيم الواقع الاجتماعى بما يخلق علاقة متوازنة ، حيث نظام اجتماعى يلائم تحقيق امكانات الانسان ، فى مواجهة انسان قادر على التفاعل مع الآخر بما يدعم الوجود الاجتماعى ويشبع حاجاتهما معا فى اطاره .

ولقد شكلت الأوتومية الواقعة الرابعة ، حيث انتشار الظاهرة الصناعية والتنظيمات البيروقراطية المرتبطة بها فى مختلف جوانب الواقع الاجتماعى ، بحيث تحول النسق الاجتماعى الى كل هائل له سيطرته القوية على الانسان فى اطاره ، من حيث حركته وسلوكه وعلاقاته . بحيث أصبح الانسان مستوعبا فى اطار التفاعل الاجتماعى وليس مشاركا فى صياغته . وانعكاسا لذلك ظهرت الاتجاهات الراديكالية كمحاولة لاستعادة هوية الانسان وحقوقه المسلوبة فى مواجهة النسق الاجتماعى .

***

ولقد واكب تطور الأحداث الواقعية على هذا النحو تطور فكرى مناظرا له . حيث تحرك الفكر بشأن المجتمع متطورا من مرحلة الى أخرى ، ومتناميا من حيث قدرته على الاتصال بالواقع ، وقيادة تفاعله . وفى ضوء ذلك يمكننا تمييز أربعة مراحل أساسية تالية .

**المرحلة الأولى** ، ويمكن تسميتها بمرحلة التأسيس الأكاديمي ، وهي المرحلة التي أعقبت الاتجاهات النظرية العامة . ولقد شهدت هذه المرحلة أنساقا نظرية شامخة اشتقت تعميماتها من أصول فلسفية لها ، وحاولت التعامل مع الواقع بالنظر الى هذه التعميمات ، ويمكن أن نميز أربعة نماذج من التنظير في اطار هذه المرحلة .

١ - الأنساق النظرية للرواد ، كالنظرية الماركسية والنسق النظرى لماكس فيبر ، والنزعة السوسيولوجية لاميل دوركايم ونظرية الرواسب والمشتقات لباريتو . ولقد تميزت هذه الأنساق بمحاولة تقديم تصور شامل للواقع الاجتماعي ، من حيث عناصره وعملياته يعكس الى حد كبير رؤية المنظر وقناعاته الفلسفية .

٢ - النظريات العاملية وهي التي رأت في الواقع الاجتماعي متغيرا تابعا لفاعلية متغير مستقل أساسا ، اقتصاديا كان أو جغرافيا أو سلالياً أو حتى سوسيولوجيا .

٣ - أما النموذج الثالث فيتمثل في نشأة المدارس النظرية التي تمتلك مجموعة من المقولات العامة التي تشكل طبيعة تصورها للوجود الاجتماعي ، ولقد تميزت هذه المدارس النظرية بانتماء الرواد لها وليس العكس ، هذا بالاضافة الى تجريد تعميماتها عن معطيات امبيريقية أساسا .

٤ - النزعة الأمبيريقية التي بدأت بالاتجاه العلمي لكل من روجر وفرنسيس بيكون ، واستمرت من خلال النزعة الأمبيريقية الانجليزية ، ووجدت تجسيدها الحقيقي في الفكر الانثروبولوجي في مرحلة تاريخية تالية . ولقد تميز الفكر الأمبيريقي في هذه المرحلة بعدم رغبته في الابتعاد عن المعطيات ، ورفضه الاستغراق في تأسيس الصياغات النظرية مفضلا رفع شعار دع الحقائق تتحدث عن نفسها .

ومن الملاحظ تميز التنظير الذي أفرزته هذه المرحلة بخاصيتين :

الأولى امتلاك الأنساق النظرية - باستثناء النزعة الأمبيريقية - لتصور شامل فيما يتعلق بالواقع الاجتماعي من حيث عناصره وعملياته وعلاقاته ، واتباعها الأسلوب الإنتقائي في البرهنة .

وتتمثل الثانية في تضمن هذه التصورات النظرية الشاملة لعديد من التوجيهات الأيديولوجية ، بحيث فرضت تعميماتها على الباحث موقفا اعتقاديا نحو الواقع الاجتماعي الذي يعيشه . بحيث أعاقها ذلك في بعض الأحيان عن القدرة على استيعاب متغيرات الواقع

المتجددة ، من ثم فقد عجزت النظرية السوسيولوجية عن تطوير تراكم نظرى يعتبر نتاجا للعلاقة المتفاعلة بين ابداعات التنظير من ناحية ومعطيات الواقع المتنوعة من ناحية أخرى .

**المرحلة الثانية** ، ويمكن أن نعتبرها المرحلة النقدية . حيث اتجه التفكير فى اطارها الى اخضاع التنظير السوسيولوجى لنوع من التحليل والنقد بهدف تنقيح التعميمات النظرية القائمة بغية التوجه نحو صياغة نظرية سوسيولوجية عامة تمتلك مقومات النظرية العلمية من حيث امكانياتها وكفاءتها التحليلية .

ويمكن تصنيف الاسهامات النظرية لهذه المرحلة الى ثلاثة نماذج أساسية :

١ - النموذج الأول هو النقد الأكاديمى ، الذى تولى تقييم الأنساق النظرية للمرحلة السابقة بالنظر الى محكات أكاديمية أساسا ومن أهم كتابات هذا النموذج مؤلف بيترم سروكن ( النظريات الاجتماعية المعاصرة ١٩٢٨ ) ، ومؤلف دون مارتندال ( طبيعة ونماذج النظرية السوسيولوجية ١٩٦١ ) .

٢ - أما النموذج الثانى فهو النقد الأيديولوجى ، حيث قيم هذا النموذج من النقد الأنساق النظرية أو أى من تعميماتها بالنظر الى متضمناتها الأيديولوجية ، وكمثال على هذا الطراز من النقد مؤلف ارفنج زايتلن ( الأيديولوجيا ونشأة النظرية الاجتماعية ١٩٦٩ ) ، ثم مؤلفه الأخير ( اعادة التفكير فى علم الاجتماع ١٩٧٣ ) .

٣ - أما النموذج الثالث فيمكن أن نسميه بالتحليل أو النقد بالنظر الى السياق . حيث الأفكار والتعميمات النظرية من وجهة نظر هذا النموذج ليست إلا انعكاسا مباشرا للواقع الاجتماعى التى ظهرت فى اطاره وجردت عن تفاعلاته . ومن أهم الأمثلة على هذا الطراز من الكتابات مؤلف الفن جولدنر ( الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى ١٩٧١ ) .

**أما المرحلة الثالثة** فيمكن أن نسميها بمرحلة المراجعة النظرية ، حيث تأسست فى اطارها مجموعة من الجهود النظرية التى حاولت الاستفادة من منجزات المرحلة الأولى والثانية بهدف تأسيس مجموعة من التعميمات التى تشكل مواقع اتفاقية من قبل مختلف نماذج النظرية السوسيولوجية ، بحيث تصبح هذه التعميمات أساسا لنشأة النظرية العامة فى علم الاجتماع .

ويمكننا أن نميز فى هذه المرحلة أربع استراتيجيات للمراجعة :

١ - وتتمثل الاستراتيجية الأولى فى مجموعة الممارسات التوفيقية التى تحاول صياغة مجموعة من التعميمات النظرية التى يمكن الوصول اليها من خلال التسوية أو التوفيق بين

التعميمات النظرية المتباينة والمنتمية لأنساق نظرية متضادة . ومن أهم الأمثلة على ذلك تلك المحاولات التى بذلها كل من فاندنبرج وجـــوندر فرانك G.Frank وأيضا ن.ج.دى ميراث N.J.D Merath .

٢ – وتهدف الاستراتيجية الثانية للمراجعة النظرية الى اعادة صياغة الأنساق النظرية من حيث تصوراتها فيما يتعلق بجوانب محددة للبناء الاجتماعى سواء كانت ذات طابع استقرارى أو دينامى . ومن أهم المؤلفات فى هذا الصـــدد مـؤلف لومى Charles P.Loomis & Zona K.Loomi ( النظريـــة الاجتمـاعيـة الحديثـة ١٩٦١ ) ودراسـة انتـــونـى جايدنـز ( الرأسمالية ونشأة النظرية الاجتماعية ١٩٧٧ ) .

٣ – وتهتم الاستراتيجية الثالث من استراتيجيات المراجعة بتجميع التعميمات الصادقة أمبيريقيا والسليمة منطقيا التى وفرها التراث النظرى لعلم الاجتماع ، وربما لعلوم اجتماعية أخرى كالأنثروبولوجيا وعلم النفس ، بهدف تأسيس نظرية شاملة عن النسق الاجتماعى ، ومن أبرز المحاولات فى هذا الصدد ماأنجزه عالم الاجتماع الأمريكى تالكوت بارسونز فيما يتعلق بنظريته العامة التى طورها فى سلسلة مؤلفاته .

٤ – أما الاستراتيجية الرابعة والأخيرة من اسراتيجيات المراجعة فتتمثل فى المحاولات التى تهدف الى اعادة صياغة تعميمات مختلف المواقف النظرية فيما يتعلق بمفاهيم محددة لها متغيراتها الواقعية . ويمكن اعتبار دراسة عالم الاجتماع أيزنشدات للحصول على درجة الدكتوراه ( معنى مصطلح اجتماعى فى علم الاجتماع ) ومـؤلف ريتشارد . ج . برنشتين ( اعادة تأسيس النظرية الاجتماعية والسياسية ١٩٧٩ ) من أهم الدراسات فى هذا الصدد .

أما المرحلة الرابعة فيمكن أن نسميها بالمرحلة الرافضة ، حيث قدمت الاتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتماع موقفا راديكاليا ترفض فى اطاره كل منجزات الأنساق النظرية السابقة ، أو على الأقل ترى فيها أنساقا نظرية عاجزة عن تقديم فهم لتفاعلات الواقع الانسانى المتجدد .

* * *

ويقع موضوع الدراسة فى اطار الاستراتيجية الرابعة من استراتيجيات المراجعة التى سادت المرحلة النظرية ، حيث يتمثل هدفها الأساسى فى تحديد المقولات التى طرحتها مختلف

الأنساق النظرية فيما يتعلق بالفعل الاجتماعى كمفهوم أساسى ، سواء تلك الخاصة بالجوانب المنهجية أو تلك المتعلقة بالمستويات العينية .

فى اطار ذلك يتحدد هدف هذه الدراسة فى تحديد القضايا الأساسية لنظرية الفعل الاجتماعى – فى مستوياتها المنهجية والعينية – كما تراها مختلف الأنساق النظرية موضع التحليل . ثم تحديد طبيعة التباين بين مختلف الأنساق النظرية فيما يتعلق بذلك .

واستنادا الى ذلك نستطيع أن نتبين أهداف الدراسة على النحو التالى :

١ – تحديد طبيعة المقولات الأساسية المتعلقة بادراك الفعل الاجتماعى أو تلك التى تهتم بعناصره الأساسية فى حالة تفاعلها الواقعى ، وذلك من وجهة نظر الأنساق النظرية موضع التحليل .

٢ – تحديد التغيرات التى قد تطرأ على الطبيعة الأساسية للفعل كما يراها النسق النظرى ، مع تحديد العوامل المسئولة عن هذه التغيرات سواء من داخل النسق النظرى أو من خارجه .

٣ – تحديد العوامل التى أدت الى تباين مختلف الأنساق النظرية التى تعيش مرحلة تاريخية وفكرية واحدة فيما يتعلق بتصورها للمقولات الأساسية لنظرية الفعل الاجتماعى ، وعما اذا كانت هذه العوامل ذات طبيعة ابستمولوجية أو ذات طبيعة انطولوجية .

٤ – اجراء مراجعة نقدية لمختلف تصورات الفعل التى طورتها النظرية السوسيولوجية بهدف تحديد مواضع الاتفاق والتباين بين مختلف المواقف النظرية ، سواء فيما يتعلق بمقولات الادراك المنهجى أو مقولات التفاعل العينى ، هذا بالاضافة الى تحديد التطرفات التى قد تنتاب بعض المواقف النظرية ، والعوامل المسئولة عن ذلك ، لهدف الوصول الى صيغة تعكس موقف مختلف المواقف النظرية فيما يتعلق بقضايا نظرية عن الفعل الاجتماعى .

* * *

ولانجاز هذه الدراسة **حددت الدراسة منهجيتها** وفقا للابعاد الأساسية التالية :

**أولا** : اختار الباحث ثلاث مراحل تاريخية مرت بها النظرية السوسيولوجية انتقى من بين كل منها الأنساق النظرية موضع التحليل ، بحيث تكون ممثلة للاتجاهات الأساسية التى سادت المرحلة ، ويمكن تحديد هذه المراحل فيما يلى :

١ - **المرحلة الأولى** ، وهى مرحلة النشأة ، وتغطى هذه المرحلة الفترة من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر . حيث بدأت هذه الفترة التاريخية بظهور نظريات العقد الاجتماعى وانتهت بظهور الاتجاهات النظرية العامة .

وفى هذا الاطار تناول المؤلف الاتجاهات النظرية العامة ( المثالية ، الوضعية ، النفعية ) باعتبارها تمثل ارهاصات البداية لنشأة النظرية السوسيولوجية ، هذا بالاضافة الى كونها قد طرحت تصورات متباينة من حيث العناصر الأساسية للفعل الاجتماعى .

٢ - **المرحلة الثانية** وهى المرحلة الكلاسيكية ، حيث تركز البحث خلال هذه المرحلة فى طبيعة الفعل الاجتماعى ثم طبيعة المتغيرات ذات الفاعلية والأهمية فى بناء الفعل . ولقد تناول المؤلف ثلاث أنساق نظرية كنماذج ممثلة لهذه المرحلة ، وهى النظرية الماركسية ، ثم نظرية أميل دوركيم ، والنسق النظرى لماكس فيبر .

٣ - وتعتبر المرحلة المعاصرة هى المرحلة الثالثة حيث عرض المؤلف فى اطارها للموقف النظرى فيما يتعلق بالفعل الاجتماعى . حيث محاولة تقديم صياغة مقننة لنظرية فى الفعل الاجتماعى ، مستندة الى التراث الكلاسيكى ، كتلك التى قدمها تالكوت بارسونز من خلال النسق البنائى الوظيفى من ناحية ، بالاضافة الى وجهة نظر الاتجاهات النقدية الحديثة فى هذا الصدد كتصور محدث .

**ثانيا** : أنجز المؤلف تحليله للانساق النظرية موضع الاهتمام بالنظر الى اطار تحليلى يحتوى على ثلاثة أبعاد رئيسية :

١ - البعد المعرفى ، وهو البعد الأول ، حيث يتركز فى طبيعة السياق الاجتماعى والفكرى لنشأة النسق النظرى وذلك لمحاولة استكشاف طبيعة العلاقة بين التفاعلات الكائنة بالسياق الاجتماعى ، وبين قضايا نظرية الفعل الاجتماعى التى جردت فى اطاره . ثم علاقة هذه القضايا بالانجازات الفكرية التى أهلت لتأسيسها .

٢ - البعد الثانى ، وهو البعد المنهجى . حيث حاول المؤلف خلاله تحديد القضايا المنهجية المتعلقة بادراك الفعل الاجتماعى كما يتبعها كل نسق نظرى .

٣ - أما البعد الثالث ، فهو البعد العينى substantive حيث حاول المؤلف فى اطاره تحديد القضايا العينية المتعلقة بعناصر الفعل الاجتماعى الواقعى ، أو تلك الخاصة بالتفاعل بين هذه العناصر والعلاقات بينها .

ولانجاز ذلك قسم المؤلف دراسته الى ثلاثة أبواب تتضمن سبعة فصول وقد حاول فى الباب الأول والمعنون ( نظرية الفعل الاجتماعى والبحث عن البداية ) تحديد البداية التاريخية والتحليلية لنشأة نظرية عن الفعل الاجتماعى .

وفى الباب الثانى المعنون ( نظرية الفعل الاجتماعى : ملامح المرحلة الكلاسيكية ) حاول المؤلف تحليل الأنساق النظرية التى سادت المرحلة الكلاسيكية ، حيث تناول النظرية الماركسية ، والنزعة السوسيولوجية لدوركيم والنسق النظرى لماكس فيبر ، كتصورات ممثلة لهذه المرحلة .

وفى الباب الثالث المعنون ( نظرية الفعل الاجتماعى من منظور محدث ) عرض المؤلف لوجهة نظر البنائية الوظيفية فيما يتعلق بالفعل الاجتماعى ، وفى فصل آخر لوجهة نظر الاتجاهات النقدية الحديثة فى هذا الصدد .

* * *

ولاشك أن هذا العمل الذى يسعدنى أن أقدمه اليوم للقارئ العربى سوف يمثل معلما هاما من معالم تطور الكتابة الأكاديمية رفيعة المستوى فى علم الاجتماع . فقد توج به صاحبه حقبتين قضاهما فى الانقطاع المتفانى للبحث العلمى ، ورفض أن يسير مع السائرين ، وأن يقتنص الفرص العديدة التى لاحت له ، رفض أن يستجيب لاغراءات الدنيا الزائلة وتشبث بالخلق القويم والرجولة الحقة والاخلاص الكامل للبحث العلمى . كانت هذه الثمرة اليانعة التى ستضعه فى مكانه الجدير به وسط أسرة الاجتماعيين العرب ، كواحد من أبرز منظرى هذا العلم على مستوى الناطقين بالضاد . وبذلك ، وعلى أساس هذا العمل ، يرقى البحث السوسيولوجى العربى الى آفاق رفيعة ، يحلق فيها فى زهو واعتزاز واثق الخطا الى جانب المدارس النظرية التى عرفتها البلاد التى سبقتنا شرقا وغربا .

واذا كنت قد تشرفت بمرافقة الدكتور على ليلة على امتداد السنوات الأخيرة مشرفا على بحثه هذا ، فقد حققت لى هذه الزمالة ( ولا أقول الأشراف ) سعادة غامرة وفخارا أزهو به على مر الأيام . وهو فوق كفاءته العلمية وسعة اطلاعه ونفاذ بصيرته ، انسان كريم الخلق ، يجمع عديدا من صفات العالم الحق فى التواضع والصبر والهدوء وسعة الصدر والأمل العريض .

لذلك لا أغالى اذا قلت ان هذه البداية التى نقدمها اليوم للقارئ انما تبشر بانتاج عريض وجهد خلاق مجدد فى البحث والتفكير سوف يغنم منه كل قارئ وكل دارس لعلم الاجتماع على امتداد رقعة الوطن العربى .

والله يوفقنا الى مافيه الخير والسداد .

محمد الجوهرى

# الباب الأول

## حول مفهوم النظرية السوسيولوجية
## مدخل نظرى

### المحتويات

## تمهيد

يشكل تخلق النظرية فى بناء العلم داله على نضج البناء الفكرى واكتماله . وبرغم ان النظرية هى المكون الاخير الذى يكتمل به بناء العلم ، إلا أنها تظل الوحدة القادرة على منح العلم هويته ، والفعالة فى توجيه انجازاته وحركته فى دراسة الظواهر التى تشكل مجال فاعلية العلم وإطار بحثه وادراكه . ويرجع كون النظرية هى الوحدة الأخيرة التى يكتمل بها بناء العلم لعاملين ، الأول أن المراحل الأولى للعلم تتميز بمحاولة تلمس المعطيات المتعلقة بالظواهر الواقعية لادراكها ، والوصول من خلال هذا الادراك إلى مجموعة من التعميمات التى يمكن ان تشكل بعد تجريدها واعادة تنظيمها اساساً لبناء النظرية ، وهو مايعنى أن العلم فى سعيه لاستكمال نظريته ابتدأ من تلمس المعطيات الواقعية وانتهى الى الوصول الى القضايا المجردة . ويتمثل العامل الثانى فى اعتبار امتلاك العلم لقدر من المعرفة التى تشكل كيانه شرطا اساسيا لامتلاكه نظريته ، اذ تعتبر النظرى فى هذا الاطار وسيلة لتنقيح المعرفة ، واعادة تنظيمها وفرض الرمزية عليها . ومن ثم فامتلاك العلم للمعرفة يعتبر الشرط الأساسى والضرورى لامتلاك النظرية التى تعد بطريقة اخرى هى ذات المعرفة ولكن على مستوى أكثر كثافة وأكثر تنظيما .

وحتى يكتمل بناء النظرية ، فاننا نجده يمر عادة بأربعة مراحل تسلم كل منها إلى الأخرى . فى المرحلة الأولى نجد أن الجهد العلمى لعدد من الباحثين فى مجال معين من مجالات العلم يثمر مجموعة من القضايا أو الفرضيات التى يمكن ان تتكامل لتصبح توجهاً أو موقفاً فيما يتعلق بمشكلة واقعية محددة . بحيث يبدأ الباحثون فى الاستشهاد بهذه القضايا حين تناول ظواهر أو مشكلات مماثلة سواء فى عمليات الوصف أو التحليل أو التفسير لهذه القضايا ، وقد يستغرق الباحثون فترة طويلة فى اختبار هذه القضايا واعادة اختبارها وصياغتها حتى تصبح صالحة أو مؤهلة لتكون وحدة مكونة فى أى من الأبنية النظرية التى قد تتشكل .

فإذا تكاثرت القضايا ، واذا تجانس المجال الواقعى الذى تجرد عنه هذه القضايا ، فإنها تنتظم لكى تشكل نموذجاً نظريا يؤسسه باحث مبدع ، لكى يستخدمه فى عمليات البحث التالية أو يستخدمه الآخرون ، أو يؤسسه باحث تأسيسا اراديا ومؤقتا كى يستفيد منه فى عمليات تنظيم المادة الواقعية وتحليلها وتفسيرها بما يبرز مجموعة من القوانين الحاكمة لها . غير ان هذا الجهد من شأنه اذا تكرر من قبل عدد من الباحثين فإنه يؤدى الى نتيجتين ، الأولى اعادة إختبار قضايا النموذج النظرى بما يحدد الثقة فى كفاءتها العلمية ، والثانية استيعاب

النموذج النظرى لقضايا جديدة فى بنائه بما يساعد على توسيع نطاقه والاقتراب من نقطة التحول من نموذج نظرى الى نظرية علمية ، وهو مايؤكد القول الذى يذهب الى التأكيد بأن النموذج النظرى يشكل قنطرة العبور الى النظرية العلمية .

وبتكاثر النماذج العلمية على خريطة العلم فإنه يعتبر دالة على كثافة الجهود العلمية والبحثية التى تبذل فى نطاق العلم ، وأيضا على بداية التفاعل بين النماذج النظرية المختلفة ، بحيث يؤدى هذا التفاعل عادة الى تولد نماذج جديدة ، غير ان هذه النماذج على كثافتها ، وقدرة تكاثرها ، مازال كل منها قادر على ادراك وفهم أى من جوانب الواقع الاجتماعى . واذا كانت النماذج النظرية تشكل على هذا النحو مجموعة من الجزر المنعزلة التى قد تعكس بعض جوانب الواقع غير أنها تعجز عن تصويره وادراكه فى كليته . فإننا نجدها – كإتجاه عام – تتجه نحو الاتصال ببعضها البعض ، وهذا الاتصال الذى يسلم عادة الى أى من الأبنية النظرية سواء كان البناء النظرى – التى اسلمت اليه – من نوع النظريات المتوسطة المدى أو البعيدة المدى .

فإذا اتصلت مجموعة من النماذج النظرية بعضها البعض لتشكل بناءاً نظريا أكثر شمولا ، فإن ذلك من شأنه ان يقود مجموعة اخرى من النماذج لتشكل هى الأخرى نظرية اخرى ، مناظرة ، أو بديلة ، أو حتى مناقضة للنظرية الأخرى . وهنا نجد ان العلم قد دخل مرحلة جديدة تماما هى مرحلة النظريات المتعددة أو المدارس الاجتماعية ، التى تحتوى كل منها على عدد من النظريات التى تتميز بطبيعة واحدة ، كالمدرسة الوظيفية التى تضم نظريات دوركيم ، وبارسونز ، وميرتون ، أو مدرسة الصراع التى تضم النظرية الماركسية ، والماركسية المحدثة ، اضافة الى نظرية رالف دارندورف ، ولويس كوزر ، أو المدرسة النقدية التى تضم نظريات كل من ماكس هوركهايمر ، وتيودور أدورنو ، وهربرت ماركيوز وجيرجون هابير ماس ، إضافة الى س . رايت ميلز . وفى مرحلة المدارس أو النظرية المتعددة ، فإننا نجد أن كل نظرية من هذه النظريات تحاول من خلال البحث الواقعى والميدانى ان تعيد اختبار قضاياها ، لتطور هذه القضايا وتوسع فى ذات الوقت من نطاق بنائها النظرى ليستوعب قضايا من النظريات الأخرى أو المقابلة كما فعل روبرت . ك . ميرتون حينما حاول دعم نظريته الوظيفية حينما استعار بعض المفاهيم الأكثر تجانساً مع منظورات الصراع ، كمفهوم التناقض ، ومفهوم الأداء الوظيفى المعوق ، والأداء الوظيفى المتعدد ، والوظائف البديلة والوظائف الكامنة ، بحيث جعل الاتجاه الوظيفى أكثر قدرة على تناول قضايا الصراع والتغير . أو مافعله منظروا المدرسة

النقدية ، وبخاصة منظروا مدرسة فرانكفورت ، حينما اتجهوا الى استخدام ادوات البحث الامبيريقى أو الميدانى ، وهى الأدوات التى طورها علم الاجتماع الغربى . اضافة الى ذلك تحاول النظريات المختلفة خلال هذه الفترة اثبات زيف قضايا النظريات الأخرى أو المضادة ليس من خلال منطق ايديولوجى ، ولكن من خلال ممارسة علمية ، وذلك مثلما فعل س . رايت ميلز فى انتقاداته للبارسونزية ، أو حينما فعل تالكوت بارسونز حينما حول البرهنة على رؤية ماركس المختزلة للصراع .

ونحن الآن على أعتاب المرحلة الرابعة ، حيث الساحة فى علم الاجتماع ممتلئة بعديد من النظريات التى تمتلك تصورات مختلفة للواقع ، يصل اختلافها احيانا الى حد التناقض . ومن المنطقى ان يساعد الجدل والحوار بين هذه النظريات المتعددة الى الوصول الى النظرية العامة أو الشاملة للعلم ، بحيث يرمز ذلك الى تعميد علم الاجتماع كعلم بين العلوم .

ومن المعتقد انه قد بذلت محاولات متنوعة من اجل الوصول الى الالتقاء بين هذه النظريات العديدة والمتنوعة . وقد تجلت هذه المحاولات من خلال استراتيجيات متنوعة . تمثلت أولها فى البحث عن مناطق الالتقاء فى هذه النظريات ومحاولة صياغة تكامل بينها ، لتخليق بناء نظرى جديد يضم أفضل مابهذه النظريات المتعددة احد هذه الآليات كمحاولة التأكيد على التكامل بين الصراع الذى تقول به الماركسية والتوازن الذى تؤكد عليه الوظيفية فى اطار صياغة نظرية جديدة كتلك التى قال بها فان دنبرج ، أو ن . ج . دى ميراث . غير ان الخطأ الذى يكمن فى هذه الاستراتيجية يتمثل فى محاولة جمع قضايا تعكس رؤية مستقطبة ومتطرفة للحقائق ، ومحاولة دمجها صوريا مع بعضها البعض وعلى الرغم من إمكانية هذا الدمج الصورى ، إلا انها سوف تظل عاجزة امام تنوع التفاعل الواقعى ، الذى قد يقع اغلبه فى منطقة الوسط وليس على مواضع الأطراف .

وتعتبر النزعة التوفيقية الاستراتيجية الثانية ، حيث تحاول هذه النزعة التأكيد على مواضع الالتقاء أو الميل إليه بين النظريات العديدة ، إذ تؤكد هذه المحاولة على المواضع التى يمكن التوفيق بينها ، وهى عادة القضايا التى تقع على هامش بناء النظرية أكثر من التأكيد على القضايا المميزة للنظرية أو تلك التى تكسبها طبيعتها . كالقول مثلا بأنه برغم تأكيد الماركسية على الصراع إلا أنها يمكن أن تطور تصوراً للتوازن كذلك ، وانه اذا كانت الوظيفية الأنثروبولوجية أو الوظيفية فى مراحلها الأولى قد أكدت على مفاهيم التوازن والاستقرار ، فإن الاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع فى مراحله الاخيرة وبخاصة فى نطاق المجتمعات الصناعية

قد استطاع ان يطور تصوريا لظواهر الصراع والتغير ، بحيث تتكامل هذه التصورات مع القضايا المؤكدة على التوازن داخل هذا الاتجاه ، بيد أننا نجد أن هذه الإستراتيجية تغفل القضايا المحورية داخل هذه الأبنية النظرية ، اضافة الى كونها تتجاهل الأصول الابستمولوجية المتباينة لأى من هذه النظريات .

على خلاف ذلك تتمحور الاستراتيجية الثالثة حول سعى الباحثون فى مختلف النظريات نحو تطوير أطرهم النظرية بحيث تشكل هذه الأطر النظرية محور النظرية الشاملة التى تشكل وعد علم الاجتماع . وهم فى ذلك يمارسون آليات متنوعة ، أبرزها اخضاع قضايا النظريات المضادة أو المقابلة لعمليات التأمل التحليلى والمنطقى وكذلك لمعطيات الواقع الامبيريقى ، لتحدد ماهو صادق بها ، وما تجاوزه الواقع ، ثم بعد ذلك محاولة استيعاب القضايا النظرية الصادقة بهذه النظريات فى ابنيتهم النظرية ، ذلك فعله روبرت ميرتون ، وحاوله لويس كوزر فى إطار الاتجاه الوظيفى ، حيث أعطوا اعتباراً لقضايا الصراع والتغير ، وحاوله رواد المدرسة النقدية فى علم الاجتماع ، فأكدوا ان النظام الاجتماعى وليس الطبقة الاجتماعية ، هو الوحدة أو الكلية الشاملة التى يمكن ان ندرس بالنظر اليها أية وقائع جزئية .

وبغض النظر عن تقييمنا لكفاءة أى من هذه الاستراتيجيات كطريق للوصول الى النظرية العامة للعلم ، فإننا نعتقد ان الوصول الى النظرية العامة للعلم مرهون بضرورة مراعاة ثلاثة شروط . ويتمثل الشرط الأول فى ضرورة تجنب الجدل الأيديولوجى كمدخل لصياغة الالتقاء بين هذه النظريات المتعددة . ويرتبط بذلك ضرورة تجنب الجدل الأيديولوجى فى اطار مناقشة القضايا النظرية ، حيث قد يجهل البعض الحدود الفاصلة بين القضايا ذات الطبيعة العلمية للنظرية الاجتماعية ، وبين المتضمنات الأيديولوجية للنظرية ، واذا كانت الوظيفة الايديولوجية للنظرية هى احدى وظائفها – باعتبار اننا نتعامل مع المجتمع – فان من الاخطاء الفادحة ان نتناول النظرية باعتبارها كيانا كليا من خلال احدى زواياها الجزئية ، ونستطيع القول بأن اللعب على الوتر الايديولوجى للنظرية – باعتباره الوتر الرئيسى – كان احد الممارسات التى أعاقت نمو النظرية الاجتماعية على نطاق واقعنا العربى .

ويؤكد الشرط الثانى على ضرورة التزام النظرية بحركة متغيرات الواقع . وسواء كانت النظرية هى التى تتولى توجيه التفاعل الواقعى لترشيد حركته ، أو كانت تحاول فهم هذه الحركة . فإنها ينبغى ان تظل ملاحقة لحركة هذا الواقع وتفاعلاته المتجددة . بمعنى انه اذا كان الواقع يتجه الى الاستقرار فمن الخطأ ان نفرض عليه تصورات الصراع ، واذا كان

الواقع تسوده تفاعلات الصراع ، فمن المحظور ان ندعى انه يبحث عن التوازن ، علينا – نحن الباحثين – ان نكون اكثر امانة مع الواقع فتفاعلاته هى التى لها الأولوية ، وهى التى ينبغى ان تعكسها كافة القضايا النظرية . ان واقع النظام الدولى واقع متحرك الآن ، وكذلك واقع المجتمعات المحلية ، وعلى الأبنية النظرية ان تعكس – على الأقل – هذه الحركة ان لم تستطع ترشيدها وتوجيهها .

ويرتبط الشرط الثالث فى ضرورة الالتزام بأصول المنهج العلمى حين التعامل مع الأبنية النظرية . فإذا كان جهد المرحلة السابقة – من تطور النظرية الاجتماعية – قد تركز حول توفير القضايا والأبنية النظرية ، حيث لعب المنهج العلمى دوراً محوريا فى تنظيم المعطيات التى أفضت إلى تخلق هذه القضايا ، فإنه فى هذه المرحلة ينبغى ان يعيد فحص القضايا التى تشكل العناصر المكونة بالنسبة لمختلف النظريات ، بالنظر الى سياقات متباينة من الواقع ، بحيث يبقى على القضايا التى تعكس التفاعل الكائن فى غالبية هذه السياقات الاجتماعية . ذلك يعنى ان دور المنهج العلمى خلال هذه المرحلة يتمثل فى كونه يشكل المصفاه التى تنتقى من خلالها اكثر القضايا موضوعية . ولأن الواقع متكامل ، بغض النظر عن التناقضات الكامنة فيه ، فإننا نتوقع بناء نظريا متكاملاً وشاملاً سوف يكون الوعد المأمول بالنسبة لعلم الاجتماع ، والدالة التى تشهد على اكتمال تعميد هذا العلم بين العلوم .

وفى اعتقادى ان هناك قدر من المعوقات أو الممارسات التى اعاقت أوبالأصح عطلت سير النظرية فى هذا الاتجاه . من هذه المعوقات مثلاً تناول النظرية الاجتماعية من منطق ايديولوجى . فنظراً لأن النظرية الاجتماعية ، هى فى الغالب تعبير عن تفاعلات حدثت فى واقع اجتماعى محدد ، وهى قد تستخدم فى محاولة ادراك التفاعلات الكائنة بأى سياق اجتماعى – خاصة اذا كان متجانسا فى بعض جوانبه مع الواقع الذى جردت عن تفاعلاته – أو توجيه وترشيد هذه التفاعلات . ومن ثم فهى لابد ان تطور اتجاها نحو الواقع الحاضر ، الكائن ، وبنفس المنطق اتجاها نحو ماينبغى ان يكون . والخطأ كل الخطأ ان يغفل الباحث مسألة ان الواقع متحرك ومتجدد ، ويطرح متغيرات جديدة دائماً ، وان على هذه التفاعلات ان تنعكس بنفس القدرة فى بناء النظرية . إذا فعل الباحث ذلك فإنه يتخلى عن بعض علميته ليصبح مناصراً ايديولوجيا يرى الأفكار صادقة دائماً ، واذا تجاوز الواقع تصور النظرية فإن ثمة خطأ فى الواقع ينبغى ان يكتشف ، لتعاد المطابقة ثانية بين الواقع والنظرية . ولأن الواقع متحرك ، ومستمر فى التفاعل وفقا لقوانينه الخاصة ، فإن الباحث الذى يدعو لذلك يتجمد

ويجمد النظرية معه ، وكلما تحرك الواقع وطرح متغيرات جديدة ازدادت النظرية تخلفا عن متابعة حركته ، وازداد الباحث جموداً .

ويعتبر التأرجح الأخير الذى خضع له علم الاجتماع بين الاتجاه الوضعى والاتجاه المثالى ، أحد المعوقات التى أعاقت – بعض الشئ – نمو النظرية الاجتماعية نحو الاكتمال والنضج . ويتضح ذلك من الشوط الذى قطعه علم الاجتماع فى تاريخه الطويل . فمنذ نشأ التيار الأساسى لعلم الاجتماع بداية من سان سيمون وأوجست كونت وحتى الآن ، وهو يمارس ادراكه بالنظر الى المنطق الوضعى المستند الى منطق العلوم الطبيعية ، الذى يدرس الظواهر باعتبارها متماثلة الى حد كبير مع مادة العلوم الطبيعية ، وأنه من الضرورى اكتشاف القوانين التى تحكم تفاعل الظواهر الاجتماعية مع بعضها البعض . غير أنه بعد فترة طويلة من الجهد العلمى ، ادرك الباحثون فى علم الاجتماع أنه قد تراكم لديهم قدراً هائلاً من المعرفة وقدراً كبيرا من القوانين المتعلقة بهذه الظواهر ، إلا أنهم مع ذلك لم يحققوا درجة عالية من الضبط والتحكم فى المادة موضع الدراسة ، ومن ثم فهم فى غالب الأحيان عاجزون عن التنبؤ بأوضاع ظواهر الحاضر فى المستقبل . ومن ثم فقد تحول فى علم الاجتماع نمو المناهج الذاتية ذات الصلة بالفكر المثالى ، والتى تسعى الى فهم معانى الوقائع الاجتماعية سواء كانت أفعالاً أو انماط سلوك ، وهى الدعوة التى شكلت مثالية هيجل ، والفلسفة الوجودية ، وأفكار ماكس فيبر روافد لها ، وهى الروافد التى تبلورت أخيراً فى الفكر النقدى فى علم الاجتماع ، وهو الفكر الذى بدأته مدرسته فرانكفورت فى العشرينيات من هذا القرن .

# الفصل الأول

# التفكــير العــــلمى

# طبيعــته ومكـــوناته

## المحتويات

## مقدمة عامة

نشأت النظرية الاجتماعية فى إطار عملية من المراجعة الشاملة ، التى كانت انعكاسا لعدة تغيرات واقعية ، أبرزها تحرر الانسان من القهر الواقعى الذى فرض عليه من قبل تحالف قساوسة الكنيسة مع أباطرة السياسة . بيد أن عملية المراجعة هذه كانت لها قضاياها موضع الاهتمام فى كل مرحلة . ففى مرحلة التنوير تميز البحث الاجتماعى بمحاولة استكشاف الطبيعة الأساسية للانسان ، ثم أكثر أشكال البناء الاجتماعى ملاءمة لدعم امكاناته بما يجعل سلوكه ايجابيا فى تشكيل واقعه المحيط ، وبما يخلق امكانية أن يكون ناتج العملية الاجتماعية التى أسسها لصالحه . غير أنه فى أعقاب الثورة الفرنسية ظهرت الاتجاهات النظرية العامة ( المثالية الوضعية ، النفعية ، التجريبية ) التى تميزت أنساقها النظرية من حيث طبيعة ادراكها للواقع ونظرتها اليه ، وإن استمر اهتمامها الأساسى مركزا حول الانسان الذى يتحمل عبء العملية الاجتماعية ، ومن هو الانسان الذى ينبغى أن يستفيد من نتاجها ؟ . هل على الانسان أن يواصل الثورة التى بدأت حتى يخلق البناء الذى يساعد على تفجير امكاناته . أو عليه أن يتوقف ليفرض النظام والاستقرار على الواقع الذى ينبغى أن يكون خاليا من الصراع والتناقض ؟ .

وفى قلب هذه المرحلة نشأت بدايات النظرية السوسيولوجية ، التى كان من المنطقى أن تبحث عن هوية خاصة . هل يكون بناؤها على غرار الأنساق الفلسفية التى تدرك الواقع من خلال مقولات منطقية مصدرها العقل ، أو عليها أن تحذو حذو العلوم الطبيعية فيكون الواقع هو مصدر قضاياها وتجريداتها النظرية ، برغم انها اذا فعلت ذلك فانها قد تقدم على مخاطرة معاملة الانسان كالمادة الجامدة ، تدركه من خلال سلوكياته الخارجية دون محاولة أن تسبر أعماقه للبحث عن المعنى الحقيقى الذى يدفع الى هذا السلوك أو ذاك . أو عليها ان تتبع الاستراتيجية الامبيريقية الفجة التى تجعل من الباحث كائنا سلبيا فى مواجهة معطيات الواقع ، تحت دعوى « دع الحقائق تتحدث عن نفسها » . ويمكننا القول انه وان كان لهذه المواقف الخلافية تاريخها البعيد فان استمرارها يشير الى عدم نضج علم الاجتماع ، والى افتقاد تنظيره القدرة على تحديد هويته .

غير انه وان تميزت النظرية السوسيولوجية فى اطار المناخ الأوربى بازدهار الميل نحو الارتباط بالأنساق الفلسفية من ناحية أو محاولة تمثل العلوم الطبيعية فى منطق الادراك والبحث من ناحية اخرى . فان انتقال علم الاجتماع الى القارة الأمريكية جعله يسقط فى أسر

البراجماتية والميل نحو الارتباط بالنزعة الامبيريقية . وقد استمرت هذه وضعية علم الاجتماع بعد انتقاله الى الولايات المتحدة الى أن أيقظته أزمة الثلاثينيات التى أكدت لديه عدم جدوى البحوث الامبيريقية ذات الادراك الجزئى . ونتيجة لذلك تخلق لدى علم الاجتماع ميل واضح بضرورة تأسيس نظرية شاملة تيسر ادراك الواقع وفهمه وحمايته ونشأت البارسونزية فى هذا السياق . واستمر الحال على هذا النحو الى أن وقعت أحداث عالمية وواقعية كثيرة ابتداء من الحرب الفيتنامية ، وحركات الشباب فى الستينيات ، وبعض جوانب التأزم التى أصابت الواقع الرأسمالى من الداخل ، والتناقض بين واقع البلدان النامية والمتقدمة . بحيث دفع ذلك كله الى ظهور الفكر النقدى الذى اتخذ الأنساق النظرية القائمة هدفا مباشرا لهجومه .

وفى هذه المرحلة التاريخية قدمت حلول كثيرة لمواقف خلافية متعددة . ورغم ذلك مازالت هناك بعض المواقف التى استمر الخلاف بشأنها . من ذلك الخلاف حول المفاهيم الأساسية ، ثم الخلاف حول الاهتمامات الرئيسية التى ينبغى أن تكون موضع تركيز العلم . بالاضافة الى عدم ادراك الدور الحقيقى الذى يمكن للنظرية أن تؤديه فى إطار بناء العلم من حيث ترشيد البحث الامبيريقى أو تجريد المعطيات القابلة للتراكم ، ماهو المدخل الى بناء النظرية ، ثم ماهى المحكات التى تحكم أداءها فى مختلف المجالات .

واذا كان علم الاجتماع قد تأسس فى أعقاب الثورة الفرنسية ضمن مجموعة العلوم التى تأسست فى أعقاب انتهاء الفلسفة الميتافيزيقية . فإن ذلك قد أدى إلى طرح أنساقا معرفية جديدة تختلف من حيث مكوناتها عن الأنساق الفلسفية السابقة عليها . ويكشف التشريح الداخلى لنسق التفكير العلمى عن وجود أربعة مكونات أساسية . المكون الأول هو المعرفة العلمية سواء اتخذت الطابع المنتظم فى شكل نماذج أو نظريات أو هى تقترب من ذلك . أما المكون الثانى فهو المنهج العلمى كمدخل موضوعى لادراك الحقيقة الواقعية بما يتضمنه من أدوات بحث لتلمس هذه الحقيقة . ثم تصورا محددا لطبيعة الحقيقة الواقعية التى تشكل مجال الاهتمام المحدد لأى من النظم العقلية إضافة إلى إستعراضنا للأيديولوجيا بإعتبارها عنصراً له تأثيره على طبيعة المعرفة العملية ، وفيما يلى سوف نتعرض لطبيعة وملامح كل من هذه المكونات الأربعة .

## أولا : المعرفة العلمية ، طبيعتها وخصائصها

تشتق المعرفة العلمية طبيعتها من العلم كنسق ادراكى . والعلم هو المعرفة المنظمة بظاهرات الكون التى تم التوصل اليها وصياغتها باستخدام أسلوب أو منهج معين هو المنهج العلمى ، وهى ذات طبيعة تراكمية تمكن الانسان من التعامل بكفاءة مع البيئة الطبيعية (1) .

ويتميز العلم ، أو المعرفة العلمية بالتحديد ووضوح الأهداف والابتعاد عن مناقشة المسائل الفلسفية التى ليس لها أهمية امبيريقية (٢) . وسواء تشكلت المعرفة العلمية فى اطارات نظرية أو تخلفت عن ذلك فانها تتميز بالملامح الأساسية التالية :

(أ) تتميز المعرفة العلمية بأنها ذات طابع نسبى ، فالعلم لايعرف الصدق أو الحقيقة المطلقة (٣) . ذلك لأن القضايا التى يتم تجريدها عن واقع محدد قد لا تصلح لواقع آخر متباين بالنظر الى بعدى الزمان أو المكان ، ويستتبع ذلك أنها ذات ارتباط مباشر بالواقع لأنه أساس هدفها . وبذلك تشكل المعرفة العلمية نسقا مفتوحا من المعانى على عكس الأنساق المنطقية المغلقة التى تستمد صدقها من ذاتها . ومن ثم فالمعرفة العلمية هى وحدها القادرة على استيعاب متغيرات الواقع المتجددة والمتنوعة .

(ب) تتميز المعرفة العلمية بكونها ذات طابع موضوعى ، ويعنى ذلك أنها تتميز بالدقة والتحديد المعتمد على القياس ، وعدم التأثر بالتحيز الذاتى للباحث ، ولو أن هناك مداخل سوسيولوجية حديثة تؤكد على موضوعية المعرفة العلمية من خلال الاتصال الذاتى للباحث بالحقيقة موضع الاهتمام لإدراك معانيها . وهى بلا شك تختلف عن المعرفة الفلسفية من حيث كون الأخيرة ادراك ذاتى أساسا .

(ج) من خواص المعرفة العلمية أنها ذات طابع تراكمى ، اذ يعتبر العلم أكثر الانساق الفكرية اتاحة للتراكم ، حيث تبتكر المفاهيم الجديدة لكى تحل محل المفاهيم القديمة التى عجزت عن متابعة متغيرات الواقع المتنوعة ، يؤكد ذلك مايذهب اليه هوايتهيد بتأكيده أن العلم الذى يتردد فى نسيان رواده يفقد نفسه (٤) . وفى ذلك يختلف العلم عن الفلسفة التى تضم بناءات فكرية لاينفى أى منها الآخر وانما هى تتواجد فى نوع من التتابع التاريخى غير المتفاعل (٥) . فقد حلت المثالية محل الفلسفة المسيحية ، وظهرت الوجودية والماركسية ، ومع ذلك لم تلغ أى منها الآخر ، ومازال لكل منها روادها وأتباعها . ويختلف العلم فى ذلك عن نسق التفكير الدينى حيث يشكل الأخير مجموعة من القواعد المعيارية التى تأتى الى الانسان من خارجه .

(د) الى جانب ذلك تتميز المعرفة العلمية بالطابع الحتمى أيضا ، بمعنى أن ادراكها للواقعة يتم من خلال التركيز على العلاقات السببية لمكوناتها . ويعنى ذلك عمليا القول بأن سبب الظاهرة يكمن فى مجموعة الظواهر السابقة عليها ، أو الأسباب التى أدت الى وقوعها ، وتختلف الحتمية العلمية عن الحتمية الميتافيزيقية ، فى أن الأولى تبحث عن مسببات

الظاهرة فى الطبيعية – أيا كانت نوعيتها – بينما تبحث الحتمية الميتافيزيقية عن مسببات الظاهرة فيما وراء الطبيعة (٦) . وقد يختلف علماء الاجتماع فيما بينهم حول طبيعة هذه الحتمية ، هل هى حتمية جغرافية ، أو بيلوجية أو اقتصادية أو حتمية اجتماعية ، كما تذهب المدرسة الاجتماعية بريادة اميل دوركيم (٧) .

(هـ) بالاضافة الى ذلك تتميز المعرفة العلمية بأنها معرفة من الخارج ، فهى تدرك الظاهرة من خلال مؤشراتها الخارجية المرئية . وقد نقل علم الاجتماع هذه الخاصية عن العلوم الطبيعية . مثال ذلك دراسة دوركيم للانتحار عن طريق تحليل الاحصاءات كمؤشرات خارجية للظاهرة ، وتعنى الخارجية كخاصية للمعرفة العلمية ادراك الظاهرة من خلال مؤشراتها الخارجية . غير أنه برغم ذلك ظهرت مناهج حديثة فى علم الاجتماع تحاول أن تؤكد أن فهم الواقعة الاجتماعية ينبغى أن يتم من الداخل ، فهى فى ذلك تختلف عن مادة العلوم الطبيعية ، كالتفهم والمنهج الاثنوميثودولوجى ، ولو أنها تفتقد التقنين من حيث امكانية استخدامها فى اطار علم الاجتماع حتى الآن .

## ثانيا : المنهج كمكون فى نسق التفكير العلمى

يعتبر المنهج هو الوحدة الثانية فى نسق التفكير العلمى ، ومن الواضح أن علم الاجتماع استعار منهجيته من العلوم الطبيعية التى شهدت تقدمات منهجية واضحة ابان نشأة العلم . وبرغم ذلك نجد أن علماء الاجتماع قد أنفقوا الوقت الكثير فى مناقشة المنهج واستخدامه فى دراسة الظاهرة الاجتماعية . وكما لاحظ هنرى بوانكاريه Poincare منذ نصف قرن مضى ، أن علماء الاجتماع أصبحوا كهنة فى مسائل المنهج ، ومن ثم فقد أعاقهم ذلك عن بناء النظرية فى مستوياتها العينية . ويؤكد روبرت ميرتون أن التركيز على المسائل المنهجية وتطويرها يعكس متاعب علم لم ينضج بعد (٨) . وكما يذهب علماء الاجتماع فان التركيز على المنهج وتطويره شكل عائقا أمام تقدم النظرية فى علم الاجتماع ، وتسعفنا فى هذا الصدد عبارة بوانكاريه حينما كان بصدد فحص مناهج علم الاجتماع اذ أكد ( أنه العلم الذى يضم أكبر عدد من المناهج وأقل عدد من النتائج ) (٩) .

ويكشف النظر الى المنهج فى علم الاجتماع عن تضمنه لثلاثة مستويات أساسية :

(أ) أما المستوى الأول فهو المنهج بمعنى منهجية Methodology ويقصد به الدراسة الأكثر تجريدا للأسس المنطقية لنوع معين من المعرفة أو أحد نظمها ، وهذا الاستخدام يعالج المنهج من وجهة نظر فلسفة العلم .

وبذلك فان المنهج بمعنى Methodology يحدد المبادئ الرئيسية لأى كيان نظرى ، ثم أسلوب سير هذا الكيان فى عملية البحث العلمى وهو بذلك يؤكد على النقاط التالية :

(١) افتراض أن الكيان النظرى له مبادئه وقضاياه الرئيسية التى توجب على أى بحث علمى مستندا الى هذا الكيان أن يشتق فروضه الرئيسية منه ، ثم بعد ذلك يستخدم المقولات الرئيسية للكيان النظرى فى عمليات الوصف والتحليل والتفسير والتنبؤ .

(٢) أن هذا الكيان يهتم بالجانب التفسيرى ، الذى يمثل الهدف المحورى للعلم ، بل هو الأساس المنطقى لوجود البحث العلمى ذاته ، فبالتفسير تختبر الأفكار التى بدأ بها الباحث ، وتضاف أفكار جديدة بحيث تؤدى هذه الاضافة وذلك الاختبار الى تأكيد النموذج التصورى أو مراجعته وتعديله أو رفضه تماما (١٠) .

(ب) أما المستوى الثانى للمنهج فيتمثل فى المنهج بمعنى Methodologyical approach أى المدخل المنهجى ، وهو مستوى أقل من المستوى السابق . فاذا كان المستوى السابق يتعلق بالمبادئ الأساسية للاطارات النظرية فى علم الاجتماع فان هذا المستوى عادة مايستوحى هذه المبادئ فى اقترابه من الحقيقة الواقعية .. واذا كانت المداخل المنهجية تمثل اقترابات عامة من الحقيقة فإن كل منها يتضمن عادة عديدا من أدوات البحث ووسائله . ويشيع الغموض فيما يتعلق بهذه المداخل فى اطار النسق الفكرى لعلم الاجتماع وينعكس ذلك فى تحديد الكيانات الأساسية لهذه المداخل . فبينما نجد من يحددها بخمسة كالمنهج التاريخى، والمنهج الوصفى أو المنهج التجريبى ، ومنهج دراسة الحالة ، المنهج التتبعى ، أو المسح الاجتماعى (١١) ، نجد من يحددها أيضا بأنها المنهج التاريخى ، والمنهج المقارن والمنهج الوظيفى ، والمنهج الصورى والمنهج العلمى (١٢) . غير أن تحليل البناء المنهجى لعلم الاجتماع يكشف عن وجود ثلاثة مداخل منهجية أساسية هى المدخل أو المنهج التاريخى وهو الذى حل محل أسلوب الدراسة التطورية فى المرحلة التى سادت المرحلة غير المنظمة فى نظرية علم الاجتماع والذى يعتبر المنهج الجدلى أحد نماذجه ، ويعتبر تحليل مضمون الوثائق ، وتحليل آثار السلف ، والاحصاء وسائل لجمع البيانات التى يحتاجها هذا المنهج ويعتبر المنهج المقارن هو المدخل الثانى ، الذى نشأ بشكل فعال على يد كل من ماكس فيبر واميل دوركيم كوريث شرعى للاتجاهات التطورية والانتشارية معا ، وهو قد يستخدم النماذج المثالية كما عند ماكس فيبر أو النموذج المتوسط كما عند دوركيم بالاضافة الى امكانية استخدامه بالنظر الى أشكال أو عناصر بنائية عديدة . ويعتبر المدخل أو المنهج التجريبى هو

المدخل الثالث فى اطار علم الاجتماع ، وقد تمت استعارته بشكل تام تقريبا من العلوم الطبيعية، ويلجأ هذا المدخل الى وسائل منهجية كثيرة فى جمع معطياته منها الملاحظة ، والمقابلة ، واستخدام الاحصاء كأداة ، ووسائل القياس الأخرى .

(ج) وتعتبر أدوات أو طرق البحث Research Methods هى المستوى المنهجى الثالث ، وهى عديدة فى إطار علم الاجتماع . ويكشف البحث فى هذه الأدوات أن بعضها تمت استعارته من العلوم الطبيعية كالملاحظة بينما البعض الآخر أكثر ارتباطا بالعلوم الانسانية والاجتماعية جاءتها من الأنساق الفكرية السابقة عليها كتحليل المضمون مثلا .

وفى اطار دراسة البناء المنهجى لنسق التفكير العلمى تتبدى لنا ملاحظتان أساسيتان :

١ - أنه اذا نظرنا الى البناء المنهجى للعلم الاجتماعى وتكونه من ثلاث مستويات رئيسية فاننا نجد أنه كلما اتجهنا الى أعلى كان المستوى المنهجى أكثر خصوصية لأنه أكثر ارتباطا بالتوجيهات الأساسية أو القضايا الأساسية للعلم أو لبناءاته النظرية ، بينما نجد أنه كلما هبطنا الى أسفل حيث مستوى أدوات البحث سوف نجد أنه أكثر عمومية ومشاعية بين عديد من العلوم ، أو هى تشكل قاسما مشتركا بين كل ما ينتمى للبحث العلمى (١٣) .

٢ - أن التغير فى أى من مستويات البناء المنهجى لعلم الاجتماع لايعنى حدوث تغيرات مماثلة فى المستويات المنهجية الأدنى فتغير بعض الفرضيات العامة فى النظرية الماركسية أو البنائية الوظيفية لايعنى انتشار هذه التغيرات وترددها فى المستوى المنهجى الأدنى من خلال تغيرات تحدث فى اطار المنهج التاريخى أو التجريبى أو المنهج المقارن ، أو أن ذلك يؤدى الى تغيرات منعكسة فى أدوات البحث أو أسلوب تأسيسها . ويعنى ذلك افتقاد البناء المنهجى للعلم لأى نوع من الأحكام السبرنطيقى باعتبار أن قدرا كبيرا من هذه المنهجية تشارك فيه نظم عقلية عديدة .

## ثالثا : طبيعة الواقعة أو الحقيقة الاجتماعية

تعتبر الواقعة الاجتماعية أيا كان نطاقها أحد المكونات الرئيسية لنسق التفكير العلمى ، ومن وجهة نظر الفكر الاجتماعى تتميز الحقيقة الاجتماعية بعدة ملامح رئيسية نذكرها بايجاز :

(أ) ففيما يتعلق بتخلق الحقيقة الاجتماعية ، حيث تناقش هذه القضية طبيعة العلاقة بين الانسان الفرد كحقيقة جزئية وبين المجتمع كحقيقة كلية شاملة . هل البشر هم الذين شكلوا نقطة البدء – بتجمعهم – لنشأة الحقيقة الاجتماعية ، ومن ثم فهم الذين يخلقونها ولو فعلوا ذلك على غير رغبة منهم . فى مواجهة ذلك هناك من يؤكد أن الفرد ليس سوى تكوين بيولوجى ، والانسان بشخصيته وبالمعنى الذى نراه ونتعامل معه انما هو خلق اجتماعى ، وأن البعد الاجتماعى الى جانب البعد الذاتى موجود فى داخل الانسان منذ الولادة ، ومن ثم فحالة الاجتماع لها أسبقيتها وسموها أيضا (١٤) .

ويرتبط بذلك هل الحقيقة الاجتماعية كالحقيقة الطبيعية منفصلة عن الفاعل وأفكاره ، أم أن ذلك افتراض خاطئ فيما يتعلق بقطاع كبير من الحقائق الاجتماعية . واذا تأكدت الصلة بين الحقيقة الاجتماعية والفاعل الذى خلقها أو الذى خلقته ، هل يمكن أن تمسك الحقيقة الاجتماعية عن الوجود اذا أمسك بعض البشر عن الاعتقاد فى وجودها ، ذلك لأن البشر يعجزون – ان لم يكونوا ذهانيين Psychotic – عن الامساك بوجود الحقيقة الاجتماعية طالما أنها موجودة ، غير أن جزءا من الحقيقة الاجتماعية يتمثل فى مجموعة الأفكار التى للبشر فى اطارها (١٥) . وقد نشأت فيما يتعلق بهذه الخاصية مواقف خلافية داخل النظرية العامة لعلم الاجتماع ، فى اطار مناقشة المداخل الفردية والاجتماعية للحقيقة الاجتماعية ومايبرز التطرف فيما يتعلق بهذه الخاصية تباين مواقف دوركيم ، وفيبر والسلوكيين .

(ب) وتعتبر علاقة الكل بالجزء فيما يتعلق بالحقيقة الاجتماعية من الخواص الأساسية المميزة لها ، فى اطار ذلك نجد موقفين متباينين . اذ يذهب فريق الى أن الظاهرة الاجتماعية تشتق خصائصها من خلال الظواهر الأشمل التى تشكل جزءا منها ، وفيما يتعلق بالكيانات الاجتماعية – المجتمعات ، التنظيمات ، الأسر – فاننا نجد أنها عبارة عن بناءات تتشكل من العلاقات بين العناصر ، غير أن كثيرا من خصائص هذه العناصر لايمكن فهمها منعزلة عن المشاركة فى الكل . فأنساق السياسة تتكون من القادة ، والأتباع والأحزاب

والمشرعين وما الى ذلك ، غير أنه لايمكن أن توجد أى من هذه العناصر بخصائصها خارج الأنساق السياسية (١٦) . فى مواجهة ذلك نجد موقفا آخر يؤكد أن الكليات تكتسب خصائصها من العناصر المشكلة لها ، فاذا نظرنا الى الكليات الاجتماعية فسوف نجد أنها تتكون من مجموعة الأدوار والمكانات التى تشغل وتنجز بواسطة البشر الأفراد ، أو مجموعاتهم . ومن ثم فمن الصعب ادراك الكليات الاجتماعية بدون الأفراد فى مكاناتهم الاجتماعية ، فى مقابل أن المراكز الاجتماعية للبشر لايمكن ادراكها بدون الكليات الاجتماعية . وذلك يرجع الى أن الظواهر الاجتماعية الى حد كبير نتاج عقلى . ولايعنى ذلك أن خصائص المجتمع تنبثق بصورة مباشرة عن السلوكيات والأفكار الفردية ، وانما هى تنتج من خلال التفاعل الاجتماعى حيث تتخلق خصائص جديدة غير خصائص المشاركين فى التفاعل (١٧) .

ولقد تباينت مواقف النظرية السوسيولوجية فيما يتعلق بخصائص كل من الكل والجزء ، وماهو مصدر اكتساب كل منهما لخصائصه ، وظل كما هو موقفا خلافيا لم تحسمه النظرية العامة لعلم الاجتماع .

(ج) ويعتبر ترابط ظاهرات الكون من الخواص الأساسية المميزة للظواهر الطبيعية ومن بينها الظواهر الاجتماعية ، ذلك لأن الكون فى ثباته واستمراره لايخضع للعشواء أو الصدفة ، وانما يخضع لقوانين دقيقة ينتظم بالنظر اليها ، وهى مقولة تمت استعارتها عن العلوم الطبيعية ابان نشأة علم الاجتماع ، وتشكل هذه الخاصية موضع اتفاق بين مختلف النماذج النظرية لعلم الاجتماع ، تستوى فى ذلك الوضعية أو المادية الجدلية . حيث يدعم كلاهما الترابط الذى يدعمه وجود علاقات سببية بين أطرافه . بيد أن الخلاف الرئيسى فيما يتعلق بهذه الخاصية يدور حول اتجاه السببية أساسا .

(د) أما الخاصية الرابعة التى تتميز بها الظاهرة الاجتماعية فتتمثل فى تميزها بالاستمرارية والثبات . فجميع ظاهرات الكون فى تغير دائم ، غير أن هذا التغير لايحدث على شكل قفزات مفاجئة أو أحداث عرضية عشوائية ولكنه يتبع نظاما ثابتا نسبيا (١٨) . وبرغم ذلك فقد نشأ خلاف حول هذه الخاصية أيضا يتعلق بالحالة الأساسية للوجود الاجتماعى هل هى الثبات أو التغير أو التوازن المتحرك على مايذهب بارسونز مثلا .

(هـ) أما الخاصية الأخيرة فتتمثل فى أن الحقيقة الاجتماعية ذات وجهين متقابلين عادة ، حيث نجد الصراع فى مواجهة التكامل كوجهين متضادين . وهناك يأس فى مجرد جمع هذه الجوانب فى اطار نظرى واحد ، وهو مايعنى ترك اختيار الحقيقة وفقا لهوى الباحث (١٩) .

وهى ملاحظة قد نختلف معها لأن الخبرة بالحقيقة لايمكن أن تكون منقسمة على ذاتها وانما هى تبدو كذلك بالنظر الى تصور نظرى ما ، وهو بطبيعته ادراك جزئى لها مثلما يذهب فيبر ، الذى يؤكد أننا قد نتباين بشأن حقيقة ما لاختلاف الزاوية التى ننظر من خلالها إليها . وهى بالطبع مسألة يحكمها الاطار النظرى للباحث .

ويمكن أن تعزى هذه المواقف الخلافية بشأن خصائص الظاهرة الاجتماعية الى عوامل أساسية ثلاثة :

١ – طبيعة التصورات التى تضمنتها مختلف النماذج النظرية بشأن الحقيقة الاجتماعية ، وهى تصورات ورثتها عن الاطر الفلسفية السابقة .

٢ – اختلاف منطق تناول الحقيقة الواقعية بالنظر الى سائر المواقف النظرية ، فبينما استعانت الوضعية بمنطق العلوم الطبيعية فى التناول ومن ثم كانت أميل الى تناول العناصر والتركيز على الرؤية الجزئية للحقيقة ، ارتبطت المثالية بالتناول الكلى والتحليلى للحقيقة موضع الدراسة .

٣ – تخلف البحث الاجتماعى بأسسه الموضوعية ، أعاق الاتفاق حول الخصائص الأساسية للحقيقة الاجتماعية . فلم تجر البحوث حول المواضع الخلافية ، بحيث ييسر البحث حسم هذه القضايا لصالح اكتمال نسق التفكير العلمى وتطوره .

## رابعا : الأيديولوجيا والمعرفة العلمية فى علم الاجتماع

تعتبر المعرفة العلمية عنصرا فى التراث الثقافى للجماعة أو المجتمع . وهى بهذا المعنى تؤدى فاعليتها على مستويين ، المستوى العلمى ، حيث تفاعل عناصر المعرفة العلمية مع بعضها البعض يدفع الى التراكم أساس التقدم أو التطور العلمى . اضافة الى ذلك فإن للمعرفة العلمية فاعليتها على مستوى الجماعة أو المجتمع ، فهى أساس التكنولوجيا التى تيسر حياة الجماعة ، وهى فى العلوم الانسانية اساس عقل الجماعة التى تستعين بها فى تشكيل تصورها لمختلف القضايا والتفاعلات سواء على المستوى الداخلى أو الخارجى . فى هذا الاطار فإن المعرفة الانسانية العلمية يمكن أن تلعب دورها فى خدمة أهداف الجماعة أو المجتمع ، ومن ثم تتحول الى افكار تخدم مصالح الجماعة ، وتصبح ايديولوجيا بالنسبة للجماعة . ذلك يعنى ان المعرفة العلمية والنظرية الاجتماعية ، يمكن أن تتضمن عنصرين ، العنصر الأول هو العنصر المعرفى ( الأبستيمولوجى ) وهو المتعلق بالمعرفة بإعتبارها مجموعة من الحقائق العلمية المتعلقة بنطاق

معين والظروف التى تحكم تخلقها وتفاعلها ، أما العنصر الثانى فهو الأيديولوجيا ، وهو الدور الذى يمكن أن تلعبه المعرفة فى تطوير حياة الجماعة أو فى تبرير مصالحها وأهدافها وسلوكياتها على الصعيد الداخلى أو الخارجى .

واذا كانت الايديولوجيا هى موضع اهتمام هذه الفقرة ، فإننا نرى ضرورة تحديدها بداية ، وهو التحديد الذى طرحت له تعريفات كثيرة . ومنذ البداية يشير مصطلح الأيديولوجيا الى نسق من الأفكار بشأن الظواهر ، ولاسيما ظواهر الحياة الاجتماعية ، أو هى طريقة التفكير المميزة لفرد أو طبقة أو أمة . وعند كوندياك يشير المصطلح الى علم الأفكار ، أى دراسة أصل الأفكار وطبيعتها ، وهى الأفكار التى تستمد فى مذهب كوندياك من الاحساس وحدة (٢٠)

ويؤكد هنرى أيكن أن مفهوم الأيديولوجيا عند ماركس وإنجلز - وهما اللذان اثارا الاهتمام بالأيديولوجيا - لايشمل نظرية المعرفة السياسية فحسب ، بل يشمل أيضا الميتافيزيقا والاخلاق والدين ، والالتزامات السياسية ، وأى تعبير عن المواقف المتعلقة بطبقة معينة (٢١) . بينما يعرف تالكوت بارسونز الأيديولوجيا بأنها نسق الأفكار الموجهة التى لها أصل امبيريقى ، تلك التى تمنح الانسان تفسيرا للطبيعة الامبيريقية للجماعة ، وللمواقف التى تواجهها ، والعمليات التى تقع فى الحالة الراهنة ، ثم الأهداف التى يتوجه نحوها الأفراد جماعيا ، وكذلك علاقة الجماعة بالأحداث المتوقعة فى المستقبل (٢٢) .

ويكشف التأمل الدقيق لهذه التعريفات ، أن الايديولوجيا تتعلق بكيان الجماعة ، وبأهداف هذه الجماعة ، سواء كانت طبقة أو أى تجمع آخر ، ولها فى العادة علاقة بمستقبل الجماعة ، ومن ثم يشارك فيها غالبية أعضاء الجماعة . وإرتباطا بذلك يحاول هارى جونسون Harry Johnson تحليل الايديولوجيا الى العناصر الأساسية التالية :

١ - فهى تضم الأفكار التى تلقى اتفاقا عاما بين الجماعة وتتعلق ببنائها ، والعمليات التى تقع بداخلها ، سواء تعلقت بالتفاعلات داخل الجماعة أو بتلك الأحداث التى تقع على الصعيد العالمى ولها صلة ببناء المجتمع .

٢ - الأفكار الشائعة التى تلقى اتفاقا عاما وتتعلق بتاريخ المجتمع .

٣ - التقويمات العامة التى تلقى قبولا عاما وتتعلق بالحقائق موضع الاتفاق .

٤ - القيم والأهداق التى يتفق عليها أعضاء المجتمع ، بذلك تشكل الأيديولوجيا نسقا من المعتقدات والأفكار .

ذلك يعنى أن الايديولوجيا ترتبط وظيفيا بكيان الجماعة . إذ تعمل على تأكيد تماسكه ودعمه والحفاظ عليه والدفاع عنه فى مواجهة المجتمعات أو الجماعات الأخرى ذات الايديولوجيات المضادة . ذلك يعنى أن دورها يتعلق بتكامل المجتمع أو أى من جماعاته الفرعية . إضافة الى ذلك قد تحدد الأيديولوجيا للجماعة اتجاهها المعرفى والادراكى فيما يتعلق بأهداف معينة أو بوسائل تحقيق هذه الأهداف . إلى جانب ذلك تحتوى الأيديولوجيا على رموز الجماعة ، والارتباط بالأيديولوجيا يكون أقوى مايكون عادة فى الحالات التى تواجه فيها الجماعة صراعاً داخليا أو خارجيا (٢٣) . ذلك يعنى أن تصبح الأيديولوجيا احدى وسائل الجماعة فى تجاوز حالة الصراع هذه لتتمكن من تحقيق حالة التكامل والاستقرار من جديد .

ووفقاً للتحديدات السابقة فإنه من الممكن ان يكون بالمجتمع الواحد أكثر من أيديولوجية ، فكل جماعة لها ثقل اجتماعى ، أو وزن سياسى ، أو منظمة مهنية يكون لها ايديولوجيا محددة . وإلى جانب أن بالأيديولوجيا بعض الحقائق الامبيريقية التى تستند اليها ، فإن بها بعض العناصر العاطفية ، وكذلك عنصراً لاعقلانيا أو صوفيا كما هى الحال فى الدين كمكون من مكونات الايديولوجيا (٢٤).

وهناك مجموعة من الايديولوجيات الاساسية التى تعرف عليها الفكر الاجتماعى ، أبرزها الايديولوجيا الرجعية ، والمحافظة والثورية والراديكالية والمضادة .

وتعتبر الايديولوجيا الرجعية هى الايديولوجيا التى تعمل على استعادة النظام الاجتماعى الذى كان مسيطراً فى الماضى . إذ نجد أنه عقب كل ثورة ، تظهر مجموعة من البشر الذين يمثلون النظام المنهار ولهم مصالحهم فى إطاره ، تؤيد العودة الى النظام السابق الذى حطمته الثورة وأطاحت به ، وهم يعملون جاهدين على تحقيق ذلك .

وتعد الايديولوجيا المحافظة هى الايديولوجيا التى تحاول الحفاظ على ماهو كائن ، وتطالب الأفراد فى المجتمع بالخضوع له . ذلك يعنى أن الايديولوجيا المحافظة تبرر وجود النظم القائمة وتدافع عنها ، وبخاصة تلك النظم التى لها علاقة بالحكومة أو الاقتصاد أو البناء الطبقى وهى العناصر التى تهاجمها عادة الايديولوجيا الثورية .

أما الايديولوجيا الثورية أو الراديكالية ، فهى تلك الايديولوجيا التى تعمل دائماً على مهاجمة النظام الاجتماعى وتسعى دائماً الى تغييره . ومن ثم فهى تقوم فى العادة بتوجيه النقد الى النظام القائم أو أى جوانبه ، ثم تحاول تقديم برنامج بديل لما هو موجود ، ومن ثم فهى تؤكد بشدة على الخضوع لهذا البرنامج الراديكالى ، وللأعضاء القائمين بالحركة الثورية (٢٥).

إلا أنه برغم أن الجماعة الثورية تعمل على الاطاحة بالنظام القائم أو أى جوانبه ، إلا أنها قد تبقى على بعض عناصر النظام القديم أو تحافظ على بعض القيم السائدة والموجودة فعلا ومن ثم فهى تشترك مع الايديولوجيا المحافظة فى الابقاء على هذه العناصر موضع القبول بين الاثنين

وهناك مايمكن أن نطلق عليه الايديولوجيا المضادة ، وهى تلك الايديولوجيا التى تبرز وجهة نظر الجماعة الرافضة للأيديولوجيا السائدة والنظام الاجتماعى القائم ، ولكن بدون أن تحاول هذه الايديولوجيا العمل على تغيير بناء المجتمع (٢٦) . وإن كانت هناك إحتمالية ان تعمل على ذلك اذا تحقق لها انتشار أو قبول جماهيرى .

وفيما يتعلق بعلاقة الايديولوجيا فى العلم فإننا نجد وجهتى نظر . وجهة النظر الأولى التى تؤكد أن الايديولوجيا لها صلة أو علاقة بالنظرية الاجتماعية ، وقد يصل تطرف هذا الموقف الى القول بأن الايديولوجيا قد لعبت دوراً محوريا فى بناء بعض النظريات ، بل كانت وراء بلورة كثير من القضايا النظرية . ويعتبر ارفنج زايتلن هو أفضل ممثل لوجهة النظر هذه ، حيث يعتبر الفكر الوضعى رداً على الفكر النقدى ، ومن ثم فهو يصور نظريات كل من دوركيم وفيبر وباريتو وموسكا باعتبارها مشروعات نظرية قامت للرد على النظرية الماركسية (٢٧) . ويحاول ألفن جولدنر دعم هذه الحقيقة بتأكيده أنه من الصعب أن تجد عالم اجتماع أبيض ذو شهرة يتجه للتدريس فى كليات الجنوب الأمريكى . ومايصدق على عالم الاجتماع ينسحب على النظرية الاجتماعية ، حيث يراها على أنها تزييف لما يتبدى فى الواقع . وفى العادة ينظر الراديكالى الشاب الى النظرية الاجتماعية وعلم الاجتماع الأكاديمى باعتبار أنهما يجعلان الحياة غامضة ، وأنهما يشكلان ايديولوجيا متميزة للحالة الراهنة ، تسعى للحفاظ عليها كما هى (٢٨) .

على خلاف ذلك نجد وجهة نظر مضادة ترى أنه من الضرورى الفصل بين العلم والايديولوجيا باعتبار أن كل منهما ينتمى الى نطاق مختلف . ويعتبر دون مارتندال من المفكرين الذين يؤيديون وجهة النظر هذه ، حيث يؤكد ان القضية التى تذهب الى ان علم الاجتماع كان فى البداية جزءاً من ايديولوجيا محافظة ليس هجوماً على علم الاجتماع أو دفاعاً عنه . وذلك يستند الى انه اذا قيل على نطاق ما بأنه ايديولوجيا ، فإن هذا النطاق يحرم من كونه علما ، ذلك لأنه من طبيعة العلم أنه يمنح الموافقة النهائية على أى تعميم بالاستناد الى المحكات

الموضوعية التى يحتويها أى علم من العلوم ، ثم يؤكد أن بقاء علم الاجتماع ونموه مرهون بقدرته على صياغة معايير علمية ومهنية .

وبصورة أكثر وضوحاً يؤكد ريمون أرون على أنه من الضرورى أن نميز بين النظرية والمنهج العلمى المتصل بالواقع الاجتماعى من ناحية وبين الايديولوجيات أو التصورات الخاطئة والمتميزة والناتجة عن المواقف الطبقية التى تحرم الانسان من ادراك الحقيقة أو تحرفها أمام ادراكه من ناحية أخرى . ومن ثم يصبح من الضرورى أن نقيم إنفصالا بين أنماط التفسيرات العقلية المختلفة وأن ندرس علاقتها بالواقع الاجتماعى ، ثم يؤكد أنه لكى نتجنب الخلط والعمومية فإننا يجب أن نؤكد على مسألتين ، الأولى ، أن هناك مجالات يصل فيها الفكر البشرى الى الحقيقة الصادقة للجميع ، وليست تلك التى يعتقد صدقها على طبقة واحدة . والثانية ، أن هناك مجالات يكون الانتاج العقلى فيها له قيمة بالنسبة لكل البشر فى كافة المجتمعات على حد سواء (٢٩) وهو يؤكد على العلم باعتباره انتاجاً عقليا من هذا النمط .

ذلك يعنى أنه فيما يتعلق بالعلاقة بين الايديولوجيا والنظرية الاجتماعية فإننا نواجه بموقفين ، الأول يؤكد على التداخل بين عنصرى الايديولوجيا والابستيمولوجيا فى بناء النظرية ، بينما يؤكد الموقف الثانى على انفصال هذين العنصرين . ونحن أكثر ميلاً الى الموقف الثانى لمجموعة الاعتبارات التالية .

ويتعلق الإعتبار الأول فى عدم عضوية العلاقة بين الايديولوجيا والنظرية الاجتماعية كنظرية علمية ، وذلك لأنه حتى وان ترابط الاثنان معاً فى مرحلة من مراحل تطور النظرية أو الواقع الاجتماعى ، فإن الاتساق بين تصور النظرية وطبيعة الواقع لن تستمر طويلاً ، ذلك لأن الواقع متغير ، يفرض تغييرات على النظرية فى جانبها المعرفى ، ومن ثم يزيد الانفصال بين عنصرى الايديولوجيا والمعرفة . ذلك يعنى ان الاتحاد بين العنصرين وان وجد فى مرحلة معينة إلا أن العلم كنسق يمتلك من الميكانيزمات التى تؤدى فعاليتها الى إلغاء أية مكونات ايديولوجية لاتحمل طابعه .

ويتمثل الاعتبار الثانى فى التاكيد على أن الايديولوجيا تعتبر موقفا جماعياً يشترك فيه كافة أعضاء الجماعة أو أغلبيتها ، ويرتبط موقفهم على هذا النحو بتحقيق أهداف تتعلق بكيان الجماعة . وتتولى قيادة المجتمع دعمها فى شخصية الأفراد من خلال التطبيع الاجتماعى أو من خلال الدعاية والاعلان والاعلام ، وسائر وسائل الاتصال العامة ، بينما يتميز العلم بكونه يعبر عن نتاج خاص لمجموعة محدودة ومتميزة من الباحثين ، ويرتبط هذا النتاج ببناء العلم

وتراكم المعرفة العلمية . بمعنى أن نشاط العلماء يتناول عادة قضايا واقعية تحتاج الى فهمها فهما علميا . ومن ثم فنشاطهم على هذا النحو فنى ومتخصص فى غالبة ، غير أن هذا لايمنع من إمكانية استخدام معرفتهم هذه استخداما اجتماعيا ولصالح الجماعة . لايمنع أيضا أن تستخدم الايديولوجيا بعض الحقائق العلمية لتأكيد مواقفها ، بيد أن هذا لايعنى أن هذه القضايا قد تمت صياغتها لأغراض ايديولوجية .

ويذهب الاعتبار الثالث بأن الايديولوجيا قد تحرف احيانا الحقيقة الاجتماعية العلمية لخدمة وجود الجماعة أو أهدافها . على خلاف ذلك نجد أن الصدق المقنن هو أفضل معرفة يمكن الوصول اليها من خلال استخدام مناهج العلوم الاجتماعية أو العلوم الأخرى . ويكمن الاختلاف بين القضية العلمية والقضية الايديولوجية فى أن القضية العلمية تكون عادة أقل ثقة بنفسها ، ومعرضة دائماً للمراجعة والتعديل ، على خلاف ذلك نجد أن الايديولوجيا تنتقى الحقائق التى تؤكد فاعليتها . فالمعتقد الايديولوجى يبحث عن الحقائق التى تؤكد على عقيدة اختارها ووافق عليها سلفا ، أما العالم فيرجئ الحكم حتى يستقصى - عن أرادة - عدداً كبيراً من الحقائق مايوافق فروضه ومايثبت زيفها .

وفى اطار الاعتبار الرابع فإننا نجد ان الايديولوجيا تستند عادة الى مجموعة من المعتقدات التى يتعصب المعتقدون لها . فمثلا تميل الايديولوجيات ، الراديكالية ، والمحافظة ، الى رؤية الأمور بصورة متطرفة ( على أنها أما أبيض أو أسود ) (٣٠) ، أما العلم فلا يمتلك هذا الحسم القاطع اذا ما تعرضت فروضه لدرجات متباينة من الاختبار لتأكيد زيفها أو صدقها ، واذا كانت الايديولوجيا ذات رؤية مطلقة فإن العلم يؤسس قضاياه استنادا الى مقولة النسبية .

ويتعلق الاعتبار الخامس بوجود اختلاف آخر بين الايديولوجيا والعلم . فبينما تسعى أية ايديولوجيا - سواء كانت محافظة أو ثورية - الى فرض رؤيتها على النسق الاجتماعى ، لأنها بذلك تحدد مصالحه وتسعى الى تحقيقها أو تحافظ عليها ، فإن الباحثين لديهم التزام اساسى بالحقيقة الموضوعية ، وعلى حين يعمل المعتقدون الأيديولوجيون على اخضاع النسق الاجتماعى لمتطلبات الايديولوجيا ، نجد أن العلماء والباحثون يخضعون للعلم كنسق ادراكى ، ولامصلحة لهم سوى الكشف عن الحقيقة .

ويؤكد الاعتبار السادس على أنه برغم وجود الاختلافات التى عرضنا لها بين الايديولوجيا والعلم الاجتماعى ، بيد أن هذا لايمنع من وجود علاقة بينهما ينبغى ابقاء الضوء عليها . وتتمثل هذه العلاقة فى إمكانية استخدام قضايا العلم أو النظرية الاجتماعية استخداما

ايديولوجيا . إذ يمكن اعتبار أى قضية علمية إذا أمكن تأكيد صدقها أو زيفها علميا ، بالقدر الذى يمكن أن تكون قادرة فيه على وصف الارتباطات بين مكونات النسق الاجتماعى كما توجد واقعيا . إلا أن هذه القضية يمكن النظر إليها بإعتبار أن لها متواليات أو نتائج أيديولوجية ، إذا استخدمت لدعم أو تبرير جوانب معينة فى النسق الاجتماعى (٣١) . معنى ذلك أن القضية العلمية ذاتها ليس لها أى التزام ايديولوجى(٣٢) ، وإنما الالتزام يأتى من الشخص الذى استعان بها لكى يدعم موقفه . ذلك لأن القضية العلمية قد تصبح ذات دلالة ايديولوجية قدر مايمكن أن تكون لها دلالة علمية .

وإرتباطا بذلك نطرح ملاحظتين . وتتمثل الملاحظة الأولى فى أنه برغم الاختلافات التى عرضنا لها بين الايديولوجيا والعلم ، فإن ذلك لايمنع أن يكون للعالم أو الباحث موقف ايديولوجى ، يستوى فى ذلك علماء الاجتماع والعلوم الطبيعية . فمثلا جاليليو الذى ناضل ضد المناخ الدينى وايديولوجيا رجال الكنيسة ، وهو النضال الذى ارتبط بهجومه على الفكر الأرسطى الذى تدعمه الكنيسة ، كان فى هذه اللحظة يقوم بدور ايديولوجى الى جانب دوره العلمى ، إلا أنه فى ادائه لدوره يظل ملتزما اساساً بقضايا العلم ومتطلباته . وينطبق مثل هذا الموقف على كارل ماركس وتالكوت بارسونز ، فأنساقهم النظرية تتكون أساساً من قضايا ذات طبيعة علمية ، إلا أنهم قد يستخدمونها استخداما ايديولوجيا .

أما الملاحظة الثانية فتتعلق بإمكانية اتساع الفجوة بين ايديولوجيا الباحث العلمى ، وبين طبيعة النظرية العلمية التى تشكل منهجه فى تناول الواقع بالبحث والدراسة . فمن الممكن أن يتبنى الباحث ايديولوجيا راديكالية تتعاطف مع الطبقات الفقيرة وحتى مع البروليتاريا بالمعنى الماركسى ، ويسعى الى تغيير النسق الاجتماعى لتخليصه من التوترات والمعوقات الوظيفية التى يمتلئ بها ، وفى ذات الوقت يمارس بحثه العلمى بالنظر الى اطار التحليل الوظيفى فى علم الاجتماع ، وهو الموقف الذى اقترب منه روبرت . ك . ميرتون بصورة واضحة ومحددة .

# الفصل الثانى

# النظرية السوسيولوجية
# بناؤها ووظائفها

## المحتويات

## مقـــــدمة

تبلورت النظرية الاجتماعية كوحدة أساسية فى بناء علم الاجتماع . ويمكن القول بأن الاختلاف الرئيسى بين الفكر الاجتماعى وعلم الاجتماع يتمثل فى امتلاك الأخير لثلاث مكونات ، والعلاقة بينها منتظمة وواضحة ، النظرية والمنهج والظواهر أو الوقائع التى تشكل اطار بحث العلم . وفى هذا الاطار تعتبر النظرية هى أكثر هذه المكونات الثلاث أهمية لأعتبار أنها التى تحدد الظواهر موضع الدراسة ، ثم هى التى تحدد أكثر المناهج ملائمة لدراستها .

ويمكن القول بأن هناك علاقة وظيفية بين هذه المكونات الثلاث ، حيث تتناول هذه المكونات الثلاث الأداء الوظيفى فيما بين بعضها البعض . فالبنسبة للمنهج تحدد النظرية المنهج الأكثر ملائمة لدراسة الظاهرة ، ثم هى التى توفر الفروض التى تشكل أحد عناصر المنهج العلمى ، بل هى العنصر الذى يوجه عمليات البحث الواقعى ، ثم هى التى تمتلك القضايا القادرة على تفسير المعطيات التى قد ترد من الواقع من خلال المنهج ثم هى بين هذا وذاك تقدم الاطار الذى بالنظر اليه يمكن تصنيف وتحليل المعطيات .

إلى جانب ذلك فللنظرية آدائها الوظيفى بالنسبة للواقع . فمن خلال النظرية يستطيع الباحث تصنيف المعطيات المتعلقة بالظاهرة ، وتحليلها ، بهدف الوصول الى القوانين المنظمة لتفاعل عناصر الواقع مع بعضها البعض ، بهدف ترشيده ودفعه فى اتجاهات محددة . فإذا كانت هذه الاجراءات على درجة من الاحكام . فإن ذلك من شأنه أن يرفع من القدرة التنبؤية للنظرية .

فى مقابل ذلك فاننا نجد أن المنهج هو الذى يتولى اعادة إختبار قضايا النظرية فى إطار الواقع للتأكد من استمرار صدقها أو ثبات زيفها ، إضافة الى ذلك فللواقع آدائه الوظيفى بالنسبة للنظرية ، حيث نجد أن الواقع عادة هو الذى يعمل على تطوير مفاهيم النظرية بحيث يجعلها أكثر دقة فى التعبير عن المتغيرات الواقعية ، يضاف الى ذلك فإننا نجد ان المتغيرات الجديدة التى قد تظهر فى الواقع من شأنها أن تعدل بناء النظرية عن طريق طرح قضايا جديدة عليها ، أو أشكالاً معدلة للقضايا القديمة .

ذلك يدفعنا الى القول بان النظرية تعتبر أخطر وحدات العلم ، لأنها التى تطبع العلم بطابعها أولاً ، ثم هى التى تتولى طرح تصور محدد ومتميز للواقع من خلاله ترتب متغيرات هذا الواقع – تصوريا – بهدف العمل على ترشيد حركته المستقبلية . يضاف الى ذلك ، فإننا نجد أنه بمجرد استكمال العلم بناء نظريته ، فإن ذلك يؤدى عادة الى نتيجتين الأولى ، قدرة العلم

على التقدم وتحقيق درجة عالية من التراكم ، وأيضا كفاءته العالية على التحكم فى ظواهر الواقع بهدف ترشيد حركتها المستقبلية . وفيما يلى نعرض تفصيلا لكل من هذه القضايا .

## أولا : حول مفهوم النظرية الاجتماعية

يذهب روبرت ميرتون الى أن مفهوم النظرية مهدد الآن بأن يفقد معناه « ومع ذلك فهو يشير اليها من حيث كونها مجموعة من التصورات المترابطة منطقيا ، تلك التصورات المحدودة والمتواضعة ، وليست الشاملة المتضمنة لكل شئ (٣٣) ، ثم يؤكد ان النظرية تبدأ فى الظهور حينما تترابط المفاهيم فى شكل قضايا ، بحيث تصبح هذه القضايا تجريدا للعلاقة بين متغيرات واقعية ، وحينما تترابط القضايا فان النظرية تتكون (٣٤) . بينما يذهب بارسونز الى أن النظرية تتصل بكيان من المفاهيم المترابطة منطقيا ، الا أن ذلك لاينفى وجود مجموعة من القضايا العامة ذات العلاقات المنطقية التى ترتبط فيما بينها ويمكن أن تؤلف كيانا نظريا . ثم يؤكد أن قضايا النسق النظرى ينبغى أن تكون لها اسناداتها الواقعية (٣٥) . ويقنن براثوايت التحديدات السابقة ، معرفا النسق النظرى بأنه مجموعة من القضايا التى تتخذ ترتيبا خاصا فى هذا النسق ، بحيث تكون مترابطة منطقيا ومتميزة بالتدرج المنظم غير المتناقض ، وتشير القضايا العامة فى النظرية الى المقدمات ، أما القضايا المستنبطة فتمثل النتائج (٣٦) .

ويكشف تحليل مجموعة التعريفات السابقة عن ضرورة وجود ثلاثة عناصر أساسية بالنسبة لبناء النظرية السوسيولوجية وهى المفاهيم والقضايا والبناء المنطقى . أما المفهوم كما يعرفه ماكليلاند فهو تمثيل مختصر لمجموعة من الحقائق (٣٧) بمعنى ان مفاهيم علم الاجتماع هى رموز لفظية مميزة تعطى لأفكار معينة تم تجريدها عن الملاحظة العلمية للمجتمع (٣٨) . اذن فالوظيفة الأساسية للمفهوم أنه يجرد الواقع تحت رمز معين، وأعنى بالتجريد أنه يفصل الظاهرة أو الحقائق موضع الاهتمام عن الارتباطات الأخرى – التى لايحتاجها العلم – عن المركب الكلى للظاهرة (٣٩) ، ويؤكد ميرتون أن المفاهيم لاتشكل فى ذاتها نظرية وأن كانت تشارك فى بناء النسق النظرى . فالمفاهيم ليست سوى تحديدات لما ينبغى ملاحظته ، ويعتبر انتقاء المفاهيم الموجهة لجمع المعطيات وتحليلها ذا أهمية جوهرية بالنسبة للبحث الامبيريقى . فلكى يقرر الباحث حقيقة هامة ، فان عليه ان ينتقى المفاهيم التى يمكن تأسيس علاقات بينها . بغير ذلك فسوف يصبح البحث ضحلا بغض النظر عن دقة الاستنتاجات والملاحظات التالية (٤٠) .

ويفيد تحديد المفهوم فى أداء عدة وظائف رئيسية ، منها توضيح المعطيات التى تندرج تحت المفهوم ، ومن ثم يساعد ذلك على التقليل من تدخل المعطيات الغريبة ، وضم المعطيات الخارجة عنه والتى ينبغى أن تندرج تحته . ونجاح المفهوم فى تحديد معطياته الأساسية قد يفيد فى ازالة كثير من الغموض المتضمن فى بعض النظريات . بل يؤدى أحيانا الى تأسيس سلسلة عديدة من الفروض التى توسع من نطاق النظرية . مثال ذلك تلك الآثار التى ترتبت على تحديد عالم الجريمة أودين ساذرلند لمفهوم الجريمة (٤١) . بالاضافة الى ذلك يفيد المفهوم فى الغاء التناقضات الظاهرية فى المعطيات الامبيريقية عن طريق تقرير أن هذه التناقضات ظاهرية فقط . كذلك يفيد تحديد المفهوم أو التوضيح التصورى فى تحديد المؤشرات التى يمكن ملاحظتها بالنسبة للمعطيات الاجتماعية التى يهتم بها البحث الامبيريقى (٤٢) . هذا وينبغى التأكيد على مسألتين : الأولى ، ان المفهوم بذاته لايشكل الوحدة التحليلية الأساسية للنظرية ، والثانية ، ان المفهوم يتغير بتغير معطيات الواقع ، وأيضا وفقا للسياق العام للمجتمع والايديولوجيات التى تحكم تفاعله . فمفهوم الجريمة فى مجتمع شرقى غيره فى مجتمع غربى ، وما كان يشير اليه مفهوم الدين فى المجتمعات البدائية غير متضمناته فى المجتمعات المعاصرة .

وتشكل القضية الوحدة الثانية فى بناء النظرية . وتعرف القضية على أنها تعبير عن الواقع الاجتماعى يتضمن مفهومين أو أكثر ، والعلاقة بينهما ، ويمكن اخضاعها للبحث العلمى ، ومن ثم فالقضية تعبر عن العلاقات بين المفاهيم . وقد يشار الى القضية أحيانا باعتبارها فرضا ، أى تعميما مبدئيا واحتماليا يخضع للاختبار الامبيريقى للتعرف على صدقه أو خطئه ومن ثم فقد ينظر الى النظرية على أنها مجموعة من الفروض (٤٣) . وتنقسم القضايا الى نوعين من حيث التدرج فى بناء النظرية ، القضايا العامة ذات الترتيب أو النظام الأعلى . أما الأقل عمومية فهى تلك التى يسميها بالقضايا ذات النظام الأدنى أو القضايا الامبيريقية . ومن المهم القول ان القضايا ذات النظام الأدنى أحيانا ماتشتق من القضايا العليا تحت شروط معينة (٤٤) . وهو مايتضح من تعريف براثوايت حيث يقسم قضايا النظرية الى قضايا عامة ويعتبرها مقدمات ، أما القضايا الناتجة عنها أو المشتقة منها فيعتبرها مستنبطات ، تأكيدا على العلاقات المنطقية القائمة بين قضايا النسق النظرى . بحيث لايمكن أن يكون ثمة تناقض بينها ، وهناك من يؤكد انقسام قضايا النسق النظرى الى قضايا بسيطة وأخرى مركبة . وتنقسم القضايا من حيث صلتها بالبحث الامبيريقى الى قضايا نظرية وقضايا امبيريقية

موجهة بالأولى وقد تكون مشتقة منها . هذا ومن الممكن أن تصبح أيا من قضايا النسق النظرى فرضا يخضع للاختبار الامبيريقى . فاذا تأكد صدقه ارتقى الى مستوى القانون الامبيريقى ، أو صعد الى مستوى التوجيهات النظرية العامة .

ويشير البناء المنطقى كمفهوم ثالث فى تحديد بناء النظرية الى الهيكل البنائى الذى تنتظم فيه قضايا النسق النظرى ، ما يعتبر منها قضايا مقدمات أو توجيهات نظرية عامة ، أو ما يعتبر قضايا من المستوى الأدنى . ويؤكد ايرنست ناجل أنه حينما تكون النظرية دقيقة التنظيم فانها عادة ماتكتسب شكل النسق الاستنباطى . بحيث تشكل الافتراضات الرئيسية للنظرية البناء العلائقى المجرد لها (٤٥) . وحتى تصبح النظرية العلمية أكثر نضجا فانها تميل لأن تشكل نسقا مغلقا ومنسقا . ويساعد امتلاك النظرية لبناء منطقى متسق على اشتقاق الفروض التى من غير المحتمل ان تتناقض بعضها مع البعض . بالاضافة الى ذلك تساعد النظرية المتكاملة على تأكيد اثباتها بدرجة تفوق الحالة التى يكون فيها الاطار النظرى متضمنا بعض الفروض المتميزة والمنفصلة بعضها عن البعض . بيد أن التأكيد على الاتساق المنطقى أحيانا مايفتح الباب لنوع من الجدل اللفظى والتنظير العقيم . مادامت الإفتراضات النظرية بعيده عن أى اسناد امبيريقى ، أو أنها قد تتضمن مستويات عليا من التجريد الذى يقدمه البحث الامبيريقى (٤٦) . ويحدد كوهن الأنماط الرئيسية لطبيعة النظرية النسقية بثلاثة أنماط :

١ - أما النمط الأول فيسميه بالنظريات التحليلية وهى تماثل النظريات المنطقية والرياضية ، تلك التى لاتحدد شيئا يتعلق بالعالم الواقعى ، ولكنها تتشكل من مجموعة من القضايا البديهية التى تكتسب صدقها من خلال التعريف ، والتى يمكن إشتقاق قضايا أخرى منها .

٢ - ويسمى النمط الثانى للنظرية بالنظريات المعيارية وهى التى تحدد مجموعة من الحالات المثالية التى يرغب فيها الانسان ، ويتعلق هذا النوع من النظريات بالمسائل الأخلاقية والجمالية .

٣ - أما النمط الثالث فهو النظريات العلمية ، وفى شكلها المثالى نجدها عبارة عن صياغة شاملة وامبيريقية ، تؤسس علاقة بين نموذجين أو أكثر من الوقائع . وفى أكثر مستوياتها بساطة نجدها تتخذ الشكل الذى يتمثل فى انه حينما تقع (أ) فان (ب) لابد أن تقع ، وعادة ماتتميز النظرية العلمية بالشمول (٤٧) .

ومن الواضح أن النظرية السوسيولوجية يمكن أن تتضمن الأنماط الثلاثة التى أشار اليها كوهن فهى ينبغى أن تكون ذات بناء منطقى . الى جانب أن العلاقة المنطقية ذاتها عادة ماتكون علاقة بين مفهومين أو أكثر يشيران الى متغيرات واقعية محددة ، وهو مايجعلها تستوعب النمط الثالث . وبطبيعة الحال فإن النظرية السوسيولوجية على اختلاف نماذجها عادة ماتكون لها متضمناتها الأيديولوجية أو مثلها وتفضيلاتها المعيارية التى تكمن وراء قضاياها العلمية ومن ثم فنحن نرفض ذلك التنميط التعسفى الذى أسسه بيرسى كوهن ، ونرى فيه تجزئة لحقيقة واحدة .

**ثانيا : بناء النظرية السوسيولوجية ، عناصره وعملياته**

يعتبر بناء النظرية واكتمال تأسيسها دالة على نضج واكتمال النظام العقلى الذى تنتمى اليه ، ذلك لأن النظرية هى التى تتولى ترشيد حركة العلم ، من حيث انتقاء المشكلات التى ينبغى التصدى لها ، ثم منطق التناول العلمى الذى ينبغى أن يكون . ويتطلب تحليل بناء النظرية العلمية ، وخاصة النظرية السوسيولوجية ضرورة التركيز على ثلاثة جوانب أساسية .

الجانب الأول : وهو مايمكن أن نسميه مجازا بالبناء المورفلوجى للنظرية أو مكوناتها الأساسية ، ونعنى بها العناصر الأساسية لأى نظرية علمية مشخصه بشكل ثابت غير متفاعل .

أما الجانب الثانى : فيتمثل فى العمليات الدينامية لبناء النظرية العلمية . سواء تلك العمليات المتعلقة بتأسيس النظرية ، أو تلك الخاصة بأعمالها فى عمليات البحث المختلفة ، أو التى تركز على صياغة النظرية العلمية لتحديد مبادئها الأساسية .

أما الجانب الثالث : فيتعلق بوظيفة النظرية بالنظر الى نسق التفكير العلمى للنظام العقلى الذى تنتمى اليه كاطار لها ، وبالنظر الى النسق الاجتماعى كاطار لأعمال فاعليتها .

**١ - بناء النظرية العلمية ، العناصر الأساسية**

تجمع مختلف المواقف النظرية على أن النظرية العلمية تتركب من ثلاثة مكونات أساسية لازمة لتأسسها كنسق نظرى ، وان غياب أى من هذه العناصر ، يعنى أن النظرية مازالت فى طور الإكتمال وأنها لم تكتمل بعد . أى مازالت مشروعا نظريا ناقصا . هذه العناصر هى القضايا النظرية ، أو التوجيهات النظرية العامة ، وأحيانا مايطلق عليها اختصارا النظرية أو القوانين النظرية . وتمثل القضايا أو القوانين الامبيريقية العنصر الثانى ، ويمكن ضمها الى العنصر الأول لتشكل معاً مستويين لعنصر واحد . أما المكون الثالث فيتمثل فى البناء المنطقى

الذى يضم المستويين السابقين من القضايا أو القوانين ، بالاضافة الى العمليات الأساسية لبناء النظرية ، تلك التى تشكل اطارات التفاعل بين مستويات قضايا النظرية من ناحية ، وبين النظرية ككل والسياقات المحيطة بها من ناحية أخرى (*) .

ويشكل النوع الأول من القضايا أو القوانين - التوجيهات النظرية العامة - المبادئ الأساسية لأى نسق نظرى ، حيث يرتبط أساسا برؤيته واجراءاته المحددة فى النظر الى الواقع ودراسته . فى اطار ذلك يؤكد روبرت ميرتون أن التعميم النظرى ينبغى أن يكون محددا لكى يساعد على الملاحظة أو التجربة المحورية ، هذا بالاضافة الى ضرورة تساند التعميمات النظرية بعضها مع البعض ، لكى تشكل فى مجموعها بناء نظريا يمتلك درجة عالية من التماسك المنطقى (٤٨) . أما القضية النظرية فعادة ماتشتق أساسا من البناء النظرى .

أما النوع الثانى من القضايا أو القوانين الامبيريقية ، فلا تعتبر النظرية مصدرا أساسيا له . فالتعميم أو القضية الامبيريقية قضية منعزلة تلخص العلاقات المطردة والملحوظة بين متغيرين واقعيين (٤٩) ، ويزخر الفكر السوسيولوجى بهذا الطراز من التعميمات التى تحتاج الى اعادة صياغتها فى اطار بناء نظرى ، ويوفر التنوع الهائل لهذا النموذج من القضايا المادة الخام لتأسيس النظرية فى علم الاجتماع .

ويشكل البناء المنطقى العنصر الثالث فى بناء النظرية . وللبناء المنطقى معنيان ، الأول يتمثل فى أنه أيا كان المدخل الى تأسيس النظرية ، سواء كان ذلك تصعيدا عن طريق التعميمات الامبيريقية ، أو أنها تولدت من خلال التأليف بين القضايا النظرية ، فان النظرية ينبغى أن تكون على درجة عالية من الدقة التنظيمية ، بحيث يتخذ شكلها النهائى شكل النسق الاستنباطى ، وبالنظر الى ذلك نجد أن الافتراضات الأساسية للنظرية لاتحدد شيئا سوى بناء العلاقات المجردة . وبذلك فان الإفتراضات الأساسية للنظرية تتشكل من مجموعة من المسلمات المجردة التى تشتق مصطلحاتها معانيها من خلال مكانتها فى اطار هذه المسلمات . ومن ثم فما دامت المصطلحات تتحدد بواسطة مسلماتها ، فان هذه المسلمات لاتحدد شيئا واقعيا ، فهى بذلك أشكال قضايا وليست قضايا ، ويمكن استكشافها عن طريق اشتقاق قضايا أخرى

---

(*) يطلق ايرنست ناجل على القضايا أو القوانين النظرية مصطلح نظرية Theory، بينما يطلق على القضايا أو القوانين الامبيريقية مصطلح القوانين التجريبية Experimental Laws، وذلك يرجع الى أنه قد انطلق الى فلسفة العلم من خلال كونه متخصصا فى العلوم الطبيعية وليس الانسانية .

منها وفقا لقواعد الاستنباط المنطقى . وبايجاز فان النظرية العلمية الدقيقة البناء ينبغى أن تمتلك بناء منطقيا يشكل هيكلها الأساس (٥٠) ، ويتعلق المعنى الثانى للبناء المنطقى بالترتيب الذى تتخذه قضايا البناء النظرى . بحيث يحدد البناء المنطقى قضايا النظام أو المستوى الأعلى ذات الطابع النظرى ، وقضايا النظام أو المستوى الأدنى ذات الطابع الأمبيريقى . ثم طبيعة العلاقة الوظيفية المتبادلة بين نوعى القضايا أو التعميمات من خلال العمليات المرتبطة بالتفاعل الداخلى للبناء النظرى ، وهى عمليات اشتقاق الفروض والتأسيس الافتراضى للنظرية ثم عملية تنظيم المعطيات الأمبيريقية فى شكل اطار نظرى (٥١) .

## ٢ - بناء النظرية السوسيولوجية ، عملياته الأساسية

فى اطار هذه الفقرة ، سوف نتعرض للعمليات الرئيسية التى من خلالها يتأسس بناء النظرية السوسيولوجية منذ بداية كونها معطاة يطرد وقوعها نسبة الى بعدى الزمان والمكان ، وحتى تأسيس التعميم النظرى العام . أو منذ بداية كونها توجيها فلسفيا عاما ، وحتى اكتسابها طابع القضية العلمية القادرة على توجيه البحث الأمبيريقى المرتكز على تناول معطيات الواقع واطراداتها . وسواء بدأنا صياغة التعميم النظرى من هذا الطريق أو ذاك . فان انجازه وتأسيس اطار نظرى يتضمنه لابد أن يمر من خلال اربع عمليات رئيسية وهى التأسيس Construction والتنظيم Codification والاشتقاق Derivation والابداع Creation وسوف نعرض بايجاز لكل من هذه العمليات .

### (أ) التأسيس : Construction

وتعتبر عملية التأسيس من أهم العمليات المتصلة ببناء النظرية وأخطرها . اذ يعتبر تأسيس النظرية محاولة لانشائها بدقة ، وفقا لخطة يمكن الدفاع عنها بالاستناد الى فهم واضح للمسلمات . والاختلاف بين القضايا التحليلية والتركيبية ، واختلاف التعريف عن البرهان ، الى غير ذلك . ويعتبر تأسيس النظرية جهدا خاصا يهدف الى صياغة بعض القضايا النظرية التى تعتبر مقدمات منطقية أو تتضمن مبدأ منهجيا عاما واضحاً قابلا للاختبار الامبيريقى (٥٢) . وتتبع عملية التأسيس النظرى فيما يتعلق بصياغة النظريات المتوسطة المدى وليست النظريات الشاملة ، ومن ثم فمن المستحيل أن يحاول أحد العلماء استخدام تكنيك تأسيس النظرية لصياغة نظريات ذات طابع شامل كالنظرية البارسونزية أو النظرية الماركسية مثلا . وبصفة عامة طبق علماء الاجتماع المهتمون بقضايا المنهج والاجراءات العلمية تكنيكات تأسيس النظرية

لاهتمامهم بتطوير نظريات تغطى مجموعة من المشاكل الواقعية الاضيق نطاقا من تلك التى يهتم بها منظرو النظرية العامة . ومن هنا نجد أن معظم الفكر المتعلق بالتأسيس الإفتراضى للنظرية يدور حول التفسيرات النظرية للمعطيات موضع الاهتمام ، مع تأكيد العلاقة بين هذه التفسيرات وقضايا النظرية الاكثر عمومية (٥٣) . ويتطلب تأسيس النظرية توافر عديد من القضايا النظرية ذات الصلة بالمشكلة موضع الاهتمام . وينبغى أن تكون هذه القضايا واضحة ومختصرة . والى حد واضح لايهتم مؤسس النظرية بانشاء نظرية جديدة تماما بقدر مايهتم بخلق ارتباطات جديدة للقضايا النظرية بحيث يمكن أن يقود ذلك الى تفسيرات جديدة . وحيثما تتطلب الحاجة الى قضايا جديدة ، فان المؤسس النظرى ( المنظر ) عادة يلجأ الى الاسلوب الاستنتاجى inductive عن طريق التعميم من النتائج البحثيه . ولتوضيح ذلك نذهب الى أنه اذا افترضت احدى النظريات أن أ ، ب تربطهما علاقة حتمية ، واذا افترضت نظرية أخرى أن ج ، د تربطهما علاقة حتمية أيضا ، فانه اذا تأكد بالدليل أن ب ، ج تربطهما علاقة حتمية ، فان اضافة هذه المعلومة الاخيرة تمكن من تأسيس قضايا نظرية فيما يتعلق بالعلاقة بين أ ، ب ، ج ، د على أساس من قضايا النظريتين الى جانب بعض المعطيات الاضافية ، مع ملاحظة أن الفرض الذى قاد الى تأسيس العلاقة الاضافية ( ب ، ج ) لم يشتق من أى من النظريتين (٥٤).

وينبغى أن يكون واضحا عند تأسيس النظرية أن تكون لدى المنظر فكرة واضحة عن نموذج النظرية التى ينتوى ابتكارها . ذلك لأن النظريات الاجتماعية لاتقول أشياء مختلفة فقط ، ولكنها تقولها بأساليب متباينة كذلك . ومن ثم فعلى المنظر أن يحدد منذ البداية ماهى بنية النظرية التى ينتوى تأسيسها (٥٥) ، ثم ما هو موضوعها الأساسى ، وما هو نطاق هذه النظرية . هل تقتصر النظرية على مضمون اجتماعى متماثل ، كأن تقتصر فى معالجتها لموضوعها على نطاق اجتماعى بعينه أسريا كان أو اقتصاديا أو سياسيا ، أو تتضمن تفاعلا اجتماعيا يتقاطع عبر مجالات اجتماعية متباينة . هذا وينبغى التوضيح على تضمن تأسيس النظرية كعملية أساسية على ثلاث عمليات فرعية هى :

١ - صياغة المفهوم Concept Formulation ، اذا يعتبر صياغة المفاهيم من المهام الرئيسية لتأسيس النظرية . والمفهوم كما نعلم - عبارة عن اسم أو رمز لفئة من الوقائع والأفكار ، وقد يكون المفهوم ذا دلالة واقعية تتأسس بالنظر الى الملاحظات الواقعية ، أو قد يكون مجردا بصورة كاملة . ومايهمنا فى عملية تأسيس النظرية المفهوم بالمعنى الأول . بيد أن التساؤل الذى يطرح نفسه يتمثل فى ماهية الاجراء الذى من خلاله يمكن

صياغة مفهوم يعبر عن فئة من المعطيات الواقعية ، لكى يصبح بدوره – حين اكتمال صياغته – وحدة أساسية فى تشييدات نظرية تالية ؟ يجيب على ذلك الليان جروس Lie-wellyn Gross بتأكيده أن ذلك يتحقق حينما نضع مجموعة من الملاحظات الفجة بشكل مباشر فى اطار مجموعة من المقولات التى نسميها مفاهيم . ومن الضرورى التركيز على ضرورة توضيح الحدود بين مجموعات المناشط التى تصبح المفاهيم رموزا لها ، وذلك بهدف اشاعة نوع من الوضوح النظرى (٥٦) .

٢ – تأسيس القضية النظرية : فى أعقاب فراغنا من صياغة المفهوم فاننا نعمل على خلق الصلة بينه وبين مفاهيم اخرى فى اطار قضية حتمية . فاذا استطعنا تحديد مفهوم كمفهوم الانتحار – كما حدده دوركيم – فاننا نجد أن الانتحار – كمفهوم – يتصل بالضغوط الاجتماعية – كمفهوم آخر – التى يتعرض لها المنتحر . فى اطار ذلك فان مانعنيه بالضغوط الاجتماعية كمفهوم يصبح ذا اهمية قصوى فى عملية التأسيس النظرى ، مادام التعرف عليها يمكن أن يصبح أساسا لنظريات عن الشخص الذى يميل الى الانتحار ، ومن ثم فسوف نطرح أهمية ملاحظة الضغوط الاجتماعية التى تقع على البشر ويكون من نتاجها – برغم الصعوبات الكثيرة التى تتعلق بملاحظة ذلك – تأسيس قضية تجريبية تتعلق بالعلاقة بين مفهوم الانتحار ومفهوم الضغوط الاجتماعية .

٣ – اضافة قضايا نظرية ، فاذا اضيفت العبارة – كما فى المثال السابق – فى شكل ( ان الضغوط الاجتماعية تؤثر على ميل بعض البشر نحو الانتحار ) . فاننا نجد أنه وان صاغ المنظر مفهوم الانتحار والضغوط الاجتماعية ، فانه يجد نفسه مضطرا الى تحديد طبيعة هذه العلاقة . ونحن وان كنا لم نلاحظ التأثير ، إلا أننا أدركناه من خلال مؤشراته . ومن ثم فالمفهوم المعبر عن هذه العلاقة يعتبر أكثر تجريدا من مفهوم الانتحار والضغوط الاجتماعية . وحينما يبدأ مؤسس النظرية فى العمل على مستويات متباينة من التجريد ، فان عليه أيضا تأسيس العلاقة الكائنة بين هذه المستويات ، وعادة ماتشكل الأخيرة البناء المنطقى الذى يتكون من مجموعة العلاقات التى تضم هذه المستويات بعضها مع البعض .

نتاجا لذلك تتأسس لدينا نظرية ذات قضايا ومفاهيم بعضها تمت ملاحظته امبيريقيا وبعضها له طابعه النظرى التحليلى . ومن المثال السابق اذا قلنا ان مفهوم الانتحار والضغوط الاجتماعية مفاهيم ذات طابع امبيريقى ، فان مفهوم التأثير influence يشكل المفهوم النظرى

فى هذا المثال ، وهو يصاغ بطريقة تجعل منه متغيرا Variable اذا أعملناه فى حالات واقعية فان مدى تأثيره يبدأ من صفر وحتى أقصى مستوى . وحينئذ يكون باستطاعتنا أن نشتق الفرض القائل انه كلما كان تأثير الضغوط الاجتماعية هائلا ازداد الميل الى الانتحار عنه لو كانت الضغوط الاجتماعية في مستوى الصفر ، اذ يفترض حدوث التأثير من خلال الضغوط الاجتماعية كوسيط لذلك . بيد أن هذا لايمنع من تدخل متغيرات أخرى فى احداث الانتحار ، ومن ثم يمكن تضمينها فى قضايا مثلما حدث فى القضية السابقة . بحيث أنه كلما زادت قضايا النظرية والمتغيرات التى تضمها زادت النظرية تعقيدا واكتمالا . ولتحقيق ذلك فان على مؤسس النظرية أن يتنبه بشكل محدد الى نماذج وأنواع المصطلحات ، والى وضوح الشكل المنطقى ، وأيضا الى تفاصيل التعريف ودقته ، وقبل كل شئ فان على مؤسس النظرية أن يكون مستقيم التفكير وان يكون يقظا فى استخدام تكتيكاته (٥٧) .

### (ب) تنظيم القضايا : Codification

بينما يتركز جهد التأسيس النظرى حول تحديد طبيعة المفهوم ، ثم العلاقة بين المفاهيم حتى تأسيس القضية النظرية . فان تأسيس النظرية يحتاج بالاضافة الى ذلك تنظيم مجموعة القضايا التى تم التوصل اليها فى اطار شكل منطقى منتظم ونسقى ، وهى العملية التى يطلق عليها التنظيم Codification . والتنظيم كما يعرفه روبرت ميرتون هو الترتيب المنتظم والمحكم للتجربة المنظمة والمثمرة التى يتم انجازها بواسطة اجراءات البحث والنتائج العينية التى تنتج عن الاستفادة من هذه الاجراءات (٥٨) . وعلى هذا النحو يهدف التنظيم الى تنسيق to syste-matize التعميمات الامبيريقية المنفصلة ، والتى تقع فى اطار مجالات متميزة أو منفصلة للسلوك ، أو تشير اليها ، وبذلك نجد أن التنظيم هو المحاولة الارادية لتأسيس الفروض المؤقتة ذات الدلالة والتى تبشر بتوسيع نطاق النظرية القائمة . بالاضافة الى ذلك فان الصياغة النظرية من خلال التنظيم عادة ماتوضح القضايا النظرية التى يمكن اغفالها بينما تبقى على القضايا الأخرى التى تصمد أمام البحث الامبيريقى ، ومن المسلم به أن التنظيم كاجراء منهجى يكمل الاشتقاق الصورى للفروض التى ينبغى اختبارها ، بحيث ييسر ذلك السعى الحثيث الى تأسيس النظرية السوسيولوجية الفعالة والبحث الامبيريقى الملائم لها (٥٩) .

وكاجراء منهجى فانه لتأسيس النظرية لابد من وجود تعميمات امبيريقية متعددة ، وفرها

البحث الامبيريقى الموجه نظريا فى مختلف مجالات الواقع الاجتماعى ، بالاضافة الى التراكم الذى يتحقق من خلال توافر هذه التعميمات ونموها . وعلى عكس التأسيس النظرى فان التنظيم يقتصر أعماله على مستوى النظرية الضيقة المدى وذلك بهدف تأسيس النظريات الشاملة . وتعتبر محاولة تالكوت بارسونز من المحاولات الجادة فى تاريخ علم الاجتماع لتأسيس النظرية من خلال تنظيم التعميمات الامبيريقية فى اطار بناء نظرى ، حيث نجده يذهب الى القول فى أكثر من موضع الى ان كم التعميمات التى توفر يحتاج الى اعادة نظر وتنقيح بما يمكن من صياغة نظرية عن توازن النسق الاجتماعى ، من خلال تنظيم التعميمات الامبيريقية التى توافرت فى اطار علم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا . بالاضافة الى ذلك نجده يؤكد أن كم المعرفة الامبيريقية الذى توافر حتى الآن يتيح لنا أن نبدأ فى صياغة نظرية عن التغير الاجتماعى (٦٠) .

يضاف الى ذلك أنه اذا كان التأسيس الافتراضى للنظرية يتم عادة على مستوى المفاهيم الأساسية والتعميمات أو القضايا الامبيريقية كوحدات أساسية فى بناء النظرية . فان التنظيم على العكس من ذلك يتخذ من التعميمات أو القضايا الامبيريقية والنظرية وحدات أساسية فى بناء النظرية السوسيولوجية ، الأعلى مستوى من حيث امكاناتها التحليلية من المستوى السابق ، والأكثر شمولا لأنها فى الحقيقة ليست سوى اعادة صياغة لمجموعة من النظريات الخاصة ، فى اطار نظرى شامل .

### (ج) الاشتقاق : Derivation

بينما تتصل عمليات التأسيس الافتراضى والتنظيم بصياغة بناء النظرية فى مستوياته المتباينة ، فان الاشتقاق - كعملية تتبع فى بناء النظرية السوسيولوجية - يهتم أساساً بتأكيد كفاءة النظرية عن طريق اعادة تعريض قضايا النظرية فى شكل فروض جديدة تحتاج الى الصدق والاثبات الامبيريقى . وبذلك تتأكد الصلة التى ينبغى أن تكون بين النظرية والبحث الامبيريقى ، وترسخ من استمرار كفاءة النظرية ، عن طريق الاعادة المستمرة لاختبار الفروض المشتقة من بنائها الأساسى . والى جانب ان الاشتقاق قد يعنى محاولة تحديد ملامح بعض البيانات بالنظر الى بعض الفروض المشتقة من بناء النظرية بشأنها ، فانه يساعد فى التحقق من سلامة التفسيرات البعدية التى قد تطرح فى أعقاب اكتشاف أية معطيات أساسية تتعلق بمفاهيم معينة ، أو بالعلاقات بين هذه المفاهيم . هذا وقد كان للاشتقاق الصورى على هذا

النحو فوائد كثيرة فى كل من علمى النفس والاقتصاد ، فقد أدى فى أحدهما الى اجراء سلسلة من التجارب المتتابعة ، وأدى فى الآخر الى مجموعة من البحوث التفصيلية . هذا ويساعد الاشتقاق بشكل عام على تمهيد الطريق نحو البحث المتراكم والمترابط بدلا من الكم الهائل من البحوث المتناثرة التى لا رابط بينها (٦١) .

وبالنظر الى هذه العمليات ذات الأهمية بالنسبة لبناء النظرية ، فاننا نجد أن عمليتى التأسيس والتنظيم تتجهان من أسفل الى أعلى ، بحيث تسبق أولاهما الثانية ، أى من مستوى المعطيات الامبيريقية الى مستوى المبادئ أو التوجيهات النظرية العامة ، فهى تتجه مما هو ملموس وواقعى الى ماهو تركيبى وأكثر تجريدا . هذا فى حين أن الاشتقاق يتخذ اتجاها عكسيا ، من البناء النظرى الى المعطيات الامبيريقية من خلال اشتقاق الفروض من بناء النظرية ثم اعادة اختبارها امبيريقيا ، هذا بالاضافة الى قطع الطريق فى مواجهة أية كيانات نظرية زائفة كالتفسيرات البعدية ، أو تلك التى تظل على مستوى التوجيات النظرية العامة .

### (د) الابداع : Creation

برغم أهمية هذه العملية لاستكمال بناء النظرية السوسيولوجية فانها تعتبر أقل العمليات من حيث مستوى التقنين ، فليس يكفى أن تصوغ مفهوما يشير الى مجموعة من المعطيات الواقعية المتماثلة ، أو تأسيس قضية عن طريق صياغة علاقة اطرادية بين مفهومين ، أو ضم هذه القضايا من خلال عملية التنظيم فى اطار بناء نجاهد أن يكون متسقا ومنطقيا . اذ انه لو كان الأمر على هذا النحو فى بناء النظريات العلمية لوجدنا كما من النظريات يقارب تقريبا كم المتخصصين فى نظام عقلى معين . يؤكد ذلك مايذهب اليه ايرنست ناجل من أن النظريات الى جانب انها جهد عقلى منظم فهى تعتبر ( ابداعات حرة ) للعقل (٦٢) . بل أننا نجد باحثا مثل جوهان جالتونج يذهب الى القول بأن توفر التراث العلمى فى شكل معطيات أو تعميمات امبيريقية ليس كافيا لقيام النظرية « اذ تعتبر النظرية هى الوحدة المعرفية الوحيدة فى نسق التفكير العلمى التى لاتخضع فى صياغتها للتنظيم . ذلك لأن بناء النظرية يعد انجازا خلاقا ، ومن هنا فان الأمر لايدعو للدهشة حين نجد نفرا قليلا من المشتغلين فى ميدان علمى معين هم القادرون على القيام بمثل هذا العمل . فهناك قفز فوق الادلة المنطقية ، واحساس خفى متصل بالجهد الخلاق . فصياغة النظرية تشبه انجاز العمل الفنى . ومن هنا كانت منهجية النظرية وصياغة النظرية متخلفة بالنسبة لمنهجية الفروض وصياغتها . وأنه يبدو أن نوعى الفلاسفة والعلماء اللذين يعملان على هذين المستويين مختلفين كيفيا (٦٣) .

## ثالثا : النظرية السوسيولوجية : وظائفها الأساسية

سوف نحاول في هذه الفقرة التعرض لوظائف النظرية السوسيولوجية ذات الطابع العلمى ، أى تلك المتعلقة بنسق التفكير العلمى . وسوف نطرح جانبا الآن الوظائف الأيديولوجية للنظريات تلك التى لها فى مواجهة النسق الاجتماعى ، فى اطار ذلك سوف نذكر بايجاز الوظائف الرئيسية التالية :

١ – فعلى مستوى الصياغة النظرية العامة نجد أن النظرية تحاول أن تشكل الاطار التصورى المشترك بين مجموع الباحثين فيما يتعلق بمجالات ، وموضوعات محددة ، بما ييسر خلق اتصال بين مختلف النتائج والتفسيرات المتعلقة بالحقائق الامبيريقية المتباينة (٦٤) . هذا بالاضافة الى أنها تنظم الكم الهائل من المعرفة الامبيريقية فى شكل اطارات نظرية ، ومن ثم توجه الاهتمام نحو الفجوات القائمة فى بناء معرفتنا (٦٥) .

٢ – وفيما يتعلق بتوجيه البحث اللا امبيريقى، نجد أن النظرية تلعب دورا هاما فى هذا الصدد ، حيث يمكن اشتقاق الفروض الموجهة للبحث من بناء النظرية كامتداد منطقى لتعميماتها . ويعتبر كم الفروض التى يمكن اشتقاقها من بناء النظرية مقياسا لقيمتها وكفاءتها ، بحيث أنه اذا أمكن التثبت من الفرض من خلال التجريب بالنظر الى كم كبير من الوقائع فى عدد من المواقف ، فانه يصعد الى كونه قانونا أو توجيها نظرياً عاما ، يمكن أن تستنبط منه فروض جديدة (٦٦) .

٣ – ويعتبر وصف الواقع من الوظائف الهامة للنظرية فى اطار دراسة النسق الواقعى ، ولانجاز ذلك تلجأ النظرية عادة الى استخدام وسائلها المتمثلة فى المفاهيم والفروض . ويؤكد بارسونز أنه ينبغى أن يكون الوصف كفء Adequate وحاسما فى دلالته determinate وتتحقق كفاءة الوصف اذا أمكنه توفير اجابة حتمية وممكنة التحقيق لكل التساؤلات الهامة والمتضمنة علميا . وتتحدد دلالة وأهمية أى من القضايا أو التساؤلات بواسطة البناء المنطقى للاطار التصورى العام الذى يستخدم صراحة أو ضمنا . ويتم استخدام النظرية فى عملية الوصف بالنظر الى مستويين ، المستوى الأول ، حيث يتم الوصف بالنظر الى مقولات الاطار التصورى التى تشكل عناصره اطارا ملائما لوصف النسق الواقعى . أما المستوى الثانى للوصف فيمكن تسميته بالمستوى البنائى ، حيث يتم الوصف بالنظر الى بناء الأنساق . اذ يعتبر البناء هو الجانب الاستاتيكى لأسلوب

المعالجة الوصفية للانساق . ومن وجهة النظر البنائية يتكون النسق من وحدات الأنساق الفرعية التى توجد مستقلة أساسا ثم تساندتها أو علاقاتها البنائية المتداخلة (٦٧) . ويعتبر التحليل هو الوظيفة الثانية للنظرية العلمية فى هذا الصدد ، وبكل الاعتبارات فان التقدم العلمى يتمثل فى الامتداد التدريجى لنطاق التحليل الدينامى . اذ يصبح من المستحيل تحديد النشاط العقلانى والواقعى بدون القدرة على تأسيس العلاقة الدينامية بين الشرط الضرورى الوحيد وبين النتيجة التالية تحت افتراض تساوى الظروف الأخرى عند مستوى معين . ومن هنا فان هدف النظرية العلمية هو أن توسع من نطاق التحليل الدينامى للأنساق المعقدة ككل بقدر الامكان . ويمثل تحقق هذا الهدف احدى الصعوبات النظرية الهائلة بالنسبة للعلم (٦٨) ، ويتميز التحليل الدينامى لمتغيرات الواقع بالنظر الى البناء النظرى المستخدم بخاصيتين أساسيتين :

(أ) أنه من خواص التحليل الدينامى هو تناول مجموعة من الظواهر المتساندة تزامنيا بالمعنى الرياضى لذلك .

(ب) ان من الشروط الأساسية للتحليل الدينامى الناجح ، الارجاع أو الاسناد المنظم والمستمر لكل قضية الى حالة النسق ككل . وهو مايحدث أساسا حينما تستخدم المقولات البنائية فى تناول القضايا الدينامية (٦٩) .

ويشكل التفسير الوظيفة الثالثة فيما يتعلق بدراسة الواقع الإجتماعى التى تؤدى النظرية فى اطارها دورا هاما . واستخدام النظرية فى عملية التفسير يكون بالاستشهاد على وجود علاقة معينة بين متغيرين ، وتطوراتها المستقبلة ، ثم طبيعتها الأساسية بالنظر الى قضايا النسق النظرى ، إذا امتلك هذا النسق القضايا التى تيسر ذلك ، إما فى شكل قضايا من المستوى الأعلى أو مانسميها بالتوجيهات النظرية العامة ، أو فى شكل قوانين تجريبية تؤكد العلاقة التى تصورها بالنظر الى وقائع امبيريقية متعددة .

غير أنه فى أحيان كثيرة – حينما لايتيسر البناء النظرى الملائم – يكون على البحث أن يمارس العملية البحثية بالنظر الى نموذج محدد غالبا مايتولى الباحث صياغته واستخدامه . ويؤكد ايرنست ناجل ان النماذج تؤدى وظائف هامة للنظرية فى اطار البحث العلمى (٧٠) ، وقد تؤدى النظرية دور النموذج بالنسبة لنظرية أخرى كما يرى ابراهام كابلان الذى يذهب الى

القول بأن النظرية بدون النموذج تمارس عملية التفسير بشكل مباشر ، أما النماذج فتفسر عن طريق المماثلة (٧١) .

ولاتقتصر وظائف النظرية على التفسير كاحدى وظائفها الرئيسية ، وانما تساعد معرفة الباحث بالنظرية على التنبؤ بالمستقبل فيما يتعلق بموضوع ما . ويعتبر التنبؤ مسألة نظرية أساسا ، وخاصة أنه ليست هناك معطيات امبيريقية تتعلق بالمستقبل الذى لايكون قد تحقق بعد . غير أن الاستعانة بالدراسات النظرية تيسر استكشاف الأفكار والافتراضات المتعلقة بالعمليات التى يفترض صدقها فى تفسير المستقبل . فى هذا الاطار يؤكد البعض أن باستطاعة العلماء الاجتماعيين انجاز ذلك عن طريق استخدام النماذج والنظريات لافتراض النتائج المتوقعة ، فاذا ماتحقق التنبؤ فانه لايعتبر ممارسة لاقيمة لها تصدر عن برج عاجى ، لأنه ينبغى أن نكون على وعى تام بأن التنبؤ الاجتماعى له جذوره فى النظرية والتفسير السوسيولوجى (٧٢) .

# الفصل الثالث

# الاسراتيجيات الأساسية
# لبناء النظرية السوسيولوجية

## المحتويات

## مقــــدمة

شكل بناء النظرية السوسيولوجية والمنهج الذى ينبغى اتباعه فى هذا الصدد موقفا خلافياً فى إطار النظرية العامة للعلم . وبدون الحاجة الى التتبع التاريخى لهذا الخلاف الذى بدأ باغتراب الانساق النظرية التأملية ووظيفتها الأساسية فيما يتعلق بالواقع الذى عايشته – وهو الاغتراب الذى ظهرت النزعة الامبيريقية كرد فعل يعنى رفض كل ماتعنيه هذه الأنساق النظرية التأملية – ثم تكرر الخلاف فيما يتعلق باستراتيجيات بناء النظريات العاملية التى زخرت بها المرحلة الكلاسيكية من تاريخ النظرية السوسيولوجية . فى هذا الاطار سوف نكتفى بتحديد طبيعة الاستراتيجيات المعاصرة لبناء النظرية السوسيولوجية . ومن الضرورى أن نوضح فى هذا الصدد أن تباين استراتيجيات بناء النظرية السوسيولوجية يرجع الى ثلاثة عوامل اساسية . أولها يتمثل فى المرحلة التاريخية التى يمر بها العلم ، ثم حالة التراكم المعرفى الذى تحقق ، وثانيهما إكتمال التفاعل ووضوحه بين مختلف الأبنية النظرية بمستوياتها المتباينة ، وبين معطيات الواقع ومتغيراته وفقا لمحكات تؤكد موضوعية هذا التفاعل . وثالثهما ، طبيعة النظرة المثلى لنقطة البداية التى ينبغى أن ننطلق منها لتأسيس النظرية ثم منطق ادراك متغيرات الواقع وتفاعلاته .

واذا كان تاريخ النظرية السوسيولوجية قد شهد تبلور ثلاثة استراتيجيات لبناء النظرية ، هى ( استراتيجية بناء الأنساق النظرية المغلقة ) و ( استراتيجية بناء النظريات العامة أو الشاملة ) و ( استراتيجية بناء النظريات الخاصة أو المتوسطة المدى ) ، فإن ذلك لايعنى الانفصال التام بين هذه الاتسراتيجيات الأساسية ، فهناك الكثير من نقاط الالتقاء المشتركة ، ثم هناك التقاء حول عدد من الخطوات أو الممارسات التكنيكية ومن ثم فتمييزها على هذا النحو الفاصل يحمل قدرا كبيرا من الارادية والتعسف .

### أولا : استراتيجية بناء الانساق النظرية المغلقة

سادت هذه الاستراتيجية المرحلة الأولى لنشأة النظرية السوسيولوجية ، التى تضمنت أشكالا نظرية متعددة ، يرجع بعضها الى اشتقاقه من فرضيات الأنساق الفلسفية السابقة على نشأة علم الاجتماع ، ويرجع بعضها الآخر الى محاولة نقل قضايا وممارسات علوم أخرى ومتقدمة ألى نطاق علم الاجتماع . ومن ثم فلقد تميزت هذه الأنساق النظرية بمحاولتها تفسير النسق الاجتماعى بالنظر الى فرضيات من خارجه ، واستخدمت معطيات النسق الاجتماعى الواقعى انتقائيا فى اثباتها . وهناك شكلان أساسيان لهذه الأنساق النظرية :

١ – الشكل الأول ويعرف بالأنساق النظرية التأملية ، وهى عبارة عن أبنية افتراضية اشتقت أساسا من الاتجاهات الفلسفية التى عايشت نشأة علم الاجتماع ، وتمثل المثالية والوضعية والنفعية نماذج فكرية لهذه الأنساق . ونظرا للتدريب الفلسفى ولمحاولة فهم الواقع المعاش وتقديم تفسير عقلانى لتفاعله حاول مفكروا هذه الاتجاهات ادراك الواقع بالنظر الى مجموعة من المقولات الفلسفية التى تضفى على الواقع ذاته . ولقد ظلت هذه الأنساق تستمد صدقها من معقوليتها المنطقية وليس من خلال الاختبار الامبيزيقى لفرضياتها الفلسفية ، فاذا أضطر المفكر نفسه الى الاستعانة بمعطيات الواقع فان ذلك غالبا ماكان يتم بشكل انتقائى . ونظرا لتباين « أصولها المعرفية » ، فان جهدها العلمى لم يتجه الى محاولة البحث عن الموضوعية من خلال تأسيس حوار بين متغيراتها المتباينة ومحاولة اختبار فاعليتها بالنظر الى معطيات الواقع . وانما اتجه الى ترسيخ تبايناتها عن طريق فرض تصورات نظرية مطلقة عن الواقع ، وبذلك ظلت مجموعة من الافتراضات الفلسفية الاعتقادية التى تقترب الى حد كبير من شكل التوجيهات النظرية العامة . غير أن الخاصية الرئيسية لهذه المرحلة تتحدد فى أنها كانت تمثل اختلافا عن الفلسفة من حيث كونها تعطى المعطيات الواقعية اعتبارا ولو بشكل انتقائى ، ثم أنها كانت أقل تأملية وانفصالا عن الواقع . هذا بالاضافة الى كونها خير شاهد على تحول وانتقال تاريخى للفلسفة من مجموعة من الفرضيات الميتافيزيقية الى بناءات نظرية ذات قضايا محددة الى حد ما . وذات طبيعة اجتماعية فى برهنتها .

٢ – وتمثل النظريات العاملية الشكل الثانى لاستراتيجية الانساق النظرية المغلقة ، حيث سادت هذه النظريات فى الفترة التالية لنشأة علم الاجتماع ، ولقد شكل هذا النموذج التنظيرى تيارا كاملا يحاول أن يعطى أهمية لأى من العوامل المتعددة فى تحتيم الظواهر الاجتماعية ، واتجهت دائما فى برهنتها الى التأكيد على الأهمية الشاملة لعامل ما جغرافيا ، أم بيولوجيا ، أم اقتصاديا ، أم سيكلوجيا أم اجتماعيا . ولقد أسهم التنظير العاملى فى تخلف تأسيس النظرية العامة للأنساق الاجتماعية ، وذلك عن طريق تركيزها الأساسى على مجموعة من العوامل التى لاتنتسب بشكل محدد للنسق الاجتماعى ، وخاصة العامل البيئى أو البيولوجى أو الاقتصادى على مايذهب تالكوت بارسونز (٧٣) . ورغم امكان استفادة أى علم من الفرضيات أو القضايا التى تحددت فى نطاق علم أخر . فان هذه العوامل كلها درست وبحثت فى اطار علوم أخرى ، ونقلت رؤيتها الى نطاق علم الاجتماع . مثال ذلك التأكيد على العامل الجغرافى ، ونقله من علم الجغرافيا الى علم الاجتماع وهكذا بالنسبة للعامل الاقتصادى ، أو البيولوجى الوراثى،

أو السلالى . ولقد دفع ذلك الى التأكيد على العامل الاجتماعى فقط - كما يذهب دوركيم - وسيطرته على التفاعل الاجتماعى فى مواجهة العوامل الأخرى ، يتضح ذلك من مقولة دوركيم الشهيرة بأن المجتمع حقيقة مفسرة لذاتها (٧٤) . وان تميزت النظريات العاملية باغراقها فى الاطلاقات الافتراضية على غرار التفكير الفلسفى ، وعزوفها عن تعريض قضاياها للتحقيق الامبيريقى ، وهو الشرط الأساسى للاجازة العلمية لأية قضية نظرية ، واتجاها الى البحث عن المعطيات - انتقائيا - لتأكيد العامل الذى تعتبره مستقلا دائما وقادرا على قيادة التفاعل الاجتماعى ، فانها قد أدت دورا هاما فى جمع قدر من المعطيات المتعلقة بالعامل الذى ترى أولوية تأثيره وفاعليته . مما ساعد كثيرا فى مرحلة تالية من مراحل النظرية السوسيولوجية الى أعادة هذا التوازن المهتز بشكل علمى عن طريق اعطاء مجموعة العوامل المتباينة والمشكلة للواقع الاجتماعى أوزانها الملائمة فى صياغة تفاعله . ونظرا للتشابه الكبير بين البناءات النظرية لهذه المرحلة - الأنساق التأملية والنظريات العاملية - فان لنا عليها المآخذ التالية :

أ - ظلت هذه الأنساق النظرية أبعد ماتكون عن أن تشكل معرفة تراكمية ، حيث كان من النادر أن تستند تصورات أى اطار نظرى منفرد على أفكار السابقين عليه . ومن ثم فلقد تأسست نمطيا كتصورات بديلة ومتنافسة وليس كتصورات تتحد وتستمر فى نتاج تراكمى . ورغم أن أعمال رواد هذه المرحلة تشهد على عبقرية بشر موهوبين ، إلا أنها لم ترس الأسس الملائمة للتحليل السوسيولوجى السائد فى علم الاجتماع اليوم ، ومن ثم فرغم كونها انجازات عملاقة فى عصرها ، غير أن عصرها ليس عصرنا (٧٥) .

ب - ان هذه النظريات وخاصة النظريات العاملية أكدت على عوامل مفسرة للتفاعل الاجتماعى من خارج النسق الاجتماعى - اذا أدركناه تحليليا - ومن ثم فقد مالت كلها الى تفسير الظاهرة الاجتماعية بعوامل خارجة عنها ، وليست من داخلها أو متفاعلة تفاعلا جوهريا معها (٧٦) .

ج - انه كان من المضار القاتلة للتنظير العاملى ان انقسم ميدان علم الاجتماع الى مجموعة من النظريات المتحاربة ، حيث امتلكت كل مدرسة تبريرا امبيريقيا قويا لموقفها ، ولكنها فى محاولتها تشكيل أنساق نظرية مغلقة تضمنت صعابا وصراعات مع التفسيرات الأخرى فيما يتعلق بذات الظواهر ، ولقد أسست هذه النظريات مأزقاً لذاتها حينما دفع الكبرياء المهنى والمصالح المستفادة الى الدفاع عن نظرية معينة فى مواجهة أخرى (٧٧)

د – انه كان من نتائج سيادة الأنساق التأملية أو النظريات العاملية أن ظهرت النزعة الامبيريقية المتطرفة ، والتى تنكر بداءة ان باستطاعة النظرية ان تفعل كل شئ للعلم ، بل ذهب مناصرو هذه النزعة الى القول بأن النظرية لا تعدو ان تكون تأسيسا افتراضيا تأمليا يقود بعيدا عن احترام الحقائق ، ومن ثم فقد اعتقدوا ان تقدم العلم يمكن أن يتحقق فقط عن طريق المكتشفات غير الموجهة والمتناثرة للحقيقة (٧٨) .

غير أنه فى مرحلة تالية من مراحل النظرية السوسيولوجية تطورت النظريات من كونها افتراضات تعبر عن وجهة نظر روادها الى تأسيسات نظرية ينتمى اليها علماؤها . ولقد حدثت هذه الانتقالة عبر تاريخ طويل ألغيت فى اطاره الارتباطات العضوية بين ذاتية الباحث أو المنظر من ناحية وبين البناء النظرى من ناحية أخرى ، وتأسست فى محلها رابطة موضوعية بين المنظر والبناء النظرى يستطيع من خلاله الباحث أن يساهم فى بناء النظرية – ان سلبا أو ايجابا – عن طريق تعريض فرضياتها للبحث الامبيريقى ، بحيث انتفت أى رابطة اعتقادية بين المنظر والبناء النظرى . بيد أنه وان شهدت هذه المرحلة ايمانا بقدرة النظرية ودورها فى البناء المعرفى للعلم ، فانه ظهر خلاف جديد حول طبيعة البناء النظرى الملائم للعلم الاجتماعى فى هذه المرحلة . هل النظريات العامة والشاملة التى تجرد عن تراكم المعرفة الذى توفر فى مختلف فروع العلم الاجتماعى هى التى يجب ان نتجه لبنائها ، ثم نتولى تطويرها من خلال علاقتها بالمعطيات الامبيريقية ؟ .

فى مواجهة ذلك ظهر موقف آخر يذهب الى أن التركيز على تأسيس أطر نظرية شاملة ، واشتقاق النظريات الجانبية منها فيه مخاطرة ان تؤسس فى القرن العشرين المعادلات السوسيولوجية للأنساق الفلسفية التى سادت فى الماضى بكل ايحاءاتها المتنوعة ، وبناءاتها الفخمة ، وضحالتها العلمية (٧٩) . ويطرح هذا الموقف تأسيس النظريات الخاصة بنطاقات معينة من الواقع الاجتماعى . وان كان مردودا عليه بأن تأسيس النظريات الخاصة يحمل مخاطرة تأسيس تأملات لأغراض معينة تتسق فقط مع نطاقات محدودة من الملاحظات وغير منسقة فيما بين بعضها والبعض الآخر . ولقد تمخض هذا الموقف عن استراتيجيتين أساسيتين لبناء النظرية السوسيولوجية .

الأولى استراتيجية بناء النظرية الشاملة ، والثانية استراتيجية بناء النظرية المتوسطة المدى .

## ثانيا : استراتيجية بناء النظرية الشاملة

يعتبر تالكوت بارسونز خير من تبنى هذه الاستراتيجية فى بناء النظرية السوسيولوجية ، حيث ينادى فى هذا الصدد بضرورة الاتجاه مباشرة الى تأسيس النظرية الشاملة ، بحيث يستند هذا التأسيس الشامل الى ثلاثة اعتبارات أساسية :

١ – أنه بالنظر الى أن وحدة التحليل الأساسية لديه هى بناء الفعل الاجتماعى كنسق اجتماعى ، فانه كان منطقيا ان تكون النظرية عنده شاملة متخذه من مفهوم النسق البنائى الوظيفى اطارا منطقيا لتنظيم المعطيات التى يحويها الواقع الاجتماعى وأداة مفسرة لظواهره (٨٠) .

٢ – انه اعتبر ان الاطار الأساسى لنظرية الفعل الاجتماعى تستند الى ثلاثة مرتكزات أساسية . نسق الثقافة والتى قدمت الانثروبولوجيا اسهامات واضحة فى اطاره ، ونسق الشخصية الذى قدم علم النفس بقيادة فرويد فهما لعملياتها الأساسية وبنائها الدافعى . والنسق الاجتماعى الذى طور دوركيم وماكس فيبر تصورا لعناصره الرئيسية وعلاقاته وبنائه المعيارى (٨١) .

٣ – ان هذه النظرية بتأسيسه لها تعتبر من وجهة نظر بارسونز دليلا على نضج العلم . لأنها ليست سوى اطار تصورى يحدد المسلك المنهجى للباحث فى تناوله لمعطياته . وفى بنائه لنظريته قام بارسونز بتجريد تعميماته عن قضايا توصلت اليها العلوم الثلاثة من خلال دراستها لمتغيرات الواقع موضع الاهتمام ، ولذلك فالنظرية لديه ذات طابع تجريدى شامل ، ولعل هذه الطبيعية هى التى جعلت عالما مثل جان وايتكر يذهب الى القول بانعدام أية اشارات أو اسنادات امبيريقية فى عمله (٨٢) . وانه قد اتخذ من أعمال دوركيم وماكس فيبر ومارشال وباريتو معطيات وبرهانا ودعما أمبيريقيا لنظريته (٨٣) .

ولتحديد أسلوب بارسونز فى تأسيس النظرية الشاملة نجده يؤكد على المنطق التدريجى فى تأسيسها ، فهى لاتتأسس لديه دفعة واحدة ، يتضح ذلك من قوله انه وان كانت توجد بعض المتضمنات النظرية فيما يتعلق ببعض المواضع النسقية ، فاننا فى المراحل الأولى نجد هذه المتضمنات النظرية هذه قد تكون مبعثرة بعضها عن البعض . وتبدو القضايا الامبيريقية ذات صلة مباشرة بدرجة عامة وغير واضحة . غير انه بسبب تطوير التحليل السوسيولوجى العام ،

وبسبب التراكم المباشر للادلة الامبيريقية المتصله به ، فان هذه المتضمنات النظرية سوف تقترب بعضها من البعض ، وتصبح ملامحها أكثر وضوحا وتحديدا . بحيث تيسر الاستعانة بها فى اقترابنا من الحقيقة .

ويذكر تالكوت بارسونز ان تأسيس النظرية مسألة درجة بهذا المعنى . حيث انه عن طريق ارتباط مجموعات النظريات المتوسطة المدى . وهى الطراز الذى يفضله ميرتون . فان تشابكها واتصال متضمناتها المتبادلة سوف يؤدى الى اندماجها فى كيان للمعرفة اكثر اتساقا وعمومية . وعندما تتكامل هذه النظريات فى النهاية ، تتخلق الحالة المثالية حيث تشتق معظم الفروض الاجرائية والحقيقية للبحث الامبيريقى من النسق النظرى العام . وفى اعتقاد تالكوت بارسونز ان هذه الحالة لم تتحقق الا بالنسبة لعلم الطبيعة . ومع اننا لم نصبح بعد قريبين من مثل هذه الحالة ، إلا أن هذا لايعنى ان أية خطوات فى هذا الاتجاه لا قيمة لها . بل على العكس ، فان أية خطوة حقيقية فى هذا الاتجاه تعتبر تقدما . فعند نقطة النهاية سوف تتحول هذه النظرية المتوسطة المدى الى نسق نظرى شامل (٨٤) . ورغم اهتمام بارسونز بالنظريات الشاملة فاننا نجده فى أكثر من موضع يصرح ان ذلك لايعنى استخفافا بأهمية النظريات الخاصة ، أو بمعنى آخر النماذج الأكثر تواضعا للعمل النظرى . وعلى العكس من ذلك ، يؤكد انه عند هذا المستوى سوف تتأسس المواضع المتنامية للنظرية الشاملة من خلال التفاعل المباشر والفعال بين هذه النظريات الخاصة من ناحية وبين البحث الامبيريقى من ناحية أخرى (٨٥) .

ومن الواضح ان بارسونز فى تأسيسه للنظرية يتخذ من النظريات الخاصة طريقا لذلك . وهو ماقد فعله من خلال تنقيحه لقضايا الأنثروبولوجيا وعلم النفس والاجتماع بهدف صياغة بنائه النظرى عن الفعل الاجتماعى . واذا كانت العمليات الأساسية لبناء النظرية العلمية تتمثل فى عمليتى التأسيس الافتراضى – اذا كان الاتجاه من أسفل الى أعلى – ، أى من التعميمات الامبيريقية الى صياغة التوجيهات النظرية العامة ؛ ثم التنظيم والأشتقاق – اذا كنا نتجه من أعلى الى أسفل – فاننا نلاحظ ان تالكوت بارسونز استند كثيرا الى العملية الأولى دون الثانية متخذا من قضايا النظريات الخاصة للعلوم الثلاثة معطيات تركيبية لتأسيس نظريته الشاملة(*) .

(*) ليست البارسونزية هى النظرية الشاملة فقط فى علم الاجتماع ، وانما تعتبر الماركسية فى بنائها المنهجى من هذا الطراز أيضا ، ذلك لأنها تبدأ من التوجيهات النظرية العامة فيما يتعلق بطبيعة تشكل الحقيقة =

**ثالثا : استراتيجية بناء النظرية المتوسطة المدى**

إذا كان تالكوت بارسونز قد أكد على ضرورة تأسيس النظرية الشاملة التى تتضمن عددا من النظريات الخاصة التى تشتق منها والتى تتناول نطاقات جانبية من خلال اتصالها بعمليات البحث الامبيريقى ، فاننا نجد ان روبرت ميرتون يرى ضرورة تأسيس النظريات الخاصة أولا انطلاقا الى النظرية العامة للعلم . ومن هنا فالمعتقد انه ليس هناك خلاف بينهما حول أهمية النظرية العامة الشاملة أو النظرية الخاصة والمتوسطة المدى بالنسبة للعلم . وانما يتركز الخلاف أساسا حول أى منهما التى ينبغى ان تشكل نقطة البدء الأساسية . ولعل الخلاف بين هاتين الاستراتيجيتين يرجع الى خلاف فى المنطلقات الأساسية لكل منهما ، فبينما كان الأول نتاجا للتنظير الأوربى الشامل ، فان الثانى كان تحديا للفكر الأمريكى فى علم الاجتماع الذى استغرق فى ممارسات امبيريقية فجه لم تستطع ان توفر قضايا نظرية ذات قيمة ، وان طورت أدوات منهجية غاية فى الدقة . ومن ثم فاذا كانت حاجة الأول هى اختبار الفرضيات النظرية التى قد يؤسسها فى ضوء معطيات الواقع ، فان الثانى ركز أساسا على صياغة مجموعة من التعميمات الامبيريقية المتوافرة التى قد تيسر ذلك . أما السبب الثانى لاختلافهما الاستراتيجى فيرجع الى طبيعة الالتزام النظرى لكل منهما تجاه النسق الواقعى . فبينما نجد ان بارسونز لديه التزام كامل بكلية النسق ، أعنى ضرورة افتراض ان كلية النسق تشكل تكوينا تصوريا قبل اجراء أى بحث أو تحليل للأنماط المحددة (٨٦) ، فاننا نجد ان ميرتون التزم بجزئية النسق كمدخل لتحليله ، وليست كليته ، وان تباين الالتزام بين الكل والجزء أدى الى تباين الالتزام بمستوى النظرية ومنطق بنائها ، اذ يتقابل تأكيد بارسونز على النظرية الشاملة مع تأكيد ميرتون على النظرية المتوسطة المدى ، ومن ثم نجده يتبنى مدخلا أكثر امبيريقية الى حد كبير (٨٧) .

وتبدأ استراتيجية ميرتون بنقده للنظريات الشاملة بتأكيده اننا نلاحظ فى الآونة الأخيرة ميلا نحو تأسيس النظرية الشاملة التى يجد فيها الباحث كل شئ معدا . مثل هذا الاتجاه الى

---

= الواقعية والقوانين التى تعمل وفقا لها . ثم تتدرج من ذلك الى تأسيس بعض النظريات الخاصة التى تحتوى على بعض القضايا الامبيريقية المشتقة اصلا من هذا الاطار النظرى العام للنظرية الماركسية ، مثل نظرية الطبقة والصراع والتغير الاجتماعى ، وطبيعة ترتيب العناصر البنائية وتفاعلها بعضها مع البعض ، ومن ثم فما يصدق على البارسونزية من حيث كونها نظرية شاملة فى شكلها المنهجى واستراتيجية بنائها يصدق على الماركسية أيضا . وعلى نظريات كل من دوركيم وماكس فيبر أيضا .

هذا التأسيس الشامل سوف يواجه نفس التحدى ، ونفس المصير الذى انتهت اليه الأنساق الفلسفية الشاملة لكل شئ ، والتى سقطت الآن فى نوع من الاهمال الذى تستحقه . ان القول بذلك اعتبره غريبا وغير ناضج . فنحن لسنا على استعداد ، فالعمل الممهد لذلك لم ينجز بعد (٨٨) . ثم يذهب الى ان ثمة عوامل أربعة دفعت الى هذا الاتجاه الخاطئ .

١ – أدى نجاح العلوم الطبيعية وضخامة الانجازات التى حققتها الى دفع الكثيرين نحو مقارنة علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية بالعلوم الطبعية . ومن ثم الوصول الى نتيجة خاطئة ، فى أنه من الضرورى أن تكون انجازاتها مثل انجازات هذه العلوم ، وأيضا أن يكون لعلم الاجتماع نظريته الشاملة مثل ما للعلم الطبيعى . ثم يؤكد ان السبب فى ذلك يرجع الى تجاهل التاريخ الطويل من المعاناة والبحث الذى مرت به العلوم الطبيعية ، وذلك لمجرد ان علماء الاجتماع وجدوا أنفسهم يعيشون ذات اللحظة التاريخية التى تعيشها العلوم الطبيعية (٨٩) .

٢ – انه نظرا لضآلة المعطيات لدى علماء الاجتماع فى مواجهة المطالب الملقاة على عاتقهم من قبل رجال السياسة ، والمصلحين ورجال الأعمال ، فقد دفع ذلك علماء الاجتماع الى نوع من الاعتقاد والحماسة فى أنهم بطريقة ما ينبغى ان يكونوا قادرين على مواجهة هذه المتطلبات مهما كانت فجة أو غير ناضجة (٩٠) . ومن ثم فقد اعتقدوا أن تأسيس النظرية الشاملة يمكن أن يكون وسيلة جوهرية لتحقيق ذلك .

٣ – اعتقد علماء الاجتماع – خطأ – ان الكفاءة تعنى القدرة على مواجهة كل المطالب ، ذلك أنه يحدث فى المراحل المبكرة للعلم المبتدئ أن يسعى رواده بنفس الأسلوب وراء مطالب فجة ، مثل طلبهم ان تكون لديهم أنساق كلية شاملة من النظرية المناسبة لأى نوع من المشاكل أو القضايا التى تدخل فى نطاق هذا العلم (٩١) .

٤ – ان الأزمة الاقتصادية التى ظهرن فى الولايات المتحدة فى الثلاثينيات أثبتت بما لا يدع مجالا للشك ان الاتجاه الامبيريقى الذى شكل الطبيعة الأساسية لعلم الاجتماع الأمريكى فشل فى مواجهة هذه الأزمة ، ومن ثم يعتبر التنظير والاغراق فى طلب النظريات الشاملة رد فعل حادا لهذه الأزمة ، فهو يمثل بحثا عن اطار نظرى يجنب المجتمع الأمريكى وقوعها ثانية (٩٢) .

وتتحدد استراتيجية ميرتون فى بناء النظريات المتوسطة المدى من خلال تعريفه لمصطلح النظرية الاجتماعية الذى يشير من وجهة نظره الى التصورات المترابطة منطقيا ، تلك التصورات المحدودة والمتواضعة فى نطاقها ، وليست تلك الشاملة والمتضمنة لكل شئ (٩٣) . فهو يؤكد ان هناك معضلة أساسية تواجه علم الاجتماع الآن وينبغى التصدى لها ، وهى الهوة التى تحدث الآن داخل العلم بين النظرية ومعطيات الواقع ، اذ غالبا ماتكون الأفكار أكثر نموا وتطورا فى سرعتها عن قدر البحث الامبيريقى اللازم لاختبار هذه الأفكار أو توضيحها (٩٤) . فالمشكلة عند ميرتون تتمثل اذن فى قيام نظرية لابد ان تكون ذات صلة بالأبحاث الامبيريقية التى تدعمها (٩٥) . ثم يطرح ميرتون صيغة النظرية المتوسطة المدى لكى يعبر بها الفجوة بين التنظير الشامل من ناحية والنزعة الامبيريقية من ناحية أخرى (٩٦) . وهو يؤكد ان الأنساق الشاملة ينبغى ان تخلى الطريق للنظريات المتوسطة المدى ، والأقل مهابة وجلالا ، ولكنها الأكثر ثراء من حيث الأسس والمرتكزات . ثم يذهب الى القول بأننا لانتوقع من أى فرد ان يخلق نسقا أو مخططا لنظرية تقدم حلولا لكافة القضايا الاجتماعية والسوسيولوجية ، فالعلم ، والعلم السوسيولوجى ليس بهذه البساطة (٩٧) . ثم يؤكد انه قد يبدو معقولا ان نفترض ان علم الاجتماع سوف يتقدم الى الدرجة التى سوف ينصب اهتمامه الرئيسى على تطوير نظريات ذات نطاق متوسط ، وانه سوف يحبط اذا ركز انتباهه على النظرية من النوع الشامل (٩٨) .

لكن ما هى طبيعة النظرية المتوسطة المدى ؟ يقدم ميرتون الاجابة على ذلك بقوله ان وظيفتنا الرئيسية اليوم هى تطوير نظريات خاصة ملائمة لنطاقات محدودة من المعطيات ، على سبيل المثال نظريات عن ديناميات الطبقة ، عن ضغوط الجماعات المتصارعة ، عن القوة وممارسة التأثير ، بدلا من البحث منذ البداية عن بناء تصورى ( متكامل ) ملائم لاشتقاق كل هذه وغيرها من النظريات(٩٩) . ويعنى ذلك تأكيد ميرتون على ضرورة الاقتصار فى هذه المرحلة على بناء النظريات التى تغطى جوانب من البناء الاجتماعى أو تتناول بعض متغيراته ، غير ان ذلك لايعنى اغفاله للنظرية العامة وعدم الاهتمام بها . وانما مايراه هو أن تكون الأولى طريقا لتأسيس الثانية ، اذ يؤكد أنه من خلال تأسيس النظريات الخاصة الملائمة لنطاقات محدودة من المعطيات الاجتماعية ، يمكن تطوير اطار تصورى أكثر عمومية وقدرة على ضم هذه المجموعة من النظريات الخاصة فى اطار نظرى شامل . واذا كانت عملية التأسيس الافتراضى والتنظيم قد أدت دورا محوريا فى بناء النظرية عند بارسونز . فان ميرتون يستند فى بنائه النظرى على عمليتى التأسيس والاشتقاق ، حيث تتأسس القضايا عن علاقات الواقع ومعطياته . ثم يعاد

توجيهها نحو قيادة البحث الامبيريقى فى نطاق مجالات خاصة بالنظر الى كونها فروضا اشتقت من قضايا جردت عن ذات الواقع أو واقع مماثل .

وجهة نظرنا فى هذا الصدد تتمثل فى أنه وان كنا نوافق ميرتون على أن الاتجاه الى بناء النظريات الشاملة فيه تهديد الاستغراق فى ممارسات تأملية بعيدا عن معطيات الواقع المتفاعلة . بيد اننا نختلف معه فى ضرورة ان نعمل على تأسيس التصورات الشاملة من خلال الالتزام بكلية النسق وان كنا نفرض استناد هذه الكلية الى التوازن البارسونزى . وفيما يتعلق بموقف ميرتون فقد نتفق معه على ضرورة ان تكون القضية الامبيريقية هى التعميم الرئيسى لصياغة البناء النظرى ، بيد اننا نختلف معه فى ان الاستغراق فى تطوير قضايا امبيريقية يتعلق بنطاقات خاصة من الواقع الاجتماعى فيه تهديد ان نفقد البعد النسقى الشامل ، وهو بعد أساسى فى تحليل أية واقعة جزئية بدونه يفتقد علم الاجتماع القدرة على تقديم فهم مجتمعى للعمليات الأساسية ومثالياتها الجزئية ، والوقوف عند مستوى الفهم الاجتماعى القاصر على رؤية الواقعة من داخلها . دونما قدرة على رؤية أبعادها الخارجية ذات التأثير الأكبر ونوجز ذلك فى ثلاثة اعتبارات أساسية .

١ - الحاجة الى نظرية شاملة تتبنى رؤية شاملة ونسقية للواقع مع الأخذ فى الاعتبار عدم استناد هذه النسقية لأى من العمليات الأساسية بشكل مطلق .

٢ - ان يستند بناء هذه النظرية الشاملة من خلال ماوفرته النظريات العامة فى علم الاجتماع من تصورات شاملة ، ومن قضايا امبيريقية تصلح - عند اعادة تحليلها - أساسا لاختبار فاعلية التعميمات النظرية العامة لهذه التصورات الشاملة .

٣ - اننا فى حاجة الآن الى صياغة النظرية فى علم الاجتماع بمعنى Formalization ذلك انه قد أنفق جهد كبير فى عملية تأسيس النظرية ، سواء على المستوى المتوسط المدى أو الشامل . ما نحتاجه الآن هو اعادة صياغة النظريات القائمة لتحديد القضايا المتماثلة - التى تتعلق بموضوع محدد - فى مختلف النظريات القائمة تلك التى ثبت صدقها عند تعريضها للفحص والاختبار الامبيريقى . كصياغة نظريات عن الفعل الاجتماعى ، عن النظام الاجتماعى ، عن التغير الاجتماعى ، عن النسق ومكوناته الأساسية أو عن تفاعلاته الدينامية ، وذلك من خلال الفحص المنطقى والامبيريقى للتعميمات القائمة الآن فى علم الاجتماع . بهدف تأسيس نظرية شاملة ، تمتلك الرؤية الشاملة دون الاستغراق

التفصيلى ، وتمتلك الصدق الامبيريقى والاتصال بالواقع ، وهى خاصية لم تتوافر للأنساق الفلسفية الشاملة .

## رابعا : نظريات المرحلة الكلاسيكية ، الاطار التحليلى

تدخل دراسة النظرية الاجتماعية فى أطار ادبيات علم اجتماع المعرفة ، وفى بعض جوانبها داخل نطاق فلسفة المعرفة . ويختلف تناول النظرية الاجتماعية بالتحليل والبحث والدراسة عن تناول أى موضوع آخر ، لأنه تحليل ودراسة للأفكار ذاتها ، بل وأكثر نماذج الأفكار تجريداً . وقد بذلت محاولات كثيرة فى هذا الصدد ، غير أن الكثير منها صدر عن غير المتخصصين ، الأمر الذى أسهم فى النهاية فى تعقيد الأمور . أحيانا كان العرض بسيطا ومبسطا حتى أصبح مخلاً ، وأحيانا أخرى كان أكثر تعقيداً حتى أصبح دلالة على عدم الفهم . الأمر الذى أصبح من الضرورى معه مواجهة هذه الظاهرة ، خوفاً من تشويه تصور العقل العربى لمعنى النظرية ، ونطاق العمل فيها ، وآفاق الأسهام المحتملة . من هنا فقد أصبح من المفيد ان نعرض لاطارنا المقترح لتحليل النظرية الاجتماعية ، غير اننا قبل أن نعرض لذلك نرى ضرورة طرح عدد من الاطر التحليلية التى تبناها بعض المشتغلون بالنظرية الاجتماعية .

ويعتبر تحليل النظرية بالنظر الى السياق الاجتماعى لمحاولة فهم قضاياها من المحاولات الأولى لفهم النظرية الاجتماعية ، ويعتبر هارى الد بيرنز Barnes فى مؤلفه « الفكر الاجتماعى من البدعة الى العلم Social Thought From Love to Science » من المحاولة الأولى فى هذا الصدد ، يضاف اليها محاولة هانز موس Hans Mauss فى مؤلفه « تاريخ الفكر الاجتماعى History of Social Thought » . ويحاول هذا الأسلوب فى التحليل تحليل النظريات الاجتماعية بالنظر الى السياقات الاجتماعية التى ظهرت فيها ، كدراسة النظريات التى ظهرت فى المجتمع اليونانى أو المجتمع الايطالى ، أو الفرنسى ، أو الانجليزى ، أو الامريكى أحيانا يجتهد هذا الأسلوب فيربط بعض قضايا النظرية ببعض أحداث السياق الاجتماعى ، وأحيانا أخرى يعالج النظرية بتحليل مفاهيمها وقضاياها الأساسية دون ربطها بأحداث معينة فى السياق اللهم سوى انتمائها لهذا المجتمع أو ذاك .

ويؤخذ على هذا الأسلوب فى دراسة وتحليل النظرية الاجتماعية إغفال فاعلية السياق الاجتماعى ، سواء المحلى أو الاشمل ، حيث نجد أن قضايا كثير من النظريات ليست سوى تجريد لبعض التفاعلات الواقعية . من ناحية ثانية يتجاهل هذا الأسلوب فى غالب الأحيان وضع النظرية الاجتماعية فى سياقها الفكرى ، فالنظرية الاجتماعية ، هى حلقة فى تطور ،

نسق التفكير العلمى، حيث نجد أن كثيراً من مفاهيم هذا النسق وقضاياه قائمة فى بناء النظرية موضع الدراسة ولو فى اطار نسقى جديد ، اضافة الى ان هذا الأسلوب فى التحليل يتجاهل الوظيفة الأيديولوجية للنظرية الاجتماعية ، وهى الوظيفة التى برزت بوضوح فى فترة الحرب الباردة .

ويتمثل الأسلوب الثانى فى أسلوب التحليل العلمى ، وهو الأسلوب الذى يرى فى النظرية مجرد حلقة فى تطور أو نمو التفكير العلمى ، ونعتبر مؤلف دون مارتندال « طبيعة ونماذج النظرية الاجتماعية » The Nature and Types of Social theory أفضل ممثل لهذا الإتجاه، حيث يرى فى النظرية احدى وحدات نسق التفكير العلمى ، يشكل ماسبقها مقدمات لها ، وهى تشكل بدورها مقدمات لما سوف يأتى بعدها . ويدخل فى نطاق هذا الأسلوب أيضا التحليل الذى قدمه كل من بيرسى كوهن Percy Cohen فى مؤلفه « النظرية الاجتماعية الحديثة » Modern Social theory وجون ركس John Rex « قضايا أساسية فى النظرية الاجتماعية » . وغير ذلك من التحليلات العديدة التى تبنت هذا الأسلوب .

ومما يؤخذ على هذا الأسلوب أنه لايهتم كثيراً بالنظر الى النظرية باعتبارها ، فى بعض قضاياها ، تعتبر انعكاساً للتفاعل الاجتماعى القائم ، فهو لايحاول ربط أى من المقولات النظرية بتفاعلات السياق الاجتماعى . كذلك يؤخذ على هذا النمط من التسجيل أنه يغفل تماما الوظيفة الأيديولوجية للنظرية ، مقتصرا على المستوى الابستيمولوجى فى معالجته للنظرية الاجتماعية .

ويمكن أن نسمى الأسلوب الثالث لتحليل ودراسة النظرية الإجتماعية بأسلوب التحليل التاريخى ، وهو الأسلوب الذى يحاول أن يؤصل للبداية التاريخية لظهور مفاهيم النظرية وقضاياها الرئيسية ، محاولا ان يبحث عن هذه الأصول أما فى المجتمع اليونانى القديم ، أو المجتمعات الشرقية ( الصين ، الهند ، مصر ) وحتى أوربا القرون الوسطى ثم يحاول بعد ذلك تتبع الانتقال والتحول والتطور التاريخى للمفهوم حتى بلغ تحديده الحالى . اذ يرى هذا الأسلوب فى النظرية نتاج لتراكم تاريخى عبر قرون عديدة من الزمن ، حيث يميل دائماً المنظر فى هذا الأسلوب إلى البحث عن الجذور . اضافة الى تحديد القضايا النظرية العلمية التى تشكل بناء النظرية حاليا ، كما يفعل الباحثون الذين يميلون الى تسجيل النظرية وفقا للأسلوب الثانى .

وان وفر هذا الأسلوب قدرا هائلاً من المعلومات التفصيلية المتصلة ببناء النظرية ، وهو الجهد الذى يفيد فى الأغراض التعليمية الا أنه لم يذكر شيئا عن العلاقة بين قضايا النظرية من ناحية واحداث السياق الاجتماعى من ناحية أخرى ، اضافة الى أنه لايذكر شيئا عن المتضمنات الايديولوجية لأى نظرية من النظريات ، باعتبار ان اصحاب هذا الاتجاه ينفقون كل جهدهم فى معالجة الجوانب المعرفية للنظرية ، فى مقابل تجاهل الوظائف الأيديولوجية لأى نظرية من النظريات . ويعتبر مؤلف بيترم سروكن ، P.Sorokin النظريات الاجتماعية المعاصرة . Contemporary Sociological Theories

ويعتبر تحليل النظرية ودراستها بالنظر الى السياق الاجتماعى هو الأسلوب الرابع الذى يتبعه عدد من الباحثين . ويعتبر مؤلف ألفن جولدنر Alvin Gouldner الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى The coming Crisis of western Sociology من أهم المؤلفات التى تجسد هذا الاتجاه فى دراسة النظرية الاجتماعية وتحليلها .

ويميل هذا الاتجاه الى التركيز على بعدين رئيسيين الأول ان النظرية الاجتماعية هى انعكاس لأحداث السياق الاجتماعى على الصعيد المحلى الذى تتصاعد دوائره فى الاتساع حتى السياق العالمى . فقضايا النظرية تعكس أحداث الواقع ومايحدث فيه من تفاعل ، اضافة الى علاقة السياق المحلى بالسياقات المحلية الأخرى فى اطار النظام العالمى ، ومايقع فى الأخير من أحداث وتفاعلات . فالنظريات الاجتماعية الشاملة أو ذات الرؤية الكلية اتجهت الى رفض بعضها البعض فى فترة الحرب الباردة ، لكنها بدأت تنجذب الى بعضها البعض فى فترة الوفاق الدولى ، ذلك ينطبق بالتحديد على العلاقة بين الماركسية والبنائية الوظيفية فى علم الاجتماع .

ويتمثل البعد الثانى فى تأكيد هذا الاتجاه بصورة محدودة على البعد الأيديولوجى للنظرية الاجتماعية و ان أكد هذا الاتجاه على محورية البعد الابسيتمولوجى للنظرية فانه يميل فى كثير من الأحيان الى التذكير ببعض الوظائف الايديولوجية للنظرية وان احتلت مكانة ثانوية فى هذا التحليل . اضافة الى ذلك يغفل هذا الأسلوب نسبيا الحديث عن الأصول المعرفية للنظرية ، أو النظر الى النظرية باعتبارها وحدة فى نسق التفكير العلمى .

ويمثل اسلوب التحليل الايديولوجى أسلوب التحليل الخامس فى هذا الصدد . ويعتبر مؤلف ارفنج زايتلن Irving Zeitiln « الايديولوجيا وتطور النظرية الاجتماعية Ideology and the development of sociological theory" من أفضل المؤلفات فى هذا الصدد .

حيث يتصور هذا الأسلوب نشأة النظريات وظهورها استجابة لبعضها البعض . بمعنى انه اذا كانت النظرية الماركسية تقوم بتحليل النظام الرأسمالى ونقده ، لتحديد القوانين التى تحكم التحرك نحو المجتمع الشيوعى التى ترى فيه النظرية المجتمع الأكثر اكتمالا والذى يتخلص من الاغترابات ، فاننا نجد عدد من النظريات الأخرى تظهر - حسبما يذهب هذا الأسلوب - لتفنيد النظرية الماركسية ، والدفاع عن المجتمع الرأسمالى . فالنظرية من خلال هذا الأسلوب تدافع عن واقع معين ، أو تدين آخر . وتبرز الوظيفة الأيديولوجية باعتبارها اكثر الوظائف أهمية ووضوحاً .

وقد يهتم هذا الاسلوب نسبيا بالنظر الى النظرية كوحدة فى تطور نسق التفكير العلمى ، وقد يسقط تأثير احداث السياق الاجتماعى على مقولات النظرية الاجتماعية ، غير ان التأثير الواضح يظل منسوبا للمتغير الايديولوجى بالأساس .

وفى محاولتنا لتحليل النظرية الاجتماعية رأينا ان يتم ذلك بالنظر الى اطار تحليلى نحاول قدر الامكان ان يكون أكثر كفاءة وفعالية ، وهو اطار وان كان لايلتزم حرفيا بأى من الأطر السابقة إلا أنه استعان ببعض متغيراتها الأساسية . وتتشكل متغيرات هذا الاطار بالنظر الى مجموعة المتغيرات التى نعتقد فى اتصالها العضوى ببناء النظرية الاجتماعية .

واذا كنا نعتقد ان المتغيرات ذات التأثير فى بناء النظرية الاجتماعية هى مكانة النظرية فى بناء نسق التفكير العلمى ، وأيضا الحياة الشخصية للمنظر ، وطبيعة احداث السياق الاجتماعى الذى تعتبر النظرية فى بعض مقولاتها انعكاساً لتفاعلاته ، فاننا اسسنا الاطار التحليلى الذى يضم العناصر التالية :

١ - الحياة الشخصية للمنظر الذى لعب دوراً اساسيا فى بناء النظرية ، ففما لاشك فيه ان للحياة الشخصية للمنظر تأثيرها على بناء نظريته ، حيث نجد أن للأحداث الشخصية تأثير نسبى على طبيعة الظواهر التى تصدى لها المنظر بالتحليل والبحث ، ومن ثم التعميمات والقضايا التى وصل اليها من خلال دراسته لهذه الظواهر والأحداث فمثلا من المسلم به ان هنا تأثير ليهودية ماركس على موقفه من الدين ، وهناك تأثير لانتماء دوركيم لمقاطعة الالزاس - موضع التنازع حينئذ بين ألمانيا وفرنسا - على افكاره فيما يتعلق بروح الأمة وعقلها الجمعى . كذلك هناك تأثير للبعد اليهودى لمنظرى المدرسة النقدية فى علم الاجتماع على كثير من افكارهم . وكذلك هناك تأثير للحياة الشخصية لفلفريدو باريتو على كثير من افكاره النظرية كدورة الصفوة أو الموقف من الاشتراكية .

٢ – وتشكل الجذور الفكرية العنصر الثانى فى الاطار التحليلى المقترح ، حيث تشكل الجذور الفكرية جوهر العلاقة بين نسق التفكير العلمى من ناحية ، وبين النظرية موضع التحليل والاهتمام من ناحية أخرى . فى هذا الاطار ، فإننا فى معالجتنا لأى نظرية من النظريات كنا نعمل دائماً على وضعها فى مكانة على خريطة نسق التفكير العلمى ، عن طريق تحديد الصلة التى تربط النظرية بجذورها القائمة فى نسق التفكير العلمى ، لتحديد طبيعة تأثير نسق التفكير العلمى على بعض قضايا النظرية موضع التحليل ، من ذلك مثلاً نسبة الجدل الماركسى الى الجدل الهيجلى ، الذى يرجع بدوره الى الجدل فى نسق الفلسفة اليونانية القديمة عند هيراقليطس . أو إسناد فكرة العقل الجمعى عند إميل دوركيم فى بعض جوانبها الى فكرة الروح العامة أو الفكرة المطلقة عند هيجل ، أو إسناد المنهجية الدوركيمية الى تأكيد أوجست كونت على نموذج العلم الطبيعى .

٣ – ويتشكل العنصر الثالث فى الاطار التحليلى من البناء المنهجى للنظرية موضع التحليل ، ذلك اننانقتنع أن أى نظرية من النظريات لها اقتراب منهجى من الواقع محدد وخاص بها . حيث يحتوى هذا العنصر المنهجى فى بناء النظرية على طبيعة تصور النظرية للحقيقة الاجتماعية ، ومنطق تناول الباحث لها بالبحث والدراسة ، وفى بعض الأحيان ماهى أدوات البحث الأكثر ملائمة للنظرية فى تناولها للباحث على سبيل المثال تصور الحقيقة الكلية بين ماركس وأوجست كونت مثلاً يفرض على الأخير ادراكها ادراكا استقرائياً بينما الأول يدركها ادراكا تطوريا وتاريخيا . أو ان تباين منطق ادراك الحقيقة بين ماكس فيبر ودوركيم ، جعل الثانى يؤكد على ضرورة الادراك الموضوعى للظاهرة موضع الأهتمام بينما أوصى الأول بضرورة التفهم والادراك الذاتى للواقعة موضع الدراسة .

٤ – ويشكل التصور الذى تطوره النظرية للواقع الاجتماعى العنصر الرابع فى الاطار التحليلى . وهو العنصر الذى يشكل الجانب الأساسى أو العينى Substantive فى بناء النظرية . ونحن نعتقد انه لاخلاف بين رواد النظرية الاجتماعية فيما يتعلق بالمتغيرات المشكلة للواقع الاجتماعى . ولكن يكمن الخلاف الرئيسى بين النظريات فى طبيعة ترتيب هذه العناصر بالنظر الى بعضها البعض ، وأيضاً فى طبيعة العلاقات القائمة بينها . إذ تدرك غالبية النظريات الواقع بإعتباره يتكون من المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية أو الدينية ، ولكنها تختلف حول المتغيرات ذات الأولوية ، فبينما تؤكد

الماركسية على المتغيرات الاقتصادية تؤكد نظرية إميل دوركيم على المتغيرات الاجتماعية ، على حين يعطى فيبر متغير الدين والثقافة كمتغير له الأولوية ، بينما يؤكد باريتو على فاعلية دورة الصفوة كمتغير سياسى .

ولأن النظرية الاجتماعية كانت دائماً انعكاساً لازمة أو مشكلة يمر بها النظام الاجتماعى . يحاول المنظر تشخيصها وتحديد طبيعتها وطرح الحلول الملائمة لها . فقد رأينا ان تكون هذه الأبعاد هى ابعاد التصور النظرى الذى بناء عليه يتم تحليل أى نظرية من النظريات . ومن ثم فقد كانت تدور قضايا التصور العينى أو الواقعى للنظرية حول طبيعة مشكلة النظام الاجتماعى كما تشخصها النظرية ثم ماهى عناصر هذه المشكلة أو متغيراتها ، ثم ماهو الحل الذى تطرحه النظرية للخروج من مشكلة النظام الاجتماعى التى تعتبر النظرية انعكاسا لها فى بعض جوانبها .

٥ - يبقى بعد ذلك ان نوضح اننا لم نعطى بعد الايديولوجيا اعتبارا كبيراً فى تحليلنا لمختلف النظريات الاجتماعية ، وذلك لاعتبارين . الأول اننى أرى أننا كباحثين فى علم الاجتماع ينبغى أن نهتم بالجوانب الايستيمولوجية لأى نظرية من النظريات لأنها تشكل الأساس الجوهرى لبناء النظرية . باعتبار أننا ندرك النظرية باعتبارها اطاراً فكرياً أو منهجاً لوصف تفاعلات الواقع وتحليلها وتفسيرها للوصول الى بعض التعميمات التى تيسر ضبط التفاعل الواقعى والسيطرة عليه ، وتوجيهه الى أوضاع فى المستقبل نتنبأ بها ، ونوجه هذا التفاعل نحوها ، وتلك هى الوظيفة الأساسية للنظرية العلمية .

ويتمثل الاعتبار الثانى فى انتهاء عصر الايديولوجيا وهو العصر الذى ازدهر فترة العصر الباردة ، واصبح خافتا للغاية فى فترة الوفاق أو التجانس التى يتجه اليها النظام الدولى . ولأننا نعتقد ايضا ان التبرير الايديولوجى قد يكون احد وظائف النظرية الاجتماعية لكنه لاينبغى ان يكون مكونا محوريا فى بناء النظرية الاجتماعية .

## مراجع الباب الأول

(١) سمير نعيم : النظرية فى علم الاجتماع ، دراسة نقدية . مكتبة سعيد رأفت . الطبعة الأولى . القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٢٤ .

(2) Skidmore,Willam:Theoretical Thinking in Sociology.Cambridege University Press.Loondon.1975 P. 249.

(٣) سمير نعيم : مرجع سابق ، ص ٢٠ .

(4) Merton,Robert.K : Social Theory and Social Structure. the free Press. Gleonce. 1962. P. 3 .

(٥) زكريا ابراهيم : مشكلة الفلسفة . مكتبة مصر . الطبعة الثالثة . ١٩٧٠ ، ص ١١٢ .

(٦) سمير نعميم : مرجع سابق ، ص ٢٢ – ٢٣ .

(7) Sorokin, Pitrim : Contemporary Social Theories. New York . Harper. 1928 .

حيث يعرض الكتاب بكامله لكافة النظريات العاملية التى ترى آن عاملا أساسيا من وجهة نظر المدرسة هو الذى يلعب دور المتغير المستقل . ويحتم سير التفاعل والعلاقات الاجتماعية من وجهة معينة .

(8) K.R.Merton : Op. Cit. p. 87 .

(٩) علياء شكرى ، محمد على محد : قراءات معاصرة فى علم الاجتماع : النظرية والمنهج . سلسة علم الاجتماع المعاصر . الكتاب التاسع . شركة دار النشر المتحدة . القاهرة . الطبعة الأولى . ١٩٧٢ . ص ١٥٢ .

(١٠) محمد الجوهرى وآخرون : ميادين علم الاجتماع ( ترجمة وتحرير ) . دار المعارف بمصر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠ ، ص ٦٨ .

(١١) عبد الباسط حسن : أصول البحث الاجتماعى . مكتبة وهبه . الطبعة الخامسة ، ١٩٧٦ ، ص ٢٢٢ – ٢٣٢ . وبخاصة ٢٣١ .

(١٢) علياء شكرى ، محمد على : مرجع سابق ، ص ١٦٥ – ١٧٦ .

(13) Kaufmans, Felix : Methodology of the Social Sciences. New York . Oxford University Press . 1944 . p . 97 .

(14) Parsons, T : the Structure of Social Action. New York Mac-Graw-Hill . 1037. p. 432 .

(15) Cohen, Percy. S : Modern Social Theory. Heinemann. London. 1968. P. 11 .

(16) Ibid. p. 12 .

(17) Ibid. pp. 12-13 .

(١٨) سمير نعيم : مرجع سابق ، ص ٢٤ .

(19) Dahrendorf, Ralf : Class and Conflict in Industrial Society . Stanford University Press. Stanford. 1959. p. 129 .

(٢٠) على ليلة : البنائية الوظيفية فى علم الإجتماع والأنثرولوجيا ( المفاهيم والقضايا ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ ، ص ٤٩ .

(٢١) نفس المرجع ، ص ٤٩ .

(22) Parson, Talcott : The Social System, The Free Press, Glencoe, Tllinois, 1952, P.349

(23) Johnson, Harry. M : Sociology, A systematic Introduction, Routleclye & kegan Paul, LTD, London, 1961, Pp. 581 - 588 .

(24) Bred emier, H.C & Stephenson : The analysis of Systems. Halt Rimehart. London , 1970, P. 310

(25) Harry Johnson : Op, cit, P. 606

(26) Ibid, P. 389

(27) Zeitlin, Irving, Ideology and The Development of Sociological theory, N.J. : Prentice - Hall, 1968, P.82 .

(28) Gouldner, Alvin : The Coming Crisis of western Sociology, Heinman , London, 1971, P. 9

(29) Aron, Raymond : Main Currents in Sociological thought., Vol I, London, 1967 , P. 176 .

(30) Harry M. Johnson : Op, cit, P. 607

(31) Barber, Bernard : Structural - Functional analysis, Some Problems and Misunder-Standing . Ame, Soc, Vol. 21, No.2, 1956 P. 135

(32) R.K.Merton : Op, cit, P.42

(33) Ibid, . p. 5 .

(34) Ibid. p. 98 .

(35) T. Parsons : Op. cit. p . 28 .

(36) Soltiz, C. Jahoda & Others : Research Methods in Social Relations. New York. 1963. p. 480 .

(37) Ibid . p. 41 .

(38) Fairchild. H. P : Dictionary of Sociology. Totowa. 1967. p. 54.

(39) Riley. M. w : Sociological Research. A Case of opproach. New york. 1963. p. 5 .

(40) R. Merton : Op. cit.p. 90 .

(41) Ibid . p. 90 .

(42) Ibid. p. 93 .

(43) Galtung. Johan : Theory and Methods of Social research. London. 1967. p. 451 .

(44) Homans. G. C : Contemporary theory in Sociology in Handbook of Modern Sociololgy. (ed) By. R. Faris Chicago. p. 951 .

(45) Nagel. Ernest : The Structure of Science : Problems in logis of Scientific explanation. Harcourt Brace & Word. Inc. New York. 1961. p. 91 .

(46) R. Merton : Op. Cit. p. 99 .

(47) P. Cohen : Op. Cit. pp. 2-3 .

(48) R. Merton : Op. Cit. pp. 87-89 .

(49) Dewey. John : The Theory of Inquiry, New York. Henry Hok and Co. 1938. p. 305 .

(50) Ibid. p. 85 .

(51) Haye. Jerald : Thechniques and Problems of Theory Construction in Sociology . New York. Willey. 1972. p. 72 .

(52) Stinchcombe, Arther. L : Constructing Social Theories. New York. Harcourt. 1968. p. 123 .

(53) Mullins. Nicholas. C : The art of Theory Construction and use. New York. Harper & Rew. 1971. p. 83.

(54) A. L. Stinch Combe : Op. Cit. p. 127 .

(55) Ibid. p. 132 .

(56) W.Skiedmore : Op. Cit. p. 249 .

(57) A. L. Syinchcombe : Op. Cit. p. 127 .

(58) R. Merton : Op. Cit. p. 13 .

(59) A. L. Stinchcombe : Op. Cit. p. 247 .

(60) Parcons. T : Some Considerations on the Theory of Social Change Rural Sociology. No. 4. 1961. p. 219.

(61) R. Merton : Op. Cit. p. 100 .

(62) E. Nagel : Op. Cit. p. 86.

(63) J. Galtung : Op. Cit. p. 451 .

(64) E. Nagel : Op. cit. p. 8.

(65) J. Galtung : Op. Cit. p. 42.

(66) Campell. Norman. R : The Structure of Theories. pp. 288-308. esp. p. 303. in Herbert fiegl & May Brodbeck (eds) New York. 1923.

(67) Parsons, T : The prospects of sociological theory. p. 323. in T. Parsons : Essays in Sociological Theory (ed), The Free Pree. New York. London. 1966.

(68) Ibid. p. 215 .

(69) Ibid. p. 216.

(70) E. Nagel : Op. Cit. p. 95.

(71) N. R. Compell : Op. Cit. p. 289.

(72) W. Skidmore : Op. Cit. pp. 15-16.

(73) Parsons, T : The Present Position and Prospects of systematic theory in sociology. in T. Parsons : Essays in sociological theory. pp. 220-221.

(74) P. Sorokin : Op. Cit. : حيث ورد شرح مفصل لهذه النظريات

(75) R. Merton : Op. Cit. p. 5.

(76) T. Parsons : The Present position and prospects of systematic theory in sociology. p. 221.

(77) Ibid. pp. 223-224.

(78) Ibid. p. 224.

(79) R. Merton : Op. Cit. p. 10.

(٦٧) محمد عارف عثمان : المنهج الكيفى والمنهج الكمى فى علم الاجتماع فى ضوء نظرية التكامل المنهجى لدراسة الظواهر الاجتماعية . رسالة دكتوراه . كلية الآداب – جامعة القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٢٣٧ .

(81) T. Parsons : The Present Position and Prospects of Systematic Theory in Sociology. pp. 224-227.

(82) Whitaker. Jan : The Nature and Value of Functionalism in Sociology in D. Martindale (ed) Functionalism in the Social Sciences. Philadelphia. Feb. 1965. p. 69.

(83) Sorokin, P : Social Theory Today. London 1961. p. 404.

(84) T. Parsons : The prospects of sociological theory. p. 354.

(85) Ibid. p. 365.

(86) Gouldner. A. W : Reciprocity and autonomy in Functional theory in N. J. Demerath & Richard Peterson. the free Press. New York. London. 1968. p. 145.

(87) Ibid. p. 164.

(88) R. Merton : Op. Cit. p. 6.

(89) Ibid. p. 6.

(90) Ibid. pp. 6-7.

(91) Ibid. p. 7.

(92) Gouldner, A : The Coming Crisis of Western Sociology. Heinmann. London. 1971. p. 153.

(93) R. Merton : Op. Cit. p. 5.

(94) Merton. R. K : Anomie, Anomia and Social Interaction, Contents of deviant behavior in Marshal B. Clinard (ed). Anomie and deviant behavior. a discussion and Critique, the free press. New York. 1969. p. 113.

(95) R. Merton : Social Theory and Social Structure. p. 9.

(96) D. Martindale : Limits and Alternatives of Functionalism in Sociology. p. 158.

(97) R. Merton : Social Theory and Structure. p. 7.

(98) Ibid. p. 9.

(99) Ibid. p. 9.

# الباب الثانى

# االنظرية الماركسية
# والبحث فى أصل النظام الرأسمالى

## المحتويات

## تمهـــيد

تعتبرالنظرية الماركسية مرحلة فكرية منطقية فى تطور التفكير العلمى بشأن المجتمع ، ذلك لأن ظهور هذه النظرية ارتبط بوجود مقدمات مهدت لها . ومن ثم فلها ارتباطها العضوى من ناحية بهذه المقدمات ، ومن ناحية ثانية بالمجتمع الذى نظرت فى اطاره أو ذلك المجتمع الذى استهدفته بهذا التنظير .

وفى محاولة تحديد المقدمات التى ساعدت على نشأه الماركسية بهذا الطابع . فإننا سوف نواجه منذ البداية بروح النقد التى عاشتها أوربا ابتداء من عصر التنوير وحتى قيام الثورة الفرنسية ، وانشغال العقل الانسانى بإعادة ترتيب الأوضاع فى المجتمع ، ذلك يعنى ان روح النقد هى التى شكلت الاطار الذى من خلاله حاول العقل تبصر الواقع . إبتدأ هذا النقد بتناول قضية الشرعية ، ونشأة النظام السياسى ، وعلاقة النظام السياسى بالمجتمع المدنى ثم علاقة الفرد بالمجتمع وأثناء كل ذلك رفض المفكرون كل وصاية على العقل ، تأكيداً لذلك يذهب كانت الى التأكيد على الاكتفاء الذاتى للعقل فى عملية الادراك ، فالعقل يولد بمقولات الادراك الثلاث الزمان ، والمكان ، والنسبية ، واستنادا اليها يعيد ترتيب الواقع وتصنيفه ، وديكارت الذى جعل الشك منهج العقل فى تبصر تفاعلات الواقع المحيط . بحيث يمكن القول بأن هذه الروح النقدية انتقلت الى الماركسية التى خلعت كل قداسة عن الواقع المعاش ، بل جعلت من نفسها حركة فى مواجهة تفاعلاته .

ويشكل الجدل المقدمة الثانية للماركسية ، وفى طابعه الأساسى يعتبر الجدل حركة فكرية تنكر على الواقع المعاش شرف الحقيقة . واذا كانت الاتجاهات النظرية الأخرى تنظر الى الواقع الذى نعيشه باعتباره إرثا تراكم من خلال حركة تاريخية واسعة وعريضة ، وان ماتبقى لدينا يعتبر أكثر العناصر صدقا وحقيقية . فإن الجدل ينظر الى مانعايشة باعتباره ليس وجها عابراً أو مرحلة من مراحل الحقيقة المكتشفة ، ومن ثم فما نشاهده أو نعايشه ناقص فى حاجة الى الاكتمال دائماً ، وسعى مستمر اليه الى ان يتحقق الاكتمال ، وهنا يفقد الجدل مبرره ومنطقه ، ولذلك كان الجدل تاريخيا عند كارل ماركس ، وهى نقطة خلاف له مع هيجل .

وتعتبر الروح الانسانية التى روج لها عصر التنوير من المقدمات الأساسية التى برزت فى هذا العصر ، والتى شكلت فى ذات الوقت احدى مقدمات الماركسية . فقد شهدت نهاية عصر التنوير تأكيدا على كل ماهو انسانى ، فقد أبرز التنوير الثقة فى العقل الانسانى وقدرته على ترشيد حركة الواقع وتحقيق أكثر الخيارات ملائمة للانسان . وقد نادى التنوير أيضا

بالحرية الانسانية ، وبإتساع مساحة فاعلية الارادة الانسانية . ويمكن القول بأن عصر التنوير كان عصر المطالبة برفع قهر النظام عن كاهل الانسان . وتعتبر المساواه والأخاء هى الشعارات التى برزت خلال التنوير أيضا . وهو مايعنى رفض سمو الانسان على أخيه ومن ثم قهره له . حيث ورثت الماركسية هذه الروح الانسانية عن التنوير ، وهى الروح التى كان لها تأثيرها على الطابع الأيديولوجى ، والرؤية الثورية للنظرية الماركسية كما سنوضح ذلك .

ذلك يوضح التأثير الفعال للنظرية الماركسية ، وهو التأثير الذى استند فى فاعليته الى ثلاثة محاور ، الطابع الفلسفى الشامل للأفكار ، والروح الانسانية ذات الطابع الصوفى والتحليلات الاقتصادية الصارمة والدقيقة . وهو التأثير الذى إمتد لقرون كاملة .

فبرغم ان ماركس ولد بعد عقدين من ابتداء القرن الثامن عشر وتوفى قبل نهاية ذات القرن ( ١٨١٨ - ١٨٨٣ ) ، فان التأثير الفعال لافكاره - وخاصة فى المجال الاقتصادى والسياسى - امتد ليغطى القرن العشرين ، آخذين فى الاعتبار ان ارهاصات بنائه النظرى وجدت بدايتها ابان القرن الثامن عشر . ومن ثم فبامكاننا التأكيد على أنه اذا كانت البداية الحقيقة للنظرية الماركسية قد ارتبطت بالتغيرات الاجتماعية والسياسية التى عايشت تفجر الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩ ، فانها ظلت نسقا ديناميا تولى نقل هذا التأثير الى ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ . أى أن هذا النسق النظرى شغل التفكير الاوربى على مايزيد عن مائة وثلاثين عاما . ابان ذلك - ولاتزال - شكلت الماركسية تحديا حقيقيا للنظرية الغربية بل شكلت الأساس لفترة كاملة من الحوار العقلى الخلاق .

ويساعد على فهم الماركسية ادراك المبادئ الأساسية التى حكمت تفكير ماركس الشاب الذى كتب مقالا بعنوان ( أفكار شاب حول اختيار مهنة ) يؤكد فيه : ان الرفاهية الانسانية والكمال ينبغى أن تكون المبادئ التى تقودنا فى أى اختيار . ومن ثم فعلى المرء ألا ينظر الى المصالح على أن كلا منهما تناقض الأخرى ومن ثم فعلى أى منا أن يقضى على الآخر . وانما تفرض طبيعة الأنسان عليه أن يحقق مبتغاه من خلال العمل على كمال ورفاهية مجتمعه . اذ يعتبر التاريخ هؤلاء البشر عظاما لأنهم أسسوا نبالتهم من خلال العمل لما هو عام (١) . ذلك يؤكد طبيعة الالتزام الاخلاقى لماركس منذ البداية الالتزام بالآخر أو بما هو عام . ونظرا لأن النظام الرأسمالى وطبيعة التفاعل التى تسوده كانت تمثل نقيضا للتصور الماركسى ، فانه اعتبره هدفا أساسيا لنقده . ومن ثم يعتبر مؤلفه رأس المال عنصرا واحدا فقط من نقد شامل

انتواه ماركس للنظام الرأسمالى . حيث كان يهدف الى تأسيس عدة مؤلفات نقدية تغطى القانون والأخلاق والسياسة كل على حدة . بحيث تؤلف فى مجموعها تصورا نقديا شاملا لــه (٢) .

ولكى يبدأ هذه البداية الشاملة كان عليه أن يتخذ موقفا شكيا ديكارتيا فى مواجهة كل المقولات التحليلية التى تراكمت حتى عصره ، الاقتصادى منها والأخلاقى . لأنها اما انعكاس لمواقع شكل مقدمات لهذا النظام أو أنها لعبت دور المقولات التبريرية له . يتضح ذلك من رسالته التى أرسلها الى روجيه قبل مغادرته ألمانيا الى فرنسا فى سبتمبر عام ١٨٤٣ حيث عبر فيها عن اعتقاده بضرورة الشك فى كل المعتقدات سواء كانت دينية أو سياسية ، فشعارنا ينبغى ان يكون اصلاح الوعى ليس من خلال المعتقدات Dogmas ، ولكن من خلال تحليل الوعى الصوفى الغامض فيما يتعلق بذاته سواء فى الدين أم السياسة (٣) .

فى اطار هذا الهدف الأخلاقى الذى يتضمن انتقادا للنظام الرأسمالى . كتب كارل ماركس مؤلفات عديدة يكشف – تحليلها – تضمنها لأربعة مستويات أساسية من التفكير أو الكتابات .

١ – المستوى التجريدى ، وهو المستوى الذى يبرز فيه كارل ماركس كمنظر يحاول تناول الأنساق ، أو العمليات الاجتماعية من منظور شامل بحثا عن القوانين التى تحكمها ، ومن ثم التى تيسر فهما ملائما لفاعليتها . ويدخل فى اطار هذا المستوى كتابات مثل رأس المال ، نقد الاقتصاد السياسى ، حيث نجد ان كارل ماركس يحاول ادراك القوانين التى تحكم التطور الاجتماعى ، وقد تركز اهتمامه خلال هذه الكتابات أساسا على محاولة تفسير عمليات التطور والصراع والتغير .

٢ – المستوى الواقعى ويضم تحليلاته التاريخية والسياسية المفصلة لبعض الأحداث الحقيقية فى تاريخ كل من فرنسا وألمانيا وانجلترا . ولقد لعب المستوى الأول دور الموجه النظرى لفهم طبيعة تشكل المجتمع والطبقات فى مرحلة معينة من التطور (٤) .

٣ – المستوى الأيديولوجى وهو المستوى الذى يدرك من خلاله ماركس ان النظرية لابد ان تلعب دورا ايجابيا وراديكاليا فى تغيير الواقع الاجتماعى . وهنا نجد أن ماركس يكتسب دور الثورى الى جانب دور المنظر العلمى . ويعتبر مؤلفه البيان الشيوعى خير كتاباته فى هذا الصدد ، هذا الى جانب خطاباته العديدة لأصدقائه وزعماء حركات التحرر والثورة فى عصره .

٤ – المستوى النقدى ، وهو المستوى الذى حاول فيه ان يقف موقفا تنقيحيا ونقديا من كل التراث الاجتماعى أو الفلسفى السابق عليه . ولعل تحليلاته وانتقاداته لهيجل ونيتشة وفويرباخ أفضل مضامين هذا المستوى ، ولعل أبرز كتاباته فى هذا الصدد هو كتابة فقر الفلسفة ، والأيديولوجيا الألمانية وأنتى دهرنج .

مجمل القول أن النظرية الماركسية نبتت من الالتزام أخلاقى لمفكر رأى تفسخ الواقع المحيط به ، ومن ثم اتجهت كتاباته النقدية والتحليلية الى ذلك الواقع والأفكار المرتبطة به . ومن هنا اختلط كثيرا دور ماركس العالم التجريدى المنظر بدور الثورى الذى يرسم استراتيجيات التغير وتكتيكاته . وهو مانعرض له خلال الفصول الثلاثة التالية .

# الفصل الرابع

# النظرية الماركسية
# كتاباتها وجذورها الفكرية

## المحتويات

## مقـــــدمة

ظهرت النظرية الماركسية استناداً الى التفاعلات التى أثارتها الثورة الفرنسية من ناحية والثـورة الصناعية من ناحيـة ثانيـة . وهى التـفاعـلات التى أثارت مـواقف نظرية متـبـاينة فى مـواجـهة هذه الأحـداث التى أعادت توجيه التـاريخ الأوربى ، ويمكن بلورة هذه المواقف النظرية فى ثلاثة مواقف أساسية اتصلت بطريقة مابهذه الأحداث .

فقد كان للفلسفة المثالية موقفها ، حيث هى التى مهدت للثورة الفرنسية ، وقد عبر عن هذه الفلسفة مفكرون كثيرون ، أبرزهم ديكارت وكانت ونيتشه وهيجل . ولقد تضمن هذا الاتجاه نموذجين من التفكير . النموذج المحافظ وهو الذى يريد الرجوع مرة أخرى الى رومانسية ماقبل الثورة حيث عهد الاقطاع ، حيث التفكير الفلسفى ذو الطابع الميتافيزيقى والذى يشير الى عجز الفكرة عن تنوير الواقع أو حتى تأسيس حركة رشيدة له ، ويمكن أن نسمى ذلك بأنه نداء بالعودة الى عجز الفلسفة . أما الجناح الثانى فهو الجناح الثورى وهو الذى يذهب الى انه مادامت الثورة قد تفجرت فعليها أن تستمر حتى يتم الاكتمال الكامن فى قلب الواقع ، فما هو كامل مازال جنينا فى جوف المستقبل بينما ليس بالواقع سوى عذاب يشهد على اغتراب الانسان والمجتمع والدولة والفلسفة . ولعل جزءاً من فلسفة هيجل ومعظم فلسفة فويرباخ والجناح الهيجلى الثورى أفضل ممثل لهذا النموذج من التفكير .

وتعتبر الوضعية هى التيار الفكرى الثانى الذى عايش هذه المرحلة ، ورغم تنوع جذورها الى انها ترجع فى بعض جوانبها الى التطورات المنهجية التى حققها الفكر التجريبى على يد كل من فرنسيس بيكون وروجر بيكون ، أو الى فلسفات التنوير التى أكدت على ضرورة الايمان بالعقل الانسانى وإعماله فى ترشيد حركة التطور البشرى . أو الى النجاح الذى حققته العلوم الطبيعية التى تدرس جزءاً من ظواهره . وان الحاجة أصبحت ماسة الى علم اجتماعى يدرس ظواهر الاجتماع كجزء من ظواهر الكون والطبيعة ، غير أن الوضعية فى مجملها تشكل تصوراً شاملاً للنظام الاجتماعى . حيث يتلخص موقفها فى ان المرحلة الميتافيزيقية قد انتهت وان الفلسفة النقدية فلسفة هدامة ، واننا فى حاجة الى فلسفة وضعية أو علم يتولى ضبط المجتمع وتغييره وفقا للقوانين التى تحكم تطوره وتفاعله ويمكن اكتشافها . ونادى هذا الموقف بضرورة تناول ظواهر الاجتماع بالدراسة بنفس منطق التناول الذى تتم به دراسة ظواهر الطبيعة .

وقد شكلت الفلسفة النفعية الاتجاه الثالث فى هذه المرحلة ، وهى بدورها لها جذورها التى ترجع الى نشأة طبقة التجاريين ، أو البداية البرجوازية فى مرحلة انهيار الاقطاعيات

الأوروبيـة . ومـن ثم فـهى ترفض الفـوضى ، لكنهـا أيضــا ترفض أى ضـبط للسلوك الفـردى التلقـائى . وفى بعض أصـولهـا ترجع الى الأفكار الداروينية حيث الانتـخاب الطبيـعى والبقـاء للأصلح ، ومن ثم فلديها ايمان بأن ثمة قوانين طبيعية قـادرة على الانتقاء ، أو أنه ليس من حق العقل التدخل فى فاعلية القوانين الطبيعية . ولقد ارتبطت هذه النزعة ببداية الاستعمار الأوربى والتـجارة الدوليـة الشـاملة . مجمل القول ان هذه الفلسـفة ترفض مسـألتين . الأولى الفـوضى الشاملة التى قد ينحدر اليها النظام الاجتماعى والثانية تحريم تدخل الدولة أو أية سلطة خارجية لتنظيم التفاعل الاجتماعى ، لأن الاجتماع البشرى جزء من الطبيعة ومن ثم فهو يخضع لذات القوانين التلقائية التى تحكم حركتها وتوازنها .

لعل هذه هى أبرز المواقف النظرية التى ظهـرت وتبلورت رؤيتــهـا فـى أعـقـاب الثـورة الفـرنسيـة . ومـن ثم فلقد شـهدت المرحلة التـاليـة نشـأة مـجموعة من النظريات التى شكلت فى مجموعها على مايذهب هربرت ماركيوز نفيا للفلسفة (٥) . غير ان النفى لم يكن قطيعة ، وانما احـلال لنمـاذج لنظرية جـديدة تحـمل عناصـر من هـذه الفلسـفـة أو تلك – ان سلبـا أو ايجـابا – وتعتبر الماركسية من بين هذه النظريات ، التى سوف نحاول استكشاف جدلها مع هذه المواقف النظرية خلال الصفحات التالية :

## أولا : الماركسية واستمرار المثالية النقدية :

فى التزامه الأخلاقى برفاهية الانسان الشاملة أو الكمال الذاتى الانسانى ، أكد ماركس من خـلال رسالة الى والده فى عام ١٨٣٧ ، أنه يرى ان فلسـفة كـانت Kant وفيشـته Fichte غير كافية ، وأنه يرفض الحب العاطفى الذى يشيعه الشعر الغنائى Lyrical Poetry، ومن ثم فليس أمـامـه سـوى القفـز فى مـحيط هيجل (٦) . ولعل سـبب انجـذاب مـاركس الى الهـيجلية يتكشف مـن خـلال مـلاحظاته كتلمـيذ بجامعة برلين من خـلال قراءاته للفلسفة والقـانون . فـهو يعـتـقـد أن الثـنائيـة الكانتـيـة بين ( مـاهـو كائن ) وبين ( مـاينبـغى أن يـكون ) تتناقض كليـة مع احتياجات الفرد الذى يرغب فى الاستعانة بالفلسفة فى سعيه لتحقيق أهدافه . وبالمثل تتعرض فلسـفة فيشـتـه لنفس الاعتراض لأنها تفصل خـصـائص المنطق والحقيقة ( كمـا هـو متـضـمن بوضوح فى الرياضة والعلم الامبيريقى ) عن تدخل الانسان فى عالم يتطور باستـمرار . ومن ثم فوجهـة النظر هـذه ينبغى استبدالها بوجهـة نظر تسلم بأن الموضـوع ذاته ينبغى دراسـتـه فى تطوره أو أنه لاينبـغى أن تكون هناك تقييمات تعسفية . فعقلانية الشئ ينبغى ان تتكشف من خـلال تناقضـاتـه ، حـتى نعـثـر على وحدته فى ذاته (٧) . هذا بالاضـافـة الى رفضـه للمـقـولة

الابستمولوجية التى حكمت الفلسفة الكانتية والهيجلية ، والتى تعطى الأولوية للوعى على التجربة ، باعتبارها المعيار الذى يحكم علاقة الأفراد ببيئتهم الاجتماعية ، ومن ثم فقد كان على الفلسفة الماركسية ان تؤكد فرضية ان العالم يسبق وعينا به (٨) .

وحينما كشف ماركس عن حل عديد من الموضوعات الفلسفية عرضت له فى شبابه ، كان عليه ان يسير فى ذات الطريق الذى قطعته الفلسفة الألمانية ككل . حيث تحرك من كانت الى فيشته ثم هيجل (٩) . وبالنظر الى كونه أحد حوارى الفلسفة الهيجلية نجده قد صاغ حوارا مع كل من الأفكار الفلسفية لهيجل ، وقضايا فويرباخ التى أراد بها الأخير نفى الفلسفة الهيجلية . ومن الواضح انه كان لماركس مع كل منهما اتفاقات وافتراقات برغم تباين فلسفة كل من هيجل وفويرباخ الى حد للتناقض . ووفقا لما يذهب اليه ماركيوز فان الانتقال من هيجل الى ماركس يعتبر انتقالا الى مجال مختلف أساسا من مجالات الحقيقة . ذلك اننا سوف نرى ان جميع التصورات الفلسفية للنظرية الماركسية هى مقولات اقتصادية واجتماعية ، على حين ان مقولات هيجل الاجتماعية والاقتصادية هى كلها مقولات فلسفية . وحتى كتابات ماركس الأولى لم تكن فلسفية بقدر ما كانت نفيا للفلسفة . الى جانب ذلك فان كل المقولات فى مذهب هيجل ، تفضى الى النظام القائم وتنتهى اليه ، على حين أنها فى مذهب ماركس تشير الى نفى هذا النظام وانكاره . فهى تستهدف شكلا جديدا للمجتمع حتى حين تستهدف شكله الراهن (١٠) .

واذا كان هيجل قد ادرك التضاد الابستمولوجى بين الذات والموضوع ، وكشف كيف تؤدى العلاقة بينهما الى الاغتراب التام للوعى ، حينما تطغى على الانسان نفس الموضوعات التى صنعها . ومن ثم فان تحقيق العقل يعنى التغلب على الاغتراب ، وايجاد وضع تعرف فيه الذات نفسها وتمتلكها فى جميع موضوعاتها . وبرغم اعلان ماركس ان البرهنة المتعلقة بدور العمل ، وعملية التشيؤ وألغائها تعتبر من أعظم انجازات كتاب ( ظاهرات الروح ) لهيجل . إلا أن قيمة البرهان قد ضاعت ، لأن هيجل زعم ان وحدة الذات والموضوع قد اكتملت بالفعل ، وأنه قد تم تجاوز عملية التشيؤ ، ففى دولته الملكية يتم تهدئة عداوات المجتمع المدنى ، ويتم التوفيق أخيرا بين المتناقضات فى عالم الفكر أو الروح المطلقة . ويتساءل ماركس هل كانت الحقيقة تتفق بالفعل مع النظام الاجتماعى والسياسى القائم ؟ . وهل أعفى التاريخ الفكر النظرى من أية حاجة الى تجاوز النظام الاجتماعى والسياسى القائم ؟ . ان هيجل حين أجاب بالايجاب قد افترض ان الأشكال الاجتماعية والسياسية أصبحت مطابقة لمبادئ العقل ، بحيث ان أعلى امكانات الانسان يمكن تنميتها عن طريق تنمية الأشكال الاجتماعية السائدة . وإذا كانت

الحقيقة على مايذهب هيجل هى كل ماينبغى ان يكون حاضرا فى كل عنصر منفرد ، بحيث أنه اذا لم يمكن ربط عنصر مادى واحد أو واقعة واحدة بعملية العقل أو مساره كان فى ذلك قضاء على حقيقة الكل ؛ فقد ذكر ماركس ان هناك بالفعل عنصرا كهذا يتمثل فى الطبقة العاملة ( البروليتاريا ) . فوجود البروليتاريا يناقض الواقعية المزعومة للعقل ، لأنه يعرض أمامنا طبقة كاملة تقدم دليلا على نفى العقل نفسه . ان المصير الذى تلقاه البروليتاريا ليس تحقيقا للامكانيات الانسانية ، بل هو على العكس من ذلك نفيا لها . واذا كانت الملكية هى أول مايتميز به الشخص الحر ، فان العامل البروليتارى ليس حرا وليس شخصا ، اذ ليست لديه ملكية . واذا كانت أوجه النشاط التى تمارسها الروح المطلقة من فن ودين وفلسفة هى التى تؤلف ماهية الانسان ، فان العامل يظل الى الأبد منفصلا عن ماهيته ، اذ ان حياته لاتترك له وقتا يمارس فيه أوجه النشاط هذه .

وفضلا عن ذلك فان وجود البروليتاريا لايقتصر تأثيره الضار على المجتمع العاقل الذى قال به هيجل فى كتاب ( فلسفة الحق ) ، بل هو يضر بالمجتمع البرجوازى كله . فالبروليتاريا تظهر من خلال عملية العمل ، وهى القائم الفعلى بالعمل أو الأداء فى هذا المجتمع . غير ان العمل ، كما بين هيجل ذاته ، يحدد ماهية الانسان والشكل الاجتماعى الذى تتخذه . ومن ثم فاذا كان وجود البروليتاريا يشهد ( بالضياع التام للانسان ) وكان هذا الضياع ناجما عن طريقة العمل التى يؤسس عليها المجتمع المدنى ، فمعنى ذلك ان المجتمع شرير بأكمله ، وان البروليتاريا تعبر عن سلبية تامة ، أى عن ( عذاب شامل ) ، ( ظلم شامل ) . وبذلك تتحول واقعية العقل والحق والحرية الى واقعية البطلان والظلم والعبودية .

وهكذا فان وجود البروليتاريا شاهد حى على ان الحقيقة لم تتحقق ومعنى ذلك ان التاريخ والواقع الاجتماعى ذاتهما ( ينفيان ) الفلسفة ، وبذلك لايمكن ان يتم نقد المجتمع على يد النظرية الفلسفية ، بل هو مهمة الممارسة العملية الاجتماعية التاريخية (١١) . فرفض النظام الذى ارتضاه هيجل كان مهمة ماركسية لأنه يتضمن نقصا خطيرا يهز كماله الذى قال به هيجل . ذلك لأن اغتراب البروليتاريا فى نطاقه يؤكد ان امكانات اكتماله مازالت قائمة ، ومن ثم فالحاجة ماسة الى استمرار الجدل الهيجلى ولكن بطريقة ماركسية حتى يستكمل تحرير الانسان ليبدأ تاريخه الحقيقى (١٢) .

فهل يختلف الجدل الماركسى عن الجدل الهيجلى ؟ لا يختلف الجدل منذ بدأ منهجيا على يد أرسطو وفلاسفة اليونان عنه عند هيجل أو فويرباخ وماركس . ولكن ما هو جديد فى الأمر

ان ماركس برغم اعترافه بشرف تتلمذه عقليا على مفكر عظيم كهيجل ، إلا أنه يؤكد أن الجدل قد عانى من الغموض على يديه ، اذ يقف التنظير الهيجلى لديه على رأسه ، ومن ثم فقد كان عليه - أى ماركس - ان يجعله معتدلا (١٣) . وهو بذلك يوافق فويرباخ فى نقده لهيجل حينما يؤكد ان العلاقة الصحيحة بين الفكر والوجود ، هى ان الوجود موضوع والفكر محمول ، فالفكر ينبثق من الوجود ، ولكن الوجود لاينبثق من الفكر (١٤) . وبذلك فان ماركس يوافق بلاشك على نظرة واقعية ، حيث تصبح الأفكار وفقا لها نتاجا للعقل البشرى فى تفاعله المعنى مع العالم المادى القابل للمعرفة ، فالأفكار لاتوجد كمقولات انبثاقية معطاة فى العقل البشرى مستقلة عن الخبرة . غير أن هذا لايتضمن بالتحديد تطبيق أى نوع من الفلسفة المادية الحتمية لتفسير نشأة المجتمع أو تطوره . فالوعى الانسانى يتشكل من خلال الحوار الجدلى بين الذات والموضوع ، حيث يشكل الانسان من خلاله العالم الذى يعيش فيه مثلما يشكله ذلك العالم فى ذات الوقت (١٥) وبهذا الفهم يحاول ماركس اعادة تحديد الانسان الحقيقى الفعال acting individual الذى يعيش فى العالم الواقعى المادى ، سواء كانت له طبيعته البيولوجية أو الاجتماعية . ويحاول ماركس بعد ذلك تتبع تموضعة فى النظم السياسية للدولة ، فالعالم الواقعى لايستخلص من دراسة ماهو مثالى ، وانما على العكس فان ماهو مثالى ينبغى أن يدرك كنتاج تاريخى لما هو واقعى . وفيما يتعلق بموقف كل منهما من الدولة كتنظيم سياسى يشكل اطارا معاصراً للمجتمع المدنى نجد خلافا ماركسيا هيجليا أيضا . فالمجتمع المدنى الذى يتضمن بالنسبة لهيجل كل العلاقات الاقتصادية والعائلية الخارجة عن البناء السياسى والتشريعى للدولة يعتبر مجالا أساسيا للأنانية المطلقة ، حيث يقف كل انسان ضد أى انسان آخر . غير ان البشر يصبحون كائنات بشرية عاقلة ومنظمة الى الدرجة التى يوافقون فى اطارها على النظام المرتبط بقيام الدولة . حيث تعتبر مجالا شاملا يقضى على المصالح الخاصة للأفعال البشرية التى ينبغى انجازها فى اطار المجتمع البشرى . ووفقا لهيجل فان الدولة ليست منفصلة فقط عن حياة أفراد المجتمع المدنى ، ولكنها تبدو على أنها سابقة منطقيا على الفرد . ومن ثم يخضع الفرد ، الخالق الحقيقى للتاريخ لمثل هذه المشاركة السياسية المتجسدة فى الدولة ، التى تبدو على هذا النحو قوة دافعة للتطور الاجتماعى .

فى مواجهة ذلك يؤكد كارل ماركس أنه اذا كان فويرباخ قد أظهر أنه فيما يتعلق بالدين يشارك البشر فى عالم خيالى غير واقعى يتصف بالانسجام والجمال والرضاء ، بينما يعيشون فى عالم الحياة اليومية الواقعى فى ألم وبؤس ، فان الدولة بالمثل هى عبارة عن شكل من أشكال النشاط السياسى المغترب الذى يتضمن حقوقا شاملة ثانية كالحال فيما يتعلق بعالم

الدين المثالى . وانه اذا كان أساس وجهة نظر هيجل ان حقوق التمثيل السياسية تتوسط بين الفردية الأنانية للمجتمع المدنى وبين النزعة الشمولية للدولة ، نجد ان ماركس يؤكد انه لايوجد فى الواقع مثل هذا الشكل من الدستور السياسى ، ففى الدولة الواقعية تعتبر المشاركة العامة فى الحياة السياسية نوعا من المثالية ، ولكن السعى لتحقيق المصالح الفئوية هى الحقيقة الواقعة ومن ثم فما يبدو بالنسبة لهيجل على أنه منفصل عن المصالح الخاصة بأفراد المجتمع المدنى أو خاضع لها ، هو فى الحقيقة مشتق عنها (١٦) .

فاذا شكلت قضايا النظام الألمانى ، ووضع البروليتاريا فى هذا النظام ، ثم علاقة الفكر بالوجود ، ثم الدولة كتعبير استغلالى ، من وجهة نظر ماركس - ابتكرها المجتمع المدنى ، ومنطق التفاعل الجدلى ، نقاط خلاف بين كل من ماركس وهيجل ، فان هناك نقاط التقاء بينهما . فاتفاقا مع هيجل وخلافا مع الوضعية يفهم ماركس فلسفة التاريخ على أنها تدرك التطور البشرى كعملية مستمرة نحو هدف محتم . وبرغم اختلاف طبيعة العملية التاريخية ومنطق تفاعل عناصرها عند كل منهما ، فان كليهما يذهب الى تضمن كل مرحلة من مراحل التطور - لزيادة كمية وكيفية عن المرحلة السابقة ، فرغم تسليمهما بوجود استمرارية فى عملية التطور ككل ، فان كل مرحلة تشكل نسقا محدد المعالم يختلف عن الانساق الأخرى فيما يتعلق بمبدأ التنظيم . ثم يذهب ماركس سيرا على مايؤكد هيجل أنه بينما نجد ان تعيين المراحل التطورية المستمرة يتم بشكل تعسفى فى الوضعية فانه ليس كذلك فى العملية الجدلية (١٧) .

وتشكل طبيعة النظرة الجدلية الى الواقع ، مقولة منهجية استعارها ماركس عن هيجل ، فما هو كائن ينبغى ان يخضع للنقد وامكان التجاوز لاستكشاف الامكانات الكامنة فيه . ومن ثم يذهب ماركس الى أن النظام الواقعى الموجود ماهو إلا سلب ينبغى تجاوزه . ولذلك فمادام هذا النظام - الرأسمالى - يفرض شرطا لا أنسانيا للوجود على البشر ، ومادام البشر كما هم - فى حالة اغتراباتهم - أقل مما يمكن أن يكونوا عليه ، فإن عليهم ان يناضلوا لتغيير هذا النظام (١٨) .

على عكس ذلك نجد أن معظم علاقة ماركس بفويرباخ تقع على الجانب السلبى الذى يرفض فى اطاره معظم أفكاره ، فلاشك ان كارل ماركس يدين لفويرباخ بريادته النقدية التى حاول فيها تخطيم الصرح الهيجلى . حينما حاول ان يعكس المقدمات المثالية لفلسفة هيجل ، مؤكدا بنوع من الغموض ان نقطة البدء لدراسة الانسانية ينبغى ان تكون الانسان الواقعى . وبينما يرى هيجل ان الإنسان الحقيقى ينبثق من السماء ، نجد أن فويرباخ يبرهن على ان

السماء ماهى إلا نتاج زائف للوجود الواقعى الحى الذى يسبق الفكر بالمعنى الذى يستحيل على الانسان ان يفكر فيما يتعلق بالعالم قبل ان يأتى فعله فيه ، فالفكر يستخلص من الوجود وليس الوجود من الفكر . وبينما يرى هيجل نشأة النوع الانسانى بالنظر الى الله الذى انقسم على ذاته ، على خلاف ذلك نجد ان الله يوجد فى فلسفة فويرباخ حالما ينقسم الانسان على ذاته ، وحالما يغترب الانسان عن ذاته . فالله كائن خيالى أضفى الانسان عليه أسمى ملكاته وقواه ، الله الذى ينظر اليه على أنه كامل وقادر على كل شئ ، بينما يبدو الانسان على نقيضه محدود وناقص (١٩) .

فى اطار ذلك نجد أن كارل ماركس ينتقد فويرباخ بتأكيده ان مدخل فويرباخ غير تاريخى . اذ يدرك فويرباخ الانسان المجرد على أنه سابق على المجتمع . وهو لا يرجع الانسان الى الانسان الدينى فقط ولكنه يفشل فى ادراك ان ( الشعور الدينى ) ذاته هو نتاج اجتماعى ، وان الفرد المجرد الذى يحلله ينتمى الى شكل معين من المجتمع . ومن ناحية أخرى نجد ان النزعة المادية لفويرباخ تظل عند مستوى المذهب الفلسفى الذى يعتبر الأفكار انعكاسا مبسطا للواقع المادى . بينما هناك فى الحقيقة تبادل دائم للتأثير بين الوعى والممارسة البشرية . وينظر فويرباخ – مشتركا فى ذلك مع كل الفلاسفة الماديين السابقين عليه – الى الدافع المادى على أنه العامل الحتمى فى السلوك البشرى ، ومن ثم لايوافق على التعديل الذى يتم للعالم الموضوعى بواسطة الانسان ، أعنى بواسطة نشاط البشر ، حيث يجعل ماركس من ذلك نقطة حوار هامة للغاية ، اذ يؤكد ان مذهب فويرباخ المادى عاجز عن التعامل مع حقيقة ان النشاط الثورى هو نتاج للوعى وللنشاطات الارادية للبشر ، وبدلا من ذلك نجده يصور العالم بالنظر الى تأثير أحادى للعالم المادى على الأفكار ، ومع ذلك يؤكد ماركس ان الظروف تتغير بواسطة البشر ، لأن المعلم ينبغى أن يتعلم ذاته (٢٠) .

بيد أنه وان وافق ماركس على نفى فويرباخ لبعض جوانب هيجل ، ومن ثم عدم رضائه بكل مايقول به فويرباخ ، فان هناك بعض القضايا التى كان التناقض حولها حادا ، وهو ماجعل الموقف الماركسى فى النهاية أقرب الى هيجل منه الى فويرباخ .

فبرغم اتفاق ماركس مع ماذهب اليه فويرباخ من أنه على الرغم من كل تقدم تاريخى فان الانسان لايزال محتاجا ، والحقيقة التى تصادفها الفلسفة فى كل مكان هى ( العذاب ) . هذا العذاب لا المعرفة هو الذى يحتل المكانة الأولى فى علاقة الانسان بالعالم الموضوعى ( ان الفكر يسبقه العذاب ) وليس لنا ان ننتظر أى تحقق للعقل مالم ينمح هذا العذاب (٢١) . بالاضافة الى ذلك فان فويرباخ هو الملهم الحقيقى لماركس فيما يتعلق بمفهوم الاغتراب الذى

طوره ماركس بما جعله يتخذ طبيعة ماركسية جديدة ، تختلف عن طبيعته التى تحددت له بواسطة فويرباخ . بيد أن أكثر الاختلافات وضوحا بين ماركس وفويرباخ هى ذاتها التى يتفق فيها ماركس تماما مع هيجل . فبينما يرى فويرباخ ان الأنا متلق أساسا وليس تلقائيا ، وهو متحدد وليس مستقلا بذاته ، فهو ذات سلبية تتلقى الادراك الحسى ، وليس ذاتا ايجابية تقوم بالتفكير (٢٢) . نجد أن ماركس يرفض – متفقا فى ذلك مع هيجل – هذه السلبية ، مؤكدا عجز مذهب فويرباخ المادى عن استيعاب حقيقة ان النشاط الثورى ليس سوى نتاج لوعى البشر وأفعالهم الارادية (٢٣) .

أما النقطة الثانية التى يقف فيها ماركس موقفا مضادا لما يذهب اليه فويرباخ فتتعلق بتأكيده ان الادراك الحسى ، والحساسية ، والاحساس هى الأدوات الصحيحة للفلسفة . ( فالموضوع فى معناه الحقيقى لايعطى الا بواسطة الحواس ، وليس ثمة شئ مؤكد على نحو مباشر لايدع مجالا للشك عدا موضوع الحواس والادراك الحسى ، والاحساس ) . فى هذه النقطة يقف ماركس فى صف هيجل الذى أنكر أن يكون اليقين الحسى هو المعيار النهائى للحقيقة ، على أساس ان الحقيقة أولا كلية لاتكتسب من تجربة بالجزئيات ، كما ان الحقيقة ثانيا تتحقق فى عملية تاريخية تسير قدما بفضل السلوك العملى الجماعى للناس (٢٤) .

أما النقطة الأخيرة التى اختلف فيها ماركس مع فويرباخ فتتمثل فى أن فويرباخ – نظرا لأنه تصور الوجود البشرى من خلال الحس – تجاهل الوظيفة المادية للعمل تجاهلا تاما . بينما العمل يحول الظروف الطبيعية للانسان الى ظروف اجتماعية . وعلى ذلك فان فويرباخ حين أغفل عملية العمل فى فلسفة الحرية قد أغفل العامل الحاسم الذى يمكن ان تصبح الطبيعة بواسطته وسيطا لتحقيق الحرية . وهو فى تفسيره للنمو الحر للانسان بأنه نمو ( طبيعى ) قد تجاهل الشروط التاريخية للتحرر ، وجعل من الحرية حادثا داخلا فى اطار النظام القائم . وهكذا فان ( مادية الادراك الحسى ) عنده لاتدرك الا ( أفرادا منعزلين فى المجتمع البرجوازى )

أما ماركس فقد ركز نظريته على عملية العمل وبذلك احتفظ بمبدأ الجدل الهيجلى ، ووصل به الى نقطة الاكتمال . فهو قد جعل من أسس المجتمع المدنى أساسا لنظرية المجتمع المدنى ، هذا المجتمع يسير على مبدأ العمل الشامل . بحيث تكون عملية العمل حاسمة بالنسبة الى الموضوع الكلى للوجود الانسانى ، فالعمل يتحكم فى قيمة الأشياء جميعا . ولما كان التبادل الشامل المستمر لنتائج العمل هو الذى يبقى على المجتمع ، فان المجموع الكلى للعلاقات

الانسانية تحكمه القوانين الداخلية للاقتصاد . ويتوقف نمو الفرد ونطاق حريته على مدى أشباع عمله لحاجة اجتماعية . ان الناس جميعا أحرار ، ولكن آليات عملية العمل تحكم حريتهم جميعا . ومن هنا فان دراسة عملية العمل لها ، فى نهاية المطاف ضرورة مطلقة من أجل كشف شروط تحقق العقل والحرية بالمعنى الصحيح ، وهكذا فان التحليل النقدى لهذه العملية يكون الموضوع النهائى للفلسفة (٢٥) .

## ثانيا : الماركسية والخلاف مع الفلسفة الوضعية :

استنادا الى كون الماركسية تعتبر امتدادا للفلسفة المثالية فى جانبها الثورى فانه كان منطقيا ان ترث الماركسية ذات العداء الذى كان بين المثالية والوضعية . بيد أن اكتساب الماركسية لخاصية العلمية ومحاولتها تناول الانسان فى وجوده الواقعى وسعيها لاستكشاف القوانين التى تحكم تفاعله مع واقعه بهدف تحديد المجتمع الذى يساعد على تحقيق امكانات الانسان ، جعل الماركسية تقترب كثيرا من الموقف الوضعى فيما يتعلق ببعض القضايا . جملة القول انه كان للماركسية اتفاقات واختلافات مع الموقف الوضعى تختلف لا شك كيفيا مع الاختلافات والاتفاقات التى للماركسية مع المثالية .

ويكشف تحليل النموذج الماركسى ان معظم اتفاقاته مع الوضعية تقع فى مرحلة ماقبل التاريخ حسب التصور الماركسى ، أى قبل اطاحة البروليتاريا بالنظام الرأسمالى حيث يستعيد الانسان ذاته ويبدأ بارادته فى صياغة سلوكه فى اطار المجتمع الشيوعى ، أما فيما قبل تحقق المجتمع الشيوعى فان الذات تظل على ماهى موضوعا تدرسه الوضعية كشئ من بين كل الأشياء وهو ما وافقت الماركسية عليه فى بعض أبعاده .

وتعتبر نظرة ماركس الى العلم الاجتماعى أول القضايا التى اتصل من خلالها بالوضعية اذ نجده يؤكد أنه ينبغى فى دراستنا للمجتمع البشرى أن نبدأ بالفحص الامبيريقى للعمليات الواقعية فى الحياة الاجتماعية التى تعد الشرط الضرورى للوجود البشرى . وهو يذهب الى أن هذا المدخل ليس خاليا من أية مقدمات ، فهو يبدأ من المقدمات الواقعية التى لايتخلى عنها لحظة ، فمقدماته هم البشر فى عملية نموهم الواقعية المدركة أمبيريقيا تحت شروط محددة وليس فى وجودهم الخيالى المنعزل . ثم يؤكد أنه حيثما ينتهى التأمل - فى الحياة الواقعية - يبدأ العلم الوضعى فى الوجود ، ويتوقف الحديث عن الوعى ، وتحل محله المعرفة الحقيقية . وبمجرد وصف الواقع ، تفقد الفلسفة كفرع مستقل من المعرفة دورها

كوسيط للوجود . والى حد كبير يمكن شغل مكانها بواسطة تأليف من أكثر النتائج عمومية ، تلك التى يمكن تجريدها عن ملاحظة التطور التاريخى للبشر (٢٦) .

فى اطار ذلك نجد ان بعض المفكرين يذهبون الى التأكيد على ان التحليل الماركسى ذو توجيه وضعى فى بعض الاعتبارات ، وهو تأكيد يتأسس مستندا الى أن السان سيمونية تمثل الأصل المشترك لكل من الماركسية والوضعية . بل ان مفكرا مثل ليشتهايم Lichtheim يتطرف حينما يؤكد أنه من المعتقد أن ماركس قد تأثر بكونت بدرجة لم يكن يعيها حيث لعب الأخير دورا هاما فى كتابات سان سيمون الأخيرة (٢٧) . غير أن عالما اجتماعيا بارزا مثل روبرت نسبت Nisbet يرفض اتساق موقف ماركس مع كل من كونت وسبنسر فيما يتعلق بطبيعة علم الاجتماع مؤكدا أن فى ذلك افتراء كبيرا تم على حساب تجاهل احتقار ماركس وادانته لنشأة علم الاجتماع الكونتى . ويعنى ذلك ان هناك قراءات متناقضة لموقف كارل ماركس فيما يتعلق بعلم الاجتماع ، بحيث نشأ عن ذلك وجود عنصرين أساسيين يبدوان فى اطار موقفه النظرى . فى اطار العنصر الأول ينظر ماركس الى امكان ان يكون علم الاجتماع على غرار العلوم الطبيعية حيث تقع عليه مهمة تأسيس الوصف والفهم العلمى لأساليب محددة للانتاج والقوانين التى تحكم تطورها ، يدعم ذلك اعتقاده بالوحدة الممكنة بين علوم الانسان والطبيعة فى المستقبل . أما العنصر الثانى فيتمثل فى انطلاق ماركس من الايمان بحتمية القوانين التى تحكم التطور الاجتماعى ذا الطابع الجدلى لديه . وخاصة فى مرحلة ماقبل التاريخ التى تسبق تحقق المجتمع الشيوعى . بحيث أن هناك من استخلص من موافقة ماركس على الآراء الحتمية ذات الطابع الوضعى بامكانية أن يكون هناك ماركس الوضعى . غير أننا ينبغى أن نفرق بين الحتمية التى يراها ماركس والحتيمة التى تراها الوضعية . اذ تتميز الحتمية الماركسية بأنها حتمية داخلية تعبر عن تناقضات الكل وجدله الداخلى الذى ينبغى أن تكون له اتجاهاته المحددة . أما الحتمية بالتصور الوضعى فهى حتمية من الخارج ، حيث تقع عوامل التحتيم خارج الواقعة ، ومن ثم فهى أحيانا حتمية بيئية أو اقتصادية أو مناخية أو جغرافية أو وراثية أو حتى اجتماعية .

الى جانب ذلك نجد ان هناك خلافات منهجية حادة بين ماركس والوضعية بحيث تتبدى أول هذه الاختلافات فى طبيعة اقتراب كل من ماركس والوضعية من موضوع بحثهما . اذ نجد ان مدخل ماركس يتميز بأنه ذو طبيعة تحليلية ، بحيث يتوافر لديه ادراك الكل بداية ومن ثم ينتقل منه الى تحليل عناصره الرئيسية للكشف عن الامكانات أو الاحتمالات الكامنة فيه . ومن

ثم فالكلية حاضرة دائما لديه تسبغ على العنصر معناه أو منطق تفاعله ، سواء كانت هذه الكلية ذات طابع تاريخى أو معاصر ، بخلاف ذلك نجد أن الوضعية يتميز مدخلها بالطابع التركيبى حيث أنها تركز على ادراك العنصر أو الجزء موضع الاهتمام على غرار تناول العلوم الطبيعية لمادتها ، ومن ثم فبامكانها ادراك الكل عن طريق جهد تركيبى للنتائج التى حصلت عليها من تناول الأجزاء .

الموضع الخلافى الثانى بين الماركسية والوضعية يتعلق بطبيعة النظرة الى البشر فى حالة وجودهم الواقعى . فمنعا لتحيز الباحث لمشاعره ترد الوضعية الانسان الى مرتبة الأشياء أو الموضوعات ، وذلك تمثلا منها لموقف العلوم الطبيعية فيما يتعلق بمادتها الجامدة ، وذلك لتسير دراستهم فى حالة من الانفصال عنهم بهدف الكشف عن القوانين التى تحكم وجود البشر واستمرارهم وتفاعلهم . فى مواجهة هذا الموقف تتخذ الماركسية موقفين ، فهى من ناحية تدرك ان البشر ذوات ومن ثم فهى - كاستمرار للفكر المثالى - تطلب دراسة المعانى التى تتضمنها أفعالهم . بيد أنها من ناحية أخرى لاصطباغها بالطابع العلمى اختلفت عن المثالية وبدأت فى البحث عن القوانين الحتمية التى تحكم تفاعل البشر ووجودهم . ولتحقيق ذلك فهى تدرسهم كموضوعات ، بل انها تقرر ذلك حينما تؤكد أنه فى حالة الاغتراب الكامل يرتد البشر الى مرتبة الأشياء بيد أن الماركسية تعتبر افتقاد الذات أو التموضع ليس حالة انسانية أصلية . اذ من الضرورى على البشر ان يتدخلوا عن وعى وفعالية فى العملية التاريخية لتحقيق الوعى الكامن فى داخل الانسان .

بيد أن ذلك قد يدفع البعض الى الادعاء بأن الماركسية تعانى نوعا من التوتر الداخلى . حيث نجد من ناحية تأكيدا على ان أسلوب الانتاج الرأسمالى يخضع لقوانين التاريخ الصارمة التى لاترحم بينما نجد من ناحية أخرى تأكيدا على ضرورة التدخل الفعال وإعمال الارادة لدفع حركة المجتمع ، وعلى أهمية التسليم بأن البشر هم الذين يصنعون التاريخ ، وأنه من الضرورى ان يكونوا على وعى بامكانية فعل ذلك ، بدلا من الضغوط المفروضة عليهم فى حالة الموافقة على التصور الوضعى لأوضاعهم (٢٨) . بيد أننا لانرى مثل هذا التوتر الداخلى فى بناء الماركسية ، يتضح ذلك اذا نحن ميزنا بين مرحليتن ، المرحلة الأولى حيث البشر مغتربون عن ذواتهم ، متموضعون كأشياء ضمن كل الأشياء الأخرى ، أما بسبب افتقادهم لوعيهم أو لتزييفه، أو للضغوط المفروضة عليهم . هنا نجد أن البشر يخضعون لآلية النظام الرأسمالى التى تؤتى فاعليتها وفقا للمنطق الجدلى الذى يسلمها الى التحلل النهائى ، بحيث تنطبق هذه المرحلة

على الفترة من تاريخ النظام الرأسمالى وحتى قيام الثورة البروليتارية ، ويسميها ماركس مرحلة ماقبل التاريخ . حيث نجد خضوع البشر بتفاعلاتهم الواقعية لقوانين حتمية ، والى حد ما نجده يقترب من الوضعية فيما يتعلق بتصوره لحتمية القانون . أما فى مرحلة مابعد وعى البشر بواقعهم فانهم يبدأون فى قيادة التاريخ لنفى الواقع الذى أسس اغترابهم وتأسيس آخر ييسر أعمال امكاناتهم الحقيقية .

أما الخلاف الأخير بين الماركسية والوضعية فيكمن فى المستوى العينى وليس المنهجى ، ويتعلق بطبيعة النظرة الى النظام القائم وتقسيم العمل الذى يسوده . فالنظام الاجتماعى القائم كما تؤكد الوضعية يتأكد بكامله اذا هو قد امتلك اتفاقا قيميا واضحا يضم أجزاءه فى كل متماسك . ومن ثم تطالب الوضعية بتوسيع نطاق الضبط الاجتماعى حتى يتحقق التكامل من خلال التكامل الثقافى الذى يفرض عن طريق الضبط والسيطرة . على خلاف ذلك ترى الماركسية – كامتداد للمثالية الراديكالية – ان التناقض والصراع هما الطريق الحقيقى نحو التكامل النسقى . فالنسق بالنسبة لمنظرى الصراع ليس سوى نضال سياسى متناقض بين الجماعات التى لها أهداف ونظرات متناقضة الى العالم . اذ تلتزم الماركسية باسقاط فكرة النظام على المستقبل . ومن ثم فتحقيق النظام يتم من خلال اعادة التنظيم الراديكالية للحياة الاجتماعية (٢٩) . ذلك يعنى أنه بينما ترى الوضعية فيما هو قائم امكان الكمال اذا تحقق له نوع من التكامل الثقافى والقيمى الذى تفرضه ميكانيزمات الضبط والسيطرة الاجتماعية . فان الماركسية ترى ان النظام الكامل ماهو إلا امكان كامن فى قلب المستقبل ، وان تحرير هذا الامكان وتحقيقه يتم من خلال جدل الاضداد الذى نرى مظاهره فى صراع الطبقات الذى يسود مختلف مراحل التطور الرأسمالى .

بالاضافة الى ذلك يشكل تقسيم العمل الاجتماعى موضوعا خلافيا آخر . فبينما ترى الوضعية والمنظرين الكلاسيكيين تقسيم العمل باعتباره تبادلا بين الأفراد الواقعيين كل منهم ينتج سلعا كاملة لسوق المستهلك ، ومن ثم فرؤيتهم لتقييم العمل تتميز بأنها رؤية من الخارج ، على خلاف ذلك يدرك كارل ماركس تقسيم العمل من الداخل ، أى من خلال تحليل البناء الداخلى للوحدة المنتجة ، حيث يدرك تقسيم العمل باعتباره يعبر عن صراع داخلى بين المصالح داخل الوحدة الأساسية للنسق ، وهو المشروع الرأسمالى ، وهو الصراع الذى يمتد من داخل الوحدة الى خارجها حيث النسق الاجتماعى ليصبح صراعا طبقيا يتضمن عددا من علاقات القوة بين الطبقات (٣٠) .

خلاصة القول أنه رغم نقاط الاختلاف والاتفاق بين الماركسية والوضعية فان الماركسية كنظرية علمية كان عليها ان تشكل تآلفا بين عدد من عناصر الاتجاهات النظرية السابقة عليها . بيد ان ذلك لايعنى أنها اراديا قصدت التخلى عن أى من المقولات النظرية أو إستيعابها وإنما يتم ذلك بشكل أقرب الى التلقائية المحكومة بقوانين نسق التفكير العلمى . ومن ثم فلا شك اننا نتفق مع من يذهب الى ان الماركسية كنظرية علمية حاولت ان تقدم فهما للواقع الكائن كما هو عليه لتحديد أفضل وسائل تجاوزه . وفى تحديدها لماهية ماهو كائن ، فان ذلك أنجز بالنظر الى وسائل منهجية تتماثل الى حد كبير مع تلك التى يعمل بها العلم الوضعى ، أما تجاوز ماهو كائن لاطلاق امكاناته ، فان ذلك تم بناء على تصور مثالى لما ينبغى أن يكون ، بحيث يتم تحقيقه بالنظر الى جهد نقدى وارادى واع وفعال ، يمارسه الانسان ايجابيا ليتجاوز سلبيات الحاضر تحريرا لايجابيات المسقبل وامكاناته .

### ثالثا : الماركسية والحوار مع مذهب المنفعة الاقتصادية

باعتبار ان النظرية النفعية هى الفكر النظرى الذى شكل تصورا لفئات متعددة ابتداء من البرجوازية التجارية التى تولدت بانهيار الاقطاعيات الأوربية وقيام الدولة القومية أو البرجوازية التجارية والصناعية ، التى تجاوزت الحدود الأوربية للقيام بالتجارة والتبادل التجارى ، مستفيدة من التقدم العلمى والكشوف الجغرافية التى أدت الى تخليق المستعمرات التى عملت على استغلالها . بحيث كانت اعتبارات النجاح والربح هى أساس حركتها الاجتماعية وتصوراتها للنظام الاجتماعى الملائم ، ومن ثم كانت المنفعة أو المصلحة هى التعبير عن فردية وأنانية هذه الشريحة . ومن المنطقى ألا يتوافق كارل ماركس مع تصورات هذه الشريحة باعتبار انها وإن كانت نافعة فى مرحلة سابقة إلا أنها أصبحت عالة على العملية الاجتماعية . وتستلب قوى الانتاج نتائج عملها مؤسسة شبكة من العلاقات والتصورات التى تيسر ذلك . ومن ثم فقد كانت له خلافاته العديدة معها .

منذ البداية نجد أن ماركس يسجل خلافه مع وجهة النظر النفعية فيما يتعلق بأصل النظام الاجتماعى ، فهو يرفض الفردية والأنانية كحالة مبدئية تسبق النظام الاجتماعى . مؤكدا ان البشر أصبحوا فرديين من خلال عملية التاريخ ، اذ ظهر الانسان أصلا ككائن بشرى أو ككائن قبلى أو كحيوان قطيع ، ومن ثم اعتبر التبادل ذاته وسيلة أساسية للفردية (٣١) . أما الثروة فقد كانت فى البداية مشاعية ، ومن ثم فالملكية الخاصة لايمكن استخلاصها من حالة الطبيعة ، وانما هى نتاج لتطور لاحق . ويؤكد ماركس ان من لغو القول أن ندرك المجتمع

البشرى كما لو أنه قد وجد أصلا فى ظروف تتميز بانعزال الأفراد ، بحيث يمتلك كل منهم قطعة من الثروة الخاصة ، وفى تاريخ مااجتمعوا لكى يشكلوا مجتمعا من خلال شكل من أشكال الاتفاق التعاقدى . فالفرد المنعزل لايمكن ان يمتلك ثروة أكثر من قدرته على الكلام ، ففى أفضل الأحوال يستطيع أن يحيا عليها كمصدر للمادة مثلما يحيا الحيوان (٣٢) . ثم يؤكد بشكل صريح أسبقية المجتمع على الفرد بقوله ان مايميز الحياة البشرية عن حياة الحيوان ، هو أن قدرات وامكانات وحواس الانسان تتشكل بواسطة المجتمع . ومن ثم فالقول بالفرد المنعزل هو من خيال النظرية النفعية ، فليس هناك كائن بشرى موجود لم يولد فى مجتمع حى ومن ثم يتشكل به . ومن ثم يعتبر كل فرد على هذا النحو مستقبلا لثقافة تراكمت له من الأجيال السابقة عليه ، وأنه بتفاعله مع العالم الطبيعى والاجتماعى الذى يعيش فيه ، يساهم فى تعديل العالم الذى خبره وعاش فى اطاره مع الآخرين . فالحياة الانسانية للفرد و حياة الكائنات Species Life ليست أشياء مختلفة . ويؤكد ماركس أنه بالرغم من كون الانسان فردا منفردا ، فانه يمكن اعتباره أيضا الكل المثالى الذاتى للمجتمع كما نفكر فيه ونخبره (٣٣) .

ويدحض ماركس فكرة الفرد المنعزل عن الآخرين ، ذلك الذى لايرى سوى مصالحه بتأكيده ان كل أنواع نظم الانتاج تتضمن مجموعة محددة من العلاقات الاجتماعية الكائنة بين الأفراد المشتركين فى العملية الانتاجية . ويعتبر ذلك أساسا أكثر انتقادات ماركس أهمية للاقتصاد السياسى والمذهب النفعى . وهو يذهب الى أن تصور ( الفرد المنعزل ) يعتبر تأسيسا اقامته الفلسفة البرجوازية للنزعة الفردية لتساعد على اخفاء الطابع الاجتماعى الذى يبرزه الانتاج عادة . ويشير ماركس الى آدم سميث Adam Smith على أنه ( لوثر الاقتصاد السياسى ) لأنه ، ومن بعده الاقتصاديين الآخرين ، أثبتوا بحق ان العمل هو مصدر خلق الانسان لذاته (٣٤) . غير ان ماأغفله الاقتصاديون هو ان عملية خلق الانسان لذاته من خلال الانتاج تتضمن عملية التطور الاجتماعى ، فالبشر لاينتجون ببساطة كأفراد ، ولكن كأعضاء فى شكل مجتمع محدد . ومن ثم فليس هناك نموذج مجتمع لايتأسس على مجموعة محددة من علاقات الانتاج . فالبشر لايؤدون عملهم أثناء عملية الانتاج بالنظر الى الطبيعة ولكن ينظر كل منهم الى الآخر أيضا . فهم ينتجون عن طريق التعاون بأسلوب معين ثم يتبادلون جهودهم ، ومن أجل أن ينتجوا فانهم يدخلون فى علاقات واتصالات محددة كل بالآخر ، وفى اطار هذه الاتصالات والعلاقات فقط يؤسسون نشاطهم بالنظر الى الطبيعة ومن ثم يتحقق الانتاج (٣٥) . مجمل القول ان المجتمع سابق على الفرد ، ومن ثم يورثه ثقافة أجيال سابقة تساعده على أن ينجز نشاطا اجتماعيا نحو الآخر لتأكيد المجتمع وربما اعادة تشكيله ، أو نشاطا انتاجيا يتحد

فى اطاره الأنا والآخر فى مواجهة الطبيعة . فى اطار ذلك كله نجد ان العمل هو الذى يخلق الانسان ويخلق معه المجتمع والتطور ، ومن ثم فلا محل للخرافة النفعية القائلة بأنانية الملكية كأساس للاتفاق التعاقدى لتأسيس المجتمع .

وتعتبر الدولة قضية خلافية بين كل من الماركسية والنفعية ، فنحن نعرف ان الدولة كما أسست بواسطة المنطق التعاقدى لتجاوز حرب الكل ضد الكل على مايذهب هوبز أصبحت خارج النظام الاجتماعى ، أو خارج لعبة التفاعل الاجتماعى بشكل كامل . ومادامت كذلك فانها تتولى تنظيم حياة الأفراد دونما خوف من تجاوزهم لها . على خلاف ذلك نجد موقف ماركس من الدولة يتميز بتأكيده ان لها طابعها القهرى - ( وهنا ينظر ماركس الى الدولة باعتبارها جزءا من الطبقة أو تعبيرا عن هذه الطبقة سواء من حيث العناصر المكونة لها أو من حيث المصالح الأولى بالرعاية ) . ورغم ذلك فهو يعتبرها عنصرا ضروريا فى ترسيخ الأساس الاجتماعى لتحقيق شكل المجتمع الذى سوف يتجاوز الرأسمالية . ويرفض ماركس ان تعادل وجهة نظره بالنظرية النفعية فيما يتعلق بالدولة ، حيث لا وظيفة لها سوى تنظيم التعاقدات الاقتصادية (٣٦) . حيث يعمل هذا التصور وفقا لما يذهب ماركس الى التعجيل من قيام حرب الكل ضد الكل فى المجتمع المدنى ، ومن ثم فالغاء الدولة يعتبر جانبا فقط لتحول شامل وجذرى للمجتمع .

ويبقى بعد ذلك أن نؤكد ان ماركس يرفض مجموعة القضايا الأساسية التى تشترك فيها النفعية مع نظريات الاقتصاد الكلاسيكى . من هذه القضايا مايلى :

١ - تتعلق أول هذه القضايا بالتأكيد على وجود شروط الانتاج المميزة للرأسمالية فى كل الأشكال الاقتصادية . حيث يبدأ الاقتصاديون من اقتصاد التبادل ووجود الثروة الخاصة كمقدمة أساسية . فالسعى الذاتى والبحث عن الربح تبدو - من وجهة نظرهم - كخصائص طبيعية فى الانسان . فى اطار ذلك يذهب ماركس الى أن تشكل اقتصاد التبادل ماهو إلا نتيجة لعملية تاريخية ، وان الرأسمالية ماهى إلا نسق انتاجى محدد تاريخيا . وأنه مجرد نموذج واحد للنسق الانتاجى من بين الأنساق الأخرى التى سبقته تاريخيا ، وأنه ليس أكثر من الشكل الأخير بالنسبة للأشكال السابقة .

٢ - أما القضية الزائفة الثانية التى رفضها ماركس فتتعلق بما يذهب اليه الاقتصاديون من أنه يمكن تناول العلاقات الاقتصادية البحتة بشكل مجرد . اذ يتحدث الاقتصاديون عن ( رأس المال ) ، ( السلع ) ، ( الأثمان ) وما الى ذلك كما لو أن لها حياة مستقلة عن تدخل البشر . فادراك ماهو اقتصادى ينبغى أن يتم بالنظر اليه كعنصر فى داخل شبكة

محددة من العلاقات الاجتماعية . ومن ثم يذهب الى ان الاقتصاد الكلاسيكى على هذا النحو لايسلم بالعامل المتعطل ، أو العامل مادام خارج علاقات العامل ، أما المقامرون والشحاذون ، والعاطلون أو الذين يموتون جوعا ، والمجرمون ، فهى أشكال غير موجودة فى الاقتصاد السياسى . فهم أشباح خارج مملكة الاقتصاد (٣٧) . ثم يذهب الى التأكيد على ان كل ظاهرة اقتصادية هى فى ذات الوقت ظاهرة اجتماعية وان كل شكل اقتصادى معين يفترض قبلا شكلا مجتمعيا محددا (٣٨) . ومن ثم فقد أعجزهم تحليلهم الاقتصادى على هذا النحو عن رؤية فاعلية عوامل وعمليات اجتماعية ونفسية كالاغتراب والثورة وعودة الوعى .

٣ - أما القضية الثالثة التى يرفضها ماركس فتتعلق بنظرة الاقتصاديين الى العمل كنوع من التكاليف بالنسبة للرأسمالى . ومن ثم يتساوى مع أية انفاقات أخرى لرأس المال . حيث يرفض ماركس ذلك مؤكدا ان موضوعات التحليل الحقيقية هى البشر فى المجتمع. فالرأسمالية تتأسس بالنظر الى تقسيم طبقى بين البروليتاريا من ناحية ، والبرجوازية من ناحية أخرى ، وهم يدخلون فى علاقة صراع مع بعضهم البعض وهى علاقة يسيطر فيها كل من يملك رأس المال بسهولة على التفاعل الاجتماعى (٣٩) .

خلاصة هذه المناقشة ان كارل ماركس يقف على تناقض حاد ومقولات المذهب النفعى ، خلافا يكمن أساسه بين مفكر يؤكد على جماعية الانتاج واشباع حاجات المجتمع فى مجموعة ، فى مقابل نظرية تؤكد على أنانية الحاجة وذاتية الاشباع المحقق للسعادة . بين موقف يؤكد على انفصال الأنا عن الآخر فى سعيهما نحو اشباع الحاجات الأنانية للذات ، وموقف يذهب الى ان الآخر ليس سوى وسيلة أو حقيقة موضوعية متشيئة ينبغى ان تختزل الى مستوى اشباع الأنا وسعيها لتحقيق تراكم رأسمالى .

# الفصل الخامس

# مقولات البناء المنهجى
# للنظرية الماركسية

## المحتويات

## مقدمـــة

يكشف تحليل النظرية الماركسية عن وجود تصور محدد للمجتمع فى بنائه المورفلوجى أو عملياته التى تتبلور عن التفاعل الاجتماعى السائد به . هذا بالاضافة الى امتلاكها لمدخل يتضمن مجموعة من المقولات المنهجية التى تيسر للباحث تحليل الواقع الاجتماعى الذى يتعرض له أيا كانت طبيعته . بذلك يمكننا أن نقسم التصور الماركسى تعسفيا الى مستويين . المستوى المنهجى وهو الذى يحدد طبيعة ادراك النظرية الماركسية لسلوك الانسان فى هذا العالم ، وفى اطار هذا المستوى سوف نعرض لمجموعة المقولات أو القضايا ذات الطابع المنهجى ، عند هذا المستوى تعتبر النظرية الماركسية امتداداً للجدل الهيجلى من حيث التحليل والفهم . أما المستوى الثانى فهو المستوى العينى ، ويتمضن تحديد العناصر الأساسية للواقع الاجتماعى من زواية الرؤية الماركسية ثم طبيعة التفاعل بين هذه العناصر ، واتجاهاته ومراحله ومتتالياته ، واذا كان هذا المستوى - الثانى - يركز على محاولة تحديد هوية التفاعل الواقعى فإن نجاحه فى ذلك يتم بلاشك من خلال الاستناد الى مقولات المستوى الأول . حيث يمكن تحديد هذه المقولات على النحو التالى :

أولا : النظرية الاجتماعية كبديل للفلسفة لفهم المجتمع .

ثانيا : الحقيقة الاجتماعية ، طابعها الكلى الشامل .

ثالثا : الجدل والسببية بين العناصر المتفاعلة .

رابعا : الحتمية ، كتعبير عن فاعلية القوانين الأنسانية .

خامسا : تموضع الذات الآليات الأساسية .

وسوف نعرض بإيجاز لكل مقولة من هذه المقولات ، آخذين فى الاعتبار أن فصلها عن بعضها البعض على هذا النحو ، يعتبر من باب التجريد العلمى ، حتى يمكن تحليلهالإدراك طبيعتها ومكانتها فى التنظير الماركسى .

### أولا : النظرية الاجتماعية كبديل للفلسفة لفهم المجتمع

تمثل النظرية الاجتماعية على يد كارل ماركس نفيا للنظام القائم ، وانكارا له . بذلك فهى تستهدف شكلا جديدا للمجتمع حتى حينما تصف شكله الراهن . فهى تستهدف حقيقة لايتم التوصل اليها إلا عن طريق إلغاء المجتمع المدنى . فنظرية ماركس ( نقد ) بمعنى ان كل

تصوراتها تمثل ادانة للنظام القائم فى مجموعه (٤٠) . غير ان القول بالطابع النقدى للنظرية الماركسية فقط يفرض عليها مسحة أيديولوجية أو فلسفية تجعلها تبتعد كثيرا عن ان تكون أحد المواقف النظرية – فيما يتعلق بالمجتمع – التى عاصرت مولد نظرية علم الاجتماع . وانما ينبغى ان نضيف الى ذلك تضمن النظرية الماركسية لممارسات وصفية وتحليلية وتفسيرية من الدرجة الأولى ، يؤكد ذلك قراءة تحليلات كارل ماركس لطبيعة التفاعل السائد بالمجتمع الرأسمالى والعمليات التى تسوده ، ومن ثم القوانين التى تحكمه . وهناك عاملات أساسيان ساعدا على تأسيس اهتمام النظرية الماركسية بالواقع العملى للانسان .

ويتمثل العامل الأول فى ظهور النظرية الماركسية ، الى جانب النماذج النظرية الأخرى كاتجاه لنفى الفلسفة لتى سيطرت حتى هذه المرحلة . اذ نشأ اقتناع عميق بأن الفلسفة قد وصلت الى نهايتها ، حدث ذلك فى أعقاب وفاة هيجل . اذ ساد اعتقاد مؤكد بأن تاريخ الفلسفة قد بلغ مفترق طريق حاسم وان الوجود المادى للانسان هو الوسيط الوحيد للكشف عن الحقيقة وتطبيقها عمليا . واذا كانت الأبنية الفلسفية السابقة قد أعتبرت مأوى للحقيقة تعزلها عن مجال الصراع التاريخى للبشر ، فى شكل كل معقد من المبادئ الترنسستدنتالية . فانه من الممكن الآن ان يصبح تحرر الانسان هو نفسه عمل الانسان ، وهو هدف سلوكه العملى الواعى بذاته . ومن الممكن تحويل الوجود الحقيقى أو العقل أو الذات الحرة الى وقائع تاريخية متحققة (٤١) . ويعنى ذلك ان الحقيقة لم تعد بندا نظريا يصور الواقع دون ان يتدخل فيه وانما هى طاقة كاشفة لملامحه بهدف أعمال ذاتها فى تغييره . يؤكد ذلك مايذهب اليه ماركس أنه عن طريق الاتحاد بين النظرية والممارسة ، وبارتباط الفهم النظرى بالنشاط السياسى العملى فانه يمكن احداث التغير الاجتماعى (٤٢) .

أما العامل الثانى فيتمثل فى أنه قد سبق نشأة الماركسية الانتصار على فكر الكنيسة وانتشار مناخ التفكير العقلى الذى بلغ أوج الاعتقاد به فى تيار الفلسفة المثالية وبخاصة فلسفة هيجل . ومن ثم ساد اعتقاد بامكان ان يتحقق عالم يسوده العقل والحرية . وحدث اتجاه لأعمال العقل الانسانى فى واقعه ، يصور ذلك ماركيز بقوله انه اذا كان نفى الدين قد بدأ بتحويل هيجل للاهوت الى منطق ، فانه انتهى بتحويل فويرباخ للمنطق إلى أنثروبولوجيا . والانثروبولوجيا عند فويرباخ هى الفلسفة التى تستهدف التحرير العينى للانسان ، وتضع لهذا الغرض الخطوط العامة للشروط أو الصفات اللازمة لحياة انسانية حرة بحق (٤٣) . ومن ثم فلقد

كان الواقع الذى يعيشه الانسان بشروطه الكائنة والتى ينبغى ان تكون ، هو الاطار الذى عملت فى نطاقه النظرية الماركسية .

ومن الطبيعى ان ندرك منذ البداية ان النظرية الماركسية – كما أرادها ماركس – هى بطبيعتها نظرية فى المجتمع تتصف بالتكامل ، وتعمل على تحقيق التكامل (٤٤) . وذلك يعنى أنها نظرية ذات طابع كلى ، وان هذه الكلية لاتعنى امتلاكها لتصور يتعلق بكل العناصر الواقعية ، ولكن يعنى كشفها للعناصر ذات الفعالية الحقيقية بالكلية البنائية . أما كونها تعمل على تحقيق التكامل فيعنى انها سلب لكل ماهو واقعى وناقص وكشف لامكانات المستقبل الكامنة فى اطاره . وبالنظر الى هذا الفهم لطبيعة النظرية نجد ان كارل ماركس يتخذ موقفا من كافة الأنساق النظرية المتعلقة بالانسان والتى سادت عصره . فبالنظر الى تأكيده على الكلية الشاملة ، ومن ثم ضرورة ادراكها ادراكا كليا شاملا يتخذ فى اعتباره كافة أبعادها ، نجده لايدع مجالا لفلسفة مستقلة أو علم نفس أو علم اجتماع مستقل . فالأخلاق والدين والميتافيزيقيا ، وباقى مظاهر الأيديولوجيا وأشكال الوعى المناظرة لها ، لاتعود محتفظة بمظهر الاستقلال (٤٥) .

بالاضافة الى ذلك يذهب ماركس الى أنه مادامت معرفة الانسان وسلوكه وأمله ، كلها قد وجهت نحو اقامة مجتمع عادل ، فانه قد أخذ على عاتقه توضيح القوى والاتجاهات العينية التى تحول دون تحقيق هذا الهدف ، وتلك التى تساعد على ذلك ، ومن ثم كان التصدى بالدراسة للوقائع ذات الصلة الجوهرية بذلك . ولقد أدى ذلك الى انكار ماركس للفلسفة بل وعلم الاجتماع – بالمعنى الوضعى أيضا – فالوقائع الاجتماعية التى حللها ماركس ( كاغتراب العمل ) وفيتشية عالم السلع ، وفائض القيمة والاستغلال ليست متشابهة لوقائع علم الاجتماع ، كالطلاق والجريمة وحراك السكان والدورات الاقتصادية (٤٦) . ولايرفض ماركس بذلك علم الاجتماع فى حد ذاته وانما هو يرفض تجزؤ العلوم ، أولا لأن ذلك يعجزها عن النظرة الكلية المتكاملة ، وثانيا لرفضه انصراف العلم الى الوصف المنتظم الموضوعى لمجموعة من الوقائع ذات الأهمية الثانوية بالنسبة للبناء القائم . فالنظرية الصحيحة من وجهة نظره هى الوعى بمسلك عملى يستهدف تغيير العالم ، بيد ان هذا المسلك الواعى من وجهة نظره ينبغى ان يتأسس فى ظل ثلاثة حقائق رئيسية .

الأولى ان تصوره للحقيقة تميز الى حد كبير بالطابع الفلسفى ، ومن ثم فتصور الحقيقة لديه بعيد كل البعد عن النسبية . فالشروط العينية المؤدية الى بلوغ الحقيقة قد تتباين ، ولكن

الحقيقة تظل واحدة . هذه النظرة المطلقة الى الحقيقة تكمل التراث الفلسفى للنظرية الماركسية وتفصل النظرية الجدلية على نحو قاطع عن الأشكال النظرية للوضعية والنسبية (٤٧) .

أما الحقيقة الثانية فيؤكد فى اطارها الحاجة الى علم امبيريقى للمجتمع يقوم على دراسة التفاعل الدينامى الخلاق بين الانسان والطبيعة ، وعلى العملية التكوينية التى يخلق الانسان عن طريقها ذاته . ولكى يفهم هذا العلم واقعه فانه يحتاج الى منهج يبدأ من المقدمات الواقعية ولايغفل عنها للحظة ، حيث يصبح البشر مقدماته ، ليس فى انعزالهم الخيالى ، ولكن فى وجودهم الواقعى وعملية تطورهم التى يمكن ادراكها امبيريقيا فى ظل ظروف محددة ، وبمجرد وصف هذه الحياة النشطة فان التاريخ يتوقف عند كونه تجميعا للحقائق الميتة ، مثلما يفعل الماديون ، أو جهد خيالى لأشخاص خياليين كما يفعل المثاليون . ثم يذهب الى أنه حينما يتم تصوير الواقع فان الفلسفة كفرع مستقل للمعرفة تفقد دورها كوسيط لإدراك الوجود . وعلى أحسن الأحوال فإن مكانها يمكن أن يملأ بواسطة تأليف أكثر النتائج عمومية ، تلك التى يمكن تجريدها عن ملاحظة التطور التاريخى للبشر ، ولاقيمة لهذه التجريدات اذا هى انفصلت عن التاريخ الواقعى . وانما يمكن ان تساعد فقط على تيسير تنظيم المادة التاريخية ، لكى تحدد تتابع شرائحها المنفصلة ، غير انها لاشك توفر الاطار ، كما تفعل الفلسفة ، للوصف الدقيق لفترات التاريخ (٤٨) .

أما الحقيقة الثالثة فتتمثل فى وجوب أن نتحرك بهذا التصور النظرى بالاضافة الى ادراك حقائق الواقع الامبيريقية بهدف تأسيس نظام عقلى للحياة ، ولشروط ايجاد هذا النظام، والخطوات الأولى التى يجب اتخاذها . فى اطار ذلك تظل النظرية مصاحبة للمسلك العملى فى كل لحظة ، فتحلل الواقع المتغير وتصوغ تصوراته تبعا لذلك (٤٩) .

وبتحليل وجهة نظر كارل ماركس فى طبيعة النظرية ودورها ، نجده أولا يؤكد من ناحية على الطابع الفلسفى المطلق للحقيقة ، ومن ثم يبعدها عن مقولة النسبية التى تؤكدها العلوم الامبيريقية باعتبار ان ادراكاتها جزئية . غير أنه من ناحية أخرى يؤكد على أن تجريد الحقائق الامبيريقية الواقعية لمختلف المراحل التاريخية يمثل المدخل الحقيقى لفهم الواقع وبناء النظرية كبديل للانساق الفلسفية ، هذا الى جانب الطابع العملى للنظرية لديه . وحول هذه الملاحظة الأخيرة نطرح تساؤلاً يتعلق بالكيفية التى يتسق بها تجريد الحقائق الامبيريقية النسبية مع القول باطلاقيــة الحقيقة . هل يعنى ذلك ان التصور الماركسى يعانى من توتر وتناقض فى هـــذا النطـــاق ؟ .

الواقع على غير ما يبدو ظاهريا ، فليس هناك تناقض ، ذلك لأن النظرية الماركسية تحتوى على مايمكن ان يسمى بالمنطق الأيديولوجى بمعنى تصورها لترتيبة معينة لعناصر الواقع ، ثم لحركتها المتفاعلة سواء كانت ذات طابع تاريخى أو معاصر . هذه الرؤية الأيديولوجية هى التى لها الطابع المطلق ، وهى التى بناء عليها يتأسس الجهد النقدى التثويرى للواقع . بيد أنه عند المستوى الآخر ، وهو المستوى الامبيريقى الواقعى ، نجده يهتم بوصف الحقائق كما يراها لكى يرى مدى اتساقها والفرضيات الأيديولوجية العامة ، وهى بالطبع حقائق جزئية قصيرة المدى وذات بعد تكتيكى فى اطار الاستراتيجية العامة للنظرية الماركسية .

### ثانيا : الحقيقة الاجتماعية ، طابعها الكلى الشامل

أشرنا فيما سبق الى انتقال العناصر الأساسية للمنهجية الماركسية اليه من هيجل ، حيث يعتبر التأكيد على كلية الحقيقة موضع الادراك أول هذه العناصر . فاذا كانت الكلية هى الحقيقة الأولى عند هيجل . فان الأخطاء لاتعدو ان تكون وجهات نظر جزئية ، أو وقائع فردية منفصلة ، فالوقائع فى الطبيعة والفكر معا هى بمثابة أوجه مختلفة لتلك الحقيقة الكلية الواحدة التى يسميها هيجل باسم المطلق (٥٠) .

ويرى هيجل ان ماهو كلى يتكشف من خلال ماهو جزئى ، وان الكلية هى العملية الطبيعية للجنس ، كما تتحقق من خلال النوع والأفراد . والكلية فى التاريخ هى جوهر كل تطور ، فدولة المدنية اليونانية ، والصناعة الحديثة والطبقة الاجتماعية ، كل هذه الكيانات هى قوى تاريخية فعلية لا يمكن ردها الى مكوناتها . بل ان الوقائع والعوامل الفردية ، على عكس من ذلك لاتكتسب معناها الا من خلال الكلى الذى تنتمى اليه ، فالفرد يتحدد لا بصفاته الجزئية ولكن بصفاته الكلية مثل كونه مواطنا يونانيا أو عاملا فى مصنع حديث أو بورجوازيا (٥١) . بيد أنه حينما يؤكد هيجل على الكلية ويجعلها معقلا للحقيقة ، فانه حينئذ يعبر عن اقتناعه بأن أية صورة جزئية معطاة سواء فى الطبيعة أو فى المجتمع ، لاتتضمن الحقيقة كاملة ، هذا بالاضافة الى أن هذه الكلية تعد وسيلة للتنديد بانعزال البشر عن الأشياء ، والاعتراف بأن امكاناتهم لايمكن ان يحتفظ بها إلا باعادة التكامل بينها (٥٢) . ولايرجع التأكيد على الوحدة العضوية الى هيجل فقط ، ولكنها - الى جانب ان لها جذورها فى الفكر اليونانى القديم بل وفى الفكر الشرقى القديم أيضا - كانت تمثل احدى المقولات التى سادت القرنين الثامن والتاسع عشر ، تحت تأثير الفكر التطورى الموسوعى الذى كان دائما مايرسم صورة المجتمع على غرار الكائن العضوى (٥٣) .

ومن خصائص هذه الكلية ضرورة قيام نوع من الترابط بين جزئيات الوجود وذاته ، بحيث ان التغيير فى أى من أجزاء هذا الكل انما تكمن أسبابه فى هذا الكل أو فى أى من أجزائه ، وان تغيره انما هو تطور نحو اكتمال هذا الكل . اذ ليست هذه التغيرات سوى خطوات تمهد لهذا الكل طريق التجاوز والارتقاء نحو وحدة كلية أشمل وأوفى وأكثر اكتمالا (٥٤). أما الخاصية الثانية التى ترتبط بالكلية سواء على النمط الهيجلى أو الماركسى ، فتتمثل فى ان هذه الكلية لاتنصب على الكلية الكائنة فقط ، ولكنها تميل الى ماينبغى ان يكون ، فهى كلية تسعى الى الكمال عن طريق التفاعل الجدلى بين العناصر والأجزاء ، والتى عند بلوغها الكمال سوف ينتهى التفاعل النقضى ، فهى الى جانب كونها كلية ماهو كائن وتعايشه فهى كذلك كلية الممكن والمرغوب الذى تسعى اليه . والواضح ان شمول الكلية لهذا البعد المستقبلى يجعلها تختلف عن الكلية الدوركيمية والتى تبحث عن تزاوج بين الوضعية والاتجاه العضوى ، والتى استمرت حتى ورثتها البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، باعتبار ان الأخيرة تقصر الكلية على ماهو كائن بينما تؤكد الأولى على ماينبغى ان يكون ومن ثم تطرح منطق التحرك نحوه ، وتخلق مبررا انطولوجيا لعمليات التغير والثورة وسلب ماهو كائن لأنه ناقص وفى حاجة دائمة الى التجاوز .

وبينما كانت الكلية عند هيجل ذات طابع عقلى يندمج كل جزء فيه ( الذاتى والموضوعى ) فى كل شامل ، فان التنظير الماركسى قد اتخذ منذ البداية الطابع المادى ، فهو يبدأ بواقعة اقتصادية يعترف بها الاقتصاد الكلاسيكى ذاته . فالمجتمع الحديث اذ يسير فى طريقه يصبح العامل فيه أفقر كلما انتج ثروة أعظم ، وكلما ازداد انتاجه فى قوته ومداه . وهكذا فان الحط من قدر العامل الانسانى يسير جنبا الى جنب مع استغلال العالم الموضوعى له ، ثم يؤكد ان تحطيم العامل وافقاره فى الوضع القائم للمجتمع ، نتاج لعمله ذاته ، أو للثروة التى انتجها هو ذاته . وهكذا فان البؤس ينبثق عن طريقة العمل السائدة ، وتتغلغل جذوره فى ماهية المجتمع الحديث ذاتها (٥٥) . ذلك يعنى أنه بينما تكمن الكلية الهيجلية فيما هو عقلانى ومثالى ، بحيث ينعكس كمالها واكتمالها على ماهو واقعى ، فان كارل ماركس يرى كليته من منطق معاكس ، واذا كانت كلية هيجل قد اكتملت فان العذاب المحيط والأوضاع والحرمان التى تعيشها البروليتاريا تؤكد ان الكلية الواقعية فى حاجة الى سلبها وتجاوزها وهو جوهر الخلاف الماركسى – الهيجلى .

ويحاول ماركس ان يبرز الكلية كوسيلة منهجية عن طريق ابراز بعض أمثلة سلبها أو تلك المؤكدة على تجاوزها ، فتقسيم العمل فى المجتمع يعبر عن تجزؤ هذه الكلية . فهو يذهب ( الى ان قوى الانتاج ، وحالة المجتمع ، والوعى ، لابد ان تنتهى الى التناقض كل مع الآخر ) ، لأن تقسيم العمل ينطوى بالقوة ، بل بالفعل أيضا على القول بأن النشاط الذهنى والمادى - أى أن الاستمتاع والعمل والانتاج والاستهلاك يرجعان الى أفراد مختلفين (٥٦) . ثم يؤكد ان النظام الرأسمالى قد شوه هذه الكلية بأن جعل مصالحه تبدو كأنها مصالح كلية شاملة ، مع أنها ليست كذلك فالكلية الواقعية التى جسدها النظام الرأسمالى فى مختلف أبعاده تفتقد أى شمول جوهرى .

وانقسام البشر الى طبقات يعتبر أيضا دليلا آخر على انهيار هذه الكلية . فوجود الطبقات من حيث هى واقع فعلى يناقض الحرية ، أو على الأصح يحولها الى فكرة مجردة ، فالطبقة تحصر النشاط العقلى للحرية الفردية فى اطار الفوضى العامة ، وهى ساحة التصرف الحر التى لاتزال متاحة أمام الفرد . فكل فرد يكون حرا بقدر ماتكون طبقته حرة ، ونمو فرديته منحصر فى حدود طبقته ، فهو يتكشف بوضعه ( فردا طبقيا ) . ومن ثم لايستطيع الشكل الراهن للمجتمع ان يحقق نظاما شاملا إلا عن طريق سلبه للفرد ، اذ يصبح ( الفرد الشخصى ) فردا طبقيا . وتصبح الخصائص المكونة له خصائص كلية شاملة يشترك فيها مع كل الأفراد الآخرين لطبقته ولايعود وجوده خاصا به ، بل يصبح وجود طبقته (٥٧) . بذلك يؤكد ماركس ان هذه الكلية لاوجود لها لأنها ينبغى ان تتضمن أفراد أحرار ذوى ماهية كلية ، بينما مايحدث غير ذلك فالانسان يتحدد واقعه بطبقته . ويفرض سلوكه عليه من الخارج . ونتاج هذا العقل اذا ماتحقق لا يضيف الى كليته ولكنه ينتقص منها بأن يفرض تشيؤها اغترابا أكثر .

ماهو السبيل الى تحقق هذه الكلية الحقيقية المتكاملة ، يرى ماركس ان الفعل الذى يلغى الكلية الزائفة ويأتى بالكلية الحقيقية لابد ان يكون هو الآخر فعلا أو جهدا كليا . ويذهب الى أنه مادام الوضع السائد حتى الآن يمثل سلبية شاملة ، تؤثر فى جميع مجالات الحياة ، فان تغييره يقتضى ثورة شاملة ، أى ثورة تلغى أولا كل الأوضاع السائدة ، وتؤدى ثانيا الى الاستعاضة عنها بنظام شامل جديد . ولابد ان تكون العناصر المادية للثورة متوافرة ، بحيث لاتمتد الانتفاضة الى أوضاع خاصة فى المجتمع القائم ، بل الى نفس ( انتاج الحياة ) السائد فيها و ( النشاط الكلى ) الذى تبنى عليه . فهذا الطابع الكلى الشامل للثورة يحتمه الطابع الكلى الشامل لعلاقات الانتاج الرأسمالية . ان الاتصال المتبادل والشامل لايمكن ان يسيطر عليه

أفراد ، الا حينما يكون الجميع مسيطرين عليه . وتؤدى الانتفاضة الثورية التى تنهى نظام المجتمع الرأسمالى الى تحرير كل امكانات الفوضى التى ظهرت فى هذا النظام . ومعنى ذلك ان الشمول الذى يوجد فى الحالة الراهنة للمجتمع سوف ينتقل الى النظام الاجتماعى الجديد ، ولكنه سوف يتخذ طابعا مختلفا . وعندئذ سيتمكن الانسان ، لأول مرة فى التاريخ ، من ان يعامل على نحو واع جميع الموارد الطبيعية على أنها من خلق البشر . وسوف يسير صراعه مع الطبيعة حسب ( خطة عامة ) يضعها أفراد متحدون بحرية (٥٨) ، ومن ثم يصبح الانسان نفسه هو الكلى ، الذى عليه ان يكشف عن الماهية الكلية للانسان .

فى أعقاب ذلك يتأسس المجتمع الشيوعى الذى يتولى بدوره ( الالغاء الايجابي للملكية الخاصة ) وبذلك تصبح الشيوعية شكلا جديدا من أشكال النزعة الفردية لكونها تؤكد على الإنسان بإعتباره إنسانا، فهى ليست نظاما اقتصاديا مختلفا ، بل هى نظام جديد فى الحياة . ان الشيوعية هى ( التملك الحقيقى لماهية الانسان بواسطة الانسان ومن أجل الانسان ) ومن هنا فانها عودة الانسان الكاملة ، الى ذاته بوصفه كائنا اجتماعيا أى انسانيا ، أنها تعتبر الحل الصحيح لصراع الانسان مع الطبيعة ومع الانسان ، وللنزاع بين الوجود والماهية ، وبين التشيؤ والاستقلال الذاتى ، والحرية والضرورة ، والفرد والنوع . ففى هذا الشكل الجديد للمجتمع ستحل كل المتناقضات التى كانت كامنة من وراء فلسفة هيجل والفلسفة التقليدية كلها وما الأفكار الفلسفية إلا تعبير عن أوضاع تاريخية مادية ، تنفض عن نفسها غلالتها الفلسفية بمجرد أن تصبح موضوعا لبحث النظرية النقدية أو تدرك بواسطة العمل الاجتماعى الواعى (٥٩) .

### ثالثا : الجدل ، والسببية بين العناصر المتفاعلة

بينما تميز الجدل الهيجلى بالطابع المنطقى فيما يتعلق بالتفاعل بين عناصره ، فان الجدل عند ماركس تميز بكونه حركة تاريخية أساساً تعكس تفاعلا عينيا . ومن ثم فاننا نتفق مع مايذهب اليه هربرت ماركيوز بأنه اذا كان الجدل الهيجلى يقدم الينا الشكل المنطقى المجرد للتطور فيما قبل التاريخ ، فاننا نجد ان ماركس يقدم لنا الجدل فى حركته الحقيقية العينية . ولذلك فان الجدل الماركسى يظل بدوره مقيدا بمرحلة ماقبل التاريخ (٦٠) .

واذا كان الجدل يعنى حالة من التفاعل بين عديد من العناصر ، فان هذا التفاعل يتميز بطبيعته المتناقضة أو الصراعية فى اطار وحدة كلية يتأسس وجودها بالنظر الى المتناقضات التى يضمها . فى اطار ذلك نجد ان الجدل العينى لكارل ماركس اتخذ نقطة بدايته فى النقد

الذى وجهه الى كل من هيجل وفويرباخ ، ومن ثم فالفلسفة الماركسية الناشئة تشكل اختلافا ابستمولوجيا حاسما مع فلسفة كل من هذين المفكرين وخاصة الأول . فمن الواضح ان ماركس قد أخذ عن هيجل الشكل الصورى للجدل كبناء وكعملية جوهرية وان اختلف معه فى المضمون الجدلى ، فالجدل عند ماركس عملية تقع فى قلب التاريخ ، ويعبر عن طبيعة العلاقة والتفاعل بين عديد من العناصر الواقعية .

هذا فى حين ان خلافه مع فويرباخ لم يكن حول المضمون العينى ، فقد كان فويرباخ واقعيا ، وانما كان حول عدم استخدام فويرباخ للمدخل الجدلى فى ادراكه لطبيعة التفاعل الواقعية ، فهو يؤكد ان مدخل فويرباخ ليس تاريخيا . هذا الى جانب انه يرى الانسان سابقا على المجتمع ، وانه فشل فى ان يدرك ان الاحساس الدينى هو فى ذاته نتاج اجتماعى ، وان الفرد الذى يحلله ينتمى الى شكل محدد للواقع (٦١) . هذا الى جانب غياب التفاعل الجدلى عند فويرباخ ، حيث يعتبر الأخير الأفكار مجرد إنعكاس للواقع المادى ، وهو مع آخرين يتناول الواقع المادى على أنه المحتم للنشاط البشرى ، ولم يحاول تحليل التعديل الذى قد تجريه الذات subject فى العالم الموضوعى ، أعنى بواسطة نشاط الانسان . ثم يذهب ماركس الى ان فويرباخ كان عاجزا عن ادراك حقيقة ان النشاط الثورى هو نتاج الأفعال الارادية الواعية للبشر ، وبدلا من ذلك فاننا نجد ان فويرباخ يصور العالم بالنظر الى أسلوب أحادى التأثير للواقع المادى على الأفكار (٦٢) ، وهو مايرفضه ماركس .

ويتطلب تحديد الادراك الجدلى عند ماركس النظر الى ثلاثة ابعاد رئيسية ، الأول ماهية الجدل ، ويتعلق الثانى بملامحه الأساسية ثم مكونات الجدل فى الفهم الماركسى . وفيما يتعلق بماهية الجدل نجد ان لينين يحدد وجهة النظر الماركسية بصدده حينما يؤكد ان المعنى الحقيقى للجدل يتمثل فى دراسة التناقضات الكامنة فى الجوهر الحقيقى للأشياء . اذ يوافق ماركس هيراقليطس Heraclitus فى ان التناقض هو جوهر الأشياء ، ومن ثم فهو شامل ومطلق . وتوجد التناقضات كأساس للتغير فى كل العمليات منذ بداية وحتى نهاية تطور الأشياء . وفى مناقشة الحالات الواقعية للتغير الاجتماعى على المستوى الفردى أو الكونى ، فاننا نجد ان المنهج الماركسى يتكون من تتبع حركة الاضداد ( انقسام الواحد والمعرفة بأجزائه المتناقضة ، ثم المعرفة بوحدة هذه الأضداد (٦٣) . فالصراع والتناقض له طبيعته الشاملة والمطلقة ، ولكن اشكال الصراع تختلف حسب الإختلافات فى طبيعة التناقضات . اذ تتميز بعض التناقضات بوجود العداء الصريح ، بينما البعض الآخر ليس كذلك . وحينما ننظر الى التطور الواقعى

للموضوعات ، فان بعض التناقضات العدائية اصلا تتغير وتصبح لاعدائية (٦٤) . فالجدل اذن يدرس كيف يمكن للأشياء ان تتحد ، وكيف تصبح متحدة ( كيف تتغير وتنمو ) - وتحت أى شروط يحول كل منهما الآخرز ليتحد معه - ، ولماذا ينبغى ألا ينظر العقل البشرى الى هذه الأضداد كموضوعات things ميتة وصلبة rigid ، ولكن كنوات entities حية ، وقابلة للتغير والتكيف بحيث ان كل منها تعدل فى الأخرى (٦٥) .

ويكشف البحث فى الملامح الاساسية للمدخل الجدلى عند ماركس عن تميزه بعده ملامح أساسية . أول هذه الملامح الطابع السلبى للواقع كنقطة بدء للمنطق والتفاعل الجدلى عند كارل ماركس وهو القوة الدافعة له . هذه السلبية هى التى أدت فى العالم الاجتماعى الى ظهور متناقضات المجتمع الطبقى . ومن ثم فقد ظلت هى المحركة لمسار العملية الاجتماعية . وقد انجذبت كل واقعة وكل حالة منفردة الى هذه العملية بحيث لم يعد من الممكن الوصول الى دلالتها إلا عندما ينظر اليها فى اطار هذه الكلية التى تنتهى اليها . ( فالحقيقة ) عند ماركس وهيجل معا ، لاتكمن إلا فى الكل ، أو فى الكلية ذات الطابع السلبى (٦٦) . فبداية الادراك الجدلى هى الايمان بكلية الموقف أو الواقع ، الذى يتضمن عناصر تكتسب معناها من علاقتها بالموقف الذى تسوده علاقات سلبية اساسا .

ويشكل الطابع التاريخى للجدل خاصيته الثانية ، وقد شكلت هذه الخاصية خلافا بين ماركس من ناحية وهيجل وفويرباخ من ناحية أخرى ، حيث ادركه هيجل ادراكا فلسفية ، بينما ادركه فويرباخ ادراكا أحاديا . ومن ثم فان الابستمولوجيا الماركسية تشكل اختلافا صارما مع هذه الادراكات . حيث نجد ان ماركس يتخلى عن الفلسفة لصالح الارتباط بمدخل له طابعه الاجتماعى والتاريخى (٦٧) . اما الخلاف الرئيسى بين الجدل الماركسى والهيجلى فيتمثل فى ان الجدل الهيجلى عمم الحركة الجدلية بحيث جعل منها حركة لكل الوجود . أى للوجود بما هو كذلك ، وبذلك لم يستخلص منها الا التعبير ( المجرد ) المنطقى النظرى عن حركة التاريخ . هذا بالاضافة الى انه برغم اعتقاد هيجل انها عامة فانها لاتميز بالفعل إلا مرحلة بعينها فى التاريخ الانسانى ( ويعنى بها تاريخ انتقاله الى النضج ) . ولذلك يميز ماركس بين مرحلة الانتقال الى النضج ، وبين ( التاريخ الفعلى ) للانسانية ، بحيث يعد ذلك تقييدا لنطاق الجدل (٦٨) . وبذلك نجد ان الطابع التاريخى للجدل عند ماركس يؤكد ارتباطه بشكل تاريخى محدد هو المجتمع الطبقى ، وانتفاء المجتمع الطبقى ، يعنى انتفاء الجدل وتوقفه عن كونه اطارا عاما يتحكم فى تفاعلات الوجود دونما اعتبار الى نسبية التاريخ على مايذهب اليه هيجل .

وتتمثل الخاصية الثالثة فى اختلاف الجدل عند ماركس عنه عند هيجل فى ان الجدل عند الأخير يمثل حركة متعالية تتم فى اطار الفكرة الشاملة أو العقل الكونى أو المطلق ، بينما هو عند الأول محكوما بالشروط الواقعية للمجتمع من حيث استمرارية تفاعله أو نهاية فاعليته بانهيار المجتمع الرأسمالى . فى اطار ذلك يؤكد ماركس ان القوانين الجدلية بطبيعتها قوانين ضرورية ، وان الصور المختلفة للمجتمع الطبقى تزول بالضرورة من جراء متناقضاتها الداخلية ، ويقول ماركس ان قوانين الرأسمالية تسير ( بضرورة محتومة نحو نتائج لامفر منها ) . فالانتاج الرأسمالى يؤدى الى نفى ذاته أو سلبها ، وذلك بحتمية مماثلة لحتمية القانون الطبيعى (٦٩) . بل اننا نجده يرى ان الظروف الواقعية هى التى تمهد لانهيار المجتمع الرأسمالى بقيام الثورة البروليتارية بالنظر الى مجموعة من الظروف الموضوعية ، فهى تقتضى بلوغ مستوى معين من الثقافة المادية والعقلية ، وطبقة عاملة منظمة وواعية بذاتها على نطاق عالمى ، وصراعا طبقيا حادا . غير ان هذه الظروف لاتصبح ظروفا ثورية إلا اذا استغلت ووجهت بنشاط واع يرمى الى تحقيق الهدف الاشتراكى . أن الثورة تقتضى نضج قوى متعددة ، ولكن أعظم هذه القوى هى القوى الذاتية ، أعنى الطبقة الثورية ذاتها . فتحقيق الحرية والعقل يقتضى توافر المعقولية الحرة فى أولئك الذين سيحققونها (٧٠) .

ذلك يعنى ان الجدل عند ماركس ينطلق من ادارك محدد للواقع الاجتماعى ، بحيث يعكس ذلك تصوراً يتضمن عددا من العناصر المتناقضة . فالجدل ينطلق من سلب الواقع نحو استكماله فى المجتمع الشيوعى . وهو أيضا يظل متحكما فى تفاعلاته الأساسية بما فيها التحكم فى حركة الانسان والتفاعل ، وحتى قيام المجتمع الشيوعى حيث انتفاء الجدل وسيطرة الانسان على تفاعلات التاريخ . وهو محدد بواقع تاريخى فاذا وقعت الثورة البروليتارية فانها تخلق واقعا اجتماعيا ينتفى فى اطاره التناقض ، ويطغى وجود الذات على الموضوع ، وتنتفى حتمية الواقع مادامت الذات تعيد ترتيب عناصره بما يوائم احتياجاتها الأساسية .

يبقى بعد ذلك البعد الثالث فى التصور الجدلى ، وهو الذى يتعلق بالأبعاد الأساسية للتفاعل الجدلى كما رآه ماركس . وتكشف النظرة الأولى لطبيعة الجدل الماركسى عن تصوره لموقف اجتماعى تتناقض فى اطاره عناصر كثيرة ، بل إننا نجد تعقد هذه الحالة المتناقضة حينما تتخذ عناصر العملية الجدلية مواقف متناقضة فى مراحل تاريخية متتابعة ، وفى اطار ذلك يمكن التمييز بين ثلاثة تناقضات أساسية .

أما التناقض الأول فيتمثل فى تناقض الفرد مع المجتمع . اذ يؤكد ماركس ان هناك جدلا بين الذات ( الانسان فى المجتمع ) والموضوع ( العالم المادى ) حيث يخضع البشر باطراد

العالم المادى لاغترابات عديدة . وبالاضافة الى ذلك نجده يؤكد ان الوعى الانسانى يقع فى اطار التفاعل الجدلى بين الذات والموضوع ، حيث يستطيع عن طريقه ايجابيا تشكيل العالم الذى يعيش فيه ، وفى ذات الوقت يشكل نفسه (٧١) ، ويطلق انتونى جايدنز على هذا النموذج الجدلى جدل الانسان مع الطبيعة . فالكائنات البشرية ، على خلاف الحيوانات الدنيا ، يؤدى افتقادها لجهاز داخلى من الاستجابات الغريزية الى اجبارها على التفاعل الخلاق وعالمها المحيط ، ومن ثم يصبح على البشر ان يحاولوا السيطرة على بيئتهم وليس فقط التكيف معها كمعطاة مفروضة ، وعلى ذلك يغير البشر من أنفسهم من خلال تغيير العالم المحيط بهم فى اطار عملية تبادلية مستمرة . فى اطار ذلك يصبح الوعى نتاجا اجتماعيا ، بل ان اللغة تنشأ من خلال التفاعل والبشر الآخرين . وينتهى جدل الانسان مع الطبيعة بخلق تكنولوجيا اجتماعية تتمثل فى وسائل الانتاج الأساسية ، الذى يعنى ابتكارها غلبته وسيطرته على عالمه الطبيعى .

أما التناقض الثانى فيدور حول وسائل الانتاج التى كانت من نتاج التناقض الأول . فمن الواضح أن بناء النظام الرأسمالى يتضمن طبقتين كبيرتين تستندان الى تناقض ، رأس المال أو العمل المأجور ، وكلاهما له مصالحه المختلفة . وذلك يعنى وجود صراع طبقى ، كامنا أو صريحا فى بناء المجتمع الرأسمالى . وأن هذا التناقض أو العداء يتم السيطرة عليه مباشرة من خلال السلطة السياسية للدولة كوسيلة أساسية (٧٢) . ولايتوقف ماركس عند ذلك ولكنه يتناول الدولة كنتاج لهذا التناقض ، فيؤكد ان الدولة ذاتها تزول حينما ينتفى المجتمع الطبقى ومن ثم التناقض الطبقى . بل اننا نجد ان العمليات النافية لكل طبقة منها هى عمليات متناقضة أساسا تعمل فى اطار سياق اجتماعى واحد ، فعملية الافقار تعمل فى ناحية الطبقة البروليتارية حتى توصلها الى الثورة التى تنفى أوضاعها ، وعملية التركز تصبح المعول الحقيقى الذى يعمل على فناء الطبقة الرأسمالية (٧٤) .

ويكمن التناقض الثالث فى طبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع حيث نجد ان المشروع الماركسى يصر دائما فى مرحلة ماقبل التاريخ على خضوع الفرد للمجتمع من خلال مجموعة من الاغترابات التى يعنى ترسيخها مزيدا من خضوع الانسان للمجتمع . وبخاصة من خلال عمليات التطبيع الأساسية والأجهزة التى تتولى القيام بها . بيد أنه فى مرحلة مابعد الثورة يحاول ماركس توضيح هذه العلاقة فى أوضاعها فى ظل المجتمع الشيوعى . اذا نجد ان ماركس غالبا ما أشار الى الانسان كمنتج أو كمبدع . وهو التصور الذى يتناقض تماما مع تصور بارسونز الذى اهتم كثيرا بمشكلة النظام (٧٥) . ويعنى ذلك وجود علاقة متناقضة بين

الفرد والمجتمع ، اذ يمتد أحدهما على حساب الآخر ، ففى المرحلة الأولى يتحقق وجود المجتمع على حساب خضوع الانسان له ، بينما فى المرحلة - مابعد تحقق المجتمع الشيوعى - الأخيرة نجد سيطرة الانسان على المجتمع بما يجعله ملائما لأشباع حاجاته الأساسية .

## رابعا : الحتمية : كتعبير عن فاعلية القوانين الانسانية

يكتسب التفسير العلمى خاصيته العلمية اذا هو أصبح حتميا ، وهو ما ينبغى أن يكون عليه التفسير السوسيولوجى ، وذلك يعنى ان الحتمية خاصية منهجية أساسا . وهى تعنى ان يصل الباحث العناصر موضع التحليل كل بالآخر فى نوع من التتابع المعتمد بعضه على البعض . وحينما تطبق الحتمية فى اطار المجتمع والبناء والتفاعل الاجتماعى تعنى ان مايحدث ( لايمكن إلا أن يحدث ) . ومن ثم فترتيب الموضوعات لايمكن ان يتخذ وجهة أخرى . ويعنى ذلك أيضا ان من طبيعة الموضوعات ان تتجسد تتابعاتها بشكل مادى معين . ويتضح ذلك من تأكيد بندكس على نجاح العلم الاجتماعى الحديث ، لكونه قد أوضح ان الانسان هو مخلوق العادات والدوافع والأدوار الاجتماعية (٧٦) . بل ان تتبع التراث النظرى فى علم الاجتماع يكشف عن اتجاه يركز فى مجمله على العلاقة الحتمية بين الفرد والمجتمع . ويعبر بيرجس Berges عن هذا النمط من الحتمية حينما يماثل الانسان فى المجتمع بدمية المسرح التى تؤدى دورا قد عين لها . ولقد استمر هذا التصور المتطرف لخضوع الانسان لحتمية المجتمع ، وللانسان المبالغ فى تطبيعه حتى شكل ذلك رد فعل لدى فريق من علماء الاجتماع فنسبوا للانسان دورا فعالا فى صياغة عالمه (٧٧) ، حسبما تذهب التفاعلية الرمزية مثلما يعبر لشتمان كأحد ممثلى هذا الاتجاه .

فما هى طبيعة الحتمية فى اطار النظرية الماركسية ، فاذا كنا نوافق بارسونز على أنه من المنطقى أن تكون الماركسية هى الصورة المثلى للنسق الهيجلى ولكن بمضمون مختلف (٧٨) ، وهى القضية التى طالما رددها ماركس ، فان ذلك يعنى ان ثمة عالما اجتماعيا يسير وفقا لقوانين محددة تتجه به نحو غاية معينة . وان كافة مظاهر التفاعل الاجتماعى ماهى إلا تجليات لقوانين أساسية تضبط جوهر الوجود وحركته . ويكشف البحث فى النظرية الماركسية عن عدة أنماط من الحتمية .

وتتسم أولى هذه الحتميات بالطابع التطورى حيث بداية النسق الاجتماعى الكائن كامنة فى النسق السابق عليه ، بحيث يشير تتابع الانساق فى المشروع الماركسى الى تسلسل له

طابعه الحتمى . وأيا كانت درجات تكافؤ العلاقة بين هذه الأنساق ، أو أهمية الصراع الطبقى كطاقة دينامية دافعة لهذه العملية الجدلية ، فان العلاقات السببية لاتنقطع . حيث يصبح كل نسق – عن طريق عملية انهياره – الأساس الحتمى الذى يهب الميلاد للنسق الجديد . ومن الطبيعى ان يتضمن هذا التصور بعدا تاريخيا واضحا يركز على مجموعة شروط الانتاج ذات الطابع الحتمى والتى يمكن ان تنبثق من كل الموضوعات (٧٩) . ويحدد ماركس مجموعة الشروط هذه بعنصرين ، الأول يتمثل فى التكنولوجيا الصناعية حيث تطورها له الطابع الاحادى ، وتكمن أهميتها الرئيسية فى طبيعة علاقتها بالتنظيم الاجتماعى ، ولهذا العنصر طابع الاستمرار فى اطار العملية الجدلية . أما العنصر الثانى فيتمثل فى الصراع الطبقى الذى يمثل – فى حالة ارتباطه بالعنصر الاقتصادى التكنولوجى – نسقا اقتصاديا محددا ، وهو الذى يشكل فى ذات الوقت عنصر الانقطاع فى اطار العملية الجدلية . وكلاهما يشير الى العملية الجدلية ذات الطابع الحتمى من حيث علاقات التفاعل ، التى تسلم دائما الى تولد ماهو جديد عما هو قديم (٨٠) . اذن فحتمية التفاعل الجدلى هى الحتمية الأساسية فى النسق الماركسى . ويتحدث التوسير Althusser عن ذلك بمفهوم الحتمية الفائقة Overdetermina-tion ونعنى بها التراكم الناتج عن التناقضات فى الممارسات الاجتماعية ، تلك التى تشكل فى تداخلها تشكيلا اجتماعيا معينا (٨١) ، وهى قد تعرف بالحتمية التطورية أو الجدلية ، أو هى تعنى ادراك التفاعل الاجتماعى – بالنظر الى المواقف الجزئية أو الكلية التى قد تتفاعل فى اطارها عناصره – ادراكا تاريخيا يركز على تكرر عناصر معينة لها تحكمها الحتمى فى ترتيبة عناصر الواقع الاجتماعى الأخرى وطبيعة تفاعلاتها ، وتعنى بالأساس أيضا ، ان التفاعل الكائن هو تجسيد لنسق كان امكانا فى قلب التفاعل السابق عليه .

بالاضافة الى ذلك يتضمن المشروع الماركسى نمطا آخر من الحتمية يمكن ان نسميه بالحتمية المورفولوجية ، وهى تتعلق بطبيعة العناصر المكونة للبناء الاجتماعى ثم طبيعة العلاقات بين هذه العناصر . فى اطار ذلك نجد ان النسق الاجتماعى – من وجهة النظر الماركسية – يضم مجموعتين من الأنساق الفرعية . حيث تحتوى المجموعة الأولى الظواهر الاجتماعية الاقتصادية المحتمة لتفاعل النسق ، أما المجموعة الثانية فهى تلك التى تخضع لحتمية المجموعة الأولى ، وينتمى الى هذه المجموعة الأخيرة كافة مكونات البناء الفوقى ، كالوعى والثقافة والقيم الروحية (٨٢) .

ويعتبر تأكيد الماركسية على الأساس المادى للمجتمع قلبا للتأكيد الهيجلى على الأساس

العقلى للوجود . بيد ان عكس المقولة على هذا النحو لم يتم بشكل مباشر وانما تأسس عبر فويرباخ الذى أكد ان الطبيعة هى الحقيقة الأولية بينما الفكر هو الحقيقة الثانوية . وان العلاقة الصحيحة بين الفكر والوجود هى ان الوجود موضوع والفكر محمول . فالفكر ينبثق عن الوجود ، ولكن الوجود لاينبثق من الفكر (٨٣) . وامتدادا لهذا التراث تؤكد الماركسية على ان الاقتصاد أو بالتحديد الانتاج هى التى تشكل الأساس الحقيقى الذى يتأسس بالنظر اليه البناء الفوقى والسياسى والتشريعى ، ثم أشكال الوعى الاجتماعى المرتبط بها . ومن ثم فليس وعى البشر هو الذى يحدد وجودهم ، ولكن على العكس من ذلك فان وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم . وفى مرحلة معينة من التطور تدخل قوى الانتاج المادى فى المجتمع فى صراع مع علاقات الانتاج ، وبتغير الأساس الاقتصادى ، فان البناء الفوقى الشامل بكامله يخضع لتحول أو تغير سريع بدرجة أكثر أو أقل (٨٤) . بل ان شرارة التغير عادة ماتضعها الماركسية فى الاسس الاقتصادية للمجتمع ، اذ يقال ان مستوى قوى الانتاج هو الذى يحدد المستوى العام للثقافة والمعرفة والأيديولوجية (٨٥) ، ومن ثم فالتغيرات التى تقع فى الأساس الاقتصادى لها الأولوية . ويعتمد ذلك على القوانين العلمية والسببية ذات الطبيعة الحتمية . فالتغيرات الاقتصادية هى الأولى من حيث الزمن والأهمية ، وهى التى تتبعها عادة التغيرات فى البناء الفوقى . وللتغيرات فى البناء الفوقى صلة بالأفكار كالدين والقانون والفكر والنظرية ، فتغيرها يعتبر مجرد انعكاسات للتغيرات فى الأساس المادى . فالنظام الاقتصادى حاسم فيما يتعلق بطبيعة ودرجة التغير فى أفكارنا (٨٦) .

بيد أن القول بذلك يطرح التأكيد على نوع من الحتمية الاقتصادية ذات الطابع الأحادى، الذى نعتقد ان التنظير السوسيولوجى قد تجاوزه . بالاضافة الى أن القول بذلك يعنى اختزالا للنظرية الماركسية باعتبار ان علم الاقتصاد هو العلم الوحيد الذى تناوله كارس ماركس بدقة على مايذهب أصحاب هذا الاتجاه ، وعلى رأسهم حون أونيل O'Neill مثلا (٨٧) .

وجهة النظر الحقيقية فى هذا الصدد تؤكد انه قد حدث تركيز فعلى من قبل كارس ماركس على النسق الاقتصادى كأساس مادى للمجتمع غير ان هذا التأكيد له مبرراته الكثيرة . أولها ان الثورة الصناعية أبرزت فاعلية الجوانب الاقتصادية ، ومن ثم فان التطرف فى التأكيد عليها يتضح من خلال رفض ماركس – فى حواره مع سميث Smith – تساوى أو تعادل مجالات الانتاج المادى والروحى ، بل نجده يصر على ان الانتاج المادى هو الذى يحدد طبيعة الانتاج الروحى (٨٨) . ولايخفف من ايمان ماركس وانجلز بالحتمية الاقتصادية مايذهب اليه

الأخير بأنهما تطرفا فى التأكيد على الجانب الاقتصادى فى مواجهة اهماله من قبل مناوئيهم ، ومن ثم فلم يكن لديهما الوقت لابراز فاعلية العوامل الأخرى فى عملية التفاعل ، بل انه لما يدهش أن ماركس نفسه أكد على امكانية الا يكون البناء الفوقى مجرد انعكاس مباشر للبناء الاقتصادى . فالمسألة ليست بسيطة على هذا النحو ، ففرنسا كانت فى القرن الثامن عشر متقدمة اقتصاديا عن بلاد الاغريق ، إلا أنها ظلت عاجزة عن انتاج ثقافى يناظر الألياذة . بل اننا نجد ان انجلز يؤكد فى سنوات لاحقة ان البلاد المتخلفة اقتصاديا مازالت تلعب دور القيادة فى الفلسفة (٨٩) .

فى اطار ذلك يؤكد الفكر النظرى على إمكانية ان يكتسب البناء الفوقى نوعا من الاستقلال لثلاثة عوامل أساسية :

١ – ان التراث الثقافى قد ينبثق مرتبطا بشروط تاريخية محددة ، إلا أنه لايموت بتغير هذه الشروط التاريخية ، فاكتساب القيم الثقافية والتخلى عنها يتم وفقا لعمليات اجتماعية بطيئة ، ومن ثم نجدها فى أحيان كثيرة ليست انعكاسا مباشرا للشروط المادية القائمة .

٢ – انه قد يتأسس نوع من الاستقلال للبناء الفوقى كالثقافة مثلا ، وذلك نتيجة لانتشار منتجات الوعى البشرى مكانيا ، يرتبط بذلك امكان اكتسابها لوظائف جديدة ، وفى ذلك بالطبع الغاء لتبعيتها لشروط مادية محددة زمانيا ومكانيا ، واكتسابها لنوع من الاستقلالية الخاصة بها .

٣ – ان البناءات الفوقية ، أو على الأقل بعض عناصرها الأساسية عادة تصبح ارثا مشتركا لتشكيلات ثقافية عديدة ، وذلك لكونها تشبع حاجات أساسية لدى الكائنات البشرية ، بغض النظر عن طبيعة الشروط المادية التى يعيشون فى ظلها (٩٠) .

ولعل أفضل صياغة للموقف الماركسى فى جوهره الحقيقى من مسألة الجوانب المادية والثقافية للنسق ، ومدى ارتباط الثانية الأولى بنوع من الحتمية فى تلك الصياغة التى قدمها ألتوسير Althusser ، اذ يفترض تصورا جديدا للعلاقة بين البناء التحتى والبناء الفوقى ، يرتكز على مبدأين أساسيين :

١ – الاستقلال النسبى للبناءات الفوقية وتأثيرها أو نتائجها المحددة .

٢ – ان التأثير الحتمى فى النهاية يكون عادة لأسلوب الانتاج الاقتصادى (٩١) .

ويعنى ذلك أنه وان كانت البناءات الفوقية تنشأ كانعكاس للشروط المادية القائمة ، إلا ان قدرتها على الاستمرار بدرجة أكثر من الشروط المادية تصبح مؤكدة ، باعتبار قابلية الأخيرة للتغير السريع . هذا بالاضافة الى احتمالية تغطية البناءات الفوقية لأكثر من وجود مادى أو بناء تحتى ، ذلك يؤكد لها نوعا من الدوام والاستقلالية الخاصة بحيث لاتصبح فى سياق زمانى ومكانى محدد مجرد انعكاس ميكانيكى مباشر للشروط المادية القائمة .

أما النمط الثالث الذى قد نجده للحتمية فى اطار المشروع الماركسى فيتعلق بعلاقة الفرد بالمجتمع ، ونقصد الانسان فى مواجهة النسق . فالمنطلق الأساسى لدى الماركسية يذهب الى ان الانسان فى وجوده الأساسى - غير المغترب - يولد متعدد الملكات ، غير انه فى الاطار الرأسمالى يعانى من الاختزال الكامل لكليته . ومن ثم فقد كان من أحد المقاصد الأساسية لكارل ماركس ان يوضح كيف تقهر البناءات المجتمعية المتباينة - وخاصة الأنساق الرأسمالية - البشر وتفرض عليهم ان يتصرفوا بأسلوب مختلف عن الآخر ان لم يتناقض معه (٩٢) . كذا تفرض عليهم ان يتصرفوا بما يخالف طبيعتهم الأساسية . ومن ثم فاذا كان الانسان - بورجوازيا كان أم بروليتاريا - فى البداية له وجوده الكلى فان مهمة النسق الرأسمالى نحوه هى ان يحوله الى وحدة جزئية تابعة ، له عليها وطأة وتأثير حتمى . ويتحقق ذلك بعمليتين أساسيتين ، الأولى تتعلق بالطبيعة البشرية والثانية تتعلق بالعملية التاريخية المعبرة عن التفاعل بين الانسان والنسق .

١ - وفيما يتعلق بالطبيعة البشرية يؤكد ماركس احتواءها على طبيعتين ، الأولى جوهرية وهى ذات طابع تعاونى ، والثانية ذات طابع صراعى أساسا . ويؤكد ماركس ان الأولى سادت التاريخ حتى تشكل النسق الرأسمالى . أما الطبيعة الصراعية فهى مفروضة عليه من خلال طابع العلاقات القائمة بين البشر فى ظل النسق الذى يتضمن مجموعة من الطبقات المنقسمة على نفسها . ويؤكد ماركس ان بناء المجتمع يؤدى دوره فى قهره للطبيعة التعاونية ، ومن ثم فرغم ان ماركس منح الطبيعة التعاونية للانسان فاعلية أساسية ، غير أنه لم ير البناء الاجتماعى الرأسمالى مرنا ومفتوحا أمام الاختيار الحر للبشر . وإلا رجعوا الى طبيعتهم الأساسية ، ومن ثم ينعدم المبرر المنطقى لتفسير أسباب الصراعات الكائنة بين البشر ، والمظالم التى يرتكبها الانسان ضد رفاقه الآخرين (٩٣) . فى اطار ذلك يختزل البناء الرأسمالى الانسان الى طبيعة ذات خاصية صراعية أساسا ، ومن ثم يصبح الانسان فى مواجهة الآخر محتما ومرسوما من قبل

المجتمع .

٢ - وتشير العملية الثانية الى طبيعة التفاعل بين الانسان والنسق ، هذا التفاعل الذى يهدف الى اخضاع الأول للأخير عن طريق العمل على اختزال الانسان من كلية لها ضبطيتها وسيطرتها على الواقع الاجتماعى واستقلالها عنه الى جزئية فى اطار تشكيلة اجتماعية تسمو عليه (٩٤) . ويتم ذلك من خلال عمليتين فرعيتين ، الأولى عملية الاستخراج حيث يتحول السلوك البشرى من خلال هذه العملية الى أيديولوجيات ونظم اجتماعية ، ومنتجات مادية تصبح أساسا لقيام العملية الثانية وهى الغربة estrangement حيث يعامل الانسان فى اطارها كوسيلة وليس كغاية لهذه المنتجات المادية والثقافية (٩٥) .

ويعتبر الاغتراب ناتج هاتين العمليتين الفرعيتين ، حيث يصبح نتاج علم الانسان موضوعا له وجوده الخاص ، الخارج عنه ، والذى يستحيل الى قوة مضادة له مستغلة اياه . وتصبح الحياة التى منحها الانسان للموضوع هى الأساس الذى يختزله ويدعم اغترابه (٩٦) . وبذلك فان علاقة الانسان بالآخرين هى التى تشكل سلوكه . وفى هذا الاطار لايصبح الانسان حرا فى اختيار الدخول فى هذه العلاقات . لأن ذلك لم يعد نتاجا لتلقائية الانسان بقدر ما هو نتاج لحتمية النسق . ففى الانتاج الاجتماعى الذى يتحمل عبئه البشر فانهم يدخلون فى علاقات اجتماعية مستقلة عن ارادتهم ، هذه العلاقات تشكل فى مجموعها البناء الاقتصادى للمجتمع الرأسمالى (٩٧) .

وبناء على ذلك يذهب ماركس الى ان المركز الاجتماعى الذى يحتله الشخص فى بناء العلاقات المتبادلة ، هو الذى يحدد علاقاته بالبشر الأخرين ، وبخاصة نحو وسائل الانتاج . وبالتالى علاقاته وأفكاره فيما يتعلق بالحياة الدينية والسياسية والشرعية . ونتيجة لذلك ، فانه ارتكازا على الأشكال المتباينة للثروة ، وعلى ظروف الوجود الاجتماعى يتأسس بناء فوقيا شاملا يتضمن أشكالا محددة ومتميزة من العواطف والتصورات ، وأساليب للفكر والنظرة الى الحياة . ويستوعب الانسان ذلك كله من خلال التراث والتنشئة ، ومن ثم تتحدد واقعيته وطبيعة نشاطه ، وبذلك فان الطبيعة التى يتواجد فيها الفرد هى التى تتولى خلقه وتشكيله بالنظر الى مرتكزاتها المادية (٩٨) .

فى اطار ذلك يؤكد هربرت ماركيوز ان المجتمع يزود الأفراد بشروط يعيشون ويفكرون فى ظلها ، ومن ثم فليس بامكانهم تجاوزها . ولايتوقف الأمر عند هذا الحد بل نجد أن جهاز

الانتاج يميل لأن يكون سلطويا الى المدى الذى لايحدد فيه المهن والمهارات والقيم فقط ، تلك التى يحتاجها المجتمع ، ولكنه يحدد أيضا الحاجات والطموحات الفردية . ومن ثم يتجه النسق الرأسمالى الى تأسيس مستويات وأشكال جديدة ، فعالة ومرضية من الضبط والقهر الاجتماعى (٩٩) . فى اطار ذلك يؤكد كارل ماركس ان هدف البروليتاريا وفعلها التاريخى محدد لها سلفا ، وبوضوح لارجعة فيه ، بواسطة مواقف حياتها من ناحية ، ومن ناحية أخرى بواسطة التنظيم الاجتماعى الكامل للمجتمع الحديث ، ويحدث نفس الأمر بالنسبة للطبقات الأخرى وخاصة طبقة البرجوازية (١٠٠) . خلاصة القول يؤكدها بارى سمارت حينما يزعم ان الأفراد فى النسق الرأسمالى – وفقا للقراءة الماركسية – ليسوا أحرارا فى انجاز نشاطهم ، وانما أفعالهم هذه محكومة بطبيعة الأعمال والسياقات السابقة عليها أو المعايشة لها . بذلك يصبح السلوك أو النشاط محتما بمجموعة الحقائق السابقة عليها (١٠١) . من هنا فاذا كان النشاط فى النسق الماركسى يتجه نحو غاية نسقية أساسا ، فان عملية انجاز هذه الغاية مفروضا عليها ان تسير وفقا لغايات محددة .

ولكى تترسخ العلاقة الحتمية بين النسق الرأسمالى كاطار كلى ، والانسان فى اطار النسق – بروليتاريا كان أم برجوازيا – فان النسق يطرح عديدا من الميكانيزمات التى يفيد اداؤها فى تشكيل هذه العلاقة وترسيخها . وتمثل التنشئة الاجماعية أول هذه الميكانيزمات ، وبرغم ان الماركسية لم تتعرض صراحة لذلك ، إلا أن هربرت ماركيوز مستندا الى أفكار فرويد حاول ان يكمل هذا الجانب فى النسق الماركسى عن طريق تطوير فرضيات النسق الماركسى الى امتداداتها الطبيعية . اذ يرى ان العائلة – كوحدة داخل الطبقة – هى الوسيلة الأساسية للتنشئة ، ومن ثم فهى تشجع الالتقاء بين نشاط الانسان وحاجات النسق . وهى تؤسس الضمير الفردى عن طريق غرس معاييرها فى الأنا والأنا الأعلى ، وبذلك فهى تساعد على قهر الدوافع الأساسية لدى الانسان وتحويلها للعمل وفقا للحاجات النسقية (١٠٢) فى جانبها الطبقى . على هذا النحو يصبح الفرد مشدودا بمتطلبات النسق الخارجية التى استوعبها من خلال الأسرة وبذلك تصبح مهمة الانسان صعبة فى الخروج على احتياجات النسق الرأسمالى لأنه مشدود الى النسق ومتطلباته من داخل الانسان ومن خارجه أيضا .

ويشكل تقسيم العمل المكيانيزم الثانى لابراز الحتمية النسقية وتأثيرها على الانسان . يتضح ذلك من توزيع الأفراد على أدوارهم بالنظر الى مواقعهم الطبقية ، بحيث تصبح مجالاتهم هذه مفروضة عليهم لايستطيعون الخروج عنها (١٠٣) . ويفرض الموقع الطبقى على

الانسان اتيان أفعال قد لاتتصل بحاجاته الأساسية ، فمصدرها النسق أساسا . فمفروض على المستخدم الرأسمالى ان يتصرف كما يتطلب النسق الرأسمالى وإلا عرض نفسه للفناء فى اطار عملية الصراع التنافسية (١٠٤) . فكل انسان فى النسق الرأسمالى مغترب عن ذاته وطبيعته ، يتضح ذلك من طبيعة العلاقات التى تربط بينه وبين الآخرين فى النسق (١٠٥) . ولايكتفى النسق الرأسمالى بتوزيع الأفراد على أدوار من خلال طبقاتهم ، ولكنه يفرض ان تكون أفعالهم محتمة على النحو الذى يريده ، وذلك من خلال عملية الاحكام الاشرافى ذات الطابع السيبرنطيقى ، عن طريق تطوير تنظيم للقيادة والسلطة يتصف بالمركزية ، تكون مسئوليته الأساسية صياغة التآزر بين نشاطات البشر (١٠٦) ، بما يدعم تحقيق النسق لأهدافه

وتعتبر المنافسة هى الميكانيزم الثالث المؤكد على حتمية النسق الرأسمالى ، فما دام الانسان يتصرف بوعى داخل مواقف معينة له ، فان معيار الوعى من شأنه ان ييسر أفعالا ويعوق أخرى . بذلك يفرض التنظيم الاقتصادى تأكيدا على فاعلية المنافسة كعملية كائنة فى المواقف الاجتماعية تشكل ضابطا بين عناصره الأساسية . وهو ما يعنى ان النسق الرأسمالى يشكل نسقا قهريا (١٠٧) ، فالمنافسة هى التى تدفع أصحاب المصالح الرأسمالية للحصول على فائض قيمة أكبر من أجل مضاعفة رأس المال ، وهو مايعنى خضوع العامل لظروف قهرية أكثر . غير ان الرأسمالى مفروض عليه فى اطار المنافسة ان يدخل فى صراع مع نظيره الرأسمالى ينتهى بأن يقضى أحدهما على الآخر من خلال عملية التركيز الرأسمالى .

يبقى بعد ذلك النمط الرابع والأخير لحتمية النسق الرأسمالى وتحتيمه لمناشط الانسان فى اطاره من خلال مجموعة من العمليات الرئيسية . اذ نجد ان النسق الرأسمالى يتضمن عددا من العمليات منذ بداية تأسيسه وحتى انهياره . ومن الواضح ان هذه العمليات ترتبط فيما بين بعضها البعض بعلاقات حتمية ذات طابع سببى ، هذا بالاضافة الى تحكمها فى تفاعل النسق، الى جانب كونها تعبر عن طبيعة التفاعل الذى له وطأته أما على الانسان فى المجتمع الرأسمالى ، أو على علاقة الانسان بالنسق أو على علاقته بالانسان الآخر . هذه العمليات هى حتمية قانون فائض القيمة ، ثم حتيمة التركز الرأسمالى ، وحتمية الأفقار البروليتارى ، ثم حتمية الاغتراب ، وبالمثل حتمية الثورة البروليتارية وإنهيار المجتمع الأسمالى وتحقق المجتمع الشيوعى ، وسوف نعرض لكل من هذه العمليات أثناء عرضنا للواقع العينى لعناصر التفاعل من وجهة نظر النظرية الماركسية .

## خامسا : تموضع الذات ، آلياته الأساسية

تعتبر المواجهة بين الذات والموضوع قضية تتصل جوهريا بالبناء المنهجى للنظرية الماركسية - هذا بالاضافة الى دلالاتها العينية - وذلك من حيث امكان اعتبارها أحد أبعاد الحوار الجدلى ، الى جانب ان العلاقة بين الذات والموضوع تعتبر مدخلا حقيقيا لفهم طبيعة تفاعل الانسان مع موقفه أو سياقه فى مختلف المراحل المتتابعة لتنامى المشروع الماركسى فيما يتعلق بالمجتمع الرأسمالى .

وينطلق فهم كارل ماركس لعلاقة الذات بالموضوع من خلال ادراكه لأنطولوجية الانسان من حيث كونه منتجا وخالقا . اذ نجده غالبا ماكان يؤكد على الانسان ككائن صانع ، بحيث شكلت هذه القضية الخلفية الأساسية لنظريته فى التاريخ ، ومختلف التحليلات المحددة التى قدمها للتشكيلات الطبقية والصراع الطبقى (١٠٨) . والحق ان تصور كارل ماركس للانسان كخالق لذاته ، يدين فيه بالكثير بمعنى ما لهيجل ، بل ان ذلك يعبر عنه كارل ماركس صراحة حينما يذهب الى ان كل مايمكن ان نسميه بتاريخ العالم ليس إلا من خلق الانسان والعمل الانسانى (١٠٩) .

وعلى هذا النحو فوفقا لكارل ماركس يمكن ارجاع نشأة المجتمع الى التفاعل المنتج بين البشر والطبيعة . اذ يبدأ البشر فى تمييز أنفسهم عن الحيوانات بمجرد ان يبدأوا فى انتاج وسائل اعاشتهم (١١٠) . فانتاج واعادة انتاج الحياة يعتبر من ناحية ضرورة تفرضها الحاجات البيولوجية للبشر ككائنات عضوية ، وماهو أكثر أهمية فان ذلك يعتبر مصدرا لابتكار حاجات وطاقات جديدة . اذن فالنشاط المنتج يعتبر أساسا للمجتمع بالمعنى التاريخى والتحليلى ، اذ يعتبر الانتاج هو الفعل التاريخى الأول ، وانتاج الحياة المادية هو شرط أساسى للتاريخ بكامله، والذى ينبغى ان ينجز على الدوام حتى نستطيع فقط ان نحافظ على بقاء الحياة البشرية . فكل انسان عن طريق أفعاله اليومية ، ينتج ويعيد انتاج المجتمع فى كل لحظة ، ذلك هو مصدر ماهو مستقر فى التنظيم الاجتماعى ، وأيضا أصل التعديلات التى لاحصر لها (١١١) .

يعنى ذلك ان الموقف الاجتماعى فى أساسه يتضمن الانسان الذى يتحرك من خلال ذاته لانتاج المجتمع وتعديل الطبيعة بهدف أساسى هو اشباع الحاجات الأساسية للانسان التى كانت وستظل القوة الحقيقية التى تشكل خلفية علاقة الانسان بالمجتمع . ومعنى ذلك فى مجمله ان الانسان فى المرحلة الأولى من علاقته بالمجتمع - بالمعنى التحليلى - كان يحاول ان يخلق بعض موضوعات الموقف بما يحقق ذاته . غير انه وقعت بعض الانحرافات التى دفعت الى

تحول الذات أو على الأقل جانبا كبيرا من بنائها الى موضوع ضمن الموضوعات الأخرى فى الموقف . ويرى كارل ماركس أن هذه الحالة الانتقالية أو العملية اتخذت شكل افتقاد الذات لنفسها أو لبعض جوانبها ، ومن ثم عبوديتها للموضوع . حيث أصبح الفاعل عبدا للموضوع الخارجى (١١٢) ، وأصبح اغتراب العامل فى الاقتصاد الرأسمالى يستند الى الفصل بين قوة العمل المنتج التى أصبحت هائلة مع اتساع الرأسمالية ، ثم افتقاد السيطرة التى كان العامل قادرا على ممارستها على الموضوعات التى ينتجها . بذلك أصبح انتاج العامل غريبا عليه ، بل ويقف على تناقض معه كقوة مستقلة ، فالحياة التى منحها العامل للموضوع تقف فى مواجهته كقوة معادية وغريبة (١١٣) . وحينئذ أصبح التموضع objectification ، الذى كان طبيعة ضرورية لكل نتاج العمل ، متحدا مع الاغتراب فى المجتمع الرأسمالى . حيث نتاج العمل خارجى external عن العامل ليس بالمعنى الانطولوجى فقط ، ولكن بالمعنى الشامل أيضا ، فما كان مضمنا فى ناتج عمله لم يعد ملكا له (١١٤) . بذلك فانه اذا كانت عملية التفاعل التاريخية قد اتخذت طابع تبعية الموضوع للذات فى المرحلة الأولى من علاقة الانسان بالمجتمع . فانها بالنظر الى تتابع مراحل هذه العلاقة – بالمعنى التحليلى – تطرح عكسا لهذه العلاقة ، حيث تصبح الذات – أى الانسان – تابعة للموضوع الذى تولت خلقه وتأسيسه . بيد أن السؤال الذى يطرح نفسه فى هذا الاطار يتعلق بطبيعة الاليات التى دفعت الى هذا التحول التاريخى فى طبيعة هذه العلاقة ، وتكشف قراءة المشروع الماركسى بحثا عن اجابة لهذا السؤال عن وجود ثلاثة ميكانيزمات أساسية .

أما الميكانيزم الأول فيتمثل فى أنه اذا كان الانسان قد بدأ متعاونا ، فانه حينما بدأ البشر فى التحول عن هذه الطبيعة التعاونية – حيث مجموعة من البشر فى حالة من التعاون لاستغلال الطبيعة بما يشبع حاجاتهم الأساسية – الى الطبيعة الصراعية – حيث مجموعة من البشر فى اطار موقف اجتماعى تتناقض مصالح كل منهما مع الآخر (١١٥) . ومن ثم الصراع بين كل منهما والآخر لهدف اخضاعه واختزاله – فاننا نجد أن قدرا كبيرا من شخصية أو ذات البرجوازى تتموضع ، أى تتحول الى موضوع فى الموقف . وهو مايعنى اغترابه عن ذاته ، فالرأسمالى أو الصناعى ينبغى أن يعمل بجد ، وأن يكون دؤوبا ، واقتصاديا ، وغير محب للمتعة . بحيث تصبح المتعة بالنسبة له مسألة ثانوية ، حيث تخضع المتعة لرأس المال ، ويخضع الانسان المحب للمتعة الى الانسان المهتم بتراكم رأس المال ، بينما كان عكس هذه الحال ماهو سائد فى المجتمع الاقطاعى (١١٦) . هذا بالاضافة الى أن العامل البروليتارى يخضع لعملية الاختزال أيضا ، وذلك عن طريق فرض عديد من الاغترابات عليه . وبذلك تنشأ عملية اختزال

متبادلة أطرافها العامل والرأسمالى على السواء ، بهدف تأسيس التراكم الرأسمالى كموضوع ينمو فى اطار النظام الاجتماعى على حساب اختزال الذوات . بحيث تتم هذه العملية عن طريق اخضاع العناصر الذاتية لقوانين موضوعية حاكمة للنظام الرأسمالى تتفاعل معها كعناصر أو كموضوعات فى الموقف الاجتماعى .

وتمثل فائض القيمة الآلية الثانية التى تعمل على موضعه الذات - أى جعلها موضوعا ضمن الموضوعات - فى اطار النظام الاجتماعى الاقتصادى . اذ تعامل قوة العمل - وهى الخاصة بالبروليتاريا التى تشكل غالبية المجتمع - كنوع خاص من السلع ، فالى جانب ان لها قيمة انتفاعية ، فهى أيضا مصدر لقيمة أكثر ، أو قيمة فائضة . فقيمة قوة العمل المباعة للرأسمالى يحل محلها جزء من الوقت الذى يشتغل فيه العامل فعلا ، أما بقية الوقت فلا يدفع عنه أجر . ويوجز ماركس ذلك بقوله ، ان انتاج السلعة ، أى قوة العمل ، يقتضى جزءا من يوم عمل ، على حين ان العامل يشتغل بالفعل يوما كاملا . فالقيمة التى يدفعها الرأسمالى جزء من القيمة المقابلة لقوة العمل المستخدمة ، على حين ان الجزء الآخر من هذه القوة يعود على الرأسمالى دون ان يدفع عنه شيئا (١١٧) . ويعنى ذلك ان فائض القيمة وهو المدخل الوحيد لصياغة تراكم رأس المال فى اطار الموقف الانتاجى يعمل على اشاعة موضعه كل ذوات الموقف الانتاجى - البرجوازى والبروليتارى - أى اختزالها واخضاعها للقوانين الحتمية التى تحكم تفاعل النسق الرأسمالى .

ويعتبر تقسيم العمل الميكانيزم أو الآلية الثالثة التى تتولى موضعه الذات فى اطار النظام الاجتماعى من وجهة نظر النظرية الماركسية . اذ أعلن ماركس أن تقسيم العمل الاجتماعى لايتم على أساس عمل حساب لمواهب الأفراد ومصلحة الكل ، بل يحدث وفقا لقوانين الانتاج الرأسمالى للسلع فحسب . وبمقتضى هذه القوانين يبدو ان ناتج العمل - وهو السلعة - يتحكم فى طبيعة النشاط الانسانى وغايته ، وبعبارة أخرى فان المواد التى ينبغى أن تخدم الحياة تصبح مسيطرة على مضمونها وهدفها ، ويصبح وعى الانسان ضحية لعلاقات الانتاج المادى تماما (١١٨) . ذلك أن تقسيم العمل على هذا النحو يشبع نوعا من اغتراب الانسان عن ذاته عن طريق التخصص مثلا وتحوله الى عنصر موضوعى فى اطار العملية الانتاجية الرأسمالية - يصدق ذلك على البرجوازى والبروليتارى معا - .

يبقى بعد ذلك ان نوضح المظاهر الأساسية التى تتموضع فى اطارها الذات ، أى تخلق ميلا نحو الغائها لحساب العالم الموضوعى .

أول مظاهر هذا التموضع يتمثل فى وقوع عملية الاغتراب ، التى لها ارتباطها بشكل مابتقسيم العمل المميز لكل أشكال العمل الطبقى . حيث يصبح لكل انسان مجال خاص ، مميز لنشاط يفرض عليه ولايستطيع ان يتهرب منه . فى هذا الاطار يمتد اغتراب العمل الى اغتراب الانسان عن الانسان ، حيث يعزل الأفراد بعضهم عن بعض ، ويوضع بعضهم ضد البعض . ويكمن أساس ارتباطهم فى السلع التى يتبادلونها ، وليس فى أشخاصهم ، فاغتراب الانسان عن ذاته هو فى ذات الوقت اغتراب عن اقرانه من البشر (١١٩) .

ويتمثل المظهر الثانى لعملية التموضع هذه فى بروز عملية التشيؤ التى يحيل فى اطارها المجتمع الرأسمالى كل العلاقات الشخصية بين الناس الى علاقات موضوعية بين الأشياء ، حيث يربط النظام الرأسمالى الناس معا من خلال السلع التى يتبادلونها ، فقيمة السلع التى ينتجها الأفراد هى التى تحدد مركزهم الاجتماعى . ولايشارك الأفراد فى العملية الاجتماعية إلا بوصفهم ملاكا للسلع فحسب ، كما ان العلاقات المتبادلة بينهم لاتعدو أن تكون علاقات بين سلعهم . فالانتاج الرأسمالى للسلع يؤدى الى نتيجة مذهلة ، هى أنه يحول العلاقات الاجتماعية بين الأفراد الى ( صفات ... للأشياء أو السلع ) ذاتها ، بل أنه يحول علاقات الانتاج المتبادلة ذاتها ، على نحو أصرح ، الى شئ ( المال ) . وتظهر هذه النتيجة المذهلة من الشكل الخاص للعمل فى انتاج السلع ، بما ينطوى عليه من انفصال للأفراد الذين يعمل كل منهم مستقلا عن الآخر ، والذين لايشبعون حاجاتهم إلا من خلال السوق (١٢٠) . ومن ثم تصبح العلاقات بين البشر ليست علاقات اجتماعية ذات طابع انسانى بقدر ماهى مجموع من العلاقات الموضوعية ، وبذلك يختفى أصلها ، والآليات التى تعمل على حفظها وامكان تغييرها . وهو قبل ذلك كله يخفى لبها ومضمونها الانسانى . وبذلك لايكون هناك ظلم ولا اضطهاد فى العلاقة بين رأس المال والعمل به تكون هناك علاقة موضوعية خالصة (١٢١) .

أما المظهر الثالث للتموضوع فيتمثل فى غياب الوعى أو زيفه ، ويتضح ذلك بالنظر الى أبعاد متعددة ، أولها ان الطبقة المسيطرة تطور أيديولوجية تشرع سيطرتها . فالطبقة التى تسيطر على وسائل الانتاج المادى ، تسيطر فى ذات الوقت على وسائل الانتاج العقلى ، أعنى ان أفكار هؤلاء الذين يفتقدون السيطرة على وسائل الانتاج تخضع لهم (١٢٢) . وهو مايعنى ان الطبقة المسيطرة تنمى من الوسائل الفكرية ماتخضع به الطبقات الأخرى وتيسر استغلالها ، وهو مايجعلهم مغتربين عن طبيعتهم التعاونية السابقة ، نظرا لتحولهم الى مجرد عناصر فى اطار تفاعل التناقض الجدلى . هذا بالاضافة الى أن البروليتاريا وخضوعها لمثل هذا

الاستغلال لاتكون واعية بمصالحها بل انها قد ترتد الى مستوى حيواني تخضع في اطاره لاختزالات واغترابات متعددة ، ومع ذلك تظل غير واعية بمصالحها ، مما يؤجل امكان تحركها لتغيير الظروف التي تقف في مواجهة مصالحها الحقيقية . أعني أنها حتى هذه المرحلة تتعامل مع النظام الاجتماعي من خلال كونها عنصرا موضوعيا في اطاره . لها وظيفة محددة وليس من حيث كونها ذاتا لها حاجاتها التي ينبغي على هذا النظام بعناصره الكائنة في اطاره ان يقدم اشباعا لها .

معنى ذلك ان المشروع الماركسي يعني في جانب منه حواراً بين الذات والموضوع على الطريقة الجدلية ، تتأسس في اطاره اختزالات أساسية ، تكون لها وطأتها على موضعة ذات الأغلبية البروليتارية ، حيث معاملتها كعنصر لابد أن يؤدي فعلا أو عملا له فائض يساعد على التراكم الرأسمالي الذي يشكل بصورة أو بأخرى موضوعاً ناتجا عن عمل الانسان ويحاول أن يقضي على ذاتيته . في اطار ذلك يتحول الانسان الى مجرد موضوع أو شئ في النسق الاجتماعي ، أو يرتد الى المستوى الحيواني ، حيث إشباع الحاجات الأساسية على المستوى الغريزي فقط . ويظل الانسان – في اطار النسق الرأسمالي – يخضع لاغترابات متعددة تساعد على تموضعه حتى قيام الثورة البروليتارية وتأسس المجتمع الشيوعي واستعادة الذات لوعيها وقدرتها على السيطرة على الموضوع في اطار النسق الاجتماعي .

# الفصل السادس

# تصور الماركسية للنظام الرأسمالى
# من النشأة الى الانهيار

## المحتويات

**مقدمة**

عرضنا فى الفصل السابق لمجموعة المقولات التى شكلت البناء المنهجى للنظرية الماركسية . وسوف نحاول فى هذا الفصل استعراض القضايا الأساسية المتعلقة بأبعاد النظام الرأسمالى فى وجوده الواقعى أو فى تفاعل عناصره . ونحاول فى هذا الفصل ان نعرض لطبيعة المتغيرات والعلاقات بين هذه المتغيرات فى اطار هذا النظام .

واذا كانت النظرية الماركسية قد امتلكت بناء منهجيا محكما ، فإن تأمل الواقع الاجتماعى كما تصوره النظرية الماركسية يكشف غن تتابع منطقى للتفاعل الكائن بهذا النظام ، وهو التفاعل الذى يتبلور فى مجموعة من العمليات والميكانيزمات ، التى تخضع فى أدائها لقوانين حديدية على مايذهب كارل ماركس ، بغض النظر عن ارادة الأفراد ورغباتهم ، فكل ذلك ليس إلا ظروفا مساعدة ، ولعل أهم العمليات التى عرض لها هى التى تبدأ بتقسيم العمل الاجتماعى أو الطبقى ، ثم الاغتراب ، حيث اختزال الانسان واغترابة ، وتنتهى بالافكار والثورة كمدخل لاستعادة الكمال الانسانى وتحقيقا لاستقرار النسق الاجتماعية . وهو التفاعل الذى نعرض له من خلال القضايا التالية التى تشكل فى مجموعها البناء النظرى للمشروع الماركسى خاصة فى جوانبه السوسيولوجية .

وبرغم تداخل مضامين هذه القضايا فى بناء المشروع النظرى لكارل ماركس إلا أن فصّلنا لها من منطق اتاحة الفرصة للتحليل العلمى المجرد ، ويمكن تحديد هذه القضايا فيما يلى :

أولا : تقسيم العمل الطبقى ، جوهر اشكالية النظام الاجتماعى .

ثانيا : النظام الرأسمالى ، عناصره الطبقية والاجتماعية .

ثالثا : الاغتراب ، أصوله وأنماط تجاوزه .

رابعا : البروليتاريا والانتقال من اللاوعى الى الوعى .

خامسا : النشاط الانسانى والتعبير عن الحتمية الاجتماعية .

سادسا : الثورة البروليتارية ونفى النظام الرأسمالى .

سابعا : المجتمع الشيوعى واستعادة الكمال الانسانى .

ثامنا : النظرية الماركسية فى مواجهة متغيرات جديدة .

وفيما يلى استعراض موجز لمجموعة الأفكار الرئيسية ، التى طرحها المشروع الماركسى فيما يتعلق بكل من القضايا السابقة .

### أولا : تقسيم العمل الطبقى ، جوهر أشكالية النظام

من الواضح ان هناك اتفاقا على ان تقسيم العمل الاجتماعى يعتبر صيغة انسانية شاملة تشير الى انتظام البشر فى واقع اجتماعى معين ، وفى اطار تنظيم انتاجى يتلاءم وهذا الواقع . ويشير أيضا الى طبيعة الطور التاريخى الذى يتجازه هذا الواقع . ومثلما كان للمشاعية البدائية نظامها العشوائى فى تقسيم العمل الاجتماعى ، كان للأطوار المجتمعية التالية أيضا نظامها المتلائم معها .

ومن الواضح وجود خلاف حول قضية تقسيم العمل الاجتماعى ، بين مختلف اتجاهات النظرية السوسيولوجية . وفيما يتعلق بهذه القضية نرى أن الموقف الماركسى يذهب الى ان تقسيم العمل الاجتماعى يعتبر الثمرة المباشرة للتطور الانسانى ، حيث انقسام البشر الى فئتين أو طبقتين متضادتين . يؤكد ذلك مايذهب اليه ماركس ان تاريخ كل مجتمع ليس سوى تاريخ النضال بين الطبقات ، فالحر والعبد ، والنبيل والعامى ، والسيد الاقطاعى والقن ، والمعلم والصانع ، وبالاختصار المضطهدون والمضطهدين . ففى روما القديمة نجد النبلاء والفرسان من ناحية ، ثم العامة والأرقاء من ناحية أخرى ، وفى القرون الوسطى نجد السادة الأقطاعيين يليهم الاتباع ، والمعلمين ثم الصناع ، ثم الأقنان ، بل اننا نجد ان بداخل كل طبقة مكاناتها ودرجاتها الخاصة . وحينما تأسس المجتمع البرجوازى على انقاض المجتمع الاقطاعى فانه لم يقض على التناحر بين الطبقات بل أقام طبقات جديدة بدلا من القديمة ، وأوجد ظروفا جديدة وأشكالا جديدة للنضال . اما مايميز عصرنا الحاضر ، فان البورجوازية جعلت التناحر الطبقى أكثر بساطة ، حيث المجتمع آخذ فى الانقسام فأكثر الى معسكرين هما البورجوازية والبروليتاريا (١٢٣) .

والى جانب ان تقسيم العمل الاجتماعى ينعكس على طبيعة البناء الاجتماعى فان له تأثيره أيضا على الإنسان فى كل من هذه التشكيلات أو الأبنية الاجتماعية . حيث يبدو كل اغتراب للانسان عن ذاته اغترابا فى ذات الوقت عن طبيعة العلاقات التى يفترض وجودها بينه وبين الآخرين من البشر . فى اطار ذلك تصبح تقسيمات العمل المتعددة وأشكال الاستغلال المتنوعة للانسان بواسطة الانسان ، قاهرة ومعوقة للطبيعة الأساسية للانسان من التعبير عن نفسها فى اطار أى من الأشكال الاجتماعية (١٢٤) . ويعنى ذلك ان تقسيم العمل أحيانا مايتخذ

وضعا يسلم فيه الى انقسام المجتمع على ذاته كمقدمة لانهياره ، حيث يفترض قهر الانسان واختزاله كمقدمة لاغترابه وهو مايشكل محور التنظير الماركسى فى هذا الصدد .

ويكشف النظر الى أسلوب كارل ماركس فى تناول تقسيم العمل الاجتماعى الى ممارسته هذا التحليل بالنظر الى محورين ، يتمثل المحور الأول فى تقسيم العمل داخل المصنع ، أما المحور الثانى فيتمثل فى تقسيم العمل الاجتماعى بشكل عام . ويتطور تقسيم العمل فى كل من المصنع والمجتمع فى اتجاهات متضادة ، فتقسيم العمل فى اطار التنظيم الاجتماعى يستند الى الأساس الفسيولوجى حيث فعل الانتاج يتم بالنظر الى متغيرات النوع والسن كما هو الحال فى العائلة والقبيلة ، ثم يرتقى لكى يصبح على أساس اجتماعى حيث تخضع احدى القبائل قبيلة أخرى ، وتلزمها ككل للقيام ببعض الأعمال الدنيا . ثم يتطور هذا الأساس لكى يصبح اقتصاديا حيث تتخصص المجتمعات فى انتاج معين تتبادله مع المجتمعات الأخرى . وفى هذه المرحلة تحدث تباينات متعددة كالتباين الذى يتأسس بين الريف والمدينة (١٢٥) ، والذى يتأسس بين المجتمعات الصناعية ومجتمعات المواد الخام المختلفة . وفى حين يتجه العمل المجتمعى نحو الانتاج الكلى الذى تؤديه وحدة كلية هى المجتمعات التى تتخصص تبادليا على المستوى العالمى الشامل ، نجد ان تقسيم العمل فى المصنع يتجه وفقا لأساس متباين ، حيث يتجه الانتاج نحو التخصص من حيث الأدوات وامكانياتها ، ونحو تخصيص وتصنيف البشر حسب قدراتهم الانتاجية . أعنى تطوير ملكة واحدة على حساب الملكات الأخرى ، وذلك مادفع فيرجسون A.Ferguson الى التأكيد ( اننا بذلك نصنع أمة من العبيد Helots ومن ثم فقد لايصبح لدينا مواطنون أحرار ) (١٢٦) . والملاحظ فى هذا الصدد انه بينما يبدأ تقسيم العمل الاجتماعى على المستوى المجتمعى من منطلق فسيولوجى لينتهى بنهايات اجتماعية وانتاجية ، نجد ان تقسيم العمل فى المصنع يبدأ اجتماعيا انتاجيا وينتهى نهاية فسيولوجية حيث يصبح لتقسيم العمل وطأته على البناء الفسيولوجى للانسان ذاته . وذلك يتناقض بلاشك – من وجهة النظر الماركسية – مع القوانين التى ينبغى ان تحكم تقسيم العمل فى شكله المثالى المتحقق فى المجتمع الشيوعى .

ويعتبر تقسيم العمل الاجتماعى فى المصنع أساسا لتقسيم العمل الاجتماعى فى المجتمع بوجه عام ، ويتخذ نقطة بدئه باستخدام عدد كبير من العمال الخاضعين لأمره نفس الرأسمالى الفرد (١٢٧) . غير ان تجمع العمال فى المصنع الواحد يؤدى الى تغيرات هائلة فى نظام العمل ، اذ يؤدى استخدام هذا العدد من العمال فى ذات الوقت الى احداث ثورة فى

الشروط المادية لعملية العمل ذاتها ، حيث تتأسس المبانى التى يعملون بها ومخازن المواد الخام (١٢٨) . والى جانب هذه التغيرات الإيكولوجية التى يحدثها نظام تقسيم العمل البورجوازى فى المصنع ، فاننا نجد أنه يحدث تغيرات واسعة وأساسية فى عناصر عملية العمل ذاتها .

اذ يؤدى تجمع العامل أثناء عملية الانتاج مع الآخرين فى ذات المصنع الى تعاونهم يد بيد لانتاج سلعة واحدة . بيد ان هذا التعاون يتخذ طابع أن نشاط كل عامل يصبح مقصورا الآن على نطاق واحد فقط عليه التكيف معه (١٢٩) . فى اطار ذلك يعاد توزيع العمل ، وبدلا من السماح لكل شخص بانجاز كل العمليات الانتاجية المتتابعة والمتعددة فان هذه العمليات تتجزأ لكى تصبح عمليات منعزلة ومنفصلة يتم انجازها جنبا الى جنب ، حيث يقوم بكل منها صانع منفرد ، وينجز هذه العمليات بصورة معينة وفى ذات الوقت بواسطة مجموعة من العمال المتعاونين . ومن هذا التفتيت للعملية الانتاجية يتطور تقسيم العمل ، ويؤسس ملامحه الخاصة به . ويتحول بالتدريج الى تقسيم منظم للعمل . ومن ثم تتحول السلعة من حيث كونها انتاجا فرديا لعامل مستقل الى كونها انتاجا اجتماعيا لجمع من العمال المنتجين ، حيث يؤدى كل منهم عملية واحدة فقط من العمليات الجزئية المكونة . ومن ثم تصبح كل من هذه العمليات وظائف منعزلة للعامل المنفصل ، فى اطار ذلك يتأسس المصنع الحديث بالنظر الى ركيزتين : الأولى هى تفتيت العملية الانتاجية الى مجموعة من العمليات الجزئية التى يقوم بكل منها عامل منفرد بدلا من كونه كان ينجزها جميعا فى الماضى . والثانية أنه يؤسس تعاونا انتاجيا بين جميع عمال الصناعة الواحدة ، حيث ينجز كل عملية جزئية عامل منفرد بعينه ، وبذلك تتأسس الآلية الانتاجية التى تشكل الكائنات البشرية أجزاءها (١٣٠) . وبذلك يشكل تقسيم العمل نظاما اجتماعيا يسود المجتمع البرجوازى ، وموقفا يسهم فى اختزال نشاط الانسان ، من نشاط كلى تؤديه ملكات متنوعة ، وهو النشاط الذى بدأ به المجتمع الانسانى الى نشاط جزئى لاينتمى اليه وانما ينتمى أساسا الى متطلبات الموقف الانتاجى منه ، وبالنظر الى غاية النشاط الكلى للتنظيم الانتاجى . وفى اطار هذه العملية يتحول العامل من كونه عنصرا مستقلا مسيطرا على مقدرات واقعه يؤدى نشاطا يخدم اشباع حاجاته الأساسية الى نشاط جزئى تابع فى اطار عملية الانتاج البرجوازية ذات الطابع الشامل .

ولضبط الموقف فى اطار عملية الانتاج الصناعى يؤسس نظام تقسيم العمل الاجتماعى الآليات اللازمة لضبط العملية الانتاجية حتى يتحقق الهدف العام للمصنع والبناء الانتاجى بوجه

عام . وفى اطار ذلك يطور النسق البرجوزاى ميكانيزمين أساسيين لضبط العملية الانتاجية داخل المصنع . أما الميكانيزم الأول فهو ذو طابع انتاجى ويتمثل فى بناء السلطة المتدرج الذى يلعب فى نطاقه مجموعة الملاحظين والمديرين دورا بارزا . وفى هذا الصدد يؤكد كارل ماركس ان النظام الضبطى والاشرافى عادة ماتكون له طبيعته القهرية ، اذ يسلم الرأسمالى وظيفته فى الاشراف المباشر على العمال الأفراد ، أو جماعات العمال الى مجموعة متخصصة من المأجورين . حيث تتطلب جيوش العمال الصناعيين الذين يعملون تحت أمرة الرأسمالى جيوشا مماثلة من الضباط ( المديرين ) والمساعدين ( الملاحظين والمشرفين ) الذين يأمرون بصوت الرأسمالى أثناء عملية العمل ، حيث تصبح عملية الاشراف وظيفتهم الرئيسية . وتكتسب هذه الوظيفة الضبطية أهميتها من التناقض الكائن بين مصالح كل من الرأسمالى والعامل البروليتارى . وينبثق الميكانيزم الثانى لضبط الموقف الانتاجى من داخل العملية الانتاجية ذاتها . حيث تتركب مختلف مراحل انتاج السلعة الواحدة على بعضها البعض ، بحيث لايتيح أى منها أى قدر من التلكؤ فى أى من مراحل العملية الانتاجية . فاذا كانت عملية الانتاج تنقسم الى مجموعة من العمليات الفرعية ، فان المصنع يكون فى حاجة الى مجموعة من العمال لكى يقوم كل منهم بأى من هذه العمليات الفرعية على حدة ، ففى صناعة حروف الطباعة نحتاج فى الساعة الواحدة الى أربعة سباكين Founders وعدد ٢ مكسر Breakers وملمع واحد Rubber . فكل سباك يصف Casts ٢,٠٠٠ حرف فى الساعة بينما يفصل المكسر ٤,٠٠٠ حرف فى الساعة ، وينجز القائم بالتلميع نحو ٨,٠٠٠ وحدة فى الساعة . وفى هذه العملية نلاحظ تعاونا بمعناه البسيط ، غير ان هذا التعاون يمتلك وحدة عضوية داخلية ، لأن تقسيم العمل فى اطار أداء العمل يخلق علاقة أو معادلة رياضية تنظم المدى الكمى من هذه الأجزاء ، أعنى العدد النسبى من العمال ، أو الحجم النسبى لجماعة العمال اللازمة لكل عملية جزئية (١٣١).

ذلك يعنى أن العملية الانتاجية تمتلك نوعا من الضبط الداخلى يتجه بالأساس نحو اخضاع فاعليته لمتطلبات العملية الانتاجية . ومن ثم فاذا كانت حاجة الانتاج تفرض تطوير العامل لأى من قدراته فقط لحساب الغاء القدرات الأخرى ، فان من متطلبات الانتاج أيضا تقسيم العامل البروليتارى الكلى – مجموع العمال – الى عناصر فرعية تنجز طاقات العمل المطلوبة منها بالنظر الى متطلبات العملية الانتاجية الشاملة . فى اطار ذلك نجد ان العامل خاضع لضبط من داخل التنظيم ومن خارج العملية الانتاجية للانتاج يتأسس وفقا لقواعد

محددة ، وفى ذات الوقت نجده خاضعا لضبط داخلى يتأسس بالنظر الى ضوابط فنية من داخل العملية الانتاجية ذاتها .

فى أعقاب ذلك ينطلق كارل ماركس من تقسيم العمل فى المصنع – كوحدة انتاجية واجتماعية – نحو تتبع خيوطه على الواقع الاجتماعى بكامله . وهو يستند فى هذه الانتقالة الى مفهومى فائض القيمة والكثافة السكانية . وفى اطار مفهوم فائض القيمة يتجه صاحب العمل منذ البداية الى تركيز أكبر عدد من العمال فى أكبر مصنع ممكن بهدف الحصول على أكبر فائض قيمة ممكنة (١٣٢) . غير أنه كنتيجة منطقية لاتجاهه نحو تحقيق هذا الهدف فانه يجمع أكبر عدد ممكن من العمال فى حيز المصنع الضيق ، وفى نطاق ذلك نجد كارل ماركس يدفع بمفهوم الكثافة السكانية كقنطرة يعبر عليها الى المجال المجتمعى الواسع ، وهو هنا يطرحها بمعنى جديد . فالمجتمع الضئيل فى عدد سكانه اذا أضيف اليهم قدر ملائم من وسائل الاتصال يكون أكثر كثافة من مجتمع أكبر فى عدد سكانه وتنقصه وسائل الاتصال الملائمة . وبهذا المعنى تكون الولايات الشمالية للاتحاد الأمريكى أكثر كثافة سكانية من الهند (١٣٣) . وبتكرار الوحدات الانتاجية على خريطة المجتمع ، فاننا نجدها تتجه الى التكامل مرتكزة – على المستوى التحليلى – على عنصرين رئيسيين ، أما العنصر الأول فيتمثل فى قوى الانتاج ، وهى تحتوى على قوى العمل الحقيقية التى تتكون من البشر العاملين ، وهى القوة الاجتماعية التى بواسطتها ينتجون وسائل اشباع حاجات وجودهم الطبيعى والاجتماعى . ومن ثم فهى تضم الى جانب العمال أدوات الانتاج التى يستخدمونها ، وأشكال التعاون التى تفرضها القوى الاجتماعية للمجتمع . وأى شئ يزيد من القوى الاجتماعية للمجتمع ، يزيد من انتاجية قوة العمل البشرى ، وان هذه القوة المنتجة أو الاجتماعية ترتبط بشكل معين من التعاون وبمرحلة اجتماعية محددة (١٣٤) .

وتشكل علاقات الانتاج العنصر الثانى ، وهى العلاقات التى يعتبرها ماركس نقطة البداية فى نظريته عن الطبقات ، بالاضافة الى أهميتها فى نظريته عن الثورة أو التغير الاجتماعى . فى اطارذلك نجده يؤكد ان علاقات الانتاج التى يشارك فيها المنتجون كل مع الآخر ، تشكل الشروط التى يتبادلون بالنظر اليها جهودهم ، ويشاركون فى انجاز النشاط الانتاجى الكلى ، وبالطبع تتغير هذه العلاقات بالنظر الى طبيعة وسائل الانتاج (١٣٥) . ويذهب ماركس الى القول بأنه فى المرحلة الأولى لنمو النسق البرجوازى تسير علاقات الانتاج النمو السريع لقوى الانتاج ، أما فى المراحل الأخيرة لتطور هذا النسق ، فان علاقات الانتاج أو

الثروة تقهر قوى الانتاج وتعوق نموها . وفى مرحلة معينة يصبح نمو القوى المنتجة متوقفا على القضاء على علاقات الانتاج هذه ، ومن ثم يتخلق التناقض داخل الموقف الرأسمالى ، حيث توجد فى اطاره عناصر عديدة متضادة بعضها مع البعض ، بل ان الكثير منها يتناقض مع ذاته . فالطبقة البروليتارية تنجز عملها الانتاجى بوسائل انتاج لاتملكها ، ولكنها تستخدمها بهدف انجاز عمل يولد فائض قيمة يدعم التراكم الرأسمالى للطبقة البرجوازية - التى لاتؤدى عملا سوى السيطرة على الموقف وتنظيمه من خلال تقسيم العمل - ومن ثم فهى تستوعب نتاج عمل البروليتاريا ، ومن أجل السيطرة على الموقف فانها تخلق بناء تنظيميا يتضمن عديدا من المكانات ، كالعالم ورجل الدين ، والمشرف أو الملاحظ ، بحيث يسهم الجميع من خلال جهودهم ذات الطبيعة الضبطية فى ضبط النشاط الانتاجى بما يحقق عائدا لرأس المال البرجوازى وتحقيقا أكثر لمصالحه .

بذلك فاذا كان تقسيم العمل عند كارل ماركس قد بدأ مشاعيا كليا يتوجه ناتج العمل فيه نحو اشباع حاجات الانسان ، فانه قد انتهى فى الشكل الرأسمالى لكى يصبح متخصصا يخضع لنوع من الضبط السيرنطيقى المحكم ، ويحقق أهدافا لاتنتمى الى الانسان الذى تحمل عبء العمل ولكن الى العناصر الكائنة فى الموقف الاجتماعى ، وهو بذلك يعكس الشكل السائد لتقسيم العمل الاجتماعى .

**ثانيا : النظام الرأسمالى ، عناصره الطبقية والاجتماعية**

يعتبر الموقف الاجتماعى من وجهة النظر الماركسية هو الاطار الذى يحتوى على تفاعل له طابعه الدينامى بين مختلف العناصر التى تشكل جوهر النظام الرأسمالى . فالعمل الذى ينجز فى اطار هذا الموقف من حيث غايته وعناصر انجازه والشروط التى تحكمه تخضع لفاعلية الحتمية الجدلية التى حكمت مبادئها طبيعة التصور الماركسى للواقع والتفاعلات بين عناصره . ومنذ البداية يؤكد جون ماكليش تضمن الموقف الرأسمالى لتناقضات عديدة ، كالتناقضات بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، والتناقض بين الأساس الاقتصادى والبناء الفوقى الأيديولوجى ، ثم التناقض داخل البناء الأيديولوجى ذاته ، حيث يجب علينا ان ندرك فاعلية قانون التناقض الجدلى داخل مجال التفكير البشرى ذاته [١٣٦] . ولادراك طبيعة الموقف الاجتماعى فى اطار النظام الرأسمالى نرى ضرورة التعرض لطبيعة التفاعل فى هذا الموقف ، ثم لعناصر التفاعل ، ثم للشروط الموقفية الحاكمة لهذا التفاعل ، حيث نختتم هذا الفهم بتحديد بناء القوة فى اطار الموقف الرأسمالى .

وفيما يتعلق بالنشاط الانتاجي كعنصر جوهري في بناء الموقف الرأسمالي ، نجد ان نشأة المجتمع وتطوره – وفقا لما يذهب اليه كارل ماركس – كان نتيجة للتفاعل الانتاجي المستمر بين البشر والطبيعة . حيث بدأ البشر يميزون أنفسهم عن الحيوانات فى اللحظة التى استطاعوا خلالها انتاج وسائل حياتهم (١٢٧) ، فانتاج واعادة انتاج الحياة ضرورة فرضتها الحاجات البيلوجية للكائن العضوى البشرى ، وماهو أكثر أهمية يعتبر المصدر الخلاق للحاجات والقدرات الجديدة ، وبذلك يعتبر النشاط المنتج هو أساس المجتمع بمعناه التاريخي والتحليلي ، اذ يعتبر الانتاج هو النشاط التاريخي الأول وانتاج الحياة المادية هو الشرط الأساسى لكل التاريخ (١٢٨) . اذ يقوم كل انسان من خلال أفعاله اليومية ، بخلق واعادة خلق المجتمع فى كل لحظة . وفيما يتعلق بطبيعة النشاط المتضمن فى الموقف الرأسمالى نجد ان كارل ماركس يقدم نموذجين للنشاط الاجتماعى ، حيث ينتمى أحد هذه المناشط للانسان المغترب الذى قهرت طبيعته التعاونية والعقلانية أما النمط الثانى للنشاط فيمثل التعبير الحر للطبيعة الانسانية الحقيقية فى ظل شروط ينتفى فيها القهر والسيطرة . ويظهر هذا الشكل الأخير للنشاط أو العمل كمقدمة للأول الذى يظل سائدا حتى تحقق المجتمع الشيوعى ، وحيث النشاط الذى يعبر عن الطبيعة الحقيقية للانسان ، ومن الواضح أنه ليس تناقض فى رؤية ماركس لطبيعة النشاط الانسانى بقدر كونه يعكس سياقا تاريخيا محددا (١٢٩) .

والى جانب إعتقاد كارل ماركس فى حتمية هذه النشاطات سواء من حيث وقوعها أو من حيث تتابعها التاريخى ، فانه اعتقد ان بعضا من هذا التطور الحتمى يخضع لجهود البشر العقلانية ذات الطابع الطبقى . يؤكد ذلك أنه اذا كانت الطبيعة البشرية فى البداية ذات طابع تعاونى وعقلانى ، فانه فى مرحلة تالية حيث المجتمع منقسم الى طبقات وحيث البشر موزعين فى مراكز متباينة تفرض عليها ضرورة السعى لتحقيق مصالح وقيم متباينة بمستوى من العقلانية المحكومة بشروط الموقف أو بالوعى الزائف بالمواقف (١٤٠) التى ينجز فى اطارها العمل . بالاضافة الى ذلك فانه اذا تميزت المرحلة التعاونية للعمل أو النشاط بالطابع العائلى فان المرحلة الصراعية تميزت بالطابع الطبقى والسياسى .

وقد انسحبت طبيعة النشاط على طبيعة الموقف الاجتماعى ذاته ، ففى مراحل التاريخ الأولى كان الانسان قادرا على ان يحيا حياة طبيعية ، لها خاصيتها التعاونية ، حيث يتحقق للانسان نوع من الاكتفاء الذاتى . فى هذه المرحلة لم يكن البشر مقيدين بواسطة علاقاتهم بالآخرين ، غير ان هذه المرحلة التلقائية قد انهارت حينما استولت قبيلة على قبيلة أخرى

وأسست بذلك أول شكل من أشكال التباين الاجتماعى ، وظهرت لأول مرة فى التاريخ المصالح المتضادة فى الموقف الاجتماعى ، وعلاقات الصراع بين أطراف هذه المصالح (١٤١) .

وفيما يتعلق بأسلوب الانتاج نجد تميز هذه المرحلة بأسلوب الانتاج الشامل ، حيث ساد التعاون خلال هذه الفترة ، ولعب رأس المال الخاص وتقسيم العمل دورا ثانويا للغاية (١٤٢) . ويمكن القول ان مجتمع ماقبل الرأسمالية كان يتشكل من خليط من الوحدات المتجانسة (١٤٣) ، حيث لاتظهر العلاقات الاقتصادية فى مثل هذا المجتمع كعلاقات سوق بشكل واضح ، بل ان علاقات السيطرة والخضوع تختلط مع الروابط أو العلاقات الشخصية بين الأفراد . وعلى ذلك تؤدى سيطرة مالك الأرض الاقطاعى دورها من خلال الارتباطات الشخصية للعبودية ثم الدفع المباشر للضريبة tithes ، وفضلا عن ذلك فخلال هذه المرحلة كان للقن قدر من السيطرة على وسائل الانتاج بالرغم من حقيقة أن عليه ان يتنازل عن جزء من انتاجه كاتاوة tribute لسيدة (١٤٤) . ويؤكد كارل ماركس ان هذا الموقف قد تطور الى مرحلة تعد مقدمة للنظام الرأسمالى ، فقد أدى تجمع عدد هائل من العمال لينتجوا نفس السلعة تحت اشراف صاحب رأس المال إلى تشكل نقطة البدء التاريخية والمنطقية لنظام الانتاج الرأسمالى (١٤٥) .

ويحدد كارل ماركس الشكل التاريخى التالى للموقف الانتاجى ، القائم فى المجتمع الرأسمالى ، اذ يذهب ماركس الى القول انه بحلول الرأسمالية التى تعتمد على تجريد جماهير العمال من ممتلكاتهم ، هؤلاء العمال الذين ليس لديهم شئ يدخرونه سوى قوة عملهم يتبادلونها من أجل الحصول على وسائل الحفاظ على حياتهم ، بذلك تبدو علاقات السوق محتمة للنشاط البشرى المنتج ، ومما لاشك فيه ان المجتمع البرجوازى قد مزق الروابط الاقطاعية المتعددة بلا رحمة ، تلك التى ربطت الانسان بكل من هم أعلى منه his superiors ، ولم يترك أى نوع من العلاقات بين الانسان والانسان سوى المصلحة الشخصية (١٤٦) . ولقد أصبحت العلاقات الطبقية فى اطار المجتمع البرجوازى أكثر شمولا وبساطة . اذ يميل التطور المطرد للرأسمالية ، بمجرد ان يتأسس ، نحو خلق طبقتين متضادتين فى اطار السوق ، البرجوازية والبروليتاريا . أما الطبقات الأخرى التى قد توجد فى الموقف – ملاك الأرض ، البرجوازية الصغيرة ، الفلاحين – فهى طبقات انتقالية تستوعب بواسطة أى من الطبقتين الأخريين الكبيرتين (١٤٧) . وتتطلب محاولة فهم موقف الانتاج الرأسمالى التركيز على مكونات رئيسية ثلاث ، أولها الانسان والآخر كعناصر – فى الموقف – تهدف الى انجاز الانتاج ، وثانيهما هو الشروط الموقفية للنشاط أو الانتاج ، ثم بناء القوة فى اطار الموقف الاجتماعى .

ويشكل الانسان والآخر عناصر التفاعل فى الموقف الرأسمالى ، ويؤكد ماركس ان الانسان قد يكون فردا بيولوجياً فى حالة أدائه لدور اجتماعى الى ان الطبقة عادة ماتكون هى الكيان الرئيسى فى الموقف الرأسمالى . غير اننا نجد ان ماركس منذ البداية يذهب الى ان الأفراد بدون العلاقات فى الموقف الاجتماعى لايشكلون طبقة ، ويذهب الى ان صغار الفلاحين يشكلون كتلة عريضة ، حيث يعيش أعضاؤها فى اطار شروط متماثلة ولكن بدون ان يدخلوا فى علاقات متنوعة كل بالآخر ، اذ يعزلهم اسلوبهم فى الانتاج كل عن الآخر بدلا من ان يجمعهم فى اطار تفاعل متبادل . وقد يحقق الظرف الذى تعيش فى نطاقه ملايين العائلات فى ظل وجود له ظروفه الاقتصادية التى تعزل اسلوبهم فى الحياة ، ومصالحهم وثقافتهم عن نظائرها فى الطبقات الأخرى ، ومن ثم يضعهم ذلك فى نوع من التناقض مع الآخرين الذين يشكلون طبقة . غير انه مادامت مصالحهم لاتولد أى مجتمع محلى ، ولا أى روابط بينهم ، ولا أى تنظيم سياسى يجمعهم ، فانهم بذلك لايشكلون طبقة (١٤٨) .

فالموقف الرأسمالى الناضج على مايذهب ماركس يتضمن طبقتين هما البرجوازية والبروليتاريا ، ويؤكد ماركس ان هناك شروطا تاريخية عديدة تؤدى الى تخلق هذا الموقف الناضج . فى اطار ذلك يؤكد ماركس على ان طريقة الانتاج الرأسمالى هى شكل خاص لانتاج السلع ظهر فى ظل ظروف ( التراكم الأولى ) . كطرد الفلاحين من أراضيهم ، وتحويل الأراضى الصالحة للزراعة الى مراع تقدم الصوف اللازم لصناعة المنسوجات النامية ، وتراكم مقادير كبيرة من الثروة عن طريق نهب المستعمرات ، وانهيار نظام الطوائف الحرفية عندما واجه قوة التاجر وصاحب المصنع ، بحيث أدت هذه العملية الى ظهور العامل الحديث المتحرر من اعتماده على السادة الاقطاعيين والمعلمين الحرفيين وان كان محروما فى مقابل ذلك من الوسائل والأدوات التى يمكنه الانتفاع بها من قوة عمله لتحقيق أغراضه الخاصة (١٤٩) . وبذلك تحققت الشروط الأولية للرأسمالية عمل مأجور حر وملكية خاصة لوسائل الانتاج (١٥٠) .

ومن الواضح ان الموقف الذى يطرح تصورا ثنائى الطبقة dichotomous Class conception يظهر فى الكتابات الماركسية كنوع من التأسيس النظرى . بينما تظهر كل المجتمعات الطبقية التاريخية نسقا من العلاقات الأكثر تعقيدا والذى نجد مثيلا له فى المجتمع البرجوازى حيث نجد ثلاثة أنواع من التجمعات التى توجد فى ذات الموقف الاجتماعى بالاضافة الى الطبقتين الرئيسيتين ، ويمكن ايجاز أهم هذه التجمعات فيما يلى :

١ – الطبقات الهامشية ، ورغم ان هذه الطبقات تؤدى دورا اقتصاديا وسياسيا هاما فى الشكل القائم للمجتمع ، اذ تتشكل هذه الطبقات من مجموعة علاقات الانتاج التى اما أن تكون قد تم تجاوزها أو على العكس ماتزال فى حالة صعود (١٥١) . ومثال على النمط الطبقى الأول جماعة الفلاحين المتحررين free peasantry التى مازالت قوية فى فرنسا وألمانيا ، حيث عليهم الاتجاه اما بالاعتماد على الفلاحين الرأسماليين ، أو الارتباط بالبروليتاريا الحضرية (١٥٢) .

٢ – الشرائح التى تكون فى علاقة اعتماد وظيفى مع أى من الطبقات ، والتى تميل بالتالى للاتحاد سياسيا مع هذه الطبقة . وهؤلاء هم الذين يسميهم ماركس ضباط العملية الانتاجية ، ويقع فى اطار هذه الشريحة العاملين بالادارة الصناعية من الفئة الادارية العليا (١٥٣) .

٣ – وتضم الفئة التالية من هذه التجمعات clusters عديدا من الأفراد المتباينين الذين يسميهم بحثالة البروليتاريا Lumpen proletarian ، حيث تقف هذه الفئة على هامش النسق الطبقى ، وذلك لأنهم ليسوا متكاملين بدرجة كاملة فى اطار تقسيم العمل ، وتتكون هذه الفئة من اللصوص ، والمجرمين من كل الأنواع ، وهم يعيشون على فضلات المجتمع ، وهم البشر الذين بلا حرفة محددة ، والمتشردين Vagabonds ، والذين يعيشون بلا مأوى أو منزل (١٥٥) .

ويفرض وجود هذه الشرائح الطبقية وجود بشر على هامش التفاعل الاجتماعى ، بحيث يشير وجودهم الى عدم نضج الموقف الطبقى الرأسمالى ، الذى يحقق مستويات أكثر نضجا حينما يؤدى الأفراد أدوارهم بالنظر الى الوعى بطبقتهم . ويشير ماركس الى هذا الموقف بمصطلحين ، هما مصطلح الطبقة فى ذاتها Class for it self والطبقة لذاتها Class in it self . وفى كل هذه الأوضاع الطبقية يعيش الانسان وهو الفرد البيولوجى فى ظل أوضاع طبقية متجانسة وأفكار وعلاقات تكاد تكون متقاربة . ولكن الخلاف الوحيد يكمن فى ان حالة الطبقة فى ذاتها تفتقد الوعى بأى مصالح مشتركة أو ملموسة يعبرون عنها ، ومن ثم قد يؤدى وجودها الى التوحيد بينهم ، أو تفرض عليهم التصرف كوحدة ، كما لو كانوا شخصا واحدا ، وتبدأ الطبقات فقط فى التصرف لذاتها حينما تؤسس مثل هذه الأهداف المشتركة . ويؤكد ماركس أنه من خلال عملية الصراع تتحقق حالة الطبقة لذاتها ، حينما تتوحد الكتلة الطبقية من خلال تأسيس أيديولوجيا ملائمة ، أو من خلال تطويرها فهم مشترك لموقفها (١٥٥) . ومن ثم

تنتقل من طبقة فى ذاتها الى طبقة لذاتها ، حيث تصبح المصالح التى تدافع عنها مصالح طبقية فى شكل أكثر كمالا ونضجا (١٥٦) . ويذهب ماركس الى أنه بوضوح ادراك الطبقة لذاتها فانه يلزم لتحديد هويتها كعنصر فى الموقف الاجتماعى ضرورة تحدد مسألتين : الأولى ان الموقف الطبقى يتشكل فى جانب منه بواسطة علاقات وجهود البشر وادراكهم الذاتى لعلاقاتهم بوسائل الانتاج ، فى اطار ذلك فان العوامل الاقتصادية الموضوعية المستقلة عن الفهم الذاتى للانسان – والتى تسهم جزئيا فى تشكيل الموقف الطبقى – تصبح مجرد أحد أبعاد الموقف الطبقى . أما المسألة الثانية فتتحدد بوجود نوعين من المصالح التى يمكن التمييز بينهما تحليليا بالنظر الى الطبقة الواحدة ، النوع الأول مصالح أعضاء الطبقة كأفراد والثانى مصالحهم كطبقة (١٥٧) .

وفى أعقاب توضيح ماركس لأسلوب تشكل الطبقة فى اطار الموقف الاجتماعى يتجه نحو توضيح أسلوب تخلق الطبقات المتعددة فى اطار هذا الموقف . وفيما يتعلق بهذه الحقيقة نجده يمارس التحليل مستشهدا بالحقائق الواقعية . اذ يؤكد انه بالنظر الى الظروف التاريخية التى مهدت لنشأة الرأسمالية نجد ان البرجوازية – الساعية الى تحقيق الربح وتراكم رأس المال – اتجهت الى الصدام الحتمى فيما يتعلق بمصالحها التقليدية بالطبقة الارستقراطية بقيادة الملوك – حيث وقع ذلك خلال الثورة الفرنسية . وبذلك أصبحت البرجوازية العنصر الرئيسى فى الموقف الاجتماعى ، واذا كان نمو البرجوازية قد أدى الى نفى الارستقراطية فقد اتجهت البرجوازية أثناء نضجها الى التخليق التدريجى للبروليتاريا ، التى كان أفرادها فى البداية منعزلين متجنبين بيع انتاجهم فى سوق العمل . غير أنه باتجاه البرجوازية نحو توسيع مصالحها فى الموقف الاجتماعى ، اتجه أعضاؤها الى بناء المصانع الكبيرة التى تستخدم عمالا أكثر فأكثر ، تلك التى حرص البرجوازى على تخفيض أجورها من أجل حد أقصى من الربح . ولقد أدت النتائج المتراكمة لهذه العملية الى تخليق طبقتين اجتماعيتين كبيرتين فى الموقف الاجتماعى هما البرجوازية والبروليتاريا (١٥٨) . بذلك تضمن الموقف الرأسمالى طبقتى، البرجوازية والبروليتاريا ، الذى تأسس بينهما نوع من تقسيم العمل ذو طبيعة تبادلية حيث الناتج المتخصص لأحدى الجماعات تستفيد منه الجماعة الأخرى (١٥٩) . بذلك نجد انه حينما تتفاعل البروليتاريا مع ( الآخر ) البرجوازية ، فاننا نجد ان نتاج التفاعل يكون عادة لصالح البرجوازية ذات المصالح المتباينة ، والتى لها سيطرتها على وسائل الانتاج ، ومن ثم فهى المتحكمة فى الموقف الاجتماعى بينما العامل منفصل عن أدوات انتاجه يخضع لها ويؤدى دوره فى إطارها (١٦٠) .

ويتحدد مضمون التفاعل بين البرجوازية والبروليتاريا من خلال موقف يتبادلان فيه سلعا ، حيث كل منهما حر فى ان يتبادل السلع التى يملكها . واذا كانت البرجوازية قد مارست هذه الحرية عندما استخدمت ثروتها فى تملك وسائل الانتاج والانتفاع منها ، فان الجماهير – البروليتاريا – تمتعت هى الأخرى ببيع السلعة الوحيدة الباقية لديها ، وهى قوة عمها . وهما يتعاملان كل مع الآخر على أساس تساوى حقوقهما ، مع فارق واحد ، هو ان أحدهما مشتر بينما الآخر بائع ، ومن ثم فكلاهما متساو فى نظر القانون (١٦١) . غير ان السلعة التى تبيعها البروليتاريا – قوة العمل – سلعة من نوع خاص ، فهى السلعة الوحيدة التى تكون قيمتها الانتفاعية مصدرا للقيمة فقط ، بل لقيمة أكثر مما فيها ، هذه ( القيمة الفائضة ) ، التى يخلقها العمل الكلى المجرد المختفى وراء صورته العينية ، تعود على مشترى قوة العمل دون أى مقابل ، مادامت لاتظهر بوصفها سلعة مستقلة . ويستطرد ماركس مؤكدا ان انتاج السلعة أى قوة العمل ، يقتضى جزءا من يوم عمل ، على حين ان العامل يشتغل بالفعل يوما كاملا . فالقيمة التى يدفعها الرأسمالى جزء من القيمة الفعلية لقوة العمل المستخدمة ، على حين ان الجزء الآخر من هذه القوة يعود على الرأسمالى دون أن يدفع شيئا (١٦٢) . اذن فالطابع المزدوج للعمل هو الذى يجعل فائض القيمة ممكنا . ونتيجة لاتخاذ العمل هذا الشكل المزدوج ، فان التملك الخاص بقوة العمل يؤدى حتما الى الاستغلال ، وهذه النتيجة تنجم عن نفس طبيعة العمل كلما أصبحت قوة العمل سلعة (١٦٣) . وبذلك تصبح قوة العمل هى العامل الوحيد الذى يزيد من قيمة ناتج العمل الى ما يتجاوز قيمة وسائل الانتاج . وهذه الزيادة فى القيمة تحول نواتج العمل الى عناصر مكونة لرأس المال ، ومن ثم فان العمل لاينتج استغلاله الخاص ، بل ينتج أيضا وسائل استغلاله ، أعنى رأس المال (١٦٤) .

فى اطار ذلك تنشأ علاقة غير متوازنة بين العامل البروليتارى وصاحب العمل البرجوازى، بالنظر الى مجموعة من التوقعات المشتركة . حيث العامل البروليتارى يعطى المالك البرجوازى نتاج عمله اليومى ويتوقع منه المقابل المعادل ، بينما نجد ان المالك البرجوازى يتوقع من البروليتارى أكثر من عطائه له . ويصبح من نتاج هذه العلاقة غير المتوازنة ، أن الحرمان يصبح شرطا مفروضا من قبل البرجوازية وله وطأته على البروليتاريا . من هنا تتبدى ادانة ماركس للنسق الرأسمالى الذى يحيل الانسان الى حيوان عامل متوحش ليس لديه سوى حاجاته الجسدية المحدودة . ومن ثم تختزل الحاجات البشرية الى المستوى الفيزيقى . وربما يتجاوز ذلك حيث يصبح البشر محرومين ليس فقط من اشباع حاجاتهم البشرية ولكن الحيوانية أيضا (١٦٥) . ويكون من نتاج هذا التفاعل وجود تباين فى رؤية ومصالح كل من

البروليتاريا والبرجوازية . وإذا كانت البرجوازية تسيطر على مصادر التفاعل ومجالاته ، فبالاضافة الى تملكها لوسائل الانتاج فانها تحاول فرض أفكارها وعلاقاتها على هؤلاء الذين لايملكون شيئا (١٦٦) . هذا فى حين ان العامل البروليتارى يجد نفسه مجبرا على ان يرى مختلف الارتباطات التى تحيط بها ، تقيده وتستغله ، كالطبقة التى يواجهها فى المصنع أو الدولة . ومن خلال فهمه الكامل لموقفه الطبقى ، فان مصالحه تبدأ فى اكتساب الطابع العقلى ، فلكى يصبح حرا ، ومن ثم تكون له سيطرته الكاملة على مصالحه ، فانه قد لايطلب أجرا مرتفعا فقط ، ولكنه يتجه الى ان ينتظم ورفاقه الذين معه فى نفس الموقف الطبقى ، ومن ثم تبدأ مرحلة الصراع السياسى ، الذى كان كامنا فى مرحلة سابقة ، إلا أنه أصبح واضحا وصريحا فى المرحلة التالية (١٦٧) . فى أثناء ذلك ينجز العمال دورهم كطبقة ، حيث يتجهون الى تحرير القوى الممكنة الموجودة فى العمل الاجتماعى بواسطة الفعل الثورى ، وبهذا المعنى تصبح ثورة البروليتاريا عملا بناء لأنه تحرير للانتاجية الاجتماعية من القهر الذى تفرضه علاقات الانتاج الرأسمالية(١٦٨) .

معنى ذلك ان فائض القيمة وان كان عنصرا اقتصاديا فانه يتحول لكى يصبح عنصرا اجتماعيا يحكم طبيعة العلاقات التى طرأت على الموقف الرأسمالى الذى إكتسب هو الآخر طبيعة اجتماعية . ويتحقق ذلك من خلال نظرة البرجوازية الى النشاط الاقتصادى من خلال كونه مدخلا الى تحقيق فائض القيمة ، بل ان ارتفاع فائض القيمة يعتبر فى حد ذاته برهانا على مدى عقلانية هذا السلوك الاقتصادى . فى اطار ذلك يتجه الرأسمالى الى استخدام أكثر من عامل تحت امرته (١٦٩) ، وبذلك تخلق البرجوازية البروليتاريا كطبقة اجتماعية تولدت عن سلوك اقتصادى .

بيد أننا نجد على الطرف المقابل ، أن للبروليتاريا صلتها هى الأخرى بالنشاط الاقتصادى ، اذ أنه من خلال هذا النشاط يتولى العامل البروليتارى خلق كل الواقع المحيط به ، ومن ثم فهو يتجسد من خلال العمل خارج ذاته . ومن الواضح ، على مايذهب ماركس ، أنه كلما انفق العامل ذاته من خلال النشاط الاقتصادى ، كان العالم الموضوعى الذى يخلقه مغتربا عنه ، ومضادا له . وذلك يعنى أنه اذا كان العامل قد حول حياته الى موضوع له وجوده الخارجى فى الواقع الاجتماعى ، فان استمرار ذلك يعنى ان هذا الشئ الذى خلقه لم يعد ينتمى اليه بل أصبحت حياته تابعة لهذا الشئ (١٧٠) . بذلك نجد ان ظروفا جديدة قد حدثت ، حيث تولى العامل فى البداية خلق الواقع الذى يعكس ذاته من خلال نشاطه الاقتصادى ، إلا

ان افتقاده لملكية وسائل الانتاج ورأس المال حوله الى تابع يجيب احتياجات الواقع منه . فى اطار ذلك تفقد الذات سيطرتها على الموضوع - سواء كانت هذه الذات برجوازية أو بروليتارية - ويفقد الانسان ارادته التى خلق على أساسها الواقع ، وتصبح للواقع آلياته الحتمية التى تفرض فاعليتها على العناصر المكونة للواقع وعلى طبيعة التفاعل بين هذه العناصر . وإستمراراً لآليات الموقف نجد ان كل طبقة من هذه الطبقات تخلق امكانيات فنائها رغما عنها .

وتشكل شروط الموقف الرأسمالى مكونا أساسيا آخر فى اطاره . وفى محاولة التعرف على طبيعة الشروط الموقفية هذه نجد ان كارل ماركس يرى انقسام ظواهر الموقف الاجتماعى الى نموذجين من الظواهر . المجموعة الأولى ذات طابع حتمى ، وتشكل أساس الموقف الاجتماعى ، فى اطار ذلك نجد ان الجدل الماركسى يؤكد سيطرة القوى الاقتصادية العمياء على مجرى المجتمع (١٧١) . بحيث تشكل هذه القوى مجموعة الظواهر الاقتصادية أو الأساس المادى والاقتصادى للمجتمع ، وبالتحديد وسائل الانتاج التى تشكل العنصر الجوهرى فى البناء الاقتصادى ومن ثم الاجتماعى . أما المجموعة الأخرى من الظواهر ، فهى تلك الخاضعة لحتمية المجموعة الأولى ، وهى وان كانت خاضعة بصفة مبدئية لها إلا أن بامكانها ان تقود نوعا من التطور المستقل ، فالأساس الاقتصادى يحدد البناء الفوقى فى شكله الأساسى فقط وليس فى كل مرحلة من مراحل التطور الواقعى (١٧٢) . ومع ذلك فثمة اجماع على ان الأساس الاقتصادى هو الذى يحدد طبيعة المواقف الاجتماعية على مايذهب كوهين مثلا (١٧٣) . وان الانسان هو حلقة الصلة بين فاعلية الأساس المادى والأشكال الثقافية والأيديولوجية التى يتولى العقل البشرى تأسيسها فى الموقف كانعكاس للواقع المادى (١٧٤) . وتسليما بفاعلية الأساس المادى وتحكمه فى مجموعة التفاعلات الكائنة فى الموقف الاجتماعى ، نرى أنه يمكن ان ننسب اليه ثلاثة تأثيرات أساسية فى اطار الموقف الاجتماعى .

ويتمثل أول مظاهر التأثير هذه فى كون الأساس المادى يؤدى دور المتغير المستقل ، بحيث أن أى تغيرات فى الأساس المادى للموقف تؤدى الى تغيرات شاملة تنعكس أثارها بشكل أساسى على البناء الفوقى والأهداف أو المعايير المشتقة منه . بالاضافة الى ذلك فان للأساس المادى تأثيره القهرى على الانسان فى النظام الرأسمالى ، يتضح ذلك أنه اذا كان الأصل هو سيطرة الانسان على وسائل الانتاج واخضاعها له ، فان آليات الموقف تجعل الفرد خاضعا لها ، ومن ثم تتحول من كونها وسائل فى متناوله الى شروط موقفية يخضع لتأثيرها . ولايتولى

الأساس المادى قهر العامل البروليتارى فقط ولكن نجده يحدد علاقته بالآخر ، بروليتاريا كان أم برجوازيا . حيث يخضع الاثنان لعدة اغترابات تسهم فى مجملها فى اختزال كل منهما الى جزئية تابعة للعملية الاجتماعية التى هى مادية فى أساسها ، وليس الى وحدة كلية تمتلك ممكنات ضبط الموقف والسيطرة عليه . ففى اطار الموقف الرأسمالى يتبدى عجز العامل البروليتارى فى عدم قدرته على فرض ارادته على مكونات الموقف أو التغيير فيها . وقد تتبدى امكانية التغيير سهلة فى الاطار الثقافى والأيديولوجى ، بشرط أن يكون ذلك انعكاسا لتغير أساسى وقع فى الأساس المادى ، ومن ثم يصبح الدور الذى قام به الانسان مجرد دور ثانوى مساعد . غير ان ذلك لايعنى ان الجوانب المادية هى الشروط الحاكمة للموقف فقط ، وانما يتحقق للبناء الأيديولوجى قدر من الاستقلال بمجرد تخلقه ، وقد يتحول شرط حاكم فى الموقف له نفس قدرة الجوانب المادية ، يؤكد ذلك مايذهب اليه لينين حينما يعين للأفكار شرف المكانة التى للقوى المادية . اذ يقول ان النظرية تصبح قوة مادية حينما تسيطر على الجماهير . وحينما أكد ماركس على أولوية العلاقات الاقتصادية بينما الأفكار والمشاعر مشتقة منها ، فانه لم يكن يعنى أن الأخيرة ليست هامة . بل انه لم يستبعد امكانية قيام تفاعل مزدوج بين الاقتصاد (الأساس الانتاجى) والأفكار ( البناء الفوقى الأيديولوجى ) (١٧٥) .

خلاصة القول ان الموقف الرأسمالى يتضمن شروطا حاكمة لها تأثيرها المنظم لتفاعله والضابط لعلاقاته ، بحيث نجد ان أكثر الشروط فاعلية هى الشروط المادية المتمثلة فى وسائل الانتاج . والتى الى جانب تحكمها فى تفاعلات وعلاقات الموقف ، تتولى تخليق الأيديولوجيا والأفكار من خلال البشر كانعكاس للشروط المادية ، لكى تساعد هذه بدورها – بإعتبارها العامل المساعد – فى ضبط الموقف ، بيد أنه فى أعقاب تخلق البناء الأيديولوجى قد يتحول الى شرط حاكم للموقف له نفس قوة الشروط المادية على مايذهب لينين ، بل ان هذا البناء الأيديولوجى قد يصبح الشرط الأساسى الحاكم للموقف كما هو الحال فى أعقاب الثورة البروليتارية حينما يتولى وعى البشر الموضوعى تنظيم واقعهم .

فى هذا الصدد نلاحظ أيضا ان شروط الموقف الاجتماعى مادية كانت أو أيديولوجية ليس لها نفس الوطأة أو التأثير المتساوى بالنسبة لكل من الانسان البروليتارى أو البرجوازى فى الموقف الرأسمالى وانما هى تعمل لصالح الأخير على حساب قهر الأول واختزاله وتغريبه . ومن ثم فانه كان منطقيا وفقا لما يذهب اليه المشروع الماركسى ان يتجه الجهد البروليتارى الثورى فى محاولته لاعادة تنظيم الموقف الاجتماعى وعلاقاته الى الغاء شروط الموقف الحاكمة له ، أو

على الأقل إلغاء سيطرة البرجوازية عليه ، أو تحويل الانسان البرجوازى لكى يحيا ذات ظروف العامل البروليتارى .

ويشكل بناء القوة عنصر الضبط والسيطرة المنظمة لتآزر عناصر الموقف الرأسمالى بما ييسر انجاز النشاط الاقتصادى وتحقيقه لهدفه . ويتضمن بناء القوة فى الموقف الرأسمالى ثلاثة عناصر أساسية ، يتمثل العنصر الأول فى الأيديولوجيا ، والثانى فى الدولة ، أما الثالث فهو القانون . ونعنى بالأيديولوجيا مجموعة القيم التى تنظم التفاعل الاجتماعى والتى يعمل وفقا لأفكارها نسق السلطة المتدرج . ويذهب ماركس الى أن الأيديولوجيات أو القيم الأساسية التى تسود المجتمعات البدائية أو النوعية المتقدمة عادة ماتكون ذات طبيعة اتفاقية . حيث لاتطاع القيم لمجرد الاتفاق عليها ، ولكن لأنها أصبحت موضع موافقة إرادية من قبل الآخرين الذين يعملون وفقا لها . وهم يعملون وفقا لها لأنهم يرغبون فى ذلك وليس لأنهم مجبرون على الارتباط بها ، فالقيم على هذا النحو ذات طابع حتمى بالنسبة للفرد حتى قبل ان يولد (١٧٦) . وفى اطار المجتمع الرأسمالى نجد نوعين من القيم ، القيم ذات الطابع الاتفاقى وهى التى تسود داخل كل جماعة من جماعات المجتمع الرأسمالى . فالبرجوازية تسودها قيم اتفاقية يتم استيعابها من خلال التنشئة القهرية ، وتعتنق البروليتاريا ذات القيم التى تشكل وعيا زائفا بالنسبة لها . ويؤكد ماركس ان الطبقة المسيطرة عادة ماتؤسس أو تنشئ أشكالا أيديولوجية تشرع سيطرتها ، فالطبقة التى تملك وسائل الانتاج المادى فى حوزتها ، لها السيطرة فى ذات الوقت على وسائل الانتاج العقلى ، ومن ثم فأفكار الذين يفتقدون وسائل الانتاج عادة ماتخضع لتلك التى تمتلك هذه الوسائل (١٧٧) .

ويكشف تحليل طبيعة الادراك الماركسى للأيديولوجيا عن ضرورة التمييز بين معنيين ، أولهما ان الظروف الاجتماعية التى يقع فى اطارها نشاط الأفراد تحدد طبيعة ادراكهم للعامل الذى يعيشون فى نطاقه . فى اطار هذا المعنى تشكل اللغة الوعى العملى للبشر الذى يرتبط عادة بظروف نشاطهم الاجتماعى . أما المعنى الثانى فيتعلق بانتشار الأفكار ، ويذهب ماركس الى اننا فى اطار المجتمعات الطبقية نجد ان الأفكار الحاكمة لأى حقبة هى أفكار الطبقة الحاكمة ، وذلك يعنى ان انتشار الأفكار يعتمد الى حد كبير على توزيع القوة الاقتصادية فى المجمع . وبهذا المعنى الأخير تشكل الأيديولوجيا جزءا من البناء الفوقى ، فالروح ethos السائدة فى أى عصر هى تلك التى تمنح الشرعية لمصالح الطبقة الحاكمة . وعلى ذلك تشكل علاقات الانتاج من خلال النسق الطبقى الأساس الحقيقى الذى يستند عليه البناء الفوقى

السياسى والقانونى ، الذى تنتمى اليه أشكالا محددة من الوعى الاجتماعى (١٧٨) . ويعنى ذلك ان الأفكار التى تولدت يتم نشرها والموافقة عليها بواسطة جهاز السيطرة الطبقية . ومن ثم نجد ان الأيديولوجيا الحاكمة عادة ماتضم وضوحا ووعيا بالسيطرة ، بالاضافة الى امتلاكها الوسائل الأخلاقية لتحقيق هذه السيطرة (١٧٩) . بذلك تعتبر الأيديولوجيا أحد العناصر الرئيسية فى بناء القوة ، تستخدمها طبقة لتحقيق مصالحها وبها تقهر طبقة أخرى وتفرض عليها الخضوع ، والأيديولوجيا هى أولا وأخيرا انعكاس لتباينات الموقف الرأسمالى واغترابـاته .

ويعتبر القانون أو البناء التشريعى العنصر الثانى فى بناء القوة . فالتوسع فى الثروة الخاصة هو الذى أدى الى انهيار المجتمع المشاعى ، والذى شكل الأساس لنشأة القانون المدنى ، حيث قنن هذا القانون الأول فى روما ، اذ تبنت مراكز الرأسمالية المبكرة بايطاليا القانون الرومانى ، وحدث ذلك فى أماكن أخرى كثيرة ، وأصبح ذلك مصدرا للقانون المدنى . ويعتبر النسق الشرعى الحديث احدى الدعامات الأساسية للدولة البرجوازية . فى اطار ذلك تبرز حقيقة انه فى المجتمعات الطبقية نجد ان الطبقة المسيطرة تطور أو تؤسس أشكالا أيديولوجية تمنح سيطرتها مشروعية (١٨٠) . وبذلك يصبح القانون هو مجموعة القواعد التى تتولى الطبقة الحاكمة بواسطتها السيطرة على الموقف الاجتماعى وتوجيه تفاعلات لصالحها .

وتشكل الدولة العنصر الثالث فى بناء القوة من وجهة نظر الماركسية . ويحاول ماركس منذ البداية المفارقة بين السلطة والقوة ، فيرى ان الأولى علاقة اجتماعية متبادلة بين اثنين أو أكثر من البشر ، تنتشر خلال نسق الطبقة الاجتماعية ، ومن ثم فالسلطة ليست مركزة فى أى من نطاقاتها . أما القوة فيرى أنها ليست فقط متمركزة فى يد جماعة أو طبقة معينة فى أوقات محددة ، ولكنها تتضمن دفع البشر للعمل وفق أساليب لايوافقون اراديا عليها ، ومن ثم تتضمن القوة دفع البشر للتصرف ضد مصالحهم (١٨١) . وتعتبر الدولة هى الاطار الشكلى لفاعلية السلطة والقوة . ويؤكد ماركس ان الدولة الحديثة ظهرت فى اطار ظروف تتصل بصراع البرجوازية ضد بقايا الاقطاع ، بحيث تدعم هذا الظهور بواسطة متطلبات الاقتصاد الرأسمالى . وبذلك تنتمى الدولة الحديثة لظاهرة الثروة الخاصة الحديثة أيضا ، حيث أصبحت جهازا له أهميته التدريجية من قبل ملاك الثروة والضرائب التى يتم جمعها (١٨٢) . ويذهب ماركس الى القول بأن الدولة فى مراحل الرأسمالية المتقدمة ، كما كانت فى المراحل السابقة ، عادة ماتكون نتاجا للصراع الطبقى وليست سببا له . وتشير سلطتها الى مدى افتقاد الوعى

وتغلغل الاغتراب فى جوانب المجتمع ، حيث يصنع البشر تاريخهم بأساليب لاشعورية وغير رشيدة . أما الطبقة الوحيدة التى - بالنظر الى موقفها المستغل - يمكنها أن تصبح على وعى بوظيفة الدولة وسيطرة الطبقة الحاكمة عليها ، فهى البروليتاريا الكائنة فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة (١٨٣) .

وبالنسبة لعلاقة الدولة بالبعد الطبقى ، نجد ان الطبقة تميل الى التصرف لذاتها فى المرحلة السياسية ، حيث ممارسة القوة والصراع الصريح . اذ تنجذب الطبقة الواعية والراغبة فى تأكيد وتوسيع قدرتها الى مركز القوة ، وهى تفعل ذلك لكى تمنع بالقوة فعل الطبقات الأخرى المنافسة . وفى أمثلة نادرة لبعض الديموقراطيات قد تصعد البروليتاريا الى السلطة بالنظر الى تفوق قوتها العددية ، غير انها قد لا تجد مفرا من اجبار الطبقة البرجوازية الحاكمة على التسليم فى أعقاب صراع ثورى وراء المتاريس فى الشوارع . وقبل ان تصل البروليتاريا الى مستوى الوعى الضرورى للمشاركة فى الفعل الثورى ، فانها سوف تخضع لقهر تفرضه الطبقة الحاكمة بواسطة السلطة وليس القوة ، اذ سوف تحاول النظم البرجوازية كالعائلة والتعليم والديانة تأكيد مشروعية الحالة الراهنة بأساليب عديدة ، وسوف يشير نجاح البرجوازية فى هذا الصدد الى عمق الوعى الزائف الذى تخلقه لدى البروليتاريا . حيث يتضمن الوعى الزائف الموافقة على السلطة وعلى صحة المعايير والقيم والأفكار التى تظهر ويتم استيعابها من قبل الطبقة المضادة ، ومن ثم يتضمن ذلك الموافقة الارادية على ملاءمتها للحكم والسيطرة . هذه الملاءمة التى يتبدى زيفها من خلال الصراع الطبقى المتنامى . فى تلك اللحظة قد تنشأ القيم الحقيقية للبروليتاريا ، تلك التى يمكن الاتفاق عليها ، ويمكن ان تتضمن الوسائل الرشيدة لإعمال هذه القيم الثورية الموافقة على السلطة الداخلية الجديدة واستخدام القوة ضد السلطة القديمة . وحينئذ فان قوة الطبقة لذاتها تعتمد على درجة تماسكها استقلال سلطتها الداخلية (١٨٤) . ويؤكد كارل ماركس انه اذا كانت الدولة تعبيرا عن المجتمع الطبقى ، باعتبارها وسيلة الطبقة البرجوازية فى الحكم والسيطرة ، فان القضاء على الدولة لن يكون الا بالقضاء على البناء الطبقى والطبقة البرجوازية التى تؤدى الدولة وظيفة أساسية بالنسبة لهـا (١٨٥) .

## ثالثا : الاغتراب ، أصوله ، أنماطه

يلعب مفهوم الاغتراب دورا محوريا فى النظرية الماركسية . وهو يشير الى علاقة تناقضية تعبر عن فاعلية الجدل الذى يشكل جوهر المشروع الماركسى . وفى شكله العام نجد ان البروليتاريا فى علاقتها بالبرجوازية تؤسسان الموقف الرأسمالى لاشباع حاجات مشتركة ، ومن ثم فهما بفعلهما على هذا النحو تؤسسان هذا الموقف كامتداد لهما ، ر ان هذا الموقف بعد تأسيسه يمتلك آلياته الخاصة التى تعمل على فرض علاقة عكسية على المشاركين فى الموقف ، حيث يقومان على اشباع متطلباته بينما هو يعمل باستمرار على اختزالهما وفرض خضوعهما له ، وهو مايعنى شيوع حالة من الاغتراب فى نطاق الموقف الرأسمالى بكل مكوناته .

وبدون الدخول فى شروح قاموسية لمفهوم الاغتراب ، فان هذا المصطلح يمكن ادراكه من خلال مصدره الانجليزى الذى يعنى to Alienate حيث يشير بالأساس الى ان شخصين أصبحا غريبين estranged كل عن الآخر (١٨٦) . هذا فى حين ان هناك تعريفا آخر يرى ان الاغتراب يشير الى عملية معقدة ذات جوانب متعددة ، تشير فى مجملها الى تحول انتاج النشاط الانسانى والاجتماعى بل وتحول نتاج قدرات الانسان وطبيعته الى شئ مستقل عنه تنتفى سيطرته عليه (١٨٧) ، ويعتبر هذا التعريف أكثر التعريفات اقترابا من الاستخدام الماركسى له .

وفى كتاباته عن الاغتراب تأثر ماركس بأفكار كل من هيجل وفويرباخ ، اذ حاول توسيع أفكار الأخير فيما يتعلق بالاغتراب لكى تشمل النطاق الاجتماعى (١٨٨) . ولتوضيح ذلك نجد ان الاغتراب كما ورد عند هيجل له جذوره – ككل الفرضيات الأخرى – فى النطاق العقلى أساسا . ولقد ظل المفهوم هيجليا فى أساسه برغم التعديلات التى أدخلها اليسار الهيجلى عليه ، اذ يتبدى الاغتراب بالنسبة لهم كفكرة فلسفية أساسا أو كحالة تتبدى فى اطارها طاقات الانسان باعتبارها قوى مستقلة أو ذوات تتحكم فى أفعاله . وقد استخدم فويرباخ الاغتراب فى تفسيره للظواهر الدينية ، ومن ثم فقد نظر الى البناءات أو التشكيلات الفوقية كنوع من الاختراع الانسانى البحث . وبالنظر الى ذلك نجد ان ماركس يذهب كثيرا الى ماهو أبعد من فويرباخ ، اذ رفض تناول ظاهرة الاغتراب كظاهرة سيكلوجية فلسفية ، ومن ثم فقد أكد على ضرورة تحليلها كظاهرة اجتماعية أساسا فى اطار علاقات اجتماعية محددة وفى نطاق نسق اجتماعى / تاريخى بعينه (١٨٩) .

ولاشك أن ظاهرة الاغتراب من الظواهر التى شغلت الجناح الليبرالى للنظرية السوسيولوجية أيضا ، حيث كان لمفكرى هذا الجناح من أمثال فيبر ، دوركيم ، تونيس وكارل مانهايم وجهة نظر فى هذه الظاهرة . فقد ركز فيبر فى تحليله على التوتر بين الامكانية الكارزمية للفرد وبين الحاجة الى التكيف القسرى داخل مجال الدور المحدود ، حيث يحدث ذلك فى حالة افتقاد أى بناء معيارى شامل . أما دوركيم الذى طرح حالة الانومى ، كحالة مرضية عضال قد تصيب المجتمع ، والذى حدد حلا لها بضرورة تغيير دوافع الانسان فى مواجهة تأسيس بناء معيارى يعمل على الصياغة الروتينية والاعتيادية لحاجات الانسان (١٩٠) .

وبقدر اختلاف ماركس مع التنظير الفلسفى فيما يتلعق بالاغتراب كمفهوم أو كظاهرة ، فانه برغم اتفاقه مع المنظرين السوسيولوجيين - دوركيم وفيبر - فيما يتعلق بالطبيعة الاجتماعية للاغتراب ، فاننا نجده يتخلف عنهم بالنظر الى رفضه اعتبار أن المصدر الأساسى للاغتراب يتمثل فى حالة الفوضى والانهيار التى تصيب بشكل ما البناء المعيارى للمجتمع ، بحيث يصبح السلوك الانسانى فى أطار الواقع الاجتماعى خلوا من أى توجيه معيارى . وفى اطار ذلك نجد ان ماركس يؤكد ان هذه الظاهرة تقع فى أطار العلاقة بين الانسان والسياق الاجتماعى الاقتصادى الذى يتضمنه ويشكل مجال حركته الرئيسية . ذلك لان البناء المعيارى من وجهة نظره ليس الا تعبيراً أو انعكاسا مباشرا لحالة الاغتراب الانسانى وليس سببا له كما تدعى النظرية الليبرالية .

ويكشف التحليل الدقيق لظاهرة الاغتراب عن تضمنها لعمليتين أساسيتين فرعيتين . الأولى عملية الاستخراج externalization وفى اطارها ندرك حقيقة ان الانسان كذات سيكولوجية - فسيولوجية تعبر عن ذاتها من خلال الموضوعات الثقافية والتأسيسات الفكرية . ومن الواضح أن ذلك يعنى تخريج السلوك الانسانى فى شكل أيديولوجيات ونظم اجتماعية أو منتجات مادية . فى نطاق ذلك نجد ان الانسان يعكس ذاته على الواقع المحيط ، فيؤسس مايسر اشباع حاجاته الطبيعية والاجتماعية . وحتى هذه اللحظة فان عملية الاستخراج ليست اغترابا بمعناه الأساسى . أما العملية الفرعية الثانية فهى الغربة estrangement ، حيث يصبح الانسان فى اطارها وسيلة للانتاج الثقافى بدلا من كونه غايه له . وليس من الضرورى ان تكون ظاهرة الاستخراج مصحوبة دائما بظاهرة الغربة ، والا أصبح المشروع الماركسى لامعنى له (١٩١) ، حيث حاول ماركس ان يرجع كل أشكال الفردية الى الظاهرة الأساسية للاستغلال الاقتصادى . ويذهب دانيل بيل Daniel Bell الى القول بأن تضييق ماركس لقضية

الاغتراب العامة وقصرها على الاغتراب الاقتصادى ، قد أغلق بذلك الباب أمام التحليل العام والمثمر لقضايا التنظيم الاجتماعى وبناء الشخصية (١٩٢) .

وفى تناول ماركس لقضية الاغتراب نجده يبدأ من بداية افتراضية انتقلت اليه عبر نظريات التنوير أساسا . حيث يدور هذا التناول فى فلك مسلمتين أساسيتين ، الأولى تتعلق بالانسان والثانية بطبيعة التنظيم الاجتماعى . حيث تطرح المسلمة الأولى تصورا للانسان فى مرحلة افتراضية ، لم يتعرض فى اطارها لمجموعة الاغترابات التى فرضت عليه من قبل المجتمع البرجوازى . ويؤكد ماركس ان الانسان الطبيعى natural Man كان انسان كاملا ، وهو الكائن البشرى الفرد ، بحاجاته وامكاناته على النمو والتطور . ورغم ان ماركس قد عبر صراحة عن ذلك فى كتاباته الاولى ، فان ذلك ظل أساس تحليله طيلة حياته الفكرية الباقية من حيث نقده للنظام الرأسمالى أو فيما يتعلق بآماله فى تأسيس المجمع البشرى الحقيقى .

وككل الفلاسفة اعتقد ماركس فى قابلية الانسان للاكتمال بلا نهاية ، وفى قوى الانسان الكامنة والممكنة وغير المحدودة فى قدرتها على النمو . فاذا كان الانسان حاليا ليس إلا حيوانا عاملا فانه لايحتاج أن يظل على هذه الحال ، مادام بامكانه ان يحقق أعلى أشكال الخلق والابداع فى الفكر والعمل ، ويعتبر هذا التصور أساس تقدير كارل ماركس للأنساق الاجتماعية وتقويمه لها . حيث يؤكد ان قدرات الانسان الكامنة والمبدعة قد اضمحلت وقهرت تحت تأثير الشروط الاجتماعية السائدة فى كل المجتمعات الطبقية . ففى نطاق الرأسمالية مثلا ، وهى النسق الاجتماعى موضع التحليل ، لايحرم أيضا الانسان فقط من تجسيد أو تحقيق امكاناته كانسان ، ولكنه قد يحرم أيضا من حاجاته الحيوانية ، كالحاجة الى الهواء المنعش ، والطعام ، والجنس ، الخ .. ومن ثم فقد أصبح الجوع لايشعر به الانسان كنتيجة للظروف الطبيعية الخارجية ، بل يدركه كحالة من الحرمان التى يفرضها البشر الآخرون . ومن ثم فقد أدان ماركس النسق الرأسمالى لوطأته على البشر ، اذ يؤكد ماركس فى نطاق هذه المسلمة ان الانسان الذى تصوره كاملا أو يمتلك امكانات الكمال فى بداية التاريخ البشرى ، وحتى ماقبل النظام الرأسمالى اذا به يتحول الآن تحت وطأة هذا النظام الى مجرد حيوان عامل ، يرد الى حاجاته البدنية المحدودة (١٩٣) . ومن ثم فاذا كان لديه تصورا لما كان الانسان أو ماينبغى ان يكونه ، فانه قد أدرك ان مايراه حوله فى المجتمع الصناعى يبتعد كثيرا عن المثال الذى يتصوره . فبدلا من أن يعمل النظام على تطوير القدرات الأساسية للانسان نجده يعمل على تنميطه وتشويهه ، حتى أصبح فى مرتبة أدنى من الحيوان ، وذلك يعنى ان الانسان وان كان

فى الأصل كاملا فانه قد اختزل واغترب فى ظل النظام الرأسمالى .

وتتعلق المسلمة الثانية بطبيعة النظام الاجتماعى فى حالة اكتماله قبل ان يغترب ، وينطلق ذلك من افتراض ماركس ان المراحل الأولى للحياة البشرية تميزت بأنها كانت ذات طبيعة تعاونية أساسا ، حيث تفاعل الانسان مع رفاقه الآخرين فى اطار علاقات غير مقيدة . وخلال هذه المرحلة كان الانسان يعبر عن طبيعته الجوهرية ، حيث لم يتضمن هذا التعبير أى تسلط أو سيطرة (١٩٤) . ولقد كان الانسان فى اطار هذه المرحلة مبدعا وخلاقا ومتعاونا ، يعمل قدراته الطبيعية فى مجتمع لايعوق مثل هذه القدرات . ومن الواضح ان هذه المرحلة سادت المرحلة المشاعية وهى ذاتها التى يأمل ماركس ان تسود مرحلة المجتمع الشيوعى ، غير أنه بين هاتين المرحلتين خضع المجتمع البشرى لعدة اغترابات كثيرة .

واذا كان التعاون هو الأصل فيا يتعلق بطبيعة التفاعل الاجتماعى ، فان قيام الصراع كأساس للتفاعل يصبح الحالة المغتربة عن هذا الأصل . ويكشف الاستقراء التاريخى عن تحقق هذه الحالة مع ظهور أول تقسيم اجتماعى للعمل فى اطار المجتمع المشاعى ، حدث ذلك حينما قامت احدى القبائل بأسر بعض أعضاء قبيلة أخرى ، واستخدمتهم كعبيد . ومنذ ذلك الحين تأسست أول الخواص البنائية التى فصلت البشر فيما بعد عن ذواتهم التلقائية والحقيقية . بعبارة أخرى انقسم الانسان الحقيقى على ذاته وضد ذاته من خلال مجموعة من المصالح المتعارضة بحيث كان ذلك مدخلا لتأسيس علاقات الصراع (١٩٥) . وبدأ من نقطة البدء الافتراضية هذه أصبح الصراع ظاهرة اجتماعية دائمة تتغير وفقا لطبيعة النسق المجتمعى . وهو مايشير اليه ماركس حينما يذهب الى القول بأن كل تاريخ الانسانية ( مثل انهيار المجتمع البدائى القبلى ، والملكية المشاعية للأرض ) ، ليس إلا تاريخ النضال بين الطبقات ، بين الطبقات المستثمرة والمستثمرة ، بين الطبقات الحاكمة والمحكومة (١٩٦) . ذلك يعنى ان التباين الاجتماعى تأسس كعامل هام من عوامل نشأة الاغتراب كظاهرة انسانية .

ويتمثل العامل الثانى الذى أسهم فى تغريب المجتمع الانسانى عن طبيعته الأساسية المتكاملة فى نشأة تقسيم العمل الاجتماعى . فى اطار ذلك فانه كان من المتوقع دائما تحديد مراحل وأنماط عديدة للاغتراب فى أعقاب كل ثورة اجتماعية ، حيث قامت انماط متعددة لتقسيم العمل ، واشكال الاستغلال الكثيرة التى قهرت وحرفت الطبيعة الأساسية للانسان ، بل وأعاقتها عن التعبير عن نفسها فى اطار الشكل الاجتماعى الملائم . اذ لم يعد الانسان قادرا

على التعبير عن ذاته بالأسلوب الجوهرى ، وانما أصبح يقف ضد البشر الآخرين فى المجتمع المنقسم الطبقات . وهى الحالة التى سوف تنتفى فى المرحلة النهائية حيث المجتمع الشيوعى ، كما كانت منتفية فى المجتمع البدائى . وهى الحالة التى كان يمتلك كل البشر فى المجتع ذات العلاقات بوسائل الانتاج والاعاشة ، ونفس الأهداف والمصالح غير المتصارعة (١٩٧) . بذلك فان تاريخ المراحل الأولى للرأسمالية يعتبر الى حد كبير بالنسبة لماركس تاريخ الاغتراب المتزايد للمنتج الصغير وعجزه عن السيطرة على انتاجه . وبعبارة أخرى تاريخ حرمانه من السيطرة عليه ، وحرمانه أيضا من وسائله فى الانتاج ومن ثم اعتماده على بيع عمله فى السوق (١٩٨) .

ماهو مضمون الاغتراب ؟ البحث فى طبيعة الاغتراب يكشف عن وجود صور عديدة له ولعوامله منها ماهو على مستوى الانسان فى النسق الاجتماعى بينما البعض الآخر على مستوى التنظيم الصناعى الانتاجى . أو على مستوى النسق الاجتماعى الشامل . وفيما يتعلق بالاغتراب على المستوى الانسانى نجد أنه قد وقعت مجموعة من الاغترابات استهدفت الانسان فى ذاته فجعلته فى واقعه الرأسمالى انسان مغتربا عن نموذجه الزصلى . أما أول صور الاغتراب على هذا المستوى فتتمثل فى تحول علاقة الانسان بالعالم من علاقة ذات طابع انسانى الى علاقة ذات طابع حيوانى . يتضح ذلك من ان البشر فى الأصل يعيشون فى اطار علاقة ايجابية متفاعلة مع العالم الطبيعى . بحيث يمكن اعتبار الثقافة والتكنولوجيا نتاجا لهذه العلاقة التفاعلية وتعبيرا عنها ، وهى أيضا الخواص الأساسية المميزة للانسان عن الحيوان . بالطبع هناك بعض الحيوانات المنتجة ، غير ان انتاجها يتم بأسلوب ميكانيكى تكيفى . فى اطار ذلك فان العمل المغترب يرجع النشاط الانسانى المنتج الى مستوى التكيف والطبيعة ، وليس السيادة عليها ، وهو مايفصل الكائن البشرى عن تكوينه الوعى ، ويفصله أيضا عما يجعل الحياة الانسانية متميزة عن الحياة الحيوانية . ولقد تأثرت مناقشة ماركس فى هذا الصدد الى حد كبير بفويرباخ وان اختلف المضمون الماركسى . اذ نجده قد استخدم المصطلحات الفويرباخية فى التأكيد على ان الانسان ( كمنتج شامل universal producer) على نقيض الحيوان ، الذى ينتج جزئيا فقط وفى اطار سياقات محددة تتأسس بواسطة المكونات الغريزية لنموذجه البيلوجى ، ويعتبر تحليل ماركس فى هذا الصدد أكثر واقعية وتحددا عما توحى به المصطلحات الفويرباخية (١٩٩) . أما الصورة الثانية للاغتراب فتتمثل فى ان العامل يفتقد السيطرة على انتاجه ، مادام ماينتجه يستولى عليه الآخرون ، ومن ثم فهو لايستفيد منه ، وفى اطار الانتاج الرأسمالى يعتبر انتاج البضائع من أجل التبادل من أهم

مبادئ اقتصاد السوق . حيث يتم انتاج البضائع وتوزيعها بواسطة عمليات السوق الحرة ، بل ان العامل ذاته يعامل كسلعة ، ومن ثم يباع ويشترى فى السوق . فى اطار ذلك فهو لايمتلك القوة لتحديد مصير ماينتجه ، ومن ثم تعمل آليات السوق بالشكل الذى تدعم فيه مصالح الرأسمالى على حساب مصالح العالم ، وعلى ذلك فكلما أنتج العامل أكثر ، كلما قل مايستهلكه ، وكلما خلق قيما أكثر ، كلما أصبح هو رخيصا (٢٠٠) .

ويوجز ماركس هذه العملية من خلال تأكيده ان الموضوع الذى ينتجه العامل ، أى انتاجه ، يصبح غريبا ، أو هو قوة مستقلة عن منتجها . وتحقق العمل هو تموضع هذه القوة ، وفى ظل الأوضاع الاقتصادية الرأسمالية ، يظهر التموضوع على هيئة فقدان الموضوع واستبعاده لصاحبه ، كما يظهر التملك والاستحواذ على أنه اغتراب ونزع ملكية . فخضوع العامل لقوانين الانتاج الرأسمالى للسلع يؤدى حتما الى افقاره . ذلك لأنه ( كلما ازداد العامل كدحا ، ازدادت قوة الموضوع الغريب الذى ينتجه على الوقوف فى وجهه ، وازداد هو نفسه فقرا ) (٢٠١) . ويسلم تموضع انتاج العامل واستعباده له الى الصورة الثالثة للاغتراب على مستوى الانسان . حيث يغترب العامل فى اطار وظيفة العمل ذاتها . فاذا كان ناتج العمل هو الاغتراب فان الانتاج نفسه ينبغى أن يكون اغترابا نشطا أو نشاطا للاغتراب (٢٠٢) . حيث لاتقدم وظيفة العمل أية اشباعات جوهرية تجعل من الممكن للعامل ان يطور أو ينمى قدراته العقلية والفيزيقية بحرية مادام العمل مفروضا بواسطة الظروف الخارجية القاهرة وحدها ، حيث يصبح العمل نتيجة لغاية ما وليس غاية فى ذاته . ذلك يتضح من حقيقة أنه فى حالة غياب قسر فيزيقى أو قسر من أى نوع آخر ، فان البشر يفرون من العمل مثلما يفرون من الطاعون (٢٠٣) . فالعمل فى شكله الصحيح يعتبر وسيطا يستخدمه الانسان فى تحقيق ذاته على النحو الصحيح ، وفى سبيل تنمية امكاناته كاملة . ومن الواجب ان يكون الهدف من الاستخدام الواعى لقوى الطبيعة هو ارضاؤه وامتاعه ، أما فى صورته الراهنة فانه يشل كل الملكات الانسانية ويحول دون أشباعها . فالعامل لايؤكد ماهيته بل يناقضها ، وبدلا من ان ينمى طاقاته الجسمية والذهنية الحرة ، يكبت جسمه ويدمر ذهنه . من هنا فانه لاشعر أنه مع ذاته وهو يعمل ، ويشعر بذاته حينما يتحرر منه . انه يشعر بكيانه حين لايعمل ، ولايشعر به حين يعمل . ومن هنا فانه لايقوم بعمله طوعا ، بل كرها ، انه عمل بالسخرة ، ومن ثم فانه ليس اشباعا لحاجة ، بل هو مجرد وسيلة لاشباع رغبات خارجة عنه (٢٠٤) .

والاغتراب على هذا المستوى الأنسانى مثلما يصدق على العامل ( المنتج المنتزعة

ملكيته ) يصدق على من يشترى عمله . ومن ثم فعملية الاغتراب تؤثر على كل مستويات المجتمع بل انها تشوه الوظائف الطبيعية للانسان ، فالحواس التى هى المصادر الأولية للحرية فى رأى فويرباخ ترد الى حاسة تملك واحدة . بل أن اللذة والمتعة ذاتهما يتحولان من شروط ينمى البشر فى ظلها ( طبيعتهم الكلية ) بحرية الى أحوال للتملك والاقتناء الأنانى (٢٠٥) . ويعنى ذلك على مايذهب ماركس ان الاغتراب يتضمن البرجوازية الى جانب الطبقة البروليتارية . فالى جانب ان الاتجاه البرجوازى لاستغلال العامل البروليتارى لايعكس العواطف أو الغرائز البشرية الطبيعية ، وانما يعكس الطبيعة الصراعية الدخيلة على الوجود الانسانى . فاننا نجد ان البرجوازى يعانى من اغتراب آخر ، فوفقا لمقولات الاقتصاد السياسى فان على الرأسمالى أن يتخلى بالادخار والتقشف كفضائل أسسية له ، ومن ثم يصبح علم الصناعة هو علم التقشف ، الذى يعنى انكار الذات وانكار الحياة ، وانكار كل الحاجات البشرية كأساس مذهب لابد ان يعتقد . فكلما قلل البرجوازى من الطعام والشراب وقراءة الكتب ،وكلما قلل من الذهاب الى المسرح والسينما ، وصالة الرقص أو قاعة الاجتماعات العامة ، أو قلل من التفكير والحب والتنظير والغناء والرسم .. الخ . كلما ادخر البرجوازى رأسماله ، وامتلأت خزائنه ، وكلما تضاءل امتلك أكثر وتزايد مخزون اغترابه (٢٠٦) .

أما المستوى الثانى للاغتراب فيقع على مستوى التنظيم الانتاجى ، حيث يتميز الشكل الانتاجى الذى يتخذه المصنع بكونه شكلا مغتربا ، فبدلا من توزع العمال على خريطة المجتمع يتم تجميعهم لكى يعملوا فى معية واحدة تحت أمرة رأسمالى واحد . ويصبح التأكيد على قوة الانتاج الاجتماعى مدخلا الى جلب كثير من البشر لكى يعمل كل منهم الى جانب الآخر ومن ثم يتعاون معه (٢٠٧) . والى جانب أن تجميع العمال على هذا النحو يولد فائض قيمة اكثر ( حيث يقل فائض قيمة استخدام ١٢ عاملا منفصلين كل منهم يعمل ١٢ ساعة عن استخدام ١٢ عاملا يتعاونون مع بعضهم البعض فى العمل ١٢ ساعة ) ، فان هذا النظام يؤدى الى تغيرات أيكلوجية واجتماعية فى موقف العمل . ومن ثم يصبح انشاء المصنع نقطة بدء اغتراب التنظيم الاجتماعى للعمل عما كان عليه ، أو صورة أولى للاغتراب على هذا المستوى . أما الصورة الثانية للاغتراب على مستوى التنظيم فتتمثل فى نظام التخصص الذى يفرضه نظام العمل فى المصنع الرأسمالى من خلال تقسيم العمل كميكانيزم انتاجى يحول البشر الى اجزاء له (٢٠٨) ، حيث تعين لكل عامل وظيفة جزئية . يقتصر على أدائها ، ومن ثم تتحول قوة العمل لديه ، بقية حياته الى عضو لأداء هذه الوظيفة الجزئية (٢٠٩) . ونتاجا لذلك يتجه تقسيم العمل فى المصنع

الى تأسيس مايسمى بالعامل الجماعى Collective Labour الذى يتشكل من جمع مترابط من العمال الجزئيين Detailed Labour. بالنظر الى ذلك يمتلك العامل الجماعى درجة متساوية من الكفاءة والامتياز لكل المتطلبات التى يحتاجها الانتاج ، وهو يستهلكها أيضا بأكثر الاساليب كفاءة واقتصادية . وذلك عن طريق الاستخدام الكامل لكل أعضائه الذين يتكونون من العمال التفصيليين ، أو جماعات العمل فى أدائهم لوظائفهم الخاصة المنوطة بهم . ومن ثم تصبح نقائص واختزالات أو مسخ العامل التفصيلى اكتمالات بالنسبة للعامل الجماعى حينما يصبح الأول جزءا من الأخير . وتتحول عملية انجاز شئ واحد الى وسيلة لاتفشل ابدا ، بينما يفرض ارتباط العامل بالميكانيزم الكلى لأداء العمل ان يعمل بنفس أطراد أجزاء الآلة (٢١٠) . والى جانب أن ذلك يؤدى الى اختزال قدرات العامل الحقيقى الى أحدى قدراته فقط لصياغة العامل الجماعى التصورى الذى يضم كل هذه القدرات الجزئية ، وذلك عن طريق اجبار العامل على الاقتصار على مهارة جزئية لحساب القضاء على عالم كامل من الامكانات والغرائز الانتاجية بداخله (٢١١) ، فان ذلك يفرض اتجاه الذكاء الانسانى نحو تطوير أحدى القدرات فقط . ولتخليق هذا العامل الجماعى بقدرات عالية فان ذلك لابد أن يتم على أساس افقار القدرات الاخرى للعامل الفردى ، ومنها امكانية التفكير ( فالمصنع يزدهر كلما قلت استشارة العقل ) وحيثما اعتبر محل العمل آلة يلعب البشر أدوارهم فى اطارها كأجزاء لها (٢١٢) . بذلك يتحول العامل الانسانى عن طريق إلغاء ملكه التفكير لديه الى قدرة واحدة تنزل به الى مستوى حيوانى له حاجاته التى تشبع فى ادنى مستوياتها (٢١٣) . وتتمثل الصورة الثالثة للاغتراب فى اطار تنظيم الانتاج والعمل فى ادوات الانتاج أيضا . اذ يقود تركيز الانتاج فى مصنع واحد الى ضرورة اجراء بعض التغيرات فى الأدوات المستخدمة . فعلى خلاف الحرفى الذى يستخدم مجموعة من الأدوات القليلة لانجاز عمليات كثيرة ، فان العامل الآن يستخدم أداة متخصصة لانجاز كل عملية فرعية صغيرة . فى أطار ذلك يؤكد ماركس تميز نظام المصنع بتباين أدوات العمل ، وهو التباين الذى يعنى ان أدوات معينة تتخذ شكلا ثابتا يتكيف وتنفيذ عملية معينة ، وتخصص هذه الأدوات يعنى ان كل أداة منفردة ذات امكانية كاملة فى يد العامل التفصيلى المحدود (٢١٤) . ولقد أدى ذلك الى نتيجتين : الأولى خضوع العامل لوسيلة واحدة بالرغم من التوتر الذى يفرضه عليه هذا الوضع . ومن ثم تصبح شرطا انتاجيا يخضع له العامل بدلا من ممارسته الانتاج بواسطة وسائل عديدة له سيطرة كاملة عليها من حيث ابتكارها أو التعديل فيها . أما النتيجة الثانية فتتمثل فى ان ذلك يقود العامل الى الاغتراب عن قواه الخلاقة ومن ثم

مسخه ككائن بشرى ، بذلك يثرى التنظيم وينتعش عن طريق تغريب العامل عن امكاناته الفردية .

يبقى المستوى الأخير من الاغتراب ، وهو الاغتراب على مستوى النسق الاجتماعى ، حيث تتأسس مجموعة من الظواهر التى تقع عبر عدة مراحل تاريخية متتابعة تسلم كلها فى نهاية الأمر الى تخليق نسق مغترب عن طبيعته الأساسية ، تولد تناقضاته احتمالات نفيه وانهياره . ويشكل الصراع الاجتماعى أول صور الاغتراب على هذا المستوى . اذ تشير دراسات عديدة على ان التعاون هو الخاصية الجوهرية فى التفاعل الانسانى . بحيث استمر ذلك حتى نقطة البداية الافتراضية للاغراب حينما اقدمت احدى القبائل على أسر أعضاء قبيلة أخرى وتحويلهم الى عبيد . ومن ثم ظهرت أول خاصية بنائية فصلت البشر عن طبيعتهم التلقائية ، وأصبح الانسان – فى تصوره الشامل – منقسما على نفسه ومضادا لها (٢١٥) . ذلك يفسر نظرة ماركس الى التاريخ الانسانى باعتباره تاريخا للنضال بين الطبقات المضطهدة والمضطهدة (٢١٦) . ويذهب الى القول بأنه اذا تمكن البناء من التخلص من أحد أشكال الاغتراب على هذا النحو فان ذلك عادة مايكون مقدمة لتولد اغتراب جديد . بحيث لاينتفى هذا الاغتراب إلا بنهاية الشكل الطبقى للمجتمع وتحقق المرحلة الشيوعية التى يستعيد فى اطارها النسق هويته الأولى والأساسية . ويشكل تقسيم العمل الاجتماعى كعملية بنائية الصورة الثانية للاغتراب على المستوى النسقى . وان كان هذا الشكل له بدايته الافتراضية التى أشرنا اليها حيث سيطرة احدى القبائل على أخرى ، فانه اتجه فى تناميه من خلال حركة ذات اتجاهات متضادة حيث اتجاهه الى اختزال الانسان وقسره على احدى ملكاته لصالح امتلاك التنظيم لقدرات متنوعة . ومن ثم فانه كلما كان هناك اغتراب على المستوى الانسانى فانه يوجد اكتمال على مستوى النسق الاجتماعى . بل اننا نجد ان نظام المصنع كوحدة انتاجية فى النسق البرجوازى يعانى من اغتراب عن نموذج الانتاج الطبيعى ، حيث انه يتضمن تعديلا ايكلوجيا فى البيئة الطبيعية (٢١٧) . بل انه حدث فى اطار هذا المستوى أيضا مايمكن ان يسمى بالاغتراب البيئى حيث تحول الواقع المتجانس الى واقع متناقض ، ومن ثم نشاهد فى اطار النسق البرجوازى نمو المدينة على حساب تخلف الريف ، وقد ينسحب ذلك على المستوى العالمى حيث نمو البلاد صناعية على حساب المجتمعات البدائية والزراعية (٢١٨) . بالاضافة الى ذلك تخلق مايمكن أن يسمى بالاغتراب النوعى حيث تبرز الفوارق بين الرجال والنساء . وتنشأ نوع

من الدونية الاجتماعية بالنسبة للنساء في مقابل سمو يكون من حظ الرجال ، وتتخلق علاقة أشبه ماتكون بعلاقة السادة بالعبيد (٢١٩) ، ولكن على أساس نوعى . بالاضافة الى ذلك فان تقسيم العمل كتنظيم يفرض مايمكن ان يسمى باغتراب الانسان عن الآخر فى اطار العلاقات الاجتماعية . اذ يفرض تقسيم العمل ان يكون لكل انسان مجال خاص ومميز للنشاط يفرض عليه ولايستطيع ان يتهرب منه . حيث العمل منفصل عن موضوعه ، هو فى نهاية المطاف اغتراب للانسان عن الانسان . يعزل فيه الأفراد بعضهم عن بعض ، ويوضع بعضهم ضد بعض ، ويكمن أساس ارتباطاتهم فى السلع التى يتبادلونها – وليس فى أشخاصهم . فاغتراب الانسان عن ذاته هو فى ذات الوقت اغتراب عن أقرانه من البشر (٢٢٠) ، تبقى بعد ذلك الصورة الأخيرة للاغتراب على مستوى النسق الاجتماعى . حيث يخلق اغتراب النسق البرجوازى اغترابا من نوع آخر ، اذ تتخلق بعض الظواهر أو النظم الاجتماعية التى ليست لها أية جذور موضوعية ، ويطرح ماركس الدين مثالا على ذلك . فالانسان من وجهة نظره هو الذى يخلق الدين ، وليست القوى الدينية هى التى تخلق الانسان . فالدين فى الحقيقة ليس إلا وعى الانسان بذاته لأن الانسان ليس كائنا مجردا يسكن خارج العالم ، وانما الانسان هو العالم الانسانى وهو الدولة والمجتمع . ومن ثم يصبح الدين هو التحقق المثالى لكينونة الانسان مادامت هذه الكينونة البشرية لاتمتلك وجودا واقعيا . وبذلك تصبح المعاناة الدينية ليست سوى تعبير عن المعاناة الواقعية أو احتجاج على هذه المعاناة . بذلك يصبح الدين هو رمز المخلوق المقهور ، أو هو عاطفة العالم الذى لاقلب له . أو روح الظروف التى لاروح لها ، أنه أفيون البشر (٢٢١) .

## رابعا : البروليتاريا والانتقال من اللاوعى الى الوعى

من وجهة النظر الماركسية تعنى العقلانية ان يتجه البشر فى النسق الى ادراك مصالحهم الحقيقية كما تتبدى لهم فى المواقف التى يجدون أنفسهم فيها (٢٢٢) . ويكشف تحليل ملامح السلوك فى اطار المشروع الماركسى عن ترادف بين عقلانية السلوك من ناحية والوعى به من ناحية أخرى . ومن ثم يصبح الوعى الزائف حالة لاعقلانية يقع الانسان فريسة لها ، أما بسبب قصور ادراكى منه ، أو بسبب عوامل خارجية مفروضة عليه . ذلك يعنى ان تحقق الوعى – اذا أدركنا ان ماركس اهتم أساسا بالجانب الطبقى للنسق على مايذهب بارسونز (٢٢٣) – تعنى اكتشاف الانسان لموقعه الطبقى ، ولمتضمنات دوره فى اطار هذا الموقع الطبقى ، أعنى وعيه بمصالحه وأهدافه وعقلانية وسائله لتجسيد تحقق هذا المصالح .

بالنظر الى ذلك نجد ان ماركس يذهب الى ان الوعى له جذوره فى الممارسة الانسانية ، التى هى اجتماعية بطبيعتها ، وذلك هو معنى العبارة ( ان وعى البشر ليس هو الذى يحدد وجودهم ، وانما على العكس ، فان وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم ) (٢٢٤) . وهناك مايشير الى تشويه موقف ماركس فيما يتعلق بهذه الملاحظة غير ان المقصود هنا هو الكائن الاجتماعى ، وقد يكون هناك قدر من الاعتراض فيما يتعلق بتعميم ان الوعى محكوم بالنشاط الانسانى فى المجتمع . ويشير ماركس الى ان اللغة كحالة يمكن أن تعطينا مثالا واقعيا على ذلك . اذ يؤكد ماركس ان اللغة القديمة قدم الوعى ، واللغة هى الوعى العملى الذى يوجد أيضا من أجل الآخرين من البشر ، ولهذا السبب فهى توجد بالنسبة لى شخصيا (٢٢٥) . فالتعبير عن الأفكار ، ووجود أى شئ يتجاوز الحواس يعتمد على وجود اللغة ، بيد ان اللغة نتاج اجتماعى ، حيث يتكسب الفرد المقولات اللغوية التى تشكل مرتكزات وعيه بالنظر الى عضويته فى المجتمع . ويتحدد الوعى بشكل مباشر فى إطار المشروع الماركسى بالنظر الى مجموع علاقات الانتاج التى تشكل البناء الاقتصادى للمجتمع ، حيث الأساس الحقيقى الذى تنتمى له أشكال محددة من الوعى الاجتماعى . بذلك فان أسلوب الانتاج ووسائل الحياة المادية تحدد ، بشكل عام ، العمليات العقلية والسياسية والاجتماعية للحياة (٢٢٦) .

من ناحية أخرى يؤكد ماركس ان وعى الانسان يتحقق اذا تآزر دوره والقوانين العامة للتاريخ ، ومن ثم فهناك تباين فيما يتعلق بدرجة قدرة الأفراد على توحيد أغراضهم مع الحركة الديالكتيكية العامة للتاريخ ، وذلك مايعنيه ماركس بالوعى الطبقى (٢٢٧) . بذلك يؤكد ماركس على عقلانية الأيديولوجية ، حيث تصر الماركسية على أن المجتمع يؤسسه الأفراد الواعون conscious agents الذين يعملون بارادة وعاطفة نحو أهداف محددة . ومن ثم فالتغير الاجتماعى ليس نتاجا للقوى اللاشخصية العمياء . وانما هو نتيجة لالتقاء الارادات والأفعال البشرية (٢٢٨) .

وفى معالجة ماركس لقضية الوعى فى مشروعه النظرى نجده يؤكد على تحدد الوعى أساسا بالنظر الى أسلوب الانتاج الاقتصادى والظروف البنائية الأشمل ، وان نضج الوعى يعنى مروره بمرحلة سابقة هى مرحلة اللاوعى ، فاذا تحقق الوعى الموضوعى فلا عودة للوعى الزائف . وان تحقق الوعى أو العقلانية تعنى بداية التاريخ الحقيقى للانسان . ويؤكد كارل

مـاركس ان هناك ظروفا أساسية تساعد على تشكل الوعى الطبقى ، أو حتى درجة عالية من الوعى بالمصالح والأهداف . فقد توجد طبقة مع بعضها البعض ، ومع ذلك لاتسعى لتحقيق مصالح مشتركة . فرغم ان أعضاءها قد يعيشون فى ظل ظروف متشابهة إلا أنهم قد لا يدخلون فى علاقات متبادلة ومتنوعة كل مع الآخر (٢٢٩) . بالاضافة الى ذلك فان الوعى قد يتأخر اذا ظلت الوحدات التى تنتمى اليها هذه المصالح منعزلة كل عن الأخرى ، أو اذا لم يسودها تقسيم للعمل أو تخلفت عنها وسائل الاتصال التى تيسر وحدتها واكتسابها لوعيها (٢٣٠) . ويذهب ماركس الى أنه قد حدث هذا الموقف بالنسبة للبروليتاريا فى بداية تشكلها ، حيث كانت المصانع ماتزال منعزلة والاتصالات بين المدن منخفضة ، وحيث لم تكن لظروف الاستغلال وطأتها على الطبقة البروليتارية . ومن حيث لم تكن لظروف الاستغلال وطأتها على الطبقة البروليتارية . ومن ثم لا تسعى لتنظيم نفسها . هذا بالاضافة الى عدم تخلق وحدة شعورية تربط بين البشر فى الموقف الطبقى ، ورغم ذلك وجدت البروليتاريا فى اطار موقف يشبه موقف جماعات الفلاحين ، حيث أنها حتى هذه اللحظة تشكل طبقة فى ذاتها فقط . ولايعنى ذلك ان الأفراد فى هذه المواقف الطبقية ليست لهم مصالح أو أهداف يشعرون بها ، ومن ثم ينجزون عملهم بالنظر اليها . وانما عادة ماتكون لديهم مصالحهم وأهدافهم . بيد ان هذه المصالح تسوقهم الى العمل الفردى أو العائلى وليس الى العمل الطبقى المشترك . فهم لايتصرفون مع بعضهم البعض كطبقة ، ولايبذلون أية محاولة لكى يؤسسوا سيطرة على موقفهم الطبقى بأسلوب مشترك عن طريق العمل السياسى ، حيث يشكل الأفراد طبقة اذا هم دخلوا فى صراع مشترك مع طبقة أخرى فقط (٢٣١) . ذلك يعنى ان هناك وضعين توجد الطبقة فى اطارها بالنظر الى مستوى محدد من العقلانية أو الوعى ، حيث الطبقة فى ذاتها والطبقة لذاتها . وفى اطار هذين الشكلين نجد قيما وعلاقات طبقية بين البشر داخل الطبقة . ومن ثم فالطبقة على هذا النحو لاتتميز عن أية جماعة أخرى داخل المجتمع . ذلك ان الطبقة فى ذاتها تفتقد ادراك أى مصالح مشتركة واضحة تعبر عنها ، ومن ثم توحد بين البشر فى اطار هذه الطبقة وتدفعهم الى التصرف كوحدة كما لو كانت شخصا واحدا ، وتبدأ الطبقات فى التصرف لذاتها على هذا النحو حينما تتأسس مثل هذه الأهداف المشتركة .

ذلك يطرح تساؤلا يتعلق باستكشاف العوامل التى تساعد على تحرك الطبقة وسعيها وراء مصالح لذاتها ، وهى ذات العوامل التى تساعد على نضج الوعى الطبقى على المستوى الفردى والجماعى بما ييسر الادراك الطبقى لمصالح الطبقة وأهدافها والطريق لتحقيق هذه الأهداف . وبالنظر الى ذلك نعرض لمجموعة من العوامل الأساسية ذات الطابع الذاتى فى

بعضها والموضوعى فى البعض الآخر . هذا بالاضافة الى مجموعة من العوامل الوسيطة أو المساعدة التى يسرت تحقق النتائج المترتبة على فاعلية العوامل الأساسية .

ويتمثل أول هذه العوامل فى الظروف الموضوعية المتجسدة فى سيطرة الرأسماليين على الموقف الذى تعيشه البروليتاريا . فى اطار ذلك نجد ان البروليتاريا وان وقفت كطبقة فى علاقتها برأس المال ، إلا أنها حتى هذه الحظة لاتقف كطبقة لذاتها (٢٣٢) ، أعنى أنها لم تع عقلانيا متضمنات الموقف ، ويتمثل وعى البرجوازية فى اطار مجموعة العوامل الموضوعية هذه فى سعيها الى تراكم رأس المال واستثماره فى المشروعات ، ومن ثم استخدام العمال الأكثر ، وينتج عن الوعى الواقعى الخالص الهادف الى الحصول على أكبر قدر من الربح من منتوج السوق ، أو من خلال العملية الانتاجية داخل المشروع . بيد أنه أثناء سعى البرجوازية لتحقيق مصالحها فانها تعمل على بناء المصانع الأكبر ، ومن ثم استخدام العمال الأكثر ، بالاضافة الى أنها قد تعمل على اعطاء العمال أجورا أقل فأقل من أجل رفع مستوى أرباحهم (٢٣٣) . غير ان هذا التصرف العقلانى للفاعل البرجوازى وان كان عقلانيا على مستوى الطبقة البرجوازية إلا أنه ليس كذلك على مستوى البناء الطبقى ككل ، لأنه أثناء هذه العملية نجد البرجوازى بجمعه للعمال مع بعضهم البعض وتخفيض أجورهم ، بالاضافة الى الشروط القهرية الأخرى ، يوفر الشروط الموضوعية لتخلقهم كطبقة أولا . ومن ثم يوفر لهم الادراك الموضوعى للشروط أو الظروف القهرية التى يعملون فى ظلها ، ومن ثم يصبح وعى البرجوازية وعيا موضوعيا على مستوى الطبقة ولا وعيا على المستوى النظامى الشامل ، لأن البرجوازية بسلوكها الذى تتصوره واعيا يؤدى الى تخليق نفيها ، وهو مايشير الى فاعلية الحتمية الجدلية ، حيث انه اذا كانت البرجوازية قد ظهرت أولا كطبقة تعمل لذاتها ، فانها من خلال سعيها لمصلحتها قد ترتكب ممارسات غير رشيدة يكون من نتاجها اكساب البروليتاريا وعيها وسعيها لمصالحها التى تتحقق اذا هى قد توجهت نحو القضاء على البرجوازية ذاتها .

وتشكل مجموعة الظروف الذاتية العامل الثانى لتحقق الوعى الطبقى . اذ يؤكد ماركس ان العوامل الذاتية تلعب دورا فى تشكل الوعى الذاتى للبروليتاريا ، الذى يعنى ادراكها لعلاقاتها بوسائل الانتاج (٢٣٤) ، واكتشافها الضغوط القهرية التى تفرضها البرجوازية لذاتها فى اطار جهود ذات متتاليات عديدة لصالح الموقف البروليتارى ، وأيضا عن طريق تطويرها لقيم بروليتارية تشكل أساسا لوعيها الموضوعى وليس الوعى الزائف . ويستمر هذا التصاعد فى امتلاك درجات من الوعى حتى ينتهى ذلك باستخدام الوسائل العقلانية لأعمال القيم .

الثورية البروليتارية التى تتضمن تأسيس سلطة داخلية واستخدام القوة فى الصراع ضد سلطة البرجوازية السابقة . ويتميز اكتشاف البروليتاريا لمصالحها بمروره عبر ثلاث مراحل أساسية ، حيث تسعى البروليتاريا خلال المرحلة الأولى لتحقيق مصالحها كأفراد لا كأعضاء فى طبقة ، بحيث تدرك هذه المصالح ذاتيا على أنها أغراض وأهداف يريدها البشر الواقعيون ويعبرون عنها من خلال توجيه جهودهم لتحقيقها ، وعادة ماتسود هذه المرحلة خلال فترة وجود الطبقة فى ذاتها وليس لذاتها . أما المرحلة الثانية فيمكن ان نسميها مرحلة إدراك المصالح بالنظر فى التعبير عن مصالحهم كأفراد أو مصالح جماعات غير طبقية ، وحتى مصالح الجماعات المستغلة لهم ، على سبيل المثال - كما يذهب ماركس - الموقف الذى دعم فيه الفلاحون نابليون أو حينما تدعم البروليتاريا موقف الحزب السياسى البرجوازى : حتى هذا المستوى فانهم يعبرون عن مصالح تشير الى فشلهم فى ادراك موقفهم الحقيقى ، وأيضا فى التعرف على مصالحهم الحقيقية أو الجوهرية . فى اطار هذه المرحلة نجد ان السلوك البروليتارى يرتكز على مايمكن أن نسميه بالوعى أو الفهم الزائف لموقفهم الطبقى الحقيقى فى بناء المجتمع ، وهم حتى هذه اللحظة لايتصرفون كطبقة - بالمفهوم الشامل للطبقة - ولايكونون قد شكلوا بعد طبقة لذاتها . وفى المرحلة الثالثة تبدأ الطبقة فى ادراك حدود موقعها الطبقى ، وتعرف ان هناك أسلوبا وحيدا لتصرف فى اطار هذا الموقف ، وبشكل سريع أو متأخر سوف يندفع شاغلوا المواقف الطبقية بواسطة الظروف الاجتماعية المتنامية ، بالاضافة الى ظروف الصراع السياسى لطبقتهم نحو التعرف على المصالح الواضحة . ويؤكد ماركس انه اذا تمكنت الطبقة - كأعضاء - من الادراك فان الموقف الطبقى يصبح كامل التحديد بصورة موضوعية (٢٣٥) . ويذهب الى أنه اذا لم يتم اكتمال تنظيم البروليتاريا لذاتها فى شكل طبقة واذا لم يتخذ الصراع بين البروليتاريا والبرجوازية الطابع السياسى ، فان المنظرين الذين ابتدعوا الأنساق النظرية لاشباع حاجات الطبقات المقهورة يصبحون مجرد يوتوبيين (٢٣٦) . ويؤكد ماركس ان الطبقة تصبح طبقة فقط حينما يدفعها صراعها مع الطبقة المضادة نحو النشاط السياسى . عند هذه المرحلة فقط يكون باستطاعتها تحديد مصالحها الحقيقية والدفاع عنها . ثم يؤكد انه بمجرد التحديد الواضح للبناء الموضوعى للعلاقات خلال عملية الصراع الطبقى ، وحينما ينمو الموقف الطبقى حتى يتخذ شكله المثالى ، حيث تستقطب الطبقات ، وحينما يستفحل بؤس البروليتاريا ، حينئذ فان معظمهم قد يدرك بشكل عقلانى وواعى - كادراك العالم - حقيقة مصالحهم الجوهرية . عند هذه المرحلة سوف تتصرف الطبقة لصالحها ، ومن ثم سوف تطور نظرية عن المجتمع والتغير (٢٣٧) .

أما المجموعة الثالثة من العوامل التى تساعد فى تحقيق ادراك الطبقة لموقفها بوعى موضوعى ، فهى يمكن ان نسميها بالعوامل الوسيطة ، حيث تؤدى دورها فى انضاج التفاعل الناتج عن العوامل الأساسية – ذاتية أو موضوعية – بحيث تحقق النتائج المترتبة على تفاعلها . ويعتبر تقسيم العمل الاجتماعى أول عوامل هذه المجموعة حيث يؤدى تأسسه الى خلق بعض الظروف القهرية المحيطة بالعامل البروليتارى ، منها اختزال ملكاته الى ملكة واحدة ، ومن ثم يفرض عليه ان يحيا وجودا جزئيا . هذا بالاضافة الى أن تقسيم العمل يفرض على الأنا ( البروليتارى ) مجرد كونه منتجا للسلع التى تشبع حاجات الآخر ( البرجوازى ) ، وينتج عن تقسيم العمل فى أقصى حالات نضجه بناء طبقيا يحتوى على طبقتين أساسيتين . الأولى البرجوازية التى يتأكد نموها ورفاهيتها على أساس عمق استغلالها للبروليتاريا وقهرها للحياة وفق أقسى ظروف ممكنة ، بحيث يكون ناتج تقسيم العمل هو جعل كل طبقة تدرك مكانتها الطبقية فى البناء الاجتماعى وعلاقتها بالطبقات الأخرى ، وأهدافها التى ينبغى عليها انجازها سواء تلك المفروضة عليها أو تلك التى تدرك ان انجازها يكون لصالح وجودها الحى كطبقة . ويعتبر عامل المواصلات وتيسير سبل الاتصال بين مختلف أعضاء الطبقة البروليتارية العامل الثانى فى اطار مجموعة العوامل الوسيطة هذه ، وقد قلنا فيما سبق ان البرجوازية فى سعيها من أجل الربح تقوم بتجميع العمال أكثر وأكثر فى مصانع أكبر فأكبر ، بحيث ييسر لهم هذا الوضع الاتصال مع بعضهم البعض ، ومن ثم وجود مايمكن ان يسمى بعلاقات الوجه للوجه ، وهو مايساعد على تطور التضامن ودعمه داخل الطبقة البروليتارية ، هذا بالاضافة الى ان تعدد وسائل الاتصال التى تخلقها الصناعة الكبرى ، أو التى تيسر اتصال العمال فى مختلف الجهات والمناطق ببعضهم البعض ، بحيث يؤدى هذا الاتصال الى تحويل الصراعات المحلية المتعددة ذات الطبيعة المماثلة فى كل مكان الى صراع طبقى واحد يسود المجتمع بأسره ، ومن ثم يصبح الصراع الطبقى صراعا سياسيا (٢٣٨) . ويشكل الصراع الطبقى العامل الثالث ضمن مجموعة العوامل المساعدة فى تخلق وعى الطبقة وخاصة طبقة البروليتاريا . ويخلع ماركس على عملية الصراع طابعا سياسيا . وهو يؤكد ان مجرد حدوث الصراع يعتبر دلالة رئيسية على استيضاح كل طبقة لموقفها وطبيعة أهدافها ومصالحها ، بحيث يقود ذلك الى حدوث صدام بسبب المصالح المتضادة للطبقات . وفى بادئ الأمر يقود الصدام عمال منعزلون ثم يتطور حتى يتكاتف عمال معمل واحد ثم ينظم الى الصراع عمال الفرع الصناعى الواحد فى محلة واحدة ضد البرجوازى الذى يستخدمهم . ولايكتفى العمال بتوجيه ضرباتهم الى

علاقات الانتاج البرجوازية وانما الى أدوات الانتاج – التى كانت تشكل شرطا موقفيا يقهرهم – فيتلفون الآلات ويحرقون البضائع والمصانع ، وذلك من أجل استعادة الوضع الذى ساد ابان القرون الوسطى حيث كان العامل يتمتع بالقوة وامكان الاستقلال (٢٣٩) .

يعنى ذلك ان تحقق الوعى فى المشروع الماركسى يتمثل فى ادراك البروليتاريا لمصالحها ، ومن ثم الثورة على النسق البرجوازى وتحطمه ، وليس التكيف معه على ماتذهب الوضعية . وانه اذا كانت عقلانية البرجوازية تسعى الى تحديد الأسلوب الرشيد لتراكم رأس المال وسرعة دورته ، فان قصورها عن ادراك متتاليات فعلها العقلانى المحدود يقودها الى تخليق نقيضها – البروليتاريا الواعية – الذى يشكل نقيضا أو نفيا لها . وتكمن عظمة المشروع الماركسى فى دقة التوازنات بين المقولات النظرية والتفاعلات التى تجردها هذه المقولات . يتضح ذلك ان عقلانية البرجوازية وسعيها الى تراكم الربح يقودها الى تخليق بروليتاريا نافية لها . بيد أنه حينما تتأسس البروليتاريا ، فان ذكاءها العقلانى يفرض عليها ان تسعى لحقيق أهداف مجتمعية وليست طبقية وإلا خلقت نفيها كما فعلت البرجوازية سابقا . وتكمن عظمة المشروع الماركسى للعمل الطبقى حينما تشهد حركة التاريخ المتنامية توازيا للسلوك الواعى بين البرجوازية والبرولتياريا . فقبل التاريخ – قبل الثورة البرولتيا ريا – تحقق وعى البرجوازية على حساب الوعى الزائف للبروليتاريا ، أما بعده حيث تاريخ الانسان الحقيقى ، فان الوعى الموضوعى للبروليتاريا ، تأسس على حساب الوعى الزائف للبرجوازية ، حيث تصبح المصالح النسقية وليست الطبقية هى المقياس الحقيقى لوعى السلوك الانسانى .

### خامسا : النشاط الانسانى والتعبير عن الحتمية الاجتماعية

ترتبط مقولة الارادية والحتمية فيما يتلعق بالسلوك الاجتماعى بمختلف العناصر الأخرى لنظرية الماركسية ، بيد اننا منذ البداية نرى ضرورة الاشارة الى حقيقتين بارزتين فى هذا الصدد . أولاهما ، ان السلوك أو العمل الانسانى فى أساسه ارادى لدى كارل ماركس ، ومن ثم فاللاارادية لديه حالة استثنائية فرضتها ظروف طارئة على التطور التاريخى . أما الثانية فتتمثل فى ان حالة اللاارادية ترتبط عادة بالمرحلة التى تختزل فى اطارها الطبيعة البشرية ومن ثم فتحقق اكتمال هذه الطبيعة يعنى العودة ثانية الى السلوك الارادى .

وينبثق اهتمام ماركس بمسألة ارادية السلوك أو العمل البشرى من خلال اهتمامه بالأسلوب الذى تقهر به البناءات المجتمعية المتباينة وبخاصة الأنساق الرأسمالية ، البشر ، وتفرض عليهم ان يتصرفوا بأساليب يختلف فيها كل منها عن الآخر ان لم يتناقض معه (٢٤٠)،

ذلك لأن هذا الوضع يعتبر دخيلا على الطبيعة البشرية . فى اطار ذلك نجد ان ماركس لديه تصورا عن الطبيعة البشرية فى أساسها ، حيث يؤكد ان هذه الطبيعة قد مرت بمرحلتين ، حيث كانت هذه الطبيعة فى اطار المرحلة الأولى ذات خاصية روحية اتصالية تهدف الى تحقيق ذاتها ، ومن ثم فقد كانت ذات طابع تعاونى أساسا . ويؤكد ماركس ان هذه الطبيعة سادت المرحلة البدائية الأولى . أما الطبيعة الثانية فهى التى سادت المجتمع الأسمالى المنقسم الى طبقات ، حيث الطبيعة البشرية تحكمها آليات البناء الاجتماعي ، ومن ثم تعبر الطبيعة الانسانية فى هذه المرحلة عن طبيعة مغتربة عن ذاتها (٢٤١) ، وتتميز هذه الطبيعة بالطابع الصراعى . وينسجم مع تصور هذه الطبيعة تأسس نمطين للسلوك الانسانى ، الأول هو الذى يسود المرحلة البدائية أو المشاعية حيث التعبير الجوهرى عن حقيقة الطبيعة الانسانية بلا فرض لسيطرة أو تسلط . أما النمط الثانى فيتمثل فى السلوك الذى ينتمى لجهود الانسان المغترب حيث قهرت طبيعته الأساسية (٢٤٢) . فى اطار ذلك فانه اذا كان السلوك أو النشاط البشرى فى اطار الطبيعة اراديا فانه أصبح لا اراديا فى ظل الثانية ، حيث يأتى الانسان نشاطا له أصله فى الحتمية النسقية أو يستحيل الى قوة مضادة له وتستعبده (٢٤٣) .

ويذهب ماركس الى أن السلوك أو النشاط الانسانى من حيث طبيعته الأساسية قد مر بأربع مراحل أساسية . كان له طبيعته المتميزة فى اطار كل منها . ففى اطار المرحلة الأولى وهى المرحلة السابقة على المرحلة البدائية أو هى تشكل بدايتها ، حيث لم يكن البشر سوى كائنات عضوية فيزيقية ذات حاجات فيزيقية أساس . وككل الكائنات الفيزيقية ، فانه كان على البشر لكى يحافظوا على حياتهم ان يدخلوا فى علاقات مباشرة مع الطبيعة متفاعلين معها . فى هذه المرحلة كان هدف السلوك البشرى كالحيوان يتمثل فى دعم الحياة والحفاظ عليها ، بيد أنه أثناء هذه المرحلة تمكن البشر من انتاج بدايات الحياة الاجتماعية ، فأثناء انتاج البشر لوسائل اعاشتهم ، كانو ينتجون بطريقة غير مباشرة حياتهم المادية الواقعية . ذلك ان البشر فى تعاملهم مع الطبيعة اختلفوا عن الحيوانات فى أنهم لم يأخذوا من الطبيعة فقط مايحتاجونه للحفاظ على حياتهم ، وانما عملوا الى جوار ذلك على انتاج وسائل اعشاتهم . ومن ثم فالى جانب ماوجدوه متوافرا فى الطبيعة من وسائل ، فانهم عدلوه بجهودهم ، بحيث أدى ذلك فى النهاية الى تضاؤل اعتمادهم على الطبيعة . بذلك لم يكن جهد البشر مجرد تكيف والطبيعة بقدر ماكان جهدا واعيا وهادفا لتغيير الظروف الطبيعية . ومن خلال ابتكارهم للوسائل أو تعديلهم فيها تمكن البشر من خلق العالم فوق العضوى للانسان a super organic ، الذى يتكون من

مصنوعاته ، وبذلك لم يعد الانسان مجرد حيوان عامل ، ولكنه انسان خلاق يعيش ويؤدى سلوكه فى اطار عالمين ، العالم الصناعى ، artifical world والعالم الطبيعى (٢٤٤) . وهو مايعنى اتفاق الماركسية فى هذا الصدد مع التفاعلية الرمزية التى تعزوا دورا بناء وفعالا للكائنات البشرية (٢٤٥) فى صياغة عالمها . بحيث تؤدى الموافقة على ذلك الى رفض تراث كامل لدى علماء الاجتماع تجاهلوا فى اطره كلية الجوانب المثمرة والخلاقة للنشاط البشرى (٢٤٦) . ويمكننا القول انه تصديقا مع الماركسية فان الانسان فى سلوكه لم يكن خاضعا للحتمية الاجتماعية لأن الأخيرة لم تكن قد تخلقت بعد ، ومن ثم فقد كان فعله اراديا عند هذا المستوى ، ماعدا الخضوع لقدر بسيط من سيطرة الحتمية البيلوجية والطبيعية حيث كان فعله محكوما أما بواسطة الظروف الطبيعية الخارجية أو أشباع الحاجات الأساسية الكائنة فى بنائه الدافعى .

وتشكل المرحلة البدائية المرحلة الثانية فى هذا التدرج وهى المرحلة التى غاب عنها التخصص أو تقسيم العمل ، ومن ثم لم يكن المجتمع الطبقى قد ظهر بعد . فى هذه المرحلة نظرا لامتلاك الانسان لامكاناته المبدعة . فانه كان بامكانه التعبير عن حياته فى شكل موضوعات حقيقية محسوسة ، ومن ثم فالى جانب كون الانسان طبيعيا هادفا فانه أصبح فى ذات الوقت – عن طريق عمله – موضوعا وطبيعة خارج ذاته ، أو ان ذات الانسان أصبحت موضوعا وطبيعة (٢٤٧) . معنى ذلك ان الانسان فى هذه المرحلة تولى خلق العالم المادى الذى يعكسه ، بيد أنه الى جانب ذلك تولى خلق الثقافة والبناء الفوقى لكى ينظم علاقاته بالطبيعة والآخرين من البشر . وأصبح السلوك الانسانى فى هذه المرحلة ليس إلا تعبيرا عن الجوانب المتعددة للطبيعة البشرية ، وأصبح الموضوع الاجتماعى تعبيرا عن الذات الانسانية وامتدادا لها (٢٤٨) ، تصنعه بشكل ارادى أو تتعاون فى صناعته مع الآخرين من البشر . ومن هنا نستطيع أن نؤكد ان العمل فى هذه المرحلة اتسم بالطابع الارادى ، فهو قد تخلص من الحتمية البيلوجية والطبيعية الى حد كبير ، ولم يكن قد وقع بعد تحت طائلة الحتمية الاجتماعية التى لم يكن قد اكتمل تخليقها بعد..

ثم تأتى المرحلة الثالثة حيث نشأة المجتمع الطبقى الذى تضمن نماذج عديدة آخرها النظام الرأسمالى . وتصل هذه المرحلة الى قمة نضجها حينما يتأسس العمل فى المجتمع الصناعى ويتحول العامل البروليتارى من كلية منتجة الى جزئية فى اطار وظيفة جزئية (٢٤٩) . وبذلك تختفى استقلالية العامل ، فبعد ان كان مستقلا يعكس ذاته على الحياة الاجتماعية من

خلال مايصنعه تحول الى مجرد تابع فى عملية انتاجية لايتحكم فيها وانما يخضع لمتطلباتها ، وافتقد سلوكه بذلك طابعه الارادى . وتسود هذه المرحلة السلوك أو النشاط اللارادى ، حيث تتحكم فى حركة المجتمع مجموعة من القوانين الأساسية التى تؤدى فاعليتها مستقلة تماما عن الارادة والوعى البشرى (٢٥٠) . بل اننا نجد ان الأفعال والتجديدات البشرية وان بدت ظاهريا من عمل الارادة البشرية ، إلا أنها فى حقيقة الأمر تخضع لحتمية مجموعتين من القوانين . المجموعة الأولى تتمثل فى اقوانين المتصلة بنمو العالم الخارجى ، أما المجموعة الثانية فتتصل بقوانين الفكر البشرى . وذلك يعنى انه بينما يؤسس البشر التغيرات الاجتماعية فانها لكى تصبح فعالة ينبغى ان تتلاءم مع القوانين الكامنة والتى تؤدى فاعليتها بغض الظر عن الارادة أو القصد ، أو حتى وعى الكائنات البشرية (٢٥١) .

فى اطار هذه الفترة نجد ان البشر فى الموقف الرأسمالى ينجزون أعمالا لاتعبر عن طبيعتهم الأساسية ، ومن ثم فتأسيسهم لهذه الأعمال لايشير الى اراديتهم ، وقصدهم وانما الى قهر الحتمية النسقية لهم . فالنشاط على مايذهب ماركس لايصبح اراديا ، وانما هو يصبح نشاطا منقسما على ذاته ، ويصبح ناتج عمل الانسان قوة مغتربة عنه ومضادة له تستعبده بدلا من ان يسيطر عليها ، ويصبح لكل انسان نشاطه المحدد المفروض عليه والذى لايمكنه الخروج عنه (٢٥٢) . بل اننا اذا تفحصنا طبيعة النشاط البرجوازى سوف نجد انه يصدر عن حالة من اللارادية أيضا . فالنسق يخلق لكل فرد موقعه الذى عليه ان يؤدى دوره من خلاله ، ومن ثم فالاستغلال بالنسبة لماركس لاتلام عليه أنانية أو عدم وعى المستخدم الرأسمالى ، حيث ان هذا المستخدم مفروض عليه ان يؤدى سلوكه على النحو المطلوب منه خلال الموقف الطبقى الموضوع فيه وإلا عرض نفسه للموت من خلال الصراع التنافسى (٢٥٣) . وبالمثل فاننا نجد ان العامل البروليتارى يخلق بعمله عالما قويا مضادا له . فهو وان كان يضع ذاته فى الموضوع الذى يصنعه ، فان ذاته لم تعد تنتمى اليه وانما الى الموضوع الذى صنعه ، ومن ثم فكلما جسد ذاته فى عمله انتفت ذاته ، ومن ثم فالحياة التى يخلعها على الشئ المصنوع تواجهه كموضوع معادى له ومغترب عنه (٢٥٤) . واذا كان العمل الذى يأتيه العامل هو تأكيد لذاته فان العامل أثناء عمله لايؤكد ذاته وانما ينكرها ، لايطور طاقاته العقلية أو الفيزيقية ولكه يقتل جسمه ويحطم عقله . ويشعر العامل بذاته حينما يكون خارج عمله ونشاطه ، وفى عمله يشعر انه خارج ذاته . فهو يكون على سجيته عندما لايكون فى عمله ، وحينئذ لايكون عمله اراديا ، ولكنه

قهريا ، فهو مجبر على فعل ذلك ، ويصبح العمل ليس لاشباع حاجاته ، وانما وسيلة لاشباع حاجات خارجه عنه (٢٥٥) .

بيد ان التطور الحتمى للنظام الرأسمالى يقود الى نفى هذه الحالة اللارادية القاهرة للانسان - بروليتاريا كان أم برجوازيا - واذا كانت القوانين الحتمية هى التى تتولى تأسيس الانهيار الحتمى للنظام الرأسمالى . فان الارادة البشرية يمكن ان تستعيد فاعليتها لكى تصبح عاملا مساعدا خلال هذه المرحلة . اذ يؤكد جون ماكليش ان الفرد ينبغى ان يكون متضمنا فى عملية تغيير الواقع ، وان المغير أو المبتكر الاجتماعى يمكن ان ينجح بدرجة أفضل اذا هو اختار بوعى موقعا طبقيا ووجهة نظر ملتزمة ، وعلى هذا الأساس فقط فانه يبدأ فى ادراك علاقات القوى الاجتماعية ، ويكون قادرا على التنبؤ بالحركة الانبثاقية لقوى وعلاقات الانتاج فى فترة تاريخية معينة (٢٥٦) . وفى هذا الصدد تستعيد البروليتاريا - من خلال الثورة البروليتارية - اراديتها فى النشاط أو العمل ثانية ، بحيث يتحقق ذلك بالنظر الى أربعة عوامل أساسية . أول هذه العوامل ان حركة البروليتاريا لاستعادة ذاتها على خلاف حركة الأقليات ، هى حركة تقوم بها الأكثيرة الساحقة فى سبيل مصلحة الأكثرية الساحقة أيضا (٢٥٧) . ومن ثم فان ذلك يعنى ان غالبية البشر فى النسق الرأسمالى دفعتهم ظروف لأن يقفوا فى جانب الثورة ورفض الوضع القائم الذى يعنى قهرا لهذه الأغلبية . أما العامل الثانى فيتحقق ببروز عنصر الوعى حينما تتصادم المصالح الطبقية . فى اطار ذلك يصبح الفاعل البروليتارى مدفوعا - بشكل حتمى - نحو ادراك الارتباطات بين مناشط الطبقة التى يغاديها فى المصنع أو الدولة أو الدين . ومن خلال فهمه الطبقى الكامل فان مصالح العامل البروليتارى تقترب من ادراكها بوعى موضوعى خالص . حيث يدرك انه من أجل ان يحصل على حريته ، ومن أجل سيطرته الكاملة على مصالحه ، فانه يجد انه لم يعد مجديا ان يطلب أجورا أعلى ، ولكن عليه ان يبذل جهودا ينتظم من خلالها مع رفاقه الذين يشغلون نفس الموقف الطبقى . ومن ثم يكون عليه ان يدخل فى مرحلة الصراع الطبقى ويصبح الصراع الطبقى صريحا لايخطئه أى شخص (٢٥٨) . ثم يأتى العامل الثالث حيث تتكاتف الارادات لتحقيق التغير المنشود من وراء الصراع الطبقى . وتصر الماركسية على ان المجتمع فى هذا الصدد يتكون من البشر الواعين الذين يعلمون بارادة وعاطفة نحو تحقيق أهداف محددة . ومن ثم لايصبح التغير الاجتماعى نتاجا لقوى لا شخصية عمياء ، وانما هو نتيجة لتقابل ارادات وأفعال بشرية لاحصر لها . اذ لايحدث شئ بدون غرض

واع ، وبدون هدف انسانى منشود . غير انه ينبغى ان يكون واضحا انه ليست هناك ارادة بشرية بعينها تتحكم فى قوى الأحداث ، وانما الارادة العامة التى تعتبر قرارا متوسطا قد لايرغبه فرد بعينه (٢٥٩) .

فاذا تخلق الموقف الصراعى الذى تدرك من خلاله الأطراف مصالحها ، فانه يستتبع ذلك تحرك الارادة العامة الواعية للبروليتاريا بفعل ارادى تحطم من خلاله أسلوب التملك الخاص بالطبقة البرجوازية وتؤسس دكتاتورية البروليتاريا ، ويبدأ الانسان فى استعادة ارادته كمقدمة لتأسيس المجتمع الشيوعى . وبتأسيس المجتمع الشيوعى تبدأ المرحلة الرابعة حيث يستعيد النشاط الانسانى ارادته . ورغم غياب تصور كامل متماسك لطبيعة المجتمع الشيوعى من خلال الكتابات الماركسية عنه ، إلا أن المتوافر من هذه الكتابات يصبح كافيا لإلقاء الضوء على طبيعة السلوك فى هذه المرحلة . حيث يؤكد ماركس فى اطار ذلك على حتمية اختفاء الطبقات وتقسيم العمل المرتبط بها فى هذا المجتمع ، اذ تعجز العمليات الميكانيكية والكيميائية عن توفير الانتاج الزراعى والصناعى بالمستويات المطلوبة لاشباع الحاجات ، ومن ثم يكون التركيز على تطوير قدرات البشر المستفيدون من هذه العمليات . ومثلما غير الفلاحون والحرفيون أسلوب حياتهم فى القرن الماضى ، ومن ثم أصبحوا بشرا مختلفين تماما حينما فرضت عليهم حياتهم فى اطار الصناعة الكبيرة . وبنفس الأسلوب ، فان السيطرة المشاعية على الانتاج بواسطة المجتمع ككل ، بالاضافة الى ان التطور الجديد سوف يتطلب مادة بشرية جديدة . لذا فان البشر لن يعودوا كما هم اليوم خاضعين لفرع انتاجى واحد ، مرتبطين به ومستغلين بواسطته ، ومن ثم يطورون احدى ملكاتهم على حساب الملكات الأخرى . وانما سوف تكون الصناعة محكومة بواسطة المجتمع ككل وتعمل وفق خطة تفترض الوجود السعيد للكائنات البشرية ، وتعمل على تنمية قدراتهم بأسلوب مماثل ، لكى يكونوا قادرين على رؤية النظام الصناعى بكامل كليته .

ويؤكد ماركس أن تقسيم العمل الذى يصنع من هذا فلاحا أو آخر طارقا للنحاس وثالثا عاملا فى مصنع ورابعا حارس مخزن ، سوف يختفى من المجتمع الشيوعى . سوف يتعلم الصغار ان يكونوا على ألفة بكل نظام الانتاج ، ومن ثم يعبرون من فرع انتاجى الى فرع آخر استجابة لحاجات المجتمع وميولهم الشخصية . سوف يتحررون من الطبيعة الأحادية التى يتميز بها تقسيم العمل اليومى ، والذى لها قهرها على كل انسان . سوف يجعل المجتمع الشيوعى من الممكن لأعضائه أن يطوروا قدراتهم ، سوف لايكون هناك مجال محدد لأى فرد وانما ينجز

كل فرد فى اطار المكان الذى يرغب فيه . سف ينظم المجتمع الانتاج العام ومن ثم يجعل من الممكن لى أن أقوم بعمل ما اليوم وآخر فى الغد ، أن أعمل بالصيد فى الصباح وان اصطاد السمك بعد الظهيرة ، ان أرعى الماشية فى المساء وان أنقد الشعر بعد العشاء ، حيث أنه بدون عقلى لن أصبح صيادا أو صائد سمك ماهرا ، أو راعى ماشية أو ناقدا للشعر (٢٦٠) . ذلك يعنى عودة دائرية جديدة ولكنها واعية الآن الى المرحلة البدائية حيث يتحكم الانسان اراديا ، فى عمله وصناعة واقعه الذى يعكس ذاته من خلال العمل الشامل ، والذى يتيح أعمال كل قدرات الانسان دون اختزاله الى قدرة واحدة .

## سادسا : الثورة البروليتارية ، ونفى النظام الرأسمالى

تعتبر واقعة الثورة البروليتارية واقعة فاصلة فى المشروع الماركسى . ففيها يتحقق المنهج الجدلى ، حينما تشكل الثورة الاطار الذى يتم فى نطاقه التآلف ، وفيها أيضا يكتمل الواقع العينى ، حيث يتحقق الامكان الذى كان مسلوبا فى اطار واقع زائف . ثم هى بعد ذلك الهدف الذى تتحرك نحوه تكوينات ماقبل التاريخ ، لكى يبدأ بها التاريخ الحقيقى للانسان . ورغم ان الثورة فعل أو ممارسة ، فانها فى المشروع الماركسى تشكل الواقعة التى تنتهى اليها كافة التحليلات العلمية ، وتتبدى خصوصية أهميتها فى اطار هذا المشروع بالنظر الى مسألتين . أولاهما أن ماركس يرفض التصور الوضعى لوظيفة العلم الذى يقنع بدراسة الواقع كما هو بهدف الكشف عن اطراداته والقوانين التى تحكم تفاعله ، بينما هو يعتبر الفكر الجدلى اطارا عقلانيا لفضح النظام البرجوازى ومنظرية المحترفين . فالى جانب أهمية الحالة الراهنة نجده يسلم فى ذات الوقت بامكانية نفيها ، ومن ثم انهيارها الحتمى . اذ ينظر الفكر الماركسى الى كل شكل اجتماعى نشأ أو تطور تاريخيا على أنه حركة منسابة Fluid ، ومن ثم فهو يعطى اعتبارا لطبيعته الانتقالية التى لاتقل بحال من الأحوال عن وجوده العابر ، لأن هذا الفكر فى جوهره نقدى وثورى أيضا (٢٦١) . أما المسألة الثانية فتتعلق بموقف النظرية الماركسية من الواقع ، من حيث حقائقه وتفاعلاته . ولاشك ان ماذهب اليه هيجل قد شكل أساسا واضحا بالنسبة لوجهة النظر الماركسية فى هذا الصدد . اذ رأى هيجل ان ماهو حقيقى يتأسس من خلال تجاوز ماهو سلبى ، ومن ثم يتطلب ماهو حقيقى انتفاء حالة الأشياء كما هى عليه الآن (٢٦٢) . استنادا الى ذلك يؤكد ماركس ان ماهو كائن ينبغى أن يخضع دائما للنقد والتحدى ، وذلك للكشف عن الامكانات الكامنة بداخله ، فليس باستطاعة الانسان أن يستوعب

النظام الكائن ، بغض النظر عن تحرير امكاناته اذا لم يواجهه بشكل نقدى حتى يتمكن من تجاوزه نهائيا . ذلك لأن المعطيات الواقعية ليست ذات طابع ايجابى بطبيعتها ، والنظام الواقعى ليس مقدسا الى الدرجة التى تحرم المساس به . وعلى لعكس من ذلك ، مادام النظام القائم يفرض شروط وجود لا أنسانية على البشر ، ومادامو أقل مما ينبغى أن يكونوا عليه ، فان البشر الحق فى تغيير هذا النظام (٢٦٣) . ويعنى ذلك ان ماركس يرفض الحقائق كما تتبدى لنا الآن ، أو كما تظهر لنا بشكل مباشر أو غير مباشر من خلال مقولات صورية (٢٦٤) .

وفى أعقاب توضيح محورية الثورة البروليتارية فى اطار المشروع الماركسى ، نحاول توضيح الظروف البنائية التى تمهد لقيام الثورة ، ثم قيامها وتأسيس دكتاتورية البروليتاريا ، والمجتمع الشيوعى الذى سوف يتلو ذلك . ولتوضيح الظروف البنائية الممهدة للثورة نرى استعراضها فى اطار ثلاثة أنماط من التفاعل . ويتمثل النمط الأول فى طبيعة العمليات البنائية التى أدت الى انهيار النسق الرأسمالى ، ومن ثم الممهدة للثورة . أما النمط الثانى فيتمثل فى العوامل المتعلقة بعناصر الموقف الرأسمالى ، والانهيار الذى قد ينتاب هذه العناصر ، أما النمط الثالث فيتعلق بطبيعة العملية الثورية ذاتها ، من حيث عملياتها المرحلية والتفاعل الذى يميز كل مرحلة .

ويتحدد النمط الأول للتفاعل من خلال أربع عمليات بنائية يؤدى وقوعها الى انهيار النسق الرأسمالى ، ومن ثم فهى تمهد للثورة البروليتارية . هذه العمليات هى الاغتراب ، تناقص الربح أو فائض القيمة ، الافقار البروليتارى والمركزية والتركز على الصعيد الرأسمالى . وفيما يتعلق بعملية الاغتراب أوضحنا انها عملية تجعل كل مكونات الموقف الرأسمالى تعمل على نفى ذاتها . وقلنا أنه اذا كان التعاون هو أصل التفاعل الاجتماعى كما تحقق فى المشاعية البدائية ، فان ارتكاز التاريخ الطبقى على الصراع يعنى ان ثمة اغترابا ونفيا لهذه الحالة الأصلية قد حدث . واذا كان الانسان فى أساسه كليا متكاملا يمتلك قدرات وامكانات كلية كما هى الحال فى المشاعية البدائية فانه الآن ينقسم على ذاته حيث البرجوازية فى ناحية والبروليتاريا فى ناحية أخرى . بل اننا نجد ان كلا من البرجوازية والبروليتايا قد اشتركتا فى نوع من التفاعل الذى يعمل من خلاله كل منهما على نفى الآخر ، وعلى نفى ذاته فى نفس الوقت . ونتاجا لذلك تخلق لدينا موقف اجتماعى مغترب العناصر ، أو مغترب من حيث طبيعة التفاعل التذى تسوده ، بحيث تتجه دينامياته نحو نفيه ، وهو ماعرضنا له باسهاب فى معالجة

قضية الاغتراب . مايعنينا فى هذا الصدد ان حالة الاغتراب هذه تنتشر فى مختلف مجالات البناء الرأسمالى فتشكل نفيا كامنا فى اطاره ، أو بدءا حاضرا لثورة مستقبلية .

أما العملية الثانية فتتمثل فى تناقص الربح أو العائد الذى يعتبر أساسا للتراكم الرأسمالى . فى أطار ذلك يؤكد ماركس أن البحث عن الربح يعتبر مسألة جوهرية بالنسبة لنظام الرأسمالى ، حيث يكمن هدف رأس المال ليس فى اشباع حاجات معينة ، ولكن فى انتاج الربح (٢٦٥) . غير أنه بعد بلوغ الاقتصاد الرأسمالى الى مرحلة معينة فاننا نجد أن لديه ميلا بنائيا موروثا نحو تناقص الربح ، ويعبر عنها ماركس ( بقانون الميل المتناقص لمعدل الربح ) . ويكمن اسهام ماركس الحقيقى فى توضيح هذه النظرية من خلال تحليله للتركيب العضوى لرأس المال ، ثم علاقة الأخير بفائض القيمة . حيث يعتمد الحجم الكلى للربح فى الاقتصاد الرأسمالى على فائض القيمة المتخلفة فى اطاره . حيث تحدد نسبة رأس الـمال الثابت constant الى رأس المال الجارى فى الاقتصاد ككل فى المتوسط معدل الربح المتاح . فى هذا الاطار نجد ان معدل الربح يقف على تناسب عكسى والتركيب العضوى لرأس المال . ولما كانت الرأسمالية تستند أساسا الى البحث عن الربح من خلال المنافسة . فان التحسينات التكنولوجية التى تتضمن زيادة ميكنة الانتاج تعتبر سلاحا هاما فى المعركة من أجل البقاء فى اطار السوق . حيث يستطيع صاحب العمل أن يضاعف من نصيبه فى الربح المتيسر من خلال الانتاج بثمن أرخص من قدرة منافسيه ، غير أن نجاحه فى الحصول على ارباح متزايدة يقود الرأسماليين الأخرين الى أن يسلكوا نفس السبيل بان يستحدثوا تحسينات فنيه جديدة ومن ثم يؤسسون توازنا مرحليا جديدا داخل موقف المنافسة الرأسمالى . ويعنى ذلك انه يصبح مفروضا على كل رأسمالى ان ينفق نسبة عالية من رأسماله على رأس المال الثابت أكثر من قبل . وتكون النتيجة الحتمية لذلك هى ارتفاع التركيب العضوى لرأس المال ومن ثم التناقص فى معدل الربح (٢٦٦) . بيد أن هذا التناقص فى معدل الربح قد يتم تجاوزه بفعل عدة عوامل مثل ان يصاحب الزيادة فى الانفاق على رأس المال الثابت زيادة فى انتاجية العمل ، ومن ثم يقلل الى حد كبير قيمة الوحدة النسبية لرأس المال الثابت . وذلك يعنى الابقاء على معدل الربح ثابتا أو حتى يرفعه . أما بالنظر الى رأس المال الكلى ، فان قيمة رأس المال الثابت لاتزيد بنفس حجمه المادى (٢٦٧) بالاضافة الى ذلك هناك أسلوب آخر لايقاف معدل الربح المتناقص عن طريق تغذية الانتاج بمادة خام رخيصة تستجلب من المستعمرات ، وهو مايؤدى الى رفع هذا المعدل . هذا

بالاضافة الى تعميق استغلال العمال أما عن طريق زيادة وقت يوم العمل ، أو بتخفيض الأجور عن قيمتها ، أو الاستخدام المكثف للآلية القائمة ، عن طريق الاسراع فى أعمالها أو دورتها ، أو الاستفادة منها على مدى ٢٤ ساعة فى اليوم عن طريق نظام الدوريات . ويؤكد كارل ماركس أن النسق الرأسمالى يعانى من أزمات كثيرة كهذه بشكل دورى ، وذلك نظرا لطبيعة التناقضات الكامنة فى داخله . ثم يذهب الى أنه مادام رفع معدل الربح هو الدافع الفعال وراء آليات هذا النظام . فان أى وضع قد يشير الى عدم التوازن بين حجم السلع المنتجة من ناحية وامكان بيعها بمتوسط معدل ربح ملائم قد يشكل أزمة بالنسبة للنسق الرأسمالى . وبالنظر الى ذلك يعتبر النظام الرأسمالى أول نظام اقتصادى فى التاريخ البشرى يجعل من الممكن تحقيق حجم كبير من الانتاج الزائد عن الحاجة . ومن ثم فاذا لم يحدث تصريف مماثل لهذا الانتاج فان العائد قد يقل ومن ثم يميل معدل الربح الى التناقص ثانية (٢٦٨) . وتبدأ الازمة حينما يحدث توسيع فى الانتاج الى مافوق السوق على الاستيعاب . وذلك لهدف تحقيق معدل ملائم من الربح . ذلك أنه بمجرد أن تحدث زيادة كبيرة فى الانتاج فى أحد الأقسام الانتاجية للنظام الاقتصادى فانها تدفع الى الدوران درة كاملة من ردود الفعل . وبمجرد أن يهبط معدل الربح ، تتضاءل الاستثمارات . ويستغنى صاحب العمل عن قدر كبير من قوة العمل ، ومن ثم تقل القوة الشرائية المستهلكة ، بحيث يؤدى ذلك الى هبوط آخر فى معدل الربح وهكذا ، يستمر الدوران حتى تتزايد البطالة ، وتخفض أجور من هم فى العمل ، وذلك حتى تتخلق الظروف لمعدل ملائم من فائض القيمة ، بحيث يعتبر ذلك اذا تحقق دافعا جديدا الى الاستثمار . وعادة مايحدث خلال أزمة النظام الرأسمالى أن تنهار المشروعات الأقل كفاءة ومن ثم تخرج من مجال المنافسة . بينما تلك التى صمدت لها نصيبها فى السوق ، وتكون أمامها الفرصة لكى تبدأ فترة جديدة من التوسع (٢٦٩) . ويحدث نتيجة لهذه الأزمات المتتالية أن تتجه آليات النظام الاقتصادى الى تركز أكثر لرأس المال بهدف الدعم المؤقت للنسق الرأسمالى . فى اطار هذه العملية يصبح رأس المال هو العائق الحقيقى أمام الانتاج الرأسمالى . ومن ثم يتضح أنه فى اطار النظام الاقتصادى الرأسمالى فان رأس المال وضرورة توسيعه وتراكمه يشكل نقطة البداية والنهاية أيضا ، حيث هو الدافع الى الانتاج وهو غرضه كذلك . ومن ثم فالانتاج فى اطار هذا النظام هو انتاج من أجل رأس المال وليس العكس ، ووسائل الانتاج ماهى إلا وسائل للتوسع الدائم لعملية حياة مجتمع المنتجين (٢٧٠) .

وتعتبر عملية الأفقار Pauperisation العملية البنائية الثالثة فى اطار عملية الانهيار البنائى التى تمهد لقيام الثورة . ويعرض ماركس لهذه العملية من خلال ادراكه ان التحلل النهائى للرأسمالية يتخذ شكل أزمة هائلة لايستطيع النظام الفكاك منها . ويؤكد ماركس ان مناخ الأزمات هذا يؤدى دورا هاما فى تقوية الوعى الثورى ، لأنها توضح بشكل درامى الموقف الطبقى المشترك للبروليتاريا . أما فيما يتعلق بعلاقة البروليتاريا بأزمات النسق الرأسمالى فى هذه المرحلة ، فأننا نجد أن ماركس يؤكد أنه من النادر ان تسود الاقتصاد الرأسمالى حالة من العمالة الكاملة ، حيث توجد مجموعة دائمة من العاطلين ، يسميهم جيش الاحتياط الصناعى ، وهو الجيش الضرورى بالنسبة للرأسمالية . حيث نجده يوضح فى أكثر من موضع أن من الخواص الأساسية للرأسمالية ان قوة العمل ذاتها تصبح سلعة . غير انها وان كانت سلعة إلا أنها تختلف عن السلع الأخرى . فاذا ارتفع ثمن السلعة من النوع العادى فان رأس المال سوف يميل الى الاتجاه نحو انتاج هذه السلعة ، ومن ثم سوف ينزل بالثمن حتى قيمة السلعة . بيد أنه ليس هناك شخص يستطيع أن ينتج عملا أكثر اذا ارتفع ثمنه ، أى أجره . استجابة لذلك يقدم ماركس مفهوم جيش الاحتياط الصناعى كما يحلو له أن يسميه أحيانا ويقصد به ( الفائض السكانى النسبى ) ، ويؤدى جيش الاحتياط الصناعى ، بكل رتبه التى يمثلها العمال الفائضون بسبب الميكنة ، دوره كضاغط دائم على الأجور . وبذلك فانه فى فترات الرخاء ، وحينما تتزايد الحاجة الى العمال يصبح جزءا من جيش الاحتياط مستوعبا فى قوة العمل ، ومن ثم يهبط بالأجور الى مستوياتها الدنيا . بينما فى أوقات أخرى ، تصبح هذه العمالة مصدرا أساسيا للعمل الرخيص الذى يعوق أى محاولة من قبل الطبقة العاملة لتحسين أوضاعها . بذلك يعتبر جيش الاحتياط الصناعى ( كلية lever التراكم الرأسمالى ) ويعتبر شرطا لوجود أسلوب الانتاج الرأسمالى (٢٧١) . ويكشف تحليل وضع جيش احتياطى العمالة الفائضة عن اتصاله بمناقشة ماركس للفقر الفيزيقى الذى يفرض على شريحة كبيرة من الطبقة العاملة من قبل النظام الرأسمالى التى عليها ان توجد فى اطاره . ووفقا لنظريته العامة فى فائض القيمة نجد ان ماركس يتحدث عن الاستغلال المتزايد للعامل كلما تقدمت الرأسمالية . بيد ان معدل الاستغلال ( معدل فائض القيمة ) من الممكن أن يتزايد بدون ان يتضمن بالضرورة تغيرا فى الأجور الحقيقية لغالبية الطبقةالعاملة . ويؤكد ماركس ، أثناء عرضه لنظريته العامة فى فائض القيمة التى قدمها فى كتابه رأس المال انه بينما يراكم الرأسمالى ثروته أكثر فأكثر

، فان أجور الطبقة العاملة لايمكن ان ترتفع فى ذات الوقت الى مافوق حد الكفاف (٢٧٢) . فى اطار ذلك فان زيادة الحجم النسبى لجيش الاحتياط الصناعى ، يؤدى الى توسيع الاملاق المزمن . حيث تتركز أبشع أشكال الاستغلال المادى ، اذ تتعرض الفئة التى تخضع لهذه الظروف لتراكم البؤس misery وكرب العمل Agony of labour والعبودية ، والجهل ، والوحشية brutality والانحلال الأخلاقى (٢٧٣) . من هنا نجد ان الطبيعة المتناقضة للرأسمالية تكشف عن نفسها من خلال تراكم الثروة فى ناحية ، وتراكم البؤس والفقر فى ناحية أخرى .

وتعتبر عملية التركز Concentration والمركزية Centralization العملية البنائية الرابعة التى تعمل على الانهيار الحتمى للنظام الرأسمالى . ويقصد بالتركز العملية التى ينجح من خلالها الأفراد – اذا هم راكموا رأس المال – فى زيادة كمية رأس المال التى تحت سيطرتهم – بينما تشير المركزية من ناحية أخرى الى اندماج رؤوس الأموال الموجودة ، ومن ثم حدوث تغيير فى توزيع رأس المال الموجود فعلا . وتقود كل من هاتين العمليتين الى تأسيس وحدات انتاجية أكبر وأكبر . اذ تفرض الطبيعة التنافسية للرأسمالية على المنتجين ان يناضلوا من أجل تخفيض أثمان سلعهم عن السلع المناظرة للمنافسين لهم . وبذلك فان الرأسماليين الذين يسيطرون على التنظيمات الأكبر يتمتعون بميزات عديدة على صغار المنتجين . ومن ثم يتاح لهم الانتصار عليهم . وكلما كانت المصادر التى تحت سيطرة الشخص الرأسمالى أكبر ، كان قادرا على الانتاج بكفاءة ، مادام سوف يتبع أسلوب الانتاج الواسع ومن ثم يستطيع أن يتحمل الصدمات التى قد تنتج عن تقلبات السوق . وكقاعدة عامة ، فانه فى اطار هذا النمط من التفاعل ، تميل الوحدات الأكبر على أبعاد الوحدات الصغيرة عن سوق العمل ، ومن ثم تستوعب رأسمالها .

ويرافق تركز المشروعات الانتاجية ، مركزية رأس المال ، حيث ينشأ نظام البنوك الذى يعنى جمع المال من المدخرين ، ومنحه للمستلفين . بحيث تتحول هذه العملية بكاملها الى ميكانيزم اجتماعى هائل يشير الى مركزية رأس المال (٢٧٤) . وتعنى هذه العملية ضمنيا ألغاء توزيع رأس المال الخاص فى أيدى الرأسماليين الأفراد . ومن هنا فهذا النظام يلغى الطابع الخاص لرأس المال ، ويقضى على طابعه الخاص . وعن طريق اجراءات وأشكال التداول الأخرى غير المال فان هذا النظام يبرز حقيقة أن النقود ليست أكثر من تعبير عن الطابع الاجتماعى للعمل ومنتجاته . غير انه مادام نظام التسليف Credit System يعتبر فى حد ذاته

مشروعا رأسماليا ، يهدف هو الآخر الى الربح الخاص المستند ال فوائد الديون ، فانه سوف يلعب دورا كمحرك قوى أثناء الانتقال من أسلوب الانتاج الرأسمالى الى أسلوب العمل المترابط associated labour فى الانتاج (٢٧٥) .

وكنتيجة لعملية تركز المشروعات الصناعية وتعمقها ، ومركزية رأس المال تنشأ شركات المحاصة Joint-stock company ، حيث يمثل تطور هذا النمط من الشركات التطور النهائى للانتاج الرأسمالى ، حيث تشهد هذه المرحلة الانفصال بين الرأسمالى صاحب المشروع ، وبين المشروع كتنظيم منتج ، وهو مايعنى ألغاء أسلوب الانتاج الرأسمالى داخل أسلوب الانتاج الرأسمالى ذاته (٢٧٦) . ويوضح الانفصال بين ملاك رأس المال من ناحية والمديرين من ناحية أخرى هامشية أو عدم ضرورية الجماعة الأولى التى لم تعد تؤدى الآن دورا مباشرا فى عملية الانتاج ، ومن ثم تبرز حقيقة ان عددا قليلا من الأفراد من خلال ملكيتهم لرأس المال يحصلون على قدر كبير من الثورة المنتجة . غير أنه حتى هذه المرحلة تعتبر شركات المحاصة مجرد مرحلة فى اطار النظام الرأسمالى . وفضلاً عن ذلك فان نمو الشركات الكبيرة من هذا النوع يؤدى الى السيطرة الاحتكارية فى اطار اقسام معينة من الصناعة ، خالقة بذلك أنواعا عديدة من علاقات الاستغلال الجديدة (٢٧٧) .

ومعنى ذلك ان كل هذه العمليات تجعل من النسق الرأسمالى نسقا غير مستقل يحتوى على عديد من المتناقضات الناتجه أساسا عن طابعه الاستغلالى الطبقى ، ومن العلاقة غير المتناسقة بين رأس المال والعمل المأجور . ومن ثم فان تشغيل أسلوب الانتاج الرأسمالى سوف يدفع حتما النسق نحو التحلل أو الانهيار وهنا نجد ان كارل ماركس يتحدث ثانية عن نفى النظام الرأسمالى ، أو الميل التاريخى نحو ألغاء أسلوب الانتاج الرأسمالى ، حتى يتحقق الانهيار الكامل للنظام الرأسمالى ، وتبدأ الاشتراكية من جديد . بل انه على العكس من ذلك ، نجد ان الميل الانبثاقى لحركة النسق الرأسمالى تولد الظروف الاجتماعية التى تساعد على تجاوزه .

ويتعلق النمط الثانى من التفاعل الذى يؤدى الى انهيار النظام الرأسمالى بالبشر الذدين يشكلون العناصر الرئيسية المكونة لنظام الرأسمالى . وتمثل الطبقة البرجوازية أول هذه العناصر ، فبالنظر الى كونها عنصرا فى النظام يتحول المال لديها الى هدف تسلك من أجله كل الوسائل بداية من حرمان ذاتها ونهاية باستغلال البروليتاريا بهدف تحقيق أكبر فائض

ممكن للقيمة . فى اطار ذلك نجد ان البرجوازية تدخل فى صراع ناف لذاتها على جبهات عديدة . أولها الصراع داخل البرجوازية ذاتها ، والذى يكون من نتاجه تدهور فئات البرجوازية الصغيرة ذات الرساميل الصغيرة نتيجة لمنافسة البرجوازيين الكبار لهم ، أو نتيجة لتخلف وسائلها الانتاجية ، ومن ثم تنحدر الى البروليتاريا ، حيث تتولى الأخيرة تجنيد أفرادها من بين كل الطبقات (٢٧٨) . أما الصراع الثانى الذى تقوده البرجوازية فهو ضد البروليتاريا ، وبذلك نجد ان البرجوازية تخلق بروليتاريا كبيرة أثناء سعيها الدؤوب لتحقيق أكبر فائض قيمة ممكن . وتحت وطأة القهر الذى تفرضه على البروليتاريا ، أما فى اطار ظروف العمل ، أو من خلال الأجر المنخفض فانها تخلق الظروف لنمو البروليتاريا كوحدة طبقية ، ومن ثم إتجاهها نحو الصراع السياسى كمدخل للتغلب على ظروف قهرها الذى لن يكون سوى القضاء على النظام البرجوازى ذاته (٢٧٩) ، بالاضافة الى ذلك فان عجز البرجوازية عن السيطرة على الموقف ، لكونها قد أصبحت عاجزة عن تأمين حد أدنى من مستوى المعيشة الملائم للبروليتاريا ، فإنها تدفع الأخيرة الى الهبوط تحت وطأة ظروف أكثر إنحطاطا . كل ذلك يجعل وجود البرجوازية منذ الآن فصاعدا غير متلائم ووجود المجتمع (٢٨٠) . هذا بالاضافة الى الهامشية التى بدأت البرجوازية تعيشها بالنظر الى عملية الانتاج والتى بدأت تفتضح بحكم آليات التركيز والمركزية الرأسمالية .

وتمثل البروليتاريا عامل الانهيار الثانى – فى اطار نمط التفاعل الثانى – المؤدى الى انهيار النظام الرأسمالى . ووفقا لما أشرنا فان سعى البرجوازية الى تحقيق الربح يجعلها تعمل على تجميع أكبر عدد ممكن من العمال فى مكان عمل واحد ، وبذلك فهى تخلق منهم شريحة متماثلة من حيث ظروفها الاجتماعية والانتاجية . غير أنه حتى هذه اللحظة لاتشكل البروليتاريا أى امكانية ثورية ، هذه الامكانية التى تتخلق بالنظر الى عاملين . أولها نمو وسائل الاتصال بين أفراد وجماعات البروليتاريا (٢٨١) ، بما يساعد على تكثيف وجود البروليتاريا واثراء تفاعلاتها وتوجهها نحو أهداف عامة وليست خاصة . أما العامل الثانى فيتمثل فى خضوعها لظروف متماثلة تقريبا ، بالاضافة الى زيادة حدّة قهر الظروف لها بما يعوق انتاجيتها ويختزل جوانب أساسية من انسانيتها . وفى محاولة للتخلص من ظروف القهر المفروضة عليها كنضالها لرفع الأجور التى تصر البرجوازية على خفضها ، بالاضافة الى مطالباتها الملحة بتحسين ظروف العمل ، فان هذه النضالات الفرعية تحول البروليتاريا من طبقة فى ذاتها الى طبقة لذاتها ،

حيث تدخل مرحلة الصراع السياسي ، الذى تمارسه مستندة الى القوة والصراع الصريح ، ومن ثم محاولتها توسيع قدرتها على تشكيل الموقف وامتلاك مركز القوة ، وبالتالي القضاء بالقوة على الطبقات المضادة (٢٨٢) . وذلك بهدف الغاء ظروف الافقار والاغتراب التى تعيش فى ظلها ، وأيضا بهدف اعادة التنظيم الاجتماعى الذى يهدف بالأساس الى الغاء مختلف التناقضات داخل النظام القائم .

ويحتوى نمط التفاعل الثالث على مجموعة العوامل التى تعبر نتاجا للتفاعل بين البشر داخل النظام الرأسمالي ، وأيضا لفاعلية العمليات البنائية ذات الوطأة على التفاعل فى الموقف الاجتماعى . بحيث يتشكل من كل ذلك تفاعل له مراحله المتدرجة التى تبدأ من مختلف التناقضات التى قد تتأسس وتنتهى بقيام الثورة البروليتارية كعملية أساسية من عمليات اعادة التنظيم . ويبدأ هذا التفاعل بتقسيم العمل الذى يختزل العامل فى اطاره ، حيث يؤسس هذا التنظيم عددا من الاغترابات التى لها وطأتها على كل من البرجوازية ، والبروليتاريا على السواء ، بحيث يصبح المخرج الوحيد لتجاوز هذه الاغترابات هو تغيير النسق الاجتماعى (٢٨٣) . وهو التجاوز الذى يفرض ضرورته عاملان ، الأول انه بينما دفعت علاقات الانتاج فى بداية النظام الرأسمالي الى نمو القوى العاملة فانها أصبحت فى المرحلة الأخيرة تعوق نموها . من هنا كانت ضرورة الاطاحة بها بهدف تحقيق النمو الموضوعى لقوى الانتاج ، وهو مايبرز اتجاه البروليتاريا نحو اطلاق امكانياتها الموجودة والمحتملة فى التفاعل الاجتماعى من خلال العمل الثورى (٢٨٤) . أما العامل الثانى فيتمثل فى ان تقسيم العمل عادة ماتعمل آلياته على اخضاع العامل لسيطرة العملية الانتاجية ، بحيث تتأسس فى اطار ذلك معادلة لا انسانية تؤدى الى أنه كلما افتقد العامل ملكاته الانسانية الخلاقة ومن ثم اختزالها كان ذلك أكثر اسهاما فى نمو التنظيم الانتاجي ، ومن هنا نجد ان مفهوم الاغتراب يتضمن معنى التشويه الانسانى Dehumanization المتنامى فى ظل ظروف المجتمع الصناعى الرأسمالي (٢٨٥) .

يلى ذلك فاعلية عملية الافقار البروليتارى من ناحية والتركز والمركزية الرأسمالية من ناحية أخرى ، حيث تتولى العملية الثانية تصفية الشريحة البرجوازية الى أقلية صغيرة للغاية ، بينما تهبط ببقية الشريحة البرجوازية الى مستوى الأغلبية البروليتارية ، وهنا نجد ان هذه العملية تخلق وضعا غير متوازن لبناء القوة ، حيث أقلية مالكة فى مواجهة أغلبية محدودة ، بل اننا نجد ان هذه الأقلية البرجوازية تتضح هامشيتها وتتكشف طفيليتها من خلال عملية المركزية

الرأسمالية ، حيث تؤدى نشأة نظام البنوك والشركات المحاصة الى افتقادها التدريجى لوسائل القوة والسيطرة الاجتماعية . على الجانب الآخر نجد عملية الافقار البروليتارى التى تعمل من جانبها على تعميق ظروف البؤس الذى تعيشه البروليتاريا ، وهى تسهم بشكل جانبى فى خلخلة النسق الرأسمالى عن طريق تخفيض القدرة الشرائية لهذه الطبقة . ولما كانت عملية الافقار تعنى ظروفا انسانية سيئة ولا انسانية ، فان مجموعة من العمليات الفرعية قد تعمق من فعالية الافقار . كالاتصال بين جماعات البروليتاريا ، واكتسابها الهوية الطبقية ، وادراكها الواعى لأهدافها الحقيقية .

وفى مواجهة ذلك يقدم ماركس الاجابة الثورية لكل هذه العملات كآخر مرحلة من مراحل التفاعل الرأسمالى . حيث يؤكد أنه حيثما لايمكن الغاء العمل كلية - لكونه العملية التى ينتج بواسطتها الانسان أساسيات حياته - فانه يمكن محو الاستغلال والعمل المغترب والقهر كلية من الخبرة الانسانية . حيث يجد العمال أنفسهم - وهم أكثر من يعانون من هذه الظروف - فى لحظة يستولون على رأس المال والقوة من يد القاهرين لهم . ويتحقق ذلك حينما يتكشف وعى البروليتاريا ، ومن ثم تنتظم صفوفها وتعى حركتها ، وتقدم على عمل ارادى واضح تحطم من خلاله كل متضمنات النظام الرأسمالى ، من حيث ابنيته التحتية أو الفوقية ، وعملياته الأساسية ، وبذلك تصدق الصرخة الماركسية ( ياعمال العالم أتحدوا .. ) فليس البروليتاريا ماتفقده - فى النظام البرجوازى - سوى قيودها وأغلالها ، لكى تربح من بعد ذلك عالما بأسره (٢٨٦) . ذلك يعنى ان الالغاء الحتمى للطبقات والصراع الطبقى سوف يصل بالبشر الى حالة يؤدى فيها النمو الحر لكل ارادة على حدة الى النمو الحر للجميع (٢٨٧) .

وتكمن عبقرية التحليل الماركسى حينما يخضع التفاعل الاجتماعى بين مكونات الموقف الرأسمالى أو فيما يتعلق بالعمليات البنائية الأساسية لقوانين حتمية تتجاوز الارادة والاختيار الفردى . فى اطار ذلك لم يهتم ماركس إلا بمسألة واحدة وأساسية ، هى ان يوضح بالبحث الاجتماعى الدقيق حتمية انتظام الشروط الاجتماعية المتتابعة ، أعنى ضرورة ان يسلم كل نظام حالى الى نظام آخر يليه بشكل حتمى ، بحيث يحدث ذات الأمر دائما ، سواء اعتقد البشر أو لم يعتقدوا فى ذلك ، سواء كانوا على وعى أو عدم وعى به . ومن ثم ينظر ماركس الى الحركة الاجتماعية كاحدى عمليات التاريخ التى تحكمها قوانين ليست مستقلة عن الارادة والوعى والذكاء البشرى فقط ، ولكنها تفرض أيضا حتميتها على الارادة والذكاء والوعى البشرى (٢٨٨)

## سابعا : المجتمع الشيوعى واستعادة الكمال الانسانى

لم يطرح كارل ماركس تصورا متكامل الملامح للمجتمع الشيوعى فى كتاباته الأساسية ، وهو المجتمع الذى سوف يتخلق عن الثورة البروليتارية . ومن ثم فان محاولة تشخيص هذا المجتمع من حيث نظامه الاجتماعى ، أو من حيث طبيعة الموقف الاجتماعى فى اطاره ، أو طبيعة السلوك أو النشاط الاجتماعى كتعبير عن التفاعل بين مكونات الموقف ، انما تشتق أساسا عن أفكاره فيما يتعلق النظام الرأسمالى . بيد أن الأفكار الأساسية المتعلقة بالمجتمع الاشتراكى يمكن استنتاجها من خلال دراستين أساسيتين له بهذا الصدد . الأولى هى مخطوطات عام ١٨٤٤ 1844 Manuscripts أما الثانية فهى نقده لبرنامج جوته Critique of the Gotha program . وبرغم وضوح اصطلاحية الثانى وواقعيتها إلا أن الأفكار الأساسية التى وردت بأى منهما متماثلة الى حد كبير . والحق ان ماركس فى تأسيسه للمرحلة الأولى من الاشتراكية لم يطرح ماهو جديد ، بقدر اظهاره ماكان كامنا فى قلب المجتمع البرجوازى ، حيث طورت الأفكار الرئيسية الى امتداداتها الطبيعة .

ففيما يتعلق برأس المال مثلا ، سواء فى شكل وسائل للانتاج ، ومن ثم كشرط له ضبطه للموقف الرأسمالى ، أوكان هدفا للنشاط فى اطار هذا النظام ، حيث يعمل الانسان على تأسيس تراكمه ونموه . فان اشتراكية وسائل الانتاج تكون كامنة فى اطار النظام الرأسمالى فى شكل المركزية المتنامية للسوق والتى تكتمل بوضع نهاية للثورة الخاصة . فى هذه المرحلة تصبح الثروة مملوكة جماعيا ، حيث توزع الأجور وفقا لمبدأ ثابت ويتم حجز نصيب من اجمالى الناتج الكلى لتغطية احتياجات ادارة الانتاج ، وبناء المدارس ، والرفاهية الصحية ، وما الى ذلك (٢٨٩) ، بذلك يتحول رأس المال من شرط حاكم للموقف قاهر لأغلبية فاعلية ، الى اكتسابه الطابع الاجتماعى وتحوله الى مجرد وسيلة لتحقيق غاية أساسية هى رفاهية الانسان وكماله (٢٩٠) .

وتشكل الفوراق النوعية بين البشر فى الموقف الجبهة الثانية التى سوف تتجه نحوها الثورة الاشتراكية ، فى اطر ذلك سوف تحخافظ على تناول العمل من خلال قيمته التبادلية . بيد أنه بدلا من أن ذلك كان قاصرا على طبقة البروليتاريا ، أصبح شاملا الآن ، حيث مازال ينظر الى البشر حتى لايتم الغاؤه فى هذه المرحلة ، بل تمديده لكى يشمل كل البشر ، وتظل العلاقة بالثروة الخاصة ، علاقة للمجتمع بعالم الموضوعات (٢٩١) . ويعنى ذلك ان حرمان

البرجوازى من رأسماله الخاص يعنى تحويله الى بروليتارى ، بحيث نجد نتيجة لذلك انسانا واحدا فى الموقف الاجتماعى ، يعمل لتحقيق ثروة عامة وليست خاصة . بالاضافة الى ذلك يتم الغاء الفوارق النوعية حيث العودة الى المشاعية الأولى ، لتقوم المرأة مثلا بدور غير الذى تقوم به من حيث كونها بسيطة للانتاج (٢٩٢) . بل ان ذلك قد يمتد الى الغاء الفواصل الوطنية والقومية بين مجتمع وآخر ، ذلك لأن نضال البروليتاريا ينبغى أن يكون نضالا بين أفكار متمدينة . فى اطار ذلك يؤكد ماركس أنه بالقضاء على استعمار أمة لأخرى ، وحينما يزول تناحر الطبقات فى قلب كل أمة يزول فى الوقت نفسه العداء والحقد بين الأمم (٢٩٣) .

أما العنصر الثالث فى الموقف الذى تتجه البروليتاريا نحو الغائه فيتمثل فى بناء القوة بطابعه الرأسمالى ، الذى يتضمن الدولة كوسيلة للقمع والسيطرة والأيديولوجيا كوسيلة لنشر الوعى الزائف . بالنظر الى ذلك نجد ان ماركس من خلال نقده لبرنامج جوته يهاجم أسلوب تناول هيجل للدولة مؤكدا ضرورة تحرير أساس الدولة . فى اطار ذلك يؤكد ماركس ان هدف الحركة العمالية فيما يتعلق بالدولة ليس تحرير المجتمع من الدولة ولكن على العكس تحويل الدولة من حيث كونها عضوا مفروضا على المجتمع الى عضو خاضع تماما للمجتمع (٢٩٤) . ورغم ان ذلك سوف يتحقق تلقائيا من خلال العملية الأساسية التى سوف تعنى نفى النظام الرأسمالى ذاته . فان دكتاتورية البروليتاريا سوف تشكل هذه المرحلة الانتقالية ، وسوف تعمل على تركيز القوة السياسية الموجودة ، والتى كانت موجودة فى اطار المجتمع البرجوازى ولكن بشكل منتشر . وذلك ييسر تنفيذ برنامج مركزية الانتاج والتوزيع المحدد قبلا . حيث أنه سوف تستخدم البروليتايا سطوتها السياسية لكى تنتزع تدريجيا كل رأس المال من يد البرجوازية ، ثم تعمل على تركيز كل أدوات الانتاج فى يد الدولة ، أعنى يد البروليتاريا التى تنتظم كطبقة حاكمة ، ومن ثم تعمل على زيادة القوى المنتجة بسرعة بقدر الامكان (٢٩٥) . أما فيما يتعلق بالأيديولوجيا كعنصر ثان فى بناء القوة فان جهد البروليتاريا سوف يتجه نحو الغائها بطابعها البرجوازى ، إذ انه من الضرورى الغاء قيم الدين والثقافة والفلسفة التى تنتمى الى حقب تاريخية سابقة (٢٩٦) . ومن ثم تفقد قوتها كشرط له وطأته فى الموقف الرأسمالى ، من حيث فرضها لنوع من الوعى الزائف على البروليتاريا كطبقة ولصالح البرجوازية كطبقة مضادة .

أما العنصر الرابع الذى تتجه نحو الغائه البروليتاريا فى اطار المرحلة الاشتراكية الأولى ، فتيمثل فى تقسيم العمل الاجتماعى . ففى المرحلة الانتقالية ، نجد ان المجتمع الذى

حل محل الشكل البرجوازى للمجتمع هو بالفعل مجتمع لاطبقى ، مادام قد تم القضاء على الثروة الخاصة ، غير ان سطوة السلع المادية على الحياة البشرية ككل ، ومن ثم تجاوز الاغتراب، يمكن ان يتحقق فقط عن طريق الغاء تقسيم العمل بشكله الكائن عليه فى اطار المجتمع البرجوازى . ويؤكد ماركس ان مجتمع المستقبل سوف يستبدل عامل اليوم بواسطة الانسان الكامل النمو والذى يستطيع القيام بعدة أعمال (٢٩٧) . وسوف يعنى ذلك تجاوز كافة الثنائيات التى تشكلت نتاج التباين والتناقض الذى تأسس كنتيجة لتقسيم العمل فى المجتمع البرجوازى ، كالتباين بين المدينة والريف وبين العمل اليدوى والعمل العقلى . وكنتيجة لذلك سوف لايصبح البشر بعد خاضعين لأخذ فروع الانتاج مرتبطين به أو مستغلين بواسطته . سوف لايطورون بعد أحد ملكاتهم على حساب الملكات الأخرى ، وسوف يمتلك المجتمع ككل الصناعة التى سوف تنتج بالنظر الى افتراضها وجود كائنات بشرية متعددة الملكات ، حيث ينبغى ان تنمو ملكاتهم وفقا لأسلوب متوازن ، تكون قادرة فى اطاره على ادراك نظام الانتاج فى كليته . وبالنظر الى ذلك سوف يختفى من الوجود كلية شكل تقسيم العمل الذى يجعل من شخص فلاحا ، وآخر حدادا ، وثالث عاملا فى مصنع ، ورابع حارسا . سوف يساعد التعليم الصغار على ان يتكيفوا ونظام الانتاج الذى ينتقلون فى اطاره من فرع لآخر استجابة لحاجات المجتمع ولميولهم الذاتية . وسوف يحميهم ذلك من الطبيعة ذات الجانب الواحد تلك التى يفرضها تقسيم العمل الرأسمالى ، وبهذا الأسلوب سوف يجعل المجتمع الشيوعى من الممكن ان يعمل أعضاؤه ملكاتهم الشاملة بشكل كامل (٢٩٨) . سوف يؤدى ذلك أيضا الى تحرير العمل من فكرة التخصص التى فرضت عليه فى اطار المجتمع الرأسمالى . ومن ثم يصبح فى امكانه تأسيس وانجاز نشاط متعدد الجوانب ، فكل انسان يستطيع ان يكون منجزا فى أى تخصص يرغب فيه . حيث ينظم المجتمع الانتاج العالم الذى يجعل من الممكن ان يعمل الانسان شيئا اليوم وآخر غدا ، ان يعمل صيادا فى الصباح ويصطاد السمك بعد الظهر ، ان يرعى الماشية فى المساء ، ويمارس النقد بعد العشاء (٢٩٩) . بذلك ينتهى اغتراب الانسان واختزاله ، ومن ثم العودة الى مشاعية انسانية عاقلة يصبح فيها تطور الجزء هو الأساس لتطور الكل .

## ثامنا : النظرية الماركسية فى مواجهة متغيرات جديدة

الذى لاشك فيه ان النظرية الماركسية شكلت تحديا أساسيا لنظرية الغربية ، بحيث أثرت

على ملامح تطورها التاريخى اللاحق . من هنا وجدنا ان معظم رواد النظرية السوسيولوجية منذ ظهور الماركسية فصاعدا يتناولون ذات القضايا التى أثارها ماركس ، إلا أنهم وإن بدأوا بداية واحدة هى مواجهة النظر الماركسية إلا أنهم يتباينون فيما بينهم من حيث تأسيساتهم النظرية فيما يتعلق بالقضايا موضع الحوار والمناقشة (٣٠٠) . غير انه رغم التحدى الذى فرضته الماركسية على النظرية الغربية فانها واجهت معضلتين : الأولى تتمثل فى عجزها لفترة طويلة عن تأسيس مجموعة من المقولات النظرية التى تعد امتدادا لمقولاتها الأساسية ، بحيث ظل التنظير فى ظل الماركسية مجرد ترديد لمقولاتها ، دون محاولة الاقتراب منها ، وهدد ذلك بأن تكتسب مقولات التغير الثورة متضمنات أيديولوجية محافظة . وظل الأمر على هذا النحو حتى ظهرت قوى اليسار الجديد والاتجاهات النقدية ، فقدمت بعض التطورات النظرية غير انها ظلت عاجزة عن تقديم الرؤية الكلية الشاملة فى طابعها العلمى والأيديولوجى كما فعلت الماركسية ، أو قدمتها ولكن على أرض ليست ماركسية . أما الثانية فتتمثل فى عجز قدرتها على التنبؤ بحركتها المستقبلية ويرجع ذلك لنوعين من العوامل والأسباب . النوع الأول يتعلق ببناء التنظير الماركسى كنموذج نظرى ، ويتعلق الثانى بمجموعة المتغيرات الواقعية التى طرأت على الواقع فدفعته الى السير فى اتجاهات خالفت التنبؤات الماركسية الى حد كبير .

وفيما يتعلق بعوامل المجموعة الأولى من المتغيرات ، نجد ان أول هذه العوامل يتمثل فى ان النظرية الماركسية قد جردت عن النظام الرأسمالى فى مرحلة نشأته حيث تفاعلاته لم تكن قد استقرت بعد . ومن ثم فملامحه البنائية لم تكن قد استقرت بعد ، واتخذت شكلها الواضح والمحدد . فنحن نعرف ان الماركسية هى النسق النظرى الذى شكل رد فعل نقدى للواقع الذى فجرته الثورة الصناعية (٣٠١) ، ومن ثم فنحن وإن كنا نسلم بالطابع النقدى للماركسية ، إلا أننا قد نختلف مع استمرار ادعاء راديكاليتها بينما هى قد تخلفت كثيرا عن الواقع الذى أصبح أكثر شمولا منها . أما العامل الثانى فى اطار المجموعة الأولى فيتمثل فى أنه بينما ركزت الماركسية فى دراسة النظام الرأسمالى على الجانب المهنى للبناء الاجتماعى كمدخل لفهم البناء الطبقى . إلا أنها لم تحاول تحديد طبيعة توزيع الأدوار المهنية أما داخل البناء الطبقى بكامله أو داخل الشريحة الطبقية ، ثم طبيعة العلاقات الوظيفية المتبادلة بين هذه الأدوار ، والمراكز المهنية . فبدلا من ذلك وجدنا تركيزا متعمقا على النسق الرأسمالى كمشروع يسعى نحو الربح (٣٠٢) ، سواء عن طريق المنافسة والمضاربة فى السوق أو عن طريق فائض القيمة أو من

خلال تخفيض أجور قوى العمل والانتاج . من هنا فاذا كان للماركسية جوانبها موضع التركيز فى البحث والدراسة ، فانه كان من الممكن ان تكون نظرية سوسيولوجية من الدرجة الأولى اذا هى قد استوعبت هذه العناصر التى ركزت عليها كثيرا النظرية الغربية فيما بعد ذلك .

ينتقد تالكوت بارسونز ماركس أيضا من حيث تناوله البناء الاجتماعى والاقتصادى للمشروع الرأسمالى كوحدة غير قابلة للتجزئة بدلا من تحليلها الى عناصرها الأساسية المتميزة والمتضمنة . حيث ان هذا التحليل تعتبر من المسلمات الأساسية لتوفير الفهم السوسيولوجى الحديث (٣٠٣) ، غير اننا لانوافق كثيرا تالكوت بارسونز فى هذا الصدد . فليس مطلوبا من كارل ماركس – وهو الذى رفض الجوانب التجزيئية فى الوضعية – أن يمارس تحليله وفقا لخطوطها ، هذا بالاضافة الى ان أكثر التحليلات دقة والتزاما وردت فى النظرية الماركسية ، حيث تحرك ماركس بعبقرية فذة على مستويات الجدل المنهجى ، والفرضيات العينية والتفصيلات الواقعية بقدرة ليس لها نظير . هذا الى جانب التزام تحليل كارل ماركس بالكلية البنائية خوفا من الاستغراق فى الجزئيات على الطريقة الوضعية بما يهدد بافقاد الباحث الرؤية النقدية لواقعه .

بالاضافة الى ذلك ينتقد تالكوت بارسونز كارل ماركس حول بساطة رؤية الأخير للصراع الاجتماعى واختزاله على مستوى الصراع الطبقى فقط . أولا لأن الوحدة الطبقية لاتكون دائما بالوضوح الحاسم الذى طرحه ماركس . فالبرجوازية مثلا لا تشكل وحدة طبقية متماسكة وصلبة على النحو الذى ورد فى التنظير الماركسى ، حيث تنقسم واقعيا الى أقسام عديدة . فمثلا هى تنقسم الى جماعتين ، كتلك المالكة لثروة الأرض ، وتلك المالكة لثروة رأس المال ، حيث تؤكد أى من هذه الجماعات بسط سيطرتها على حساب اخضاع الأخرى (٣٠٤) . بل اننا نلاحظ داخل طبقة الفلاحين ، الفلاحين المحافظين الذين يرغبون فى دمج ملكياتهم الصغيرة ، وهناك الفلاحون الأكثر ارتباطا بالمدينة والأكثر رغبة فى القضاء على النظام القديم ، وفى تاريخ فرنسا نجد ان الأولى أيدت نابليون ، بينما عبرت الأخيرة عن مصالحها من خلال البروليتاريا المنظمة (٣٠٥) . والحق ان القول بعدم الوضوح الواقعى للخطوط الطبقية ، قول جانب بارسونز فيه الصواب كثيرا ، اذ ان معالجات ماركس للمسألة الطبقية تمت على مستوى التجريد النظرى بحثا عن تحقق المنطق الجدلى ، وفاعلية القوانين الحتمية ، ومن شأن التجريد

ان يغفل كثيرا التفاصيل الواقعية التى قد تميع رؤية الخطوط الطبقية الواضحة . أما فيما يتعلق بتبسيط ماركس للصراع الاجتماعى فنجد ان بارسونز يدعى ان النظام الرأسمالى متخم بأنواع متعددة من الصراع (٣٠٦) . غير ان هذا الادعاء مردود عليه ، لأننا قد نجد كل أنواع الصراع فى اطار النظام الرأسمالى وخاصة بداية نضجه ، لكنه فى حالة اكتماله فاننا نجد ان الصراع يستقطب أساسا حول الصراع الرئيسى وهو الصراع الطبقى الذى يدور حول مصالح متباينة لجماعات متناقضة .

أما المجموعة الثانية من العوامل فتتعلق بتلك المتغيرات الواقعية الجديدة التى طرحت تحديا على النظرية الماركسية فأفسدت كثيرا من تنبؤاتها . فى اطار ذلك نجد ان أتكنسون D.Atkinson يؤكد ان كارل ماركس قد صاغ نظريته كسياسى ملتزم ، ومن ثم فهو لم يهتم أو لم يجد الوقت لاجراء بعض التعديلات فى مقولاته النظرية بحيث أنه لو فعل ذلك لاكتشف الدلالة أو الأهمية النظرية لبعض الحقائق الامبيرقية التى نلاحظها الآن (٣٠٧) ، والتى أدت الى التقليل من صدق عدد من التنبؤات الماركسية . من هذه التنبؤات غير المتحققة أن الثورة البروليتارية لم تقع كما ذهبت الماركسية فى المجتمعات الصناعية ، اذ وقعت الثورة الروسية فى أقل المجتمعات الرأسمالية تطورا ، ووقعت الثورات الصينية والكوبية والأفريقية فى ظل ظروف ونماذج مجتمعية متباينة (٣٠٨) . بالاضافة الى ذلك نجد ان المجتمعات الصناعية المتقدمة قد تضمنت تغيرا كيفيا - عن النموذج الماركسى - فيما يتعلق بالمستقبل القريب (٣٠٩) ، حيث يتمثل التغير الكيفى الذى تضمنته المجتمعات الرأسمالية المتقدمة فى ظهور مجموعة من العناصر الجديدة داخل البناء الاجتماعى كالاتفاق العام حول أهداف قومية شاملة أو سياسية واجتماعية متفق عليها ، كذا انهيار التعددية Pluralism وانصهار جدل الأعمال والعمال فى بوتقة الدولة القومية ، بحيث أصبح ذلك شاهدا على تكامل المتناقضات حيث يعتبر ذلك مقدمة أساسية لكل إنجاز مثل اعتباره نتيجة له (٣١٠) . فى اطار ذلك لم تصبح الثورة البروليتارية هى الفعل العقلانى الوحيد لتحقيق مصالح البروليتاريا والقضاء على مفاسد النظام البرجوازى ، وانما ظهر مايمكن ان نسميه بالأسلوب أو الثورة الديموقراطية . بل ان ماركس يتفق مع ذلك حينما يؤكد انه قد تبرهن بشكل شامل ومؤكد أنه من المستحيل ان نكسب التحول الاجتماعى كما حدث فى ١٨٤٨ بواسطة هجمة بسيطة ومفاجئة فى فرنسا أو فى أى مكان آخر (٣١١) . حيث يعتبر التصويت والانتخاب العام ، والديموقراطية الاجتماعية ، أو الليبرالية طريقا جديدا للنضال البروليتارى

الفعال . أما التمرد والثورة وفقا للاسلوب البروليتارى القديم . أى أن النضال فى الشوارع من خلف المتاريس لحسم كل شئ ، قد أصبح الى حد ما أسلوبا قديما ومهجورا (٣١٢) . خلاصة القول ان هناك أسلوبين واقعيين لتحقيق الثورة البروليتارية أولهما من خلال الديموقراطية الاجتماعية ، حيث تفتح البرجوازية عن غير قصد الطريق السلمى والبرلمانى للاشتراكية الثورية، قد يحدث ذلك فى المجتمعات الأكثرتقدما كانجلترا ، وفرنسا والولايات المتحدة . أما فى المجتمعات الأخرى حيث نجد ان الدولة والنظام البرلمانى على تحالف قوى مع البرجوازية ، ومن ثم فانها على هذا النحو تخلق الوضع الذى تتعرض فى اطاره للاطاحة بها من خلال العنف الثورى .

## مراجع الباب الثانى

1. Easton, Loyd. D & Kurt H. Guddat : Writting of the Young Marx on Philosophy and Society. New York. 1967. P, 39.

2. Bottomore, T. B. : Karl Marx Early Writings. New York. 1964. P, 63.

3. Easton & Guddat : Op, Cit. pp, 214-215.

4. Alkinson, Dick : Orthodox Concensus and Radical Alternative. Astudy in Sociological Theory. Heinmann Educational Books. London. 1972. pp, 45 52 .

(٥) هربرت ماركيوز : مرجع سابق، ص ٢٠٩.

6. Easton & Guddat : Op, Cit. pp, 40 - 50)

7. Ibid. p, 43.

8. Leszek Kolakowski : Karl Marx and the Classical Difinition of Trut in L. Labedz : Revisitionism, Essays on the History of Marxist Ideas. New York. 1962. pp. 179-187.

9 Tucer, Rober, C : Philosophy and Myth in Karl Marx. Cambridge. 1965. pp, 31-69.

(١٠) هربرت ماركيوز : مرجع سابق ٢١١.

(١١) نفس المرجع : ص ص ٢٥٥-٢٥٧.

(١٢) زكريا ابراهيم : هيجل، أو المثالية المطلقة ص ١٥٧.

13. Marx, K. : Capital. Vol. 1. Moscow. foreign Languages Publishing House. 1954. p, 20.

(١٤) هربرت ماركيوز : مرجع سابق ٢٩٤.

15. Giddens. A : Capitalism and Modern social Theory, An analysis of the Writtings of Marx, Durkheim and Max Weber. Cambridge University Press. London. 1971. p. 21.

16. Ibid. p, 5.

17. T. Parsons : The Structure of Social Action. pp, 488-489.

18. Ardent, Hannah : The uman Construction. New York. Anchor Books. 1959. p, 365.

19. A. Giddens : Op, Cit. pp. 3-4.

20. Easton & Guddat : Op, Cit. p, 401.

(٢١) هربرت ماركيوز : مرجع سابق . ص ٢٦٥.

(٢٢) نفس المرجع السابق . ص ٢٦٥.

23. Easton & Gddat : Op, Cit. p. 401.

(٢٤) هربرت ماركيوز : مرجع سابق . ص ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٢٥) نفس المرجع . ص ٢٦٨.

26. Marx & Engels : The German Ideology. 1965. London. pp, 38-39.

27. Lichtheim, George : From Marx to Hegel-New York. Herder & Herder. 1971. p, 53.

28. Smart, Barry : sociology; Philosophy and Marxian Analysis. Acritical Discussion o the Theory and Practice o Social Sciences of Society. Routledge & Kegan Paul. London. 1976. p, 65.

29. Horton, Hohn : Order and Conflict Theories of Social Problems as Competing Ideologies. Amer, Jour, of Sociology. Vol. 71. May 1900.

30. T. Parsons : The Struction Rocial Action . p, 489.

31. Marx & Engels : The German ideorogy.

32. Marx. K : Pre-Capitalist Economic Formation. London. 1964. p, 95.

33. Ibid. p, 81.

34. Bottomore, T. B : Karl Marx, Early Writtings. p, 147

35. Marx & Engels : Selected Works. Moscow. 1958 Vol. 1. p, 89.

36. G. H. Sabine : Op, Cit. p, 417.

37. T. B. Bottomore : Karl Marx, Early Wrttings. pp, 137-138.

38. Ibid. pp, 120-121.

39. Ibid. p, 69.

(٤٠) هربرت ماركيوز : مرجع سبق. ص ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٤٤) نفس المرجع : ص ٢٠٨.

(٤٥) نفس المرج : ص ٢٠.

(٤٦) نفس المرجع : ص ٢٠٩.

(٤٧) نفس المرجع : ص ٢١٠.

48. Marx & Engles : The German Ideology. pp, 38-39.

(٤٩) هربرت ماركيوز : مرجع سابق. ص . ٣١٠.

(٥٠) زكريا ابراهيم : هيجل والثالية المطلقة. ص ١٢٦.

(٥١) هربرت ماركيوز : مرجع سابق. ص ٨٩.

(٥٢) نفس المرجع : ص ١٢٦.

53. Mac-Kenze, N : A Guide to Social Sciences, ed, Weidefeld and Nicolson, 1968. p, 20.

(٥٤) زكريا ابراهيم : مرجع سابق : ص ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٥٥) هربرت ماركيوز : مرجع سابق : ص ٢٦٨.

56. Marx & Engels : The German Ideology . p, 21.

(٥٧) هربرت ماركيوز : مرجع سابق. ص ٢٨٢.

(٥٨) نفس المرجع . ص ٢٨١.

(٥٩) نفس المرجع . ص ٢٧٩.

(٦٠) نفس المرجع . ص ٣٠٥.

61. Easton & Guddat : Op, Cit. p, 402.

62. Ibid. p, 401.

63. Mcleish, John : The theory of Social Change & (Four Views Considered). London. Routtedge & Kegan Paul. 1968. p, 8.

64. Ibid. p, 8.

64. Ibid. p, 9.

(٦٦) هربرت ماركيوز : مرجع سابق . ص ص ٢-٣.

67. A. Giddens : Op, Cit. p, 20.

(٦٨) هربرت ماركيوز : مرجع سابق. ص ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٦٩) نفس المرجع : ص ٣٠٦.

(٧٠) نفس المرجع : ص ٣٠٧.

71. Jordan, Z. A : The Evolution of Dialectical Materialism. London 1967. p, 89.

72. Giddens, A. : New Rules of sociological Metod. A Positine Critique of Interpratative Sociologies. Hutchinson of London. 1976. p, 100.

(٧٣) محمد على محمد : مرجع سابق . ص ص ٢٢٧ – ٢٢٨

74. A. Giddens : Capitalism and Modern Social Theory. pp. 55-59.

75. A. Giddens : New Rules o sociological Method. p, 99.

76. Bendix, R : The Image o Man in Social Sciences : Basic Assumptions of Present Day Research. in Lipest, S. M. and Smelser, N. (ed) Sociology, The Progress o A Clecade. Englewood Cliffs. Prentice - Hall. 1961. p, 89.

77. Lichtmann, Richard ; Indeterminacy in the Social Sciences. Inquary. vol. 10. 1967. pp. 371-378.

78. T. Parsons : The Structure of social Action. p, 495.

79. Ibid. p, 482.

80. Ibid. pp, 493-494.

81. Althusser., Lous : for Marx. New York. Vintage Books. 190. p, 111.

82. Kloskowska, Antonina : The Conception of Culture According to Karl Marx. The Polish Sociological Bulletin. No. 1. 1970. pp, 5015 esp. p. 7.

(٨٣) هربرت ماركيوز : مرجع سابق : ص ٢٦٤.

105. T. B. Bottomore & Other : Op, Cit. pp, 83-84.

106. T. Porsons : Essays in Sociological Theory. p, 327. and See also. K. Marx. Capital Vol. 1. p, 346.

107. T. Parsons : The Structure of Social Action. pp, 491-492.

108. paci, Enzo : The Function of the Social Sciences and the Meaning of Man. Evanston, 1972. p, 113.

109. T. B. Bottomore : Karl Marx. Early Writtings. p, 166.

110. Marx & Engels : The German Ideology. p, 31.

111. Ibid. p, 49.

112. T. B. Bottomore : Op, Cit. pp. 122-123.

113. Ibid. p, 123.

114. Ibid p, 122.

115. Ibid. p, 143.

116. Ibid. p, 179.

(١١٧) هربرت ماركيوز : مرجع سابق ، ص ص ٢٩٧-٢٩٨.

(١١٨) نفس المرجع ، ص ٢٦٧.

(١١٩) نفس المرجع ، ص ٢٧٢.

(١٢٠) نفس المرجع : ص ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(١٢١) نفس المرجع : ص ٢٧٤.

122. Marx & Engels : German Ideology. p, 61.

(١٢٣) ماركس، انجلز : البيان الشيوعي، ص ص ٢-٣٨.

124. T. B. Bottomore & M. Rubel : Op, Cit. p, 169.

125. K. Marx : Capital. pp, 320-352.

126. Ibid. pp, 324-325.

127. Ibid. p, 322.

128. Ibid p, 324.

129. Ibid. p, 336.

130. Ibid. pp, 336-339.

131. Ibid. p, 346.

132. d. Atkinson : Op, Cit. p, 42. and See also Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 104.

133. K. Marx : Capital pp, 352-353.

134. & Engels : The German Ideology. p, 18.

135. K. Marx : Wage Labor and Capital in Marx & Engels : Works. p, 83.

136. J. Mcleish : Op, Cit. p, 8.

137. Marx & Engels : German Ideology. p, 31.

138. Marx & Engels : Selected Works. p, 147.

139. K. Marx : Capital. p, 19.

140. D. Atkinson : Op, Cit. p, 34.

141. Ibid. p, 34.

142. K. Marx : Copital. Vol. 1. p, 322.

143. Marx & Engels : Selected Works. Vol. 1. p. 334.

144. A. Giddens : Op, Cit. p, 39.

145. K. Marx : Capital . vol. 1. p, 322.

(١٤٦) ماركس، انجلز : البيان الشيوعى . ص ١٣٥ .

147. a. Giddens : Op, cit. p, 39.

148. Marx & Engels : Selected Works. vol. 1. p. 334.

(١٤٩) هربرت ماركيوز : مرجع سابق . ص ٢٩٦.

(١٥٠) نفس المرجع : ص ٢٩٧.

151. Hodges, Donald : Intermediate Classes in Marxian Theory Research. Vol. 28. 1961. pp. 241-252.

152. Marx & Engels : Selected Works. Vol. 1. p. 216.

153. K. Marx : Capital, vol. 3, p, 376. and See also Marx & Engels : Selected Works.. Vol. 1. p, 140.

154. Marx & Engels : Selected Works : Vol. 1. p, 155.

155. t. B. Bottomore & M. Rubel : Op, Cit. p, 187.

156. K. Marx : Capital. Vol 3. p, 862.

157. D. Atkinson : Op, Ct. p,-44.

158. bid pp, 48-49.

159. t. Parsons : Essays n Sociological Teory p. 326.

160- Irving Zeitlin : Op, cit. p, 100.

(١٦١) هربرت ماركيوز : نفس المرجع : ص ص ٢٩٦-٢٩٧.

(١٦٢) نفس المرجع : ص ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

(١٦٣) نفس المرجع : ص ص ٢٩٨-٢٩٩.

(١٦٤) نفس المرجع : ص ٣٠٠.

165. Marx, K : Economic and Philosophical Monuscripts of 1844. Moscow. Foreign Publishing House. 1961. p, 30.

166. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 49.

167. d. Atkinson : Op, Cit. p, 49.

168. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 100.

169. K. Marx : the Copital . Vol. 1. pp, 322-326.

170. K. Marx : Economic and Philosophical Manuscripts. p, 70.

(١٧١) هربرت ماركيوز : مرجع سابق . ص ٣٠٥.

172. D. Atkinson : Op, Cit. p, 51.

173. Percy Cohen : Op, Cit. p, 76.

174. K. Marx : Capital . vol. 1. p, 19.

175. J. Mcleish : Op, cit. pp, 6-7.

176. d. Atkinson : Op, Cit. p, 46.

177. Marx & Engels : German Ideology. p, 61.

178. Marx & Engels : Selected Works. Vol. 1. p, 363.

179. Marx & Engels : Germa Ideology. p, 473.

180. A. Giddens : Capitalism and Modern social Theory. pp, 40-41.

181. D. Atkinson : Op, Cit : p, 51.

182. A. Giddens : Capitalism and Modern Social Theory. p. 40.

183. D. Atkinson : Op, Cit. p, 45.

184. Ibid. pp, 45-47.

(١٨٥) محمد على محمد : مرجع سابق : ص ص ٢٢٦-٢٢٨.

186. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 85.

187. Rosenthal, M & P. Yadin (ed) : A Dictionary of Philosphy. Moscow. 1967. p, 15.

188. A. Gdens : Capitalism and Modern Social Theory. p. 4.

189. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 85.

190. Harris, s.C. : Conceptual Analysis of Alienations. columbia University Press. 1955. p, 79.

191. J. O'Neil : Sociology as a Skin Trade. p. 112.

192. Bell, Daniel : The Rediscovery of Alienation. The Journal of Philosophy. vol. Lvi. No. 24. Nov. 195. pp, 933-952.

193. Marx : Econoic and Philosophic Manuscripts. p, 30.

194. d. Atkinson : Op, Cit. p, 36.

195. Ibid. p, 34.

(١٩٦) ماركس ، انجلز : البيان الشيوعى، ص ص ١١، ١٨.

197. d. Atkinson : Op, Cit. p, 34.

198. a. giddens : Capitalism and Modern social Theory, p. 30.

199. Ibid. p, 13.

200. Ibid. p, 12, and See also. Marx : Capital. vol. 1. p, 342. Marx : Capital . vol. 1. p, 342.

(٢٠١) هربرت ماركيوز : مرجع سابق ، ص ١٧٠ وانظ أيض

202. Marx & Engels : Early Writtings. pp, 123-124.

203. Ibid. p, 125.

(٢٠٤) هربرت ماركيوز : مرجع سابق، ص ٢٧١.

(٢٠٥) نفس المرجع ، ص ٢٧٢.

206. K. Marx : Economic and Philosophic Manuscripts. p, 119.

207. irvng Zeitlin : Op, cit. p, 104.

208. K. Marx : Capital . vol. 1. p, 338.

209. Ibid. p, 339.

210. Ibid. p, 349.

211. Ibid. p, 360.

212. Ibid. pp, 361-368.

213. Ibid. p. 326. and See also Marx & Engels : Economic and Phiosophic Manuscripts 1844. p. 117.

214. K. Marx : Capital . Vol. p. 341.

215. d. Atkinson : Op, cit. p, 34.

(٢١٦) ماركس، انجلز : البيان الشيوعي، ص ص ١١.١٨،

217. K. Marx : Capital. vol. 1. p, 326.

(٢١٨) ماركس، انجلز : البيان الشيوعي، ص ٤٣،

(٢١٩) نفس المرجع : ص ٤،

(٢٢٠) هربرت ماركيوز : مرجع سابق، ص ٢٧٢،

221. Marx & Engels : Early Writtings. pp. 43-44.

222. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 49.

223. T. parsons : Class and Class Conflict in Essays in Sociological Theory p, 32.

224. Marx & Engels : Selected Works. Vol. 1. p, 363.

.225. Marx & Engels : Germa Ideology. p. 42.

226. K. Marx : Critique of Political Economy pp. 11-13.

227. John Mcleish : Op, Cit. p, 5.

228. Ibid. p, 13.

229. K. Marx : The Eighteenth Brumaire of Leuis Napoleon p, 123.

230. Ibid, p, 124.

231. T. B. Bottomore & M. Rubel : Op, Cit. p. 187.

233. Ibid. pp, 48-49.

234. Ibid. p, 43.

235. Ibid. p, 44.

236. Dahrendorf, R. : Class and Class Conflict in an Industrial Society, routledge & Kegan Paul. 1957. p. 17.

237. D. Atkinson : Op, Cit, p, 45.

(٢٣٨) ماركس، انجلز : البيان الشيوعى . ص ٤٩.

(٢٣٩) نفس المرجع . ص ص ٤٧–٤٨.

240. D. Atkinson : Op, Cit. p, 35.

241. Ibid, p, 36.

242. Ibid. p, 37.

243. T. B. Bottomore & M. Rubel : Op, Cit. p, 97.

244. Marx & Engels : German Ideoogy. p, 7.

245. Lichtheim, George : Phenomenology and Social Reality (ed). in memory of Alfred Schutz. The haugh : Martinus Nijboff. 1970. p, 77.

246. Plumer, Herbert : Symbolic Interactionism : perspective and Method. Englewood Cliffs. N. J. Prentice-hall. 1969.pp, 184-185.

247. K. Marx : Economic and Philosophic Manuscripts, pp, 156-157.

248. Marx & Engels : German Ideology. p, 32. and See also Mrx & Engels : Early Writtings. p, 166.

249. Marx : Capital. Vol. 1. pp, 338-339.

250. J. Mcleish : Op, Cit. p, 10.

251. Ibid. p, 3.

252. T. B. Bottomore & M. Rubel : Op, cit. p, 97.

253. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 492.

254. K. Marx : Economic and Philosophic Manuscripts. p, 70.

255. Ibid. pp, 72-73.

256. J. Mcleish : Op, Cit. p, 5.

(٢٥٧) ماركس، انجلز : البيان الشيوعى ، ص ٥٢>

258. d. Atkinson : Op, cit. p, 4.

259. J. Mcleish : Op, cit. p, 13.

260. K. Marx : Capital. Vol. 1. pp, 533-534> AND See also Marx & Engels : The German Ideology. p, 22.

261. habermas, Jurgen : Towards a Reconstruction of Historical Materialism . Theory and Society - Vol. 2. 1975. pp, 287-300. esp. 291.

262. K. Marx : Capital. voo. 1. p, 20.

(٢٦٣) هربرت ماركيوز : مرجع سابق . ص ٢٦.

264. Ardent, Hannah : The Human condition. New York. Anchor Books. 1959. p, 365.

265. K. Marx : Capital. Vol. 3. p, 251.

266. Ibid. p, 229.

267. Ibid. p, 230.

268. Ibid. p, 252.

269. Ibid. p, 244.

270. Ibid. p, 245.

271. K. Marx : Capital . vol. 1. p, 632.

272. Marx & engels : Selected Works.

273. K. Marx : Capital. vol. 1. p, 645.

274. Ibid. p, 626.

275. K. Marx : Capital vol. p. 59.

276. Ibid. p, 429.

277. Ibid. p, 429.

(٢٧٨) ماركس وانجلز : البيان الشيوعى . ص ٤٧.

(٢٧٩) نفس المرجع : ص ٤٩.

(٢٨٠) نفس المرجع : ص ٥٣.

(٢٨١) نفس المرجع : ص ٤٩.

282. D. Atkinson : Op, Cit, p, 40.

283. J. O'Neil : Op, Cit, p, 127.

284. Irving Zeitling : Op, Cit. p, 100.

285. Ibid, p, 108.

(٢٨٦) ماركس وانجلز : البيان الشيوعى . ص ٨٦.

287. Irving Zeitlin : Op, Cit, p, 108.

288. Marx & Engels : Selected Works. Vol. 1. p, 454.

289. a. Giddens : Capitalism and Modern Social Theory. pp, 60-61 and See also Marx : Copital. vol. 1. p, 80.

وأنظر كذلك البيان الشيوعى : ماركس، انجلز . ص ص ٥٦-٥٨.

290. Marx & Engels : Seleted Works. vol. 2. p, 23.

291. Ibid. p, 24.

وأنظرأيضا ماركس، انجلز : البيان الشيوعى ص ٦٠

(٢٩٢) ماركس، انجلز : البيان الشيوعى . ص ص ٦٢-٦٣.

(٢٩٣) نفس المرجع . ص ٦٣.

294. Marx & Engels : Selected Works. vol. 2. p. 32.

(٢٩٥) ماركس، انجلز : البيان الشيوعى ص ١٦.

(٢٩٦) نفس المرجع : ص ٦٧.

297. K. Marx : Capital . vol. 1. p, 422.

298. K. Marx : Capital . vol. 1. pp, 533-534.

299. Marx & Engels : German Ideology. p, 22.

300. T. Parsons : Essays Sociological Theory. p. 324.

301. Ibid p, 325.

302. Ibid. p, 324.

303. Ibid. p, 324.

304. Marx : The Eighteenth Brumaire of Lois Napoleon p, 48.

305. Ibid. pp, 120-125.

306. T. Parsons : Essays in Sociological Theory. pp, 329-331.

307. d. Atkinson : Op. Cit. p, 52.

308. Ibid. p, 56.

(٣٠٩) هربرت ماركيوز : الإنسان ذو البعد الواحد ، ص ٧.

(٣١٠) نفس المرجع ، ص ١١١.

311. Marx & Engels : Collected Works. Lowrence & Wishart. 1962. p, 125.

312. Ibid. p, 130.

# الباب الثالث

# إميل دوركيم
# والتأكيد على الحتمية الاجتماعية

## المحتويات

## تمهيد :

يحتل إميل دوركيم مكانة محورية فى تاريخ النظرية الاجتماعية المعاصرة . وذلك بالنظر الى الاسهامات التى قدمها على مستوى النظرية والمنهج والتحليل السوسيولوجى للمعطيات الواقعية اضافة الى البرهنة العلمية التى قادها من أجل استكمال تأسيس علم الاجتماع .

فإذا كان سان سيمون وأوجست كونت قد رفعا شعار المطالبة بتأسيس علم الاجتماع إستكمالا لنسق التفكير العلمى الذى قطعت فى إطاره العلوم الطبيعية شوطا واضحاً . وظهرت ضرورة إستكماله بنمو مماثل للعلوم الانسانية وعلم الاجتماع ، ومن ناحية ثانية لأن الواقع الاجتماعى أصبح معقدا ، يحتاج تنظيمه الى خبرة علمية واعية وقادرة على التنبؤ وليس معرفة عامة وشائعة . فإننا نجد ان إميل دوركيم يستكمل التأكيد على دور العلم ومكانته ، ويحاول بالأساس تحديد مجاله وتحديد طبيعة وخصائص الظواهر التى ينبغى أن يهتم العلم بدراستها فى اطار المجتمع .

إضافة الى ذلك فقد قدم إميل دوركيم إسهاماً بارزاً على مستوى النظرية الاجتماعية ، حيث طور تصوراً لبناء المجتمع فى عناصره الأساسية وأيضا فى تفاعلاته وعملياته الدينامية وهو التصور النظرى الذى ضم عديداً من القضايا نذكر منها تأكيده على أولوية الفرد على المجتمع ، وان الحقائق الاجتماعية مفسرة ، فهى تكتسب معناها من خلال سياقها المحيط . إضافة الى تأكيده على ان المجتمع يشكل نسقاً متكاملاً على غرار الكائن العضوى محكوم بميكانيزماته الخاصة التى« تحدد استقراره وتغيره . وتأكيدا لذلك أعمل إميل دوركيم تصوره النظرى فى تفسير كثير من الحقائق الاجتماعية المحيطة كالانتحار والدين وتقسيم العمل الاجتماعى .

وتعتبر الاسهامات المنهجية لإميل دوركيم من أبرز اسهاماته على الاطلاق ، حيث نجد هذه الاسهامات مضمنة فى كتابه الهام ( قواعد المنهج الاجتماعى ) ، حيث تضمنت اسهاماته تحديداً لطبيعة الاجراءات والخطوات المنهجية التى ينبغى ان يتبعها الباحث فى دراسته للظاهرة الاجتماعية ، ثم حاول تحديد خصائص الظاهرة الاجتماعية ذاتها ، وكان فى كل ذلك يحاول تأسيس بنائه المنهجى على غرار ماهو كائن فى العلوم الطبيعية .

وتعتبر التحليلات التى أسسها أميل دوركيم من أكثر التحليلات عبقرية فى علم الاجتماع . وهى التحليلات التى قدمها لظواهر متنوعة نذكر منها ظاهرة الدين فى مؤلفه الأشكال الأساسية للحياة الدينية ، حيث قدم تحليلاً شاملاً لعدد كبير من انماط الديانة البدائية كذلك قدم

تحليلاً سوسيولوجيا واحصائيا لظاهرة الانحراف ، وحاول من خلال تحليله لهذه الظاهرة ان يبرهن على كفاءة المدخل السوسيولوجى فى دراسة هذه الظاهرة التى كانت تقع ضمن نطاق علم النفس وعلم النفس الاجتماعى حسبما يؤكد ذلك الاعتقاد الشائع . وتعتبر ظاهرة تقسيم العمل الاجتماعى من الظواهر التى نتجت عن الانتقال الى المجتمع الصناعى ، وتعتبر تحليلات إميل دوركيم لهذه الظاواهر من أكثر التحليلات عمقاً وأصاله .

وقد حاول إميل دوركيم انجاز تحليله لهذه الظواهر الواقعية المختلفة على ثلاث مستويات . ويعتبر التحليل على مستوى المجتمع أول هذه المستويات حيث حاول إميل دوركيم ان يدرس طبيعة العلاقة بين الظاهرة موضع الاهتمام والمجتمع ، وماهى الوظيفة التى تؤديها الظاهرة فى اطار السياق الاجتماعى . ويشكل بناء الظاهرة ذاته المستوى الثانى من التحليل ، حيث حاول دوركيم دائماً تحليل الظاهرة الى عناصرها الأساسية ، للنظر فى طبيعة العلاقات والتفاعل بين العناصر المكونة للظاهرة باعتبارها بناءاً فرعيا . ويعتبر المستوى الفردى هو المستوى الثالث من التحليل ، حيث يوضح دوركيم طبيعة ادراك الفرد لمشاركته فى الظاهرة ، وما طبيعة علاقته بها ، ثم ماهى الوظيفة التى تؤديها له الظاهرة . ذلك يعنى تأكيد دوركيم على ان للظاهرة وظيفتين احداهما على مستوى المجتمع والأخرى على مستوى الفرد . وهو تحليل سوف يشكل أساسا لاتجاه فكرى كامل فى علم الاجتماع هو الاتجاه الوظيفى .

وبغض النظر عن ادعاء البعض للمتضمنات الأيديولوجية لأفكار واسهامات إميل دوركيم . فمما لاشك فيه انه طبع ذاته على روح علم الاجتماع ، وحدد مساراته التى مازال الباحثون فى علم الاجتماع يلتزمون بها ، ويعملون على تطويرها . وهو الأمر الذى يتضح من تحليلنا لاسهاماته المنهجية والنظرية فى الفصول التالية :

# الفصل السابع

# إميل دوركيم
# والاتجاهات النظرية العامة

## المحتويات

## مقدمة

بدأت النظرية الدوركيمية فى التشكل تحت تأثير نظريات القرن التاسع عشر واتجاهاته الفكرية . ويمكن القول بتميز الاتجاهات النظرية العامة التى سادت هذه المرحلة بعدة خصائص . وتتمثل أول هذه الخصائص فى فترة العلاقة بين هذه الاتجاهات النظرية وبين أفكار التنوير وقضاياه بحيث يمكن النظر الى هذه الاتجاهات باعتبارها تبلوراً لمضامين التنوير . أو أنها الأفكار التى حاولت تأمل الواقع وتحليله بعد ان تجسد التنوير فى نطاقه . ومن ثم يكشف تحليل شعاراتها عن روح التنوير وأفكاره .

وتتمثل الخاصية الثانية فى أنه برغم إدعاء الاتجاهات النظرية العامة بكونها تصورات شاملة للواقع الانسانى والإجتماعى ، فإنها لم تشكل سوى وجهات نظر جزئية فى الواقع الانسانى والكونى الشامل . بعضها أكد على الكل ، المجتمع أو الكون الذى يخلع طبيعته على الأجزاء أو الأفراد ، بينما أكد البعض الآخر على الجزء أو الأفراد ، الذين يكسبون الكل خصائصه . البعض أكد على ماينبغى أن يكون باعتباره مقياس الكمال ومنتهاه . بينما أكدت اتجاهات أخرى على ماهو كائن ، باعتباره وجه الحقيقة الذى ينبغى أن ينال اهتمام الانسان .

وتشير الخاصية الثالثة الى الطابع المتأرجح لهذه الاتجاهات النظرية العامة . فلا هى قضايا فلسفية مسرفة فى التجريد والانفصال عن الواقع ، ولا هى قضايا واقعية قريبة الصلة بالواقع ، بحيث تكون قادرة على الرصد الدقيق والمفصل لتفاعلاته . فهى نوع من التفكير حقيقة ان له طبيعته الفلسفية العامة ، إلا أنه مغرم دائماً بتأمل الواقع ، يحاول دائماً النفاذ اليه ، ولأن هذه الاتجاهات النظرية كانت اتجاهات متبلورة ومحددة منذ كان منطقيا أن يكون لها تأثيرها على تفكير أميل دوركيم ، وهو مانعرض له فى الفقرات التالية من هذا الفصل .

## أولا : إميل دوركيم ، طبيعة التفكير وملامحه

ولد دوركيم ، لأبوين حاخمين وكيهودى منتمى لمنطق الالزاس ، شق طريقه الفكرى خارج النظام الأكاديمى منذ البداية ، وان انتهى الى السيطرة عليه من خلال احتلاله لكرسى الأستاذية بجامعة باريس [١] . بحيث أورثته هذه النشأة ، وهذا الأسلوب فى الحياة اهتماما خاصا بالدين والأخلاق وتركيزا فعالا على الطابع العملى للجهد العلمى ، وهو مايميز الى حد كبير التفكير الدوركيمى ويفرقه عن اقرانه خلال هذه الفترة التاريخية . بحيث اكتسب تفكيره طابعا خاصا له خصائصه المتميزة .

من هذه الخصائص الطابع الأكاديمى لتفكيره . ومن ثم فالانتقال من تفكير ماركس الى تفكير دوركيم ، ليس انتقالا من جيل الى جيل آخر من المفكرين الاجتماعيين ، ولكنه يعنى انتقالا واختلافا فى طبيعة التفكير العقلى ، أو السياق الاجتماعى . اذ نجد ان دوركيم أقل من نظرائه ( ماركس ، ماكس فيبر ) من حيث الاهتمام بالأهداف السياسية البارزة فى عصره ، ومن ثم فقد تميزت أعماله بأنها أكثر تكاملا ، وأكثر أكاديمية وأقل دعائية (٢) .

مايتميز به الموقف الدوركيمى أيضا اختلاف الوقائع التى واجهها نموذجه النظرى عن تلك التى كان مقدرا على المشروع الماركسى أو البناء النظرى لماكس فيبر مواجهتها . فبينما كان النظام الرأسمالى من حيث أصوله ونشأته وميكانيزمات استمراره هو القضية الخلافية بين ماركس من ناحية وماكس فيبر من ناحية أخرى . كان علم الاجتماع لدى دوركيم يهتم أساسا ليس بنشأة النظام الرأسمالى وانما بطبيعة التفاعل الكائن داخل هذا النظام ، وكيف له ان يحقق أعلى مستويات السواء بدلا من الانهيار فى اطار حالة من الأنومى الأخلاقية التى قد تأتى عليه . من هنا فنحن نتفق مع ارفنج زايتلن على ان اهتمامه المبكر – منذ ١٨٨٣ – بقضايا الاشتراكية ، كان مجرد نقطة بداية ، فى الوقت الذى بدأ يضع فيه الخطة المبدئية لكتابه تقسيم العمل الاجتماعى ، ثم تابع اهتمامه – بقضايا التكامل البنائى والأخلاقى – من خلال دراساته فى الانتحار ، والعائلة والدين (٣) .

من الخواص التى ميزت المشروع الدوركيمى أيضا ، أنه لم يطرح متكاملاً منذ البداية ، ولهذا فقد تميز بحالة من الدينامية وعدم الثبات ، فقد امتلك القدرة على التطور التاريخى الى حد اتخاذ مواقف مرحلية قد تبدو فى ظاهرها متباينة ، هذا بالاضافة الى تناوله لقضايا متعددة تخص فترته المعاصرة . فمن ناحية التطور التاريخى نجد المشروع الدوركيمى قد طرأت عليه تغيرات أساسية . ففى اطار المرحلة التكوينية الأولى ، حيث شكل مؤلفه تقسيم العمل الاجتماعى (١٨٩٣) أهم وثائقها تصويرا لمرحلة كان دوركيم خلالها يتحسس طريقه لصياغة قضاياه الأساسية . ثم تلت ذلك مرحلة كان فيها دوركيم على مشارف تأليف نسق نظرى متكامل ، بدا أكثر كفاءة بالنسبة للحقائق الامبيريقية التى تصدى لدراستها . بل أن دوركيم بدأ بهذا النسق النظرى أكثر قدرة على أن يواجه بنجاح كافة الهجمات النقدية الهامة التى تعرض لها خلال هذه الفترة . ويعتبر كتابه قواعد المنهج فى علم الاجتماع (١٨٩٥) ودراسته فى الانتحار (١٨٩٧) من أهم وثائق هذه المرحلة . أما الفترة الثالثة فقد بدأت حينما وقعت انتقالة أساسية فى البناء النظرى لدوركيم تميزت بميل التأليف النظرى القديم لديه نحو الانهيار ، لصالح بروز

بناء نظرى آخر ، بحيث تعتبر كتاباته مثل التصورات الفردية والتصورات الجمعية (١٨٩٩) ، والتربية الأخلاقية (١٩٠٢) ، وحتمية الحقيقة الأخلاقية (١٩٠٧) من أهم وثائق هذه المرحلة . ومن أهم ملامح هذه المرحلة انهيار السياج الوضعى من حول دوركيم وانطلاقه الى الآفاق المثالية . وهو ماشكل ملامح المرحلة الرابعة . وهى المرحلة التى اتخذ فيها دوركيم موقفا نظريا جديدا ، بل اننا نجده قد تصدى لقضايا جديدة أيضا . ويعتبر مؤلفه الأشكال الأساسية للحياة الدينية (١٩١٢) من أهم وثائق هذه المرحلة . غير اننا نستطيع أن نؤكد أن إميل دوركيم فيما يتعلق بالتطور التاريخى لمشروعه النظرى – قد توفى دون أن يكمله بشكل نهائى – ومن ثم فقد تخلق تياران فكريان أساسيان داخل بنائه النظرى كل منهما يناضل للتفوق على الآخر (٤) .

خلاصة القول فيما يتعلق بالتطور المرحلى لدوركيم اننا نجده قد اتبع البرنامج الوضعى فى دراسته للحقائق الاجتماعية بمنهج يتناولها كأشياء من الخارج ، وهى مسألة تتعلق بالمسلك المنهجى لعلم الاجتماع . غير أننا نجده قد انتهى الى الإيمان بفكرة ميتافيزيقية هى عقل الجماعة أو العقل الجمعى . الذى حاول دوركيم ادراكها ادراكا وضعيا ، كالأشياء ، غير أن الالهام الأساسى بهذه الفكرة ، وأصولها التاريخية والفكرية يرجع أساسا الى الفكر المثالى ، وهو التأثير الذى شكل ملامح المرحلة الثانية لدوركيم (٥) .

مايتميز به الفكر الدوركيمى أيضا هو تعدد المؤثرات التى تعرض لها المشروع الدوركيمى ، وكثرة المحاور الفكرية التى قاد برهنته فى مواجهتها حول أى من قضايا الاهتمام . أما فيما يتعلق بتعدد المؤثرات التى كانت لها وطأتها عليه نجد ان الفكر الوضعى يمثل أولوية فى هذا الصدد ابتداء من سان سيمون وأوجست كونت ، حيث اتصل هذا التأثير أساسا بالجوانب المنهجية للتنظير الدوركيمى ، وهو وان خضع لتأثير الوضعية فى بعض الجوانب إلا أنه خالفها فى مواضع كثيرة (٦) .

وهو قد تأثر أيضا بالفكر المثالى من خلال قراءاته لديكارت وكانت وهيجل . فهو يرفض أولوية الفرد على المجتمع كما تذهب الفلسفة الديكارتية وتحاول أن تبرزه ، وهو يرفض أيضا أن تكون مقولات الانسان فى الادراك من خارج الواقع الاجتماعى على مايذهب كانت ، وهو أيضا يأخذ فكرة العقل الجمعى – التى وصمته بتهمة الميتافيزيقية – عن هيجل ، ثم يتفق كثيرا مع فوندت حول أولوية المجتمع على الفرد وتحتيمه له (٧) .

واذا كان دوركيم قد تعرض للفكر الفرنسى من خلال الحوار الذى قادة مع النظرية الوضعية ، والفكر الألمانى من خلال رفضه وقبوله لعدد من الأفكار المثالية ، فاننا نجده قد

تعرض أيضا للفكر الانجليزى بحيث تمثل ذلك فى موقفه من النظريات الفردية وخاصة التى ترجم أصولها الى الفكر النفعى . هذا بالاضافة الى أنه قد تأثر واستفاد من المعطيات الميدانية التى وفرتها الانثروبولوجيا الانجليزية فى هذه المرحلة . فهو يرفض فى النفعية تأكيدها على امكانية تفسير الواقعة الكونية أو الاجتماعية وكذا خصائص الكائن البشرى بعوامل كالوراثة ، ومن ثم نجده يرفض كافة التفسيرات التى طرحت لظاهرة الانتحار بالنظر الى العوامل المتعلقة بالبيئة الخارجية أو السلالة أو العوامل السيكولوجية المرضية ، أو حتى ظاهرة التقليد السيكولوجية (٨) .

ويتضح تأثره بالأنثروبولوجيا الانجليزية من اعتماده فى تأسيس نظريته عن الدين ومجتمع التضامن الآلى على قراءاته لأعمال الأنثروبولوجيين الانجليز التى فرضت عليه كثيرا ان يعيد تقييم كتاباته الأولى من أجل أن يتمكن من استنتاج متضمنات بعض الأفكار الجديدة (٩) .

هذا بالاضافة الى انه قد أخذ فكرة المماثلة العضوية التى أدت دورا محوريا فى اطاره النظرى عن الفكر الألمانى والفرنسى من خلال المفكرين الذين قرأ لهم ومنهم فوييه Follèe ، وفورمس Worm شيفله Scheffle وليلينفيلد Lilienfeld. حيث طرحت فكرة المجتمع باعتباره يشكل وحدة متكاملة تماثل الى حد كبير وحدة الكائن العضوى البيولوجى . فى اطار ذلك نجده يتفق مع الألمانى شيفله فى انفصال خصائص المجتمع عن خصائص الأعضاء المكونين له . وان المجتمع كائن له وجوده المسبق على وجود أعضائه المكونين له . وان المجتمع له تأثيره على أفراده أكثر مما لهم عليه . وله أيضا حياته ووعيه ومصالحه وقدره (١٠) .

ولايتوقف التباين على طبيعة وتعدد المؤثرات الى كانت لها وطأتها على المشروع النظرى لدوركيم ، وانما انسحب ذلك على طبيعة القضايا التى تناولها بالدراسة . اذ نجده فى المرحلة الأولى قد قاد حوارا نظريا حول قضايا كثيرة شكلت مواقف خلافية بينه وبين الانساق النظرية المعاصرة له . بحيث شكلت المرحلة الثانية صياغة ايجابية لحاصل المواقف النقدية التى اتخذها بشأن هذه الأنساق النظرية .

فهو مع الفكر الوضعى يناقش ناقدا العوامل المفسرة للواقعة الاجتماعية من حيث كونها عوامل لا اجتماعية أساساً - البيئة والوراثة - وان لم يمنعه ذلك من استناده فى كثير من منهجيته على التراث الوضعى (١١) . وهو مع الفكر المثالى يتفق مع هيجل حول أهمية الدولة فى المجتمع غير أنه يختلف مع الفكر المثالى وخاصة كانت وهيوم حول رفض التصورات القبلية أو الأصول الابستمولوجية لمقولات الادراك الانسانى ( الزمان والمكان والنسبية ) (١٢) . ثم هو مع

الفكر النفعى يقود حوارا حادا حول أولوية الفرد أم المجتمع فى تأسيس الواقعة والتفاعل الاجتماعى ومن ثم الوجود الاجتماعى . حيث تركز الخلاف حول مصدر الواقعة الاجتماعية ، هل هى من داخل الانسان أم من خارجه . ثم هو مع الفكر الماركسى يناقش المشروع الرأسمالى ، ليس من حيث نشأته ولكن من حيث طبيعة التفاعل السائد به ومن ثم ميكانيزمات هذا التفاعل واتجاهاته .

ونتاجا لهذه الحوار – ذى الجوانب السلبية والايجابية – أسس دوركيم اطارا تفسيريا جديدا أصبح يعرف فيما بعد بنزعة الاسناد أو الإرجاع الى الجماعة ، وهى النزعة التى تعنى ان الحقيقة الاجتماعية مفسرة لذاتها (١٣) . وأن كان قد أسبق ذلك بتوضيح ماهية الحقيقة الاجتماعية ، حيث يراها اظهارا للوجود أو الضمير الجمعى ، ذلك الكيان الذى صاغ له دوركيم وجودا واقعيا متجسدا . وجعل منه مجالا لعلم الاجتماع ، قطع الطريق بذلك على أية تفسيرات تحاول رد الحقيقة الاجتماعية الى عوامل فردية نفسية أو بيلوجية (١٤) . والواقع انه اذا قيل ان هذه النزعة لها تاريخها فى الفكر الاجتماعى الفرنسى . الأمر الذى يعنى بشكل ما أن الجماعة تسبق الوجود الفردى وتشكله ، وأنها – أى الجماعة – مصدر الثقافة وكل القيم السامية ، وان الحالات الاجتماعية لاتنتج أو تتأثر بواسطة رغبات الأفراد (١٥) . فاننا نؤكد ان دوركيم قد منح هذا التصور دفعة جديدة ، بأنه مارس عمليات البحث والتفسير بالنظر اليه . وكانت أبرز ممارساته فى هذا الصدد دراسته فى الانتحار التى أراد بها دعم تفسيراته النظرية بشواهد واقعية ملائمة . وبذلك مثلت هذه الدراسة ريادة فى القدرة على الربط المتكامل بين الأطار النظرى والبحث الامبيريقى ، وبذات الأسلوب يمكن النظر الى دراسته الأثنوجرافية عن الأشكال الأساسية للحياة الدينية (١٦) .

خلاصة القول ان إميل دوركيم أسس بناء نظريا نتيجة لحواره مع قضايا عصره ، بحيث اتسم هذا البناء بالأبعاد الأساسية التالية :

١ – فهو أولا قد تحرك من موقف سلبى نقدى بالنسبة للفردية النفعية ، أو بالنسبة للوضعية التى حاولت تفسير الواقعة الاجتماعية بالنظر الى عوامل البيئة ، والوراثة . بحيث أصبح العامل الاجتماعى هو المقولة الاجتماعية الجوهرية التى تحولت فيما بعد الى موقف ايجابى ، حيث أصبح العامل الاجتماعى المسئول عن مظاهر أساسية للظاهرة أو الواقعة الاجتماعية كالخارجية والقهر ، تفسر نظريا بالنظر اليه وليس بالنظر الى عوامل البيئة أو الوراثة .

٢ - انه أيضا قد تحرك الى موقف يرفض من خلاله المداخل الفردية التى تسند الى الأفراد - فى وجودهم الامبيريقى - عبء انشاء النظام الاجتماعى ، حيث الأفراد نواتج وليسوا مقدمات له . فى اطار ذلك نجد أن دوركيم يرفض امكان ان يكتسب المجتمع خصائصه من واقع خصائص الأفراد المكونين له . فى مواجهة ذلك نجده يفرض المنهج الجمعى ، حيث التأكيد على أولوية الجماعة التى تكسب الأفراد - أعضاءها - خصائصهم ..ثم هو الذى أكد على ان وحدة التحليل الأساسية للفكر السوسيولوجى تتمثل فى الجماعة وليس الفرد .

٣ - نتيجة لنقده للحتميات التى سادت عصره ، نجده يرفض الحتمية الثقافية التى قال بها هيجل حيث الفكرة سامية متعالية على الواقع تفرض عليه التطابق وفق خصائصها . وفى مقابل ذلك نجده يرفض الحتمية الاقتصادية التى قال بها ماركس باعتبار أنه من الخطأ منطقيا ان نفسر الكل بالنظر الى الجزء . هذا بالاضافة الى رفضه الحتميات الأخرى التى سادت عصره لكونها خارجة عن الطبيعة الاجتماعية للانسان وان كانت تشارك الحتمية الاجتماعية فى كون وجودها وفاعليتها تكمن خارج الانسان الفاعل .

ونتيجة لهذا الحوار المتعدد الأبعاد حول قضايا شديدة التباين ، نجد إميل دوركيم قد تمكن من صياغة تصور محدد للتفاعل الاجتماعى يتلاءم مع بنائه النظرى الشامل ويشكل جانبا أساسيا منه . هذا التصور النظرى للتفاعل الاجتماعى له جوانبه أو مستوياته المنهجية والنظرية التى لها أصولها فى التيارات النظرية والفلسفية التى تعرض لتأثيرها إميل دوركيم .

ذلك يعنى أن النظرية الدوركيمية قد تشكلت من خلال الحوار النقدى مع الاتجاهات النظرية العامة التى سبقته ، أو مع قضايا النظرية السوسيولوجية التى عاصرها . حيث كان إميل دوركيم امتدادا لبعض هذه الاتجاهات النظرية العامة وان اختلف معها فيما يتعلق ببعض القضايا الأساسية التى تنم عن حالة اكتمال بلغتها النظرية السوسيولوجية . كما هو الحال فى علاقته بكل من الوضعية والمثالية الألمانية . بينما كان فى مواقف أخرى رافضا لاتجاهات نظرية بكاملها كما هو الحال فيما يتعلق بموقفه من الفكر النفعى . حيث يعتبر مؤلفه تقسيم العمل الاجتماعى برهنة على زيف الموقف النفعى من حيث تصوره لتأسيس الواقع الاجتماعى أو مكوناته أو طبيعة تفاعله ، وملامح الحتمية أو القوانين التى تحكمه ، بالاضافة الى ذلك كان له حوار مع بعض نماذج النظرية السوسيولوجية المعاصرة له . وأهمها النظرية الماركسية

والتصورات السيكولوجية لجابرييل تارد ثم النظرية البيولوجية التى لعب داروين وهربرت سبنسر دورا أساسيا فى ريادتها .

وسوف نعرض فيما يلى لأهم الاتجاهات النظرية العامة التى كان لها تأثيرها فى تشكيل أفكار إميل دوركيم .

### ثانيا : دوركيم والعلاقة بالمثالية الألمانية

وان كان دوركيم قد نشأ فى أحضان الفلسفة الوضعية إلا أن اصراره على ضرورة أن يكون علم الاجتماع أكاديميا جعله معرضا للتأثر بمختلف الاتجاهات النظرية المعايشة له . ولقد كان الفكر المثالى من بين هذه الاتجاهات . ذلك ان دوركيم قد تعرض لتأثير الفكر الألمانى ، أولا لأن هذا التفكير كانت له وطأته على الفكر الأوربى والانسانى بشكل عام بالنظر الى الفلسفة التى أشاعها هيجل والذى قيل عنه انه ظل يتفلسف حتى كاد ألا يترك للفلسفة قضية تتفلسف بشأنها بعده (١٧) . وثانيا لأن دوركيم تعرض بشكل مباشر لتأثير الفكر الألمانى من خلال دراسته للفلسفة فى ألمانيا . ومن ثم فالمحلل لبناءه النظرى يكشف عن عناصر مثالية عديدة (١٨) . ويمكن تحديد طبيعة الصلة بين دوركيم والفلسفة المثالية بالنظر الى الملامح الأساسية التالية :

١- أنه من خلال الحوار مع الفكر المثالى رفض أفكارا وتبنى أخرى ، كان لها بروزها فيما بعد فى بنائه النظرى بما أكسبته طابعا خاصا . وذلك كالمماثلة العضوية والضمير أو العقل الجمعى ، وفاعلية العنصر الأخلاقى ، ومدى ارادية السلوك الانسانى .

٢ - أما الخاصية الثانية فتتعلق بطبيعة نمو المشروع النظرى لإميل دوركيم ، اذ نلاحظ تحركا داخل الاطار الوضعى الصارم حيث محاولة التشبه التام والشكلى بالعلوم الطبيعية الى الاطار المثالى حيث التعرض لظواهر مثل الوعى والعقل الجمعى ، وخواص المجتمع التى لايمكن اشتقاقها من خواص عناصره المكونة ، وفى ذلك مخالفة للتعاليم الوضعية بحيث نجد تجسيدا لهذا التحرك فى الازدواجية التى عانى منها المشروع الدوركيمى على مايذهب تيماشيف ، تلك الازدواجية التى تتمثل فى التصور المثالى للجماعة ثم الأصل الاجتماعى والأخلاقى لهذا التصور المثالى (١٩) .

٣ - أن تأثر دوركيم بالفكر المثالى كان فيما يتعلق ببعض الأفكار أو الجوانب دون أخرى . هذا بالاضافة الى رفضه الواضح للمثالية النقدية التى ترى فى الوجود المادى للجماعة

أصلا لكل ماهو قيمى ومثالى ومعيارى ، يتضح ذلك من تأكيده فى مقدمة الطبعة الأولى لمؤلفه قواعد المنهج فى علم الاجتماع ، اذ يقول ( أن برهنته ليست ثورية على الاطلاق ) . وهو بذلك يرفض الثورية التى تبنتها بعض أجنحة المثالية وأن لم يسنحب ذلك على المثالية ذاتها . وهو يؤكد أنه اذا كان - حتميا - كالثوريين إلا أنه أقل خطورة من هؤلاء الذين ( يرون فى الظواهر الاجتماعية نوائج للسيطرة التى لايعوقها شئ ، والتى يمكن أن نفيها فى لحظة بواسطة صنعة جدلية بسيطة ) . وفى أماكن أخرى يذهب الى أنه قد لا يرضى بالتسمية المثالية على هذا النحو الثورى ولا بالتسمية المادية ، وأنما يؤكد أن التشخيص الوحيد الذى يمكن أن يوافق عليه هو التشخيص العقلانى (٢٠) . بذلك نستطيع التأكيد على ان دوركيم كان امتدادا لبعض الأفكار المثالية المحافظة التى قد لاترجع الى دى بونالد أو دى ميستر ، وانما ترجع الى هيجل أساسا ، فمن الواضح ان هناك اتفاقا على ان المفكرين الألمان الذين تأثر بهم دوركيم هم هيجل ، للينـنفلد وشيفله (٢١) . هذا مع استبعاد أى تأثر أو اتصال لدوركيم بالأجنحة النقدية للمثالية التى لعب كل من فويرباخ وماركس دوراً أساسيا فى اطارها .

وتعتبر قضية الضمير الجمعى - بطابعها الحتمى بالنسبة للانسان والتفاعل الاجتماعى - هى الفكرة الأساسية التى أخذها دوركيم عن الفكر الألمانى . وهى فكرة لعبت دورا جوهريا فى البناء النظرى لدوركيم . اذ نجد ان دوركيم قد استعار هذه الفكرة من مصدرين يرجعان أصلا الى الفكر الألمانى . ويرجع المصدر الأول لفكرة الضمير أو العقل الجمعى الى فكرة العقل الكونى فى بحثه عن الاكتمال - الذى يتحقق وفقا للمشروع الفلسفى لهيجل عندما يتطابق الواقع مع العقل فى زمان الدولة الألمانية - فانه يقود نوعين من التفاعلات الجدلية ، فهو من ناحية يمارس جدلا مع الواقع تكون للعقل حركة البدء والقيادة فيه ، هذا بالاضافة الى خضوعها لنوع آخر من الجدل الداخلى ، الذى يجعله أكثر استيعابا لمتغيرات الواقع المتجددة والمتنوعة ، فى اطار ذلك نجد ان دوركيم قد استبدل هذا العقل الكونى بعقل الجماعة أو الضمير الجمعى الذى يمثل لديه الشكل الأعلى للحياة العقلية ، حيث هو وعى مجموعات الوعى ، ومادام مكانه فوق الفرد والأحداث المحلية فانه يرى الأشياء من جوانبها الأساسية والدائمة ، تلك التى يبلورها فى شكل أفكار تكون موضع اتصال وتواصل ، وفى نفس الوقت فهو يرى من أعلى ، وماهو أبعد فى أى لحظة من الزمن ، انه يضم كل الواقع المعلوم ، وذلك هو السبب فى أنه وحده هو الذى يمكن ان يجهز العقل الفردى بالقوالب الملائمة لكل الأشياء ، والتى تجعل من الممكن له ان يفكر من خلالها ، انه لايخلق هذه القوالب صناعيا ،

بل يجدها بداخله ولايفعل شيئا سوى ان يكون على وعى بها (٢٢) . ومن ثم فمثلما منح هيجل العقل الكونى الشامل أو المطلق حتمية مطلقة ليس على الواقع سوى التكيف مع حركته ، فاننا نجد ان دوركيم قد نقل هذه الحتمية ومنحها للضمير الجمعى الذى يصوغ الأشكال . القوالب التى يفكر من خلالها الأفراد .

ويعتبر التصور الكلى الناتج عن المماثلة العضوية هى الفكرة الثانية التى أخذها دوركيم عن الفكر المثالى الألمانى . حيث أدرك ان المجتمع يشكل موقفا كليا فى بعده التاريخى والمعاصر ، بحيث تستوعب هذه الكلية كافة المواقف وأنماط السلوك الجزئية . ولقد تأكدت هذه الكلية لديه تحت تأثير الكتابات المثالية الألمانية لكل من شيفله Schaffle ليلينفيلد Lilienfeld فى ألمانيا ، وفوييه Fouillèe وفورمس Worms فى فرنسا ، وهى الكتابات التى أكدت على امتلاك المجتمع لوحدة عضوية متكاملة تماثل تلك التى للكائن العضوى الحى (٢٣) . والحق ان نقل دوركيم لهذا التصور ومزاوجته والتناول التحليلى الوضعى لعناصر الواقع الاجتماعى يمثل ابداعا دوركيميا حقيقيا . حيث يصبح السلوك المتعلق بأى من عناصر الكلية تكمن دوافعه بهذه الكلية وليست بعناصره ، وأن هذا السلوك يهدف أساسا - أيا كانت طبيعته - الى تأكيد الوحدة الكلية الشاملة والمتضمنة له .

وتتعلق الفكرة الثالثة التى نقلها دوركيم عن الفكر المثالى بهوية المجتمع وخصائصه الأساسية . اذ نجد ان المجتمع ككائن عضوى تكون له هويته وخصائصه المتميزة عن هوية وخصائص أفراده المكونين له . وهو مايميز التصور العضوى للمجتمع عند دوركيم عن نظيره عند هربرت سبنسر . فى اطار ذلك يشير دوركيم متفقا فى ذلك مع شيفله الى ان هناك فارقا واضحا بين حياة الكائن العضوى وحياة المجتمع . فبينما تظل حياة الكائن العضوى الحيوانى محكومة بشكل ميكانيكى فاننا نجد المجتمع يتماسك بعضه مع البعض ليس عن طريق العلاقة المادية ولكن عن طريق روابط الأفكار . ويؤكد دوركيم انه نظرا لأن فكرة المجتمع كمثال قد احتلت مكانة جوهرية فى تفكير شيفله فانه أكد كثيرا على ان المجتمع له خصائصه الخاصة به والمنفصلة عن خصائص أفراده المكونين له . فالمجتمع بالنسبة لشيفله ليس ببساطة تجمعا من الأفراد ، ولكنه كائن موجود بشكل سابق عن هؤلاء الذين يكونونه اليوم ، والذين سوف يساعدهم على البقاء ، مؤثرا فيهم أكثر من تأثيرهم فيه . والذى له حياته الخاصة ووعيه ومصالحه وقدره . من أجل ذلك يرفض شيفله تصور أولوية الفرد على المجتمع تلك التى أقرها روسو . حيث يؤكد دوركيم متفقا فى ذلك مع شيفله ان الانسان يأخذ كل شئ يجعل الحياة

الانسانية أسمى من الوجود الحيوانى من الثروة التكنولوجية والثقافية المتراكمة بالمجتمع ، واننا اذا حرمنا الانسان من هذه الثروة ، فاننا سوف نلغى كل مايجعلنا بشرا (٢٤) .

بالاضافة الى ذلك نجد ان هناك أفكارا متعددة أخذها دوركيم عن المثالية الألمانية . منها مثلا الفكرة المتعلقة بأهمية المثل والوحدة الأخلاقية بالنسبة لاستمرارية المجتمع . وكذلك أهمية الفرد كوسيلة فعالة وكمستقبل للتأثيرات الاجتماعية . بل اننا نجد ان الطبيعة المزدوجة لارتباط الفرد بالمجتمع أخذها دوركيم عن الفكر المثالى ، حيث تتضمن هذه العلاقة الالتزام من ناحية والارتباط الايجابى بالمثال من ناحية أخرى . هذا بالاضافة الى فكرة اكتساب التنظيم الشامل للوحدات لخصائص لايمكن استنتاجها من خصائص الوحدات المكونة كل منها منعزلة عن الأخرى (٢٥) .

بل اننا نجد ان دوركيم يتفق كثيرا مع تصور هيجل لمفهوم الدولة أو موقفها من الفرد والمجتمع . اذ يؤكد – متفقا فى ذلك مع هيجل – على ان الواجب الأساسى للدولة هو أن تحافظ على التزام الفرد بأسلوب الحياة الأخلاقى . ثم يؤكد أنه فى يومنا تشكل الدولة أكثر أشكال المجتمع المنظم وجودا (٢٦) .

غير أنه وان كان لدوركيم اتفاقاته مع الفكر المثالى فاننا نجد أيضا أن له خلافاته الحادة معه . بيد انه من الملاحظ ان اتفاقات دوركيم كانت مع الأجنحة أو الأفكار المحافظة للفكر المثالى ، بينما اختلافاته كانت مع الأجنحة النقدية ذات الطابع الثورى .

ومنذ البداية نجده يرفض الطابع النقدى لادراك الواقع الاجتماعى . ولما كانت المثالية النقدية تمتلك دائما تصورا مسبقا للواقع يعتبر اطارا مرجعيا يتم على أساسه نقده وتغييره ، فاننا نجد ان دوركيم يرفض أى تصور مسبق عن الواقع أو لما ينبغى أن يكون عليه تفاعله . فى اطار ذلك نجده يؤكد ان الظواهر الأخلاقية لايمكن ابتكارها أو تحطيمها بواسطة رؤية أى فيلسوف أو عالم أخلاقى . بل يجب أن نبحث عن شروطها وأسبابها فى المجتمع الذى توجد فيه . فالعالم الأخلاقى المكتبى يؤسس نسقه الأخلاقى بالنظر الى الانسان المجرد الذى ليس سوى مفهوم منطقى خال من أية قيمة موضوعية ، بينما الانسان الحقيقى ، هو إنسان الحقيقية والواقع الذى ينمو مع الوسط الذى يحيط به (٢٧) .

ويذهب دوركيم الى انه ابتداء من سقراط اعتاد الفلاسفة تفسير الحياة – الخاصة بالفرد والمجتمع – بارجاعها الى نسق من الأفكار المجردة أو المترابطة منطقيا (٢٨) . ومن ثم نجد أن دوركيم يطرح فى مواجهة ذلك وجهة نظره فيما يتعلق بالأصل الاجتماعى لمقولات

الادراك كالزمان والمكان والسببية . وهو بذلك يرفض برهنة كانت التى تؤكد ان هذه المقولات معطاة منذ البداية ، بينما يؤكد دوركيم على أصلها الاجتماعى . فرتابة الحياة الاجتماعية للتجمع هى التى دفعت الى ظهور فكرة الزمن ، والتوزيع الأيكولوجى للقبيلة هو الذى شكل أساسا لأفكارها عن المكان ، وهكذا فيما يتعلق بمقولة العلاقة السببية التى تشير ضمنيا الى فكرة الكفاءة الخاصة بالقوى الفعالة ، فالسبب هو شئ ما قادر على انتاج المتغير الاجتماعى (٢٩) . فى اطار ذلك نلاحظ ان رفض دوركيم لمثل هذه الأفكار استند أساسا الى طبيعة الادراك الوضعى والمنهج العلمى الذى يرى ان ادراك الباحث للحقيقة ينبغى أن يكون غير متحيز ، ورافضا لأية أفكار مسبقة عنها .

ويعتبر التركيز على الفرد فى مواجهة الجماعة من قبل بعض أجنحة الاتجاه المثالى - خاصة ذلك الجناح الذى يعتبر ماكس فيبر امتدادا له - النطاق الثانى لخلاف دوركيم مع المثالية . حيث كان هذا الخلاف انعكاسا لخلاف أساسى ساد فترة القرن السابع عشر حتى التاسع عشر بين الاتجاه الفردى الذى تمثلت ريادته فى الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت والذى يتصور العقل الفردى منعزلا عن المجتمع ، يتضح ذلك من اعلان ديكارت الشهير ( أنا أفكر فأنا موجود ) ، ومن ثم فقد جعل الانسان المفكر وليس الله أو المجتمع ، هو سيد قدره ومصيره . واستمرت هذه الرؤية الديكارتية منذ القرن السابع عشر حيث الايمان بأن عقل الانسان وشخصيته يشكلان الحقيقة الأساسية بينما المجتمع والثقافة والنظم ماهى إلا حقائق ثانوية مشتقة مما قد أرسى فى الفرد منذ الولادة .

غير انه بحلول القرن الثامن عشر وقيام الثورة الفرنسية تأسس اتجاه فكرى آخر يؤكد على أهمية التربية والبيئة التى تطبع كل شئ فى عقلية الفرد الذى يولد فى اطارها صفحة بيضاء . وهو التصور الذى ترسخ خلال القرن التاسع عشر بواسطة كل من هيجل والفلاسفة المثاليين المحافظين من أمثال دى بونال ، ودى ميستر . الذين أكدوا ان البداية ينبغى ان تكون دائما من المجتمع وليس الفرد (٣٠) .

بالنظر الى ذلك نجد ان دوركيم يتخذ موقفا يختلف فيه مع فلاسفة الأخلاق المثاليين ، حيث نجده قد اتهم من قبلهم بقهر أفضل مكونات الوجود بالنسبة لهم ، وهو الاستقلال الأخلاقى للفرد ، ومن ثم استحق من وجهة نظرهم ان يكون ماديا (٣١) . وان كنا نوافق المثالية النقدية أو الثورية فى بعض من هذا النقد لدوركيم ، فان موافقتنا تنطلق من ان دوركيم وان تحدث كثيرا عن تحرير الفرد من طغيان الدولة عن طريق تدخل الجماعات المهنية كحاجز بينه

وبين الدولة لحماية حريته ، فان دوركيم بذلك لم يكن يهدف الى ان يجعل من الحرية الفردية التزاما أخلاقيا . فالفرد بالنسبة لدوركيم لم يكن سوى تجريد مستغرق فى الجماعة الخاضعة بدورها للمجتمع (٣٢) .

وفى هذا الصدد ينبغى ان تدرك ان هناك فارقا دقيقا بين الرفض الدوركيمى للفردية بالمفهوم النفعى ، وهى الفردية التى لاترى سوى مصالحها دونما اعتبار للوجود الاجتماعى الكائن حولها ، وبين رفضه الفردية بالمعنى المثالى ، حيث لم تكن لها مصالحها التراثية ، ولكنها تهدد دائما باعادة صياغة المجتمع وتغييره لتشكيله وفقا لتصوراتها ومثلها القبلية الخاصة . ومن ثم فهى فردية مهددة للتفاعل والاستقرار الاجتماعى ، وهى المقولة التى تحتل مكانة جوهرية فى المشروع الدوركيمى فيما يتعلق بعلاقة الانسان بالمجتمع .

**ثالثا : دوركيم واستمرار الوضعية الفرنسية**

اتفاقا مع مايذهب اليه مارفن هاريس يمثل دوركيم عددا من الوجوه التى تستخلص منها الجهود المفسرة أنواعا من الزوايا الفكرية التى لايسهل التبنؤ بها ، فلقد صنف دوركيم على أنه كل شئ ابتداء من كونه ماديا الى كونه صوفيا غيبيا (٣٣) . يلقى الضوء على ذلك ان دوركيم شكل امتدادا لعناصر ومقولات مثالية كثيرة مثلما شكل بالمثل امتدادا لكثير من الأفكار الوضعية . بل ان الوضعية فى تفكير دوركيم شكلت على مايذهب تالكوت بارسونز الجانب الذى يقف فيه إميل دوركيم موقفا ايجابيا تطويريا ، بانه حافظ دائما على مفهوم الانفاق العام والتماسك وهو تصور سان سيمونى وكونتى أساسا (٣٤) .

ولقد كان منطقيا ان يشكل إميل دوركيم استمرارا للفكر الوضعى مادام الهدف الأساسى لهذا الاتجاه هو تأسيس علم الاجتماع وأعماله بفاعلية فى صياغة استقرار أو تغير الواقع الاجتماعى . ومن ثم فاننا غالبا مانجد تصنيف دوركيم فى سلة الوضعية غير انه مع ذلك له رفضه لكثير من قضاياها خاصة تلك التى لها طابع أيديولوجى .

أما فيما يتعلق باتصال دوركيم بالوضعية فنجده يرى ان استاذه الفكرى هو سان سيمون وليس أوجست كونت ، ومن ثم فمن الواضح أن دوركيم يعتبر سان سيمون وليس كونت رائدا عقليا له . اذ يؤكد ان فكرة الفلسفة الوضعية فى اطارها العام موجودة عند سان سيمون أساسا . ومن ثم فان هذا المفكر من وجهة نظره هو الذى يستحق الشرف المعطى عادة لأوجست كونت (٣٥) . ونتيجة لذلك نجد ان معظم القضايا التى اتفق فيها دوركيم مع الوضعية كانت تتصل بسان سيمون أساسا بينما كان رافضا دائما للقضايا الوضعية ذات النسب الكونتى .

ومما لاشك فيه بروز اتفاق دوركيم مع الوضعية فى اطار مجموعة مؤلفاته المبكرة ، حيث مثلت مؤلفاته تقسيم العمل الاحتماعى وقواعد المنهج فى علم الاجتماع ، المرحلة الحقيقية للالتزام الوضعى ، حيث يوجب على عالم الاجتماع ان يسلك مسلكا عقليا شبيها بالمسلك الذى ينهجه كل من عالم الطبيعة والكيمياء والفسيولوجيا حينما تناول بالدراسة بعض الظواهر التى لم تتضح بعد وتقع فى دائرة اهتمامه العلمى (٣٦) . وهو بذلك يقصد ان يكون علم الاجتماع على غرار علم الطبيعة والكيمياء ، ومن ثم فعليه ألا يعطى انتباها للاتجاهات السياسية السائدة وان يتجه الى دراسة حقائق الاجتماع وظواهر التعبير عن جوهرها ، فغايته علمية ، وان عليه ان يحاول التوصل الى القوانين التى تحكم هذه الظواهر (٣٧) . ثم يذهب الى أن الظواهر الاجتماعية هى التى ينبغى أن تشكل مادة هذا العلم ، ويحاول تحديد ماهية هذه الظواهر فيصوغ لها تشيؤا وتجسيدا واقعيا حتى تكون ميسرة لتناولها علميا ، ثم يحددها بقوله انها تتكون من أساليب التفكير والشعور ، وان لها وجودها الموضوعى (٣٨) .

فيما يتعلق بهذه القضية نجد اتفاقا تاما مع الوضعية يتعلق بضرورة ان يصبح علم الاجتماع علما ، بحيث تكون الظاهرة الاجتماعية مادته الأساسية ، يدرسها كما تتناول العلوم الطبيعية مادتها ، عن طريق تناولها تناولا موضوعيا بادراك علاقاتها السببية ، وليس ذاتيا كما تذهب الاتجاهات النظرية الأخرى التى تطالب بالبحث عن معنى الواقعية الاجتماعية .

وفى اطار مجالات الاتفاق نجد ان دوركيم يوافق مع سان سيمون على ان الأفكار أو القيم الأخلاقية هى العنصر الأساسى الذى يحافظ على تماسك المجتمع حيث ان المجتمع هو أساسا – مجتمع من الأفكار – التى يشكل تماسكها رابطة أخلاقية وايجابية تعمل على توحيد البشر فى المجتمع (٣٩) . هذه الأفكار والقيم الأخلاقية هى التى تتجمع ككل عند إميل دوركيم لتشكل فيما بعد نوعا من الضمير الجمعى الذى يكون من وظيفته الأساسية المساعدة على تكامل تفاعلات النسق (٤٠) .

بالإضافة الى ذلك يتفق إميل دوركيم مع سان سيمون حول الشكل البنائى الذى لاتشكل العملية الصراعية محورا له . فهما معا اتفقا على ادانة النظرة النقدية الثورية . اذ أكد دوركيم على ضرورة ان تكون الفلسفة المعاصرة تركيبية تنظيمية وليست نقدية ثورية . أما الشكل البنائى الذى نال رضاهما فهو الشكل الذى يمتلك وحدة أساسية . هذا البناء يحتوى على نوع من تقسيم العمل بين عناصر متآزرة ومتعاونة . وعلى هذا النحو يؤكد سان سيمون فيما يتعلق بتقسيم العمل الطبقى وعلاقاته الداخلية بقوله فى الحديث عن رجال الصناعة ( انهم لايضدرون

الأوامر ولكنهم يعبرون عن طبيعة الأمور ) .. ثم يؤكد ان هؤلاء الذين يوجهون ليسوا فوق هؤلاء الموجـهين .. فـهم ليسـوا الملاحظين عليـهم ، ان كل مـا فـي الأمر انـهم ينجـزون وظائـف مختلـفة [٤١] .

الى جانب ذلك اتفق دوركيم مع سان سيمون حول اعتبار ان المجتمع ليس ببساطة مجتمعا مع الأفراد ، ولكنه واقع أو حقيقة مفسرة لذاتها ، هذه الفكرة نجدها عند سان سيمون معبرا عنها صراحة حينما يقول : ( ان المجتمع أساسا عبارة عن آلة منظمة ، تساهم كل من أجزائها بأسلوب مختلف فى حركة الكل ) [٤٢] .

والى جانب نقاط الاتفاق هذه بين دوركيم والوضعية هناك عديد من القضايا التى اختلف مع الوضعية بشأنها . سواء تلك القضايا التى تتعلق بالمستويات المنهجية أو تلك التى تتعلق بالجوانب العينية للواقع الاجتماعى أساسا . وفيما يتعلق بالقضايا الخلافية على المستوى المنهجى نجد انه اذا كانت المباحث الأساسية لعلم الاجتماع فى هذه المرحلة تنقسم الى علم الاجتماع الاستاتيكى ( المورفلوجيا ) وعلم الاجتماع الديناميكى ( الذى يهتم بقضايا التغير والتطور ) . فى اطار ذلك نجد ان دوركيم يختار العمل أساس فى اطار الاستاتيكا الاجتماعية . وفى هذا الصدد نحن نتفق مع ارفنج زاتلين فيما ذهب اليه من انه اذا كان كارل ماركس قد طور الجناح الثورى فى تفكير سان سيمون فان دوركيم قد طور الجناح المحافظ فى تفكير ذات المفكر [٤٣] . هذا الى جانب أننا نتفق مع تالكوت بارسونز فى ان الاختلاف الأساسى بين دوركيم وكونت يكمن فى ان الأول لم يشارك الثانى اهتمامه البارز بقضايا الدينامية الاجتماعية Social Dynamics وانما اهتم أساسا بما سماه كونت الاستاتيكا الاجتماعية Social Statics حيث كانت قضية النظام هى القضية الجوهرية بالنسبة لدوركيم فى هذه المرحلة [٤٤] . فقد كان دوركيم يرفض النزعة التطورية التى اهتم بها كونت الى حد كبير والتى شكلت الخلفية الفكرية لأنساق نظرية عديدة آخرها النسق النظرى الماركسى . وبالنظر الى ذلك نجد ان دوركيم يرفض امكان التنبؤ بالمستقبل باعتبار ان العلم الاجتماعى لم ينضج بعد لأداء هذه المهمة ، ومن ثم فهو يرفض شعار التقدم الذى رفعه كونت ، هذا بالاضافة الى أنه اختزل بعد الماضى فى شكل بنائى واحد هو مجتمع التضامن الآلى [٤٥] .

ويتمثل الخلاف الثانى حول طبيعة العوامل الدافعة للسلوك الاجتماعى فى اطار بناء المجتمع ، فبينما تذهب الوضعية الى القول بأن سلوك الانسان يتأثر بعاملين أساسيين هما عامل الوراثة – تحت تأثير ارتفاع شأن علم البيلوجيا فى هذه المرحلة ، الى جانب تأثير

المعطيات التى جمعت عن معظم الشعوب البدائية والتى كانت مراكزها البنائية تنتقل بشكل وراثى عبر الأجيال ، وعامل البيئة – تحت تأثير ان الانسان يشكل جزئية من الواقع المحيط به – فى اطار ذلك نجد ان دوركيم ينتقد أولا امكان ان تكون هناك أية قيمة تفسيرية للعوامل التى تبناها الوضعيون المؤمنون بالفردية individual positivists سواء كانت هذه العوامل بيئية environmental أو بيلوجية Biological أو سيكلوجية Psychological (٤٦). وهو مانجد أن دراسته فى الانتحار تعتبر من وجهة النظر هذه ردا واضحا على هذه الادعاءات . هذا بالاضافة الى برهنته على أن الوراثة تفقد فاعليتها كلما تقدم الذكاء الانسانى (٤٧) . أو بسبب اختلاط الاجناس (٤٨) . أو بالنظر الى نتائج الدراسات الكثيرة التى أجراها جالتون (٤٩) . وفى رفضه لتأثير العوامل البيئية يؤكد أن الحيوان الى حد كبير يستمر تحت التأثير الكامل لفاعلية البيئة الطبيعية ، حيث يتحكم تكوينه البيلوجى فى وجوده . أما الانسان فعلى العكس من ذلك ، فان وجوده يعتمد على أسباب اجتماعية (٥٠) .

أما فيما يتعلق برفضه للعامل السيكلوجى فيتضح من رفضه للرابطة التى يزعمها النفعيون بين التقدم الحضارى وزيادة السعادة ، وذلك من خلال دراسته للانتحار حيث أوضح مشاعر اليأس التى بدأت تنتاب الانسان المعاصر فتدفعه الى الانتحار وأكثر المؤشرات دلالة على ذلك ارتفاع معدلات الانتحار الأنانى وانتحار الأنومى (٥١) .

ويختتم دوركيم هذه المناقشة حول مدى فاعلية العوامل الفردية فى تأسيس الفعل الاجتماعى والتحكم فى مساره بقوله ان تركيب الجماعة مخالف لتركيب الفرد كما تختلف العوامل التى تؤثر فى الجماعة عن تلك المؤثرة فى الفرد (٥٢) . وفى أعقاب ذلك نجده يؤكد خضوع الانسان فى انجازه لسولكه لما يمكن أن يسمى بالبيئة الاجتماعية . اذ يذهب الى القول بأن السبب الذى يزيد من أهمية البيئة الجمعية هو ذاته الذى يضعف من أهمية البيئة العضوية بما يجعلها أكثر طواعية للانسان وخلفيته الاجتماعية . ثم يذهب الى أنه فيما يتعلق بالانسان وخاصة فى المجتمعات الأكثر تقدما ، فان الأسباب الاجتماعية تحل عادة محل الأسباب العضوية ، بمعنى أن الكائن العضوى يصبح روحيا (٥٣) . ثم نجده يحدد بشكل ايجابى طبيعة البعد الاجتماعى بالنظر الى محكات الخارجية exteriority والالتزام Constraint ، وانه بذلك لا يمكن ارجاعه الى الوراثة أو البيئة غير الاجتماعية (٥٤) .

بالاضافة الى مجموعة الخلافات المنهجية بين دوركيم والوضعية وخاصة الكونتية نجد ان له معها بعض المواقف الخلافية حول بعض القضايا العينية .

فمنذ البداية نجد ان لدوركيم خلافا حادا فيما يتعلق بظاهرة تقسيم العمل الاجتماعى ، الذى يعانى نظاما جديدا لاسلوب ترابط أفعال الأفراد بما يعمق البعد الاجتماعى فى كل منهما بحيث تؤدى وظائفها متآزرة بما يشهد على تقسيم عمل فعال وملائم . فى اطار ذلك نجد ان كونت يدرك التطورات الصناعية الجديدة ، وتشتت المصالح المرتبط بها باعتباره تهديدا لوحدة وتضامن المجتمع القائم واعاقة للوحدة الاجتماعية والسلام فى المستقبل (٥٥) . فهو يرى فى التخصص على مايذهب جولدنر تهديدا مدمرا لضرب التقدم المنظم . ومن هنا وجدنا ان تقسيم العمل الاجتماعى كمؤلف صاغه دوركيم ليس سوى حوار مع الوضعية الكونتية فى جانب منه ، اذ يؤكد دوركيم ان تقسيم العمل يمكن أن يقود الى نتيجة مختلفة تماما عن تلك التى توقعها كونت ، أى الى شكل جديد وأرقى فى التماسك الاجتماعى أو التضامن العضوى ليحل محله التضامن الآلى الذى يعتمد تكامل وجوده على مجرد تماثل الوعى بين الأفراد بينما يعتمد التكامل فى الثانى على تباين وتخصص الوظائف والأفعال (٥٦) .

واذا كان تقسيم العمل يقود الى تنافر المصالح عند كونت ، فانه منطقيا ان يقود الى الفوضى والى حالة أشبه ماتكون بحالة الحرب الهوبزية حيث يندفع الكل فى حرب ضد الكل ، ومن ثم فلكى يتجنب كونت هذه الحالة من الفوضى يفرض حلا شبيها بالحل الهوبزى ، وهو الحل الذى يسميه بالاتفاق الجماعى المفروض ، حيث ينادى باتفاق اجتماعى وأخلاقى يسود المجتمع ككل وتفرضه الدولة بالقوة Conforced by the state (٥٧) وهو مايؤكده ألفن جولدنر حيث يذهب الى أن أحد أسباب تأليف دوركيم لكتابه تقسيم العمل الاجتماعى هو مواجهة ذلك التيار الذى قاده الألمانى شيفله تأثرا بكونت ، والذى يؤكد فى اطاره على ضرورة ترسيخ الاتفاق الأخلاقى بفاعلية نظرا لأهميته بالنسبة للنظام الاجتماعى (٥٨) .

فى مواجهة ذلك نجد أن دوركيم يرفض منطق الاتفاق الاخلاقى الذى قد يكون ملائما لمجتمع التضامن الآلى لحفظ وحدته الاجتماعية وتماسكه غير أنه يصبح بلا معنى فى اطار مجتمع التضامن العضوى ، الذى يتأكد تكامله بتباين أفعاله وتآزرها . هذا بالاضافة الى أن دوركيم يرفض دورا بارزا للدولة ، اذ يؤكد أن ضعف الضمير الجمعى لمجتمع التضامن الالى مسألة حتمية وعادية ، ولايمكن اعتباره أحد أسباب تقسيم العمل الشاذ abnormal . وأن ماهو مطلوب لكى يتحقق التضامن العضوى أن ينشأ تنظيم regulation يحدد العلاقات المتبادلة بين الوظائف (٥٩) . بذلك يؤكد دوركيم على ضرورة نشأة العمل التنظيمى الذى يؤكد التآزر بين الأعمال المنتجة . ثم يؤكد أن ماقد يتبدى من صراع وفوضى ليس نتيجة لإنهيار النظام

الاخلاقى القديم ولكنه نتيجة لغياب نظام أخلاقى ملائم . وفى مواجهة تأكيد كونت على كفاءة الدولة كوسيلة لفرض النظام الاجتماعى وضبط تكامله ، نجده يذهب الى أننا وأن كنا فى حاجة الى العلاقات المنظمة للوظائف والأعمال ، إلا أن كونت كان مخطئا حينما عين الوظيفة التنظيمية للدولة فقط . ذلك لأن الحياة الاقتصادية الحديثة أكثر تعقيدا من أن تعطى لنظام واحد كالدولة . ثم يذهب الى أن مايصلح لأداء هذه المهنة هو الجماعات أو النقابات المهنية الموجودة فعلا والتى ازدهرت فى القرون الوسطى والتى يمكن احياؤها تحت الظروف الجديدة . فهى التى يمكن أن تساعد على أداء هذه الوظيفة التنظيمية التى أدتها بكفاءة فى الماضى . ثم يذهب الى أنه ينبغى ان يصبح الجماعة المهنية أساسا للأخلاق المهنية . ويستطرد مؤكدا أن النقابات المهنية ينبغى أن تصبح نظاما عاما . بحيث تكمن وظيفتها الأساسية فى تأسيس مبادئ شرعية وأخلاقية تنظم بالنظر اليها العلاقات بين مختلف المهن والطبقات . ويرى دوركيم فى هذه الجماعات ممثلا للعمال وأصحاب العمل . بحيث يؤدى وجودهما على هذا النحو الى استحالة قيام الصراع بينهم (٦٠) . بالاضافة الى ذلك فانها يمكن أن تؤدى دورا تحمى فى اطاره الفرد فى مواجهة طغيان الدولة . وهنا نجد أن دوركيم يرى أن الجهد التنظيمى ينبغى أن يكون وظيفة الجماعات المهنية وليست الدولة . وهو بذلك يحاول احياء هذه الجماعات لكى تشكل سياقات مماثلة لتلك السياقات العائلية التى سادت مجتمع التضامن الآلى والتى كانت قريبة من الانسان تمارس ضبطه وتآزر فعله بشكل مباشر ، وهو حل رفضه كل من هوبز ، روسو ، كارل ماركس .

خلاصة القول أن هناك آراء خلافية متعددة طرحت بشأن علاقة دوركيم بالوضعية ، فمن قائل أنه بدأ وضعيا صارما وانتهى نهاية مثالية واضحة (٦١) . ومن قائل بأن دوركيم كان يمثل موقفا وسطا بين الوضعية والمثالية . يتجلى ذلك بأوضح مايكون من دراسته الشهيرة ( الأشكال الرئيسية للحياة الدينية ) (٦٢) . والحق أن بحث علاقة دوركيم بالوضعية ينبغى النظر اليها فى ظل الاعتبارات الأساسية التالية :

١ - ان دوركيم وان اتفق مع الوضعية - كونت - فى ضرورة الغاء الفارق بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة الاجتماعية . ومن ثم فعلى علم الاجتماع أن يدرس هذه الظاهرة باستخدام مناهج العمل الطبيعى . وهى المرحلة التى عبر عنها بمؤلفه ( قواعد المنهج فى علم الاجتماع ) . غير أنه فى هذا الاطار قد اختلف مع كونت من حيث تركيز الأول على قضية النظام وليست الديناميكية أو التطور . وأيضا رفضه لعوامل التفسير الكونتية

للسلوك بالنظر الى عوامل الوراثة والبيئة . هذا الى جانب رفضه المتعدد لكثير من الفرضيات الكونتيه على المستوى العينى .

٢ - أن دوركيم صاغ حوارا مع معظم الاتجاهات النظرية التى سادت عصره ، فهو أن اختلف مع المثالية فى مدى قدرة الفرد وأولويته على المجتمع اتفق معها حينما استعار من هيجل فكرة العقل الجمعى (٦٣) . وهو وان اتفق مع الوضعية فى تطبيقه لمنهج العلوم الطبيعية فى دراسته الظواهر الاجتماعية إلا أنه اختلف معها فى مسائل كثيرة كطبيعة العوامل المفسرة للفعل الفردى والاجتماعى ، ومن ثم فمن الخطأ افتراض أن دوركيم أما أن يكون وضعيا أو مثاليا ، وأنما الصحيح أن له رفضه وقبوله لقضايا أى من الاتجاهين النظريين .

٣ - أننا يمكننا أن نزعم أن إميل دوركيم طور نوعا من الوضعية ذات الطبيعة الخاصة ، فهى وضعية تختلف فى بعض من ملامحها عن الوضعية الكونتية التى رفضها ضمن رفضه للنظريات الفرديةوضعية كانت أم نفعية (٦٤) . بالاضافة الى ذلك فان قول دوركيم بفكرة العقل الجمعى ، وهى فكرة فلسفية استعارها عن هيجل أساسا ، لايعنى أنه قد أصبح مثاليا . وأنما هو قد حاول اخضاع الاظهارات الجمعيه بما تضمه من ظواهر لمنهج البحث فى علم الاجتماع . ومن ثم فحقيقة الأمر أنه قد حاول توسيع نطاق البحث العلمى الوضعى لكى يشتمل على هذا النوع من الظواهر ، التى آمن دوركيم فى فترة أخيرة من حياته أنها تختلف عن بقية الظواهر الطبيعية (٦٥) . ومع ذلك فمن الضرورى معاملتها كأشياء خارجية لها واقعها الخارجى عن الفرد والملزم له .

### رابعا : دوركيم والقطيعة مع المذهب النفعى

لانتفق كثيرا مع ماذهب اليه ارفنج زايتلن من أن المشروع الدوركيمى كان موجها بصفة أساسية نحو المشروع الماركسى أو استجابة لشبح كارل ماركس . اذ تكشف تحليلات كثيرة ، أن النظرية الدوركيمية كانت موجهة فى قسم كبير منها نحو الفكر النفعى فى شخص أكثر رواد النظرية النفعية بروزا وهو هربرت سبنسر . بل أن كثيرا من المفكرين يؤكدون أن دراسة الانتحار كانت فى أساسها ردا فكريا على قول اتباع المذهب النفعى ان كم السعادة يزداد بازدياد التخصص وتقسيم العمل (٦٦) . مثلما كان تقسيم العمل الاجتماعى ردا فكريا على أوجست كونت الذى رأى فيه تهديدا تدميريا لاتفاق المجتمع العام (٦٧) . بل أن تالكوت بارسونز يؤكد أنه لدراسة علاقة دوركيم بالفردية النفعية . فان ذلك يستوجب منا توضيح القضايا

الأساسية التى يؤكد عليها هذا الاتجاه الذى شكل اطارا مرجعيا سلبيا (٦٨) . أثار فى دوركيم ضرورة مناقشة ورفض عدد من قضاياه .

ولتحديد علاقة دوركيم بالاتجاه النفعى نرى أن هناك ثلاثة قضايا أساسية احتدم حولها الخلاف والجدل بين دوركيم والنفعية . وتتعلق القضية الأولى بنشأة النظام الاجتماعى وتأسسه ، وأما القضية الثانية فتتعلق بفاعلية النظام وتفاعله وتنظيمه الداخلى ، أما القضية الثالثة فتتعلق ببواعث السلوك الاجتماعى وغاياته .

أما فيما يتعلق بالقضية الأولى المتعلقة بنشأة النظام الاجتماعى وتأسسه فنجد أن المذهب النفعى من خلال هربرت سبنسر يذهب الى أن المجتمعات فى أزمنة بعيدة كانت تتكون من مجرد بعض الأفراد المستقلين والمتجاورين . هذه المرحلة يمكن أن نسميها صفر الحياة الاجتماعية . على عكس ذلك نجد أن دوركيم يؤكد أن حياة البداءة كانت تتمتع بحياة جمعية Collective life قوية للغاية ومفسرة لذاتها . هذه الحياة تظهر نفسها ليس من خلال التعاقدات والتبادلات الاقتصادية وأنما من خلال مجموعة من المعتقدات والممارسات المشتركة (٦٩) . وذلك يعنى اعتقاد دوركيم فى ان الأصل المعيارى للمجتمع سابق على تأسيس الأفراد ، يؤكد ذلك قول دوركيم ان الانسان فى حالة الاجتماع الأوربى كان لا أخلاقيا Amoral (٧٠) . ويعنى ذلك أيضا ان ما يسمى مجتمعا تحقق حينما تخلفت أخلاق تنظيم حياة الأفراد المنفصلين . ومن هنا فليس يكفى شرط وجود أفراد مستقلين ومتجاورين فقط لكى يوجد المجتمع .

وتتعلق القضية الخلافية الثانية بالأصل الفردى للمجتمع وهو الشعار الذى رفعه الاتجاه النفعى ، حيث يرجع هربرت سبنسر ماهو اجتماعى ال مكونين أساسيين أما المكون الأول فيتمثل فى الشروط الخارجية أو الظروف البيئية الكونية ، ويتمثل المكون الثانى فى الشروط الداخلية أو الظروف العضوية والنفسية أو الفردية ، مع التأكيد على أن فاعلية المكون الأول لابد ان تتم من خلال الثانى (٧١) . ويرتبط بذلك قضية أخرى تتصور حالة الاجتماع عبارة عن تجمع أساسى لمجموعة من الأفراد الذين من أجل الحياة لابد ان يبحثوا عن التعاون لتأمين وجودهم الاجتماعى ، ومن ثم يصبح التعاون حالة اضافية (٧٢) . فى مواجهة القضية الأولى نجد أن دوركيم يؤكد ان سبنسر يخطئ حينما يتصور ان عالم الاجتماع كعالم الرياضة يستطيع أن يستنتج من شكل عدد من الكرات الشكل الذى تتوازن فيه . بالنظر الى ذلك يؤكد دوركيم ان الكل هو الذى يحدد شكل الأجزاء ، فالمجتمع يرسى ركائزه فى ضمائر الأفـــراد ،

دون ان يستمد هذه الركائز من ضمائر الأفراد (٧٣) . ومن ثم فمن الزيف ان نفترض ان الكل مساو لمجموع أجزائه (٧٤) . أو انه يشتق خصائصه من خصائص هذه الأجزاء . أما القضية الأخرى فهى التى تؤكد على فكرة العقد الاجتماعى كأساس لنشأة النظام الاجتماعى واستمراره ، حيث نجد ان دوركيم يؤكد انه اذا كان المجتمع فى حالته الصفرية يتشكل من مجموعة من الأفراد المستقلين والمتجاورين ، فان هذه الحالة تضعهم أمام احتمالين . الصراع على الطريقة الهوبزية أو التعاون واستمرار الانسان . وهو مايؤكد بحث الأفراد فى حالة البداءة عن صيغة للتعاون لكى يتجنبوا الصراع . ويؤكد سبنسر ان الانسان فى البداية اكتشف حاجاته للآخرين ، لأنه يعجز وحده عن اشباع حاجاته ، وهو مادفعه الى تأسيس العلاقات مع الآخرين (٧٥) . وبذلك يؤسس سبنسر بناء المجتمع ونظامه على أساس من العلاقات الاقتصادية التى تهدف الى اشباع حاجات أساسية لدى الانسان الفرد .

ويعنى ذلك انه فى ظل مثل هذه الظروف فان الصلة الوحيدة الباقية بين البشر هى تلك التى تدعم التبادل الحر . حيث تصبح هذه العلاقة هى السائدة فى المجتمع مادام النشاط الفردى هو الأساس . ثم يؤكد انه فى المجتمع الصناعى الكامل النمو فان العلاقات التعاقدية تصبح هى النمط السائد (٧٦) . ويؤكد سبنسر متفقا فى ذلك مع سائر رواد المدرسة النفعية ان النظام الاجتماعى بكامله ليس سوى نظام شامل من التعاقدات الخاصة التى تربط الأفراد ببعضهم البعض حيث تصبح هى الأساس الوحيد لذلك . ومن ثم لاترى النفعية فى التضامن الاجتماعى سوى نوع من التوافق التلقائى للمصالح الفردية . وهو التوافق الذى تكون التعاقدات هى التعبير الطبيعى عنه ، ومن ثم فالعلاقة الاجتماعية النمطية هى العلاقة الاقتصادية الخالية من أى تدخل تنظيمى ، والناتجة عن المبادأة الفردية الحرة لأطرافها (٧٧) .

فكأن سبنسر أراد أن يجعل الثورة المعيارية للمجتمع ناتجا طبيعيا عن مجموعة التعاقدات التى تتأسس بين أفراد المجتمع . فى مواجهة ذلك نجد انه تحت تأثير الفكر الألمانى وبخاصة فلهلم فونت الذى اهتم أساسا بالعلاقة بين السلوك والمعتقدات الأخلاقية فان دوركيم يرفض قول النفعية بأن مصدر الأفكار الأخلاقية يكمن فى الفرد الذى يخلقها من خلال عمليات الحساب الرشيد للمصلحة الذاتية ،. فهو يؤكد أن الأخلاق لايمكن نسبتها الى التعقل والحساب الرشيد ، ذلك ان نتائج أفعالنا ودوافعها تذهب الى أبعد من دافعها الأصلى (٧٨) .

بالاضافة الى ذلك نجد ان دوركيم يؤكد ان فكرة العقد الاجتماعى كأساس للنظام الاجتماعى فكرة لايمكن الدفاع عنها لأنها تفقد أية صلة بالحقائق الموضوعية . فليس هناك ملاحظ أشار اليها الى جانب انه ليست هناك مجتمعات لها مثل هذا الأصل ، وليس هناك بناء يمكن نسبته الى التنظيم التعاقدى ، فالتعاقد ليس حقيقة موجودة فى التاريخ ، ولا هو اتجاه نشأ من خلال التطور التاريخى (٧٩) . ويؤكد دوركيم ان الفعالية الحقيقية لأى تعاقد بين الأفراد تعتمد أساسا على فكرة باطنية أو داخلية فى ان هناك شيئا ما يسمو على التعاقد ، ومتضمنا فيه ، شيئا ما سابقا على العقد وساميا عليه ، وكذلك الأمر بالنسبة للأفراد المتعاقدين (٨٠) . وفضلا عن ذلك يؤكد دوركيم انه لا يوجد شئ فى عنصر المصلحة الفردية يمكن ان يربط شخصين إلا لمدة موجزة وعابرة . وحيثما قامت علاقات البشر على أساس من المصلحة ، فانها لن تدوم أكثر من لحظات قصيرة ، فليس هناك شئ أقل دواما من المصلحة ، فاليوم قد تربطنى بك ، إلا أنها غدا قد تجعلنى عدوا لك (٨١) .

ويؤكد دوركيم ان هناك عنصرا معياريا لا تعاقديا موجوداً فى أى عقد يستند الى الالزام الأخلاقى أو الدينى أو القانونى أو كل هذه مجتمعة . واننا اذا قلنا ان العقود الموجودة منذ القدم وفى قلب التاريخ ، فان ماهو موجود أيضا مجموعة من الأوامر والنواهى المنبثقة من مصادر خارجية عن العقد وسامية عليه . وبإيجاز يؤكد دوركيم ان العقد ليس كافيا ، ولكنه ممكن فقط بالنظر الى تنظيم التعاقد وهى قضية اجتماعية فى أساسها (٨٢) . ثم يذهب الى ان اتفاق المتعاقدين لا يعنى صحة العقد اذا لم يراع شروط الصحة المحددة بواسطة القانون ، فهناك من المعايير مايؤكد رفض العقد وبطلانه اذا تم تحت ظروف القهر أو اذا كان لغرض منحرف ، أو اذا افتقد أحد أطرافه أهلية التعاقد (٨٣) .

ويذهب دوركيم الى أبعد من ذلك فيؤكد اننا اذا اتفقنا على ان التعاقدات الفردية هى كمصدر النظام الاجتماعى باعتبارها عناصره التكوينية المؤسسة ، فان هذا النظام لكى يصبح نظاما اجتماعيا تتحقق فى اطاره المناشط التى أراد النفعيون - وخاصة الاقتصاديون - تحقيقها من تأسيسه ، فان ذلك يستلزم سيادة نوع من النظام الذى يحتوى على مجموعة من القواعد المنظمة ، حيث انه بدون هذه القواعد تصبح حالة الاجتماع مهددة بالانحدار ثانية الى حرب الكل ضد الكل . هذا النسق من القواعد المنظمة هو عبارة عن نسق القواعد المعيارية (٨٤) .

أما القضية التالية التى دار حولها حوار مع الموقف النفعى فتتعلق بدوافع السلوك التى أراد النفعيون ارجاعها الى دوافع داخلية ذات طبيعة سيكولوجية . فى اطار ذلك فان الغرض الحقيقى من مؤلفه قواعد المنهج فى علم الاجتماع هو ان يوضح بكل وسيلة زيف ارجاع ماهو اجتماعى لما هو سيكولوجى . حيث يؤكد ان مفكرين مثل سبنسر فى انجلترا وتارد فى فرنسا استمرا فى البحث عن تفسير النظم الاجتماعية والأساليب الجمعية للسلوك ، بحالات أو عناصر مستمدة من الوعى الفردى . وذلك مايصفه دوركيم دائما للزيف ، وهو مماثل للزيف الذى نرجع فى اطاره ماهو سيكولوجى لما هو بيولوجى ، وماهو بيولوجى لما هو كيميائى . وفى موضع آخر نجد أن دوركيم يؤكد ان الحقائق الاجتماعية لا تختلف فقط عن الحقائق السيكولوجية من ناحية النوع ، ولكن لكونها من فئة مختلفة ، حيث تنمو الحقائق الاجتماعية فى وسط مختلف ، بل وتعتمد على شروط أو ظروف مختلفة (٨٥) . وفى موضع آخر يذهب دوركيم الى القول ( بان مادة الحياة الاجتماعية ) لايمكن تفسيرها بعوامل سيكولوجية خالصة ، أعنى بواسطة حالات الوعى الفردى التى تبدو واضحة للغاية بالنسبة لنا . فالجماعة تختلف عن الفرد من حيث التكوين والعوامل التى تؤثر فيها اذ نجدها من طبيعة مختلفة ، ولكى نفهم الأسلوب الذى يفكر به المجتمع فى ذاته وفى بيئته فان على الباحث ان يهتم بطبيعة الأفراد ، وحتى الرموز التى تعبر عن تصورات الأفراد تختلف وفقا لنموذج المجتمع (٨٦) .

بالنظر الى ذلك نجد ان الاتجاه النفعى من خلال سبنسر يحاول تفسير السلوك بالنظر الى السعادة ، ومن ثم فدوافع السلوك ذاتية بطبيعتها ولذلك فهى تحاول نسبة السلوك الانسانى دائما الى دوافع داخل الانسان (٨٧) . وبتطبيق ذلك على الفعل والسلوك فى اطار تقسيم العمل الاجتماعى يحاول سبنسر أن يفسر ذلك بالنظر الى السعادة التى يتخيلها الانسان من وراء ذلك . فهو يذهب الى أن تقسيم العمل يمكن أن يقوم تحت التأثير الشامل للأسباب السيكولوجية والفردية . فالحاجة الى السعادة هى التى تدفع الانسان الى التخصص أكثر فأكثر (٨٨) . اذ يؤكد سبنسر أنه كلما زاد التخصص بين البشر زاد انتاجهم ، وارتفع مستوى اشباع حاجاتهم وعاد عليهم ذلك بالسعادة . وكلما تقدم تقسيم العمل ارتفع مستوى سعادة الانسان . غير ان دوركيم لايوافق على هذه المقولة ، مؤكداً على إننا أننا عادة ماناتى أفعالنا لاشباع حاجات اجتماعية .. أننا حينما نتضرع الى الله ، أو نزرع أرضنا قمحا أو نتزوج من فتاة جميلة ، أو ندفع الضرائب التى علينا ، فاننا بذلك نطيع حقيقة ترسم لنا مسالك هذه الأفعال التى قد لا

ترغب فرديتنا فى انجازها ، ومع ذلك فنحن نطيعها لأنها أكبر وأقوى من ذواتنا الفردية (٨٩) . بذلك يقدم دوركيم خلافا ضمنيا مع الاتجاه النفعى حول طبيعة الفعل أو السلوك ، فبينما السلوك ارادى من وجهة النظر النفعية لاشباع دوافع ذاتية لدى الانسان ومنبثقة من داخله نجده لا ارادى عند دوركيم مفروضا على الانسان أن ينجزه لأن فى ذلك اشباعا لحاجة لدى المجتمع.

فيما يتعلق بالسياق الاجتماعى الذى يتم فى اطاره الفعل أو السلوك نجد أنه يتكون من وجهة النظر النفعية من الأنا والآخر اللذين يشبعان حاجاتهم من خلال التبادل التعاقدى للمصالح . هذا التعاقد الذى قد يشكل قواعد معيارية تحكم السلوك ، من هنا نجد أن الموقف أو السياق الاجتماعى لديها ناقص لأنه يفتقد الجهد التنظيمى الذى يتولى ضبط هذه الأفعال وصياغة تآزر بينها . والحق أن النفعية تسقط عن وعى أهمية الجهد التنظيمى ووسائله ، حيث نجدهم يفترضون وجود القوانين الأساسية للاقتصاد بذاتها حتى ولو لم توجد أمم أو دول فى العالم ، فهم يفترضون وجود الأفراد الذين يتبادلون حاجاتهم (٩٠) . ويرتبط بذلك أن الاتجاه النفعى يرى أن هناك نوعين من الضبط الاجتماعى فى الموقف . أحدهما الضبط الايجابى الذى يفرض على الانسان من سلطة ما أن يأتى افعالا أو سلوكيات معينة ، أو يأتيها وفقا لاعتبارات محددة . والضبط السلبى الذى يعنى الامتناع عن التدخل فى أفعال الانسان وهو يرى أن الأول لا لزوم له بينما الضبط السلبى هو ما ينبغى أن نأخذ به (٩١) .

لذلك نجد أنه اذا كان الاتجاه النفعى يركز على ارادية الانسان وتلقائيته فى انجازه لسلوكه بالنظر الى دوافعه الداخلية فى موقف ليس فيها سوى الضبط السلبى الذى يستند أساسا فى فاعليته الى شخص الانسان ، فاننا نجد أن دوركيم يؤكد موقفا مضادا . ففى مقابل الارادية النفعية نجد ان دوركيم يعرف الحقائق الأخلاقية Moral Facts بأنها ( قواعد السلوك ذات الجزاء ) . فالسلوك الأخلاقى ليس بالضبط الوسيلة أو الطريقة المعتادة للتصرف أو الفعل ، ولكنه قبل كل شئ أسلوب ملزم لأداء الفعل ، وأنه ليس متروكا لهوى التحكم الارادى للفرد (٩٢) . ثم يؤكد أن أشكال الفعل أو السلوك لايبتدعها الفرد . وانما هى تشكل جزءا من نسق الالتزامات الاخلاقية التى يرتبط من خلالها بالبشر الآخرين . وقد يحدث أن يهزأ الفرد بأى من الالتزامات ، غير أنه اذا فعل ذلك يشعر بقوتها وطبيعتها الملزمة Constraining character فحتى اذا حررت نفسى وكسرت بحرية هذه القواعد فانه يصبح مفروضا على أن أناضل

ضدها ، وهى أثناء ذلك تجعلنى أشعر بقوتها الملزمة عن المقاومة التى تقدمها (٩٣) . وذلك عن طريق وسائلها العديدة كالبوليس والقانون والمحاكم .

خلاصة القول أن الموقف النفعى يرى فى الفرد أولوية على الوجود الاجتماعى الذى يتحول لديه ليصبح احدى الوسائل فى موقف الانسان الفرد ، التى تساعد على التكيف مع الطبيعة ، ومن ثم يتحول المجتمع لدى أنصار هذا الاتجاه الى مجرد وسيلة لاشباع حاجات ذات طابع فردى أساسا . بينما على الطرف المضاد نجد دوركيم لايرى فى الموقف الاجتماعى سوى المجتمع الذى يفرض على الأفراد حاجاته غايات لأفعالهم وسلوكياتهم . وهما موقفان بينهما من الافتراق أكثر مما بينهما من الالتقاء .

## خامسا : دوركيم ونطاق الخلاف مع الماركسية

كان دوركيم أقل أقرانه – ماركس ، ماكس فيبر – اهتماما بالاحداث السياسية الكبيرة التى سادت عصره ، لهذا وسمت أعماله بالطابع الاكاديمى أساسا (٩٤) وقد انعكس ذلك على طبيعة حواره مع كارل ماركس . فهو لم يرفض القضايا الماركسية وأن قدم معالجات لبعض القضايا التى تعرض لها ماركس . من أجل ذلك لانتفق مع مايذهب اليه أرفنج زايتلن من أن المشروع الدوركيمى كان حوارا مع الشبح الماركسى ذلك أن دوركيم قد حاور مختلف التيارات الفكرية لعصره . رفض قضايا بعضها مثلما الحال فى حواره مع الاتجاه النفعى وتبنى قضايا البعض الآخر مثلما الحال بالنسبة للمثالية والوضعية ، وقدم وجهة نظر أخرى فيما يتعلق بقضايا البعض الثالث ، مثلما الحال فى حواره مع الماركسية .

ولقد بدأ اتصال دوركيم بالماركسية من خلال اهتمامه بالأفكار الشيوعية والاشتراكية التى سادت عصره . اذ بدأ اهتمامه بقضايا الاشتراكية منذ بداية ١٨٨٣ ، وهو ذات الوقت الذى بدأ فيه خطة مؤلفه تقسيم العمل ، وبينما هو يتقدم فى تأسيس تقسيم العمل ، الانتحار ، العائلة ، والأشكال الأساسية للحياة الدينية . نجده قد أسس مجموعة من الدراسات الشاملة التى انتقل عبرها من الاهتمام بالاشتراكية الى الاهتمام بعلم الاجتماع وعدد من القضايا الأخلاقية . ومع ذلك فقد لاحظ مارسيل موس Marcel Mauss أن دوركيم لم يفقد اهتمامه بنقطة البداية ، وحينما بدأ ثانية فى عام ١٨٩٥ فى الاهتمام بدراسة الاشتراكية حيث ألقى سلسلة من المحاضرات عن هذا الموضوع فى جامعة بوردو Bordeaurx ، إذ حاول تناولها

بشكل موضوعى وسوسيولوجى . حيث طرح تساؤلا أساسيا يتمثل فى : كيف للباحث أن يفسر الأشكال العديدة للأيديولوجيا الاشتراكية ؟ ، ماهى الظروف والضغوط الاجتماعية التى دفعت سان سيمون Saint-Simon فورييه Fourier أوين Owin ، ماركس Marx الى تأسيس نظرياتهم . ومن ثم فيمكن اعتبار دراسات دوركيم عن الاشتراكية عبارة عن تحليل لاسباب الفكرة (٩٥) وهو مايدخل اساسا فى اطار مبحث سوسيولوجيا المعرفة .

هذا وقد تصدى دوركيم لدراسة الاشتراكية نظرا لأنه حاول - منذ أن كان دارسا - تقديم فهم للعلاقة بين الاتجاه الفردى والاشتراكية (٩٦) . بالاضافة الى محاولة صياغة تفرقة بين الاشتراكية والشيوعية باعتبار أن الأولى تعبر عن نظام اقتصادى متقدم يسود مجتمعاتنا المعاصرة ، أما الثانى فتنظيم مختلف ، ساد المرحلة البدائية . أما الهدف الثالث فتمثل فى ادراك دوركيم ان البرامج التى قدمها مختلف الاشتراكيين - تتضمن أساسا اعادة توزيع الثروة من خلال الضبط أو السيطرة المركزية على الاقتصاد - فشلت - من وجهة نظر دوركيم - فى ادراك المشاكل أو القضايا الأكثر أهمية تلك التى تواجه عصرنا الحديث . اذ اعتبر دوركيم الاشتراكية تعبيرا عن أزمة المجتمع المعاصر . غير أنها بذاتها ليست كافية لاعادة التأسيس الاجتماعى لتجاوز هذه الأزمة (٩٧) .

ولقد تركزت مناقشة دوركيم النظرية لهذه المسألة حول التمييز الواضح بين الاشتراكية والشيوعية . وبالمعنى الذى يستخدمه دوركيم فان الشيوعية تعتبر المذهب الذى يهدف الى السيطرة القوية على النشاطات الاقتصادية بواسطة هيئات مركزية للمجتمع ، مدفوعة أساسا بواسطة الاحساس بمخاطر المصالح الاقتصادية غير الموجهة uncontrolled بالنظر الى الأهداف والغايات الاجتماعية العليا . ويذهب دوركيم الى ان جمهورية أفلاطون تعتبر مثالا نموذجيا للكتابات الشيوعية ، ثم يذهب الى أنه مادامت جاذبية هذه القضية مستمرة بالنسبة للمجتمع البشرى فى كل مكان وزمان فان الأفكار الشيوعية لا ترتبط بموقف اجتماعى محدد ، ولكنها تظهر بشكل عشوائى فى كل أنواع الظروف .

وعلى خلاف الشيوعية تعتبر الاشتراكية ظاهرة مرتبطة بموقفنا الاجتماعى الحديث ، غير أنها لايمكن أن تظهر كحركة فعالة بدون الوجود المسبق لجهاز حكومى كامل النمو قادر على تحمل أعباء الوظائف الادارية المعقدة التى تشكل جوهر النموذج الحديث للنظام الاقتصادى . ويكشف تفحص مفاهيم دوركيم عن الاشتراكية أنه يعرفها مستبعدا منها عناصر

المساواة ، وهى العناصر التى تؤدى بلا شك دورا هاما فى الحركة الواقعية لهذه الفلسفة (٩٨) .

بالاضافة الى ذلك نجد أن دوركيم قد وقف فى منطقة الوسط بين الجناح المحافظ الذى أكد كثيرا على أهمية التنظيم الأخلاقى والذى يقف على رأسه دى ميستر ، وبين الاتجاه الراديكالى الذى يعطى الأولوية لاصلاح البناء الاقتصادى على ماتذهب الماركسية . حيث نادى دوركيم بضرورة دعم التربية الأخلاقية التى تهدف الى تأسيس اتفاق أخلاقى ولو تتطلب الأمر اجراء بعض التعديلات البنائية (٩٩) . الى جانب أنه يشترك مع كارل ماركس من حيث أصلهما الفكرى المشترك الذى يرجع الى سان سيمون . الذى احتوى بناؤه النظرى على الثورة من ناحية ، وردود الفعل المحافظة من ناحية أخرى . فاذا طور ماركس الفكر الثورى لسان سيمون ، فاننا نجد أن دوركيم قد طور الميل المحافظ لديه (١٠٠) .

ويبدأ الخلاف من طبيعة تصور كل منهما للمسألة الاجتماعية ، فبينما يراها ماركس تتمثل فى استغلال احدى الطبقات للطبقات الأخرى عن طريق احتكارها غير المشروع لأدوات الانتاج ، وخلق الظروف الملائمة لتأسيس فائض القيمة الذى يساعد على دعم الوجود الاجتماعى الذى تخضع فى اطاره البروليتاريتا الصانعة لهذا الوجود لعدد من الاغترابات ، ومن ثم فحل المسألة الاجتماعية لديه يتمثل فى ثورة البروليتاريا لتأسيس ملكية الدولة لوسائل الانتاج وتأسيس نظام جديد لتقسيم العمل الاجتماعى (١٠١) .

أما بالنسبة لدوركيم فالمسألة الاجتماعية لديه ليس لها طابعها الطبقى . اذ نجد ان دوركيم لايطرح تناقض الغنى مع الفقير ، العامل مع صاحب العمل ، كما لو أن الحل يتمثل فى اقتطاع جزء من احدى الطبقات لزيادة نصيب الطبقات الأخرى . ومن ثم فهو يؤكد أننا نحتاج الى القضاء على حالة عدم التنظيم هذه ، وكبح جماح السعى وراء الشهوات تلك التى تفرض معاناة على النشاط الاجتماعى . ومن ثم فالمسألة الاجتماعية لديه لاتتعلق بالمال أو القوة أو الجوانب الاقتصادية ، وانما هى تتعلق بالوسائل الأخلاقية Moral agents، وأن السيطرة عليها ليست من خلال حالة اقتصادنا ولكن من خلال حالتنا الأخلاقية (١٠٢) .

ويشكل تقسيم العمل الاجتماعى القضية الخلافية التالية فى هذا الصدد . اذ نجد أن كارل ماركس ينظر الى تقسيم العمل نظرة طبقية ، حيث تحتكر احدى الطبقات حرفة الأيديولوجيا أو الانتاج العقلى ، ومن ثم تحاول فرض أفكارها على الطبقات الأخرى لتبرير

استغلالها لها ، ومن ثم فتقسيم العمل لدى ماركس ذو طبيعة تجزيئية تهئ طبقات المجتمع للدخول في صراع مع بعضها البعض (١٠٣) . ويرتبط بذلك تصور ماركس للانسان الذى يمتلك عددا من الملكات التى ينبغى أعمالها ، والتى تؤدى أعمال أى منها من خلال تقسيم العمل والتخصص الى تغريب الانسان عن ذاته . ومن ثم فتقسيم العمل بالنسبة لماركس يشكل موقفا يجد الانسان نفسه فى اطاره مستعبدا ، موقفا يجد فيه نفسه مشوها عقليا وفيزيقيا لأنه يظل مرتبطا بوظيفة محددة . ويأمل ماركس أن يأت« زمان يتحرر فى اطاره البشر – نتيجة للقدرة الانتاجية أو للتغير فى طبيعة العلاقات الاجتماعية – من حتمية انجاز وظائف معينة ، ومن ثم يكونوا باستطاعتهم بدلا من ذلك كما يذهب ماركس فى الأيديولوجيا الألمانية ان يعملوا كل امكاناتهم أن يكونوا أحرارا لصيد السمك أو قرض الشعر أو مناقشة الفلسفة (١٠٤) . بذلك نجد أن كارل ماركس يرفض تقسيم العمل الذى يسود المجتمع الرأسمالى ويطلب الغاءه وتغييره الى نظام يتيح الأعمال الحر لكل الملكات الانسانية مجتمعة .

فى مواجهة ذلك نجد أن دوركيم يتصور نظاما لتقسيم العمل يمتلك البشر فى اطاره ميلا طبيعيا لأداء الوظائف المتاحة . ومن ثم فمجتمعه الملائم هو ذلك المجتمع الذى قد يقع فى اطاره تفاوت . غير ان هذا التفاوت يستند الى تفاوت فى القدرات الطبيعية (١٠٥) ، وفى مناقشته لتقسيم العمل القسرى ، يؤكد ان نظام الطبقات والطوائف يشكلان تنظيما لتقسيم العمل ، وهو تنظيم صارم التحديد بالرغم من كونه مصدرا دائما للشقاق . فالطبقات الدنيا قد لا ترضى بدورها الذى أوكل اليها بحكم العادة والقانون . ومن ثم فقد تتمنى بعض الطبقات القيام ببعض الوظائف الموضودة أمامها ، ومن ثم تحاول ان تنتزعها من هؤلاء الذين يمارسونها ، وقد يهدد ذلك بقيام الحرب المدنية (١٠٦) .

ثم يحاول دوركيم ان يبرر الشكل الطبقى على النحو الذى هو عليه فهو يؤكد من ناحية أننا اذا قلنا أن المجتمع كالكائن العضوى ، فان الكائن العضوى يضم خلايا متخصصة فى أداء وظائف محددة ، ومن ثم لاتحاول أى من الخلايا سلب وظيفة خلية أخرى . ثم يطرح قضية أساسية عن ضرورة أن يتلاءم تقسيم العمل مع الميل أو الاستعداد الطبيعى للانسان ، ثم يؤكد أنه لكى يحقق تقسيم العمل التضامن ، فانه لايكفى حينئذ أن ينجز كل شخص وظيفة ، أو عملا وانما يظل من الضرورى أن تكون هذه الوظيفة ملائمة له (١٠٧) . ثم يؤكد ان تقسيم العمل قد يدفع الى الآلام والمعاناة والصراع اذا هو لم يراع توزيع الملكات الطبيعية (١٠٨) .

ويحاول دوركيم ابراز عدم منطقية الثورة البروليتارية التى تحل فيها البروليتاريا محل البرجوازية فى ملكية أدوات الانتاج وقيادة العملية الاجتماعية والاستفادة من نتاجها . فيؤكد ان تقليد احدى الطبقات الأخرى ومحاولة احتلال مكانها يكون ممكنا اذا تماثلت الاستعدادات الطبيعية لهذه الطبقات . فالحاجة للخروج من طبقة لأخرى تتطلب ان تختفى الخلافات بين الطبقات ، أو على الأقل يتضاءل نموها (١٠٩) . ويعطى لذلك مثالا من التاريخ الاجتماعى فيؤكد أنه حينما طمع عامة الرومان Plebeians – فى روما القديمة – فى الحصول على حق شغل الوظائف الدينية والأدارية من النبلاء Patricians فان ذلك لم يتم بمحاولة تقليدهم ، ولكن لأنهم أصبحوا أكثر غنى وذكاء وعددا ، ومن ثم فقد تعدلت استعداداتهم وطموحاتهم (١١٠) . ثم يتجه دوركيم بعد ذلك الى التأكيد على فرضية تقسيم العمل القسرى أو الارادى فيقول أن تقسيم العمل الاجتماعى يمكن أن يؤدى الى التضامن اذا كان تلقائيا ، ويعنى ذلك اذا عبرت التفاوتات الطبقية والاجتماعية عن تفاوتات طبيعية (١١١) .

غير أن تحليل وجهة النظر الدوركيمية فى هذا الصدد تكشف عن قصور شديد ، فهو لم يناقش العنصر الجوهرى لتأسس الطبقات من وجهة النظر الماركسية ، كاحتكار وسائل الانتاج أو مشروعية فائض القيمة على نحو مافعل ماكس فيبر فيما يتعلق ببعض القضايا الماركسية . هذا الى جانب أنه حينما يؤكد أن تقسيم العمل الاجتماعى يصبح مشروعا وملائما اذا هو قد تلاءم مع القدرات الطبيعية المتفاوته للأفراد ، فانه بذلك يخون منهجيته التى أكد مرارا فى اطارها أن الحقيقة الاجتماعية مفسرة لذاتها ، وأنه يستحيل تفسيرها بعوامل أو خصائص فردية وذاتية .

وتعتبر طبيعة السلوك الاجتماعى من القضايا الخلافية بين ماركس ودوركيم . فبينما يراه ماركس خاصة فيما بعد الثورة البروليتارية اراديا كما هو فى التغيير الثورى البروليتارى للبناء البرجوازى يراه دوركيم تلقائيا ومفروضا من الخارج . وان البشر ليسوا سوى أدوات تنفيذ ارادة كيان ، أو وحدة أكبر منه ، يلزمهم باتيان أفعال أو سلوكيات معينة ، هذا الكيان هو الضمير أو الوجود الجمعى .

# الفصل الثامن

# الاسهامات المنهجية
# لإميل دوركيم

## المحتويات

## مقدمة :

كان منطقيا أن يتأثر البناء المنهجى عند إميل دوركيم بالاتجاهات النظرية التى تفاعل معها من ناحية . وأن يسلم هذا البناء ذاته الى أسلوب معين فى فهم الواقع الاجتماعى من ناحية ثانية . بيد ان الحقيقة الأساسية التى نريد تأكيدها ، تتمثل فى امكانية اعتبار المنهجية الدوركيمية استمراراً للعناصر المنهجية الكائنة فى الفكر الوضعى ، التى نقلت فى أغلبها - مع بعض التعديل بما يلائم الواقع الاجتماعى - عن منهجية العلوم الطبيعية التى ازدهرت فى عصر التنوير وبدأت تحقق انجازات واضحة .

ويستوجب تحديد البناء المنهجى للنظرية الدوركيمية تحديد مجموعة من المقولات الأساسية سواء فيما يتعلق بتحديد مهمة الاجتماع ، أو فيما يتعلق بتحديد طبيعة الواقعة الاجتماعية ، أو بتحديد ملامح المدخل المنهجى لادراك هذه الواقعة . بيد أنه لتحديد المقولات الأساسية لمدخله المنهجى فإنه ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار مجموعة الاعتبارات التالية .

١ - أن منهجيةإميل دوركيم فى طبيعتها العامة تميل الى الطابع الوضعى ، حيث استخدام ذات المناهج والأدوات التى تستخدمها العلوم الطبيعية ، باعتبار التماثل بين الظاهرة الاجتماعية والظاهرة الطبيعية . وذلك استنتاجاً من خضوعها لعامل واحد وقوانين واحدة . وفى هذا الصدد نجد أن دوركيم يذهب إلى أنه ينبغى أن يتوقف علم الاجتماع عن أن يكون أحد فروع الفلسفة العامة (١١٢) . هذا بالاضافة الى تأكيده على ضرورة أن يكون له منطقه الخاص بالبرهنة ، فعالم الاجتماع ينبغى أن يسلك مسلكا عقليا شبيها بالمسلك الذى ينتهجه كل من عالم الطبيعة والكيمياء والفسيولوجيا (١١٣) وهو مايعنى اهتمامه بالتناول التحليلى لمعطيات البحث على غرار العلوم الطبيعية (١١٤) .

٢ - خضع الاطار الدوركيمى لتعديلات نظرية عديدة أثناء حركته التاريخية . اذ يؤكد بارسونز أن هناك تطورا حدث للنظرية الدوركيمية يمكن تشخيصه بشكل أفضل على أنه انتقال من موقف فلسفى« وضعى الى موقف مثالى أكثر تحددا (١١٥) . فبينما هو أثناء صياغته لتقسيم العمل الاجتماعى كان أكثر اقترابا من الموقف الوضعى فيما يتعلق بالعنصر المعيارى فى النسق وفى بناء التفاعل ومعاملته كعنصر متشئ ، أو كأحد عناصر الموقف الذى له قهره على الانسان من الخارج ، نجده يتحرك الى موقف مثالى ،

وبخاصة فى كتابه الأشكال الأساسية للحياة الدينية (١١٦) . حيث يجعل الضمير أو العقل الجمعى دورا معياريا ، فهو وان تشكل عن التفاعل إلا أنه يمارس حتمية عليه . وهو لايتكلم فى موقف الانسان من الخارج فقط عن طريق الجزاءات وانما من الداخل أيضا . حيث الالتزام والتكيف من داخل الفرد مع ماهو معيارى وموضوعى خارجه (١١٧) . ونعرض فى الفقرات التالية لمقولات البناء المنهجى عند إميل دوركيم .

## أولا : علم الاجتماع ، نطاقه ومهمته الأساسية

تتسق نظرة دوركيم الى طبيعة العلم ، والعلم الاجتماعى ، ودوره فى الحياة الغربية المعاصرة مع تراث حركة تحرير العقل الأوربى . حيث يؤكد دوركيم ان العلم – من بين كل عناصر الحضارة – يعتبر العنصر الوحيد الذى يمكن فى ظل ظروف معينة – أن يمثل طابعا أخلاقيا . ومن ثم فالمجتمعات تميل بدرجة أكثر وأكثر لأن تنظر الى العلم كواجب على الفرد أن ينمى ذكاءه به عن طريق تعلم الحقائق العلمية التى تأكدت فعلا . فكل فرد منا مفروض عليه ألا يكون جاهلا . وانه لكى يستمر المجتمع تحت ظروف ملائمة . فان الذكاء الموجه بالعلم يبنغى أن يقوم بدور فى الحياة الجمعية (١١٨) .

ولقد بدأ اهتمام دوركيم بنشأة علم الاجتماع وأهميته – الى جانب تأثره فى ذلك بالوضعية السان سيمونية والكونتية – خلال أطروحته للدكتوراه عن منتسكيو التى نشرت عام ١٨٩٢ . اذ نجد ان اهتمامه لم يكن مركزا على هذا الفيلسوف البارز ، كما كان ينبغى . وانما على شروط وطبيعة نشأة العلم الاجتماعى الفعال . اذ نجده قد اختار منتسكيو موضوعا لبحثه . لاعتقاده انه بالرغم من نقائص عمل هذا الفيلسوف ( روح القانون ) الذى نشر فى عام ١٧٤٨ فانه أوضح بمالا يدع مجالا للشك أنه من الممكن قيام علم للمجتمع (١١٩) .

وقد حاول دوركيم بدءا من نقطة البداية هذه ان يؤسس علما اجتماعيا . باعتبار أ أى نظام عقلى يستحق أن يكون علما اذا كان لم مجاله المحدد للاستكشاف . فالعلم يهتم بالحقائق والموضوعات . ومن ثم فاذا لم تكن للعلم مادته المحددة التى يصفها ويفسرها ، فانه يصبح فى حالة خواء . ومن ثم فانه قبل أن نبدأ فى تأسيس وجود العلم الاجتماعى ينبغى تبين مادة محددة لموضوع بحثه (١٢٠) .

ويؤكد دوركيم فى مقدمة دراسته عن الانتحار ان علم الاجتماع مازال فى مرحلة فطامه ، ومن ثم فهو بدلا من أن يلقى الضوء على أجراء محددة للواقع الاجتماعى ، نجده يفضل التعميميات البراقة (١٢١) . غير ان هذا العلم بمعنى مايهتم بدراسة الانسان فى المجتمع ، وان كانت مقولة ماهو اجتماعى لم تتحدد بعد ، فما هى اذن الخصائص المميزة لفئة الظواهر التى يمكمن تحديدها بأنها اجتماعية ، ومن ثم يمكن فصلها عن فئات أخرى من الظواهر كالظواهر البيلوجية والسيكولوجية ، نجده يحدد أهم خواصها بالخارجية والقهر (١٢٢) . وبعد هذا التحديد السلبى يحاول ايجابيا أن يحدد مادة علم الاجتماع باعلانه أن موضع هذا العلم يتمثل فى دراسة حقائق أو وقائع الحياة الأخلاقية Facts of Moral life وان هدفه الأساسى يتمثل فى تناول هذه الوقائع وفقا لمنهج العلوم الوضعية (١٢٣) . هذا الى جانب أنه يؤكد على ضرورة اتسام هذا العلم بمجموعة الخواص الأساسية التالية :

١ - أنه من الضرورى أن يتعامل مع النماذج والفئات وليس مع المفردات . فليس هناك علم للمفرد . وهو يختلف فى ذلك مع الفلاسفة الألمان من أمثال فندلباند Windelband وركرت Rickert فى تأكيدهما أن كل معطاة انسانية ينبغى أن تمثل شيئا فريدا ، ومن ثم فلا وجود لنماذج المعطيات أو فئاتها فى العالم الاجتماعى . فى اطار ذلك يستنتج دوركيم أنه ليس هناك بديل لذلك سوى أن نتناول هذه المعطيات كما يتناولها الشعراء وكتاب الرواية ، ثم يؤكد ان العلم لايمكن ان يقتصر على وصف المفردات ، وانما عليه أن يصف النماذج فقط ، فاذا لم نصنف المجتمعات ، فانها ستظل ممتنعة على الوصف العلمى (١٢٤) .

٢ - أما الخاصية الثانية التى تميز العلم وتجعله يختلف عن الفن ، فتتمثل فى قابلية موضوع بحثه للخضوع للمبادئ العامة أو كما يصوغها دوركيم الخضوع للقوانين . فاذا لم تكن المجتمعات خاضعة للقوانين ، فلن يمكن قيام علم اجتماعى . وفضلا عن ذلك ، فما دام هناك مبدأ قائل بالترابط الشامل والقوى بالنسبة لكل ظواهر الكون ومادامت قد اختبرت صحته فى نطاقات أخرى وثبت صدقه ، فانه بلا شك سوف يكون صحيحا بالنسبة للمجتمعات البشرية التى تعتبر جزءا من الطبيعة (١٢٥) . ويتضح من هذا المبدأ تأثير كل من سان سيمون وكونت اللذين ذهبا الى القول باستمرارية اتصال العالم الطبيعى بالعالم الاجتماعى . بيد أن ذلك لايحرم العالم الاجتماعى من استقلاله وتميزه

الخاص مثلما هى الحال بالنسبة للعالم البيلوجى والسيكلوجى حيث لهما استقلالهما النسبى الخاص .

٣ – ان علم الاجتماع من وجهة نظر دوركيم ينبغى أن لا يؤمن بالمصادفة ، هذا بالاضافة الى ضرورة الاستغناء عن فكرة الارادة والاختيار البشرى . ذلك لايعنى ان المصادفات لاتقع فى التاريخ ، أو أن هناك انتفاء تماما للارادة أو الحرية البشرية فى الفعل . ولهذا يعلن دوركيم أنه ليس هناك علم للمصادفات ، حيث ان وظيفة العلم الاجتماعى ينبغى أن تكون التركيز على الاطرادات فى السلوك البشرى الذى لايمكن أن تحكمه المصادفة . غير انه اذا أارد البعض رد الفعل الاجتماعى للارادة والاختيار البشرى ، فان هذا يكون علما للنفس وليس علما للاجتماع . ومن ثم فاذا أردنا للعلم الاجتماعى ان يتأسس ، فانه ينبغى افتراض ان المجتمعات لها طبيعة معينة لاتنتج مباشرة عن طبيعة العناصر والترتيبات المكونة لها ، والتى تعتبر مصدرا للظواهر الاجتماعية (١٢٦) .

٤ – انه ينبغى أن يكون لهذا العلم منهج ، فليس يكفى على مايذهب دوركيم أن يكون للعلم مادة بحثية . وانما لكى يحدد أو نؤسس الاطرادات والنماذج والقوانين المتعلقة بالمجتمع . فانه من الضرورى أن نمتلك منهجا ملائما لطبيعة الموضوعات موضع الدراسة ، وأيضا لأهداف العلم ومتطلباته (١٢٧) . ولاينبغى أن نتخيل أن مثل هذا المنهج سوف يظهر تلقائيا للعمل فى اللحظة التى نطالب فيها العلم . ولكن على العكس فامتلاك المنهج عادة مايتحقق بعد جهاد طويل .

٥ – يؤكد دوركيم أيضا على ضرورة أن يدرك العلم الاجتماعى ويتناول مادة بحثه بشكل غير مباشر ، وليس مباشرا كما تفعل العلوم الأخرى . فهو يؤكد أننا اذا أردنا دراسة الظواهر الأخلاقية باسلوب موضوعى . فان علينا ان نستبدل الحقيقة الداخلية للوعى بمؤشر خارجى يرمز لها . ومن ثم ندرس الأولى فى ضوء الثانية . وعلى هذا النحو تظهر الظواهر الاجتماعية ذاتها للعالم الاجتماعى عن طريق ( مؤشرات محسوسة ) (١٢٨) .

٦ – انه فيما يتعلق بفهم التفاعل الاجتماعى نجده يتخذ مسلكا مختلفا . فعلى خلاف معاصرية من أمثال سبنسر وتارد الذين حاولوا تفسير أساليب السلوك الجمعى عن

طريق حالات أو عناصر تكمن فى الوعى الفردى . فى اطار ذلك يؤكد دوركيم بلا ملل أن مادة الحياة الاجتماعية لايمكن تفسيرها بواسطة عوامل سيكولوجية خالصة ، أعنى بواسطة الوعى الفردى الذى يبدو بالنسبة لنا أكثر وضوحا .. اذ تختلف الجماعة فى تكوينها عن الفرد ومن ثم فالأشياء المؤثرة فيها تكون من طبيعة مختلفة . فاذا أردنا فهم الأسلوب الذى يفكر به المجتمع فى ذاته وبيئته ، فان على الباحث أن يهتم بطبيعة المجتمع وليس الأفراد . ويذهب دوركيم الى أن الرموز التى تشير الى التصورات تختلف وفقا لنموذج المجتمع (١٢٩) .

وفى أعقاب فراغه من تحديد الخواص الأساسية للعلم نجده يحاول تقديم فهم أساسى للوظيفة الأساسية التى يمكن أن يلعبها العلم فيما يتعلق بطبيعة الفعل الاجتماعى .

فمنذ البداية نجد أن دوركيم من خلال كراهيته للفكر النقدى الذى تمثله التصورات الراديكالية فى عصره ، يؤكد على أن للعلم وظيفة ايجابية فيما يتعلق بالنظام الاجتماعى . اذ يرى أن التعميمات الامبيريقية التى نصل اليها من خلال علم الاجتماع يمكن أن تستخدم لتأسيس نسق أخلاقى يتلاءم مع الواقع الاجتماعى . أعن أنه علم يمكن أن يساعدنافى عملية التأسيس الاجتماعى على أساس علمى ( وقد كان ذلك هدفا أساسيا بالنسبة للفكر الأوربى فى القرن التاسع عشر ) (١٣٠) . ولأداء ذلك يؤكد دوركيم على ضرورة ان يفهم العلم المجتمع لكى يمارس فاعليته فى اطاره ، بالنظر الى ذلك نجده ينتقد جناحا كاملا من الفكر الذى ساد القرن التاسع عشر . حيث يذهب الى أن معظم هؤلاء كان لهم هدف واحد - سواء أغفلوا أو أعطوه قدرا محددا من الانتباه - هو أن يغيروا ويحولوا الواقع بشكل كامل ليس ان يعرفوه . انهم لايهتمون حقيقة بالماضى أو الحاضر ، وانما ينظرون الى المستقبل فقط ، غير ان العلم الذى يبحث عن المستقبل فقط يفتقد امكان أن يكون له موضوع بحث محدد ، ومن ثم فهو ليس علما وانما هو فن (١٣١) . بذلك يحدد دوركيم وظيفة علم الاجتماع بأنها عادة تأسيس النظام الاجتماعى عن طريق تأسيس بنائه الأخلاقى دون محاولة لتغيير هذا النظام تغييرا شاملا يتلاءم مع تصور مستقبلى لابد للحاضر أن يتطابق معه .

ثم يحاول دوركيم أن يقترب من المجتمع الصناعى فيؤكد ان العلم يعتبر السلطة الوحيدة التى يسلم بها لمجتمع لمعاد تنظيمه . وان العلم هو الذى يؤسس التوافق التلقائى بين كافة الوظائف الاجتماعية المكنة . حيث يوضح العلم - من بين أشياء كثيرة - ماهية الأفكار

الأخلاقية الأكثر تلاؤماً مع الظروف الصناعية الجديدة (١٣٢) . من هنا نجد أن اسهام العلم فيما يتعلق ببناء التفاعل هو أولا بتأسيس العنصر الأخلاقي المتمثل فى مجموعة الأفكار الأخلاقية وثانيا بصياغة تآزر بين غايات الأفعال الفردية ، وغاياتها على المستوى الإجتماعى الشامل بما يتلاءم وظروف المجتمع المحيط . بل اننا نجد أن دوركيم تحت وطأة التأثير الوضعى يحدد صراحة دور العلم فى اطار التفاعل الاجتماعى ، بتأكيده ان العلم يمكن أن يساعد على تحديد الغايات والوسائل بالمثل . ويذهب الى أنه اذا لم يحدد العلم أفضل الأهداف بالنسبة لنا ، فكيف يتسنى له أن يخبرنا حول أفضل الوسائل لتحقيقها ؟ . واذا لم يرشدنا العلم فى تحديد الغايات النهائية ، فانه يصبح لاحول له فيما يتعلق بتحديد الوسائل (١٣٣) .

ويكشف تحليل المشروع الدوركيمى ان القواعد العلمية لدوركيم مصممة بالشكل الذى تؤدى به خلق علم اجتماع يرى فى روح النظام الشرط الأساسى للحياة الانسانية ، بينما هو مؤسس فى ذات الوقت على أساس من الحق والصدق (١٣٤) . مادام علم الاجتماع لم يحرر نفسه من كافة التحيزات بالمعنى السياسى فانه من المحتمل ألا يكون صدقا أو حقا ، ومن ثم لايكون هناك علم للاجتماع (١٣٥) . وفى اطار محاولة الابقاء على أدائية العلم على مستوى وظيفته الحرفية دون محاولة جعله علما شعبيا أو أيديولوجيا كما تذهب الى ذلك بعض الاتجاهات الراديكالية هذا بالاضافة الى التأكيد على الوظيفة ذات الطابع العملى للعلم ، وهى وظيفة ميزت الموقف الدوركيمى من العلم .

تبقى بعد ذلك نقطتان فيما يتعلق بطبيعة مادة علم الاجتماع أو بطبيعة تناول الباحث فى علم الاجتماع لمادته . أما فيما يتعلق بتحديد مادة علم الاجتماع ، فيذهب دوركيم الى أنه يمكن أن يكون هناك وجود لعلم الاجتماع الى المدى الذى تكون له مادة بحثه المتميزة عن مادة بحث العلوم الأخرى ، وهو يقصد بخاصة علمى النفس والأحياء ، حيث أنه اذا تأسست تفسيرات السلوك الاجتماعى بالنظر الى معطيات سيكلولوجية أو بيولوجية أساساً ، فانه لن تكون هناك حاجة لعلم آخر غير علم النفس والبيلوجيا مادام فهم السلوك الأنسانى يقع فى مجال اهتمامها (١٣٦) .

ذلك يفرض تساؤلاً يتعلق بحقيقة وجود معطيات اجتماعية خالصة . واذا كان الأمر على هذا النحو ، فما هى خصائصها المميزة ؟ . ذلك ان مسألة مادة علم الاجتماع من المسائل التى لازمت تطور المشروع الدوركيمى . فهو لم يتعرض لهذه المسائل إلا بشكل هامشى فى كتابه عن

مونتسكيو (١٣٧) غير أنه حينما تصدى لمؤلفه تقسيم العمل الاجتماعى حاول الاقتراب من هذه القضية حيث أعلن فى هذا المؤلف ان موضوع العلم ينبغى أن يكون ( حقائق الحياة الأخلاقية ) وأن هدفه الأساسى تناولها وفقا لمنهج العلوم الوضعية . وبعد فترة وجيزة يؤكد لنا دوركيم ان الحقائق الأخلاقية هى عبارة عن ظواهر ككل الظواهر الأخرى تتكون من قواعد السلوك ويمكن التعرف عليها ببعض الخصائص المميزة ، غير أنه فى هذا المؤلف أيضا ، يحاول أن يحدد لنا ماهى خصائصها ، غير أننا نعتقد أنه قد بدأ التفكير فيها خلال مؤلفه ( تقسيم العمل فى المجتمع ) . وأنه سجل نتاج هذا التفكير حينما أوضح خصائصها فى مؤلفه المنهجى قواعد المنهة فى علم الاجتماع (١٣٨) . فاذا اتفقنا على أن علم الاجتماع يهتم بدراسة الانسان فى المجتمع ومن ثم مجموعة الظواهر الاجتماعية التى قد تنشأ والتى عادة ماتكون غير محددة المعالم ، فانه يكون من المطلوب تحديد هذه المعالم بحيث تنفصل الظواهر الاجتماعية عن البيلوجية أو النفسية (١٣٩).

ثم يذهب الى أن مادة علم الإجتماع هى عبارة عن ظواهر الجماعات والعادات والتقاليد والقوانين والقيم والعناصر الأخرى للنظام الاجتماعى (١٣٩) ويحاول بعد ذلك تحديد خواص الظواهر الاجتماعية التى تشكل معطيات لعلم الاجتمع بأنها خارجية ، أى توجد خارج شعور الفرد ، ومن ثم فهى تقهره على ضروب من التفكير والسلوك والشعور ، ولذلك فليس باستطاعة الفرد أن يغير طبيعتها كما يحلو له ، هذا بالاضافة الى أنها مستقلة عن الظواهر البيلوجية والنفسية ، وأنها تحتاج الى أن يتم تناولها موضوعيا (١٤٠) . حيث أن لها وجودها المادى المتشئ .

أما المسألة الثانية التى تتعلق بطبيعة اقتراب الباحث من مادة بحثه ، لتحدد موضوعية اقترابه من الحقيقة ، حيث يتحقق ذلك اذا اهتم الباحث بالاعتبارات الأساسية التالية :

١- انه لكى يحقق الموضوعية فان عليه أن يفصل فصلا حادا بين مشاعر الباحث وتحيزاته من ناحية ، وبين الواقع أو الحقيقة الاجتماعية من ناحية أخرى ، ولايعنى ذلك دخوله الى الواقع بعقل خال تماما ، بل يعنى ان عليه ان يتبنى اتجاها شعوريا محايدا نحو ماينتوى بحثه (١٤١) . ذلك ان الباحث الاجتماعى يضم بداخله هويتان : الأولى من حيث كونه باحثا فهو مطالب بأخلاق ومحكات علمية ، والثانية من حيث كونه انسانا فهو مطالب بالاختيار لأداء دور اجتماعى محدد . ومن هنا نجد أن دوركيم يفارق بين الموقفين

فهو يؤكد ان اتجاه العالم هو الذى يميز الملاحظ أساسا ، حيث يهتم بملاحظة ظواهر معينة ، حقيقة ان المنهج العلمى الحديث أصبح يهتم بالتأكيد على أن الباحث أكثر من مرآة ذات دور سلبى خالص بالنظر الى العالم الخارجى ، وان البحث العلمى ذاته عبارة عن عملية فعل ، فهو سعى وراء المعرفة غير المجردة ولكن المعرفة الواقعية التى تتعلق بأشياء محددة ، غير أن عملية المعرفة هذه تصبح انتقائية متأثرة بالانساق النظرية التى تمثل اقتناعات الباحث . بيد أنه حتى فى اطار هذه الحدود الانتقائية فان موضوعية الباحث تترسخ بالنظر الى المفاهيم والتأسيسات النظرية التى تيسر له الادراك الموضوعى للواقع .

وفى مواجهة موقف الباحث نجد موقف الانسان الذى يحمل توجيها أخلاقيا نحو الواقع ، ومن ثم فهو ايجابى تجاهه . ويؤكد دوركيم ان جوهر الأمر فى موقف الانسان يتمثل فى دوره الابداعى وغايات سلوكه . حيث حرية الاختيار أساسية بالنسبة للتوجيه الأخلاقى . وبذلك فان العنصر الإبداعى لغايات السلوك لايشكل - كما اتضح لنا - مجموعة من الحقائق الكائنة فى العالم الخارجى بالنسبة للانسان ، ومن ثم فان أى محاولة لارجاع عناصر السلوك المعيارية لمقولات المظرية العلمية وحدها تنتهى فقط بالقضاء كلية على العنصر الابداعى . ومن ثم يصبح السلوك مجرد عملية تكيف مع مجموعة من الظروف . ومن ثم يصبح التمييز حادا بين العلم والأخلاق (١٤٢) .

٢ - وفى اطار الاعتبار الثانى يطلب دوركيم من الباحث ضرورة التخلى عن أية أفكار مسبقة من الواقع فى دراسته له . وهناك فارق بين ان يمتلك الباحث مفاهيم تحليلية تساعده على استكشاف عناصر الواقع الأساسية ، وبين محاولة الباحث صياغة الواقع وفقا لنظرية معينة . فى اطار ذلك نجده يؤكد ( أن مثل هذه النظريات لاتعبر عن الظواهر حيث لايستطيع الباحث معرفتها بهذه السرعة وانما تعبر عن الفكرة التى كونها واضعوا هذه النظريات عن الظواهر قبل الشروع فى دراستها ) (١٤٣) . فادراك الحقيقة لايتم بالنظر الى بناء نظرى مسبق وانما ينبغى ادراكها بالنظر الى النموذج الاجتماعى الذى تنتمى اليه . اذ أن من المستحيل أن يصف الباحث ظاهرة دون ارجاعها الى نموذج اجتماعى معين (١٤٤) . وبذلك يؤكد دوركيم ان فهم الواقعة انما ينبغى أن يتم بالنظر الى الموقف الكلى أو الاطار البنائى الذى تشكل جزئية فيه .

٣ – واذا كان الاعتبار الأول يتعلق بضرورة انفصال الباحث بينما يتعلق الثانى بادراكه الواقعة بالنظر الى نموذجها البنائى أو الموقف المتضمن لها ، وليس بالنظر الى اطار نظرى مسبق . فاننا نجد أن دوركيم يركز فى الاعتبار الثالث على طبيعة تناوله للواقعة ذاتها ، اذ يؤكد أنه من الضرورى دراسة الظواهر الاجتماعية كأشياء ، كمادة علينا ان نلاحظها وهذه نقطة بدء العلم (١٤٥) . وذلك يعنى انفصال ذواتنا عنها ودراستها من الخارج دون ارتباط عاطفى بها . وفى اطار ذلك يؤكد دوركيم أيضا أن فهم داخل الظاهرة وتفاعلاتها الداخلية يتم بالنظر الى مؤشرات خارجية ، لأن الظواهر الاجتماعية تظهر نفسها للباحث من خلال مؤشرات محسوسة (١٤٦) . وهو ماطبقه دوركيم فى دراسته لظاهرة الانتحار التى تناولها عن طريق ادراك مؤشراتها الخارجية .

## ثانيا : الواقعة الاجتماعية ، خصائصها الرئيسية

حينما يعرف دوركيم الظاهرة الاجتماعية بأنها ضرب من السلوك يعمم المجتمع ويباشر على الفرد قهرا من خارجه ، وله وجوده الخاص المستقل عن الصور التى يتشكل بها فى كل شعور فردى على حدة (١٤٧) ، فان ذلك يطرح فى الذهن المقابلة النظرية الحادة بين الوجود الاجتماعى والوجود الفردى ، وأولوية كل منها بالنسبة للآخر من وجهة نظر المشروع الدوركيمى .

وتكشف النظرة الى هذا التعريف عن اختيار دوركيم لموقف الأولوية الاجتماعية والمجتمعية . غير انه لحداثة علم الاجتماع فى عصره ، فان الظاهرة الاجتماعية على النحو التى عرفت به ، مازالت تحتاج الى نظرة متفحصة ، تستكشف ان هناك وجودا اجتماعيا لأنماط سلوكية خارج الفرد ليس له إلا أن يخضع لها ملتزما بقهرها له .

وتشكل ضروب السلوك فى مجموعها والأفكار التى تحكمها موقفا اجتماعيا يتضمن السلوك الفردى ، حيث يتفاعل البشر فى اطاره خاضعين لميكانيزماته . من هنا فتعريف الظاهرة الاجتماعية يتطابق وتحديد السياق الاجتماعى الذى يتفاعل فى اطاره الانسان ، ويتطابق والسلوك الاجتماعى ، دون السلوك الفردى أو التصرف act†، مادام لهذه الظاهرة وجود متميز وميكانيزمات خاصة تعلم وفقا لها مستقلة عن كل ماهو فردى . ذلك يفرض علينا

ضرورة التعرف على الخصائص الأساسية للظواهر الاجتماعية بالمعنى الدوركيمى ، والمواقف الاجتماعية أو السلوكيات الاجتماعية وهو المعنى أو المفاهيم الحديثة لذات المضامين .

وفى محاولة لاستكشاف خصائص السلوك الاجتماعى باعتباره الوحدة المصغرة للظاهرة الاجتماعية – عند إميل دوركيم – فان ذلك يستوجب منا استكشاف هذه الخصائص فى اطار ثلاثة نطاقات رئيسية . أولها يتعلق بسببيه السلوك ، وثانيها يتعلق بمجموعة الخصائص التى تمثل التجسد الواقعى للسلوك ، أما الثالية فترتبط بغائية السلوك والهدف الذى يؤديه فى اطار السياق .

وتوضح محاولة استكشاف الخصائص المتعلقة بسببية السلوك أو طبيعة العوامل الدافعة اليه ان سلوك الانسان فى المجتمع لايقع مصادفة – على مايذهب دوركيم – وليس تعبيرا تاما عن الحرية الفردية . فالمصادفة ينبغى القضاء عليها من نطاق العلم ، ومقولات الارادة والاختيار الفردى ينبغى الاستغناء عنها (١٤٨) . غير انه اذا لم يكن السلوك تعبيرا عن الارادة الفردية التى دفعت اليه ، اذا فى أى اتجاه نبحث عن العوامل المسببة له . فى اطار ذلك نجد أن دوركيم فى دراسته للانتحار ، وتقسيم العمل الاجتماعى بالاضافة الى مؤلفه قواعد المنهج فى علم الاجتماع ، يناقش فاعلية ثلاثة عوامل أساسية هى العوامل البيلوجية ، ثم العوامل النفسية ثم العوامل الاجتماعية ، هذا بالاضافة الى العوامل البيئية المنطلقة أساسا من البيئة المادية للانسان .

وفيما يتعلق بالعوامل البيلوجية نجد أن إميل دوركيم يؤكد أن القول بفاعلية العوامل البيلوجية يجعل سلوك الفرد البشرى محكوما بالولادة مثل الكائن العضوى ، أو بواسطة تكوين الخلايا الذى ينحد اليه من أسلافه (١٤٩) . فالحيوان تحت تأثير الحتمية البيلوجية التى تحكمه يحاول استيعاب الحقائق الاجتماعية بالنسبة لهذه الحتمية ، بحيث تتحول لديه فى النهاية الى حقائق بيلوجية . بينما على العكس من ذلك نجد الانسان وبخاصة فى المجتمعات العليا أو الراقية حيث تستبدل الأسباب العضوية بأسباب اجتماعية ، وحيث يتحول الكائن العضوى الى كائن حى (١٥٠) .

بيد أن ذلك لايعنى انتفاء أية فاعلية للعوامل البيلوجية كعوامل دافعة للسلوك . حقيقة ان دوركيم أكد فيما يتعلق بالانسان ان أصوله الوراثية أو البيلوجية لاتحدد المهنة أو العمل الرئيسى

الذى ينبغى أن يقوم به الفرد ، حيث أن تكوينه الجينى لايفرض عليه بشكل مسبق ان يمارس فاعليته من خلال دور محدد فقط ، وبذلك يجعله عاجزا عن القيام بأى دور آخر ، وانما يستقبل الفرد من الوراثة مجرد استعدادات عامة فقط ، طبيعة يمكن تشكيلها ومن الممكن ان تتخذ أشكالا مختلفة (١٥١) . ثم يذهب الى انه اذا أعمل الانسان أيا من قدراته فى انجاز أفعال معينة على حساب اغفال أخرى ، فان الأخيرة سوف تضعف تدريجيا . وسوف يحيى الانسان وينشط القدرات التى أعملها فقط (١٥٢) . بيد ان ذلك ليس اعادة للقول بانطلاق السلوك بالنظر الى خلفيات بيلوجية ، وانما يكون بالنظر الى التخصص فى اطار تقسيم العمل ، حيث البعد الاجتماعى هو الذى فرض ذلك .

فى اطار ذلك يؤكد تالكوت بارسونز ان إميل دوركيم وان أغفل صراحة فاعلية الدوافع البيلوجية كأحدى خواص السلوك الاجتماعى لديه ، فانه قد عاد رغماً عنه وأكد الدور الفعال لعامل السكان ، وهو عامل بيلوجى ، كدافع لعديد من الظواهر أو الوقائع المجتمعية الشاملة (١٥٣) . بيد أن هذا الادعاء مردود عليه ، لأن دوركيم حينما أكد فاعلية عامل السكان كدافع لوقائع معينة لم يكن ذلك بالنظر الى السكان كتكوين بيلوجى ، ولكن بالنظر الى الكثافة الاجتماعية التى تعتبر الكثافة السكانية أحد عناصرها ، وبذلك فان دوركيم ظل دائما محافظا على موقفه الرافض لفاعلية العوامل البيلوجية كعوامل دافعة للواقعة أو الظاهرة الاجتماعية .

وتشكل العوامل النفسية كعوامل دافعة للسلوك رفضا دوركيميا آخر ، وبالرغم من أن دوركيم لم يرفض علم النفس كنظام عقلى بالاضافة الى أنه لم يقلل من شأن التفسير السيكولوجى بالنسبة لبعض الظواهر ، الى جانب أنه لم يشكك فى أن الانسان عبارة عن كائن مفكر وحساس ذى وعى . غير أن مايرفضه دوركيم هى تلك الجهود التى تحاول أن تستنتج الظواهر الاجتماعية من حالات ليست اجتماعية ، أعنى من الحالات العقلية أو الجسمية التى قد توجد فى الفرد وحده .. ثم يذهب الى انه رغم ضرورةالوعى الفردى ، غير انه بذاته ليس كافيا لتفسير دافعية السلوك . ومن ثم فاذا نحن قد بدأنا بالفرد على هذا النحو ، فانه لن يكون هناك امكان لادراك مايمكن أن يوجد بالنظر الى تجمع من الأفراد . أو بالنظر الى بناءات الوظائف والسلطات والأدوار والمعايير المستنتجة اجتماعيا ، تلك التى لها وجودها الحقيقى خارج الفرد (١٥٤) .

وبعبارة أخرى يوجد بين علم النفس وعلم الاجتماع نفس انفصال الاستمرارية التى بين علوم البيلوجيا من ناحية وبين العلوم الفسيو- كيميائية من ناحية أخرى . استنتاجا من ذلك ففى كل لحظة يتم فيها تفسير الظاهرة الاجتماعية مباشرة بواسطة الظاهرة السيكلوجية ، فان ذلك التفسير سوف يكون ولا شك زائفا (١٥٥) . ويعنى ذلك ان دوركيم يرفض ان تكون دافعية السلوك من داخل الانسان حيث بناؤه البيلوجى أو السيكلوجى . بل شكلت الأخيرة كنطاق لدافعية السلوك محور خلافه الأساسى مع المدرسة النفعية حيث انجز دراسته للانتحار لكى يؤكد أن الظاهرة اجتماعية وان بدت فردية فى طابعها الخارجى ، إلا أن مايدفع اليها عوامل اجتماعية أساسا وليست سيكولوجية .

اذن ماهى طبيعة العوامل الدافعة للسلوك ؟ الموقف الذى يختاره دوركيم هو أن مصدر السلوك لدى الانسان يكمن فى سياقه ، بل أننا نجد أن دوركيم يصل الى حد القول بأنه من الممكن أن يندفع الأفراد المسالمون كل المسالمة الى القيام بأفعال همجية قد لا ترضاها فرديتهم متى وجدوا فى جماعة . يحدث ذلك فى الانفجارات الاجتماعية أو فى حركات الرأى العام التى تحدث بلا انقطاع (١٥٦) . اذن فالبعد الاجتماعى يكون بارزا مادام السلوك البشرى يتحدد بواسطة الضمير الجمعى وليس الضمير الفردى . ويتحدد الضمير الجمعى على أنه كيان من العواطف والمعتقدات المشتركة بين أعضاء المجتمع (١٥٧) . هذا الكيان الذى ينتقل الينا من خلال عمليتى التطبيع والتربية ، والذى يفرض على الطفل أساليب للرؤية والشعور والسلوك . تلك التى لايمكن أن يصل اليها بشكل تلقائى .. ومن ثم فمن طبيعة كل سياق اجتماعى ان يحاول صياغة أفراده وفقا لصورته ، وفى اطار هذه العملية يكون الآباء والمعلمون مجرد وسائط أو ممثلين لهذا السياق (١٥٨) . ويحاول دوركيم تأكيد ذلك بطرحه لبعض الأمثلة ، اذ نجده يؤكد أن السلوك الاجرامى يكتسب هويته لأنه يؤدى حالات محددة وقوية للضمير الجمعى (١٥٩) ، وفى هذا الاطار يذهب دوركيم الى القول بأنه لاينبغى أن نؤكد ان سلوكا مايصدم الضمير المشترك لأنه سلوك اجرامى ، ولكنه يعتبر سلوكا اجراميا لأنه يصدم الضمير الجمعى (١٦٠) . ذلك يعنى ان مشروعية السلوك أو عدم مشروعيته تكتسب من السياق الاجتماعى ، فهو الاطار المرجعى لدى دوركيم لتحديد هوية السلوك الاجتماعى الذى يأتيه الانسان ويعتبر الانتحار هو المثال الثانى الذى يستشهد من خلاله دوركيم على الدافعية الاجتماعية للسلوك كخاصية أساسية له . اذا يؤكد دوركيم ان الانتحار وهو الذى يبدو واقعة فردية تدفع اليها عوامل اجتماعية أساسا .

فالانتحار – الايثارى الملزم – يأتيه الشخص اذا أحس بأنه عالة على الجماعة أو يأتيه الفرد وفاء للجماعة اذا كان اختياريا . أما الانتحار الايثارى الحاد acute فيأتيه الفرد لإحساسه بأن ثمة خطرا يتهدد حياة الجماعة أو أن الخطر قد وقع فعلا ومن ثم تصبح الحياة بلا قيمة (١٦١) . بل ان انتحار الأنومى يأتيه الشخص حينما يتهدم السياق الاجتماعى وينهار ويصبح عاجزا عن امداد السلوك بدافعيته . ذلك يوضح ارتفاع معدلات الانتحار فى فترات التغير المفاجئة فى حياة الطبقة كالارتفاع أو الانخفاض المفاجئ ، حيث يكون الشخص منقطع الأوصال بالسياق الاجتماعى المؤسس داخله . كذا يعانى المطلقون الذين انهارت سياقاتهم الاجتماعية العائلية من الانتحار أيضا . ويرجع ذلك الى ضعف السياق الاجتماعى أو انهياره لأى من الأسباب ، وهو مايعنى الغاء أية قيود على المعيشة ، ومن ثم يضع البشر فى حالة من عدم التحدد Flux بذلك يخلق فراغا اجتماعيا وشخصا يؤدى الى انهيار توجيه السلوك (١٦٢) ومن ثم يتخذ السلوك أيا من أشكال الانحراف .

السؤال الذى يطرح نفسه حينئذ هو : لماذا كان السياق الاجتماعى منطلق دافعية السلوك ، وهنا ندخل الى المجموعة الثانية من خواص السلوك ، وهى تلك التى تتعلق بدينامية السلوك فى اطار تجسده فى الواقع الخارجى للانسان . فى اطار ذلك يكتسب السلوك مجموعةمن الخواص تصله بالموقف الاجتماعى المحتوى له . هذه الخصائص يمكن ايجازها فى ثلاثة خواص رئيسية . هى خاصية الخارجية ، حيث السلوك من حيث شروطه وغاياته ووسائله ودينامية انجازه من خارج الانسان . ثم خاصية الالزام حيث الفرد ملتزم بانجاز السلوك بالنظر الى عناصره المتاحة فى الموقف ، ثم القهر حيث الانسان مقهور أو مفروض عليه انجازه وإلا هناك من الوسائل مما يؤدى أعمالها الى ترسيخ فاعلية هذا القهر .

أما فيما يتعلق بخاصية الخارجية ، فيؤكد دوركيم ان ضروب الشعور أو السلوك التى يأتيها الانسان ليست خارجة عنه فقط وانما لها وطأتها القاهرة بالنسبة له أيضا .. اذ تعتبر ضروب السلوك أو الظاهرة حقيقة خارجة عنى لأنى لست أنا الذى الزمت نفسى بها ، وانما تلقيتها من خلال التربية . فأفكارى وتقاليد مهنتى وضروب سلوكها موجودة ومستقلة عن طريق استخدامى لها . فهى كلها ضروب من السلوك والشعور تمتاز بخاصية أنها توجد خارج شعور الأفراد (١٦٣) .

ويعتبر دوركيم خاصية الخارجية هذه من أكثر الخواص المميزة للحقائق الاجتماعية (١٦٤) . حيث ينظر الى أية واقعة على أنها خارجية بالنسبة للانسان وليس الملاحظ . وتتصل خاصية الخارجية هذه باعتبار دوركيم الحقائق الاجتماعية كأشياء . حيث لمفهوم الشئ هنا معنيان ، فالى جانب ان حقائق الظواهر الاجتماعية التى ندرسها تعتبر جزءا من العالم الخارجى ، أى من الطبيعة بالنسبة للملاحظ الاجتماعى ، بل ان السلوك البشرى ينبغى ان يدرك بالنظر الى هذه العوامل والقوى التى تعتبر أشياء بالنسبة لفرد الذى يؤدى سلوكا معينا ، كما لو أنها حقائق صلبة Stuborn لايمكن تعديلها لكى تتوافق مع عواطفه ورغباته الخاصة . ومن ثم فعلى نقيض حاجات المذهب النفى ، التى هى تلقائية وذات طابع ذاتى ، فان الأشياء Choses ليست تلقائية بل معطاه أو مفروضة Given ، ليست ذاتية ولكنها خارجية (١٦٥) .

ذلك يعنى ان خارجية الظاهرة تعنى مسألتين : الأولى ان السلوك من حيث دافعيته وأدائيته فى الموقف ووظيفته فى السياق يخضع لديناميات خارجية تصل الى حد اعتبار الانسان مجرد وسيلة لانجاز سلوك يشبع حاجة مجتمعية . ومن ثم فهو مفروض على الفرد من الخارج . أما المعنى الثانى للخارجية فيعنى ان العناصر الأساسية للسلوك من حيث القيم أو المعايير التى تحكمة أو من حيث الوسائل التى تستخدم فى انجازه ، هى كلها مكونات خارج الفرد موجودة كأشياء فى الموقف الاجتماعى وعلى الانسان ان يتكيف معها وليس فى امكانه تكييفها لاشباع حاجاته الخاصة .

ويعتبر الالزام الخاصية الثانية للسلوك أو الواقعة الاجتماعية فى اطار الموقف الاجتماعى . ونعنى بها ان يخضع الانسان لالزام أخلاقى وهو ينجز سلوكا اجتماعيا محددا . ويتضح ذلك من تعريف دوركيم للحقائق الاجتماعية بأنها قواعد للسلوك ذات جزاء . ذلك لأن السلوك الأخلاقى ليس بالضبط الطريقة المعتادة للفعل ، ولكنه قبل كل شئ أسلوب ملزم لأداء الفعل ، ومن ثم فهو ليس متروكا لهوى الحكم الارادى للفرد (١٦٦) . ويؤكد دوركيم ان فكرة الالزام التى أغفلها الاتجاه النفعى قد تأكدت منذ أكدها الفيلسوف كانت . غير ان كانت قصر الالزام على رغبة الانسان فى ان يتصرف أخلاقيا ، بينما الحقيقة ان الفرد الى جانب رغبته فى ان يتصرف أخلاقيا يتصرف أساسا على هذا النحو لأن القاعدة الأخلاقية تفرض هذا التصرف (١٦٧) ، وتظهر فكرة الالزام أو الواجب من وجود الآخر فى موقف الانسان غير ان

الفرد أو الآخر ليس هدف السلوك الأخلاقى من وجهة نظر دوركيم ولكنه الانسان الجمعى أو المجتمع ذاته . فاذا اعتبرنا ان الالزام ينبثق من نسق موجود من الالتزامات والواجبات ، فان المجتمع ينبغى أن يكون انسان أو فاعلا أخلاقيا متميزا كيفيا عن الأفراد . فى هذا العالم الذى نعرفه وندركه يكون للتجمع فقط واقعية أخلاقية أكثر ثراء وتعقيدا مما للفرد (١٦٨) .

غير ان الالزام لا يتحقق فقط عن طريق خضوع الانسان للقاعدة الأخلاقية وانما يوضح دوركيم ان السلوك الاجتماعى لايتوقف عند كونه يتطلب جهود التضحية والحرمان من جانبنا فقط ، لأن القوة الجمعية ليست خارجية عنا كلية ، ومن ثم فهى لاتؤدى فعلها علينا كلية من الخارج ، ولكن لأن المجتمع لايمكن ان يوجد إلا فى ومن خلال الوعى الفردى ، ومن ثم فان هذه القوة الجمعية ينبغى ان تتخللنا أو تنظم ديناميتنا ، الى أن تصبح جزءا مكملا لوجودنا ، ومن ثم تصبح سامية ومقدسة (١٦٩) . اذن ففكرة الالزام كما يراها دوركيم تتأسس أساسا من خارج الفرد ، لكنها تتسلل الى داخله لتجعل الانسان مجرد وحدة موضوعية فى النسيج الاجتماعى يلتزم بأداء سلوك يشبع حاجات الانسان الجمعى ، الذى هو نتاج التفاعل مع الآخر فى الموقف الاجتماعى ، فهو يلتزم بهذا الانجاز من خارجه ومن داخله أيضا . وتتجسد فكرة الالزام فى خاصية القهر ، وهى الخاصية الثالثة للظاهرة الاجتماعية فى اطار السياق الاجتماعى . ويقصد دوركيم بفكرة القهر ان ضروب السلوك أو التفكير الاجتماعية أشياء حقيقة توجد خارج ضمائر الأفراد الذين يجبرون على الخضوع لها فى لحظة من لحظات حياتهم (١٧٠) . ويؤكد دوركيم ان السلوك الأخلاقى له جانبان : الانجذاب الايجابى ، أى الانجذاب نحو مثال أو مجموعة من المثل ، وهو مايشكل أحد الجوانب ، غير أن القواعد الأخلاقية لها خواص الالزام والقهر أيضا ، مادام السعى لتحقيق الغايات الأخلاقية ليس محتما دائما ان يستند الى كفاءة المثل . ومن ثم فكلا جانبى القواعد الأخلاقية ضرورى لفاعليتها (١٧١) . اذن فأحد جوانب التسليم بالحقيقة الاجتماعية يرجع الى قوة القهر الخارجى التى فى قدرتها ان تمارسه على الأفراد . ويمكن التعرف على وجود هذه القوة أما عن طريق وجود بعض الجزاءات المحددة أو بالنظر الى المقاومة التى تظهرها ضد أى جهد فردى يميل الى تركها (١٧٢) .

ويذهب دوركيم الى انه حينما ينجز الأفراد أفعالا معينة فانهم لايبتكرونها وانما تشكل هذه الأفعال جزءا من نسق الالتزامات الأخلاقية التى يكون متداخلا enmeshed فيه مع

الآخرين ، وبينما يكون باستطاعة الفرد أن يهزأ Flout بمثل هذه الالتزامات ، غير انه اذا فعل ذلك يشعر بقوتها ، ومن ثم يؤكد طبيعتها القهرية بالخضوع لها ( فحتى حينما أحرر نفسى من هذه القواعد وانتهكها بنجاح ، فانه يفرض علىّ صراعها . وحينما اتجاوزها فى النهاية فانها تجعل قوتها القاهرة مشعورا بها بدرجة طاغية عن طريق المقاومة التى تقدمها ) (١٧٣) . ويؤكد دوركيم انه مادمنا قد جعلنا القهر هو المؤشر الخارجى الذى يمكن أن تتميز به الحقائق الاجتماعية ، وتعرف به ، عن حقائق النفس الفردية . فانه وفقا لرأينا يصبح القهر الفيزيقى أساسيا بالنسبة للحياة الاجتماعية . وفى الحقيقة فاننا لانرى فيه أكثر من التعبير المادى الصريح عن حقيقة داخلية دفينة ، ذات طابع مثالى بشكل كامل ، تلك هى السلطة الأخلاقية (١٧٤) . اذن فالسلوك فى علاقته بموقفه الاجتماعى يكتسب ثلاث خواص أساسية هى الخارجية والالزام والقهر ، بالاضافة الى خاصيته الأولى وهى ذات طابع اجتماعى أساسا على نحو ماأوضحنا .

يبقى بعد ذلك ان نوضح الخاصية الأخيرة للسلوك وهى تلك المتعلقة بغاياته . فى اطار ذلك يؤكد دوركيم ان معنى الموضوعات لايشتق من خصائص أساسية فيها وانما من كونها رموزا لاظهارات جمعية للمجتمع (١٧٥) . اذن فسبب السلوك لايكمن فى ذاته أو فى ذات الانسان ، وانما فى السياق الاجتماعى . ومن ثم فتفسير وجوده ينبغى أن يكون بالنظر الى الوظيفة التى يؤديها أو الغاية التى يهدف الى تحقيقها . فى اطار ذلك يؤكد دوركيم انه حينما نحاول انجاز تفسير للظاهرة الاجتماعية ، فالى جانب اننا نحاول تحديد السبب الأساسى وراءها ، فاننا ينبغى أن نتعرف على الوظيفة التى تنجزها (١٧٦) . واذا كنا قد قلنا أن العامل المحتم لوجود حقيقة اجتماعية ينبغى أن نبحث عنه فى الحقائق الاجتماعية السابقة عليها ، فاننا نذهب الى أننا اذا كنا بصدد تحديد الوظيفة التى تؤديها الحقيقة الاجتماعية فاننا يجب أن نبحث عنها بالنظر الى غاية اجتماعية . ثم يؤكد انه فى اطار علم الاجتماع ، وليس علم النفس الفردى ، ينبغى أن يكون هناك اهتمام بالوظائف الاجتماعية ، ومن ثم فينبغى أن نكون على وعى بأن الحقائق الاجتماعية لها سياقات ووظائف اجتماعية . فاذا لم تحدد الوظيفة التى تؤديها عادة أو تقليدا فى اطار النظام الاجتماعى الأشمل فاننا لانكون قد قدمنا تفسيرا فعالا (١٧٧) .

ومادام السلوك الاجتماعى وسيلة لغاية اجتماعية تدفع اليها أسبابا اجتماعية من خلال

الانسان . هنا نجد أن دوركيم يرفض الثنائية النفعية بين الوسائل والغايات مؤكدا أن كل وسيلة من وجهة نظر أخرى غاية . فما دمت تستخدمها فانك ترغبها مثلما ترغب الغاية التى تستخدم هذه الوسيلة لتحقيقها (١٧٨) . اذن فكل ماهو موجود فى الواقع الاجتماعى ، الانسان والسلوك والوسائل والشروط الاجتماعية ، كلها وسائل تهدف الى تحقيق وظيفة أساسية يفرض انجازها المجتمع ، وهو الذات الأسمى ، بذلك تكون خصائص السلوك الاجتماعى من وجهة النظر الدوركيمية ذات طابع اجتماعى أساسا ، من حيث الدافعية ، أو الشروط والخصائص والعلاقات الموقفية ، أو من حيث الغاية التى ينجزها هذا السلوك ، بحيث يتحقق كل ذلك برغبة وارادة من الانسان ، وأيضا بشكل حتمى ورغما عنه .

**ثالثا : ادراك الواقعية الاجتماعية ، أبعاد المدخل الموضوعى**

يعتبر اصرار دوركيم على مقولة الموضوعية فى دراسة الواقعة الاجتماعية انعكاسا لمسألتين ، الأولى أنه من الضروى التصدى لمثل هذه المفاهيم فى المراحل التى عادة ماتصاحب نشأة علم جديد ينبغى عليه تناول متغيراته بالبحث والدراسة . وثانية انه من المنطقى أن يثور حوار يتعلق بمادة هذا العلم ، ثم بأسلوب ادراك طبيعة هذه المادة . هل ندركها بذات ادراك العلوم الطبيعية لمادتها أم اننا اذا كنا بازاء علم انسانى فينبغى أن نؤسس ادراكا ملائما للظاهرة الأنسانية . واذا كانت الموضوعية أو الذاتية أحد عناصر هذا المنهج ، فمنطقيا أن يتعرض لها دوركيم فى تناوله للمستويات المنهجية بمشروعه النظرى .

ويؤكد دوركيم أننا اذا كنا نريد دراسة الظواهر الاجتماعية بالأسلوب الوضعى فاننا ينبغى أن نستبدل الحقيقة الداخلية للوعى بمؤشر خارجى يشير اليها ، بحيث يمكننا دراستها فى ضوء هذه المؤشرات . وبذلك نجد ان كل الظواهر الاجتماعية تبرز نفسها للعالم الاجتماعى من خلال مؤشراتها المحسوسة (١٧٩) . وتعنى دراسة الظاهرة الاجتماعية من خلال مؤشراتها ادراكها كموضوع فى الواقع الخارجى ومن ثم دراسته مثلما يتجلى لنا من خلال مؤشراته أو اظهاراته الأساسية ، فى اطار ذلك فنحن لانوافق ارفنج زايتلن حينما يؤكد ان اصرار دوركيم على الموضوعية كان استمرارا للموقف الكونتى ، حيث كان دوركيم يهدف من اعلانه الى تحقيق مسألتين . أولا انه بتأكيده على موضوعية وحقيقية النظام القائم ، فان الاتجاهات نحو نفيه تصبح عبثية ولامعنى لها ، وغير حقيقية ، وثانيا فان القول بالموضوعية يعتبر مبالغة فى درجة

استقلال الحقائق الاجتماعية عن الارادة الفردية (١٨٠) . ومن ثم ترفض هذه الدراسة محاولة ارفنج زايتلن نقد الموقف الدوركيمي من خلال ادراك القضية العلمية من خلال متضمنات أيديولوجية ، وهو مايعني خطأ معرفيا واضحا .

ويتأسس الادراك الموضوعي لدى دوركيم من خلال ثلاثة اطارات أساسية الأول يتعلق بطبيعة الموضوعية بالنظر الى مصدر الواقعية ، أما الثاني فيتعلق بالخصائص الموضوعية للواقعة الاجتماعية أما الثالث فيتعلق بمحكات الموضوعية بالنظر الى الباحث القائم بتناول الواقعة ، أو الذى يحاول ادراكها .

أما فيما يتعلق بطبيعة الموضوعية بالنظر الى مصدر الواقعة فيتضح من أننا اذا افترضنا ان الادراك أما أن يكون بالنظر الى الانسان المشارك فيها ، ومن ثم يكون ذلك ادراكا ذاتيا لها ، أما اذا افترضنا ان ادراك الحقيقة يتم من خلال تشكلها بالسياق الاجتماعي الذى يتضمنها فان ذلك يكون ادراكا موضوعيا من الخارج لأنه لا علاقة له بذاتية الانسان المدركة . بالنظر الى ذلك نجد ان دوركيم يفضل ادراك الواقعية كما يحددها السياق أو كما تظهر من خلاله . فالسياق لديه هو أساس الموضوعية ، أو هو الحقيقة الكلية الثابتة التى تتجاوز الحقيقة الفردية وتسمو عليها ، فالحقيقة الاجتماعية أكثر تعقيدا ودواما من الأولى لأنها متضمنة لها (١٨١) .

ويبرهن دوركيم على موضوعية ماهو اجتماعي بتأكيده انه مادام قد بقى عاما وقائما لوقت طويل ، فان ذلك ماكان ليتحقق له لو لم يكن على صلة بجوهر الأشياء . ومن ثم فهو يربط الصدق بالحياة الجمعية . اذ تبرز تجربة الحياة الاجتماعية للانسان ان هناك اظهارات تتجاوز الفردية ، ومن ثم فعليه ان يأخذها فى الاعتبار . وان الحياة فى المجتمع تجعل الانسان على وعى بوجود نطاق عقلى يشارك فيه ، وهو أعظم منه بحيث يصبح ذلك نطاقا أساسيا للصدق (١٨٢) . يؤدى تجاوز الوجود الاجتماعي لمفرداته وتكويناته الجزئية الى جعله مصدرا لمعنى كل الأشياء . فمعنى الأشياء لايشتق من خصائص أساسية فيها ، ولكن من كونها رموزا للاظهارات الجمعية للمجتمع . فمعنى الظاهرة وقيمتها تعتبر صفات اجتماعية وليست خصائص موضوعية للظاهرة المادية (١٨٣) . اذن فصفات الأشياء وخصائصها ليست ملامح كامنة بها ، ولا تخلعها عليها ذوات البشر فى المجال الاجتماعي . اذن فالمجتمع موضوع شامل وهو أصل كل الموضوعية ، فى اطار ذلك نجد ان دوركيم يطرح رأيا حاسما فى حل مشكلة ابستمولوجية

ظهرت فى الحوار بين أصحاب النزعة الامبيريقية empiricists من ناحية وأصحاب النزعة القبلية apriorists من ناحية أخرى ، اذ يؤكد دوركيم ان مقولات الزمان والمكان وكل المقولات الأخرى هى مقولات اجتماعية ، وانها ليست منبثقة عن عقول البشر بالمعنى الكانتى Kantian sense ولكنها معطاة بواسطة البيئة الاجتماعية (١٨٤) .

ويذهب دوركيم الى أن مقولات ادراك الموضوع تأتى اليه من السياق الاجتماعى . فالموضوع يقع فى اطار زمانى وله احلال مكانى ، وتربطه بالظاهرة الأخرى علاقات سببية فى اطار وجود كلى يتضمنه . هنا نجد أن إميل دوركيم يؤكد ان مقولات الزمان والمكان والسببية ، والكلية مقولات لها أصلها الاجتماعى ، بالاضافة الى مقولة القوة . أما فيما يتعلق بالأخيرة ( مقولة القوة ) نجد ان المجتمع هو الذى يصنف كائناته الى ماهو اسمى وماهو أدنى ، فهو الذى يقسم كائناته الى سادة آمرين أو خدم مطيعين ، وان المجتمع هو الذى يخلع على الأقوياء والسادة القوة الفريدة singular power التى تجعل الأمر مؤثرا والتى تخلق القوة (١٨٥) . فمن خلال وطأة المجتمع على العقل البدائى ، وهو التأثير الذى يتضح من خلال التطبيع الذى يمتد عبر أجيال عديدة من الخبرة البدائية للجنس البشرى . نجد ان ثقافة الانسان ومن ثم طبيعته الاجتماعية الثقافية قد اكسبت فكرة القوة Force ، القوة المجردة التى أدركت باعتبارات وقتية واجتماعية لوقت طويل . وبالنسبة لفكرة السببية فنجد ان لها هى الأخرى أصولها الاجتماعية . اذ يؤكد دوركيم ان فكرة العلاقة السببية تتضمن فكرة الكفاءة الخاصة بالقوى الفعالة . فالسبب هو شئ ما قادر على انتاج التغيير الاجتماعى ، أو هو القوة Mana المنتشرة والتى تكشف عن نفسها فى كل نطاقات الطبيعة ، فهى التى تسبب هبوب الرياح ونمو النباتات وتكاثر الحيوان (١٨٦) .

وينطبق نفس الأمر على مقولات الزمان والمكان وما الى ذلك . ويؤكد دوركيم ان فكرة الزمان قد نشأت من خلال ملاحظة الانسان البدائى لمجموعة الممارسات المطردة لما هو مقدس ، أو تلك الطقوسيات المتعلقة بمنح الحياة . اذ أدى هذا الانتظام . والاطراد الأساسى وفقا للايقاعات القمرية Lumar ، والشمسية Solar الى خلق أفكار الدورية ، والدوام ، والمؤقت . أما فيما يتعلق بتصور المكان فقد تم الايحاء به بواسطة ممارسات السكنى المعتادة للقبيلة ، وهل هى على شكل المربع أم المستطيل ، أو اتخذت الشكل الدائرى لسكنى والحياة الثقافية بوجه عام ، فى اطار ذلك يؤكد لنا دوركيم ، ان سكان استراليا الأصليين يعيشون فى معسكرات

دائرية ، مركزية فى طبيعتها ، ومن ثم فكل أفكارهم عن المكان بالمثل ذات طبيعة مركزية ودائرية (١٨٧) . اذن فالموجود الخارجي للسياق الاجتماعى متموضع بذاته ، يستوعب موضوعاته المكونة ومنها الفرد البشرى أو الاجتماعى ، ويفرض عليه مقولات التحدد والادراك المشتقة منه وليست من ذاته . ومن ثم فمعنى الأشياء من خارجها وليست من داخلها أو مخلوعة عليها من ذات الانسان .

وفى أعقاب ذلك ينتقل بنا دوركيم الى المستوى الثانى من الموضوعية وهو الخاص بخصائص الواقعة الاجتماعية كما رآها دوركيم ، حيث نجد ان مجموعة الخصائص التى تميز مادة الدراسة فى علم الاجتماع وهى الظاهرة أو الواقعة الاجتماعية ، التى تدرسها كأشياء لها وجود خارجى مستقل عن الارادة الفردية ، غير أنها تظل فى وجودها تكتسب موضوعيتها من انتسابها لسياق اجتماعى محدد . وفيما يتعلق بوجود الظاهرة أو الواقعة الاجتماعية كأشياء فينطلق من ضرورة تناولها كأشياء ، باعتبارها المادة الوحيدة التى يمكن اتخاذها موضوعا لعلم الاجتماع . فالشئ هو حقيقة مايقع تحت ملاحظتنا ، أو هو مايقدم نفسه لنا ، أو هو بالأحرى الذى يفرض نفسه علينا فرضا (١٨٨) . ويؤكد دوركيم أنه ليس معنى أن دراسة الظواهر الاجتماعية كأشياء ان نقول ان هذه الظواهر ذات طابع مادى ، ولكننا نقصد من ذلك أنها ذات وجود بارز ، ومن ثم فهى جديرة بأن توصف بأنها ( أشياء ) كالظواهر الطبيعية تماما (١٨٩) . ومن ثم فلا ينبغى اعتبارها مجرد امتدادات للذوات الفردية أو هى ظلال يضفيها وجود الأفراد ، باعتبار ان القول بالظواهر ، والوقائع الاجتماعية كأشياء ، يعنى امتلاكها لخاصيتى الخارجية والموضوعية ، ومن ثم فكلى نفهمها علميا ينبغى ان يتم ذلك بالنظر الى ذاتها نفسها (١٩٠) . فوجود الشئ فى ذاته يعنى أن ادراكه موضوعيا ينبغى أن يتم بالنظر الى ذاته وليس بالنظر الى ذات الانسان أو الملاحظ .

وتعتبر الخارجية هى الخاصية الثانية للواقعة الاجتماعية . وتعنى الخارجية ان تكون الواقعة سواء كانت ظاهرة ، أو سلوكا اجتماعيا خارجة على شعورى بها . نتلقاها عن طريق التربية . وتعنى الخارجية أيضا أسبقية الظاهرة أو الواقعة فى وجودها على الوجود الفردى نستخدمها ونمارسها ، وهى مع ذلك مستقلة عنا ، تواجهنا بقوتها القاهرة اذ نحن قد حاولنا الخروج عليها (١٩١) . ويعنى الوجود الخارجى للظاهرة ان ادراكها يتم بالتركيز عليها كما تفعل العلوم الطبيعية بالنسبة لمادتها ، وهو مايفرض علينا دراستها من الخارج ، أى على أنها أشياء

خارجية لأنها لاتقع تحت ملاحظتنا إلا على هذه الكيفية (١٩٢) . ويرتبط بخارجية الظاهرة عموميتها ، أى شمولها لجميع مفردات النوع دون الاقتصار على ذات أى منها ، ومن ثم يكسبها هذا الشمول نوعا من التموضع الخارج عن ذواتهم الفردية . وتعنى خاصية الخارجية بالنسبة للسلوك انه محكوم بشرط الموقف وليس بارادة الانسان واختياره ، وان الانسان فى انجاز السلوك ما هو إلا جزء أو عنصر فى اطاره ، هذا بالاضافة الى انتفاء نطاق حرية الفرد وقدرته على الاختيار ، وان بدأ انه يفعل ذلك ظاهريا (١٩٣) .

وتعتبر النسبية احدى خواص الحقيقة الاجتماعية سلوكا كانت أم ظاهرة . ونعنى بذلك ان حقائق الوسط الاجتماعى لاتبدو منتظمة بالنظر الى مبدأ أو مجموعة من المبادئ المناظرة لقوانين العالم الفيزيقى . ومن ثم فمبادئ السلوك ليست عامة وانما هى خاصة بكل مجتمع أو نموذج اجتماعى كما يذهب دوركيم . وبذلك يصبح من المستحيل على أساس موضوعى وسوسيولوجى تجاوز النسبية . وهى تعنى ان ماهو حقيقى بالنسبة لمجتمع ما ليس كذلك بالنسبة لآخر ، فكل نموذج له تكوين أخلاقى خاص به ينبغى اكتشافه بالبحث الامبيريقى . هذا ويعتبر ظهور مبدأ نسبية النماذج الاجتماعية فى العلوم الاجتماعية من أكثر الاسهامات الايجابية أهمية . حيث هى تعنى القضاء على تصور العامل الواحد المفسر لكل الظواهر وأنماط السلوك (١٩٤) . وبايجاز عام تطرح هذه الخصائص تصورا وضعيا موضوعيا للظواهر والسلوكيات الاجتماعية تيسر دراستها منعزلة عن التجسدات أو الذاتيات أو الإرادية الفردية بمعنى تناولها فى وجودها العينى البارز الذى يتكسب معناه بالنظر الى السياق الاجتماعى .

يبقى بعد ذلك ان نوضح ملامح الموضوعية المتعلقة بحالة اقتراب الباحث من ادراك الحقيقة . بداءة يؤكد دوركيم ان هناك مدخلين لادراك الحقيقة الواقعية التى هى السلوك الاجتماعى من وجهة نظر هذه الدراسة . بحيث ينفصل كل منهما عن الآخر ، ولكل منهما مشروعيته فى اطار النظرية العامة للعلم . أما المدخل الأول فهو المدخل العلمى ، وهو يمثل مدخل الباحث الملاحظ أساسا . حيث هو يهتم بظواهر معينة ، ومن الواضح ان المنهجية العلمية الحديثة أصبحت على درجة عالية من الكفاءة بحيث تيسر أن يكون الباحث العالم أكثر من ان يكون مجرد مرآة عاكسة للعالم الخارجى . اذ أن البحث العلمى فى ذاته عملية فعل ، وان السعى ليس وراء المعرفة المجردة ، ولكن من أجل معرفة معينة تتعلق بأشياء محددة . ومن ثم فهو عملية انتقائية بالنظر الى المعطيات . هذا الانتقاء محكوم كما هو واضح ، بواسطة بناء

الأنساق النظرية وبواسطة اعتبارات تتجاوز الاعتبارات العلمية . غير ان هدف العلم هو ان يقلل من العناصر التى لا تدخل فى تكوين الحقائق ذاتها . ويعتبر مفهوم الحقيقة بطبيعتها القهرية المقاومة لكل شئ باستثناء طبيعتها الأساسية بالنسبة للعلم . وبهذا المعنى يصبح توجه الباحث العلمى ، حسب طبيعة الحالة ، له طابعه السلبى .

أما المدخل الثانى فهو التوجه الأخلاقى الى الواقعة وهو توجه فعال وايجابى أساسا . حيث يكمن العنصر الجوهرى فى دور الانسان الخلاق ، وفى غاياته . وحرية الاختيار أساسية بالنسبة للأخلاق . وفضلا عن ذلك ان هذا العنصر الخلاق فيما يتعلق بالغايات ، لايشكل مجموعة من حقائق العالم الخارجى كما يراها الانسان . فى اطار ذلك يصبح السلوك مجرد تكيف ومجموعة الشروط الكائنة فى الموقف الاجتماعى (١٩٥) .

ومايختاره دوركيم بين العلم والأخلاق . هو التأكيد على ضرورة التناول العلمى . ولانجاز هذا التناول بشكل مثالى نجده يضع عدة قواعد على الباحث ان يتمثلها حتى يكون قادرا على الادراك الموضوعى للحقيقة موضع الاهتمام . من هذه القواعد ان يتحرر الباحث دائما من كل فكرة مسبقة عن السلوك (١٩٦) . وهو هنا يريد ان يلغى الموقف العاطفى ذا الطبيعة الذاتية فى مواجهة ادراك الباحث لسلوك الانسان . هذا الى جانب التحديد المبدئى لهوية الواقعة موضع الدراسة من خلال تحديد عناصرها الأساسية . ومن ثم ادخال هذه الوقائع فى اطار طائفة قائمة بذاتها (١٩٧) . وهنا يكون تصنيف هذه الوقائع بالنظر الى عناصرها هى وليس بالنظر الى رؤية الباحث وذاتيته . أما القاعدة الثالثة التى ينبغى على الباحث ملاحظتها فهى ان عليه ان يتناول الظاهرة مستقلة عن تجسداتها الفردية (١٩٨) . وهو بذلك يهدف الى الغاء كل ما هو ذاتى عن الظاهرة حتى يتبدى وجودها كشئ موضوعى متميز .

ومثلما صاغ ماكس فيبر النماذج المثالية كوسيلة قياسية تيسر تحقيق درجة عالية من الموضوعية ، نجد دوركيم يقترح تأسيس مايمكن ان يسمى بالنموذج المتوسط . وهو يؤكد انه يمكن تشبيه هذا النموذج بشخصية ذهنية مجردة نصل الى تكوينها عن طريق الجمع بين أشد الخصائص النوعية عموما وبين أشد الصور انتشارا لدى أفراد النوع . فى اطار ذلك فان النموذج السليم للظاهرة هو الذى يتطابق والنموذج المتوسط ، وان أى انحراف عن مقاييس الصحة يعنى وجود ظاهرة معتلة (١٩٩) . معنى ذلك اننا نلاحظ تأكيدا دوركيميا واضحا على

ضرورة الادراك الموضوعى للواقعة الاجتماعية ، أولا بادراك ان موضوعيتها تنبثق من السياق الاجتماعى أساسا ، لكونها تنجز هدفا أو غرضا لهذا السياق . وانها أثناء ذلك تتصف بمجموعة من الخصائص التى تؤكد وجودها الموضوعى المتموضع فى العالم الخارجى بعيدة عن ذات الانسان وارادته . ومن ثم فادراكها ينبغى أن يكون بالنظر الى توجيه علمى له قواعده الأساسية التى تيسر الادراك الموضوعى وليس بالنظر الى توجه أخلاقى يخلق لدى الانسان التزاما معياريا بعملية انجاز السلوك .

**رابعا : الحتمية الاجتماعية ، اطار الادراك والفهم .**

يشير القول بحتمية السلوك الى مرحلة عاشتها النظرية السوسيولوجية فى أحد أطوارها . حيث تباينت مختلف اتجاهاتها من حيث رؤيتها لطبيعة الحتمية وعواملها . وقد أوضحنا كيف أنها كانت حتمية اقتصادية عند ماركس . وكيف انها سوف تصبح حتمية ثقافية أو قيمية عند ماكس فيبر ، وكيف انها أصبحت حتمية اجتماعية ، أو مجتمعية عند إميل دوركيم ، أو سيكولوجية بيلوجية عند باريتو بذلك فانه أيا كانت طبيعة العامل الحتمى ، فان المقصود به ان هذا العامل يتحكم فى الظاهرة من حيث ثباتها وتغيرها . وان القول بالحتمية يشير فى مجمله الى مرحلة مختلفة من مراحل التفسير السوسيولوجى .

ويكشف المتتبع لظهور التفكير الدوركيمى وتطوره عن معايشته لانماط محددة من الحتمية . فقد عايش الحتمية البيلوجية التى قال بها دارون فى اطار علم البيلوجيا وسبنسر فى المجال الاجتماعى . والحتمية البيئية التى قالت بها الوضعية ورفعت لواءها المدرسة الجغرافية . ثم الحتمية الاقتصادية التى قللت بها الماركسية فى مواجهة هذه الحتميات نجد أن المشروع الدوركيمى يغفل تماما الحتمية الاقتصادية التى أعلى من شأنها ماركس ، بينما نجده يناقش بدرجة مركزة كلا من الحتمية البيلوجية والحتمية البيئية ، باعتبارها حتميات تنتمى الى الجناح الوضعى فى التفكير ، أو على الأقل التفكير العلمى ، بالاضافة الى علم البيلوجيا الذى كانت له سطوته فى هذه المرحلة (٢٠٠) .

وفى مناقشة إميل دوركيم للأسباب المحتمة للسلوك الانسانى نجده يحصرها فى ثلاث حتميات أساسية ، حينما يذهب الى القول باعتماد الانسان على بيئات ثلاث Milieux† أو أوساط هى الكائن العضوى Organism والعالم الخارجى external world ثم المجتمع So-

ciety . وفيما يتعلق بالبيئة الأولى وهى البيئة العضوية نجده يؤكد أن أهم عواملها الوراثة ، وتأثيرها لم يكن له اعتبار فى التقدم الانسانى ، فالكائن العضوى لم يتعدل فى تطوره تلقائيا ، وانما أجبر على ذلك بفعل عامل خارجى ، أما بالنسبة للعالم أو الوسط الفيزيقى فيؤكد أنه ظل كما هو منذ بداية التاريخ ، اذا نظرنا اليه بدون التغيرات ذات الأصل الاجتماعى الذى حدثت فى اطاره . ومن ثم فليس هناك سوى المجتمع الذى قد يتغير ، وقد يكون هو القادر على تفسير التغيرات التى حدثت فى الطبيعة البشرية (٢٠١) .

ومن الناحية المنهجية يعتبر دوركيم البيئة أو الظروف الطبيعية عاملا أو متغيرا دائما ، ومن ثم يسقطه من حساب عوامل التفسير باعتبار ثبات فاعليته فى كافة مراحل التاريخ . غير ان حواره الأساسى كان موجها نحو فاعلية العامل البيولوجى باعتباره العامل الذى ارتبط الى حد كبير بالمدرسة النفعية مقصد الهجوم الدوركيمى المباشر . حيث نظرت النفعية الى تحتيم السلوك بواسطة الحاجات الأساسية للانسان التى هى ذاتية وداخلية وتلقائية بالنظر اليه ، وهو ماجعلهم ينزعون عن السلوك حتميته الخارجية (٢٠٢) .

ويؤكد دوركيم انتفاء فاعلية الحتمية البيلوجية فى اطار العالم الانسانى بخلاف ترسخ فاعليتها فى اطار العالم الحيوانى . اذ يؤكد إنه فيما يتعلق بالمجتمعات البشرية ، فان الأفراد يتحولون وفقا للتغيرات التى تظهر فى الوحدات الاجتماعية وعلاقاتها . فالحيوان عادة مايخضع بشكل مباشر وكامل لوطأة تأثير البيئة الفيزيقية ، حيث يحدد تكوينه البيلوجى وجوده بشكل مسبق . أما الانسان ، فعلى العكس من ذلك ، يعتمد على الأسباب الاجتماعية . حقيقة ان الحيوانات قد تشكل مجتمعات غير انها لكونها محدودة فان حياتها المجمعية عادة ماتكون بسيطة ، وهى عادة ماتكون ساكنة stationary. لأن توازن مثل هذه المجتمعات الصغيرة يكون مستقرا بالضرورة . وهى تؤدى فاعليتها من خلال نسق من الغرائز والأفعال اللا ارادية المنعكسة ، حيث الوسائل التى تيسر تكيف الفرد بالبيئة الفيزيقية وليس الاجتماعية . هذا فى حين ان الأمر يختلف فيما يتعلق بالانسان ، لأن المجتمعات التى يؤسسها أكثر اتساعا ، وان أكثر ما صغرا يعتبر أكثر اتساعا من معظم المجتمعات الحيوانية ، ولكونها أكثر تعقيدا فانها تتغير بدرجة أكثر ، ومن ثم يجعلها هذان العاملان لاتنتجز بالأسلوب البيلوجى . بالاضافة الى ذلك هناك المعتقدات والممارسات المشتركة بين البشر ، تلك التى لا تعزى الى نسيج خلاياهم . وتظهر هذه الطبيعة بدرجة أكثر كلما تطورت كثافة الكتلة الاجتماعية . فكلما كان هناك بشرا

أكثر فى اطار المجتمع كانت لهم أفعالهم وردود أفعالهم كل بالنسبة للآخر ، وتجاوز نتاج الفاعل نطاق ماهو عضوى . ومن ثم يجد البشر أنفسهم تحت وطأة تأثير كاسح لمجموعة من الأسباب المفسرة لذاتها ، والتى يصبح دورها النسبى فى تشكيل الطبيعة البشرية أكثر اعتبارا (٢٠٣) . ثم يؤكد دوركيم انه اذا كانت الحتمية البيلوجية تؤدى دورا فعالا فى تشكيل أفعال الحيوانات ، فاننا نجد على العكس من ذلك فيما يتعلق بالانسان ، وبخاصة المجتمعات الانسانية العليا والراقية ، حيث تستبدل الأسباب الاجتماعية بالأسباب العضوية ، فالكائن العضوى يصبح روحا (٢٠٤) ، تحكمه حتمية اجتماعية . ويحاول دوركيم تحديد الوزن الحقيقى للحتمية البيلوجية الى جانب الحتمية الاجتماعية باعتبار ان الانسان فى جانب منه كائن عضوى بيلوجى . فى اطار ذلك يؤكد دوركيم ان الأصول البيولوجية لا تحدد المهنة الخاصة بالفرد ، حيث لايحدد التكوين البيلوجى سلفا الدور الذى عليه ان يقوم به بالضرورة ، والدور الآخر الذى يعجز عنه . ويؤكد دوركيم ان الوراثة تمد الانسان ببعض الاستعدادات العامة والطبيعية والتى فى الامكان ان تتخذ أشكالا مختلفة (٢٠٥) . ثم يؤكد ان انجاز الانسان لسلوك معين أو آداءه لدور محدد يقود الى تخصيص بنائه البيلوجى . حيث ان الانسان لا يستطيع ان يقوى من قدراته التفكيرية أو التحليلية الى درجة عالية بدون اضعاف ارادته وحيوية عاطفته (٢٠٦) . وكأنه بذلك يؤكد ان الحتمية الاجتماعية ذاتها تتحول لكى تشكل ماهو بيلوجى وفطرى وفقا لمتطلباتها الأساسية ، ويعبر دوركيم بذلك عن موقف حتمى متطرف فى مواجهة الحتميات الأخرى .

ويشير تالكوت بارسونز الى أن قول دوركيم بالحتمية الاجتماعية كان قولا متدرجاً فى استراتيجيته ، اذ نجده قد بدأ ناقدا ومفندا لكل العناصر المفسرة للواقعة الاجتماعية أو السلوك الاجتماعى والتى يمكن ارجاعها للوارثة والبيئة غير الاجتماعية – بالمعنى التحليلى – تلك التى تعقد الموقف التفسيرى . ويؤكد بارسونز ان الظروف البيئية والعنصر الوراثى فى الطبيعة البشرية هى أشياء are choses بالمعنى الدوركيمى ، وهى خارجية بالنسبة للانسان ومن ثم فلها قهرها عليه ، ومن ثم فعلى الفرد ان يعطيها اعتبارا اذا اراد أن يكون عقلانيا فى سلوكه . حينئذ يكون العنصر الاجتماعى فى اطار ذلك مجرد عنصر أو مقولة راسبة residual cat-igory ، حيث مقولة الأشياء التى لايمكن ارجاعها الى اعتبارات الوراثة أو البيئة غير الاجتماعية . والى جانب هذا التحديد السلبى للعنصر الاجتماعى ، نجده قد أضاف محكا ايجابيا ، حيث هو العنصر الذى يمكن نسبته تحليليا لحقيقة ان الفرد يدخل فى علاقات اجتماعية مع البشر الآخرين ، وبالطبع تنتفى فاعلية هذا العنصر بالنسبة للفرد المنعزل تحليليا

. هذا وقد تمثلت القضية الرئيسية فى هذه المرحلة فى الانتقال الى التحديد الايجابى لعنصر تتوفر فيه محكات الخارجية والقهر ، وفى ذات الوقت لايرد الى اعتبارات الوراثة أو البيئة غير الاجتماعية . ولقد تيسر مفتاح ذلك فى اطار تحديد شئ ما يتعلق بحقيقة ترابط أو تجمع الأفراد فى نسق من العلاقات الاجتماعية ، بحيث يشكل هذا المفتاح أو الحل clue أساس محاولة دوركيم لتحديد الخط الاجتماعى ايجابيا وليس سلبيا من حيث كونه راسبا فقط (٢٠٧) .

ولتحديد العنصر الاجتماعى نجد ان دوركيم يؤكد أنه اذا كان السلوك الفردى تفسره النظريات الذرية بالنظر الى البيئة أو الوراثة ، فان الهوية الجديدة التى يمكن أن تتألف من جمع من الأفراد ، ومن ثم يكون لها خواصها الجديدة والمتميزة يمكن ان تشكل عنصرا مفسرا لا تتيحه النظريات الذرية ، وهو العنصر الاجتماعى ، باعتبار ان الحقائق الاجتماعية مفسرة لذاتها (٢٠٨) . ومن ثم يصبح هذا العنصر الجديد مفسرا لحقائق تتعلق بالسلوك وتعجز عن تفسيرها العناصر المنطلقة من النظريات الذرية . .

ودون اعتبار الى المناقشات الاصطلاحية فاننا نجد ان دوركيم يطلق على هذا العنصر الضمير الجمعى . ويؤكد دوركيم على فاعلية العنصر الاجتماعى فى تحتيم السلوك البشرى مادام الآخر يتحدد أو يتحتم بواسطة الضمير الجمعى The Conscience collective وليس الضمير الفردى The conscience individual (٢٠٩) . حيث يعرف الضمير الجمعى على أنه يتكون أساسا من كيان من العواطف والمعتقدات المشتركة بين أعضاء المجتمع . وفى استخدامه على المستوى الامبيريقى فان الطابع الأخلاقى لهذه المعتقدات والعواطف يكون واضحا بقوة .. ويمكن ترجمة المصطلح الفرنسى conscience الى الضمير Conscience بالانجليزية وليس الوعى Consciousness . ويؤكد دوركيم أن الضمير الجمعى يتكون أساسا من التصورات الجمعية . فى اطار ذلك نجد ان السلوك يتحتم بواسطة عملية عقلانية – من خلال حقائق العالم الخارجى – مماثلة للوراثة والبيئة ، التى اذا حللت من وجهة النظر الذاتية تبدو كما لو أنها محتمة بتصورات الانسان المتعلقة بالعالم الخارجى (٢١٠) . ومن ثم ينظر الى الانسان على أنه يتحدد أو يتحتم بواسطة العامل الاجتماعى من خلال معرفة البشر العقلانية والصادقة علميا فيما يتعلق بواقعهم الاجتماعى أو الحقيقة الاجتماعية Social reality (٢١١) .

أما فيما يتعلق بتشكيل الضمير الجمعى كعامل مفسر للسلوك الاجتماعى ، فنجد أن دوركيم يذهب الى القول بانه يتشكل من مجموعة الحقائق والظواهر والتجليات الجمعية

والاجتماعية ، وهى أساسا نتاج لاجتماع البشر وارهاصاتهم الفردية ، حيث تصبح هذه الحقائق أو الظواهر مجموعة من لمدركات الجانبية والفردية والمتباينة . حيث كل ادراك فيه بعض جوانب الصحة والخطأ ، إلا أنها فى قلب التجمع تتجمع وتتراكم وتصحح بعضها بعضا ، ويخرج النتاج واقعا أو حقيقة أسمى من مكوناتها ، قد تحمل اسهام كل منها لكنها ليست أيا منها (٢١٢) ، واختلاف هذا الناتج عن مكوناته يماثل اختلاف الماء مثلا عن مكوناته الأساسية التى هى الايدروجين والأكسجين فى كل الصفات (٢١٣) . ذلك لأن هناك عنصرا مضافا وهو الامتزاج أو التفاعل بين هذه العناصر الفردية .

ويذهب نيقولا تيماشيف الى ان تشكل الضمير الجمعى قد مر بمرحلتين عند إميل دوركيم . الأولى وبخاصة فى كتابه تقسيم العمل الاجتماعى حيث كان يتكون من التصورات والعواصف المشتركة بين الأفراد الذين يكونون غالبية المجتمع . ومن ثم فهو ناتج عن التماثل بينهم . بينما فى كتابه قواعد المنهج الاجتماعى – حيث المرحلة الثانية – يؤكد ان الضمير الجمعى بظواهره العديدة يمارس ضغطا على الأفراد بحيث يكون من نتيجة هذا الضغط الذى يمارسه الضمير الجمعى على كل منهما توليد نوع من التماثل العقلى والعاطفى بين الأفراد (٢١٤) . حيث تتوافر له فى المرحلة الثانية خاصيتان ، الأولى انه سابق عليهم وخارج عنهم ، بمعنى انه موجود قبلهم وله خصائصه الكلية الخارجية وليست المستنبطة من الذوات الفردية ، ومن ثم فهو يعتبر قوة خارجة عن الفرد تمده بكافة الأساليب والوسائل التى تمكنه من قيادة التفاعل الاجتماعى وممارسته ، ومن ثم فلابد ان تتوفر لهذا الضمير خواص القهر والالزام (٢١٥) . وهى الخاصية الثانية .

ويكشف تحليل الضمير الجمعى عن تضمنه لعناصر عديدة مكونة . ويعتبر العنصر المعيارى أهم مكونات الضمير الجمعى وهو الذى يتمثل فى القيم المجتمعية المشتركة تلك التى تشكل العنصر المحورى (٢١٦) فى البناء أو الموقف الاجتماعى . هذه القيم أو المثل على مايذهب تمياشيف ليست إلا انعكاسا لتفاعلات تجرى فى الواقع بحيث تنفصل عن المستوى السيكولوجى وتنتقل لتصبح متموضعة على المستوى السوسيولوجى . حيث نجد ان كافة أنساق المجتمع الأساسية كالدين والأخلاق والاقتصاد ليست فى جوهرها إلا أنساق قيم ومثاليات (٢١٧) .

وتعتبر الظواهر الاجتماعية هى المكون الآخر للضمير الجمعى ، حيث يرجع دوركيم ظواهر الدين واللغة والحرية الى أساسها الاجتماعى وكذا الفردية والانتحار والجريمة (٢١٨) .

ويؤكد دوركيم أنه لكى يحكم الضمير الجمعى سلوك الانسان فانه يتولى صياغة الأخير وتشكيله منذ البداية . فمنالطبيعى كل سياق اجتماعى ان يحاول تشكيل الفرد على صورته وفى هذا الاطار فان الآباء والمعلمين ليسوا سوى وسائل أو ممثلين (٢١٩) . ثم يؤكد ان جهد التربوية يتجه لغرس أساليب الرؤية والشعور والسلوك لدى الطفل الذى لايمكنه الوصول اليها بشكل تلقائى ، فجوهر عملية التربية اذن هى تطبيع أو تنشئة الكائن البشرى (٢٢٠) . ومن ثم فاذا كان الضمير الجمعى سابقا فى وجوده على الضمير الفردى ويحتوى على عناصر أخرى كثيرة ، فانه من المنطقى ان نتفق مع دوركيم فى ان السبب الحتمى لأى حقيقة اجتماعية ينبغى البحث عنها فى الحقائق الاجتماعية السابقة عليها وليس بين حالات الشعور الفردى (٢٢١) .

ذلك يعنى خضوع الأفراد للحتمية الاجتماعية .. فالقوانين الاجتماعية تحكم البشر وفقا لضرورة حتيمة مطلقة ، وكل ما فى استطاعة البشر فعله هو ان يخضعوا لها ، وان أكبر ما يأمله أفضل البشر هو أن يكتشفوا مسار واتجاه هذه القوانين وذلك من أجل التكيف معها بأقل ألم ممكن (٢٢٢) . وهنا نجد أن دوركيم يعيد نفس التأكيد الهيجلى على حتمية العقل أو الوعى الشامل حينما أكد ان العظماء يكتسبون عظمتهم هذه عن طريق الاتساق أو الخضوع للفكرة الشاملة ، والعقل الكونى على نحو ما أشرنا سابقا .

ويحاول دوركيم ان يمنح الحتمية الاجتماعية ذات الصرامة التى للحتمية الطبيعية ، فيؤكد ان المجتمع يتملك الفرد ، حيث لايستطيع الأخير بدون الأول أن يحقق طبيعته ، وان قدرته على التحرر من القيود المفروضة عليه نتيجة لاشتراكه فى العالم الاجتماعى ليست أكثر من قدرته على الهروب من العالم الطبيعى (٢٢٣) . وتتأكد قمة التحتيم الاجتماعى للسلوك الفردى حينما يذهب دوركيم الى القول بأن للضمير الجمعى حاجات لابد ان تشبعها الوحدات الفردية المكونة . يؤكد ذلك مايذهب اليه ألبرت بيرس بقوله بأن الحاجات الفردية التى قد نلاحظها فى السلوك الظاهرى للأفراد ان هى فى أساسها إلا حاجات اجتماعية (٢٢٤) . انها حاجات وغايات طرحها الضمير الجمعى وعلى الوحدات المكونة اشباعها أو انجازها ، حتى تتحقق قدرة الضمير الجمعى وخضوع الأفراد لمتطلباته .

# الفصل التاسع

# نظرية إميل دوركيم
# وتصورها لواقع المجتمع والانسان

## المحتويات

## مقدمة

فى سعيه لفهم المجتمع والتفاعلات الحادثة فيه طور إميل دوركيم مدخلاً يعرف بالنزعة السوسيولوجية فى الفهم والتفسير ، حيث ينظر الى المجتمع باعتباره حقيقة كلية قادرة على تفسير ماعداها من الحقائق الجزئية ، وهى الرؤية التى جسدتها عبارة إيمل دوركيم بأن الحقائق الاجتماعية مفسرة لذاتها . بحيث شكل هذا المدخل أساساً لتيار سوسيولوجى شامل رأى فى الكل المقولة التفسيرية الفعالة ، والقادرة أيضا على تمييز المدخل السوسيولوجى وإكسابه هويته .

ويمكن القول بأن إيمل دوركيم قد إنطلق من القضية المتجددة دائماً ، وهى مشكلة النظام الاجتماعى ، وهى المشكلة التى تتخذ طابعاً خاصاً فى كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى . حيث تتخلق مشكلة تؤثر على مختلف جوانب البناء الاجتماعى اذا لم تواجه فإنها قد تتحول الى أزمة . وبالنسبة لإميل دوركيم كان المجتمع الصناعى هو الذى واجه أزمة ، والذى أشار اليه دوركيم فى كتاباته - وفى الوضع الأمثل - بمجتمع التضامن العضوى . واذا كانت أزمة المجتمع الصناعى هى التى أرقت إميل دوركيم ، فإن أزمة مجتمع التضامن الآلى - المجتمع الأولى - قد شغلته أيضا . في هذا الاطار قدم إميل دوركيم تحليلاً عميقا ورائعاً لمشكلة النظام الاجتماعى فى نماذج بنائية متباينة .

وارتباطا بذلك قدم إميل دوركيم نظريته فى المجتمع الذى يمتلك استقلالية خاصة عن الأفراد المكونين له ، والذى تحكمه قوانين خارجة عن ارادة الأفراد . فهى قوانين تلقائية تحكم بناء المجتمع فى حالات استقراره وتغيره .

بيد أن الحقيقة المؤكدة والتى تشكل جوهر النظرية الدوركيمية تتمثل فى النظر الى المجتمع على أنه مصدراً لكل شئ ، ففى اطاره يتحول الفرد البيلوجى الى شخصية انسانية من خلال التنشئة الاجتماعية . ثم هو مصدر العقلانية والحتمية وحتى الانحراف . وهى المقولات التى سوف نعرض لها فى الصفحات التالية :

### أولا : أشكالية النظام الاجتماعى ، أبعادها ومظاهرها .

تعتبر قضية النظام الاجتماعى من القضايا الجوهرية التى فرضت نفسها على التفكير الدوركيمى . اذ يكشف تحليل الوثائق الأساسية لدوركيم عن وجود وجالين أساسيين واجه فيهما قضية النظام الاجتماعى . أولاهما طبيعة النظام فى مجتمع التضامن الآلى . وقد اعتمد فى

تشخيصه لهذه المسألة على المادة الاثنوجرافية التى توافرت له . أما المجال الثانى فهو مجتمع التضامن العضوى ، حيث شكلت مسألة النظام اطارا للحوار بينه وبين مختلف الاتجاهات النظرية الأخرى .

وفى محاولة توضيح وجهة نظر دوركيم فيما يتعلق بهذه القضية نجد أن النظام الاجتماعى له معنيان عند دوركيم بينهما اختلاف واضح وجذرى . أولهما نظام الطبيعة order of nature وهو يتكون من مجموعة الظواهر التى يخضع السلوك فى اطارها لنوع من الاطراد ، ويمكن تجريدها لتتخذ شكل المبادئ أو القوانين ، وتعتبر ظواهر مثل النضال من أجل البقاء أو حرب الكل ضد الكل ، ضمن ظواهر النظام بهذا المعنى . أما المعنى الثانى الذى يراه دوركيم للنظام الاجتماعى ، فيتحدد بان النظام لديه لايتضمن اطرادات الأهداف فقط . ولكنه يحتوى أيضا على ضبط السلوك الانسانى بالنظر الى بعض معايير السلوك ثم مدى اتصال السلوك بالمثل التى تضفى عليه معناه (٢٢٥) .

وفى اطار النظرية الاجتماعية فان القول بالنظام الاجتماعى يطرح مباشرة الفرد كمكون مقابل ، والى حد ما يختلف تصور الفرد بالنسبة لدوركيم عنه بالنسبة للمعاصرين له . اذ نجد ان معظم الاتجاهات الفكرية تتناول الفرد من حيث كونه الفرد الواقع الامبيريقى وهو مايذهب اليه أصحاب الاتجاه النفعى ، أما دوركيم فنجده يتناول الفرد على المستوى التحليلى .. فالفرد بالنسبة له ليس الفرد الواقعى ، وانما هو نوع من التجريد النظرى (٢٢٦) . هذا التجريد يقترب الى حد كبير من المفهوم الحالى للشخصية ، وهو بذلك يتجاوز الفرد فى مستواه البيلوجى ، باعتبار ان سلوكه فى هذا المستوى محكوم بغرائزه البيلوجية ، أما على مستوى الشخصية فاننا نجد ان الفرد تكوين اجتماعى يشارك المجتمع فى خلقه عن طريق اضافة البعد الخارجى – الاجتماعى – الى البعد الذاتى . ويعتبر مفهوم الفرد بالمعنى الاجتماعى – الشخصية ، ذو أهمية جوهرية بالنسبة للنظرية الدوركيمية .

وتعتبر قضية نشأة النظام الاجتماعى أول القضايا التى واجهها دوركيم فى هذا الاطار . ففيما يتعلق بعلاقة الفرد بحالة الاجتماع نجد ان دوركيم يؤكد ان الانسان فيما قبل حالة الاجتماع كان لايعرف شيئا عن الأخلاق amoral ، وهى حالة تحدد طبيعته الأساسية فى هذا الصدد (٢٢٧) . وذلك ينفى امكانية ابداع أخلاق الاجتماع مادام يفتقدها أساسا . أما القول بأن الضمير الأخلاقى للفرد هو الذى مكنه من خلق المجتمع فهو قول مردود عليه لأن الضمير الفردى لايقوى بمفرده على وضع أخلاق أو تشريع قيم أو ابداع معايير . فمهما كانت

درجة خصوبة الضمير الفردى وغناه فان نظرة واحدة نلقيها على المثل العليا الجمعية لهى كفيلة بتوضيح الثراء الأخلاقى الذى يمتلكه المجتمع ، والذى يعجز الفرد عن الالمام بشتى جوانبه بغض النظر عن خلقه (٢٢٨) .

ومن الواضح ان طبيعة مشكلة النظام كما طرحها توماس هوبز شكلت نقطة بدء اهتمام دوركيم بهذه القضية . اذ نجده منذ البداية ينتقد التفسيرات النفعية لنسق علاقات التعاقد ، وهى التصورات التى ترجع فى جانب منها الى الاسهامات الهوبزية . بل ان ذلك يعتبر أحد مرتكزات اهتمامه بقضية تقسيم العمل الاجتماعى ، الذى اعتبر من الموضوعات التى اهتم بها الاقتصاد الكلاسيكى فى مجتمع تسوده الفردية . فى اطار ذلك يؤكد دوركيم انه كلما ازداد التخصص وتقسيم العمل فى النظام الاجتماعى ازدادت سعادة الانسان (٢٢٩) . وهى مسألة يتفق فيها مع أصحاب المذهب النفعى .

ويتميز اهتمام دوركيم بمسألة النظام ليس من خلال الفعل التكوينى كما فعل هوبز ، ولكننا نستطيع ان نؤكد ان اهتمامه بقضية النظام كان من خلال اهتمامه بالسلوك التنظيمى ، أى أنه اذا كانت المرحلة السابقة قد تعرضت لمسألة وجود النظام ، فالقضية الملحة الآن هى : كيف يتأسس تفاعل البشر فى اطار نظام اجتماعى ملائم ، واذا كان هوبز فى محاولته لتصوير حالة عدم الاستقرار الاجتماعى قد افترض تحليلا وجود مجموعة من الأفراد كل منهم يمتلك القدرة على السلوك العقلانى ، يعرفون مايحتاجون ومن ثم يؤسسون النظام لتأمين اشباع حاجاتهم ، فاننا نجد أن دوركيم يذهب الى القول بان هذا فرض غير صحيح . لأن الانسان فى حالة الطبيعة لايمكن أن يكون مائنا عقلانيا ، كما تذهب الفرضيات النفعية . ومن هنا وجدنا ان دوركيم فى تناوله لقضية النظام لايهتم ببناء القوة فى النسق ، وانما تركز اهتمامه على تأسيس النظام بين عناصر النسق ، والكشف عن عناصر النظام وتحليلها داخل بناء الشخصية الفردية ذاتها (٢٣٠) . فى اطار ذلك نجده يؤسس فصلا منهجيا واضحا بين التمييز التحليلى لما هو ( فردى ) وماهو ( اجتماعى ) ، وبين التمييز الواقعى بين ( الفرد ) و ( المجتمع ) . ويؤكد انه مادام المجتمع لايمكن أن يوجد واقعيا بدون الأفراد المكونين له ، فان الأفراد البشر الواقعيين الذدين نعرفهم لايمكن وجودهم بالنظر الى العناصر الفردية فقط وانما لابد ان نأخذ فى الاعتبار المكون الاجتماعى لبناء شخصياتهم (٢٣١) . ويعنى ذلك اننا فى مواجهة نتيجتين هامتين . الأولى ، ان دوركيم لايقصر حالة الفوضى باعتبارها الحالة السابقة على نشأة النظام الاجتماعى والتى دخل فيها الأفراد فى حرب الكل ضد الكل وفقا للافتراض الهوبزى ، وانما

نجده يوسع هذه الحالة لكى تعنى امكان وجودها فى شكل انهيار بناء المجتمع الحديث حينما تسوده حالة الأنومى ، ومن ثم فهو يطرح فى اطار هذا الوضع مشكلة النظام الاجتماعى ثانية . أما النتيجة الثانية فتتمثل فى تأكيده أسبقية وجود النسق الاجتماعى على الفرد ، أولا لأنه لكى يصبح انسان أو شخصا فانه ينبغى تأسيس البعد المعيارى فى بناء شخصيته وهو مايفترض وجود أخلاق مجتمعية أساسا ، هذا بالاضافة الى أننا حتى اذا وافقنا على التصوير النفعى - نشأة المجتمع على أساس التعاقد ومن ثم تأسس كل علاقات النسق النفعى على أساس التعاقد - فان ذلك سوف يتطلب بناء معياريا يدعم هذه الالتزامات ، وهو مايعنى رفض المقولة النفعية حول أسبقية الفرد على الجتمع (٢٣٢) .

بالنظر الى ذلك نجد ان دوركيم يطرح تصور النشأة التلقائية للنظام الاجتماعى ، وهى النشأة التى لاتمتلك بداية فردية محددة على مايذهب هوبز ، وانما امتلكت هذه النشأة - على مايذهب دوركيم - طبيعة اجتماعية أساسا . فى اطار ذلك نجد دوركيم يوضح انه اذا كان المجتمع يتكون من مجموعة من الأفراد كعناصر أساسية له ، فان ترابطهم يؤدى الى بروز ظواهر جديدة . ومن الواضح ان خصائص هذه الظواهر الجديدة لايكمن أساسها فى العناصر الأصلية وانما فى الكلية totality التى تشكلت باتحادهم . هذه الكلية عادة ماتكون مفسرة لذاتها تختلف ظواهرها عما هو كائن بالعقول الفردية . ومن ثم فهذه الظواهر ترجع أساسا الى المجتع ، وليس الى أعضائه المكونين له (٢٣٣) . وفى موضع آخر يؤكد أن الفرد والمجتمع كائنات من طبيعة مختلفة إلا أنها ليست متناقضة . لأن الفرد لايستطيع أن يمارس طبيعته إلا اذا كان متضمنا فى مجتمع (٢٣٤) . ثم يذهب الى ان المجتمع لايكتفى بأن تكون طبيعته خارجة عن زواتنا الفردية . وانما يعبر عن نفسه من خلالنا ، فهو خارجنا إلا أنه يحتوينا envelop us ومن ثم فهو يعبر عن طبيعتنا . اننا مختلطون به . ومثلما يحصل الكائن العضوى الفيزيقى على غذائه من خارجه ، فانه بالنسبة للكائن العضوى العاقل نجده يعتمد فى غذائه على الأفكار والعواطف والممارسات التى تأتى الينا من المجتمع (٢٣٥) . ومن ثم ينزع دوركيم عن الفرد شرف تأسيس النظام الاجتماعى ، غير أنه لايتوقف عند هذا الحد فيؤكد ان أكثر انماط السلوك غرابة على المستوى الفرد يمكن تفسيرها بالنظرالى المجتمع الذى دفع اليها من خلال افراده . فالانتحار وهو الموت الارادى الذى قد يأتيه الفرد ترجع أسبابه الى المجتع . فهناك على مايذهب دوركيم قوة جمعية فى كل مجتمع ذات قدر محدد من الطاقة تدفع أفراد المجتمع

– فى بعض الظروف – الى نوع من تحطيم الذات . ومن ثم فأفعال التضحية التى قد تعبر عن المزاج الشخصى للأفراد من الناحية الظاهرية هى فى الحقيقة ذات اتصال وحقيقة خارجية توجد خارج الذوات الفردية هى الحالة الاجتماعية (٢٣٦) .

واذا كان دوركيم قد أوضح نشأة المجتمع بالنظر الى خاصيته التلقائية التى أشرنا اليها ، فهو يذهب الى تأكيد استمرارية النظام الاجتماعى بالنظر الى خاصيتى الخارجية exteriority والالزام أو القهر Constraint . وفيما يتعلق بالخارجية نجد أنها تعنى من ناحية ان كل فرد يولد فى مجتمع له استمراره ، وله بناؤه وتنظيمه المحدد ، ومن ثم له تأثيره على شخصية الفرد . فوجوده السابق عليه يعنى وجوده خارجا عنه (٢٣٧) . ومن ناحية أخرى فهى تعنى ان كل فرد فى المجتمع ليس ألا عنصرا واحدا فى الشبكة الكلية للعلاقات التى تشكل المجتمع . هذه العلاقات ليس من خلق أى من أفراد المجتمع ، غير أنها تتشكل من التفاعلات العديدة التى تقع بين الأفراد . ومن ثم فهى موجودة ، ولها فاعليتها المستقلة عن استخدامنا لها (٢٣٨) ولايعنى ذلك ان دوركيم يذهب الى القول بأن المجتمع من الممكن ان يوجد خارج كل أفراده ، وانما يحتوى الأفراد على البعد الاجتماعى من داخلهم أيضا .

وفيما يتعلق بخاصية القهر ودورها فى استمرارية النظام الاجتماعى . يذهب دوركيم الى أن هناك أنماطا للسلوك ، لابد ان يلتزم الأفراد بانجازها من قبل المجتمع . هذه الأنماط فى السلوك يخلقها الأفراد ، ولكنها تشكل جزءا من نسق الواجبات الأخلاقية الذى يوجد فى اطاره مع البشر الآخرين . وقد يخرج الفرد على هذه الالتزامات ، إلا أنه يواجه حتما بمقاومتها . فبينما أتمكن من تجاوزها فانها تشعرنى بقوتها الملزمة عن طريق المقاومة التى تبرزها (٢٣٩) . ويتضح هذا بالطبع فى حالة الالتزامات الشرعية التى تدعم بشكل كامل بنسق من الوسائل القهرية : كالبوليس والمحاكم ، هذا بالاضافة الى أن هناك كثيرا من الجزاءات الأخرى التى تعيد تأكيد الخضوع للالتزامات غير القانونية (٢٤٠) .

ويؤكد دوركيم صراحة أن التكيف والالتزامات نادرا مايستند على الخوف من العقاب الذى يطبق فى حالة خرقها . ففى معظم الظروف يوافق الأفراد على مشروعية الالتزام ، ومن ثم لا يشعرون بطبيعتها الملزمة عن وعى . فحينما أتوافق معها من كل قلبى ، فان الالتزام أو القهر يكون شعورى به طفيفا ، وقد لا أشعر به أبدا مادام لاضرورة له ، غير انه بلا شك يشكل خاصية جوهرية لهذه الحقائق الاجتماعية . ومن ثم نجد انها تؤكد ذاتها حينما أحاول مقاومتها (٢٤١) . والواقع ان تأكيد دوركيم على أهمية الالتزام موجهة صراحة ضد الاتجاه

النفعى أساسا .. ويشير دوركيم الى القهر أو الاكراه الفيزيقى .. فيؤكد ان الاكراه الفيزيقى هام بالنسبة للحياة الاجتماعية ، وهو لايرى فيه أكثر من التعبير المادى الواضح لحقيقة داخلية عميقة الجذور ذات طبيعة مثالية أساسا وهى السلطة الأخلاقية Moral Authority (٢٤٢) .

وفى أعقاب توضيح دوركيم لاسلوب تخلق النظام الاجتماعى والميكانيزات التى تحافظ على استمراره بفاعليته ، نجده يطرح شكلين للنظام الاجتمعى يواجه كل منهما مشكلة نظامية ، لها أسبابها ونتائجها ، واستراتيجية لمواجهتها . أما شكلا النظام فهما مجتمع التضامن الآلى ومجتمع التضامن العضوى . غير إن القضية التى تستحق الاهتمام فى هذا الصدد ، هى أن مجتمع التضامن الآلى وهو الشكل البنائى الأول واجه مشكلته النظامية فى مرحلة النهاية حيث انهار كنتيجة لفاعليتها ، بينما نجد ان مجتمع التضامن العضوى واجة مشكلة النظامية فى البداية ، ومن ثم فيمكن القول بان المشروع النظرى لدوركيم وخاصة مؤلفه تقسيم العمل الاجتماعى ليس إلا استراتيجية عقلانية لمواجهة المشكلة النظامية فى اطار هذا النموذج البنائى . واذا اتفقنا على النشأة التلقائية لنظام التضامن الآلى ، نجد ان هذا النظام عاش حالة من الاستقرار والتوازن التى تأسست بالنظر الى عدة عناصر أساسية . ويتمثل أول هذه العناصر فى ان المجتمع يخلق الفاعل على غراره . ونظرا لأن المجتمع هو التجمع الأكثر تأثيرا من حيث قوته الأخلاقية والفيزيقية والطبيعية ، فاننا نجده يمتلك من الثراء والعمق والتنوع مايؤهله لأن يكون قادرا على رفع أفراده ( عناصره الأساسية ) الى مستوى وجود أكثر سموا وملاءمة (٢٤٣) . فى مقابل ذلك نجد حالة من الاعتماد الكامل من الانسان على المجتمع الذى قد يأخذ شكلين أساسيين يمكن فصلها تحليليا . أما الشكل الأول فهو الاعتماد العاطفى Emotional dependence على الآخرين أو القيم والشكل الآخر يتمثل فى الاعتماد الاقتصادى لاشباع حاجاته الأساسية (٢٤٤) .

ويشكل الاتفاق القيمى والعاطفى العنصر الثانى الذى يؤكد حالة استقرار النظام الاجتماعى الذى يسود نسق التضامن الآلى . فالنظام المعيارى للنسق هو الذى يضبط سلوك الانسان من الخارج كما تؤكد وجهة النظر الهوبزية ، ومن ثم يؤدى دوره فى هذه الحدود كأحد شروط الموقف الاجتماعى التى ينجز فى اطاره الانسان سلوكه ، أما بالنسبة لدوركيم فنجده ينتقل الى التأكيد أساسا على المعنى الذاتى للالتزام الأخلاقى ، حيث يستمر عنصر الالتزام الأخلاقى ويترسخ نظرا لأن الفرد لايكون حرا لأن يفعل مايريد لإنه أصبح على هذا النحو مرتبطا بالبناء المعيارى . فاتجاه الانسان نحو البناء المعيارى قد يكون حياديا من الناحية

الأخلاقية واذا هو قد مارس سلوكه فى الموقف على أساس نفعى من خلال حساب العائد من السلوك حيث يعامل العنصر المعيارى فى هذا الاطار كأحد عناصر الموقف . أما فى الحالة الدوركيمية ، فاننا نجد انه من خلال عملية التنشئة يخلق المجتمع الانسان كشخصية مدربة أخلاقيا . وذلك يعنى ان العناصر المعيارية أصبحت مستوعبة داخليا وذاتيا ، ومن ثم يصبح بمعنى ما متوحدا identified مع هذه العناصر المعيارية (٢٤٥) .

وتعتبر قواعد الردع والعقاب العنصر الثالث لدعم الاستقرار والتوازن فى اطار مجتمع التضامن الآلى . حيث يهدف المجتمع من أعمالها الى دعم بنائه المعيارى عن طريق اعادة ترسيخ البناء فى روح أفراده وبناء شخصيتهم وذلك باستخدام وسائل عقابية عديدة (٢٤٦) . ونظرا لحالة التجانس التى تسود البناء الآلى وكليته البارزة فان العقاب فى اطاره عادة مايكون صارما ، بحيث يصبح الخروج عليه ليس انتهاكا جزئيا اتاه الانسان المنحرف بقدر ماهو اعتداء على كلية المجتمع وقعت عليه من أحد أجزائه . ومن ثم فقد كانت وظيفة العقاب هى دعم الروح الجماعية . ويؤكد دوركيم اننا نحن الذين ننتقم لارضاء بعض العواطف التى انتهكت بداخلنا بواسطة ذلك الذى انتهك بيننا هذه العواطف (٢٤٧) . ويظل النظام فى بناء التضامن الآلى لا يواجه مشكلة حيث الفرد يصاغ معياريا على مثاله ، وهو يعتمد عليه اقتصاديا وعاطفيا ، ومن ثم فاذا هو قد انحرف لاسباب قد تكون داخلية أو خارجية ، فاننا نجد ان العقاب يعد فى هذه الحالة وسيلة نسقية مطروحة لاعادته الى جادة الصواب بما يحقق سواءه وسواء النظام .

ويتمثل صدق ومنطقية المشروع الدوركيمى ، فى تأكيده على ان انهيار هذا النظام أو تأسيس مشكلة نظامية فى اطاره لم يتم بفعل عناصر اجتماعية أو معيارية من داخله ، وانما وقعت مشكلته النظامية بفعل تزايد السكان الى الدرجة التى تخلقت فى اطارها حالة من عدم التلاؤم بين عدد السكان ، والموارد الاقتصادية فى التضامن الآلى ، ويعتبر بارسونز عنصر السكان عنصرا بيلوجيا وليس اجتماعيا ، كان له تأثيره فى تخليق ملامح المشكلة النظامية فى مجتمع التضامن الآلى (٢٤٧) . وبذلك نجد ان هذا الشكل البنائى واجه مشكلة فى النهاية استوجب حلها عن طريق تحوله الى شكل بناء التضامن العضوى . وفى اطار مجتمع التضامن العضوى ، وهو المجتمع الذى عاصر دوركيم تفاعلاته المتمثلة فى نظيره الواقعى المتجسد فى المجتمع الصناعى فيما بعد الثورة الصناعية والفرنسية مباشرة . حيث رأى دوركيم ان المجتمع يواجه الآن أزمة مرحلية خطيرة استفحلت حتى وصلت الى الدرجة التى اتخذت فيها شكل

مشكلة للنظام الاجتماعى ، وذلك لغياب العنصر المعيارى ، ومن ثم انعدام التآزر بين مجموعة الأفعال أو ضبطها ، وهو الدور الذى كانت تؤديه العناصر المعيارية ، مما هدد بحالة من الفوضى الشاملة وفقا للتسمية الهوبزية ، أو هى حالة من الأنومى كما يحددها دوركيم على هذا النحو . بيد أن السؤال الذى يطرح نفسه يتعلق بأسباب حالة الفوضى التى يتعرض لها مجتمع التضامن العضوى أو المجتمع الصناعى .

وتعتبر حالة التحول البنائى التى تعرض لها المجتمع الأوربى من الأسباب الرئيسية فى هذا الصدد . فمما لاشك فيه ان الصراع الطبقى أدى دورا تاريخيا هاما فى الانتقال بالمجتمع من المرحلة الأقطاعية الى المرحلة البرجوازية ، ثم واصلت البرجوازية صراعها حتى انتهت بقيام الثورة الفرنسية . بيد ان هذا الدور التاريخى للصراع الطبقى أصبح لامعنى له فى المجتمع الصناعى الجديد . حيث يمكن للظروف الجديدة ان تقود الى خلق نظام عضوى يؤكد الاستقرار والسلام الاجتماعى (٢٤٨) . ومن هنا فان على الصراع الطبقى ان يتوقف لأنه بدأ الآن فى تأسيس حالة من سوء التنظيم الاجتماعى .

ويعتبر النظام الجديد تقسيم العمل الاجتماعى فى مستواه الفردى أو الاجتماعى من العوامل التى من الممكن ان تؤدى الى انهيار النظام الاجتماعى للمجتمع الصناعى . فهو يؤكد انه اذا كان عنصر السكان هو الذى فجر التضامن الآلى . فانه ينبغى مواجهته فى اطار المجتمع الصناعى فحالة التنافس قد تنشأ مادام هناك تشابه فى الوظائف . ذلك انه كلما كانت الوظائف أكثر اقترابا كل من الأخرى ، كانت أكثر تعرضا للصراع . فالقاضى لايمكن ان ينافس رجل الأعمال ، ولكن صانع الحرير وصانع المنسوجات يمكن ان يتنافسا . ويعنى ذلك ان المهن المتماثلة ، تكون احتمالية الصراع عالية بينها (٢٤٩) ، وذلك يعنى ان نظام العمل القائم فى بداية نشأة مجتمع التضامن العضوى يمكن ان يقود الى الصراع . كذلك بالنسبة للمشروعات الصناعية . فان هذه المشروعات عليها ان تتخصص فى وظائف متباينة ، أما اذا استمرت على وضع التنافس أو الصراع الحالى ، فانه من المحتمل هى الأخرى ان تسهم فى استمرار حالة الفوضى واستفحالها (٢٥٠) .

ومن العوامل التى يمكن ان تخلق مشكلة النظام الاجتماعى هى احتمالية الصراع الطبقى . فالصراع بين رأس المال والعمل يعتبر مثالا آخر على احتماليات الفوضى التى تتهدد النظام الصناعى . ففى العصور الوسطى كان العامل فى كل مكان يعيش الى جوار السيد ، بل انه كان يؤدى عمله فى ذات المؤسسة أو المحل ، كلاهما كانا جزءا من الشركة ويعيش فى

نفس الظروف ، ومن ثم فقد كانوا متساويين تقريبا . ونتيجة لذلك انتفت احتمالية الصراع . غير ان ذلك قد تغير مع بداية القرن الخامس عشر ، حيث لم تعد المهنة تنجز في اطار نفس التنظيم المشترك . وأصبح السادة وحدهم هم الذين يتحكمون ، وحدث فصل حاد بين السادة والعمال . وأصبح للآخرين عاداتهم وقواعدهم ومنظماتهم المستقلة . ويتعمق هذا الانفصال تعددت المواجهات . وفي القرن السابع عشر تخلقت الصناعات الكبيرة واصبح العامل منفصلا تماما عن صاحب العمل ، وصاحب ذلك زيادة التخصص ، وارتبط بذلك ان أصبحت الانتفاضات revolts أكثر انتشارا (٢٥١) . ويؤكد دوركيم ان جانبا كبيرا من هذه الصراعات يرجع الى حقيقة ان الطبقة العاملة ليست راضية بالظروف التي تعيش في ظلها ، ولكنها توافق عليها نظرا لأنها مفروضة عليها . ومادامو ليست لديهم وسائل لتغييرها ، فان العلاقات في الصناعات الكبيرة في المجتمع الصناعي تعيش الآن حالة مرضية (٢٥٢) .

ويرجع دوركيم أسباب المشكلة الاجتماعية على هذا النحو الى طبيعة الانسان في المجتمع الصناعي . اذ يؤكد ان من أسباب بؤس Maliase الأنسان المعاصر شراهته غير المحدودة . ومن ثم فالمطلوب ان نحدد الأشخاص داخل حدود معينة وان عدم القدرة على ذلك يعد مرضا . وان هناك فترات تاريخية كثيرة كالتي تعيشها كانت متخمة بالتشاؤم لأنها سقطت في أسار الطموحات غير المحدودة . وتعتبر فاوست لجوته أفضل الأمثلة التي تعبر عن حالة اللانهائية هذه . ومن ثم كان اصرار هذا الشاعر على أن تعيش فاوست في حالة كرب مستمرة (٢٥٣) . ثم يتجه دوركيم الى ابراز بعض أسباب الانهيار الكائنة في بناء النظام الاجتماعي ذلك النظام الذي لايرعى المطابقة بين تقسيم العمل السائد من ناحية وبين الملكات ، والامكانات الطبيعية للبشر من ناحية أخرى (٢٥٤) .

ويبرز دوركيم انهيار البناء الأخلاقي للمجتمع كعامل من عوامل المشكلة النظامية التي يعانيها بناء المجتمع الصناعي . فهو يؤكد ان أزمة المجتمع الصناعي ليست أزمة اقتصادية (٢٥٥) . وانما هي أزمة أخلاقية أساسا . هذه الأزمة الأخلاقية التي يعيشها المجتمع الصناعي ترجع من ناحية الى اعتقاد دوركيم اتفاقا مع دي بونال ودي ميستر وسان سيمون الى انهيار قوة المعتقدات الدينية مما أدى الى تخلق فجوة أخلاقية (٢٥٦) . ومن ناحية أخرى نجدها ترجع الى اهتزاز الأخلاق التقليدية وانهيارها وعدم احلال نَسق أخلاقي آخر مكانها . ومن ثم فلم تعد القواعد الأخلاقية لها قوتها الملزمة ، ويعني ذلك ان حضارتنا في حالة أزمة أخلاقية ، وتسودها حالة من الأنومي anomie التي لها آثارها على مستويين . المستوى الفردي

حيث يدخل الانسان الى الارتباط بالأخلاق من خلال مدخل اللذة أو المنفعة ، وذلك يعنى ان الفرد يغفل التزاماته نحو المجتمع ، ومن ثم يؤدى ذلك الى اضعاف التضامن مع المجتمع (٢٥٧) . ونتيجة للتطرف الفردى على أساس من المصلحة الخاصة فى مواجهة الأخلاق الاجتماعية العامة ، فان ذلك يؤدى الى عدم شعور الانسان بالأمان والأستقرار فى مواجهة سلوك الآخرين وفى حالة غياب الأخلاق الضابطة والملزمة . بحيث نجده يؤدى سلوكه دونما ادراك واضح لمدى اتساقه وفعل الآخرين أو بتناقضه معهم . وهو مايعنى سيادة حالة من اللاقاعدة أو اللامعيارية أو اللاقيمية (٢٥٨) . حيث يجد الفرد نفسه مفتقدا الصلة تماما بينه وبين توقعات الآخرين المشتقة من البناء المعيارى للمجتمع . أما على مستوى المجتمع فان حالة الأنومى تميل الى احداث حالة من الاستقطاب داخل بناء المجتمع . فمن ناحية تميل الدولة لأن تستوعب وظائف أكثر فأكثر . بحيث أصبحت هى التجمع الوحيد المنظم الذى يخضع له كل الأفراد ، فهى ذات كيان بعيد عن الفرد العادى . ومن ناحية أخرى انهارت أو ضعفت كل التجمعات التقليدية الأخرى ، تاركة الأفراد بدون أية روابط أو تنظيمات اجتماعية ، وأيضا بدون أن يشعروا بأنهم متضامنون مع شئ ما أسمى منهم . ثم يؤكد أنه نتيجة لذلك فاننا نترك الفرد نبها لحاجات بلا حدود ومن ثم يتجه الى اليأس . بالاضافة الى ذلك تصبح الدولة طاغية تقهر الفرد وتكبته ، أو انها قد تصبح خاضعة مباشرة لأراء الأفراد ورغباتهم وهو مايؤدى الى انتشار حالة من الفوضى وافتقاد النظام السياسى . مما يعنى وجود المجتمع فى حالة من الأزمة الأخلاقية التى قد تؤدى الى انهيار البناء الاجتماعى (٢٥٩) .

وفى أعقاب تشخيص دوركيم لمشكلة النظام الاجتماعى فى مجتمعى التضامن الآلى والعضوى ، خاصة الأخير ، نجده يضع بعض المحكات التى يحاول بها اعادة تأسيس النظام الاجتماعى . حيث يقترب لتحقيق ذلك من خلال محاور عديدة .

١ – أول هذه المحاور أنه يؤكد على ضرورة تأسيس بناء أخلاقى يتصل بالحياة الدينية للمجتمع (٢٦٠) هذا مع ضرورة توفير نوع من الالتزام الاجتماعى . هذا الالتزام يمكن ان يكون بالنسبة لشخصية الانسان من الخارج . حتى يتخلق الأساس الذى يتأزر فى اطاره سلوك الانسان وتوقعات الآخر بما يخلق حالة من الاستقرار والسواء فى التفاعل الاجتماعى . ثم هو التزام معيارى من الداخل بحيث يحكم اتساق الفرد من داخله نحو الخارج الذى به الآخر والمجتمع . ومن ثم يعمق البعد الاجتماعى فى بناء شخصيته ، مما ينأى به عن موقف الانسان النفعى الذي ينجز سلوكه وفقا لاعتبارات حسابية .

٢ - أما المحور الثانى الذى يرى من خلاله دوركيم حلا لمشكلة النظام الاجتماعى فيتمثل فى خلق مجموعة من الجماعات المهنية التى تحتل المسافة بين الفرد والدولة ، بحيث يقف العامل وصاحب العمل فى اطار جماعة مهنية وأخلاقية واحدة ، ومن ثم نعيد - بشكل عصرى - الفاعلية التى كانت للجماعات التقليدية . تلك التى كان الفرد لديه انتماء عميق لها . ويؤكد دوركيم ان الجماعة المهنية ينبغى أن تصبح أساسا للأخلاق المهنية حيث يمكن تنظيم النشاط المهنى بفاعلية أكثر ، لأنها تكون على صلة بطبيعة أدائه ، واحتياجاته ولها قدرة على ملاحظة تطوراته . ويرى دوركيم ان الجماعة المهنبة تكون ممثلة للعمال وأصحاب العمل ويمكن انتخابهم كجماعة ممثلة للمهنة بالنظر الى اسهامهم فى عملية الانتاج (٢٦١) . هذا وقد عالج دوركيم العلاقات المهنية فى علاقتها ببعضها البعض - وعلاقتها بالدولة ككل - كموضوعات اهتم بها دوركيم فى مؤلفه الأخلاق المهنية والمدنية (٢٦٢) .

٣ - أما البعد الثالث الذى يرى فيه دوركيم امكان حل لمشكلة النظام الاجتماعى فيتمثل فى قرار النظام عن طريق التوزيع الملائم للبشر فى الموقف الاجتماعى . حيث يطلب بالنسبة لكل من العمال وأصحاب الأعمال أن تكون الوظيفة أو العمل الذى يقوم به الانسان فى اطار التنظيم متلائما مع امكانياته وقدراته . أى تلاؤم الدور وامكانيات الانسان القائم بالدور .

## ثانيا : السياق الاجتماعى ، مكوناته وعلاقاته .

يختلف تكوين الموقف الاجتماعى عند إميل دوركيم عن نظيره عند كل من كارل ماركس وماكس فيبر . ولتوضيح ذلك نعرض أولا لمكونات السياق الاجتماعى وعناصره ، وثانيا لطبيعة الشروط الكائنة بالسياق الاجتماعى والمتحكمة فى سلوك الانسان . أما فيما يتعلق بمكونات السياق الاجتماعى فأننا نجد انه لا يتكون لدى إميل دوركيم من الفرد والآخر فقط كما هى الحال بالنسبة لتكوين السياق الاجتماعى بالنسبة لمنظرين آخرين . فبالنسبة لإميل دوركيم يتكون السياق الاجتماعى من المجتمع ، أو الضمير الجمعى الذى قد يكون هو الآخر أو يتضمن الآخر ، ثم الانسان الفرد ، ثم البناء المعيارى ، والسلوك التنظيمى والأدائى أى الذى يؤديه الانسان بهدف تحقيق غاية محددة .

ويتضح الوجود البارز للمجتمع من نفى دوركيم ان يكون الفرد هو الهدف الأساسى للجهد الأخلاقى ، حيث يبقى الفاعل الجمعى Collective subject أو المجتمع ذاته . فاذا

اعتبرنا الأخلاق نسقا من الالتزامات والواجبات ، فان المجتمع ينبغى أن يكون هو الفاعل الأخلاقى المتميز عن الأفراد .. ثم يذهب الى أننا فى هذا العالم الذى نعرفه وندركه ، يكون للتجمع فقط واقعية أخلاقية أكثر ثراء وتعقيدا مما يمكن أن تكون للفرد (٢٦٣) . ومن ثم فاذا وافقنا على فكرة ان المجتمع هو موضوع وهدف السلوك الأخلاقى بالاضافة الى كونه مصدره ، فاننا نستطيع أن ندرك بدرجة أفضل لماذا يمتلك السلوك الأخلاقى خصائص مشتركة تتصل بالالزام والرغبة ، بل أنه يصبح فى امكاننا أن نعرف بمعنى ما أننا نتجاوز طبيعتنا نتصرف أخلاقيا (٢٦٤) .

ولتوضيح ذلك يذهب دوركيم الى أن تحليل أى منا يكشف عن ضميرين ، احدهما يحتوى على الحالات أو الظواهر الخاصة بكل منها والتى تميز كل منا عن الآخر ، أما الآخر فيتكون من الحالات أو الظواهر التى تشير الى الآخر ، والمشتركة بين كل أفراد المجتمع . واذا كان الأول يشكل شخصيتنا الفردية ويكونها ، فان الثانى يتمثل فى الضمير الجمعى ، أو المجتمع الذى بدونه لايوجد هذا الضمير . وحينما يتكون سلوكنا من أى من عناصر الأخير ، فاننا لانتصرف ، أو نأتى فعلنا بالنظر الى اهتمامنا الشخصى ، ولكننا نسعى لتحقيق غايات جمعية . ورغم انفصال هذين الضميرين ، فانهما يتحدان لكونهما ينتميان الى نفس البناء التحتى (٢٦٥) . ويذهب دوركيم الى أن هذا الكل الاجتماعى عادة مايتكون من مجموع المعتقدات والعواطف المشتركة بغض النظر عن التعاون المباشر والمستمر بين المشاركين فى المجتمع لتحقيق هدف مشترك (٢٦٦) ، وهو مايعنى وجود الضمير الجمعى الذى له سلوكه وغاياته تلك التى تشكل قاسما مشتركا تسعى السلوكيات الفردية لتحقيقها اشباعا لحاجة هذا الكل . والى جانب الفاعل الجمعى يتضمن الموقف الاجتماعى الفرد الآخر الذى له طبيعته المتباينة عن الأنا فى كل من مجتمعى التضامن الآلى والعضوى . ففى اطار مجتمع التضامن الآلى نجد ان الآخر يتضامن تماما مع الأنا . حيث تتشابه عناصر المجتمع وأجزاؤه المكونة الى حد كبير . ويذهب دوركيم الى أن هذا التجانس الذى يسود مجتمع التضامن الالى لايتيح لأفراده التميز عن بعضهم البعض . ومن ثم تفتقد هذه المجتمعات وجود أى نوع من الترتيب أو التنظيم المحدد . ثم يشير الى المعشر كمجتمع واقعى يجسد هذا النمط من التضامن (٢٦٧) .

على خلاف ذلك نجد ان الآخر فى مجتمع التضامن العضوى له خواصه المختلفة تماما عن الأنا ، فهذه المجتمعات لا تتكون من الأجزاء المتجانسة أو المتماثلة ، ولكنه يشكل نسقا من الأعضاء المتباينين عن بعضهم البعض ، حيث يقوم كل منها بدور خاص مناط به . ويذهب

دوركيم الى القول بأن الأفراد فى مجتمع التضامن العضوى ليسوا متجاورين ومتجانسين ، ولكنهم متآزرون وخاضعون كل للآخر ، بالاضافة الى خضوعهما معا لعضو له فعله المؤثر على الأعضاء أجزاء المجتمع ، وأيضا على الكائن العضوى بكامله (٢٦٨) . يؤكد دوركيم ان الخلاف بين الأنا والآخر فى مجتمع التضامن العضوى ليس اختلافا ناتجا عن الرابطة الدموية وانما هو خلاف مهنى أساسا (٢٦٩) .

وبالنظر الى طبيعة الموقف هذه نجد ان دوركيم يرفض امكان تأسيس حالة الصراع بين الأنا والآخر سواء فى اطار مجتمع التضامن الآلى ، حيث يسود الصراع المؤسس على الأنانية المتوحشة على مايذهب هوبز ، أو الصراع بالمعنى الاجتماعى نتيجة لامتلاك فرد ما القوة والسيطرة فى النسق على مايذهب ماركس . وفى مواجهة ذلك نجده يقول ان وجود الأنا والآخر فى ذات المجتمع يفرض على الأنا تحديد حقوقه فى اطار التسليم بحقوق الآخرين ، بحيث يؤدى هذا التحديد المتبادل الى خلق روح التوافق والاتفاق (٢٧٠) . ويؤسس رفضه لامكانية قيام الصراع من خلال تأكيده أن البشر يحتاجون الى السلام فقط اذا هم كانوا متحدين بروابط الاجتماع sociability ، وفى هذه الحالة تفرض العواطف على كل منهم الميل الى الآخر من خلال كبح جماح الحاجات المعبرة عن النزعات الأنانية . ثم يؤكد انه من وجهة نظر أخرى فان المجتمع الذى يضمهما معا لايمكن ان يبنى على أساس تورطهما معا فى حالة دائمة من الصراع . وانما يفرض وجودهما معا فى ذات المجتمع الزاما بتأسيس مجموعة من التنازلات المتبادلة (٢٧١) .

ويمثل السلوك التنظيمى العنصر الثالث فى الموقف أو السياق الاجتماعى حيث يكون عليه ان يصوغ التآزر بين سلوك الأنا والآخر كسلوكيات جزئية ، ثم التآزر بينهما معا من ناحية وبين متطلبات المجتمع من ناحية أخرى بما يحقق الأهداف المجتمعية العامة . ولتوضيح ذلك يؤكد دوركيم انه لكى يوجد التضامن العضوى فليس يكفى وجود نسق من الأعضاء ذات الضرورة كل بالنسبة للآخر . ولكنه من الضرورى بالاضافة الى ذلك التحديد المسبق لاسلوب تواجدهما معا . وأدائهما لسلوكهما المتباين (٢٧٢) . ولايقتصر السلوك التنظيمى على الموقف فى اطار مجتمع التضامن العضوى ، وانما له فاعليته فى اطار التضامن الآلى أيضا . بحيث يكمن الاختلاف الوحيد فى الهدف الذى يتجه الى انجازه السلوك التنظيمى . أى ماذا تهدف اليه القاعدة المنظمة . وفى اطار ذلك يؤكد دوركيم اننا اذا اتفقنا على أن القانون وسيلة تنظيمية ، فاننا ينبغى أن نميز بين نموذجين للقانون . القانون القهرى ، الذى يستند الى

مجموعة من العواطف والمعتقدات المشتركة ويتجه مباشرة الى فرض العقاب على كل انحراف عن القواعد المشروعة . ويعتبر القانون التعويضى أو الارجاعى restitutive هو النموذج الثانى ، حيث يهدف بالأساس الى ارجاع الحالة الى ماكانت عليه فى حالة الانحراف أو وقوع فوضى فى الموقف الاجتماعى . فهو يعمل على اصلاح التحطيم الذى وقع (٢٧٣) . وهو يذهب الى أنه اذا كان الأول يؤدى دوره فى اطار التضامن الآلى فان للثانى دوره فى اطار التضامن العضوى . ثم يؤكد دوركيم انه أيا كان المصدر الذى ينجز الجهد التنظيمى ، فانه يستند فى هذا الانجاز الى مجموعة القواعد المنظمة للسلوك ، تلك التى تضبطه فى تحقيق هدفه لتحقيق غايات مباشرة ، مادامت هذه القواعد تمارس سلطة أخلاقية مشتقة من نسق القيم المشتركة التى نسميها عادة بالنظم الاجتماعية (٢٧٤) . ويذهب دوركيم الى القول بأن افتقاد التنظيم لايتيح الاتساق المعتاد بين الأفعال والوظائف (٢٧٥) . وانه اذا لم يؤد تقسيم العمل – الى تحقيق حالة من الضامن فى كل الحالات – فان ذلك يرجع بالتأكيد الى عدم تنظيم علاقات الأعضاء أو لأنها فى حالة من الفوضى أو الأنومى Anomy (٢٧٦) .

وتعتبر الشروط الموقفية هى البعد الثانى الذى له وجوده البارز فى الموقف الاجتماعى اتلذى ينجز الانسان سلوكه فى اطاره . ومن وجهة نظر دوركيم نجد أن الموقف أو السياق الاجتماعى يحتوى على مجموعة من الشروط التى تعنى فاعليتها حرمان السلوك من أية ارادية قد تكون للانسان . بالنظر الى ذلك نجد ان دوركيم يضع ثلاثة أنواع من الشروط تلك التى ينبثق بعضها من بناء الشخصية حيث الوراثة كشرط أو عامل لضبط السلوك فى المجال الاجتماعى . أما البعض الآخر فينبثق من البيئة المحيطة بالانسان حيث نجد نوعين من العوامل أو الشروط ، بعضها ينطلق من البيئة الاجتماعية والآخر ينطلق من البيئة الطبيعية . بالاضافة الى ذلك نجد النوع الثالث من الشروط الذى ينبثق أساسا من بناء الثقافة والقيم ، حيث نجد العنصر المعيارى كشرط ضابط للموقف الاجتماعى .

وبالنسبة للوراثة كشرط فى موقف الانسان قد يكون له تأثيره فى سلوكه نجد أن دوركيم – من خلال حواره مع النفعية – يؤكد انه وان كان عامل الوراثة له فاعليته فى المستوى الحيوانى للكائنات العضوية . حيث يحدد بناء الكائن العضوى الحيوانى جياته بشكل مسبق . غير أن ذلك يختلف فيما يتعلق بالمجتمع . حيث الأصول الوراثية لا تحدد المهنة الخاصة بالفرد ، ومن ثم فتكوينه الجينى لا يحدد دوره بشكل مسبق . بحيث يصبح صالحا لأداء دور بينما هو معوق بالنسبة لأداء دور آخر . ثم يحاول دوركيم تحديد النطاق الذى تقوم الوراثة

بدورها فى اطاره . فيؤكد ان كل مايأخذه الفرد عن الوراثة هو مجرد مجموعة من الاستعدادات العامة فقط ، تلك التى تكون عادة مرنة ، وفى امكانها ان تتخذ أشكالا كثيرة (٢٧٧) . وبذلك يتحرك دوركيم نحو اثبات ان الوراثة لاتشكل أحد الشروط الحاكمة لموقف الانسان وانما كل ماتؤثر به انها تخلق لديه استعدادا عاما فقط .

وبالنسبة للشروط المنطقية من البيئة الطبيعية نجد أن دوركيم يؤكد ان دوامها على مختلف مراحل التاريخ كما هى يفقدها أية فاعلية . بل انه يذهب الى أن معظم التغيرات البيئية الرئيسية تأسست بفعل عوامل اجتماعية وانسانية أساسا وهو مايفقدها كونها شرطا حاكما للسلوك الانسانى .

وينتقل دوركيم الى جوهر اهتمامه حينما يذهب الى أن الشروط الاجتماعية هى الشروط الفاعلة فى الموقف الاجتماعى . وفى هذا الصدد نجده يبدأ بالاعتراف بفاعلية الضمير الجمعى فى فرض أنماط سلوكية معينة على الانسان ، ومن ثم يصبح شرطا حقيقيا مؤثرا فى موقفه الاجتماعى . بالاضافة الى ذلك يعتبر دوركيم عامل السكان والكثافة الاجتماعية من العوامل الفعالة فى الموقف اذ يؤكد ان التغيرات البنائية الحقيقة ترجع أساسا الى حجم المجتمع وكثافته (٢٧٨) . بل اننا نجد ان دوركيم ينسب اليها انجازا مجتمعيا كليا انتقل من خلاله المجتمع من نمط التضامن الآلى الى نمط التضامن العضوى .

وينطلق العنصر المعيارى - كشرط حاكم فى الموقف الاجتماعى - من بناء الثقافة والقيم أساسا . اذ يؤكد دوركيم فى هذا الصدد أن توازن واستقرار العلاقات بين أعضاء الجماعة يعتمد أساسا على وجود بناء معيارى له صلة بالسلوك ويلقى موافقة جماعية من قبل أعضاء المجتمع باعتبار ان له سلطة أخلاقية ، ويخضعون لمعاييره . هذه المعايير لاتنظم فقط اختيار الفرد لوسائله وغاياته ، ولكننا نجد ان حاجاته ورغباته ذاتها تتحدد فى جانب كبير بواسطتها (٢٧٩) . بيد اننا اذا نظرنا الى الشروط الموقفية من وجهة نظر دوركيم سوف نجد ان أكثرها فاعلية تلك التى تنطلق من اطار البيئة الاجتماعية ، والبناء المعيارى ، الذى يكون له فاعليته فى ضبط السلوك الانسانى فى اطار الموقف الاجتماعى . ومن ثم يتحقق الهدف الرئيسى من برهنة دوركيم التى تؤكد على حتمية الحقائق الاجتماعية وانها تفسر بالرجوع الى ذاتها (٢٨٠) .

## ثالثا : الانسان والخضوع للحتمية الاجتماعية

تعتبر نظرية إميل دوركيم فى الحتمية الاجتماعية هى النظرية الوحيدة التى ترسخ النفى الكامل لارادية الانسان فى انجازه لسلوكه . ويتضح ذلك من تأكيد دوركيم على الضمير الجمعى – كعامل اجتماعى – باعتباره المصدر الرئيسى للسلوك والتفاعل الاجتماعى . ولتوضيح ذلك نجده يرفض منذ البداية امكانية ان تكون ارادية الانسان مقيدة بعوامل فيزيقية أو بيلوجية كما هى الحال بالنسبة للحيوان (٢٨١) . حيث يخضع الانسان لحتمية أخرى هى الحتمية الاجتماعية . تلك التى لها دورها الهام نسبيا فى تشكيل الطبيعة البشرية (٢٨٢) . فالانسان يختلف عن الحيوان من حيث كونه يستطيع بوعيه ان يعرف مافعله ولماذا يفعله . وبذلك نجد ان وعيه يحرره من العوامل التى قد تفرض عليه ان يأتى ذات الأفعال التى يأتيها الحيوان (٢٨٣) .

واذا اتفقنا على ان وعى الانسان له دوره البارز فى انجازه لسلوكه ، فان السؤال الذى يطرح نفسه هو : الى أى مدى تعتبر سلوكيات الانسان معبرة عن ارادته . بالنظر الى ذلك نجد ان دوركيم ينفى بشكل كامل أية ارادية للانسان فى انجازه لسلوكه ، بل يتطرف حين يؤكد ان الانتحار وهو السلوك الذى يقتل فيه الانسان ذاته ، لايعبر عن ارادة مرتكبة . وانما يعبر عن ارادة المجتمع . حيث نجد ان التكوين الأخلاقى للمجتمع يفرض فى كل لحظة قدرا من الموت الارادى . وهو مايعنى انه مفروضا على قدر محدد من البشر ان يحطموا ذواتهم . ومن ثم فسلوكيات الضحايا التى قد تبدو للوهلة الأولى معبرة عن مزاجهم الشخصى . انما هى فى الحقيقة تعبير خارجى عن الظاهرة الاجتماعية واستكمال لها (٢٨٤) . ويعنى ذلك ان السلوك الاجتماعى – كالظاهرة الاجتماعية – ليس وليد ارادتنا وانما هو مفروض علينا من الخارج (٢٨٥) . وفى موضع آخر يؤكد دوركيم ان السلوك الاجتماعى كالظاهرة الاجتماعية ليس إلا قالبا نصب فيها سلوكنا (٢٨٦) . وهى لا تتوقف عند ذلك ، وانما تصبح لها قوتها القاهرة ووسيلتها فى فرض نفسها على الفرد أراد ذلك أم لم يرد . حقا ان الفرد قد لايشعر بهذا القهر حينما يستسلم له باختياره . غير ان القهر يتأكد وجوده بقوة حينما تحاول مقاومته (٢٨٧) .

ويمايز دوركيم فيما يتعلق بارادية السلوك بين كل من مجتمعى التضامن الآلى والعضوى . حقيقة ان الارادية منفية فى كل منهما . بيد ان هذا النفى يتخذ أشكالا متباينة حيث يعتبر مباشرا فى احدهما وغير مباشر فى الآخر . ففى اطار مجتمع التضامن الآلى ، حيث يسود تقسيم للعمل يقوم على أساس تماثل العناصر مع بعضها البعض بما يشبه تماثل خلايا الكيان

الفيزيقى . فى اطار هذا النموذج فان الرابطة التى تربط الفرد بالمجتمع تماثل الى حد كبير الرابطة التى تربط الشخص بالأشياء (٢٨٨) . فالمجتمع يربط الشخص به بشكل مباشر وبدون وسيط . حيث يظهر المجتمع نفسه لأعضائه من خلال كونه منتظما كلية ، بدرجة أكثر أو أقل فى اطار مجموعة من العواطف والمعتقدات المشتركة بالنسبة لكل أعضاء الجماعة ، مادامت الأفكار يسمى بالنموذج الجمعى . وتتأكد قوة هذا المجتمع ، مادامت الأفكار والمعتقدات المشتركة بين أعضائه لها قوتها ، هذه القوة التى تتأكد من خلال العمق وكثافة العدد (٢٨٩) . يؤكد دوركيم استناد هذا النموذج المجتمعى على التماثل الذى يصل منتهاه ، حينما يستوعب الضمير الجمعى كليه كل الضمائر الفردية ، ويتطابق معها فى كل النقاط . فى هذه اللحظة تنتهى فرديتنا ويبقى الكل الاجتماعى وحده على الساحة . ويذهب دوركيم الى أن تسمية هذا المجتمع بمجتمع التضامن الآلى ليس لأنه قد انتج بوسائل صناعية أو آلية . وانما سميناه كذلك لتماثل علاقة أجزائه به بعلاقة أجزاء الجسم أو الكائن غير الحيوانى به . وذلك فى مقابل علاقة أجزاء الكائن الحيوانى بالكل . فى اطار ذلك نجد ان الضمير الفردى يعتمد ببساطة على النموذج المجتمعى . ويتبع كل حركاته مثلما يتبع الشئ المملوك مالكه . وفى هذا النطاق تختفى الفردية ، فالفردية شىء يمتلكه المجتمع ومن ثم ينتفى التمييز بين الحقوق الشخصية والحقوق الجمعية (٢٩٠) . وفى مواجهة هذا الوجود المجتمعى البارز تنتفى ارادة الفرد أولا يصبح لها اعتبار . فلأن افرد يتماثل مع الآخر ، فان ذلك من شأنه ان يقلل الشعور بالفردية وبخاصة حينما يكون الوعى الفردى معتمدا كلية على الوعى الجمعى (٢٩١) . فالفرد لاينتمى لذاته بقدر ماينتمى الى المجتمع ، فشخصيته مقهورة ويرى دوركيم ان هذا القهر ليس الذى نعرفه اليوم ، فان شخصية الفرد لم تكن وجدت بعد (٢٩٢) . ويعطى دوركيم مثالا لذلك بقوله انه فى بعض المجتمعات البدائية قد ينتحر الرجل المسن لأنه أصبح عبئا على رفاقه فى المجتمع ، أو حينما ترفض أرملة الهندى الحياة بعد موته ، وحينما ينهى البوذى حياته وهو يحمل معبوده مثلما تطلب منه الطقوسيات الدينية ذلك . فى كل هذه الحالات يقتل الفرد نفسه ، ليس لأن الحياة سيئة ، ولكن لأن المثال الذى ارتبط به يتطلب هذه التضحية . وبذلك يصبح هذا الموت ليس انتحارا بالمعنى الشائع للكلمة ، وانما هو تضحية بالنفس حينما يوجب المجتمع ذلك (٢٩٣) .

وأذن فالكل الاجتماعى له مثله ومعتقداته الى ينبغى لاجزائه الواقعية ان ترى الواقع من خلالها ، فى اطار ذلك لانستطيع القول بأن ثمة فردية موجودة فى مثل هذا الموقف ، ومن ثم انتفاء احتمالية قيادة سلوك ارادى صادر عنها . فما هو موجود على الساحة جمع من البشر يعبرون عن الكل الاجتماعى الذى يعبر عن ذاته من خلالهم . فاذا تميز مجتمع التضامن الآلى الذى

يسوده القانون القهرى بتنظيمه الدقيق لتفاصيل السلوك ، فاننا نجد انه باطراد التقسيم فان التنظيم الدقيق والمفصل للسلوك يتضاءل ويسقط تماما وبشكل تدريجى ، وينتفى ارتباط الجزاءات أو ردود الأفعال العاطفية والنمطية – التى تدافع عن قيم مشتركة – بأنماط سلوك معينة ، أو بوسائل معينة لتحقيق غايات السلوك ، وتبقى فقط مجموعة اتجاهات ومبادئ عامة للغاية ، وهو مايؤدى بالضرورة الى استقلال كامل للمبادأة والاختيار الفردى (٢٩٤) .

فاذا انتقلنا الى مجتمع التضامن العضوى نجد أن دوركيم يواصل رفضه لارادية الانسان ، فهو يؤكد انه فى اطار مجتمع التضامن نجد ان الفرد يعتمد على المجتمع أيضا ، ولكن من خلال اعتماده على أجزائه المكونة ، فى هذا الاطار نجد ان دوركيم يدرك المجتمع على انه نسق يتكون من وظائف خاصة ومتباينة ذات علاقات توحد بينها (٢٩٥) ، ويذهب دوركيم الى انه بينما يرسخ مجتمع التضامن الآلى التماثل يعمق التضامن العضوى التباين ، ومن ثم يصبح نموذج المجتمع هذا ممكنا ، نظرا لأن لكل من مجال سلوكه الخاص فى اطاره ، وفى نموذج التضامن العضوى نجد ان المجتع يترك هامشا للضمير الفردى لتنظيم بعض أنماط السلوك التى قد يعجز الضمير الجمعى عن تنظيمها ، وبالنظر الى ذلك تتخلق معادلة انه كلما ترك مجالا أكبر للضمير الفردى ، كان التضامن الناتج أكثر ، غير أن ذلك يؤدى الى نتيجة أخرى ، حيث يعتمد كل شخص بدرجة أكثر على المجتمع كلما كان تقسيم العمل بدرجة أكثر ، ويصبح نشاط كل فرد أكثر خصوصية ، كلما كان أكثر شخصية (٢٩٦) ، غير انه يذهب الى أننا فى ممارستنا لمهمتنا نتكيف مع بعض الممارسات والعادات المشتركة بين أعضاء الزمالة المهنية ، غير اننا مع خضوعنا لذلك نترك مكانا رحباً للأداء الحر لعاداتنا ، ويصبح المجتمع بذلك قادرا على الحركة الجمعية مادام لكل من عناصره حرية أكثر للحركة ، هذا التضامن يشبه الى حد كبير ذلك الذى نشاهده فى الحيوانات العليا ، حيث لكل عضو استقلاله وطبيعته الفسيولوجية ، وفضلا عن ذلك فان وحدة الكائن العضوى تترسخ مادامت درجة تفريد أو فردية أجزائه أصبحت ملحوظة (٢٩٧) ، ويتأكد التضامن العضوى للمجتمع كلما دعمت التمايزات الفردية ، وهذا يطرح امكان تفكير الأفراد فى أنفسهم متميزين عن المجتمع (٢٩٨) ، ويؤكد دوركيم انه فى اطار هذا التضامن ينبغى ان تكون المشاركة المهنية ارادية ويعنى ذلك ان الأفراد لايلحتقون بوظائفهم بنوع من الفرض أو القوة ، وانه ليس هناك مايمنعهم من احتلال المكانة التى تتلاءم وملكاتهم الفطرية ، بحيث ينبغى أن تتطابق التباينات الاجتماعية مع التباينات الطبيعية (٢٩٩) .

وهنا نجد أن دوركيم يقع فى خطأ منطقى حينما يؤكد استناد التباينات الاجتماعية الى التباينات الطبيعية . ومن ثم نجده هنا ينفى ارادية الانسان ليس بالحتمية الاجتماعية ولكن بالحتمية البيلوجية تلك التى رفضها بشكل قطعى أثناء حواره مع المذهب النفعى .

غير ان مجتمع التضامن العضوى وأن ترك مجالا للسلوك الفردى فهو مجال ارادة محدده ، بحيث نجد فى اطاره اتسام عناصر السلوك بالطابع القهرى وليس الارادى التلقائى . بحيث نجد أن أيا من عناصر السلوك ليست إلا أجزاء من موقف معطى على الفرد ان يؤدى سلوكه بالنظر اليها ، ومن ثم فليس له سيطرة على الموقف أو أى من مكوناته (٣٠٠) . ويحاول دوركيم ان يوضح ذلك بتأكيده ان سلوك الانسان وان بدا اراديا من الناحية الظاهرية غير انه فى حقيقته لا اردای من خلق المجتمع . فكل فرد هو مخلوق المجتمع الذى يعيش فيه ، ومن ثم فرغباته تتحدد بواسطة ظروف وعادات وأفكار ومثاليات عصره وزمانه . تلك هى الحقيقة التى قد لايدركها الفرد ذاته (٣٠١) . بيد انه اذا كان دوركيم قد أكد مرارا ان تحرير الفرد يتطلب قيام التضامن العضوى الذى يسوده نمط متقدم لتقسيم العمل الاجتماعى ، فكيف اذن يذهب الى القول بان سلوك الانسان هو ابن زمانه ومكانه ؟ الاجابة على ذلك توضح تصور دوركيم للحرية Freedom وطبيعة صلتها بالنظام الأخلاقى . فهو يؤكد ان الحرية لاتتوحد مع التحرر liberation من كل الضوابط وإلا كانت حالة الأنومى ، وهى الحالة التى لايكون فيها الأفراد أحرارا ماداموا مشدودين بقوة لرغباتهم التى لا نهاية لها (٣٠٢) . فالحريات Liberties والحقوق ليست مسائل فطرية فى الانسان كانسان . وانما المجتمع هو الذى دعم الفرد وجعله مستحقا للاحترام . ومن ثم فتحرره المطرد لايعنى اضعاف الروابط الاجتماعية بل تحويلها من شكل الى آخر . ثم يؤكد ان خضوع الفرد للمجتمع هو شرط تحرره . فحرية الانسان تتكون فى الاصل من التحرر من القوى الفيزيقية غير العاقلة ، ولقد حقق الانسان هذه الحرية لأنه احتمى بالمجتمع كقوة ذكية وهائلة من هذه القوى . ومن ثم فانه اذا كان قد وضع نفسه تحت جناح هذه القوة ، فانه جعل نفسه الى حد ما معتمدا على المجتمع وتابعا له ، ومن ثم يسمى دوركيم ذلك بالتبعية المتحررة (٣٠٣) . ويذهب دوركيم الى أنه من الخطأ الاعتقاد بان السلطة الأخلاقية والحرية هى بالأساس قوى متضادة . ذلك لأنه مادام الانسان يحصل على قدر الحرية الذى يتمتع به من خلال عضويته فى المجتمع ، فانه ينبغى ان يخضع للسلطة الأخلاقية التى يتطلبها وجود المجتمع . وليس هناك تناقض فى ذلك بالنسبة لدوركيم . فليس يعنى ان تكون حرا أن تفعل ماتريد ولكن ان تكون قادرا على ضبط ذاتك وسيدا لها (٣٠٤) . ذلك لأن المجتمع

ليس إلا تنظيما من العلاقات الاجتماعية ، وبالنظر الى هذه الحقيقة الأساسية فان ذلك يعنى تنظيمه للسلوك وفقا للمبادئ المتفق عليها والتى تشكل القواعد الأخلاقية للمجتمع . ومن خلال التنظيم الأخلاقى الذى يجعل الحياة الاجتماعية ممكنة فان الانسان يكون قادرا علي جنى الفوائد التى يمنحها اياه المجتمع (٣٠٥) .

ويؤكد دوركيم فى تحليله لتقسيم العمل الاجتماعى ، فى مؤلفه الذى حمل ذات العنوان ان التخصص فى أداء العمل لابد أن يتلاءم والاستعداد الطبيعى للفرد . غير انه من خلال التخصص يجد نفسه محكوما فى انتاجه – كما وكيفا – بواسطة حاجات الآخرين . وذلك فى مقابل اعتماده فى اشباع حاجاته على انجازات أعمال الآخرين . وبذلك يصبح الانسان أقل ارادية فى مجتمع التضامن العضوى مما هو فى مجتمع التضامن الآلى . فالارادية محكومة من ناحية بواسطة تنظيم المجتمع وسلطته الأخلاقية ، ثم هو من ناحية أخرى محكوم بواسطة شبكة هائلة من العلاقات التى يقف الآخرون على أطرافها ، بحيث يطغى وجودهم وحاجاتهم على جزئية الفرد وتكبر عليها . ومن ثم فاذا انتفت ارادية الفرد فى مجتمع التضامن الآلى نفيا أخلاقيا فهى فى مجتمع التضامن العضوى منفية نفيا أخلاقيا واقتصاديا أيضا .

ذلك يعنى أنه اذا كانت الماركسية قد طرحت قضية الانتقال من اللا ارادية الى الارادية ، واذا كانت حركة الانسان تتحدد عند ماكس فيبر بالانتقال من الارادية الى اللارادية . فانها عند إميل دوركيم من لا ارادية بسيطة الى لا ارادية كاملة وعميقة وشديدة التعقيد . يصبح المجتمع فى اطارها بارزا من حيث اراديته فى مقابل النفى الكامل لماهية الانسان وتلقائيته .

## رابعا : المجتمع كمصدر للعقلانية والوعى .

تشير محاولة ادراك طبيعة عقلانية السلوك ومصدرها من وجهة نظر دوركيم الى تأثره فى ذلك بحقيقتين أساسيتين . الأولى ان عقلانية السلوك تأتيه من الخارج أساسا . حيث نجد تأثرا فى ذلك بالمثالية الألمانية خاصة المثالية الموضوعية لهيجل . التى تؤكد أن الفكرة الشاملة أو العقل الكونى رشيد بطبيعته وان تطوره يعتمد على نشر العقلانية فى الواقع الذى يعنى تعقله ومن ثم تطابقه مع مقتضيات العقل الكونى ، بل اننا نجده يؤكد فى أحيان كثيرة ان عقلانية الانسان تتأكد اذا هو قد تطابق مع العقل الشامل أو عبر عنه . وان عظمة رجال التاريخ تتحقق اذا هم تكيفوا مع هذا العقل الكونى أو الفكرة المطلقة . بالاضافة الى ذلك فان تأكيده على المصدر الخارجى للعقلانية ظهر كرفض للموقف المنفعى الذى يؤكد ان للانسان الفرد عقلانيته الخاصة المستندة الى حسابات اللذة والألم الناتجة عن سلوكه الفردى . فهى عقلانية داخلية

محكومة حكما بيلوجيا ومحتمة بعوامل لا اجتماعية يرفضها دوركيم . ولتوضيح الموقف الدوركيمي من مقولة العقلانية نعرض مبدأ لطبيعة تحديده لها . اذ يؤكد انه اذا كان السلوك أو الدور ينجز في ظل شروط موقفية لا سيطرة للانسان عليها ، فان من أهم متطلبات السلوك العقلاني ان يتوافر فهم دقيق من قبل الفرد لطبيعة الشروط المتصلةج بهذا السلوك (٣٠٦) . في اطار ذلك فان ما يأمله دوركيم ليست سيطرة الانسان على شروط سلوكه من أجل ان تتثبت عقلانية السلوك ولكن ان يتوافر له فهم دقيق لها من أجل العمل وفقا لمتطلباتهما .

وفي تحديده لهوية ماهو عقلاني نجده ينسبة لما هو اجتماعي . ويذهب في ذلك الى أن السلوك على المستوى الحيواني يستمد عقلانيته بالنظر الى عامل غريزي ووراثي بينما السلوك الانساني يختلف عن الحيواني نظرا لأن الانسان لديه من الوعي الذي يحرره من فاعلية الغريزة والوراثة (٣٠٧) . بيد أن الوعي الفرعي يعتبر جزئية متضمنة في الوعي الجمعي ، ومن ثم نجد ان دوركيم يعتبر الأخير هو المصدر الحقيقي لعقلانية السلوك ، يتضح ذلك حينما يؤكد في أكثر من موضع ان عقلانية الفعل تتجاوز الحساب أو الادراك (٣٠٨) الفردي . وانما تتحدد هذه العقلانية أساسا بالنظر الى الضمير الجمعي من حيث كونه يحدد القواعد الحاكمة للسلوك من الخارج بالاضافة الى تشكيل غايات السلوك تلك التي تشكل جوهر الشخصية الفردية (٣٠٩) . وان نسق القيم النهائية المشترك بين أعضاء المجتمع هو الذي له علاقة بأنماط السلوك الفردي . حيث يتصل هذا النسق بالأفراد الخاضعين له من خلال علاقة مزدوجة ، في جانب منها من خلال تحديد الغايات المتعلقة بأنماط السلوك محددة أو بمجموعة منها ، أو من خلال مجموعة القواعد المتحكمة في مجموعة السولكيات هذه دون اعتبار الى تنوع غاياتها المباشرة (٣١٠) .

ولتاكيد ذلك يذهب دوركيم الى أن هناك من أنماط السلوك مايستحيل ادراك معقوليته على المستوى الفردي . فالانتحار الارادي الاختياري الذي يأتيه الانسان الذي يضحي بذاته في سبيل قيم أو مثل عامة وعليا يقدسها المجتمع ، لايمكن ادراك معقوليته على المستوى الفردي ، من حيث كونها سلوكيات تهدف الى تأكيد القيم والمثل المجتمعية ، ومن هذا المستوى تكتسب عقلانيتها (٣١١) . بل اننا نجد ان سلوكا كالانتقام الذي يأتيه الفرد انتقاما من الآخر الذي سبب له أذى ومن ثم فالانسان يقتله تحت وطأة اندفاع شعوري وعاطفي . ولأن سلوك القتل لايصلح الأذى الذي وقع فانه يصبح لاعقلانيا . غير ان مثل هذا الفعل يصبح عقلانيا على المستوى البنائي ، حيث يدرك سلوك القتل على انه نوع من الانتقام لعمل على المجرم ان يكفر عنه ، هذا العمل هو الاعتداء على الأخلاق العامة (٣١٢) . ويذهب دوركيم الى انه اذا كان نسق

القيم هو المحدد لعقلانية السلوك فى الواقع . فان القيم الدينية هى التى تحدد عقلانية هذا السلوك فى اطار العالم غير الأمبيريقى أو غير الواقعى (٣١٣) ، وهنا أيضا نلاحظ ان عقلانية السلوك تتحدد من خارجه . ويحاول دوركيم نقل هذه الرؤية بحيث لاتكون قاصرة على الباحث الملاحظ من خارج سلوكه الى الانسان ذاته حينما يؤكد انه اذا كان سلوكه يتحقق من خلال الثقافة واملاءات نسق القيم العامة والنهائية سواء كانت ذات طابع دينى أو واقعى ، فانه لكى لايتحول سلوك الانسان الى سلوك ميكانيكى لا عقلانى ومن ثم يفقد بشريته ، فانه ينبغى عليه ان يدرك ان لسلوكه غايات أبعد منها ذاتها (٣١٤) . أى عليه ان يدرك مدى ترابط سلوكه مع أفعال الآخرين ، ثم مدى اسهامه وسلوك الآخرين فى تحقيق الغايات النسقية العامة المتصلة بالضمير الجمعى أساسا . فى اطار ذلك فاننا نجد انه اذا كان دوركيم قد ذهب الى ان السلوك مفروض من الخارج على الفرد ان ينجزه فهو مفروض من قبل الضمير الجمعى ، فانه يكون من المنطقى ان يكتسب السلوك عقلانيته ليس من خلال ذات الفرد ، ولكن من خلال اتصاله بالعنصر المعيارى الذى يشكل جوهر الضمير الجمعى .

**خامسا : الضبط الاجتماعى ، وآليات التأكيد على النظام .**

اهتم دوركيم بقضية الضبط الجتماعية كنتيجة لاهتمامه بقضية الاستقرار الاجتماعى . ويتسق اهتمامه بقضية الضبط مع القضايا الأخرى لبنائه النظرى ، بيد أنه يلاحظ ان وسائل الضبط تنطلق دائما من المجتمع لكى تمارس فعلها على الانسان ، بحيث يتسق سلوكه وحاجة النظام الاجتماعى . والبحث فى طبيعة الضبط لدى دوركيم يكتشف ان له طابعه ووسائله فى كل من نموذجى التضامن الآلى والعضوى . وان اهتم بدرجة أعلى من الضبط فى نطاق الأخير الذى كان مهددا بالانهيار وعدم الاستقرار .

ففى المجتمعات التى تستند روابط التماسك فيها الى التضامن الآلى ، والتى يسودها البناء ذو الطابع الانقسامى ، حيث تتكون تجمعاته من جماعات عائلية وسياسية متجاورة . حيث نجد ان القبيلة ككل تشكل مجتمعا له وحدته الثقافية ، حيث يخضع كل أعضاء البطون العديدة الى ذات العواطف والمعتقدات المشتركة . فى اطار هذا الوضع كان من النادر ان يحدث تباين بين الفرد والآخر لأن كلا منهما يعتبر وحدة مصغرة للكل . وحيث الثروة امتداد للشخص على الموضوعات ، ومن ثم فما دامت الشخصية الجمعية هى التى لها وجودها ، فان الثروة لايمكن إلا أن تكون كلية (٣١٥) .

وإذا كانت الجماعية هى الطابع المميز لهذا النموذج من المجتمعات فانه من المنطقى ان تصبح الغيرية هى المؤشر على الانصياع الكامل من قبل الفرد لجماعته . وهو مايفرض على الانسان القيام بكافة التزاماته نحو الجماعة لشدة ارتباطه بها (٣١٦) . بيد انه لترسيخ هذا الارتباط بين الفرد والجماعة ولمنع أى انحراف قد يحدث من قبل الفرد فان مجتمع التضامن الآلى يمتلك ثلاث وسائل للضبط والسيطرة .

ويعتبر القانون القهرى repressive law الوسيلة الأولى فى هذا الصدد اذ يؤكد دوركيم انه كاتجاه عام فان القهر هو الذى يسيطر على طبيعة القانون فى المجتمعات الدنيا . لأن الدين عادة ماتكون له وطأته على الحياة التشريعية لهذه المجتمعات ، أو بالأصح حياتها الاجتماعية (٣١٧) . وإذا قلنا ان القانون القهرى هو وسيلة الضبط فى هذه المجتمعات ، فان العقاب هو الميكانيزم الرئيسى الذى يستهدف ضبط الفرد وتأسيس خضوعه . وفى هذا الصدد يؤكد دوركيم ان الخوف من العقاب هو الذى يدفع الأفراد لانجاز واجباتهم وأداء وظائفهم . فالعقاب هو الذى يحكم البشرية ، وهو الذى يحميها أيضا (٣١٨) . وهنا نلاحظ تصورا هوبزيا يتردد لدى دوركيم ، حينما يرى الانسان أنانيا لايخضع لحالة الاجتماع إلا من خلال العقاب كوسيلة أساسية لذلك .

وتعتبر الجماعة القرابية هى الوسيلة الثانية للضبط فى اطار مجتمع التضامن الآلى . فى أطار ذلك يذهب دوركيم الى أن للبطن أو العائلة سلطة هائلة على الافراد ، لأن السلطة المركزية – الدولة – عادة ماتكون ضعيفة (٣١٩) ويرجع ذلك لانه فى الجماعات الصغيرة ، حيث التقاليد قوية للغاية ، وحيث كل شئ محدد ، فان الجماعة عادة ماتتدخل فى تفاصيل الحياة الفردية لتنظيمها . بل ان دوركيم يذهب الى اننا اذا حللنا البناء القانونى للمجتمعات القديمة فاننا سوف نجده يتدخل فى دقائق الخصوصية الفردية (٣٢٠) .

ويمثل البناء المعيارى الذى يشكل النسق الأخلاقى للمجتمع الوسيلة الضبطية الثالثة فى هذا الصدد . ويقول دوركيم ان بكل مجتمع مجموعة من القواعد المعيارية للسلوك ، أو مجموعة من القيم النهائية المشتركة . فمن ناحية يمكن قياس تكامل المجتمع بالنظر الى مدى مراعاة هذه القواعد من قبل الالتزام الدافعى والأخلاقى . غير انه من ناحية أخرى يوجد عنصر الرغبة الذى يرى فى القواعد المعيارية أحد الشروط الأساسية للسلوك (٣٢١) . ومن ثم فعلى الفرد

التوافق معها وإلا كان عليه أن يعرض نفسه للعقاب . وذلك يعنى ان ميكانيزمات الضبط فى مجتمع التضامن الآلى يراها دوركيم من خلال البناء المعيارى ، أو الجماعية القرابية التى تجسد مثله أو من خلال القانون كوسيلة تتولى تنظيم الواقع بالنظر الى هذه المعايير .

بيد انه اذا امتلك الموقف الاجتماعى فى اطار مجتمع التضامن الآلى مجموعة من الشروط الموقفية القريبة من الفاعل والقادرة على ضبط السلوك فى اطاره ، فان هذا النموذج يتعرض لمجموعة من العوامل التى تؤدى الى انهيار الموقف فى اطاره ، وتخلق موقف التضامن العضوى ، الذى يرى دوركيم حاجته الى الضبط والتنظيم نظراً لأنه يعانى من حالة الأنومى . ويحاول دوركيم تحديد الأسباب التى أدت الى ذلك فيؤكد ان منها ذلك التناقض الذى وقع بين حجم السكان فى المجتمع والكثافة الاجتماعية المترتبة عليه من ناحية وبين بناء الاقتصاد وطبيعة تقسيم العمل السائدة فى المجتمع من ناحية أخرى ، بحيث كان من نتيجة ذلك تخلق حالة من الفوضى التى طرحت احتمالين ، أما الرجوع الى حالة حرب الكل ضد الكل ، أو اعادة التنظيم الاجتماعى وإلا تردى الموقف الى نوع من الانهيار الكامل .

واذا كانت الجماعة القرابية فى المجتمع القديم شرطا ضابطا فى الموقف الاجتماعى للفرد ، فاننا نجدها قد انهارت وخاصة فى مجتمعات المدينة حيث معظم سكانها مهاجرين لم تهاجر معهم روابطهم القرابية . ومن ثم يصبح الموقف الاجتماعى خاليا تماما من هذه الجماعات الضابطة لفعل الانسان فى السياق الاجتماعى . ويذهب دوركيم الى انه يرتبط بذلك انهيار سلطة التقاليد والمعتقدات (٣٢٢) وذلك نظرا لأن الحراك الهائل للوحدات الاجتماعية – بحكم تقسيم العمل وظهور المدينة والهجرة اليها – يؤدى الى اضعاف التقاليد (٣٢٣) . فالتقاليد تصبح قوية اذا بقى الانسان فى ذات المكان الذى تربى فيه ، لأنه يظل باقيا مع نفس الأشخاص الذين يعرفونه والذين يخضع سلوكه لهم . بينما يختلف الموقف اذا انتقل الانسان الى بيئة جديدة ، حقيقة انه سوف يجد ناك من هم أكبر سنا منه ، ولكنهم مختلفون عن هؤلاء الذى أطاعهم فى طفولته . هذا بالاضافة الى أنه لايعتمد عليهم ، ولا هو قد اعتمد عليهم من قبل . وفضلا عن ذلك فثمة حقيقة شهيرة تتمثل فى ان احترام كبار السن يضعف مع تقدم الحضارة (٣٢٤) . ذلك لأنهم هم حاملوا التقاليد ، وهم الذين يتولون نقلها الى الأجيال الجديدة . فاذا لم يحدث ذلك فان سلطة التقاليد كشرط ضابط فى الموقف الاجتماعى تنهار أيضا . ويضاف الى ذلك ان هناك من العوامل مايساعد على انهيار سلطة التقاليد كشرط ضابط فى الموقف . أول هذه العوامل الزيادة السكانية للمدن والمجتمعات الحضرية . هذه الزيادة ليست

زيادة طبيعية ، وانما هى زيادة عن طريق الهجرة حيث تصبح المدينة مكونة من البالغين الذين تركوا ديارهم ، ومن ثم فقد تحرر فعلهم من تأثير كبار السن ، هذا بالاضافة الى انخفاض عدد كبار السن فى المجتمعات الحضرية فى حين ترتفع نسبة الذين مازالوا فى بداية حياتهم (٣٢٥) . واذا كان المجتمع الحضرى أو مجتمع المدينة هو جوهر مجتمع التضامن العضوى فاننا نكون أمام هذا التنوع السكانى ، وغياب سلطة التقاليد ، وانهيار الجماعات الأولية فى مواجهة التهديد بحالة من فوضى الموقف الاجتماعى (٣٢٦) .

واذا كان من ملامح موقف التضامن الآلى انه ضيق من حيث نطاقه ، ومن ثم فذلك يوفر له درجة عالية من التجانس والتكامل . على عكس ذلك نجد موقف التضامن العضوى ، حيث يكون لدى الفرد تسهيلات كثيرة لتحقيق أهدافه ، مادام قادرا بدرجة أفضل على الهروب من الضبط ، ويؤكد دوركيم ان الانسان يكون فى قلب الحشد Crowd مختفيا عنه فى أى مكان آخر . فكلما كان امتداد الجماعة أكبر ، وكلما كانت كثافتها أضخم ، تشتت الانتباه الجمعى على نطاق أوسع ، ومن ثم يعجز عن متابعة حركات كل فرد ، حيث نجده يصبح ضعيفا كلما أصبح كان أكثر تعدادا (٣٢٧) .. وهو مايعنى ان الوجود الاجتماعى يصبح ضعيفا فى مواجهة الانسان ، ونتيجة لذلك تصبح الروابط الشخصية نادرة وضعيفة ، ويفقد الفرد الآخرين من نطاق رؤيته ، ومن ثم يفقد الانسان الاهتمام بالآخرين الذين معه . ويؤدى هذا الأهمال المتبادل الى انهيار المراقبة الجمعية وافتقادها ، ويتسع مجال السلوك الفردى تدريجيا ، حتى تصبح الخصوصية حقا . وكما نعرف فان الضمير الجمعى تبقى له قوته مادام لايسمح بالتناقضات . غير انه بالنظر الى ضعف الضبط الاجتماعى فان انماط السلوك التى تنتهكه ترتكب يوميا بدون رد فعل ، ويتوقف احترام القواعد العامة ، مادامت لم تعد محترمة . ومن ثم يتأسس الحق فى وجود الاستقلال الكامل للانسان (٣٢٨) .

ويؤكد دوركيم انه بدلا من مقابلة الضمير الجمعى Conscience Collective بالتضامن العضوى Organic Solidarity فانه يصبح هناك نموذجان لتأثير الضمير الجمعى . ويوجد فى مواجهتها معا الحالة التى يكون تأثيرهما المنظم والضابط ضعيفا للغاية ، أو تلك التى يكون فيها أى منهما غائبا تماما . فاذا ضعف التنظيم ، فان حالة الأنومى لابد أن تسود ، وهى الحالة التى تعنى التحرر من الضبط الجمعى ، أو التحرر الفردى (٣٢٩) من كل ضوابط الجماعة ، حيث تنتفى أية شروط حاكمة للموقف أو ضابطه اياه حتى يسير الفعل الفردى وفقا لمتطلبات المجتمع وحاجياته .

وعلى هذا النحو نجد ان دوركيم يدخل الى معالجة البعد الضبطى للموقف فى اطار مجتمع التضامن العضوى من مدخل حالة الأنومى السائدة فى أعقاب انهيار الضبط الأخلاقى والمعيارى الذى كان سائدا فى مجتمع التضامن الآلى . وفى هذا الصدد يؤكد دوركيم ان الميل الأساسى للنمو يصبح أكثر تعقيدا ، حيث يظهر اتجاه نحو التحرير المتزايد للفرد من الخضوع للضمير الجمعى ، بحيث يرتبط بهذه العملية ظهور المثل الأخلاقية التى تركز على حقوق وكبرياء الفرد ككائن بشرى . وقد يبدو ان ذلك يطرح للوهلة الأولى موقفا معتادا حيث نمو الفردية فى مواجهة نمو الدولة والتوسع فى مناشطها . وفى هذا الاطار يؤكد دوركيم ان الدولة هى النظام المسئول أساسا عن حماية الحقوق الفردية والحفاظ عليها . ومن ثم فامتداد نطاق الدولة يرتبط مباشرة مع اطراد الفردية الأخلاقية وأيضا بنمو تقسيم العمل (٣٣٠) . ويحاول دوركيم تحديد ميلاد الدولة كجهاز ضبطى بتأكيده انه بتصاعد تباين مجتمعنا ، فان العائلة كجماعة لها صلتها بالفرد يميل تأثيرها الى التضاؤل من حيث سيطرتها على الأفراد . فى مقابل ذلك نجد أن الدولة تتصاعد من حيث قوتها وأهميتها أو من حيث كونها عنصرا رئيسيا فى عملية نمو الفردية ، غير أنها على خلاف العائلة نجدها بعيدة عن الانسان ولاتتصل به بعلاقات شخصية . ومن ثم ضبطها وسيطرتها تكون عن طريق القانون الذى يدعمه الجزاء والقهر الفيزيقى . غير اننا مع ذلك نحتاج الى ضبط تفرضه سلطة أخلاقية (٣٣١) .

ويؤكد دوركيم ان هذه الوظيفة الأخلاقية الضبطية يمكن أن تقوم بها الجماعات المهنية التى تسود المجتمع الحديث الذى يعتبر التباين المهنى من أهم خصائصه ويذهب دوركيم الى ان من المنطقى ان نعتبر الجماعة المهنية الوحدة المفوضة بممارسة الضبط الأخلاقى بالنسبة لأعضائها . والتى سوف تلعب دورا هاما فى تنظيم التوسع غير المحدود لمصالحهم الفردية . وبالضرورة سوف تختلف قواعد وقوانين كل جماعة عن الأخرى . مادام ليس هناك بناء أخلاقى واحد يمكن تطبيقه فى كل الظروف التى تحتاج الى تنظيم . بذلك سوف تحاول كل جماعة مهنية فرض معايير مشتركة ومحددة على أعضائها ومن ثم فسوف تتميز كل جماعة بنوع من التضامن الآلى . ولقد رأى دوركيم فى هذه الوسيلة الأمل الأكثر فاعلية للوقوف فى مواجهة نمو الأنومى (٣٣٢) .

واذا كان دوركيم قد رأى ان نمو الفرد قد وقع مقابل نمو الدولة . فانه أكد كثيرا على ان الدولة بعيدة ، وفى ذات الوقت فهى أكبر منه قوة بحيث ان بالامكان ان تبطش به . وبذلك فان ابتكاره لضبط سلوك الانسان بواسطة الجماعة المهنية التى تسودها أخلاق التضامن الآلى

يؤدى ثلاثة أهداف رئيسية . الأولى : حماية المجتمع من الفردية المتطرفة ، ومن ثم من حالة الأنومى بخلق سياق مباشر للفرد يضبط سلوكه وتفاعله . ثم حماية الفرد من بطش الدولة عن طريق خلق حاجز يعوق وطأتها وقوتها الباطشة عليه . هذا بالاضافة الى احياء الجماعات القديمة ذات السلطة الأخلاقية ( القرابية والحرفية ) التى تجسد قوة الضمير الجمعى ، هذا الى جانب انها تمنع قيام الصراع الذى يهدد بفوضى الموقف الاجتماعى . وذلك لأن هذه الجماعة على مايذهب دوركيم سوف تخضع العامل وصاحب العمل لذات التربية الأخلاقية والصياغة الاجتماعية الموحدة .

**سادسا : النظرية الدوركيمية ، رؤية نقدية .**

من الواضح ان إميل دوركيم طور نظرية اجتماعية مكتملة الملامح سواء من حيث عناصرها الأساسية – منهجية كانت أو عينية – أم من حيث اكتمال هويتها وتميزها من حيث طبيعتها الأساسية . غير أننا فى الخاتمة نطرح مجموعة من الملاحظات الأساسية . فمن الواضح أن موقفه من الأبعاد النظرية لبنائه النظرى اتسم بخاصيتين :

١ – أنه اختلف مع الاتجاه النفعى باعتبار تأكيد هذا الاتجاه على المدخل الفردى لنشأة الوجود الاجتماعى ، حيث ان المجتمع ليس إلا نتاجا مباشرا من حيث طبيعته وخصائصه لطبيعة وخصائص الأفراد المكونين له . هذا بالاضافة الى تأكيد النفعية على الطبيعة اللارادية للسلوك ، حيث ليس هناك بالموقف الاجتماعى ما قد يؤثر على الطبيعة اللارادية للانسان .

ثم هو اختلف أيضا مع الماركسية من حيث رفضه تصورها لاشكالية النظام الاجتماعى على أنها تدور حول المسألة الطبقية . بينما هى تتمثل لديه فى غياب العنصر المعيارى والجهد التنظيمى ومن ثم سيادة حالة الأنومى . هذا بالاضافة الى اختلافه مع الماركسية فيما يتعلق بالنظرة الى تقسيم العمل الاجتماعى . فبينما رآه ماركس ميكانيزما لاختزال الانسان وصياغة اغترابه ، رآه دوركيم ضرورة لازمة لتحقيق التكامل العضوى للمجتمع الصناعى .

٢ – أنه اتفق مع اتجاهات نظرية أخرى بحيث أعتبر بناؤه النظرى امتدادا لها . فهو يتفق مع المثالية الموضوعية لهيجل فيما يتعلق بخضوع الانسان وسلوكه لمتطلبات العقل الكونى أو الروح العامة عند هيجل أو العقل الجمعى أو الضمير الجمعى عند دوركيم . وان اختلف معها فيما يتعلق بأصل العقل الجمعى . فبينما يراه هيجل كيانا ترسندنتاليا

لا صلة له بالواقع سوى أنه يجسد ذاته فيه ، يراه دوركيم ناتجا عن التفاعل الاجتماعي ولو أنه بتخلقه يكتسب ملامح وخصائص جديدة .

بالاضافة الى ذلك اتصل دوركيم بالوضعية حيث اتفاقه معها فيما يتعلق بعملية علم الاجتماع ، وضرورة استخدام ذات المناهج المستخدمة فى العلوم الطبيعية وتناوله لوقائعه بالبحث والدراسة على غرارها . غير أنه اختلف مع الوضعية من حيث نظرتها الى تقسيم العمل فى المجتمع الصناعي .

ونتاجا لذلك أسس دوركيم موقفا نظريا فريدا من حيث ملامحه وان اتسق الى حد كبير مع المقولات التى تعرض لها بناؤه النظرى فى اطار الاتجاهات السوسيولوجية العامة . هذا الموقف له ملامحه المنهجية والنظرية المحددة .

فمن حيث الملامح المنهجية نجد أن الموقف الدوركيمى تميز بالخصائص التالية فيما يتعلق بتناول الفعل الاجتماعي :

١ - أننا نجد لديه تصورا نسقيا شاملا ومتكاملا حيث يستند البناء الاجتماعي لديه على عمليات أساسية هى التوازن والاستقرار والتكامل . ومن ثم فمن المنطقى أن يتسق السلوك الاجتماعي لديه وهذه الرؤية النسقية فنجده يتسم بالطابع اللارادى .

٢ - أننا نجد لديه ايمانا عميقا بالحتمية ، والحتمية الاجتماعية حيث هى القانون الذى يحكم التفاعل الاجتماعي لديه من حيث دافعيته أو من حيث هدفيته ، أو الوسائل التى تيسر انجاز السلوك الانسانى وتحقيقه .

٣ - أن مدخله لادراك التفاعل ودراسته يتميز بكونه مدخلا موضوعيا صارما . حيث تعامل الحقائق الاجتماعية كأشياء يتم تناولها بالبحث والدراسة من خلال مؤشراتها الخارجية كما تفعل العلوم الطبيعية بالنسبة لمادتها .

بالاضافة الى ذلك تميز موقفه فيما يتعلق بالافتراضات النظرية المتعلقة بعينية التفاعل الاجتماعي بالخصائص التالية :

١ - أنه أكد على الطبيعة اللارادية للسلوك الانسانى بصورة صارمة التحديد . حيث يأتى الفرد سلوكه محكوما بالحتمية الاجتماعية تدفعه من الداخل وتشكل دافعيته وتحكمه فى أدائه لسلوكه فى اطار الموقف الاجتماعي ، من حيث فرض أهداف السلوك والوسائل التى تيسر له انجازه .

٢ – أن أشكالية النظام الاجتماعى لديه تختلف لغياب العنصر المعيارى – وهو العنصر المحورى – فى بناء التفاعل الاجتماعى . وأيضا لاغفال وجود الآخر وتوقعاته فى الموقف الاجتماعى . من هنا فحل مشكلة النظام الاجتماعى لديه تتمثل فى الوجود الفعال للعنصر المعيارى وأيضا فى دعم الآخر فى مواجهة الأنا ، قد يكون الآخر فردا بيلوجيا أو جماعة أو حتى المجتمع .

٣ – أن عقلانية السلوك ومشروعيته ترجع أساسا الى البناء الاجتماعى . فسلوك الانسان – من حيث دافعيته ، أهدافه ، وسائله – تستمد من خلال نظامه الاجتماعى ، ومن ثم ففى اطار هذا النظام يمكن العثور على مشروعيته .

خلاصة القول أن النظرية الدوركيمية رأت أن أعمال الانسان يأتيها تعبيرا عن حاجات ومتطلبات أجتماعية وليست انعكاسا لدوافع ذاتية فى بنائه الداخلى .

## مراجع الباب الثالث


1. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 301.

2. Anthony giddens : Capitalism and odern social theory. p, 65.

3. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 234.

4. T. Parsons : The Structure of social. Action. p, 304.

5. L. domnck : Emile Durkheim, Sociologist and Philosopher. cornell niversity Press. 1972. p, 15.

6. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 351.

7. Ibid. p, 356.

8. E.a. Tryakian : Op, Cit. p, 27. and See also Robert Nisbet : The Sociology of E. Durkheim. p, 76.

9. A. Giddens : Capitalism and Modern social theory. p,105.

10. Giddens, A : Durkheim as a Review Critic amer. Soc. Rev. Vol. 18. 1970. pp, 171-196.

11. Dominick, L : Op, Cit : p, 47.

12. A. Giddens : Capitalism and Modern Social theory- p, 68.

13. Don Martindale : Op, Cit. p, 7.

١٤- نيقوا تيماشيف : مرجع سابق، ص ١٧٥.

15. Don Martindal : Op, Cit. p, 87.

١٦- نيقول تيماشيف : مرجع سابق ، ص ٨٤

١٧- زكريا ابراهيم : هيجل، المثالية المطلقة، ص ١٦٥.

18. t. Porsons : The Structure of Social Action. p, 307.

١٩- نيقولا تيماشيف : مرجع سابق، ص ١٨٤.

20. Marvin Harris : Op, Cit. pp, 472_4&3.

21 . A. Giddens : Op, Cit. pp, 56-66.

22. E. Durkheim : The Elementary forms of the religious Life. p, 444.

23. A. Giddens : Op, Cit. p, 64.

24. Ibid. p, 6.

25. Ibid. p, 67.

26. irving Zeitlin : Op, cit. p, 254.

27. Dominick, L : Op, Cit. p, 32.

28. e. A. Tiryakian : Op, Cit. p, 24.

29. Ibid. pp, 39-40.

30. R. niset : The Socology of E. Durkheim. pp, 108-109.

31. T. Parsons : The Structure of Social Action. p,395.

32. durkheim, E. : Professional Ethics and Civil Morals. London. Routledge & Kegan Paul. Ltd. 1957. pp, 63-69.

33. Marvin Harris : Op, Cit. p, 482.

34. Peyre, H : Durkheim, The man and intellectual Back-ground. in Kurt H. wlf. ed durkheim, 1858-1917- pp, 3-31.

35. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 236.

٣٦- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الإجتماع ، ص ٢٧ ،

٣٧- نفس المرجع اسابق، ص ٣٨.

38. De Grange Mcquilkin : The Nature and elements of Sociology ew Haven. Yale University Press. 1953. p. 205.

39. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 236.

40. Rex, J. : key Problems of Sociological theory. London. routledge & Kegan Paul. 1970. p, 100.

41. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 239.

42. Ibid. p, 237.

43. Mc-Quilkin De Grange : Op, Cit, p, 235.

44. T. parsons : The structure of social Action. p, 307.

45. Alvin Guldner : Op, cit. p, 466.

46. T. Parsons : The structure of social Action. pp, 306-307.

47. E. Durkheim : The division of Labor in society. p, 323.

48. Ibid. p, 323.

49. Ibid. p, 309.

50. bid. p, 345.

51. Durkheim, E. : Sucde, A study in sociology. the Free Press. Ilinois. 1951. p, 134.

٥٢- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الإجتماع ، ص ص ٢٣.

53. E. Durkheim : The division of Labor in Society. p, 346.

54. t. Parsons . The Structure of Social Action. p, 353.

55. Irfing Zeitlin : Op, cit. p, 242.

56. Marvin Harris : Op, Cit. pp, 472-473.

57. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 242 and See Also E, Durkheim The division of Labor in society. pp, 328-359.

58. A. Gouldner : Op, Cit. pp, 28-29. and See Also A. Giddens Capitalism and Modern social theory. p, 72.

59. E. durkheim : Professional Ethics and Civil Morals. p, 15.

60. T. Parsons : The Structure of social Action. pp, 301-468.

62. J. Rex : Op, cit. p, 100.

٦٣- نيقولا تيماشيف : مرجع سابق، ص ١٨٤.

64. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 343.

65. Ibid. p, 418.

66. Marvin Harris : Op, Cit. p, 466.

67. Ibid. pp, 474-475.

68. T. Parsons : Durkheim Conctribution to theory of Social Systems. pp, 118-153.

69. E. Durkheim : The division of Labor in Society. p, 179.

70. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 384, and See Also M. De Grange : Op, Cit, p, 183.

٧١- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع . ص ١٦٣.

72. e. Durkheim : The division of Labor in Society. p, 268.

73. Ibid. p, 350.

74. A. Giddens : Capialisb and Modern Social theory. p, 68.

75. E. Durkheim : The division of Labor in Society. p, 228.

76. Ibid. p, 201.

77. Ibid. p, 203.

78. E. A. Tiryakian : Op, Cit. p, 25.

79. E. Durkheim : The division of Labour in Society. p, 202.

80. R. Nisbet : The Sociology of E. Durkheim. p, 77.

81. E. Durkheim : The division of Labor in Society. p, 204.

82. Ibid. p, 215.

83. Ibid. p, 213.

84. T: Parsons : The structure of social Action, p, 314.

85. r. Nisbet : The Sociology of E. Durkheim. p, 54.

٨٦- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع. ص ص ٣١، ٣٢.

87. T. Parsons : The structure of social Action. p, 321.

88. E. Durkheim : The division of Labor in society. p, 234.

89. E. Durkheim : Suicide, A study in Sociology. p, 355.

90.A. Giddens : Capitalism and Modern Social theory. p, 68.

91. E. Durkheim : The division of Labor in Society. pp, 2-5.

92. E. A. Tiryakian : Op, Cit. p, 26.

٩٣- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الإجتماع . ص ٣.

94. A. Giddens : Capitalism and Modern Social theory. p, 65.

95. A. Gouldner : Durkheim's sociologism and Saint-Simon, ed. London. Routledge & Kegan Paul. Ltd. 1959. p, 2.

96. Durkheim, E. : Sociology and Philosophy. London. 1965 p, 32.

97. A. Giddens : Capitalism and Modern Social theory. pp, 95-98.

98. T. Parsons : The Structure of Social Action. pp, 340-341.

99. E. Tiryakian : Op, Cit. p, 24.

100. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 235.

101. Tucker, R. : Philosophy and Myth in Karl Marx. Cambridge, 1965. p, 125.

102. A. Gouldner : Durkheim's Socialism and Saint-Simon. p, 204.

103. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 101.

104. A. Gouldner : Durkheim's Socialism and Saint-Simon. p, 206.

105. Ibid. p, 249.

106. E. Durkheim : The diision of Labor in Society. p, 374.

107. Ibid. p, 375.

108. Ibid. p, 375.

109. Ibid. p, 375.

110. Ibid. p, 376.

111. Ibid. p, 377.

١١٢- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع. ص ٣٢.

١١٣- نفس المرجع السابق. ص ٢٨.

١١٤- نفس المرجع السابق . ص ٢٧.

115. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 302.

116. Ibid. p, 468. and See also R. Nisbet : The Sociology of E. Durkheim. p, 50.

117. Ibid. pp, 406-407.

118. E. Durkheim : The division of Labor in Society. p, 52.

119. R. Nisbet : The Sociology of E. Durkheim. p, 44.

120. Durkheim, E. : Montesqueu and Rousseau. Trans. by : R. Manheim, University of Michigan Press, 1965. p, 5.

121. E. Durkheim : Suicide, A study in Sociology. p, 35.

122. A. Giddens : Capitalism and Modern Social theory. p. 86.

123. R. Nisbet : The Sociology of Emile Durkheim. p, 51.

124. E. Durkheim : Montesquieu and Rousseau. p, 9.

125. Ibid p, 10.

126. Ibid. p, 10.

127. Ibid. p, 13.

128. E. Durkheim : The division of Labor in Society. pp, 64-65.

١٢٩- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الإجتماع . ص ٣٦.

١٣٤- نفس المرجع : ص ١٤٦.

135. H. Peyre : Op. Cit. p, 36.

136. Ibid. p, 37.

137. R. Nisbet : The Sociology of Emile Durkheim. p, 51.

138. Ibid. p, 51.

139. A. Giddens : Capitalism and Modern Social theory. p, 86.

140. R. Nisbet : The Sociology of E. Durkheim. p, 58.

141. A. Giddens : Capitalism and Modern Social theory . pp, 89-90.

142. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 369.

١٤٣- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الرجتماع . ص ٢٨.

١٤٤- نفس المرجع . ص ١٣٧.

١٤٥- نفس المرجع ، ص ٩٠.

146. E. Durkheim : The division of Labor in Society. pp, 64-65.

١٤٧- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الإجتماع. ص ص ٨، ٣٨.

148. R. Nisbet : The Sociology of E. Durheim . p, 49.

149. E. Durkheim : The division of Labor in Society. p, 305.

150. Ibid. p, 346.

151. Ibid p, 330.

152. Ibid p, 331.

153. T. Parsons : The Structure of Social Action. pp, 326-350.

154. R. Nisbet : The Sociology of E. Durkheim. p, 63.

155. E. Durkheim : Sociology and Philosophy. p, 26.

١٥٦- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع ٥٦.

157. T. Parsons : The Structure of Social Action. pp, 358-359.

١٥٨- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع. ص ٦.

159. e. Durkheim : The division of Labor in Society. p, 8. and See also Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 243.

160. e. Durkheim : The division of Labor in Society. p, 81.

161. E. Durkheim : Suicide, A study in Sociology. Ch. 4.

162. T. Parsons : Structure of Social action. p, 345.

١٦٣- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع. ص ص ٥١-٥٢.

64. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 345.

165. Ibid. p, 349.

166. E. Durkheim : The division of Labor in Society. p, 92.

167. E. Durkheim : Sociology and Philosophy. p, 65.

168. E. A. Tiryakian : Op, Cit. p, 27.

١٦٩- اميل دوركيم : قواعد المنهخج فى علم الاجتماع، ص ٣٥.

١٧٠- نفس المرجع : ص ٤٢.

171. A. Giddens : Capitalism and Modern Social theory. p, 70.

١٧٢- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع . ص ١٠.

١٧٣- نفس المرجع : ص ٣.

174. E. Durkheim : Elementry Forms of the religious Life. p, 239.

175. E. Tiryakian : Op, Cit. p, 34.

176. R. Nisbet : The Sociology of Emile Durkheim. p, 67.

177. Ibid. pp, 68-69.

178. A. Giddens : Capitalism and Modern Social theory. pp, 91-92.

179. E. Durkheim : The division of Labor in Society. pp, 32, 64-65.

180. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 268.

181. E. Tiryakian : Op, Cit. p, 23.

182. e. Durkheim : The Elementary Forms of religious Life. p, 360.

183. Ibid. p, 124.

184. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 227.

185. E. Durkheim : The Elementary forms of regligious Life. p, 366.

186. E. Tiryakian : Op, Cit p, 40.

187. E. Durkheim : The Elementary forms of religious Life. p, 11.

١٨٨- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع . ص ٩٠.

١٨٩- نفس المرجع : ص ٢٣.

190. R. Nisbet : The Sociology of Emile Durkheim . p, 63.

١٩١- اميل دوركيم : قواعد المنتهج فى علم الاجتماع . ص ص ٥١-٥٢.

١٩٢- نفس المرجع : ص ٩١.

193. T. Parsons : The structure of Social Action. pp, 269-270.

194. Ibid. pp, 371-372.

195. Ibid. p, 369.

١٩٦- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع . ص ص ٩٧-١٠١.

١٩٧- نفس المرجع : ص ص ١٠٣-١٠٤.

١٩٨- نفس المرجع : ص ص ١٢٠-١٢١.

١٩٩- نفس المرجع : ص ١٣٦.

200. Mc-Quilkin De Grange : Op, Cit. p, 205.

201. E. Durkheim : The division of Lasbor in Society. p, 348.

202. T. Parsons : The Structure of Social Action. pp, 347-348.

203. E. Durkheim : The division of Labor in Society. pp, 345-356.

204. Ibid. p, 346.

205. Ibid. p, 330.

206. Ibid. p, 331.

207. T. Parsons : The Structure of Social Action. p. 323.

208. Ibid. pp, 353-354.

209. Ibid. p, 358.

210. Ibid. p, 329.

211. Ibid. p, 360.

212. Mc-Quilhin De Grange : Op, Cit. p, 210.

٢١٣- أحمد الخشاب : التفكير الاجتماعى، دراسة تكاملية فى النظرية الاجتماعية. ص ص ٥٩٢-٥٩٣.

٢١٤- نيقولا تيماشيف : مرجع سابق. ص ١٨٣.

215. Mc-Quilkin De Grange : Op, Cit. p, 109.

216. T. Parsons : Durkheim Contribution to the theory of integration of Social Systems. p, 138.

٢١٧- نيقولا تيماشيف : مرجع سابق. ص ٤١٥.

٢١٨- أحمد الخشاب : مرجع سابق، ص ٦٠٥.

and See also. Don Martinddale : Op. Cit. p, 14.

٢١٩- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع . ص ٦.

220. R. Nisbet : The Sociology of Emile Durkheim. p, 56.

221. Ibid. p, 68.

222. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 237.

223. e. A. Tiryakian : Op, Cit. p, 155.

224. Pierce, Albert : Durkheim and Functionalism in Kurt wolf (ed) : Emile Durkheim. 1858-1917. p, 165.

225. T. Parson : The Structure of Social Action. p, 354.

226. Ibid. p, 455.

227. Ibid. p. 385.

٢٢٨- زكريا ابراهيم : مشكلة الانسان . مكتبة مصر . سلسلة مشكلات فلسفية، ١٩٦٧، الطبعة الثانية، ص ١٧٠.

229. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 315.

230. Ibid. p, 337.

231. Ibid. p, 338.

232. E. A. Tiryakian : Op, Cit. pp, 25-26.

233. Ibid. p, 71.

234. Durkheim : Moral Education. Trans By : E. K. Wilson. and H. Schrurer. New York. The Free Press. 1961. pp, 67-68.

٢٣٥- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع : ص ص ٢٠-٣١.

236. E. Durkheim : Suicide, A Study in Sociology. p, 229.

٢٣٧- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع : ص ٢.

٢٣٨- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع : ص ٢.

٢٣٩- نفس المرجع : ص ٣.

240. R. Tucker : Op, Cit. p, 73.

٢٤١- اميل دوركيم : قواعد المنهج فى علم الاجتماع. ص ٤٢٢.

242. E. Durkheim : Elementary Forms of the religious Life pp, 239-298. and See also. R. Aron : Op, Cit. pp, 63-64.

243. T. Parsons : The Structur of Social Action. p, 319.

244. E. A. Tiryakian : Op, Cit. p, 23.

245. Ibid. pp, 385-386.

246. e. Durkheim : The division of Labor in Society. pp. 85-86.

247. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 352.

248. Irving Zeitlin : Op, Cit, p, 236.

249. K. Durkheim : The division of Labor in Society. pp. 267-268.

250. Ibid. p, 269.

251. Ibid. p, 325.

252. Ibid. p, 356.

253. e. Durkheim : Moral Education. pp, 38-40.

254. e. Durkheim : The division of Labor in Society. p, 345.

255. A. Giddens : Capitalism and Modern Social theory . p, 95.

256. Irving Zeitlin : Op, Cit, p, 24.

257. E. A. Tiryakian : Op, Cit. p, 31.

258. Don Martindale : Op, Cit. pp, 88-89.

259. e. A. Iiryakian : Op, Cit. p, 31.

260. E. Durkheim : The division of Labor in Society. p, 336

261. E. A. Tiryakian : Op, Cit. p, 32.

262. E. Durkheim : Moral Education. p, 73.

263. E. Durkheim : Sociology and Philosophy. p, 72.

264. Ibid. p, 53.

# الباب الرابع

# نظرية ماكس فيبر
# والبحث المضاد فى أصل الرأسمالية المعاصرة

## المحتويات

## تمهيد

يعتبر ماكس فيبر من علماء الاجتماع الذين قدموا تطويراً حقيقياً لهذا العلم على المستوى النظرى والمنهجى على السواء . الأمر الذى جعل التنظير الفيبرى مازال مؤثراً حتى الآن ، وله وطأته على أفكار كثير من علماء الاجتماع .

وتكمن عبقرية ماكس فيبر فى أنه قد حاول جمع الخيوط المتناقضة فى نسيج واحد أكثر اكتمالا وقوة . فعلى المستوى المنهجى نجد ان ماكس فيبر قد حاول أن يجمع معاً وجهة النظر التى تؤكد على الادراك الموضوعى للواقعة الاجتماعية ، ومع وجهة النظر التى تؤكد على ضرورة إدراكها ادراكا ذاتيا . أن يجمع معاً الاتجاه الواضعى الذى يرى ادراك الواقعية الاجتماعية من خلال مؤشراتها الخارجية ، التى تشير الى طبيعتها الأساسية وبين الاتجاه المثالى الذى يرى ضرورة ادراك معنى الواقعة الاجتماعية بالنسبة للانسان المشارك ، وليس الباحث الذى يقوم بدراسة الظاهرة ومحاولة فهمها وتحليلها . واذا كانت الوضعية قد أكدت على السببية التى تربط الوقائع الاجتماعية ببعضها البعض ، فقد حاول فيبر أن يكمل هذه السببية الخارجية ، بإدراك الواقعة من الداخل ، أى بالتعرف على معناها .

ويتصل بذلك على المستوى العينى ان ماكس فيبر يعتبر هو الباحث السوسيولوجى الذى أكد أن الواقعة الاجتماعية يمكن ان يسببها أكثر من عامل أو متغير واحد . وأن الواقعى تنتمى فى العادة لجمع من المتغيرات .

ولتأكيد ذلك نجده يذهب الى القول بأنه اذا كانت الماركسية قد أكدت على المتغيرات الاقتصادية باعتبارها المتغيرات المسئولة عن ظهور الرأسمالى ، فإنه من الممكن نسبة ظهور الرأسمالية الى مجموعة من القيم الدينية ذات الطبيعة التطهيرية والتى انطلقت من البروتستنتية بالأساس . وعلى هذا النحو فلم يكن هدف فيبر التأكيد على العالم الدين فى مواجهة العامل الاقتصادى عند ماركس ، بقدر ماكان هدفه الأساسى يتمثل فى التأكيد على امكانية تعدد المتغيرات المسببة للظاهرة أو الواقعة الاجتماعية .

ومن مظاهر الالتقاء التى صاغها فيبر أيضا بين العناصر المتناقضة هو ذلك التأليف بين الباحث الانسان فى المجتمع الذى توجه سلوكياته بأخلاق الاعتقاد ، وبين الانسان السياسى الذى توجهه اخلاق المسئولية ، واذا كانت النظريات الوضعية قد أكدت على انفصال النموذجين عن بعضهما ، فقد أكد فيبر على احتمالية اجتماعهما فى انسان واحد ، السياسى العالم الذى يستطيع ان يلعب دور مستشار الأمير ، وهو الدور الذى كان يطمح اليه ماكس فيبر .

كذلك تلمس مظاهر جمع المتناقضات فى كل متكامل من خلال حديث فيبر عن نماذج السلطة ، وكيف يمكن أن تتحول السلطة الكارزمية الى سلطة منظمة ثم سلطة تقليدية ، حيث رأى انه من الممكن أن تشكل هذه الأنماط الثلاثة مراحل متعاقبة لسلطة واحدة . وهو الأمر الذى نجده كذلك فى الأفعال والسلوكيات البشرية ، التى يأتيها الفاعل فى السياق الاجتماعى .

ويرتبط بذلك قدرة ماكس فيبر العبقرية فى تحليل الظاهرة الاجتماعية على مستويات متباينة للغاية ، فقد كان باستطاعته أن يمارس التحليل العلمى لأى ظاهرة من الظواهر الاجتماعية على مستوى الخطوط العامة والشاملة ، وفى ذات الوقت كانت لديه امكانية على تحليل أى واقعة اجتماعية على مستوى التفاصيل الجزئية الدقيقة ، مع قدرة فذه على خلق روابط وعلاقات عضوية بين مستويى التحليل .

ولعل هذه القدرة على جمع المتناقضات فى كل واحد ومتكامل ترجع من ناحية الى العبقرية الفذة لماكس فيبر ، وترجع فى ذات الوقت الى ان موقفه الفكرى كان دائماً فى المنطقة الواقعة بين الفلسفة الوضعية والفلسفة المثالية ، حيث كان لديه ميل حاد وثاقب لجمع القضايا التى تنتمى لهذين التيارين والتأليف بينها فى كل واحد ومتكامل ، وهو الأمر الذى نعرض لبعض أبعاده فى الفصول الثلاث التالية .

# الفصل العاشر

# نظرية ماكس فيبر
# السياق الفكرى والواقعى

## المحتويات

**مقدمة**

أثرت مكانة ماكس فيبر على خريطة علم الاجتماع على طبيعة القضايا التى اختار معالجتها ، وكذلك على طريقة أو أسلوب المعالجة . فقد بدأ فيبر يحتل مكانته فى ظل اتجاهات نظرية بعضها له طابعه الفلسفى المجرد غير الملتزم بتفاصيل الحياة الواقعية ، بينما اقترب البعض الآخر من الواقع فى محاولة دراسته وإعادة تنظيم معطياته للوصول الى مجموعة من القضايا والتعميمات النظرية العامة .

فقد نشأ ماكس فيبر من ناحية فى ظل الفلسفة المثالية وتعرض لتأثير أفكارها . فأخذ عنها تأكيده على الأفكار والقيم والثقافة عموما باعتبارها المتغيرات المؤثرة فى الواقع الاجتماعى ، وتحت تأثيرها كذلك أكد ان ادراك الجوهر أو المعنى هو المدخل الحقيقى لتحديد طبيعة الواقعة . وهو قد تعرض لتأثير الفلسفة الوجودية ، فأخذ عنها تأكيده على الانسان والارادة الانسانية وفاعليتها فى تأسيس الواقع الاجتماعى وتحديد طبيعته . وهو قد أكد – تحت تأثير الوضعية – على العلاقات السببية بين الظواهر الاجتماعية ، وأيضا على ضرورة الوصول الى القوانين التى تحكم اطراد هذه الظواهر فى استقرارها وتغيرها .

على خلاف ذلك تفاعل ماكس فيبر مع النظرية الماركسية حول طبيعة المتغيرات الحاكمة للواقع الاجتماعى ، وأيضا حول طبيعة النظام الرأسمالى . كذلك تعرض لكثير من القضايا التى تعرض لها إميل دوركيم ، كقضية الحتمية الاجتماعية ، وادراك الوقائع الاجتماعية من الخارج والتحيز القيمى ، وتشيئ الحقيقة الاجتماعية .

وقد قدم ماكس فيبر وجهة نظر محددة بشأن مختلف القضايا التى أثارتها الاتجاهات النظرية التى حاورها أو تعرض لتأثيرها . بحيث طور فى النهاية موقفا نظرياً وان كانت له علاقته بهذه الاتجاهات النظرية إلا أنه امتلك استقلاله وطابعه الخاص .

**أولا : ماكس فيبر ، هويته واهتماماته .**

تميز الاطار النظرى لماكس فيبر بطبيعته الشاملة ، فقد كان ماكس فيبر من الطراز الذى يتناول بالتحليل فكرة بسيطة ، ويستنتج منها حتى أقصى استقطاباتها . وقد كان يتوقف فى تحليلاته عند مستوى الخطوط العامة الشاملة ، ناظرا بنوع من الازدراء الى التفاصيل الدقيقة التى قد تهتم بها أية دراسة واقعية . ومن ثم فغالبا ماننظر اليه كفيلسوف ومنظر ، كما يدعي

ناقدوه ، حيث كان يعمل دائما على – حد قولهم – على تطويع الحقائق حتى توافق فرضياته النظرية .

في مواجهة ذلك نجد من يؤكد قدرة ماكس فيبر على صياغة أفكاره بطريقة واضحة للغاية ، وبخاصة حينما تتعلق بقضية خلافية . بل ان أى باحث يتعرض لقراءته سوف يدهش من حجم المادة التاريخية المفصلة ، تلك التى كان له القدرة على استيعابها ، وأيضا لتنوع المجالات الفكرية التى كان قادرا على تغطيتها . ذلك يؤكد ان ماكس فيبر كان يمتلك عقلية موسوعية من النادر أن نجد نصيرا لها فى العصر الحديث (١) .

ونستطيع أن نؤكد ان ماكس فيبر يعتبر بحق أكثر العلماء الاجتماعيين تأثيرا فى النصف الأول من القرن العشرين . حيث شكلت أفكاره نقطة بدء لكثير من علماء الاجتماع المعاصرين ، نذكر من بينهم كارل مانهايم K.Mannheim ، هانز سبير Hans Speir ، هانز جيرت Hans Gerth ، تالكوت بارسونز T.Parsons ، روبرت ميرتون R.K.Merton ، و سى . رايت ميلز C.Wright Mills ، وكثيرين غيرهم . بل ان كثيرا من القضايا التى مازالت الآن موضع تناول تعتبر استمرارية لبداية أسسها ماكس فيبر . من ذلك نظريته فى التدرج الاجتماعى ، ودراساته فى البيروقراطية والتنظيمات الاجتماعية الكبيرة ، كذا دراساته فى السلطة الشرعية وعلم الاجتماع القانونى ، والسياسى ، والدينى ، وعلم اجتماع الموسيقى (٢) .

وبرغم الاطار السياسى الذى عاش فيبر فى نطاقه ، حيث ولد الأب ليبرالى يتبع الحزب الليبرالى القومى من حيث انتماؤه السياسى (٣) ، فاننا نجد لديه ميلا نحو الاهتمام بالنواحى العلمية بدرجة تفوق اهتماماته السياسية . أما فيما يتعلق بتدرجه المهنى فنجد انه قد عين محاضرا للقانون بجامعة برلين أولا ، ثم أصبح استاذا للاقتصاد بجامعة فرايبرج Freiburg ثم استاذا لكرسى الاقتصاد بجامعة هيدلبرج Heidelberg حيث خلف الاقتصادى الشهير كينز Herl Knies . وفى عام ١٩٠٠ نجده قد عانى من انهيار عصبى استمر حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، حيث شفى منه ثم استمر فى مزاولة نشاطه المهنى (٤) .

ولقد أثرت ملامح الحياة هذه ، سواء مايتعلق بخلفيته السياسية أو بتفكيره الموسوعى على طبيعة انتقائه لقضاياه موضع الاهتمام والدراسة . اذ يلاحظ تميز القضايا موضع اهتمامه بقدر من التنوع من حيث كونها ذات طابع سياسى أو علمى ، أو تقع على مستويات عينيه أو منهجية ، هذا بالاضافة الى انتماء هذه القضايا لنطاقات فكرية عديدة كفلسفة المعرفة

، والتاريخ الاقتصادى ، والتاريخ الدينى ، وعلم الاجتماع السياسى . وذلك الى جانب تميز هذه القضايا بكونها خلافية ، أو معضلة ، طرحتها النظرية السوسيولوجية دونما ان تطرح اجابات لها ، وقد كانت هذه هى مهمة فيبر فى كثير من الاحيان . ولتوضيح ذلك نعرض أمثلة لهذه القضايا .

وتتعلق أول هذه القضايا بمكانة العلوم الانسانية - التى سميت أحيانا بالعلوم التاريخية ، وأحيانا أخرى بالعلوم الاجتماعية ، وأحيانا ثالثة بالعلوم العقلية أو العلوم الثقافية - بين العلوم - حيث شكلت هذه القضية موضعا خلافيا فى اطار مختلف النظم العقلية لهذه المرحلة . ففى الاقتصاد قام خلاف بين شمولر Schmoller ومنجر Menger . وفى نطاق التاريخ قام الخلاف بين لامبرشت Lamprecht وماير E.Meyer وفون بيلوف Von Belov وفوسلر Vossler . أما بين الفلاسفة فقد شارك كل من دلتاى Dilthey ، وفندلباند Windelband وركرت Rickert فى هذا الخلاف . خلاصة القول فيما يتعلق بهذه القضية أدرك فيبر ان الوضعية رأت ضرورة اتحاد هذه العلوم الطبيعية بينما رأت المثالية ضرورة ان تتمتع هذه العلوم بنوع من الاستقلال الخاص (٥) .

فى مواجهة هذه القضية حاول فيبر أن يصوغ تآلفا انتقائيا يحاول فى اطاره المزاوجة بين الكانتية والكانتية المحدثة من ناحية وبين المثالية والمثالية المحدثة من ناحية أخرى . بل اننا نجده بالتحديد يحاول ان يؤلف بين وجهتى نظر ركرت ودلتاى فى هذه الصدد . فبينما ذهب الأخير الى ضرورة الفصل الحاد بين العلوم الطبيعية والعلوم الثقافية ، وذلك ان التفكير الانسانى فى كل منهما له طبيعته ومنهجه . اذ تتناول العلوم الطبيعية الحقائق ، ومن ثم يتخذ تفكيرها طابع التفسير Explanation غير ان العلوم الثقافية تعالج المعانى ويتخذ تفكيرها طابع الفهم Understanding . وبينما يهدف التفسير الى تأسيس القوانين السببية ويقترب من موضوع بحثه من الخارج نجد ان الفهم يحاول وصل معنى بمعنى آخر يتعلق بذات الموضوع ، بل أننا نجده يستوعب موضوعه مباشرة من خلال الحدس . فى المقابل نجد ركرت - وهو الكانتى المحدث - يتخذ موقفا مختلفا فيما يتعلق بتصنيف العلوم . اذ نجده يؤكد ان مجال العالم هو تفسير الظواهر سواء تعلقت بالعالم الانسانى أو الطبيعى ، فالظواهر ظواهر والعلم علم . وهو يعتقد ان الخلاف ينبغى أن يكون بين التاريخ والعلم . ذلك ان العلم هو تحليل الطبيعة بالنظر الى القوانين السببية ، بينما التاريخ هو تحليل الطبيعة كنمط لاحداث مفردة ، وبينما تعتبر القوانين أكثر المفاهيم دقة فى العلم ، نجد ان تنوع القيم وفرديتها من أهم تصورات

التاريخ جوهرية (٦) . بالنظر الى هذين الموقفين نجد أن فيبر يتخذ موقفا انتقائيا فيه من المثالية وفيه من الوضعية . فعلم الاجتماع - لديه - من حيث منهجيته ومن حيث طبيعة ادراكه ، له ملامحه المحددة ومستوياته فى التجريد التى تؤكد اهتمامه بادراك العلاقات السببية بين الظواهر ، إلا أن هذا لا ينفى ان ادراك معنى الظاهرة يخلع عليها معنى انسانيا خاصا قد لا يتوفر لظواهر الطبيعة الأخرى .

أما القضية الخلافية الثانية التى واجهها ماكس فيبر فتتعلق بطبيعة الدور الذى ينبغى على عالم الاجتماع القيام به . فلقد رأت المثالية المحدثة ان العالم الذى نعيشه ينبغى أن يكون مجالات للنشاط والعمل ، بينما ترى الكانتية المحدثة ان العالم ليس إلا موضوعا للمعرفة ، الأولى تؤكد ان العلم هو السياسة وهو الفن أو النظرية القادرة على احداث تغييرات محددة فيه ، بينما ترى الثانية ان العلم ينبغى ان يحقق امكاناته التفسيرية محررا من أحكام القيمة ومن التفصيلات الشخصية (٧) . وبالنظر الى اهتمامات فيبر الشخصية ورغبته الدائمة فى ان يلعب دورا سياسيا أو يؤدى دور مستشار الأمير على مايذهب ريمون آرون ، وأيضا بالنظر الى اهتماماته العلمية نجده يهتم دائما بالشروط التى يمكن آن يكون بها العلم التاريخى أو السوسيولوجى موضوعيا ، هذا الى جانب الشروط التى يمكن أن يكون فيها الفعل السياسى ملائما (٨) .

ويؤكد ريمون آرون ان استكشاف فيبر الدؤوب لماهية النموذج المثالى للرجل السياسى ؟ والنموذج المثالى للعالم ؟ وكيف يمكن أن يكون الانسان استاذا وسياسيا فى ذات الوقت ، كان استكشافا شخصيا بقدر ماكان فلسفيا (٩) . ولقد انعكس هذا التأرجح فى موقفه ورؤيته لطبيعة السلوك الإجتماعي من حيث مجالاته الأساسية وضوابطه . اذ نجده يؤكد ان هناك مدخلين لادراك السلوك . الأول سياسى ، وفى اطاره نجده يحاول توضيح مايمكن ان يسمى بتناقض الشرعيات الحاكمة للسلوك ، أما المدخل الثانى فهو علمي حيث يحاول الباحث فى اطاره ادراك مختلف الاتجاهات الدينية ومدى تأثيرها على سلوك الانسان ، وبخاصة سلوكه الاقتصادى .

ويرجع ماكس فيبر تعدد مداخل ادراك الفعل الى عدم ادراك التناقض فى طبيعة الأخلاق الموجهة للسلوك . فى اطار ذلك نجده يفارق بين أخلاق المسئولية Morality of Responsibility وأخلاق الاعتقاد Morality of Convictions احداهما تمثل امتدادا لفلسفة ميكيافيللى والثانية ترجع أصولها لكانت . أما الأولى - أخلاق المسئولية - فتتكون من تصور

الانسان لنفسه فى المجتمع وتخيله لأية نتائج مترتبة على أية قرارات قد يصدرها . من هنا نجده يحاول ان يعدل من نسيج الأحداث أو تتابعاتها ، بحيث انه قد ينجز عملا يساعد به تحقيق نتائج أو متتاليات معينة مرغوب فيها . ويؤكد فيبر ان الانسان فى هذا النطاق لايتورع عن خداع الآخرين لتحقيق غاية معينة تتعلق بالوجود الأساسى للجماعة ، وفى هذا الاطار غالبا ماكان يستخدم مثال الانسان الذى صاغه ميكيافيللى ، والذى قد يضحى بروحه من أجل انقاذ المدينة . ذلك يعنى ان هناك أخلاقيات عليا تتجاوز أخلاق الانسان العادى وهى تحكم فى العادة أعمال رجل الدولة . فأخلاق المسئولية تتميز بكونها تبحث عن الفاعلية ، أو الوسيلة الملائمة لتحقيق الهدف ، ويصبح ذلك هو المعيار الوحيد للموافقة عليها (١٠) . أما أخلاق الاعتقاد فتختلف عن أخلاق المسئولية فى أنها التى تدفع الفاعل للتصرف وفقا لمشاعره ومقتضيات ضميره ، دونما اعتبار للمتتاليات الكامنة أو الصريحة ، قد يعارض الفرد الجماعة ، غير ان سلوكه هذا يظل جوهريا من حيث كونه يعبر عن ضميره وقناعاته الأساسية (١١) .

ويكشف تحليل المايزة بين نمطى الأخلاق اللذين طرحهما فيبر كموجهات للفعل عن ثلاثة ملاحظات أساسية . الأولى أن أخلاق المسئولية تذكرنا الى حد كبير بأفكار روسو عن الارادة العامة باعتبار ان الحاكم يعبر عن ارادة عليا وأخلاقيات وقناعات قد تتجاوز قناعاته الفردية وضميره الخاص . غير أن ذلك يختلط ببعض الملامح العقلانية التى تميز الموقف النفعى ، حيث يتميز السلوك الاجتماعى والممارسات السياسية لديه بأخلاقيات ذات طابع فردى تكتسب الوسيلة فى اطارها مشروعيتها ليس من طابعها الأخلاقى ولكن من قدرتها على تحقيق الغاية . أما الملاحظة الثانية فتتمثل فى ان المقابلة بين أخلاق المسئولية وأخلاق الاعتقاد كموجهات للسلوك تعيد اثارة قضية موجودة فعلا تتعلق بمصدر السلوك والأخلاق الجمعية . هل الانسان بضميره الفردى هو الذى يخلق الجماعة كامتداد لأخلاقه الفردية ، أم ان الضمائر والأخلاقيات الفردية ماهى إلا انعكاس لأخلاق مجتمعية عليا ، سابقة عليها ، وهى التى تتولى خلقها . أما الملاحظة الثالثة فنؤيد فى اطارها ريمون آرون حينما ينتقد الفصل بين أخلاق المسئولية وأخلاق الاعتقاد . مؤكدا أن أخلاق المسئولية غالبا ماتكون ملهمة بأخلاق الاعتقاد ، مادامت الأولى تهتم بالسلوك الذى يمتلك الفاعلية ، بينما تركز الثانية على النمط المثالى الذى يظل السلوك فى اطاره معقولا (١٢) .

وتعتبر قضية الضبط والنظام الاجتماعى المجال الثالث الذى يشكل اهتمام ماكس فيبر . فى اطار هذه القضية نجد وجهة النظر التى تؤكد على الانسان الاجتماعى كخالق للمجتمع ،

بينما تناقضها وجهة نظر أخرى تنطلق من متضمنات النظام الاجتماعى ، حيث تنظر الى الانسان كنتيجة للمجتمع . ويؤكد فيبر أن الاهتمام بقضية الضبط يدفع الى الاهتمام بتأسيس علم اجتماع التفاعل الاجتماعى ( فى مواجهة علم الاجتماع الذى يهتم بالنسق الاجتماعى ) . وفى اطار علم اجتماع السلوك نجد ان الانسان وهو يتفاعل مع الآخرين فى محاولته السيطرة على السلوك فانه يفرض المعانى والتحديدات المتعلقة بالفعل على الموقف التى تضمه والآخرين . وبذلك فان تصور النسق الاجتماعى كنتيجة للتفاعل يتحدد بالنظر الى علاقات الضبط بين المشاركين فى اطاره (١٣) . من هنا تعتبر قضية الضبط ذات أهمية جوهرية بالنسبة لماكس فيبر ، ويتضح ذلك من اهتمامه الشامل بهذه القضية ، وخاصة حينما يتحدث عن البيروقراطية كظاهرة أو خاصية تسود بشكل شامل مختلف جوانب الحياة الحديثة (١٤) . ولأن ماكس فيبر كان يؤكد دائما على اعتبار النظام أو النسق الاجتماعى نتيجة للوجود الفردى الفاعل والمتفاعل ، فانه لكى يحافظ على هذا الوجود حياته وحيويته كان عليه أن يؤكد على قضية الضبط بشكل عام والبيروقراطية بوجه خاص ، وذلك باعتبارهما آليات تحافظ على تساوق مجموع الأفعال الفردية بحيث يخلق تداخلها وجودا مجتمعيا شاملا .

وتقع القضية الرابعة على المستوى المنهجى من تحليلاته ، وتتعلق أساس بمدى موضوعية التعبير عن الحقيقة الواقعية . فى اطار ذلك نجد أن لفيبر عددا من التحفظات على كل من الموقف المثالى والوضعى فى هذا الصدد . غير أننا نجده يجنح نحو الموقف الوضعى حينما يؤكد ان الظواهر الاجتماعية هى كذلك مثلما تبدو لنا من وجهة نظر معينة ، أى أنها تعبر عن أحد جوانب الحقيقة فقط ، ذلك لأن الباحث فى ادراكه للحقيقة يخار عناصرها المكونة أو المؤكدة لرؤيته من بين عناصر كثيرة . وبذلك فاننا نجده يعلن وجهة نظر أكدها ميردال فيما بعد ، حينما أكد اننا يمكن ان نحقق قدرا عاليا من الموضوعية اذا نحن أعلنا بوضوح عن موقفنا النظرى والقيمى (١٥) . بالاضافة الى ذلك يؤكد فيبر ان الرؤية العلمية تظل ناقصة دائما مادامت الحقيقة الواقعية لانهائية . وفى هذا الصدد نجده يرفض الرأى القائل بان العلم قادر على ادراك جوهر الظواهر من أجل تنظيمها فى اطار نسق عام قد يعتبر انعكاسا أمينا للحقيقة ، لأن الأخيرة لانهائية بطبيعتها ، بل أنه من المستحيل وجود مفهوم قادر على التعبير عن النوع الذى لانهاية له فيما يتعلق بالظواهر موضع الاهتمام . ومن ثم فمعرفتنا بالحقيقة تظل افتراضية دائما . ومن هنا يصبح النموذج المثالى ليس إلا أسلوبا أو مثالا للانتقاء على المؤرخ أو عالم الاجتماع أن يؤسسه وينجز بحثه وفقا له ، مادام كلاهما يقترب من الحقيقة من جهة نظر معينة تتحتم أساسا بواسطة توجيهاته القيمية (١٦) .

ماسبق يشكل مجموعة القضايا المنهجية موضع اهتمام السياق الفكرى فى الفترة التى عايشها ماكس فيبر ، ومن ثم فقد شكلت الإطار الذى تحققت فيه اسهاماته المنهجية التى يمكن تنظيمها فى اطار أربعة مجالات أساسية .

١ - دراساته المنهجية والفلسفية والنقدية ، وهى دراسات تتعلق أساسا بالعلوم الاجتماعية والتاريخ وعلم الاجتماع . وتتميز هذه الدراسات بأنها ذات طابع فلسفى ومعرفى تتناول مقولات مثل وضع الانسان فى التاريخ ، والعلاقات بين العلم والسلوك الانسانى . وهى مضمنه فى مؤلفاته المتعلقة بدراسات النظرية والعم .

٢ - انجازاته التاريخية ، كدراسة علاقات الانتاج فى زراعة العالم القديم ، والتاريخ الاقتصادى العام بالاضافة الى بعض الدراسات الخاصة ببعض القضايا الاقتصادية فى كل من أوربا عامة وألمانيا خاصة ، أو بالعلاقة بين الفلاحين البولنديين والطبقات الألمانية الحاكمة .

٣ - دراساته فى علم الاجتماع الدينى ، تلك التى بدأت بدراسته عن العلاقة بين الأخلاق البروتستنتية وروح الرأسمالية . ثم تحليلاته المقارنة للديانات الكبرى وطبيعة علاقة التأثير المتبادل بين الظروف الاقتصادية والمواقف الاجتماعية من ناحية وبين العقائد الدينية من ناحية أخرى .

٤ - دراساته فى اطار علم الاجتماع العام ، وتشكل دراساته الأساسية ، وقد قام بانجازها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فى أعقاب شفائه ، وتقع فى اطار علم الاجتماع العام ويضمها مؤلفه الاقتصاد والمجتمع (١٧) .

## ثانيا : ماكس فيبر والحوار مع المثالية والوضعية .

كان للأنساق الفلسفية التى شهدت مولد النظرية السوسيولوجية وطأتها على تفكير ماكس فيبر . حيث تعرض لذات القضايا التى كانت موضعا للحوار خلال هذه الفترة ، وهى تلك المتعلقة بتصنيف العلوم أو المنهج الملائم لادراك الحقيقة موضع الاهتمام ، ثم مدى اكتمال الألمام بهذه الحقيقة ، وماهى طبيعة المعرفة الناتجة عن ادراكنا لها . وفى حواره مع هذه الأنساق الفلسفية نجده يرفض المواقف الاستقطابية ذات الطابع الدوجماطيقى ، ومن ثم فقد أدرك أن جهده يقع أساسا فى النطاق المعتدل لأفكار كل من هذه الأنساق محاولا بذلك تأسيس منهج عقلانى ملائم لادراك الحقيقة الاجتماعية بكفاءة تشهد بتوفير الفهم المتكامل لأكثر

عناصرها جوهرية . وفى اطار عملية الحوار الانتقائى لأفكار كل من هذه الأنساق النظرية نجد أن له اتفاقاته واختلافاته على عدة مستويات .

وفيما يتعلق بالمثالية نجده يوافق منذ البداية على الفصل الحاد الذى أسسه كانت بين الحقائق والقيم . فالقيم ليست حقائق واقعية ملموسة ولا هى عناصر ترنسندنتالية ، ثم يذهب الى ان القيم عادة ماتخلقها قرارات بشرية تختلف نوعيا عن الاجراءات التى يدرك من خلالها العقل واقعه تأسيسا للصدق . قد يكون الصدق قيمة فى ذاته - على ماتذهب الكانتية المحدثة - غير انه ينبغى أن يكون واضحا ان ثمة خلافا أساسيا بين نظام العلم ونظام القيم ، فجوهر الأول يتمثل فى تعريض الحقائق للعقل والأسباب والبراهين ، بينما يكمن جوهر الثانى فى التأكيد على الاختيار الحر (١٨) . فليس ثمة انسان مفروض عليه ان يوافق على قيمة لايعتقد فيها عن طريق البرهنة . ولتوضيح ذلك نعرض لطبيعة حواره مع اثنين من مفكرى النزعة المثالية احدهما كارل يسبرز الذى ينتمى الى الجناح الفلسفى فى فرضياته الوجودية . أما الآخر وهو زيمل فينتمى الى المثالية السوسيولوجية . أما فيما يتعلق بعلاقته بكارل يسبرز Karl Juspers فنجده يأخذ عنه فكرة الفهم Comprehension التى أدت دورا هاما لديه . اذ يكمن جوهر علم النفس المرضى عند يسبرز فى الفصل بين التفسير والفهم . اذ يتفهم المحلل النفسى الحلم ، أو العلاقة بين خبرة معينة فى الطفولة وبين نشأة المرضى العصبى . ذلك يعنى - على مايذهب يسبرز - وجود نوع من الفهم المباشر للمعانى فى المستوى الأول للشعور . وبذلك يمكن القول بأن السلوكيات يمكن فهمها فى اطار سياقات معينة ، أما فيما وراء هذه السياقات فان العلاقة بين حالة المريض العقلية وبين حالته الفيزيقية أو النفسية لايمكن ادراكها . استنادا الى ذلك يؤسس فيبر أفكارٌ المتعلقة بتشكل السلوك الاجتماعى لنطاق شامل يمكن ادراك طبيعته بتفهم مناظر للتفهم الذى يحققه عالم النفس بالنسبة لسلوك الآخرين أو حالتهم العقلية . ومن هنا يحذر فيبر من ضرورة الوعى بعدم اختلاط التفهم السوسيولوجى بالتفهم السيكولوجى (١٩) .

أما علاقة ماكس فيبر بجورج زيمل فترجع الى اهتمام الأخير بصياغة بناءات صورية تماثل الى حد كبير من وجهة نظر البعض النماذج المثالية التى تولى ماكس فيبر صياغتها . ففى انتقال فيبر من الحديث عن الفعل والتفهم Verstehen الى الحديث عن العلاقات الاجتماعية . حدث انتقال مماثل فى منظور فيبر كان له دور جوهرى فى نسقه الفكرى . ذلك ان فيبر لم يعد يركز على مضمون الفعل البشرى كما يبدو لفهم الفاعل الذاتى . وانما أصبح

يتحدث عن أشكال الحياة الاجتماعية ، وهو مادفعه الى الساحة التى شكلت نطاق الاسهام الرئيسى لجورج زيمل . فى اطار ذلك نجد أن فيبر يرفض تصور زيمل لعلم الاجتماع الصورى كما يراه الأخير ، بل انه يرسخ اختلافه معه حينما يذهب الى ان فكرة التفهم ذاتها ترتكز على الاهتمام بمضمون السلوك وليس على بنائه الشكلى (٢٠) . ومع ذلك يذهب تنبرك Tenbruck فى مقال له عن المفاهيم الصورية لجورج زيمل الى القول بأن فيبر وزيمل يشتركان فى تأسيس مشروع نظرى متماثل ، فالأشكال الصورية عند زيمل شبيهة بالنماذج المثالية لدى فيبر . بل اننا أحيانا مانجد فيبر يتحدث عن الأشكال الاجتماعية منفصلة بذات أسلوب التحليل الذى يستخدمه زيمل . بل ان مجالات الاهتمام والتحليل التى اختارها فيبر هى ذاتها التى بدأ بها زيمل . وما يبدو أن فيبر قد كشف عنه فى هذا الاتجاه يتصل بأن اتجاه الانسان وتوجيهه نحو الآخر يعتمد أساسا على الجوانب الصورية للسلوك وعلى العلاقة التى له بالآخر . ويؤكد فيبر انه بدون الاستغراق فى المفرد الواقعى التاريخى فان على عالم الاجتماع ان ينجز جهدا يتعلق بتأسيس النماذج Models الخاصة بالأشكال الاجتماعية ذات الصلة بالعلاقات الاجتماعية أو ببناء الجماعة (٢١) . غير انه برغم ان تأسيس النماذج المثالية يتم بالنظر الى انتقاء عدد محدود من عناصر الكلية موضع البحث فانه ليس من الضرورى ان تكون هذه العناصر من حيث انتقاؤها أو تأسيسها فى بناء النموذج المثالى ذات طابع صورى ، بل أن من أهم مقاصد فيبر فى هذا الصدد ألا تكون النماذج المثالية ذات طابع صورى .

بالاضافة الى ذلك فان لفيبر اتفاقاته واختلافاته مع بعض الأفكار المثالية . ففيما يتعلق بتصنيف العلوم الذى صاغته المثالية نجد ان فيبر لايتفق معها فى اختلاف العلوم الطبيعية عن العلوم الثقافية باعتبار ان المنهج فى الأخيرة له طبيعته المباشرة بينما فى الأولى له طبيعته غير المباشرة . من هنا نجده يؤكد امكانية أن يكون للحدس دور فى كل من العلوم الطبيعية والثقافية على السواء . ومن ثم فالادراك المباشر فى العلوم الثقافية ليس أكثر منه فى العلوم الطبيعية . ثم يصعد خلافه على هذه الجبهة حينما يؤكد ان دور العلم يكتمل فى مجال المعطيات الثقافية حينما يتمكن من تأسيس الارتباطات السببية (٢٢) . ومع ذلك فهو يتفق مع المثالية فيما يتعلق بادراك المعنى كدور أساسى بالنسبة للعلوم الثقافية . فهدف العلوم الثقافية هو أن تدرك المعنى المتصل بادراك مضمون العلاقات . ثم يذهب الى ان علاقات المعنى هى تلك التى تكشفها بين الدوافع والتصرفات Acts أو بين الوسائل والغايات . وهى على هذا النحو تتضح فى سلوكنا ،

وان على علم الاجتماع التفسيرى أن يكشف عنها فى سلوك الآخرين كما يكشف عنها فى سلوكنا نحن (٢٣) . ويتأكد ارتباط فيبر بالموقف المثالى حينما يؤكد - متفقا فى ذلك مع دلتاى - ان معنى الواقعة لايتطابق مع القوانين التى تحكمها ، فالأولى تتعلق بالفرد بينما يرتبط الأخير ، الى حد كبير بالاطراد . ومن هنا فكلما كان القانون عاما ، كان أقل انطباقا (٢٤) . ثم يؤكد ان تفسير الأحداث أو الوقائع سوف يصبح كافيا من الناحية السببية ، طالما ان ثمة احتمالية فى دوام حدوثها بنفس الأسلوب ، الذى يحدده التعميم المؤسس من خلال التجربة (٢٥) .

تبقى مسألة هامة وأخيرة كان لفيبر مع المثالية فى اطارها اتفاق كبير ، اذ نجده يقف الى جانب المثالية فى تأكيدها على أن الموضوع الأساسى للعلوم الثقافية ينبغى أن يكون الروح الانسانية ، هذه الروح التى تخضع لعملية مستمرة من التطور والتفسير وهى العملية التى ينظر اليها المثاليون على أنها ذات طابع خلاق أساسا (٢٦) . وان كان هيجل قد جعل من الروح المطلقة أو العقل الشامل أو الله أساسا لهذا العالم ، تحكم حركته وثباته وتطوره نحو الاكتمال بحيث يتحقق كمال الانسان اذا جسدت الروح نفسها فى الواقع الانسانى . فاننا نجد ان ماكس فيبر قد انتقلت اليه هذه الفكرة بكامل ملامحها ، ففى دراسته لعلاقة البروتستنتية بنشأة الرأسمالية ، نجده يؤكد ان النظام الرأسمالى حينما يرتبط بالروح الرأسمالية نكون بازاء موقف رأسمالى متكامل . حيث تشكل الروح عاملا سببيا أساسيا فى تأسيس النظام الرأسمالى الحقيقى ، ومن ثم فالروح تجسد نفسها فيه ، وهى ليست انعكاسا لعناصره المادية (٢٧) .

وتتميز علاقة فيبر بالموضوعية بذات الملامح تقريبا ، فهو قد وافقها فى بعض قضاياها ورفض فيها ما يتنافى مع موقفه النظرى . فى اطار ذلك نجده يرفض تصور كونت لترتيب العلوم . بحيث أدى هذا الاعتقاد الى انكار كونت لمكانة علم النفس كعلم مستقل ، حيث اعتبره فرعا من البيلوجيا ، وذلك لأن كونت قد اعتقد أنه من الممكن أن يوجد علم واحد فقط للمجتمع فى حين ان العلوم الطبيعية كثيرة . بالنظر الى ذلك يذهب فيبر الى أنه من الممكن أن تكون هناك علوم كثيرة مادام هناك مداخل كثيرة لمشكلة البحث ، ومن ثم فليس لنا الحق فى الادعاء بأننا قد استنفذنا المداخل الممكنة نحو الحقيقة مشكلة البحث . ولذات السبب نجده ينظر بنوع من السخف الى محاولات بعض المفكرين اعطاء العلوم الانسانية أساسا مشتركا ، بارجاعها جميعها مثلا الى علم النفس اذ يقول أنه مادام لكل علم قضاياه الخاصة به ، فانه يكون

مستقلا ، وليس ثمة علم يمكن أن يلعب دور النموذج لعلم آخر . ومن ثم فمحاولة ان نجعل من علم النفس أساسا لعلم الاجتماع على أساس أن الأخير يواجه الظواهر النفسية فى بحثه ليس سوي نوع من الرياضة العقلية . ثم يتساءل : أليس لعلم الاجتماع علاقة بالظواهر السياسية والاقتصادية والطبيعية الجغرافية ؟ فملاذا لا نجعله يستند الى علم السياسية والاقتصاد والطب والجغرافيا ؟ فمكانة علم الاجتماع فى رأى فيبر تعتمد على مجموعة القضايا المحددة التى يحاول بحثها (٢٨) . حدث هذا الاختلاف برغم اتفاقه مع الوضعية من حيث اعتبارها العلوم الاجتماعية فى سلة واحدة مع العلوم الطبيعية (٢٩) . وان أكد على ضرورة تباين المنهج لتباين زاوية الاقتراب من المشكلة بالنسبة لكل علم على حدة .

بالاضافة الى ذلك نجد ان فيبر يختلف مع باريتو أحد مفكرى الاتجاه الوضعى فيما يتعلق بطبيعة القوى المسيرة للتاريخ ، اذ يعتقد ان حركة المجتمع تتأثر بمجموعة التناقضات الأساسية التى قد تتخلق فى اطاره ، كالتناقض بين واقع الانسان ومايستحقه ، بين انانية الفرد والحاجة الى التضحية من أجل الجماعة . ومن ثم فقد أنصب جهد باريتو على تأسيس تصنيف صادق ودائم لمختلف الرواسب هذه . وهو التصنيف الذى قارب أن يكون نظرية عن الطبيعة البشرية وصل اليها باريتو عن طريق التسليم بالتنوع اللانهائى للظواهر التاريخية . فى مواجهة ذلك نجد ان فيبر يؤكد أنه برغم ان فئات الرواسب هذه قد تتصل بالميول الدائمة للطبيعة البشرية إلا أن التأكيد عليها يقود عالم الاجتماع الى اغفال أو تجاهل ماهو أكثر أهمية فى مسار التاريخ ، ويوافق فيبر على أن كلا من الأساطير وبالمثل الفلسفة غير المنطقية ، بل أنها غالبا ماتتحدى قواعد المنطق وحكمة التجربة . ولذلك فعلى المؤرخ دائما أن يحاول ادراك المعانى التى خلعها البشر على وجودهم . ماهو أسلوب مواجهتهم لمشكلة الشر أو ماهى الهدنة التى أسسوها بين الانانية والتضحية بالذات . ذلك ان أنساق المعانى والقيم هذه ذات طبيعة تاريخية ، وهى متنوعة وهامة بسبب خصوصيتها ، وبعبارة أخرى بينما يؤكد باريتو على ماهو دائم نجد أن فيبر يحاول أن يفهم الانساق الاجتماعية والعقلية التي تتميز ملامحها بالتفرد . فقد كان كل مايهمه هو أن يؤكد على الدور المحدد للدين فى مجتمع معين ، وان يحدد بناء القيم المتبنى بواسطة مجتمع أو عصر معين (٣٠) . أما الخلاف الثانى مع باريتو فانه يتعلق بأنه بينما يصنف باريتو كل ما لايتفق مع العلم التجريبى فى اطار ماهو غير منطقى نجد ان فيبر يوضح أن ثمة أساليب فعالة لتنظيم الفكر والوجود ، ليست علمية غير أنها ذات معنى (٣١) .

خلاصة القول أنه نتيجة للرفض والموافقة لعناصر كل من الموضوعية والمثالية تأسس موقف فيبرى متميز فيما يتعلق بالقضايا موضع الحوار .

وتعتبر قضية ادراك معنى الواقعة أو البحث عن التعميم الناشئ عن الاطراد أول هذه القضايا . فهو يوافق مع المثالية ان المعانى والقيم يجب أو ينبغى أن تكون مادة البحث الأساسية فى علم الاجتماع . بينما هو فى ذات الوقت يرى مع الوضعية أن العلم علم ، أيا كانت طبيعة الظواهر موضع الاهتمام عقلية كانت أم اجتماعية أم فيزيقية . ومن ثم فهو يرفض الموقف المثالى لأنه لايعتقد ان عزل المعانى والأحداث الاجتماعية تضع علم الاجتماع فى فئة مختلفة عن فئة العلوم التى تعمل على تأسيس القوانين السببية . وهو يرفض عملية الفصل بين التاريخ وعلم الاجتماع ، بحيث يصبح على الأخير أن يصبح علما له طابعه الصورى الخالص . ومن هنا نجده يوافق على الموقف التقليدى لعلم الاجتماع كنظام عقلى له طابعه العلمى ، يتناول مادته فى التاريخ . وهو يعتقد ان المنهج الناشيء لصياغة النماذج يعتبر من أول الوسائل لزيادة التحديد المنهجى فى علم الاجتماع (٣٢) .

ويعتبر التأليف بين التفريد والتعميم المنهجى نتاجا لالتقاء الوضعية والمثالية على الأرض الفيبرية . اذ نجده يؤكد ان كلا المنهجين ( التفريد ، والتعميم ) لايفضل أى منهما الآخر . ومن ثم نجده يذهب الى أن المشكلة الأساسية لنظرية المعرفة فى نظره تتمثل فى طبيعة العلاقة بين القانون والتاريخ ، بين المفهوم والواقع . وأيا كانت طبيعة المنهج المستخدم ، فان هذا المنهج عادة ماينتقى من التنوع الهائل للحقيقة الامبيريقية مايلائم اهتمامه . بالنظر الى ذلك نجد ان المنهج التعميمى Generalized Method يلغى عن الواقع كل مظاهره الهامشية أو الفريدة عن طريق إرجاع الخلافات الكيفية الى كميات قابلة للقياس المحدد ، بحيث يصلح ذلك أساسا لتأسيس مسلمات عامة ومنطقية . فى مقابل ذلك نجد ان منهج التفريد Individualized Method يهمل العناصر الأساسية المكونة Generic للظاهرة ، مركزا اهتمامه الكامل على الملامح الخاصة والمميزة لها . بذلك نجد ان كلا المنهجين ينفصل بقدر ما عن الحقيقة بهدف توفير احتياجات الصياغة التصورية الخاصة به ، والتى بدونها تستحيل المعرفة العلمية عن طريقه – ثم يؤكد فيبر ان كليهما على هذا النحو له صدقه ، وملاءمته ويكمل كل منهما الآخر (٣٣) .

ويكشف تحليل المشروع النظرى لماكس فيبر عن تأليفات نظرية كثيرة على هذا النحو بين الفرضيات المثالية والوضعية المتناقضة ، مما دفع أنصار كل اتجاه الى الادعاء بانتماء الاسهامات النظرية لماكس فيبر الى معسكرهم . فبرغم انتقاد الوضعية له لمحاولته الاعتماد على بعض المفاهيم الميتافيزيقية التى لايمكن الموافقة عليها ، فان استخدامه لذات اللغة الوضعية كالحديث عن التفسيرات الكافية سببيا ، والعلاقات بين الظواهر الاجتماعية أدت الى التسليم به من قبل بعض رواد الوضعية على أنه أحد عمدها برغم اهتمامه الظاهرى بالتاريخ والبحث عن المعنى فى المفرد التاريخى . البرهنة على ذلك مايؤكده كل من بول لازار سفيلد Lazersfeld وأوبرشال Oberschall من أن فيبر قد سلم بالطبيعة الاحتمالية للمؤشرات وعبر عن ذلك من خلال مفاهيم سوسيولوجية حينما أكد بوضوح أنه بالنظر الى هذه الاعتبارات الاحتمالية فان ادراك معنى العلاقات الاجتماعية المتبادلة يصبح ممكنا ، وان ذلك قد يتوقف حينما لاتكون ثمة احتمالية فى وقوع سلوك اجتماعى موجه بمعنى محدد (٣٤) . بل انهم يؤكدون أيضا اتفاق فيبر مع دوركيم فى تحديد ماهو اجتماعى . فبينما نجده يبدأ بوجهة النظر الذاتية للانسان المشارك ، اذا به يستبدله بأخر يحدد ما هو عام ومنتشر فى مجتمع معين ، بينما هو فى ذات الوقت له وجوده المستقل عن تجلياته الفردية (٣٥) .

فى مواجهة ذلك نجد ذات الادعاء لدى رواد المثالية ، اذ يعتبرونه من معسكرهم ويستشهدون على ذلك بتركيزه على أهمية معنى الظواهر الاجتماعية بالنسبة لذات الانسان المشارك ، مما يجعل علم الاجتماع ذاته يرتبط بفينومينولوجيا حياة الجماعة اليومية . حيث يبرز ذلك أهمية علم الاجتماع الفينومينولوجى وعلم اجتماع المعرفة . غير أن تأكيدهم على الفينومينولوجيا المستندة الى المعنى الذاتى والمنفصل عن اجراءات الصدق العلمى تجعل هذا التفكير يفتقد أكثر العناصر أساسية من وجهة نظر ماكس فيبر . فهم قد فشلوا فى ادراك ان فيبر لم يهتم فقط بالمعنى الذاتى للانسان فيما يتعلق بالموقف ، ولكنه اهتم بمعنى الموقف بالنسبة لانسان مؤسس افتراضيا أيضا . هذا بالاضافة الى أنهم قد فشلوا أيضا فى ادراك أن فيبر لم يهتم فقط بتأثير المعنى وحده على السلوك الانسانى ، ولكنه اهتم بتأثير العلاقات الاجتماعية ذات المعنى على هذا السلوك أيضا (٣٦) .

**ثالثا : فيبر وماركس ، والبدء بمنطلقات جديدة.**

ليست صحيحة تلك القضية التى تحاول اختزال التنظير السوسيولوجى لماكس فيبر ، بأنه قد تأسس بكامله ( من خلال المناقشة العميقة والمستمرة التى قادها فيبر مع شبح كارل ماركس ) (٣٧) . غير ان الحقيقة أن فيبر قد تقابل مع ماركس على نفس الساحات التى تعرض لها الأخير ، وليس لمواجهة الفرضيات الماركسية ، ولكن لأن الفرضيات أو القضايا التى تعرض لها ماركس ، كانت قضايا موضع حوار واهتمام من قبل السياق الاجتماعى المحيط أو نسق التفكير العلمى . وجهة نظر هذه الدراسة تؤكد ان قضايا الحوار بين ماركس وماكس فيبر كانت مفروضة من الخارج ، أى من السياق المحيط ، أو نسق التفكير العلمى ، الذى حكم على كلا المفكرين أن يتعرض لذات الظواهر ، ومن ثم فتعرض كل منهما كان اقترابا علميا من ذات القضايا ، وربما من خلال مداخل متباينة ، وليس التعرض لذات الظواهر كموقف شخصى لأى منهما ضد الآخر .

ومن الثابت أن طبيعة الرأسمالية الحديثة وأصلها كانت الواقعة الأساسية التى جذبت انتباه كل منهما ، وبالنسبة لماكس فيبر نجد ان جهده قد انصب بشكل أساسى على هذه القضية ، بحيث تحدد جهده أساسا على فهم الطبيعة الخاصة للحضارة الغربية والتناقضات الواضحة التى لها مع الحضارات الشرقية . وفى هذا الصدد نجد أن فيبر لم يرفض كارل ماركس كما قد يدعى البعض ، حيث نجده قد وافق على المبادئ المنهجية الأكثر عمقا لكارل ماركس . حقيقة أن فيبر قد رفض بعض القضايا الماركسية ، إلا أن هذا الرفض أنصب أساسا على توضيح بعض القضايا كعدم كفاءة بعض النتائج الثورية لماركس ، بالاضافة الى رفض فيبر لمسألة التفوق الأخلاقى والانسانى الذى يدعيه ماركس للاشتراكية اذا قورنت بالرأسمالية(٣٨) .

ويؤكد تالكوت بارسونز ان ثمة صلة جوهرية بين ماكس فيبر وكارل ماركس حيث شكل الأخير نقطة البداية لتختلف التناولات العلمية لماكس فيبر . ذلك أنه من الثابت علميا ان ماكس فيبر قد تأثر بالمدرسة التاريخية الألمانية ، حيث كان لكتابات ومناقشات ماركس المتعلقة بالرأسمالية والاشتراكية تأثيرها الفعال فى فترة تشكل أفكار ماكس فيبر (٣٩) . مما دفعه الى تركيز اهتمامه فى المرحلة التالية على ظواهر النظام الاقتصادى الحديث باعتبارها تشكل نسقا اجتماعيا اقتصاديا ، حيث نجد ان ماكس فيبر قد سبق كلا من زومبارت Sombart وكارل ماركس فى التأكيد على تفرد هذا النسق فى التاريخ ، حيث لم يوجد مثله فى أى زمان أو

مكان (٤٠) . فى اطار ذلك نجد ان ماكس فيبر يتفق مع ماركس فى كثير من المقولات الوضعية المتعلقة بالنظام الرأسمالى . يؤكد ذلك قول ريمون آرون ان التفكير الفيبرى ليس قلبا للمادية التاريخية ، بل انه ليس هناك تصور أكثر زيفا من ان نتخيل ان فيبر أسس مشروعا تناقض به تماما مع المشروع الماركسى ، يفسر فى اطاره الاقتصاد بالنظر الى الدين فى مقابل تفسير ماركس الدين بالنظر الى الاقتصاد (٤١) . غير أن ذلك لاينفى وجود خلاف بينهما ، ولكن مانود تأكيده فى هذا الصدد ان فيبر لم يؤسس نموذجه النظرى لمواجهة ماركس وانما هو قد نظر الى ذات الواقع من منطق متباين يتناقض مع المنطق الماركسى ، وهو منهج له تبريره ومشروعيته العلمية .

ويكشف تحليل المشروعات النظرية لكل من ماركس وماكس فيبر عن وجود اتفاقات كبيرة بينهما . فالنموذج المثالى ، الذى يمثل جوهر الابداع النظرى لماكس فيبر نجد ان ماركس قد قال به أيضا . حيث تعتبر القوانين والتأسيسات النظرية التى صاغها ماركس نماذج مفيدة للغاية (٤٢) . يؤكد ذلك مايذهب اليه ماكس فيبر نفسه أنه من الطبيعى أن نعتبر كل القوانين والصياغات التصورية لماركس - مادامت ذات طابع نظرى - نماذج مثالية بصورة محددة . حيث تتبدى قدرة وتفرد هذه النماذج المثالية ، بل وكفاءتها التوجيهية حينما تستخدم لدراسة الواقع بالنسبة لأى باحث قد يستخدم الفروض أو المفاهيم الماركسية (٤٣) .

ويمثل شمول النسق الرأسمالى وتفرده التاريخى نطاق الاتفاق الثانى بين كل من ماكس فيبر وكارل ماركس . اذ يؤكد فيبر أنه برغم وجود ملامح سوق المدينة أو الشركات أو النقابات ، وكل أنواع التباينات المشروعة بين القرية والمدينة فى كل مكان ، فان مفهوم المواطن لم يوجد خارج القارة الأوربية ، بل ان مفهوم البرجوازية لم يوجد خارة أوربا الحديثة ، ومن ثم لايمكن وجود البروليتاريا كطبقة خارج أوربا مادام ليس هناك تنظيم عقلانى للعمل الحر فى اطار نظام مستقر . ومن ثم فالصراعات الطبقية بين الطبقات الدائنة والمدينة ، بين الملاك ومن لا أرض لهم ، بين العبيد أو المستأجرين ، والاقطاع قد وجدت فى كل مكان ولكن بأشكال مختلفة . هذا فى حين ان الصراع الحديث بين أصحاب الصناعات الكبيرة من ناحية وبين العمال ذوى الأجر الحر Free Wage قد اختفت تماما خارج أوربا (٤٤) .

وتشكل العلاقات الاجتماعية كسياق للانسان ، اطارا آخر للاتفاق بينهما . فبينما نجد أن ماركس قد رفض تشيؤ العلاقات الاجتماعية لأنها تشكل وجودا خارجيا بالنسبة للانسان الفرد تتولى قهره ، فان فيبر كان يدرك العلاقات الاجتماعية على أنها توجيه سلوك الانسان

نحو الآخر ، ومن ثم فهي تشكل مسارات للسلوك يمكن ادراكها ذاتيا ، ومن ثم فهي أبعد ماتكون عن التشيؤ . حقيقة أن الآخر ، وهو الطرف المقابل للعلاقة قد يبدو خارجيا بالنسبة للأنا ، ولكنه يبقى كائنا لايسمو على ماهو فردي . ومن ثم نجد ان ماكس فيبر بالاضافة الى ذلك يتفق فى رفض التشيؤ الماركسى حينما يؤكد دائما أن نقطة البدء فى مشروعه النظرى ليست شيئا ما خارجا External على الانسان ولكنه النشاط الانسانى ذاته (٤٥) .

ويعتبر نظام الطائفة الهندية ظاهرة عينية كانت موضع اتفاق بينهما . ففيما يتعلق بهذا النظام يؤكد فيبر أنه قد كانت له آثاره على النمو الاقتصادى ، ليس لأن هذا النظام ، كما يتوقع المرء منذ البداية ، يفرض عوائق وتحريمات على التفاعل الاجتماعى ، ولكن لأن هذا النظام أصبح بدرجة واضحة تقليديا ولاعقلانيا من حيث آثاره . وتذهب كثير من الدراسات الى أنه تأثر فى تحليله لهذا النظام بدراسات كارل ماركس فى هذا الصدد ، الذى نظر الى المكانة الخاصة للحرفى فى القرية الهندية - من حيث اعتماده على الأجر العينى الثابت بدلا من اعتماده على الانتاج من أجل السوق - على أنها المسبب الرئيسى لاستقرار الشعوب الآسيوية . ولقد كان ماركس ، على مايذهب فيبر ، صادقا فى هذا الصدد (٤٦) .

ومما لاشك فيه ان نقاط الاختلاف كان لها وجودها البارز الى جانب نقاط الاتفاق . بداية نجده يختلف مع كارل ماركس فى اعتباره الصراع وليس التجانس هو العملية الأساسية التى يستند عليها التفاعل الاجتماعى فى المجتمع (٤٧) . بالاضافة الى ذلك نجد كثيرا من الاختلافات المنهجية ، يتضح ذلك من أن فيبر يطرح قضية الوضع الوجودى للانسان فى الكون . ثم يحاول من خلال ذلك اكتشف القواعد التى تنال اعتبارا من الانسان الذى ينجز سلوكا محددا . بالاضافة الى تحديد القوانين التى تحكم الحياة السياسية بشكل عام . ومن ثم نجده يتساءل فيما يتعلق بطبيعة المعنى الذى يخلعه الانسان على وجوده فى هذا العالم ، ماهى العلاقة بين أفكاره الدينية وأسلوب الحياة التى يعيشها ، ثم الاتجاهات التى تبناها نحو الاقتصاد والعلاقة التى أسسها مع السلطة . فى اطار ذلك نجد ان علم الاجتماع لدى فيبر ألهم بفلسفة لها تصور وجودى يستند الى رفض قضيتين : الأولى انه ليس هناك علم يستطيع أن يوضح لنا كيف ينبغى أن نعيش ولا كيف ننظم مجتمعنا . بالاضافة الى ذلك فليس هناك علم يمكن أن يوضح للانسانية ماهى طبيعة مستقبلها ، الرفض الأول موجه نحو دوركيم أما الثانى فموجه نحو كارل ماركس . بالنظر الى ذلك نجد ان ماكس فيبر يشير الى زيف الفلسفة الماركسية لأنها غير متلائمة مع طبيعة العلم ولا مع طبيعة الوجود الانسانى . ذلك لأن كل علم

تاريخى أو سوسيولوجى ماهو إلا نظرة جزئية ومن ثم فهو عاجز عن اعلامنا مقدما بطبيعة المستقبل ، لأن المستقبل لايتحدد قبلا . وحتى لو كانت بعض أحداث المستقبل محددة قبلا ، فان الانسان فى طبيعته الأساسية البسيطة ، سوف يكون لديه الحرية التى يستطيع أن يرفض بها هذه الحتمية الجزئية ، أو ان يتكيف معها بأى من الأساليب العديدة التى قد تتراءى لـه (٤٨) .

وهنا نلاحظ خلافا جوهريا أساسيا لماكس فيبر مع كارل ماركس . أولا أنه رفض أى تصور للمستقبل ومن ثم فهو يرفض حتميا أى تصور للمجتمع الشيوعى ، وهو الهدف الأساسى من المشروع الماركسى . وثانيا انه مثلما رفض فى الوضعية طابعها الجماعى من حيث اغفالها لفاعلية الفرد فى تشكيل المجتمع . فإنه يرفض الحتمية النسقية لدى كارل ماركس ، ومن ثم نجد ان فيبر يوفر للفرد حريته الكاملة فى مواجهة الحتمية الى يمتلكها النسق . فله اراديته فى الاختيار بين ان يكون سلوكه هادفا الى تغييرها أو ان يتجه الى التكيف معها . مايرفضه ماكس فيبر أيضا التأكيد على العوامل الاقتصادية أو الجوانب المادية للبناء الاجتماعى ، ومحوريتها فى قيادة التفاعل والتطور الاجتماعى ، هذا بالاضافة الى رفض التحتيم الأحادى Unilateral Determination للمجتمع من قبل أى من عناصره ، سواء كان هذا العنصر اقتصاديا أو سياسيا أو دينيا ، اذ يؤكد فيبر ان العلاقة السببية فى علم الاجتماع ذات طابع جزئى واحتمالى ، ومن ثم ينتفى أى طابع الزامى حتمى (٤٩) . وفى أعقاب الغائه الطابع الحتمى لأى من العوامل نجده يتقدم لفرض رؤيته الذاتية . فيؤكد أنه فيما يتعلق بمذهب المادية التاريخية الأكثر سذاجة ، التى تذكر أن الأفكار تتأسس كانعكاس للمواقف الاقتصادية ، فان تأكيدها لاينم عن موقف علمى موضوعى . حيث ان روح الرأسمالية كانت موجودة قبل تخلق النظام الرأسمالى (٥٠) . فى اطار ذلك نجده يرفض بشدة أية فكرة تذهب الى أن هذه الانساق الرشيدة للأفكار الدينية يمكن فهمها بالنظر الى شروط مادية معينة . بينما هى فى الحقيقة نتاج للروح المنبثقة الموضحة لمعنى العالم من زوايا مختلفة (٥١) . ثم يتجه بعد ذلك الى تفسير نشأة ظاهرة النبوة فيؤكد أنه يمكن - الى حد كبير - نسبتها الى المواقف الاجتماعية ، حيث تكون القيم التقليدية مهتزة والصراعات متفشية بحيث قد يشكل ذلك دافعاً لاتخاذ موقف ، ومن ثم فهو يرى ان الأنبياء لهم صلة كبيرة بالصراعات الاجتماعية (٥٢) . ذلك يعنى رفضه للحتمية الأحادية التى قد تعزو التفاعل الاجتماعى لأى من عناصره المكونة . حقيقة

أنه من الناحية الظاهرية يقدم بديلا متمثلا فى أولوية القيم الدينية ، إلا أن حقيقة الأمر تؤكد أنه يرفض هذا الاحلال الاطلاقى ، أو الحتمية لأى من العوامل . فالعلاقة لديه متنوعة ، متغيرة احتمالية وجزئية .

تبقى بعد ذلك مجموعة الخلافات العينة الأقل خطورة من الخلافات المنهجية . ويعتبر تقسيم العمل الاجتماعى أول قضية خلافية فى هذا الصدد . اذ نجد أن فيبر يتخذ موقفا مضادا للماركسية ، حيث نجده يؤكد ان البشر مؤهلون بدرجات متباينة من وجهة النظر الفيزيقية والأخلاقية والعقلية . ذلك ان هناك نوعا من اليانصيب Lottery فى بداية الوجود الانسانى . له طابعه الجينى أساسا ، حيث ان الجينات التى يحصل عليها أى منا تنتج عن ترابط مجموعة كبيرة من الاحتمالات ، اذ يمثل كل فرد منا ترابطا لعشرات وآلاف من الجينات . ومادام عدم المساواة موجودا منذ البداية ، فانه قد قام بشأنها اتجاهان . احدهما يميل لالغاء التباين الطبيعى من خلال جهد اجتماعى ، والثانى على العكس منه يحاول ان يكافئ كل شخص بالنظر الى قدرته المتباينة . ثم نجده يترك القضية كلية دون ان يفصل أمرا أو يطرح موقفا محددا ، حينما يؤكد أنه لايستطيع أن يفعل شيئا بشأن هذه القضية ، ومن ثم فكل انسان له أن يختار ألهه وشيطانه (٥٣) . وفى أعقاب تأكيده على التباين البيلوجى نجده يستمر حتى يؤكد على التباين الاجتماعى أيضا . حينما يعتبر تقسيم العمل والمهن فى المجتمع كنتيجة لتصور الألهى للأمور كما يذهب توماس الاكوينى Thomas Aquinas اذ تأسس تباين البشر الى طبقات ومهن من خلال تطور تاريخى أصبح بالنسبة للوثر Luther نتيجة مباشرة لارادة الله . فالفرد عليه ان يثابر فى المكان والحدود التى حددها له الله كواجب دينى (٥٤) . واثر تأكيد فيبر على الأساس البيلوجى والثيولوجى للتباين الاجتماعى المتمثل فى تقسيم العمل الذى يسود النظام الرأسمالى نجده يقدم رؤيا مخالفة تماما لتلك التى طرحها ماركس فيما يتعلق بالمكونات الأساسية للنظام الرأسمالى .

اذ نجده منذ البداية يؤكد ان المكانة أو الوظيفة التى يؤديها الانسان فى الموقف الرأسمالى تعتبر نوعا من النداء الباطنى Calling . ذلك يعنى ان الموقف يتطلب نوعا من التضحية اللاشخصية لاعمال الوظيفة التى تفرض التزاماتها على القائم بها . بحيث تعمل العملية الاجتماعية فى الموقف نحو ملاءمة أعمال الانسان بحيث تصبح أى من أنماط سلوكه وعلاقاته بالآخرين مضبوطة بدقة بواسطة هدف الكل الذى يعمل الجميع لتحقيقه (٥٥) . فالرأسمالى مثلا لم ينم رأسماله كنتاج لفائض القيمة - على مايذهب ماركس - وانما نشأت

الشخصية الرأسمالية فى مدرسة الحياة الصعبة . فهى معتدلة ومضحية فى ذات الوقت من أجل عملها ، وهى ذات طابع برجوزاى من حيث آرائها ومبادئها . ثم يوضح ماكس فيبر كيف نشأت الرأسمالية ، فيؤكد أنه بدلا من انتقال الفلاحين الى المدينة لبيع الغزل الى الموزعين من أجل بيعها للمستهلكين قام هؤلاء الموزعون بتغيير هوية الفلاحين الى صناع عن طريق تجميعهم بالمدينة ، وتأسس علاقات لهم بالسوق وبالمستهلكين بحيث تتجه السلع مباشرة الى اشباع حاجات الآخرين (٥٦) . ثم يؤكد ان الشخصية الرأسمالية تتميز بالتحرر من التقاليد ، والعمل الدؤوب ، والتقشف ، والاحساس بأن المال يعبر عن غريزة البقاء ذاتها (٥٧) . وأثناء تعرض فيبر لأخلاق المسئولية نجده يبرر للانسان امكانية أن يتخذ موقفا ميكيافيليا ، حينما يؤكد ان للقائد أن يخدع الجنود فى سبيل المصلح العامة العليا (٥٨) . وقياسا على ذلك فللرأسمالى ان يفعل مايريد مادام يعمل على تراكم رأس المال وهو هدف يعتبر تعبيرا عن ارادة الله فى أرضه كما تذهب الكالفنية . ثم يصل الى قمة البرهنة حينما يبرر استغلال الرأسمالى للعامل نظرا لأنه سوف يحصل على الأجر الذى يشبع حاجاته من خلال ساعات انتاج قليلة . ومن ثم فالرأسمالى يخفض الأجر حتى يعمل العامل الساعات الكثيرة التى تؤهله للحصول على المقابل الذى يشبع حاجاته (٥٩) . فى اطار ذلك نجد ان لدى ماكس فيبر تصورا للعامل - الآخر فى الموقف - ككائن محدود الحاجات ليست له أية ارادة فيما يتعلق بعملية تراكم رأس المال والعمل الدؤوب ، وهو ماتذهب اليه وتؤكده البروتستنتية وهو مايعنى تخلقا لنوع من التناقض فى مشروعه النظرى . أما فيما يتعلق بالعامل البروليتارى كآخر فى الموقف فانه يؤدى دوره أيضا بالنظر الى الزام القيم البروتستنتية له . فالعمل لم يعد ينظر اليه على أنه نوع من الدنس أو الشر كما هو الحال فى بعض الحضارات القديمة . ولكنه فى اطار النظام الرأسمالى أصبح يؤدى على أنه التزام أخلاقى إيجابى ، لابراز الأهداف الأخلاقية العليا للانسان . ومن ثم فالاتجاه الرأسمالى نحو العمل يمثل تلك الروح التى يطلق عليها فبلن Veblen† روح أو غريزة العمل . فالانسان الذى لاينتج ومع ذلك يتمتع بالصحة والعافية ، هو شخص يتنكر لالتزاماته الأخلاقية (٦٠) . وهنا أيضا نجد ان فيبر يبرز التبرير الثيولوجى لاستقلال قوة العمل تحت غطاء ان لدى الأخير التزاما أخلاقيا للعمل .

وحول المسألة اليهودية - وهى المسألة التى أهتم بها ماركس - نجد ان ثمة خلافا آخر . فبينما يعزو ماركس عزلة اليهود الى عوامل وظروف تكمن فى السياق الاجتماعى . وخاصة تلك المتعلقة بالأوضاع الاقتصادية والمادية ، نجد أن فيبر وفقا لمنظوره النظرى يؤكد ان عزلتهم وعدم اختلاطهم ينبثق من اطاعتهم لقيم ديانتهم (٦١) .

**رابعا : فيبر ودوركيم ، نطاق الاختلاف والاتفاق .**

المؤكد ان أفكار دوركيم احتلت من الناحية التاريخية مكانة بارزة فى تطور النظرية السوسيولوجية العامة . بحيث يتفق كثير من المفكرين على ان أفكاره قد لعبت دورا هاما فى تأسيس الميلاد الحقيقى لنظرية علم الاجتماع كنظرية علمية ، وتحديد ملامحها التى تعيش بها حتى الآن . غير ان تحليل البناء النظرى لدوركيم يكشف عن عناصر وضعية ومثالية متضمنة به . ومن المنطقى ان تكون أفكار دوركيم موضعا لاهتمام فيبر ، أولا لمكانة دوركيم فى اطار نظرية علم الاجتماع ، وثانيا بالنظر الى طبيعة الاهتمام بمجموعة من القضايا التى شكلت اطارا اتفاقيا أو خلافيا من قبل كل منهما (٦٢) .

ونحن نواجه منذ البداية باختلاف طبيعة التفكير عند كل منهما . اذ نجد ان فيبر كان بالأساس امتداد للمثالية ، وبشكل جوهرى نجد ان دوركيم كان امتداد للوضعية الكونتية . بالأضافة الى ذلك نجد ان دوركيم كان يمثل نموذج المنظر الذى تميز مشروعه النظرى بوضوحه القاطع وشموله وبساطة خطوطه الأساسية ومن ثم فاذا قلنا أن دوركيم كان منظرا منقطع النظير فان ذلك تم على حساب البعد الأمبيريقى لدراساته . يناظر ذلك اننا نجد ان ماكس فيبر من نموذج مختلف . فبرغم اهتماماته النظرية ، نجد ان لديه رغبة شاملة فى جمع الكم الهائل من الحقائق التفصيلية والمتراكمة . وفى نقاط محددة من معالجته نجده يصر على ضرورة وضوح خطوط بنائه النظرى بدرجة قد تتجاوز الحقائق الواقعية المفصلة (٦٣) . يضاف الى ذلك أنه برغم اختلاف التوجه الأساسى لكل منهما ، حيث استغرق فيبر فى قضايا الدينامية الاجتماعية Social Dynamics التى لم يهتم بها دوركيم كثيرا . وبينما اهتم فيبر أساسا بالفعل والنماذج المثالية للفعل نجد ان دوركيم اهتم أساسا بالمعرفة المتعلقة بالواقع . أما فيما يتعلق بالخطوط العامة لأطرهما التصورية فنجد انها غالبا ماكانت متطابقة ، ونذكر مثالين على ذلك . الأول يتعلق بالفصل بين الدوافع الأخلاقية ، وغير الأخلاقية للفعل أو السلوك ، وهو فصل يتم بالنظر الى العنصر المعيارى للفعل أو السلوك ، أما الثانى فيتعلق بالفصل بين نوعية المعايير الأخلاقية ( المشروعية لدى فيبر أو السلطة الأخلاقية عند دوركيم ) من ناحية وبين العنصر الأشمل الذى تعتبر هذه المعايير تجليا له ( الكارزما عند فيبر ، وماهو مقدس عند دوركيم ) (٦٤) .

ولتوضيح أبعاد الاتفاق والاختلاف بينهما سوف نبدأ بما هو منهجى أولا . اذ نجد أن فيبر يختلف مع دوركيم حول قدرة العلم على مساعدة البشر فى تحديد المجتمعات التى ينبغى

أن يعيشوا فيها ، ثم كيف ينظمونها ، ثم نجده أيضا يرفض المقولة الدوركيمية المتعلقة بتحقق الموضوعية والتى تؤكد ضرورة انفصال الباحث عن الحقيقة التى يدرسها ، مؤكدا ان ذلك قد يعجز الباحث عن فهمها (٦٥) . ويضرب مثالا على ذلك مؤكدا ان دراسة الدين على انه نسيج من الغيبيات قد يتضمن خطر سقوط الباحث وفشله فى تأسيس فهم عميق للحياة الدينية للبشر . فى اطار ذلك يؤكد فيبر ان على الباحث ان يكون لديه احساس بأهمية مايمارسه البشر من أجل أن يدركه بشل جوهرى ، غير أن عليه بعد ذلك ان يفصل نفسه عن اهتمامه الشخصى اذا أراد أن يؤسس صدقا لمسألة ذات طابع عاطفى(٦٦) .

ويشكل النموذج المثالى قضية خلافية أخرى على المستوى المنهجى ، فبينما نجد ان دوركيم يهتم بتأسيس النموذج المتوسط Average Type وهو الذى يختلف كثيرا عن المتوسط الاحصائى كما صاغه كتيليه . اذ نجده يؤسس النموذج المتوسط بالنظر الى كل الخصائص التى تسود لدى المفردات الواقعية ومن ثم يحتوى النموذج المتوسط على صفاتها الواقعية وان كان من الممكن ان تحتوى هذه المفردات على بعض صفاته فقط ، على خلاف ذلك نجد ان ماكس فيبر يرى النموذج المثالى ليس وصفا للواقع ولكنه يهدف الى توفير وسائل واضحة لوصف هذا الواقع والتعبير عنه (٦٧) . فالى جانب أنه ليس فرضا نظريا ، فانه ليس وصفا أمينا للواقع ، وهو أيضا ليس نموذجا لوصف ماينبغى ان يكون ، وانما يعتبر وسيلة تيسر ابراز مايعتبره الباحث خصائص أساسية فى الظاهرة موضوع الدراسة .

وتشكل مسألة الحتمية نطاقا خلافيا آخر بينهما . بالنظر الى ذلك نجد ان فيبر يرفض نوعين من الحتمية ارتضاهما دوركيم . الأول مايمكن ان نسميه بالحتمية المجتمعية ، حيث تتحدد خصائص مجتمع ما بخصائص المجتمع السابق عليه (٦٨) . أى أنه يرفض صياغة الحاضر بواسطة الماضى وهى فرضية وضعية أكد عليها كل من بورك وكونت ودوركيم وتعتبر الحتمية الاجتماعية هى الحتمية الثانية التييرفضها فيبر عند دوركيم . حيث يرفض نشأة وتطور التفاعل الاجتماعى بالنظر الى بعض العناصر الاجتماعية ، التى تتمثل أساسا فى الثقافة والقيم والتجليات الجمعية عند دوركيم . فى مواجهة ذلك نجده يؤكد على التصور الارادى الذى يخلق فى اطاره البشر مجتمعهم ، ومن ثم نجده ينكر وجود نظام شامل للقيم له وطأته الملزمة على الأفراد (٦٩) على غرار مايذهب دوركيم .

وتشكل طبيعة النظرة الى الحقيقة الاجتماعية موضع خلاف آخر بين فيبر ودوركيم واذ يرفض الأول تشئ الحقيقة الذى افترضه دوركيم الذى يراها خارجة عن الوجود الفردى ، ومن

ثم فهى لاتفسر بالنظر الى الدوافع والأهداف الفردية ، لأنها ذات طابع جماعى يتجاوز الفرد ذاته ، بذلك يؤسس دوركيم مايمسى بالمنهجية الجماعية Methodological Collectivism . فى مواجهة ذلك نجد ان فيبر يؤسس مايسمى بالمنهجية الفردية Methodological In- dividualism التى تؤكد ان التفسيرات تصبح كافية اذا هى قامت على مستوى المعنى . غير ان ذلك لايعنى اغفال العلاقات السببية بين العناصر المكونة للسلوك أو الفعل ، والتى تجد منطلقاتها الأساسية فى دافعية الأفراد Actors Motivation (٧٠) .

ذلك يعنى انه بينما نقطة انطلاق السلوك عند دوركيم جمعية ، اذا هى فردية عند ماكس فيبر . وبينما هى متشيئة ندركها من خلال مؤشراتها واظهارتها الخارجية اذا بنا لكى ندركها - من وجهة نظر ماكس فيبر - فان علينا ان نبحث عن المعنى المتضمن فى اطارها .

يبقى بعد ذلك خلاف يتعلق بقضية التغير الاجتماعى . اذ نجد لدى فيبر اهتماما بالتغير كعنصر أساسى من عناصر التفاعل الاجتماعى يفوق مستوى اهتمام دوركيم بهذه القضية . ويتضح ذلك من نظرة كل منهما لهذه القضية من خلال علاقتها بالقيم الدينية . فبينما يؤكد دوركيم على دور القيم والمعايير فى تحريم المساس بالحالة النظامية الراهنة ، نجد فيبر يوضح من خلال نظريته عن النبوة ، وعملية الصياغة العقلانية للكارزما الدور الآخر للعنصر القيمى المتعلق بالقيم كوسيلة ارادية فى أحداث التغير الاجتماعى . وفى الحقيقة لا يعتبر ماكس فيبر مناقضا فى هذا الاطار لما يذهب اليه دوركيم ، وانما نجده يوسع الدور الذى فشل دوركيم فى تأسيسه للقيم . ويعزى نجاح فيبر فى ذلك الى منظوره المقارن ، واهتماماته بقضايا التغير الاجتماعى (٧١) . بيد ان ذلك لايعنى ان الموقف الفيبرى كان رفضا شاملا للموقف الدوركيمى اذ نلاحظ بينهما اتفاقات عديدة ، نذكر منها اتفاقهما حول بعض العناصر الأساسية المتعلقة بالواقع الاجتماعى والتفاعل الذى يتم فى اطاره . فهناك اتفاق بينهما على مواجهة الماركسية فيما تعلق بتأكيدها على التباين البيلوجى بين الأفراد بالنظر الى قدراتهم الأساسية والامكانات التى لديهم . فى هذا الاطار نجد ان دوركيم يؤكد على أنه ينبغى على تقسيم العمل الاجتماعى ان يراعى تباين الأفراد من حيث قدراتهم ، ومن ثم يوزعهم على الأعمال الملائمة لهم . وهو مايعنى ايمانه بالتفاوت الفطرى بين الأفراد المشكلين للمجتمع ، وتأسيس أساس بيلوجى للتباين الاجتماعى (٧٢) . نجد ان فيبر يؤكد أيضا على ذلك حينما يذهب الى أن البشر متباينون من حيث النواحى الأخلاقية والعقلية والفيزيقية ، وان النظام الاجتماعى الملائم هو

النظام الذى يدعم هذا التباين الطبيعى (٧٣) . بذلك يخلق فيبر تبريرا بيلوجيا وفيزيقيا للتباين الاجتماعى . أو فيما يتعلق بأنماط السلوك التى يأتيها البشر فى اطار التفاعل الاجتماعى .

وتشكل مشكلة النظام الاجتماعى نطاق التقاء بين فيبر ودوركيم . اذ يؤكد فيبر على ضرورة نظام معيارى له طابعه الايجابى ينبغى أن يتوفر له القبول الشرعى . هذا القبول من جانب الأفراد فى المجتمع ينبغى أن يتوفر له عنصران أساسيان ، الاتفاق Agreement والفرض Imposition ويعتبر العنصر الأول معبرا عن مصالح الأشخاص غير انه ليس كافيا لتأسيس النظام الاجتماعى . غير أنه لكى تتوفر للنظام مشروعيته ، فانه ينبغى ان يكون هناك الزام لتنفيذ متضمنات الاتفاق . ولعل ذلك يتصل الى حد كبير بتحليل دوركيم لعلاقات التعاقد ، حيث يعتبر عنصر المشروعية ( الالزام ) فى الاتفاق جزءا من تصور دوركيم ( للعنصر اللاتعاقدى فى العقد ) (٧٤) . وبذلك يصل فيبر لنفس النقطة التى وصل اليها دوركيم حينما يفسر القهر Constraint على أنه يمثل سلطة أخلاقية . وفضلا عن ذلك نجد أن فيبر يقترب من هذه المسألة من ذات الوجهة الدوركيمية حيث يعتقد ان - اذا ما تأسس النظام - الفرد يأتى سلوكه بالنظر الى نسق القواعد لتى تشكل الظروف أو الشروط الأساسية لهذا السلوك (٧٥) .

وبايجاز ، يكمن الخلاف الأساسى بين دوركيم وفيبر فيما يتعلق بالسلوك الاجتماعى حول نقطة أساسية . فبينما يرى الأخير ان السلوك الفردى يشكل النواة الأساسية التى تلتقى مع سلوك الآخر لتشكل التفاعل والنسق الاجتماعى ، ومن خلال التفاعل تتأسس ظواهر ونظم كثيرة تعمل جميعها على استمرار تخليق النسق ،فاذا تخلق النسق فانه يشكل شروطا موقفية تتحكم فى تفاعله . بيد ان هذا التحكم لايكون قهريا يجبر السلوك الفردى على السير فى اطار مسارات معينة . وانما هو يترك للفرد امكانية التغيير الارادى لهذه الشروط متى كان ذلك مطلبا يعبر عن اتفاق جماعى ، على خلاف ذلك نجد دوركيم الذى يؤكد بداية على تخليق النسق الاجتماعى من خلال التفاعل الذى يكسبه هوية جديدة تختلف عن هوية التفاعلات الفردية التى ساهمت فى تشكيله . غير ان الجديد فى هذا الصدد انه بمجرد تخلق النسق فانه يمارس وطأته وقهره على الأفراد . ومن هنا نجد ان دوركيم عجز عن تناول قضية التغير ، وهى القضية التى كان لفيبر اسهامه العبقرى فى اطارها .

**خامسا : الواقع الاجتماعي وأحداثه المؤثرة .**

نحاول فى اطار هذه الفقرة استعراض بعض أحداث السياق الاجتماعى المعاصر لماكس فيبر ، ومدى تأثيرها على تحليلاته النظرية فيما يتعلق بالتفاعل الاجتماعى وطبيعته الأساسية . وتكشف دراسة المشروع النظرى لماكس فيبر عن اهتمامه بثلاثة قضايا رئيسية . الأولى تتعلق بالأشكال البنائية للمجتمعات ، أما الثانية فتتعلق بالبيروقراطية كعملية وتنظيم أساسى يسود الواقع الاجتماعى لأوربا الحديثة . وتنصب القضية الثالثة أساسا على بناءات السلطة فى عصره . وبنظرة تركيبية الى هذه القضايا الثلاث يتكشف لنا انها تدور فى فلك القضية الأساسية المتعلقة بالنظام الاجتماعى والسلوك الفردى فى اطاره من حيث اطاراته وحدوده .

أما فيما يتعلق بالقضية الأولى فنلاحظ ان معظهم أعمال ماكس فيبر التى كتبها طيلة حياته ماهى إلا أنعكاس لانتقال المجتمع الأوربى الغربى ، خلال شباب فيبر على ماذهب روبرت نسبت ، من المرحلة التقليدية الى مرحلة التحديث فى مجالات السياسية والاقتصاد والتعليم ، وكافة المجالات الأساسية الأخرى للنظام الاجتماعى (٧٦) . حيث حدث هذا الانتقال فى تاريخ المجتمع الأوربى بفاعلية عاملين أساسيين ، العامل الأول سياسى ، حيث تأثر فيبر ككل العلماء الآخرين من أمثال دوركيم ، ماركس ، توكفيل Tocqueville وكروبتكين Kropotkin وبورك Burke بالتغيرات التى عايشها والتى يمكن ارجاعها الى الثورة الفرنسية . حيث كان لهذه الواقعة العظيمة تأثيرها على عقل وتفكير القرن الثامن عشر . اذ أصبح العقل الأوربى يرى فى الثورة الفرنسية التأثير المفاجئ والقوى الذى يمكن أن يكون للبشر والأحداث على البناءات التقليدية فى الغرب ، ومن ثم الاصرار على استبدال هذه البناءات بأخرى يحاول الثوريون استنتاجها من خلال العقل ، وبذلك يكون لها طابعها العقلانى . أو استبدالها بأخرى لها طابعها الكارزمى ، التى يتمثل مصدرها فى الحضور الساحر للفرد القائد مثل نابليون (٧٧) . أما العامل الثانى لانهيار البناءات التقليدية فيتمثل فى الثورة الصناعية التى أدت الى تقطيع أواصر الروابط التقليدية للمجتمعات التى تأثرت بها . ومن ثم أدت الى انتقالها الى أوضاع اجتماعية جديدة . من حيث تقسيم العمل ، ونمط الانتاج السائد بها ، وأشكال العلاقات الاجتماعية ومن ثم البيروقراطية كعملية أساسية تؤدى دورا محوريا فى بناء هذه المجتمعات .

وتشكل البيروقراطية العملية التى تركز اهتمام فيبر بها نظرا لفاعليتها الواقعية . فقد لاحظ فيبر انتشار البناءات البيروقراطية فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية . مما جعله قلقا بشأن حرية الانسان فى مواجهة النظام الاجتماعى الذى يتسم بدرجة عالية من العقلانية والذى

تحتل البيروقراطية مكانة محورية فى اطاره اذ نجده يؤكد أنه من المثير للرعب ان نعتقد ان العالم سوف يصبح يوما ما ممتلئا بلا شئ سوى هذه التروس الصغيرة ، أو البشر الصغار المعلقين فى أعمال صغيرة والذين يناضلون من أجل وظائف أكبر . مثل هذا الشعور نحو البيروقراطية كفيل بأن يدفع الانسان الى الاحساس بالأسى . ويبدو ان ذات الأمر يقع فى المجال السياسى ، اذ يؤكد أنه نظرا لأن البشر يحتاجون النظام اراديا . ولاشئ غيره ، فانهم يصبحون جبناء ويصيبهم العصاب لو اهتز هذا النظام للحظة واحدة . ونصبح لا حول لنا ولا قوة ، اذا أصيب النظام بالانهيار . اذا حدث ذلك ، فاننا نجد أنفسنا محاصرين ، وتصبح المسألة الأساسية ليس كيف تدعم النظام ونعجل منه ، ولكن كيف نواجه هذه الآلية كى نبقى على نسبة من البشر احرارا من هذا الحصار الروحى ، بعيدين عن أسلوب الحياة البيروقراطى الذى يتميز بقدرة فائقة على التحكم والسيطرة (٧٨) .

واذا كانت البيروقراطية كما رآها فيبر ما هى إلا تنظيم وادارة وأسلوب عمل عقلانى ساد الحياة الأوربية الحديثة فيما بعد الثورة السياسية والصناعية . فاننا نجد ان فيبر لم يكن يهدف الى ادانتها أو تأكيد كراهيته لها ، ولكن كل ما فى الأمر أنه أراد أن يعبر عن خوفه على الحرية الانسانية فى ظل هذا التنظيم ، وهو ما انعكس على اهتمامه بالسلطة الكارزمية أحيانا وبقضايا التغير الاجتماعى أحيانا أخرى .

وتشكل بناءات السلطة ونماذجها القضية الثالثة التى أهتم بها فيبر من خلال ظواهر واقعه المحيط . حيث تشكل نماذج السلطة التقليدية والعقلانية والكارزمية المقولات الأساسية لعلم الاجتماع ماكس فيبر فيما يتعلق بالسلطة . كما انها تشكل الاستجابة الرئيسية لواقعه الثورة من قبل الفكر الأوربى خلال القرنى التاسع عشر والعشرين . ومافعله فيبر بشأنها ، كما يؤكد علماء الاجتماع ، أنه صاغها من خلال تنميط يساعده على دراسة أنساق السلطة ، فى اطار مختلف مجالات النظام الاجتماعى المتعددة عبر التاريخ الانسانى ، الغربى والشرقى على السواء (٧٩) . ولايعنى فصل فيبر لنماذج السلطة الثلاث أنها منفصلة على هذا النحو واقعيا ، وإنما الفصل لأغراض تحليليه أساساً . إذ يؤكد ان المجتمع الواحد يمكن أن يتمضن نماذج السلطة الثلاث هذه (٨٠) . ثم نجده يؤكد فى مواضع كثيرة ان السلطة الكارزمية ، تخضع عادة بعد تأسيسها للعملية الروتينية حيث تنتقل بعد فترة الى الشكل التقليدى أو العقلانى للسلطة .

# الفصل الحادى عشر

## البناء المنهجى
## لنظرية ماكس فيبر

### المحتويات

## مقدمة

نستطيع القول بأن قضايا البناء المنهجى لنظرية ماكس فيبر قد شكلت نقله هامة فى تاريخ النظرية الاجتماعية خاصة وعلم الاجتماع بصورة عامة . ويمكن القول بأن المنهجية الخاصة بماكس فيبر كانت نتيجة لفاعلية عاملين أساسيين ، العامل الأول يتمثل فى أن الفكر الوضعى ، الذى أصبح أساساً للمنهج فى علم الاجتماع من خلال سان سيمون وأوجست مونت وإميل دوركيم ، قد اتسع الى مداه الطبيعى ، حيث أصبح منهج العلوم الطبيعية هو المنهج الذى تبنته العلوم الاجتماعية . بيد أنه برغم المدى الذي بلغه تطبيق هذا المنهج فى اطار العلوم الاجتماعية ، فقد بدأت تظهر بعض الانتقادات المتعلقة بمدى المماثلة بين مادة العلوم الطبيعية ومادة العلوم الانسانية ، وارتباطا بذلك ، مدى أهمية الوصول الى قوانين تكون قادرة على تحديد طبيعة التفاعل فى مجال الظواهر الأنسانية وضبطها .

ويتعلق العامل الثانى بطبيعة الفكر المثالى ، وهو الفكر الذى عايش الفكر الوضعى ، باعتبار كونهما معا نتاجاً لفكر التنوير . حيث بدأ الفكر المثالى بطرح نفسه قويا من خلال الماركسية تارة ، ومن خلال ماكس فيبر تارة أخرى . واذا كان للفكر المثالى تطوراته النظرية بشأن الواقع ، فإن له تأكيداته وقناعاته المنهجية بشأن دراسة هذا الواقع . اذ يؤكد هذا التيار على تميز الظواهر الانسانية عن الظواهر الطبيعية ، باعتبار ان الظواهر الانسانية هى نتاجاً لفاعلية سلوكيات بشرية لها معانى ومقاصد ، ومن الضرورى ان نسعى الى فهمها ، وهو الأمر الذى يتطلب منا التأكيد على العنصر الذاتى فى الفهم ليصبح تفهما لمعانى هذه الظواهر ، ومحاولة تفاصيلها الدقيقة باعتبارها مفرداً قبل ان تخضع لأى اطراد .

بالنظر الى هذين العاملين نجد ان ماكس فيبر قد وقف موقف وسطا بين المنهجية الوضعية والمنهجية المثالية ، واستنادا الى هذا المنطق ، وفى محاولة الوصول الى أكثر المنهجيات ملائمة لعلم الاجتماع ، ولطبيعة المادة التى تشكل نطاق فاعلية هذا العلم . فى هذا الاطار نجد ان ماكس فيبر قد قدم اسهامات عديدة سواء فيما يتعلق بمكانة علم الاجتماع بين العلوم أو فى طبيعة تداخل الذاتية والموضوعية فى ادراك الواقعة الاجتماعية ، أو فى تأكيده على السببية الجزئية وليست الكلية فقط ، ثم فى اسهاماته العقلية البارزة والمتمثلة فى صياغة النماذج المثالية ، كوسائل قياسية وتفسيرية تيسر مهمة الباحث فى علم الاجتماع ، وهى القضايا التى سوف نتعرض لها بالتحليل فى الصفحات التالية .

## أولا : فيبر والحوار حول مكانة علم الاجتماع .

فى مناقشة لقضية تصنيف العلوم ومكانة علم الاجتماع تأثر ماكس فيبر الى حد كبير بمنجزات العلوم الطبيعية التى تجسدت حوله والتى تتمثل فى تعمق الثورة الصناعية وانتشار المناخ العقلانى فى التفكير . ومن ثم وجدنا فى كتاباته اهتماما بالعلم والعقلانية المستندة اليه . وهو فى ذلك مثل نيشته يعتقد ان العلم يستطيع ان يساعد البشر بالوسائل التى يتيحها وليس بالغايات . ذلك لأن العلم لايستطيع ان يدلنا على القيم الحقيقية True Values ، ومن ثم فالصراع بين القيم ، أو بين الآلهة كما يحلو له التعبير بذلك ، مسألة حتمية وبخاصة فى المجتمعات الحديثة التى تتسم بالتعقيد . هذا بالاضافة الى أنه من المستحيل ترتيب القيم العامة من خلال العلم بالنظر الى مقياس شامل متفق عليه (٨١) . فى اطار ذلك فان كل مايستطيع العلم ان يمدنا به هو الوضوح . وفى حالة العلم الاجتماعى ، الوضوح فيما يتعلق بسلوكنا من حيث دوافعه وغاياته ونتائجه ، ذلك لأن العلم يساعد على تبصر طبيعة التوجيه القيمى لأفعال البشر ، وأنماط القيم التى ينبغى عليهم اعتناقها . هذا بالاضافة الى أنه يساعد على تبصر وسائل تحقيق قيم معينة ، وتحديد تكاليف نتائج ذلك بالنسبة لقيم أخرى (٨٢) .

يعنى ذلك ان علوم الثقافة – التاريخ وعلم الاجتماع – تعمل على فهم الانتاج الانسانى الذى يخلق القيم ، أو الذى يتحدد بالنظر الى القيم . فى اطار ذلك فانه ينبغى أن يقال ان العلم ماهو إلا جهد عقلانى يتحدد هدفه الرئيسى فى الوصول الى أحكام تتعلق بالحقيقة ذات الصدق الشامل (٨٣) . فهدف العالم اذن هو الوصول الى قضايا تتعلق بالحقيقة أو الوصول الى بعض العلاقات السببية ، أو بعض التفسيرات الفعالة ذات الصدق الشامل . وبهذا المعنى يعتبر البحث العلمى مثالا للسلوك العقلانى بالنظر الى الهدف مادام هذا الهدف يعتبر حقيقة ذات صدق شامل . غير ان هذا الهدف فى ذاته يتحدد بواسطة حكم قيمى أعنى ان قيمة الصدق تتضح أو تتكشف بواسطة البراهين والحقائق ذات الصدق الشامل . بذلك يعتبر السلوك العلمى جمعا بين الفعل العقلانى بالنظر الى الهدف والفعل العقلانى بالنظر الى القيمة . فالعلم كما يدركه فيبر يعتبر أحد جوانب عملية الترشيد المميزة للمجتمعات الغربية الحديثة . بالاضافة الى ذلك نجد ان فيبر يؤكد ان العلوم التاريخية والسوسيولوجية تمثل فى أيامنا هذه ظاهرة تاريخية فريدة ، حيث لم يسبق ذلك جهد فكرى معادل لهذا الادراك العقلانى لتطور المجتمعات وأدائها (٨٤) . وبعد ان يفرغ فيبر من توضيح ماهية العلم ، وأهميته المحورية فى هذه المرحلة ، نجده يوضح ان الجهد العلمى يتميز بالخصائص الرئيسية التالية :

١ – اذ يعتبر نقص العلم وعدم اكتماله Incompleteness من الخواص الجوهرية للعلم الحديث . فليس هناك غريب على أسلوب ماكس فيبر فى التفكير من تلك الصورة المحببة الى أوجست كونت . والتى تتعلق بالعلم الذى امتلك كل ما هو أساسى ، العلم الذى تمكن من تأسيس نسق أساسى مغلق يتكون من القوانين الأساسية المحددة . ثم يؤكد ماكس فيبر ان مفهوم الماضى عن العلم يشير الى أنه عبارة عن نسق كامل بمعنى ما ، يطمح الى ادراك مبادئ الحقيقة الواقعية أو القوانين الأساسية للوجود . أما العلم من وجهة نظر ماكس فيبر فيتميز بأنه بطبيعته فى حالة تطور ونمو دائم ، ومن ثم فلا صلة له بالقضايا المتعلقة بالمعانى الجوهرية للظواهر ، ذلك ان العلم يعمل دائبا نحو هدف لامتناه أبدا ، وتتجدد تساؤلاته بشأن موضوع بحثه بلا نهاية وتنطوى خاصية نقص العلم وعدم اكتماله هذه على معنين : المعنى الأول ينطبق على العلم طبيعيا كان أو ثقافيا ، ذلك لأن المعرفة العلمية عبارة عن غزو Conquestدائم لا نهاية له أبدا ، فالعلم هو نموه أو تطوره الذاتى . أما المعنى الثانى لعدم اكتمال العلم فينطبق على علوم الحقيقة الانسانية فقط ، أعنى على الثقافة والتاريخ . حيث تخضع المعرفة فى هذا الاطار للتساؤلات التى قد يطرحها الباحث بشأن الحقيقة . غير أنه كلما تقدم التاريخ فان عالم الاجتماع أو المؤرخ يجد نفسه يطرح تساؤلات جديدة بشأن الحقيقة فى ماضيها وحاضرها . وبتعبير ماكس فيبر فانه من الممكن اكتمال التاريخ وعلم الاجتماع اذا اكتمل التطور الانسانى وتحددت له نهايته (٨٥) .

٢ – وتعتبر الموضوعية هى الخاصية الثانية للعلم . حيث تتحقق الموضوعية عن طريق صدق النتائج العلمية وثباتها بالنسبة لكل هؤلاء الذين يهتمون بالصدق العلمى فيما يتعلق بالواقعة موضع الاهتمام والدراسة ، وثانيا برفض أحكام القيمة . فالعلم قد يدرس أو يلاحظ الدجال Charltan ، مثلما يدرس ويلاحظ الطبيب الحقيقى . يدرس أو يلاحظ الانسان الديماجوجى ، مثلما يلاحظ الانسان العظيم الذى ينجز أفعالا خالدة ، بنفس الحياد الموضوعى والانفصال عن الموضوع موضع الدراسة (٨٦) . ولتحقيق الموضوعية نجد ان فيبر يترسم طريقا منهجيا متدرجا يبدؤه بداية ذاتية . حيث يحاول الباحث تعقل دينامية حقيقة أو ظاهرة معينة عن طريق محاولة الامساك بمعناها الجوهرى . ثم يتدرج من ذلك ، بالنظر الى جمع من المحكات المنهجية ، حتى يستحيل الادراك الذاتى الفردى الى فهم علمى موضوعى له صدقه وثباته الشامل – عن طريق مجموعة من الاجراءات

المنهجية التى تيسر الادراك الموضوعى كالاستعانة بالاطار النظرى فى الاقتراب من الحقيقة وانتقاء عناصرها الجوهرية . ثم المقارنة المستندة لى النموذج المثالى كاجراء قياسى يهدف الى تحقيق أكبر قدر من الموضوعية (٨٧) .

٣ – وتعتبر النسبية الخاصية الثالثة المميزة للعلم – وتعنى النسبية بالنسبة له تنوع العوامل والأسباب الجوهرية ، وفقا لطبيعة السياق والموضوع موضع الدراسة – وتعنى أيضا الارتباط بالاحتمالية على حساب الحتمية المطلقة التى قد تعزى لأى من العوامل المؤكدة للثبات أو المثيرة للتغير . وقد تتعلق النسبية أساسا بطبيعة الاطار النظرى الذى ارتضاه الباحث منطقا يدرك أو يجرد بالنظر اليه الواقعة موضع الدراسة . غير أنها قد تعنى أيضا ان الاهتمام العلمى بسياق معين لاينصب على كلية الحقائق الممكن معرفتها . ولا على كل الحقائق المتعلقة بالظواهر الواقعية موضع الدراسة ، وانما ينصب أساس على بعض عناصرها المنتقاه . ومن ثم فى أى لحظة نجد ان الكم الكامل لمعرفة التى لدينا ليست انعكاسا كاملا للحقيقة الواقعية المدركة انسانيا (٨٨) .

فاذا انطبق ماسبق على العلم بصفة عامة ، فما هى اذا ماهية علم الاجتماع ووظيفته من وجهة نظر ماكس فيبر . مبدئيا يعرف ماكس فيبر علم الاجتماع بأنه العلم الذى يحاول انجاز الفهم التفسيرى Interpretative Sociology للفعل الاجتماعى من أجل الوصول الى نتائجه ومساراته (٨٩) . ويؤكد ماكس فيبر ان التفسير فى العلوم الثقافية يتم وفقا لمستويات عديدة نميز من بينها المستويات الثلاثة التالية :

١ – المستوى الأول وهو المستوى الذى يمكن تسميته بالتفسير المتعلق بفقه اللغة Philological Interpretation، وهو يتكون من استيعاب المعنى الحرفى للنص ، وذلك من خلال نقد الدراسات والوثائق الخ . ويعتبر ذلك هو العمل التحضيرى المطلوب فى كل العلوم الانسانية والذى يصاحب أى دراسة للمصادر .

٢ – المستوى الثانى ، وهو مايمكن ان نسميه بالتفسير الأخلاقى أو التقويمى Ethical or Evalustive ، وهو يتكون من تعيين قيمة معينة لموضوع الاهتمام . ثم تأسيس حكم ملائم أو غير ملائم بشأنه ، ويندرج هذا النموذج للتفسير من التقويمات الشعورية أو العاطفية الخالصة عن طريق التعاطف Empathy مع أحداث وظروف حياتنا اليومية ، وحتى المجالات العليا الأكثر تحديدا للمقدسات والأحكام الأخلاقية .

٣ - أما المستوى الثالث فهو مايسميه بالتفسير العقلانى Rational Interpertation الذى يكمن هدفه فى أنه يساعدنا على فهم العلاقات ذات المعنى من خلال السببية ، أو من خلال التفهم ، بين مختلف الظواهر ، أو بين مختلف عناصر ذات الظاهرة (٩٠) .

يبقى بعد ذلك ان نوضح مسألتين . حيث تتعلق الأولى بعلاقة علم الاجتماع بمختلف العلوم الأخرى ، أما الثانية فتتعلق بالتركيبة الأساسية لعلم الاجتماع كعلم ، ثم مكانته بين مختلف العلوم بالنظر الى طبيعته الأساسية . أما فيما يتعلق بعلاقة علم الاجتماع بالعلوم الأخرى ، فبالنظر الى الخلاف الذى عاصره فيبر والذى وقع بين المثالية المحدثة من ناحية وبين الكانتية المحدثة من ناحية أخرى . والذى يتعلق بتحديد انتماء علم الاجتماع . هل ينبغى ان ينتمى الى زمرة العلوم الطبيعية التى تهتم بدراسة الحقائق بهدف الوصول الى القوانين العامة التى تحدد طبيعة العلاقات السببية بين العناصر ، أم ان علم الاجتماع ينبغى أن يكون ضمن العلوم الثقافية ، ومن ثم فان عليه ان ينحو منحى ذاتيا نحو الحقيقة بهدف تفهم معناها عن طريق ربط المعانى بعناصرها الأساسية ، كل معنى بالأخر (٩١) . فى اطار ذلك يؤكد ماكس فيبر تصنيف العلوم الى قسمين ، لكل منهما موضوع اهتمام غالب ، الأولى مجموعة العلوم التاريخية التى تركز انتباهها على ظواهر واقعية معينة تحاول بقدر الامكان تحديد أسبابها ونتائجها . ولانجاز ذلك فهى تحاول الاستعانة بمساعدة تصورية أيا كانت طبيعتها . والأمثلة على ذلك الجيولوجيا فى مجال العلم الطبيعى والمترويولوجيا Meteorology. ويعتبر التاريخ بشكل أساسى مثالا لها فى المجال الاجتماعى بالاضافة الى الأنثروبولوجيا . أما المجموعة الأخرى من العلوم ، فهى مجموعة العلوم التحليلية ، وهى التى تهتم أساسا ببناء انساق النظرية العامة الصادقة بالنظر الى الكم الهائل من الظواهر الواقعية التى تلائم هذه الانساق دراستها (٩٢) .

فما هى اذن طبيعة وموقع علم الاجتماع بالنظر الى هاتين المجموعتين . يؤكد فيبر ان علم الاجتماع من ناحية علم اجتماع تاريخى حينما يهتم بالنتائج الفريدة والمتعلقة بواقع اجتماعى وثقافى محدد . أى حينما ينصب اهتمامه على لامفرد التاريخى ، بحيث يكون نمط التفسير الذى يهدف اليه فى هذا الاطار هو التفسير السببى أو التفسير عن طريق تفهم المعنى . وتكون المعطيات التى يحاول البحث عنها هى معانى هذا المفرد أو شروطه الواقعية . وهو من ناحية أخرى علم اجتماع تحليلى مادام يهدف الى الوصول الى القوانين السببية التى تحكم الظواهر الاجتماعية ، بحيث يكون منهجه فى ذلك هو التفسيرات السببية أو تلك المكاشفة عن

المعنى Meaningful Interpnetation وذلك من خلال المعطيات المتعلقة بمعانى الموضوع موضع الدراسة أو ظروطه الواقعية (٩٣) . خلاصة القول ان علم الاجتماع هو الاجتماع التاريخي الذى يهتم بالمفرد التاريخى . وهو أيضا العلم التحليلى الذى يهدف الى بناء الانساق النظرية التى يتم تجريد مقولاتها الأساسية من خلال دراسة عديد من المفردات التاريخية ، والتى يمكن الاستفادة منها فى بناء النسق النظرى بهدف استخدامه فى تقديم فهم وادراك علمى للمفرد التاريخى .

يضاف الى ذلك ان فيبر يرفض باصرار تصور أوجست كونت لتصنيف العلوم وترتيبها كل بالنظر الى الآخر . حيث تتأسس العلوم الاجتماعية مستندة الى العلوم الطبيعية الكائنة فقط . ولقد دفع ذلك الاعتقاد الى رفض أوجست كونت أن يكون علم النفس علما مستقلا ، واعتبره فرعا من البيولوجيا . اذ اعتقد ان هناك علما واحدا للمجتمع بينما هناك علوم طبيعية كثيرة . بالنظر الى ذلك يؤكد ماكس فيبر أنه يمكن ان تكون هناك علوم مادامت هناك مداخل كثيرة الى المشكلة ومن ثم فليس من حقنا ان نفترض اننا قد استنفدنا كل المداخل الممكنة الى الحقيقة (٩٤) . ولنفس السبب يسجل فيبر رفضه الثانى ، حيث اعتبر أنه من السذاجة أن يحاول بعض الفلاسفة تأسيس أساس مشترك للعلوم الانسانية عن طريق إرجاعها مثلا الى علم النفس . حيث يؤكد انه مادام لكل علم مسلماته فانه بذلك يكون مستقلا . فليس هناك علم يمكن ان يكون نموذجا لمجموعة من العلوم الأخرى .. فمكانة علم الاجتماع كعلم مستقل تعتمد أساسا من وجهة نظر ماكس فيبر – المشاكل أو القضايا التى يتصدى لها (٩٥) .

## ثانياً : فيبر والتأليف بين الذاتية والموضوعية .

ماهى المداخل الأساسية لأدراك هوية التفاعل الكائن بالواقع الاجتماعى ، حيث شكلت البرهنة التى قادها فيبر فيما يتعلق بهذه المقولة صياغة حاول فيبر من خلالها أو يوحد بين الادراك الذاتى للباحث كمدخل لادراك العناصر الأساسية للواقعة ، وبين الشروط الموضوعية الواجبة أن تكون فى أى فهم علمى يبدأ من المدركات الجزئية وينتهى بالتعليمات العامة التى ينتفى فى اطارها كل ما هو ذاتى . ولتحقيق ذلك نجد ان فيبر يتبع الاستراتيجية الانتقائية التى تنتقى فى اطارها عناصر من كل منهما . ثم محاولة التأليف فيما بينها لتوفير نمط الفهم الذى أراده غير انه لتوضيح الاستراتيجية المنهجية لماكس فيبر فى هذا الصدد ، فانه ينبغى التعرض لكل من الادراك الذاتى والموضوعى بهدف تحديد المداخل التى ألف فيبر بينها فى اطار موقف جديد .

وفيما يتعلق بالادراك الذاتى ، فان الاهتمام به بدأ مع مسألة أثيرت تتعلق بتصنيف العلوم ، حيث كانت هذه القضية موضع جدل وخلاف بين المثالية المحدثة كما أشرنا من ناحية وبين الكانتية المحدثة من ناحية أخرى . فى هذا الصدد نجد الكانتية المحدثة تذكران العلوم الاجتماعية والطبيعية على السواء تبحث عن العلاقات السببية التى تحكم اطراز الظواهر . فى مقابل ذلك نجد ان المثالية المحدثة تذكر ان العلوم الطبيعية هى التى عليها ان تؤسس القوانين السببية ، بينما تحاول العلوم الاجتماعية والثقافية ادراك المعنى . فى اطار ذلك نجد ان الادراك على هذا النحو يصل المعانى بعضها ببعض حتى يتفهم الباحث موضوع البحث بشكل مباشر من خلال الحدس (٩٦) . ويركز الادراك الذاتى للفعل أو السلوك على تحديد المعنى الكلى الكامن وراء الفعل أو الذى يتولى صياغة تماسك عناصره الأساسية . بذلك يصبح المعنى هو تلك العلاقة التى ندركها شعوريا بين وسائل الفعل وغاياته . حيث يمكن لهذا المعنى ان ينتظم بأساليب عديدة . وقد يدرك المعنى بشكل مباشر ، مثل معنى القضية ٢ + ٢ = ٤ حينما نقرؤها أو نسمعها . وقد يكون ادراك المعنى له الطابع التوضيحى Explnatory كحينما نفهم سبب انجاز الفاعل لفعله بالنظر الى دافعه ، حيث يؤدى فهم الفعل أو السلوك بالنظر الى دوافعه الى احلاله فى اطار نشاط أكثر اتساعا . ومن ناحية أخرى قد يكون المعنى بارزا فى أحد أنماط السلوك ، بينما هو يمثل مكانة ثانوية فى سلوك آخر . بل اننا فى بعض الأحيان نجد انه من الصعب عزل عنصر المعنى كمكون سببى فى السلوك (٩٧) . بل انه لما يميز الملامح الأساسية للمعنى اننا نحاول ادراك الفعل بالنظر الى مقدماته المزامنة دون الاشارة الى أية مبادئ أو قوانين عامة (٩٨) . ذلك يعنى ان مدخل ادراك الفعل أو الواقعة يركز كثيرا على خصوصيتها . ومن الواضح ان المدخل الذاتى يتميز بعدة خصائص تكسبه هويته ويؤدى توفرها الى تأسيسه كمدخل فعال لادراك معنى الحقيقة أو الواقعة موضع الدراسة .

أول هذه الخصائص تتمثل فى انه نظرا لأن الادراك الذاتى يرتبط بالنظريات الحدسية – التى تشكل الترشيد المنهجى Methodnlogical Rationalization للجناح الجمعى Collec-tivist Branch من الفكر الألمانى – فانه اهتم أساسا باستيعاب Grasp أو فهم الكليات الثقافية Cultural ككليات لها خصوصيتها المتفردة . وارتبط ذلك فى المجال الاجتماعى بالتفهم Verstehen . حيث ادراك جوهر الكليات الثقافية فى اطار نسق ما من المعانى ، تبدو الحقائق الواقعية مجرد تجليات أو تعبيرات عنه . ولقد أدت سيادة هذا الاتجاه وتحوله الى مذهب منهجى الى احتوائه على قضيتين متصلتين منطقيا . الأولى تعنى ان التعميم فى مجال الظواهر البشرية يمكن ان يعنى فقط استيعاب أو فهم الكليات الثقافية فى خصوصيتها وتفردها الكامل

. أما الثانية فتشير الى ان استيعاب هذه الكليات أو فهمها عادة مايتخذ شكل الحدس المباشر . أعنى الادراك المباشر للمعانى بدون تدخل المفاهيم من أى نوع . فى اطار ذلك نجد ان فيبر قد هاجم القضية الثانية بينما كانت علاقته بالأولى معقدة للغاية (٩٩) .

أما فيما يتعلق بالقضية الأولى الخاصة بتفرد الحقيقة الواقعية من وجهة نظر ( المدخل الذاتى ) . وهى الخاصية التى تؤدى الى فشل كثير من النظريات التى تفترض امكانية استنباط الحقيقة الواقعية من المفاهيم . حيث يؤكد أصحاب هذه النظريات انه اذا تمكن العلماء من الكشف باستمرار عن القوانين العامة فانه سوف يصبح بامكاننا يوما ما تأسيس نسق متكامل من المفاهيم ، له فاعليته فى امكانية استنباط الواقع منه (١٠٠) . ويذهب فيبر الى ان الذين يؤكدون ذلك يتجاهلون ان المفهوم انتقائى بطبيعته ، ومن ثم فان كم المفاهيم والانتقاءات لايمكن ان يتساوى أبدا مع الكم الكلى للحقيقة الواقعية . فاللانهائى ليس تراكما من الأشياء النهائية . الدلالة على ذلك ان الأنساق الفلسفية التى سادت القرن التاسع عشر عمقت توقعاتنا بأشياء كثيرة لم يتحقق منها شئ (١٠١) . وهو فى ذلك ينتقد بشكل ضمنى التوقعات المستقبلية للنسق الماركسى فيما يتعلق بانهيار الرأسمالية وتأسيس المجتمع الشيوعى وانتشارها كونيا من خلال ثورة بروليتارية كاسحة .

يضاف الى ذلك ان بالحقيقة الواقعية مايجعل مسألة استنباطها من المفاهيم أمرا مستعصيا . ذلك لأن الحقيقة الواقعية لا عقلانية Irrational بطبيعتها . بينما المفاهيم والتعميمات العامة عقلانية فى أساسها . ومن ثم فلايمكن للاثنين ان يتقابلا . بذلك يوافق فيبر على القول بأن الحقيقة الواقعية من طبيعتها أنها متنوعة ولا نهائية بشكل كامل ، تى أنه يصعب بالنظر الى ثرائها على هذا النحو ، وواقعيتها ، وفرديتها ، استيعابها أو ادراكها بالنظر الى نسق من المفاهيم المجردة . غير ان ذلك لاينبغى – على مايذهب فيبر – ان يشكل خلافا بين العلوم الطبيعية والاجتماعية (١٠٢) .

ويعتبر الفهم من الداخل الخاصية الثانية للمدخل الذاتى . بالنظر الى ذلك يؤكد فيبر أنه فيما يتعلق بالظاهرة الطبيعية فانه يمكننا ملاحظة المسار الخارجى للأحداث فقط . وهو مايؤدى بنا الى الكشف عن عناصر الاطراد . أما فيما يتعلق بالسلوك الانسانى فانه وان كانت هناك امكانية لذلك . إلا أن الباحث يكون فى العادة قادرا على نسبة دوافع السلوك أو الواقع بالنظر الى البشر ، أى أنه يقوم بتفسير أفعالهم وكلماتهم بالنظر الى كونها تعبيرات عن هذه الدوافع . وهو مايعنى الاقتراب من الجانب الذاتى للفعل أو السلوك . ومادامت الحقائق المتعلقة بالفعل

البشرى تساعد على ذلك . فان ذلك يشير الى الأهمية المحورية التى يلعبها مفهوم التفهم فى البناء المنهجى لماكس فيبر (١٠٣) .

وفى أعقاب ذلك يؤكد فيبر ان المعرفة بالحقيقة الثقافية عادة ماتكون من وجهة نظر خاصة . حيث أنه بدون الأفكار التقويمية للباحث فانه سوف تستحيل أية معرفة ذات معنى بالنسبة للحقيقة الواقعية (١٠٤) . ومن ثم فليس هناك تحليل علمى مطلق الموضوعية فيما يتعلق بالثقافة أو الظواهر الاجتماعية مستقل عن وجهات النظر الخاصة أو تلك التى من جانب واحد (١٠٥) . وهو مايعنى فى نهاية الأمر افتراض أن ادراك الحقيقة الواقعية يتم عادة بالنظر الى اطار نظرى . وعادة ماتختلف الأطر النظرية باختلاف اتجاهات الباحثين ، وباختلاف الفروض النظرية المشكلة بالنظر الى أطرهم النظرية . البرهنة على ذلك تباين التحليل الاقتصادى والاجتماعى لشنأة النظام الرأسمالى واستمراره بين كل من كارل ماركس ، وماكس فيبر ، حيث يفضل الأول تناول الحقيقة بالنظر الى اطار نظرى تؤكد افتراضاته على محورية العوامل الاقتصادية بينما يتبنى الثانى اطارا نظريا يؤكد على منظومة الثقافة والقيم .

وتعتبر امكانية التنبؤ بالمستقبل والموقف من هذه المسألة احدى الخواص المميزة للمدخل الذاتى الى حقيقتين . الأولى ان هدف المعرفة الملائمة Adequate فى مجال معين ليست ان تعرف كل الحقائق ، أعنى كل الحقيقة الواقعية ، حيث يصبح مثل هذا الهدف مستحيلا . ومن ثم فمعيار كفاءة المعرفة العلمية عادة مايكون بالنظر الى الغرض العلمى موضع الاهتمام . والثانية ان معرفتنا لا تساعدنا على التنبؤ بكل ظواهر المستقبل بكامل تفاصيلها الواقعية . ويستخدم فيبر مثال تناثر قطع الحجر التى عصفت به الرياح . حيث لايوجد علم يعرفه قادر على التنبؤ الدقيق بحكم وشكل ومكان كل قطعة بعد هبوب العاصفة من واقع البيانات التى أمكن توفيرها قبل هبوبها . هذا فى حين ان التنبؤ يرتفع مستواه فى اطار العلوم الطبيعية لأن اهتمامنا ينصب أساسا على جوانب الوقائع الطبيعية بالنظر الى قوانين مجردة معروفة . بينما اهتمامنا فى المسائل الاجتماعية يكون عادة عند مستوى آخر . وعلى أية حال فالتنبؤ عادة مايكون بالنظر الى مدى تأسيس التعميم المجرد ، فحينما يوجد هذا التعميم فان التنبؤ عادة مايتبعه (١٠٦) . ومن الواضح ان مثل هذه التعميمات أكثر وجودا فى العلوم الطبيعية منها فى العلوم الاجتماعية التى تعمل على تأسيس هذه التعميمات التى يمكن ان تتحكم فى الظواهر

الاجتماعية بالأسلوب المنهجى الملائم . ويرغم تأكيد فيبر على أهمية المدخل الذاتى فى ادراك الحقيقة الاجتماعية على اعتبار أن استخدام الحدس فى الظواهر الاجتماعية كان تابعا لشيوع استخدامه فى العلوم الطبيعية (١٠٧) . فاننا نجده يوجه الى المدخل الذاتى بعامة والحدس بشكل خاص مجموعة أساسية من الانتقادات .

ومنذ البداية نجده ينتقد الحدسيين مؤكدا أنهم يخلطون بين مسألتين : الأولى تتعلق بالعمليات التى يمكن عن طريقها الوصول الى المعرفة الصادقة . والثانية تتعلق بالأسس المنطقية لصدق هذه المعرفة (١٠٨) .

أما الانتقاد الثانى فيتمثل - من وجهة نظر فيبر - فى أن الحدسين يخلطون ( مادة التجربة الخام Raw Data Experience بالمعرفة Knowledge التى يمكن استخلاصها عن هذه المادة ) . ونتيجة لذلك فالكل الذى نستطيع تأسيسه ليس مجرد انعكاس مبسط للخبرة البسيطة ، وإنما يتضمن انتقاء منظما لعناصر الخبرة أو التجربة . ويتضمن هذا الانتقاء أو التنسيق Systematization نسبة الخبرة أو التجربة الى المفاهيم بما فيها المفاهيم العامة التى تؤدى دورها كأساس للحكم على عناصر التجربة ذات الأهمية أو الدلالة بالنسبة للكل . حيث يصدق ذلك على كل من العلوم الطبيعية والاجتماعية على السواء (١٠٩) .

وينصب الانتقاد الثالث للمدخل الذاتى على التفهم كمدخل للادراك . اذ يؤكد ان الخبرة بالمضمون ذى المعنى يرتبط بنوع من اليقين المباشر الذى قد لا يتوفر فى معنى المعطيات المتعلقة بالأحداث الطبيعية . وهى الحقيقة التى تؤكدها النظريات الحدسية . فى اطار ذلك نجد ان فيبر يتهم أصحاب المدخل الذاتى والتفهم بنوع آخر من الخلط . فاليقين المباشر والناتج عن ادراك المعنى يعتبر فى أقصى حالاته مجرد عنصر فى عملية البرهنة حول صدق المعرفة ومن ثم فهى فى ذاتها ليست موضع تصديق أو ثقة . وانما ينبغى اختبار صدقها بالنظر الى نسق المفاهيم المتسقة عقلانيا . فاذا لم يتم الاختبار أو الفحص للتحقق من صدق الحدس المباشر فان ذلك قد يؤدى الى وجود سلسلة لا نهاية لها ( من الأحكام الحدسية ) التى تبتعد كثيرا عن الواقع . ولا يختلف ذلك عما هو كائن فى العلوم الفيزيقية . حيث لا يمكن الاستناد الى صدق الانطباعات المباشرة للمعنى بدون نقد تصورى أو نظرى . اذ يعنى ذلك ان هذا الانطباع الذى قد يصف الحقيقة يتم تصميمه بالنظر الى نسق عام من المعرفة النظرية (١١٠) . ثم يذهب فيبر الى أن حدسنا بالمعنى قد يكون حقيقيا أو صحيحا غير ان التفسير الحدسى قد لا يتسق مع

نسق المفاهيم النظرية المتساوقة عقلانيا . فاذا تطابق الحدس مع الاطار النظرى ، فانه فى هذه الحالة يمكن ان يشكل معرفة . غير أنه بدون هذا التقويم بالنظر الى النسق النظرى فان الباب يظل مفتوحا لأى عدد من الادعاءات غير المضبوطة أو التى لايمكن التحقق من صدقها . ثم ينتهى الى القول بأن الموقف الحدسى لديه امكانية الهروب من مسئولية الأحكام العلمية (١١١) .

ويعتبر المدخل الموضوعى ، الاطار الثانى الذى كان على فيبر ان يستند اليه ، بالاضافة الى المدخل الذاتى ، لصياغة موقفه النظرى . هذا برغم ان المدخل الموضوعى له استراتيجيته فى الادراك المناقضة تماما لاستراتيجية المدخل الذاتى . فبينما يؤكد المدخل الذاتى على ضرورة التعميم فى مواجهة التخصيص . اذ يتجه المدخل الموضوعى لادراك الحقيقة من خلال ثلاثة أبعاد أساسية . الأول يتمثل فى تخليص الحقيقة الموضوعية موضع الدراسة من كل جوانبها الخاصة التى قد تتميز بها . وذلك عن طريق ارجاع التباينات الكيفية الى تكميمات قابلة للقياس يمكن أن تكون أساسا لمسلنمة منطبقة عامة (١١٢) . أما البعد الثانى فيتكامل مع الأول حيث يتركز الاهتمام على الخصائص العامة للظواهر ، بهدف تأسيس علاقات ضرورية ومطردة بينها . بحيث يقود ذلك الى تأسيس نسق من العلاقات والقوانين التى تتزايد فى عموميتها وتكون ذات طبيعة رياضية بقدر الامكان . وتشكل فى النهاية نسقا استنتاجيا يبدأ بالقوانين والمبادئ الأساسية المجردة ذات الطابع البسيط (١١٣) . أما البعد الثالث فيتمثل فى انه اذا كنا قد تمكنا من تأسيس مجموعة التعميمات العامة التى تدرك الحقيقة بالنظر اليها ، فانه لكون هذه التعميمات ذات صدق وثبات ، بالنسبة للحقيقة موضع الدراسة . فانها تشكل بعدا يحتل المسافة بين الباحث وموضوعه موضع الاهتمام ، فتجعل فهمه غير مباشر بدلا من كونه مباشرا . وبذلك فهى تخلص التناول العلمى للحقيقة الواقعية من كل تحيز ممكن قد يكون مصدره ذاتية الباحث وقيمه الذاتية (١١٤) . ويشكل الفهم من الخارج الخاصية الثانية للمدخل الموضوعى وهى خاصية تجعل علم الاجتماع يتخذ موقفا مماثلا من موقف العلم الطبيعى . حيث انه اذا كان من الممكن فى تناول وقائع الطبيعة ان نلاحظ مظاهرها الخارجية ، للكشف عن عناصر الاطراد فى اطارها . فانه يمكن انجاز ذات الفهم فى اطار الوقائع الاجتماعية ، بالاضافة الى امكان فهمها بالنظر الى دوافعها (١١٥) . ويشكل التكميم واستخدام المنهج الرياضى احدى خواص المدخل الموضوعى حيث يعتقد فيبر ان التكميم هو الطريق الوحيد الى المعرفة العلمية الصادقة وواقع الأمر ان التكميم والقياس ليسا سوى اجراءات منهجية ، والمنهج الرياضى كغيره يتضمن انتقاء بعض جوانب الواقع اللانهائى ، ومن ثم فهو صادق فى اطار

مسلماته فقط (١١٦) . ويهدف المنهج الرياضى أساسا الى الكشف عن الاطرادات والتماثلات الكائنة فى الظواهر موضع الاهتمام والدراسة . وذلك بهدف الوصول الى العميمات التى تحكم مختلف تفاعلاتها .

وفى أعقاب توضيح موقف ماكس فيبر من كل من المدخل الذاتى والموضوعى نعرض الآن لطبيعة الحل المنهجى الذى قدمه فى هذا الصدد . وبنظرة عامة نرى ان فيبر قد اختار جانب المدخل الذاتى فى الكشف عن الحقيقة موضع الدراسة ، إلا أنه وضع مجموعة من الضوابط والمحكات العلمية التى توفر صفة الموضوعية للادراكات الذاتية للباحث . من هذه المحكات مثلا أن يكون الباحث على وعى تام بموضوع بحثه ، فليس من الملائم ان يقف خارج الموضوع كما يذهب دوركيم . حيث يعجزه ذلك عن ادراك الديناميات الداخلية الواقعة ، ومن ثم يسقط فى اطار معاملتها من خلال نوع من السببية الكلية التى تربط الظاهرة موضع الدراسة بظاهرة أخرى من خلال علاقة خارجية . فالباحث فى اطار ذلك يتعامل مع النتائج بينما المطلوب منه ان يتعامل مع المقدمات . كذلك نجد ان فيبر فى المقابل يرفض الموقف الوجودى الذى ينادى باستغراق الباحث فى موضوعه ، بحيث يتحول الى جزئية غير قادرة على تجاوزه من خلال طرح نظرة شاملة على علاقة الموضوع موضع الأهتمام بالسياق الذى يحتويه والباحث معا . هنا نجد أن الحل الذى يقدمه فيبر يمثل فعلا أحد النماذج المتميزة للخروج من هذه المعضلة . حيث يؤكد انه اذا كان الباحث مهتما اهتماما عاطفيا بموضوع بحثه فاهه سوف يكون متصلا به ومتحيزا . ومن ثم فاذا كان على الباحث ان يكون لديه شعور بأهمية ما يمارسه البشر من أجل أن يفهمهم جيدا ، فانه فى ذات الوقت عليه ان يفصل نفسه عن اهتمامه الشخصى ، اذا كان يرغب فى الكشف عن اجابة ذات صدق شامل لتساؤل أثير من منطق اهتمام خاص (١١٧) . أما المحك الثانى لتحقيق الموضوعية فيتمثل فى الاطار النظرى الذى ينبغى أن يتبناه الباحث لتوجيه ملاحظاته الذاتية . فى هذا الصدد يلعب الاطار النظرى دور التوجيه القيمى للباحث . ولاتعنى هذه التسمية ان له علاقة بأحكام القيمة أو المسائل الذاتية المرتبطة بالموضوع موضع الاهتمام . غير ان فيبر لا يعتقد فى امكانية تأسيس نسق نظرى من هذا النوع يمكن ان يلقى قبولا عاما (١١٨) . وذلك أستنادا الى فرضية أساسية فى مشروعه النظرى وهى امكانية تعدد زوايا الرؤية بالنسبة للحقيقة الواقعية .

ويؤكد فيبر ان التوجيه القيمى يحدد التساؤلات الأساسية التى ينبغى طرحها بشأن الحقيقة موضع الدراسة . فاذا سألنا المؤرخ عن سبب اهتمامه بالثورة الفرنسية أو بفلسفة

نيتشه ، أو اذا سألنا عالم الاجتماع عن سبب دراسته للعلاقات الاجتماعية فى مستعمرة عمالية ، أو الظروف المعيشة بين طلاب الجامعات ، فان أيهما سوف يجب بأن هذه الموضوعات هامة وذات جاذبية بالنسبة له . أما لماذا هى هامة ، فان الاجابة على ذلك عادة ماتكون بالنظر الى القيم المرجعية (١١٩) . اذا فعلى أساس التوجيه القيمى يستطيع الباحث ان ينجز انتقائية لبعض عناصر الحقيقة . وفى اطار هذا الانتقاء يعمل العالم أو الباحث على تطبيق الاجراءات المعتادة للبحث العلمى كالملاحظة الدقيقة ، نقد الافكار ، القيام بالمسوح والتوثيقات ، لتحديد العلاقات السببية ، والمقارنة ، الخ . وفى اطار هذا المستوى فان على الباحث ان يتجنب التقديرات التقويمية ، بمعنى الموافقة أو الرفض بناء على أسباب شخصية خالصة . بل ان على الباحث أيضا أن ييسر الفرصة للقارئ لكى يختبر صدق برهنته وصحتها وجوهرية القضايا التى يتناولها (١٢٠) . ويحدد فيبر بايجاز الوظائف الأساسية للتوجيه القيمى بأربعة أو خمسة :

(أ) انه يساعد على تحديد الموضوعات الأساسية للبحث أو الدراسة . أعنى انه يساعدنا على عزل أو فصل موضوع محدد عن الحقيقة الواقعية التى يختلط بها .

(ب) انه بمجرد اختيار الموضوع . فان التوجيه القيمى يساعدنا على فصل ما هو أساسى عما هو ثانوى . أعنى أنه يساعد على تحديد المفرد التاريخى Historical Individuality ، أو تفريد المشكلة ( موضوع البحث ) بحيث يحددها بالنظر الى عديد من العناصر والتفاصيل التى لا حصر لها .

(ج) انه فى حالة التوجيه القيمى فانه يمدنا بمعقولية تأسيس علاقة بين مختلف العناصر وبين المعانى التى نعينها لها .

(د) ان التوجيه القيمى يحدد لنا أيضا طبيعة العلاقات السببية التى ينبغى تأسيسها ، والى أى مدى يكون الارجاع السببى .

(هـ) انه بالنظر الى كونه ليس حكما قيميا ، ومن ثم فهو يتطلب تفكيرا واضحا ومفصلا لاختبار صدق قضايانا ، فانه يعمل على ألغاء الخبرة الشخصية والعاطفية من الممارسة العلمية (١٢١) . بيد أنه لتحقيق الموضوعية ، فليس كافيا ان يمتلك الباحث توجيها قيميا ختى تتحقق . وانما عليه ان يعلن طبيعة هذا التوجيه القيمى الذى تبناه اطارا لتناول حقائق الواقع بالفحص والدراسة . وبمجرد توضيح نقطة البدء هذه ، فان الموضوعية الحقة تصبح ممكنة . ومن ثم فبالنسبة لماكس فيبر مثلما هى بالنسبة لجونار ميردال

فاننا نحقق الموضوعية عن طريق اعلان موقفنا القيمى (١٢٢) ، ذلك يعنى ان الذاتية فى معناها السئ ليست إلا نتيجةلأخفاء حقيقة ان لدينا موقفا قيميا معينا (١٢٣) .

خلاصة القول فإن ماكس فيبر يتخذ موقفا منهجيا يبدأ فى اطاره الباحث ذاتيا إلا أنه ينتهى موضوعيا منفصلا عن الحقيقة الذى ارتبط بها فى البداية . فاختبار المشكلة يتحقق بالنظر الى مشاعر ذاتية قد تدفع اليها أوضاع قيمية مرجعية تتعلق بذاتية الباحث . غير أنه اذا كانت حدسياته بشأن الحقيقة موضع الدراسة ، فان هذه الحدسيات لاتكستب مشروعيتها العلمية ، وموضوعيتها الى من خلال تعريضها لاجراءات المنهج العلمى كما تأكد فى العلوم الطبيعية ويعمق فيبر بإيمانه بالموضوعية حينما يؤكد ان على الباحث صياغة قضاياه بشأن الظواهر موضع الاهتمام على النحو الذى يمكن غيره من الباحثين من اختيار صدقها وكفاءتها العلمية بسهولة ويسر .

**ثالثا : السببية عند فيبر ، ملامحها وأنماطها .**

أوضحنا فى الفقرة السابقة اتجاه المدخل الذاتى مباشرة نحو ادراك معنى الواقعة موضع الدراسة باعتبار ان الباحث القائم بادراك الواقع مشارك فيه . ومن ثم فهو يدرك التفاعل من حيث ديناميباته وعلاقته بواقعه من الداخل . وفى هذه الفقرة نعرض لطبيعة العلاقات السببية التى ينبغى على الباحث ادراكها اذا هو نظر الى الواقعة من خارجها ، فى اطار ذلك نجد ان موقف فيبر من هذه القضية أقرب مايكون الى رفض الطابع الحتمى للسببية الذى تجلى بأقوى مايكون عند كل من كارل ماركس وإميل دوركيم بل والخلفيات النظرية العامة لكل منهما .

وتشكل مناقشة العلاقات السببية مبحثا هاما من الأفكار المنهجية لماكس فيبر . حيث يؤكد أنه اذا قلنا ان الحتميات السببية Causal Determinations . تعتبر أحد الاجراءات الهامة التى يتأكد بواسطتها الصدق للنتائج العلمية (١٢٤) . فان ذلك يطرح ضرورة التعرض لطبيعة العلاقات السببية ، التى يؤكد فيبر أنها كمفهوم تعرضت لغموض كبير . فأحيانا كانت تعادل بالمشروعية Legality وأحيانا بالظروف Conditions الذى يمكن تصنيفها كأسباب (١٢٥) . ثم نجده برغم رفضه للتحديدات السببية الأخرى يحدد وجهة نظره بقوله اذا قلنا ان (أ) تسبب (ب) فان ذلك يعنى ان (ب) تتبع دائما (أ) فى عدد من الحالات التى تمت

بلا خطأ ، ومن ثم فان ذلك قد يعتبر ضرورة ، والمشكلة التى قد تبرز هنا تتعلق بطبيعة هذه الضرورة . والاجابة على ذلك تتمثل فى ان الضرورة تكمن فى امكانية استنباط القضية أن (ب) تتبع (أ) من قضية أكثر شمولا هناك اتفاق قد توفر على صدقها . ووفقا لهذا التحليل يتضمن القول بالسببية الاشارة الضمنية الى بعض القضايا العامة (١٢٦) . وتستوجب محاولة ادراك معنى السببية عند ماكس فيبر ضرورة أن يكون ذلك بالنظر الى بعض الاعتبارات الأساسية .

١ - أما الاعتبار الأول فيتعلق بكون العلاقات السببية - من وجهة نظر فيبر - ذات طبيعة جزئية وليست كليا أساسا . اذ يدرك فيبر العلاقة السببية على انها جزئية Partial واحتمالية ، ونعنى بالعلاقات الجزئية ان هناك تصورا جزئيا وتحليليا للسببية . وهو على هذا النحو يرفض التفسير الذى طرحته المادية التاريخية . ومن ثم نجد ان فيبر ينكر باصرار ان يعتبر أحد عناصر الحقيقة الواقعية أساسيا أو جوهريا.ومن ثم فهو الذى يحدد طبيعة الجوانب الأخرى لهذه الحقيقة ، بدون أن تشارك هى أو أى من عناصرها الأخرى فى صياغته والتأثير عليه . بذلك فان السببية الجزئية تؤكد ان جزئية معينة من الحقيقة ذات صلة سببية ممكنة أو غير ممكنة ، ايجابية أو سلبية بجزئية أخرى من الحقيقة . فمثلا ترتبط السلطة السياسية المطلقة بتدخل الدولة فى أداء الاقتصاد ، فى اطار ذلك فان النظام السياسى اذا كان مطلقا فانه من المحتمل أن تتدخل الدولة فى أداء الاقتصاد . غير أن الباحث يمكن ان يؤسس توقعا آخر فى الاتجاه المضاد ، أى ان يبدأ بحقيقة اقتصادية كالاقتصاد المخطط ، أو الملكية الخاصة والجماعية ، ثم يبحث الى أى مدى يكون هذا العنصر الاقتصادى مؤديا الى أسلوب معين فى التفكير أو تنظيم السلطة السياسية أو عائقا له . بذلك تكون العلاقات السببية جزئية ، تتميز بالاحتمالية أكثر من تميزها بالضرورة الحتمية (١٢٧) .

ويؤكد فيبر أنه اذا حاولت تفسير واقعة تاريخية بالنظر الى قانون عام فإنك تسئ فهم التاريخ ، الذى يتكون من تتابع الأحداث المفردة . فى اطار ذلك فان الطريقة الوحيدة التفريد التى تنسب حادثة معينة لمجموعة خاصة من الأسباب التى يسميها فيبر مركب الأسباب Constellation ويرغم ان كلا من مكونات هذا المركب له دورة فى تأسيس الموافقة موضع الدراسة إلا أنهم لايتساوون من حيث الأهمية فى احداث الواقعه من وجهة نظر المؤرخ . ومن ثم فهو ينتقى من بينها ، وحينئذ تكون المشكلة التى تواجهنا : كيف يمكن للباحث أن يقدر أهمية السبب (١٢٨) .

٢ - وفى اطار الاعتبار الثانى يرفض فيبر الطابع الحتمى للسببية . اذ نجده منذ البداية يرفض استخدام مصطلح الضرورى Necessary ويستبدله بمصطلح كاف Adequate فى هذا الصدد نجد ان فيبر مدفوع بالرغبة فى فعل أى شئ فيما يتعلق باغفال الطابع اللاعقلانى للتطور . ومن ثم فهو يرفض التطور الطبيعى والحتمى الخالص للتاريخ ، بينما هو يبقى على صدق التفسير السببى (١٢٩) . اذن يرفض فيبر اعتقاد المؤرخين بأن الماضى كان محتما بينما المستقبل ليس كذلك ، فهو محرر من هذه الحتمية ، ذلك لأن النظر فى هذه القضية يكشف عن تناقض أساسى ، لأن ماهو ماض بالنسبة لى هو مستقبل بالنسبة لآخرين . فاذا كان المستقبل ليس حتميا على هذا النحو ، اذا فليس هناك بالتالى تفسير حتمى للتاريخ ، اذ انه من الناحية النظرية نجد ان امكانية التفسير السببى هى ذاتها بالنسبة للمستقبل والماضى . اذا لماذا لا نعرف المستقبل بصورة مؤكدة ؟ . من المؤكد على ما يذهب فيبر أنه من الممكن ان يواصل الباحث تحليله السببى للتاريخ بدون الوصول الى تفسير سببى ملزم ، ذلك لأن الواقعة المعقدة عادة ماتكون نتيجة لعدد كبير من الظروف فى وقت واحد . ذلك ان البشر قد يصدرون قرارتهم الحادة فى أى من لحظات التاريخ ، مثلما سوف يصدر الآخرون قراراتهم أيضا ، غير ان هذه القرارات عادة ماتكون متأثرة بالظروف وتتضمن قدرا من الحرية لأن هناك الآخرين فى ذات المراكز الذين قد تكون لهم قرارتهم المختلفة . حقيقة انه فى كل فترات التاريخ تسود اتجاهات أساسية ، غير ان هناك دائما قدرا من الحرية للبشر ، بسبب عدد من العوامل الأخرى ، التى لها فاعليتها فى اتجاهات متباينة (١٣٠) .

بذلك فان التحليل السببى للتاريخ يميل الى التمييز بين الدور الذى يؤدى أو ينجز بتأثير الظروف العامة ، وبين فاعلية شخص معين أو حادثة معينة عارضة ، فللأفراد والأحداث العارضة دورهم فى التاريخ . ولما كان اتجاه التطور الاجتماعى والانسانى غير محدد قبلا ، فانه من المهم ان نمارس التحليل السببى للماضى من أجل تحديد المسئوليات التى يمارسها أفراد معينون ، أو تلك المتعلقة بأهداف معينة (١٣١) . فى اطار ذلك فانه يؤكد انه اذا كان كل شئ محددا قبلا ، فان السياسة سوف تصبح عملا لا معنى له . والى المدى الذى نجهل فيه طبيعة المستقبل وان هناك قليلا من البشر القادرين على صياغة ، فان السياسة سوف تصبح جهدا انسانيا نبيلا (١٣٢) . بالاضافة الى ذلك يؤكد فيبر ان السببية لها طابعها الزمانى والمكانى النسبى ، ومن ثم فهو يرفض التكرار السببى لفاعلية ذات العوامل تاريخيا وجغرافيا ، ويلغى ضمنيا أية حتمية يمكن ان

تتحكم فى تشكيل مسار التفاعل الاجتماعى (١٣٣) .

٣ - أما الأعتبار الثالث فيتعلق بطبيعة سببية الواقعة بين الشمول والتحدد ، اذ يؤكد ان السببية ينبغى ادراكها بأسلوبين ، الأول باعتبار أنها سببية خاصة والثانية على انها سببية عامة . فمثلا فى محاولة تحديد أسباب الحرب العالمية الأولى ، فاننا سوف نهتم بمعاهدة ساراجيفو Sarajevo ، أو الانذار النهائى النمساوى الخ ، مثل هذه الأحداث لها قيمة الأسباب الخاصة ، لكونها علاقات ساعدت على اذكاء العدائيات . ومن ناحية أخرى فاننا اذا تحدثنا عن الأسباب الاقتصادية للحرب ، فاننا حينئذ نتناول الواقعة على - الظاهرة موضوع الدراسة - مستوى آخر هو المستوى النمطى ، أو المستوى العام . ثم يؤكد فيبر انه لمن المؤسف ان المؤرخين وعلماء الاجتماع قد خلطوا هذين الأسلوبين لفهم السببية (١٣٤) .

واقع الأمر على ما يذهب فيبر ان المنهج التعميمى لا يدرك العلاقات السببية بنفس أسلوب منهج التفريد . ذلك لأن السببية بمعناها الأصلى تحتوى على فكرتين أساسيتين ، الأولى فكرة السلوك العقلانى ، الذى يعبر عن حالة من الدينامية بين ظاهرتين متباينتين كيفيا ، والثانية فكرة الاندراج تحت قاعدة عامة . فى اطار ذلك نجد ان فكرة التعميم تميل لألغاء فكرة الفعل أو السلوك ، وبالتالى فكرة السبب وتبقى فقط على فكرة القانون بمعنى المساواة الرياضية بين الظواهر موضع الاهتمام . على عكس ذلك تحاول طريقة التفريد Individualizing اهمال فكرة القاعدة العامة أو القانون ، وتبقى التركيز قائما على التفرد الكيفى للتطور بشكل عام أو التحديد الكيفى لأى من مجالاته . ولا يعنى ذلك تفضيل فيبر لأى من نمطى السببية على الأخر ، أو ان السببية لا وجود لها فى علوم التاريخ ، أو ان تحليل السببية التاريخية أقل علمية ودقة من أى تحليل آخر (١٣٥) .

٤ - ويتعلق الاعتبار الرابع والأخير بضرورة توفر خاصيتين أساسيتين للسبب الذى نرى انه يؤدى دورا بارزا فى التفاعل المتعلق بالواقعة موضع الدراسة . أما الخاصية الأولى فتتصل بالامكانية الموضوعية لهذا السبب . ونعنى بذلك أن هناك دراسات متعددة تؤكد الفاعلية السببية لهذا العامل أو ذاك ، بمعنى ان تحديد الامكانية الموضوعية مسألة تتعلق باعتراف النسق العلمى بأهمية العامل موضع الاهتمام بالنظر الى اختيار صدقه وثبات دوره النسبى (١٣٦) . أما تحديد الخاصية الثانية وهى الكفاية ، فهى مسألة تتعلق بالتجربة الخيالية التى يجريها الباحث . حيث يؤكد فيبر أنه من أجل الوصول الى

العلاقات السببية الحقيقية ، فان علينا أن نؤسس علاقات سببية غير حقيقية . فالمؤرخ ، مستندا الى معرفته ، وعلى المصادر المتيسرة له ، يتخيل التغير الممكن لمسار التطور اذا ما ألغى السبب المسلم به أساسا للواقعة . وبهذا الأسلوب يقيم دلالة وأهمية هذا السبب بالنسبة للتطور التاريخى الذى ندرك وقوعه (١٣٧) .

وفى أعقاب توضيح الاعتبارات الأساسية لادراك العلاقات السببية من وجهة نظر ماكس فيبر ، نؤكد أنه طرح نمطين أساسيين من العلاقات السببية . فوفقا لما يذهب اليه هناك نمطان من السببية ، وللتبسيط سوف نسمى احداهما بالسببية التاريخية ، أما الثانية فنسميها بالسببية السوسيولوجية . وتحدد السببية التاريخية الظروف الفريدة التى أدت الى ظهور واقعة معينة . أما السببية السوسيولوجية فتهدف دائما الى تأسيس علاقة اطرادية بين ظاهرتين ، بحيث لا تحتاج هذه العلاقة أن تتخذ شكل ان (أ) تستوجب حتميا الظاهرة (ب) ، ولكنها ربما تتخذ شكل ان الظاهرة (ب) ، على سبيل المثال القضية – الصحيحة أو الزائفة – التى تؤكد ان النظام السياسى المستبد يدعم تدخل الدولة فى السيطرة على الاقتصاد .

وتتحدد قضية السببية التاريخية فى كونها تهتم بتحديد دور المقدمات Antecedents المتعددة الكامنة وراء واقعة معينة ويتضمن تحليل السببية التاريخية ضرورة اتباع الاجراءات التالية :

(أ) أنه ينبغى على الباحث أن يؤسس الذات Identity أو الموضوع التاريخى الذى نرغب فى تحديد أسبابه . قد يكون هذا الموضوع واقعة خاصة كالثورة البلشفية أو موضوعا تاريخيا من النمط الشامل كالرأسمالية . وييسر تأسس الموضوع التاريخى التحديد الدقيق لخصائص الواقعة التى نبحث عن أسبابها . فلكى نعرف أسباب الحرب العالمية الأولى فان علينا ان نكتشف أسباب اندلاع الحرب فى أغسطس . ومن ثم فأسباب هذه الواقعة المعينة ينبغى أن لا تختلط مع أسباب الحرب التى ترددت فى تاريخ أوربا ، أو مع أسباب ظاهرة الحرب التى نواجهها فى كل الحضارات . وبعبارة أخرى ، تتمثل القاعدة الأولى للمنهجية السببية فى المجال التاريخى السوسيولوجى فى التحديد الدقيق لخصائص الموضوع التاريخى الذى يرغب الباحث فى فهمه ودراسته .

(ب) ينبغى تحليل الظاهرة التاريخية الخاصة والمعقدة الى عناصرها الأساسية . ذلك لأن العلاقة السببية ليست علاقة مؤسسة بين كلية اللحظة (أ) وكلية اللحظة السابقة (أ) ، لأن العلاقات السببية عادة ماتكون علاقات جزئية من عناصر معينة تتعلق بالخاص التاريخى

وبين بعض المقدمات أو الحقائق السابقة .

(ج) انه فى حالة الاهتمام بتتابع سببى معين وقع مرة واحدة ، فانه لتحديد العلاقة السببية فان على الباحث أن يتبع ذلك بتحليل المفرد التاريخى ومقدماته بواسطة التجربة العقلية التى تتكون من تخيل ان تقع أى من العناصر السابقة بشكل مخالف ، أولا تقع على الاطلاق . فحينما نطبق التحليل السببى على حالة تاريخية مفردة ، فانه ينبغى أن يستمر عن طريق نوع من الاستبدال التخيلى Imaginary Alteration لأى من العناصر . ومن ثم نحاول تحديد ماذا يمكن أن يحدث اذا كان هذا العنصر غائبا ، أو اذا اتخذ شكلا آخر .

(د) وأخيرا فانه ينبغى أن نقارن هذا التطور المتخيل الذى أسس افتراضيا عن طريق تبديل Altering أى من المقدمات ، بالتطور الحقيقى ، وذلك قبل الوصول الى نتيجة أن العنصر المستبدل افتراضيا يعتبر أحد الأسباب المتعلقة بالموضوع التاريخى موضع الدراسة .

خلاصة القول ان السببية التاريخية تتعلق بالمفرد التاريخى ، حيث تحاول استجلاء مقدماته عن طريق التبديل العشوائى لهذه المقدمات ، أو عن طريق الاستعانة بالتجربة العقلية فى احيان أخرى ، أو بالاستعانة بالنموذج المثالى كوسيلة قياسية لتحديد الأسباب الجوهرية . بحيث يتم ذلك دون الاستعانة بأية افتراضات عامة على النحو الذى تعمل وفقا له السببية السوسيولوجية .

فاذا اتفقنا على أن السببية التاريخية تستغرق فى المفرد التاريخى للبحث عن مقدماته على حساب أغفال المفرد المماثل له أو القانون العام الذى يحكم اطراد التفاعل فى هذه المفردات ، فاننا نجد ان السببية السوسيولوجية اهتمت أساسا بالبحث عن القانون أو التعميم العام الذى يحكم وقوع أو اطراد الظواهر الاجتماعية . وتتميز السببية السوسيولوجية فى انها ذات طابع احتمالى أساس ، وتتنوع درجة الاحتمالية بتنوع الظروف . لذلك نجد أن التفكير السببى لماكس فيبر قد تمت صياغته بشكل احتمالى أساسا (١٣٨) ، وذلك يطرح تساؤلا يتعلق بطبيعة العلاقات التى تربط بين ظواهر التفاعل فى بناء المجتمع .

أول هذه العلاقات تلك التى حاول فيبر رفضها ، وهى السببية الأحادية التى تتميز بالحتمية والتى يشكل فى اطارها المجتمع بواسطة أحد عناصره كالنسق الاقتصادى

مثلا (١٣٩) . ورغم ان فيبر يرفض هذه الحتمية الأحادية ، كرفضه الموقف الماركسى الذى يعطى الأولوية للعوامل الاقتصادية فى صياغة التفاعل الاجتماعى ، فاننا نجده يدعم فكرة شديدة التناقض لماركس حينما يسقط فى حتمية مضادة ويفسر الجناب الاقتصادى بالنظر الى الدين (١٤٠) . غير أن حقيقة الأمر تتمثل أنه لايفترض سببية شاملة للدين ، وانما هو قد أراد من تأكيده على الدين أن يوضح أن اتجاهات البشر الاقتصادية تحكمها أنساق معتقداتهم ، مثلما يمكن أن تحكم معتقداتهم بواسطة النسق الاقتصادى . وهو بذلك يدعم موقفا يرفض فى اطاره السببية الحتمية للواقع الاقتصادى الاجتماعى فى صياغة المعتقدات (١٤١) .

فاذا جاز لنا ان نسمى النمط السابق للسببية بالحتمية النسقية ، فان النمط الثانى للحتمية الذى يرفضه فيبر يمكن ان نسميه بالحتمية الكلية . حيث نجده يرفض بهذا الصدد التتابع المتكرر للأشكال البنائية التى حدد تطورها كارل ماركس فى تكررها التاريخى والجغرافى . وأيا كان الموقف الذى يقفه فيبر فاننا نجده يعبر عن موقف ذى ملامح خاصة ، فهو يرفض تشكل الكلية البنائية بكلية بنائية أخرى . حيث يرفض ان تتحدد الملامح الكلية للمجتمع فى المستقبل بواسطة بعض خصائص المجتمع السابق عليه ، فنظرا لأن السببية لديه تحليلية وتجزيئية فانها لا تساعدنا عادة على تحديد ملامح المجتمع الرأسمالى أو مابعد الرأسمالى فى المستقبل . ولايعنى ذلك ان فيبر يعتقد أنه من المستحيل ان نحدد بعض ملامح المستقبل بل على العكس نجد أنه مقتنع بأن عمليتى الترشيد Rationalization والبيروقراطية Bureaucratization قد تستمر بقوة فى المجتمعات الحديثة . غير ان هذه العملية لا تستطيع ان تحدد بدقة طبيعة النظام السياسى وأساليب الحياة والتفكير والاعتقاد التى سوف تكون لدى البشر فى المستقبل (١٤٢) . واذا كان فيبر قد رفض تطور الأشكال البنائية على النحو التراكمى الذى رسمه ماركس فاننا نجده يرفض فى ذات الوقت الموقف الذى اتخذه بورك ، الذى أكد أن شكل المجتمع فى المستقبل والحاضر شاركت فى صنعه أجيال الماضى ، ومن ثم فليس من حق أجيال الحاضر تغييره وفقا لتصورها الخاص ، فالحاضر بدأ فى الماضى ، والمستقبل سوف يتشكل وفقا لعناصره الحاضرة (١٤٣) .

أما الحتمية الثالثة التى يرفضها فيبر فهى الحتمية الزمانية ، لأن الزمان ليس ثابتا بالنسبة لكل الأشكال . وانما هو متغير نسبى بالنسبة لمعظم الأشكال . وانما هو متغير نسبى بالنسبة لمعظم الأشكال . فالتطور الزمانى يطرح على الواقع دائما متغيرات جديدة . فالواقعة المعقدة عادة ماتكون نتاجا لعدد هائل من الظروف المتزامنه ، ففى لحظات التاريخ الهامة فى

الماضى أصدر البشر قراراتهم مثلما سوف يصدر بشر آخرون فى المستقبل قراراتهم أيضا ، غير ان هذه القرارات تتأثر بالظروف ، وهو مايعنى تأسيس قدر أعلى من الحرية للبشر فى اصدار قرارات متباينة فى مختلف المراحل (١٤٤) .

يبقى بعد ذلك ان نوضح علاقة السببية التاريخية بالسببية السوسيولوجية ، فالسببية التاريخية تحاول الفهم المتعمق للمفرد التاريخى . بيد ان هذا الفهم - سواء كان من منطق ادراك المعنى أو من منطق تحديد المقدمات السببية - لابد ان يتم بالنظر الى مجموعة من المقولات العامة التى تشكل اطارا شاملا للفهم والانتقاد . هذا الاطار يتم الوصول اليه عن طريق ملاحظة وتحليل مفردات تاريخية متعددة . وهنا نستطيع التأكيد على ان ثمة تساوقا متبادلا بين الاستغراق فى المفرد التاريخى الذى يساعد على تأسيس واثراء التعميم السوسيولوجى الذى يساعد بدوره على الفهم الأعمق للمفرد التاريخى الذى أسهم فى تجريده .

تلك هى المعالم العامة للسببية عند ماكس فيبر ، والعلاقة بين السببية التاريخية والسوسيولوجية . وعلى ذلك فهناك على مايبدو لنا ، علاقة وثيقة بين تحليل الأحداث أو الوقائع من ناحية ، وبين تأسيس القضايا العلمية من ناحية أخرى . اذ يمثل كل من التاريخ وعلم الاجتماع مدخلين لفهم الحقيقة الواقعية أكثر من كونهما علمين لا صلة بين أى منهما بالآخر ، ومن ثم يتطلب الفهم التاريخى استخدام القضايا العامة . ويمكن أن نوضح هذه النقطة عن طريق البدء بالتحليلات والمقارنات التاريخية . ولعل هذا التساند بين التاريخ وعلم الاجتماع يتبدى بوضوح بأكثر فى تصور ماكس فيبر عن ( النموذج المثالى Ideal type ) الذى يعتبر بمعنى ما تأليفا لمذهبه المعرفى Epistemological doctrine (١٤٥) .

**رابعا : النموذج المثالى ، بناؤه ووظائفه .**

يمثل النموذج المثالى ، الذى يعتبر أكثر مفاهيم فيبر محورية النتيجة المنطقية لتآلف اتجاهات متعددة فى التفكير الفيبرى . فهو من ناحية يساعد على التفهم Comprehension ، حيث يعتبر كل نموذج مثالى تنظيما لمجموعة العلاقات الأساسية فى كل واقعة تاريخية ، أو سلسلة من الوقائع . وفضلا عن ذلك نجد ان للنموذج المثالى علاقة بكل من المجتمع والعلم من خلال عملية الترشيد . ومن ثم يعتبر تأسيس النموذج المثالى تعبيرا عن كل المحاولات المتميزة لكل النظم العقلية ، والتى كانت تهدف من وراء تأسيسه الى توضيح موضوع بحثها عن طريق

الكشف عن عقلانيته الداخلية وتأسيسها . وأخيرا النموذج المثالى ، بالتصور الجزئى أو التحليلى للسببية ، وهو فى ذلك يساعدنا على فهم الوقائع أو العناصر التاريخية وان كان هذا الفهم عادة مايكون جزئيا بالنسبة لكل كامل (١٤٦) .

ومن الناحية التاريخية تظهر أولى صياغات ماكس فيبر للنموذج المثالى من خلال تفكيره كمؤرخ اقتصادى ، فى الفترة التاريخية التى تعرض خلالها لتأثير ركرت Rickert (١٤٧) . ففى اطار موافقته على تمييز ركرت بين التاريخ من ناحية والعلوم الطبيعية والاجتماعية من ناحية أخرى ، فان النماذج المثالية بدت حينئذ كأداة منهجية فى يد المؤرخ أساسا . ومن ثم فلقد كان هدفه من مقاله ( الموضوعية فى العلوم الاجتماعية ) أن يصف منطق استخدام النماذج المثالية وان يوضح الاختلافات والاتفاقات بينها وبين القانون فى العلوم الطبيعية (١٤٨) . هذا بالاضافة الى ان فيبر قد تعرف على استخدام النماذج المثالية عند مفكرين كان له معهما شأن كبير . أولهما جورج زيمل الذى اهتم ببناء التأسيسات الصورية لعديد من الأشكال البنائية كالمجتمع المحلى والمجتمع العام . والثانى من خلال كارل ماركس اذ يؤكد فيبر اننا سوف نشير هنا بالتحديد الى القوانين الماركسية وتأسيس الأشكال البنائية على أنها نماذج مثالية (١٤٩) .

وتكمن الصعوبة فى نظرية ماكس فيبر عن النماذج المثالية فى حقيقة انه يمكن التمييز فى اطارها بين عنصرين أساسيين ، بحيث يتمثل العنصر الأول فى وجود ميل عام للنمذجة المثالية Ideal-typical tendency لكل المفاهيم المستخدمة فى الثقافة والعلوم . أما الثانى فيتمثل فى الأنواع المحددة للنماذج المثالية التى ميز بينها فيبر ضمنيا على الأقل (١٥٠) . وبشكل عام فاننا نلاحظ فى فلسفة فيبر ميلا عاما نحو صياغة النماذة المثالية ، فما هو النموذج المثالى ؟ اجابة على ذلك يطرح فيبر تعريفات عديدة تتسم أحيانا بقدر من الغموض . فهو يؤكد أحيانا ( ان النموذج المثالى يتأسس عن طريق الابراز الجزئى لوجهة نظر أو أكثر يمكن ترتيبها بالنظر الى وجهات النظر الجزئية الأخرى فى اطار تأسيس تحليلى موحد ) (١٥١) وفى موضع آخر نجده يذهب الى ان النموذج المثالى عبارة عن وصف منطقى متسق من وجهة نظر محددة . بحيث يؤدى ذلك الى توضيح علاقات الوسائل بغايات الفعل حتى يساعد ذلك الباحث على تجميع الأفكار أو الارتباطات والتفسيرات المتناثرة فى اطار علم قابل للفهم (١٥٢) ولتجنب الاستغراق فى تعريفات تتميز الى حد كبير بالغموض فاننا سوف نحاول التعرف على النموذج المثالى من خلال تحديد عناصره الأساسية كما يلى :

١ – انه نظرة جانبية أو جزئية تتم بالنظر الى الاطار النظرى للباحث ، وذلك من شأنه أن يترك هامشا لتأثير التوجيه القيمى للباحث فى تحديد العناصر الأساسية للنموذج .

٢ – انه يعبر عن نظرة أحادية يجرد الباحث من خلالها – انتقائيا – عناصره الرئيسية من الظواهر الواقعية .

٣ – ان هذه العناصر التى يرى الباحث انها تشكل العناصر المحورية للواقعة أو الظاهرة – موضع الدراسة – يتم تأسيسها – بالاضافة الى بناء العلاقات المنطقية بينها – فى اطار بناء نظرى له اتساقه المنطقى وقدرته على المساعدة فى الفهم والتوضيح (١٥٣) .

وبالنظر الى ذلك فان التحديد الايجابى للنموذج المثالى كما يراه ماكس فيبر يتبدى فى كونه بناء من العناصر التى جردت عن الواقع والتى وضعت مع بعضها البعض ، لكى تشكل نموذجا تصوريا موحدا وهو مايتضمن المبالغة لبعض جوانب الحقيقة . وفى محاولة لتحديد هوية النموذج المثالى بشكل أكثر وضوحا يؤكد ماكس فيبر ان النموذج المثالى ليس الصياغات النظرية التالية :

(أ) فهو ليس فرضا نظريا ، بمعنى أن ليس قضية تتعلق بالحقيقة الواقعية ، ومن ثم يمكن اختبار صدقها الواقعى ، فالنموذج المثال عادة مايتميز بالتجريد .

(ب) انه ليس وصفا للواقع ، اذا كنا نعنى بهذا الواقع موضوعا له وجوده الواقعى المتصل بهدف الوصف ، فى اطار ذلك أيضا يتميز النموذج المثالى بالتجريد .

(ج) أنه ليس متوسطا ، بالمعنى الذى يمكن أن نقول فى اطاره ان متوسط وزن الرجل يصل الى ١٥٠ رطلا . فالرجل المتوسط ليس نموذجا مثاليا .

(د) انه ليس صياغة للسمات الواقعية المشتركة بين فئات من الموضوعات الواقعية ، كان نقول ان وجود اللحى لدى الرجال يميزهم عن النساء (١٥٤) .

أما كيف يمكن تأسيس النموذج المثالى ، فاننا نجد ان فيبر يؤكد أنه ليس إلا استراتيجية للتفسير الامبيريقى ، ومن ثم فهو يتشكل بالنظر الى المعرفة العلمية المتيسرة للباحث وقت اجرائه للدراسة ، وبالنظر الى المواقف الامبريقية التى يحاول ادراكها . وبمجرد أن يساعد النموذج المثالى على تحقيق الفهم ، فانه يفقد وظيفته ، ويظل الانتفاع به على مستوى كونه وظيفة تربوية فقط . وهناك محكان أساسيان ينبغى مراعاتهما عند صياغة النموذج المثالى

– الأول هو الامكانية الموضوعية Objective Possibility ، والثانى هو السببية الكافية Adquate causstion – اذ تضمن الوحدة أو العنصر فى بناء النموذج المثالى اذا لم تتناقض والمعرفة العلمية الموجودة بشأنه والمتيسرة للباحث فعلا ، بذلك تتوفر لعنصر النموذج خاصية الامكانية الموضوعية ، أى تصبح ممكنة من الناحية الموضوعية . ويمكن ان تتدرج الامكانية أو الدلالة الموضوعية لأى عنصر أووحدة من صفر الى ١٠٠ . أما الكفاية السببية فنعنى بها أن يكون العنصر الذى يدخل فى بناء النموذج المثالى – له دلالته السببية بالنسبة للنتيجة – أى بالنسبة للسلوك البشرى موضع الاهتمام والدراسة . فاذا تمت صياغة النموذج المثالى ، فانه ينبغى أن يساعدنا على تحديد المواقف المختلفة بدرجة أكثر مما يمكن انجازه بدونه ، فتأسيسه يساعد على مقارنة التنوعات الواقعية ، وليس المقارنة بين النماذج المثالية . وعلى هذا المستوى ، اذا ساعدنا النموذج المثالى على تحقيق مستوى من الفهم يكون قد أدى وظيفته ، أما اذا طلبنا فهما أكبر من ذلك فان ذلك يعنى افتراض صياغة نموذج مثالى آخر (١٥٥) . ويذهب ماكس فيبر الى امكانية أن ينجز النموذج المثالى الوظائف الأساسية التالية :

(أ) أنه عبارة عن وسيلة منهجية موجهة نحو توضيح معنى الموضع قيد البحث . وبعبارة أخرى فهو عبارة عن اجراء منهجى خالص يطوره الباحث اراديا وفقا لحاجات البحث ، ويمكن أن يتخلى عنه اذا لم يؤد وظيفته أو يشبع توقعاته . وبذلك تتحدد قيمة النماذج المثالية بالنظر الى فعاليتها فى عملية البحث . فاذا لم تكن كذلك فان للباحث حرية تأسيس نماذج مثالية أخرى أكثر فعالية . بذلك فالنماذج المثالية فى ذاتها ليست صادقة أو زائفة ، ولكنها مثل أى أداة منهجية أخرى مفيدة أو غير مفيدة (١٥٦) .

(ب) يكمن الدور الحقيقى للنماذة المثالية فى كونها تعتبر وسيلة توضيحية تساعد على اصدار الأحكام التى تتضمن التنسيب السببى ، وذلك يعنى أنها لا تؤدى دورها كفروض ، ولكنها تساعدنا على تأسيس الفروض . بالاضافة الى ذلك فان استخدام النموذج المثالى من شأنه أن يساعدنا على تحديد ماهو فريد وأساسى بالنسبة للأحداث أو المواقف ، عن طريق التوضيح فى كل حالة لمدى ابتعاد الواقع عن الصياغة التحليلية المجردة وغير الواقعية . وبذلك يؤدى النموذج المثالى دوره كوسيلة قياسية (١٥٧) .

(ج) وتتحقق الوظيفة الثالثة حينما نتمكن من صياغة عدد من النماذج المثالية المختبرة كفاءتها وصدقها الامبيريقى ، ومن ثم نجدها تشكل فى مجموعها اطارا نظريا شاملا له قدرته النسبية على فهم الواقع المتفاعل وادراك علاقاته السببية . وبذلك تتحول النماذج

المثالية لأية وقائع أخرى الى كتل بناء لتأسيس الصرح النظرى الشامل الذى هدف اليه ماكس فيبر (١٥٨) .

(د) أما الوظيفة الرابعة للنموذج المثالى فتتمثل فى امكانية استخدامه كوسيلة للمقارنة الموضوعية والعلمية . فالمقارنات التى أجراها الرواد الذين سبقوا ماكس فيبر قد وجهت باطار نظرى لكنها افتقدت المحكات التى يمكن على أساسها أن تتم المقارنة . وهنا نستطيع التأكيد على ان فيبر قد طور المنهج المقارن حيث اعتبر النموذج أساس للمقارنة يمكن بناء عليه قياس أو تحديد أى انحراف للواقع الاجتماعى موضع المقارنة (١٥٩) . ويرى ماكس فيبر أن هناك عدة أنواع للنموذج المثالى نذكرها فيما يلى :

(١) النماذج المثالية المتعلقة بالمفردات التاريخية Ideal types of historical particulars كالنماذج المثالية للرأسمالية أو المدنية الأوربية الغربية . ويظل النموذج المثالى للمفرد التاريخى مجرد صياغة جزئية مادام عالم الاجتماع ينتقى عددا معينا من سمات الكل التاريخى لكى يشكل منها ذاتية واضحة .

(٢) ويتكون الشكل الثانى للنموذج المثالى من مجموعة العناصر المجردة عن الواقع التاريخى ، وهى العناصر التى يمكن ان توجد أو تتردد فى عدد كبير من الحالات . وفى حالة ترابطها ، فانها تساعدنا على فهم الكليات التاريخية الحقيقية .

ويتضح اختلاف الشكلين - الأول والثانى - عن بعضهما البعض ، اذا اعتبرنا الرأسمالية مثالا على الأول بينما البيروقراطية مثالا على الثانى . فنحن فى الحالة الأولى نشخص ذاتا تاريخية ذات وجود حقيقى لا مثيل له ، بينما نحن فى الثانية نشير الى نظام لايغطى البناء بكامله أو من الممكن أن يجد الباحث أمثلة كثيرة له فى لحظات تاريخية مختلفة . ويمكن أن يتأسس هذا الشكل الثانى بالنظر الى ثلاثة مستويات :

(أ) التجريد المرتبط بمفاهيم مثل البيروقراطية والأقطاع .

(ب) المستوى الثانى يتعلق بالأمثلة أو الأنواع كالنماذج المثالية للسيطرة domination ، العقلانية ، التقليدية ، الكارزمية .

(ج) أما المستوى الثالث فهو أعلاها تجريدا ، حيث يتعلق بنماذج الفعل ، حيث الفعل العقلانى بالنظر الى القيم ، الفعل العقلانى ، ثم الفعل التقليدى ، والفعل العاطفى .

(٣) أما الشكل الثالث للنموذج المثالي فيتعلق باعادة التأسيس الرشيدة لنوع معين من السلوك ، على سبيل المثال تأسيس نماذج مثالية لمختلف قضايا النظرية الاقتصادية ، والتي تتعلق بالأساليب التي يتصرف البشر وفقا لها في مواجهة موضوعات اقتصادية خالصة . حيث تدرك النظرية الاقتصادية السلوك الاقتصادي على انه سلوك يتسق مع جوهره ، هذا الجوهر الذي يمكن تحديده بشكل دقيق (١٦٠) .

وبرغم فعالية النماذج المثالية كوسائل منهجية تعمق من عملية المنهج المقارن ، وتلغي الى حد كبير التحيزات القيمية التي قد يسقط في أسارها الباحث فانه قد وجهت اليها عدة انتقادات يمكن اجمالها فيما يلي :

(أ) حيث يؤكد النقد الأول انه نظرا لأن الباحث هو الذي يؤسس النماذج المثالية . ومادامت النماذج المثالية ليست إلا تأسيسات ابتكارية فان الباحث قد يتجه الى تبني العناصر المؤسسة لنموذجه المثالي من خلال وجهة نظر متحيزة . وذلك يعني ان ماقمنا بتأسيسه ماهو إلا مقياس خاص وذاتي ، ومن ثم فنتاج القياس سوف يكون خالصا لا ينتمي الى موضوعية العلم في شئ . يضاف الى ذلك اننا نتحيز حينما نفترض مقارنة المفردات الواقعية بالنماذج المثالية التي أسسناها خياليا لكي نحدد قدر الانحراف عن النموذج المثالي . وذلك على مايذهب البعض ليس سوى رياضة عقلية ، لأن مفردات الواقعية ينبغي أن تكون منحرفة عن نماذجها التالية ، مادام هذا الانحراف قد شارك فيه الباحث ذاته عند تجريده للنموذج المثالي (١٦١) .

(ب) انه اذا قلنا ان النموذج المثالي يتشكل من ابراز مايعتبره الباحث الخصائص أو الميول الأساسية للظاهرة موضع الدراسة ، فان هناك أخطاء يمكن أن تصاحب هذه العملية ، نذكر منها :

(١) ان الباحث قد يقع في خطأ اعتبار التأسيس النظري الذي تولى صياغته مقياسا أو اطارا ينبغي على المعطيات الواقعية أن تتكيف معه أو وفقا له .

(٢) ان الباحث قد يخلط بين التأسيس النظري الذي جرد عن الحقيقة من ناحية وبين الحقيقة الواقعية من ناحية أخرى .

(٣) ان الباحث هو الذي يفترض العناصر التي تشكل القوى الحقيقية للنموذج .

ويؤكد زايلتن أنه اذا أمكن تجنب هذه المخاطر فان النموذج المثالي يمكن أن يصبح أداة فعالة نستطيع بواسطتها مواجهة الواقع وادراكه (١٦٢) .

(ج) أما الانتقاد الثالث فيذهب الى أنه مادام النموذج المثالى ليس سوى تحديد للعناصر الأساسية للظاهرة موضع الدراسة ، فان هذا التحديد أو التجريد غالبا مايتم بالنظر الى الحقيقة وهى فى حالتها الساكنة . ومن ثم فان ذلك يجعل النموذج المثالى غير قادر على استيعاب الجوانب الدينامية للظاهرة . بالاضافة الى ذلك فان الواقع متغير يطرح دائما متغيرات جديدة . ومن ثم فاننا نجد ان النموذج المثالى كاطار نظرى مجرد يتخلف عن الواقع المتطور بمجرد تأسيسه . ذلك يجعل الباحث فى حالة دائمة من التأسيس التجريدى الذى يتجاوزه الواقع دائما بما يجعل المسألة عبئا نظريا على الباحث ، بحيث تتضاءل قيمة الناتج كثيرا أمام تكاليفه .

(د) ويذهب الانتقاد الرابع الى ان النموذج المثالى يؤدى عادة الى عديد من التحيزات والأخطاء . فى اطار ذلك يذهب افرايم فيشوف Ephraim Fishoff الى أنه بمجرد تأسيس ماكس فيبر للنموذج المثالى للنظام الرأسمالى كما فعل ، مؤكدا على عقلانيته ، وجدته ، وطبيعته التقشفية ، فانه لم يواجه صعوبة كبيرة فى اكتشاف عناصر الالتقاء مع التأسيس النظرى للأخلاق البروتستنتية التى تميل فى ذات الاتجاه (١٦٣) . بالاضافة الى ذلك ، فقد تضمن منهج فيبر فى تأسيس النماذج منطقا انتقائيا ، فيما يتعلق بالمكونات الثقافية المتباينة من حيث أوزانها النسبية فى تشكيل الواقع موضع الاهتمام (١٦٤) .

بيد ان الانتقادات السابقة تتضمن قدرا عاليا من المبالغة التى تجعلها تتجاوز الحقيقة الى حد كبير . ففيما يتعلق بالانتقاد الأول والذى يدور معظمه حول التحيز الذى قد يصيب النموذج المثالى من جراء تدخل الباحث فى صياغته مما يفقده القدرة على تناول الحقيقة الواقعية بالدراسة والفهم . نرى ان النموذج المثالى لظاهرة معينة يركز عادة على عناصرها الأكثر أساسية كما أكدت ذلك دراسات عقلانية وعلمية كثيرة . وثانيا ان النموذج المثالى يستخدم لدراسة كل الظواهر التى قد تتجانس ، كليا أو جزئيا – مع الظاهرة التى جرد عنها ، وان لم تشارك هذه الظواهر فى تأسيسه ، ومن ثم يبتعد النموذج المثالى كثيرا عن أن يكون مجرد رياضة عقلية . هذا بالاضافة الى ان اشراك أى مقولة فى بناء النموذج المثالى لابد وان يتم وفقا لمحكين هما الكفاءة السببية ثم الامكانية الموضوعية ، وهى محكات تؤكد صفة الخارجية للنموذج المثالى بالنسبة للباحث والظاهرة موضع الدراسة ، مما يحقق انفصال الباحث عن الظاهرة موضع الدراسة .

أما فيما يتعلق بالانتقاد الثانى الذى يؤكد على امكانية ان يخلط الباحث بين التأسيس

النظرى من ناحية وبين الحقيقة الواقعية من ناحية أخرى ، أو فرض هذا النموذج على الحقيقة الواقعية . فان ذلك لا يعتبر عيبا فى النموذج المثالى كتأسيس نظرى ، وانما يرجع الى عدم كفاءة الباحث أو سوء استخدامه له .

وبالنسبة للانتقاد الثالث نرى أنه اذا كان يمكن ان نجرد النموذج المثالى بالنظر الى الظواهر الساكنة ، فاننا يمكننا أيضا تجريده عن الظواهر الدينامية ، الشاملة أو الجزئية ، وأن استخدام كل من ماركس وماكس فيبر للنموذج المثالى تم بالنظر الى الظواهر الثابتة والدينامية على السواء .

أما الانتقاد الرابع فنحن لانتفق فيه مع افرايم فيشوف ، حيث قام فيبر بتحديد قدر كبير من المكونات السببية للنظام الرأسمالى مقارنا اياها مع النظم الرأسمالية التى ظهرت فى اطار ديانات وحضارات أخرى ، كاليهودية ، والصينية والهندية ، محددا بناء على استخدامه للنموذج المثالى الانحرافات الواقعية لمختلف الرأسماليات عن النموذج المثالى ، وبالتالى أمكنه تحديد العوامل التى قد أدت دورا فى دعم ظهور الرأسمالية واستمرارها فى الحضارة الغربية ، وأيضا تلك التى أعاقت ظهورها واستمراريتها فى الحضارات الأخرى .

# الفصل الثانى عشر

# النظرية السوسيولوجية لماكس فيبر
# رؤيتها للنظام الرأسمالى وتفاعلاته

## المحتويات

## مقدمة

اعتقد ماكس فيبر فى التفرد الواضح للنظام الرأسمالى الحديث ، وهو النظام الذى يعتبر نتاجا طبيعيا لرافدين أساسيين ، الأول التطور العلمى والتطوير التكنولوجى المترتب عليه ، بينما يتمثل الرافد الثانى فى القيم المسيحية النقية فى أصولها الصحيحة . حيث تكشف تأمل نظرية ماكس فيبر عن فاعلية بارزة لكل من هذين الرافدين .

فمن ناحية شكلت القيم البروتستنتية الكالفنية الأساس المعيارى لسلوكيات مجموعة من البشر فى الحياة ، استطاعوا من خلال التمسك بهذه العناصر المعيارية من تأسيس النظام الرأسمالى الحديث ، الذى يستند الى معادلة موضوعية ومتوازنة ، تؤكد أنه كلما تقشف الرأسماليون كلما أنفقوا وقتهم فى العمل لتحقيق مجد الله ، و كلما علمت الطبقة العاملة وفقا لمستويات دنيا من الأجور ، كلما حدث تراكم مقابل على صعيد الثروة العامة للمجتمع ، بذلك تصبح التعطل ، والتبذير والاسراف ، واضاعة الوقت انحرافا عن القيم المسيحية فى أصولها النقية والطاهرة .

ومن ناحية ثانية فقد شكل التطور العلمى أساس تطوير التكنولوجيا اللازمة لنمو النظام الرأسمالى . فقد تطورت البيروقراطية كتكنولوجيا جديدة فى الادارة قادرة على فرض نوع من الموضوعية والحيادية على عملية الانتاج ، اضافة الى التطور الذى تحقق في التكنولوجيا المادية للانتاج ، والذى دفعت الى تطوير النظام الرأسمالى الى أفاق أكثر فاعلية وقدرة .

والحق أن ماكس فيبر لم يكن مفكراً يحاول أن يقدم تفسيراً بديلاً - للتفسير الماركسى - فيما يتعلق بنشأة النظام الرأسمالى ، ولكنه كان يفكر موسوعيا - كماركس - عالج كثير من الجوانب الاقتصادية والطبقية للمجتمع الرأسمالى ، بمنطق قد يخالف المنطق الماركسى ، إلا أنه انطلق لتحليل جوانب أخرى فى بناء المجتمع كالبناء السياسى والسلطة ونماذج السلطة . والنظام الدينى حيث وضع نظرية فى نشأة الأديان ، وفى الظروف التى تتيح الفرصة لنجاح القدرة الكارزمية للأنبياء ، وبذلك قدم نظرية بارزة فى اطار علم الاجتماع الدينى .

ذلك يعنى أن تحليل ماكس فيبر للنظام الرأسمالى كان شاملا تناول مختلف الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لهذا النظام بقدرة تحليلية عبقرية تشهد على قدرة تنظيرية ومنهجية عالية المستوى ، نعرض لبعض قضاياها فى الصفحات التالية .

**أولا : النظام الرأسمالى ، نشأته وطبيعته .**

منذ البداية نجد ان فيبر - اتفاقا مع ماركس ووارنر زومارت Sombart - يؤكد على تفرد النظام الاقتصادى الحديث - كنسق اجتماعى اقتصادى - فى التاريخ الحديث . حيث لم يوجد مايشبه هذا النظام فى أى مكان أو أى زمان سابق (١٦٥) . وكما عرفه كثيرا ، نجد ان فيبر يعتبر الرأسمالية ظاهرة حديثة أو هى نسق معقد للغاية يضم مجموعة من النظم ، ذات طبيعة عقلانية ، ثم هى نتاج لعديد من التطورات التى وقعت فى اطار الحضارة الغربية . وبهذا المعنى يتأكد التفرد من ناحية لأنه لم يسبق وجوده فى التاريخ الغربى ومن ناحية أخرى ان هذا النظام لم يظهر تلقائيا فى اطار حضارات الشرق . بذلك فان النظام الرأسمالى ليس قديما فى التاريخ ، ومن ثم فليس علينا ان نخلط بينه وبين أشكال النشاط الرأسمالى العديدة ( كالرأسمالية التجارية ، والسياسية التى تتحقق عن طريق المغامرة ) ، التى عرفت فى الفترات السابقة من التاريخ الغربى ، وحضارات الشرق بالمثل . ولايمكن إعتبار ظهور النظام الاجتماعى الاقتصادى الرأسمالى الحديث نتيجة تلقائية للعقلانية المتزايدة لكل جوانب الحياة فى الغرب . إذ كان على هذا النظام ان يشق طريقه من أجل التفوق ضد ( عالم كامل من القوى المعادية ) ، ومع ذلك فلم يمثل انتصاره على قوى القرون الوسطى ( حتمية تاريخية ) أو ( ضرورة تاريخية ) (١٦٦) .

واذا كانت المشكلة الهوبزية عند كل ما توماس هوبز وجان جاك روسو هى ، كيف نشأ النظام الاجتماعى بشكل عام ، فان المشكلة التى طرحت نفسها فى هذه الفترة تعلقت بكيفية نشأة نوع معين من النظام وهو النظام الرأسمالى الذى تأسس على التكنولوجيا العقلانية للثورة الصناعية . ولقد تباينت التصورات المناقشة لذلك بين ثلاثة رواد هم كارل ماركس وإميل دوركيم وماكس فيبر .

ذلك يعنى أن القضية الأساسية بالنسبة لماكس فيبر تتعلق بكيفية نشأة النظام الرأسمالى . وماهو أسلوب انضباط التفاعل فى اطار هذا النظام ثم ماهى الطبيعة الأخلاقية التى يخلعها عليه ماكس فيبر . ويشير البحث فى نشأة النظام الرأسمالى الى وقوع عوامله فى اطار ثلاثة أنساق أساسية . هى نسق الدين والقيم الأساسية ، ثم النسق الاجتماعى ، ثم نسق الشخصية ، حيث انبثقت العوامل التى أسهمت فى مجملها فى نشأة النظام الرأسمالى من داخل هذه الأنساق الأساسية الثلاثة .

وفى اطار نسق الدين والقيم يرى فيبر فى البروتستنتية وخاصة أفكارها الكالفنية وليست اللوثرية العامل الأساسى المولد للنظام الرأسمالى ذلك لأن البروتستنتية اللوثرية قد عجزت عن ذلك لعاملين ، الأول أنها فشلت فى كسر التحديديات التى فرضتها النزعة التقليدية التى سادت هذه الفترة . حيث إرتبط الخلاص فى مذهب لوثر بالايمان وحده ، مما أبعده كثيرا عن الخلاص المرتبط بالنجاح فى الأعمال Salvation ، بل أنه ارتبط بتصور للعناية الآلهية التى تفرض موافقة قوية على النظام التقليدى القائم فى هذا العالم . ومن ثم تخلق ميلا للبقاء فى الوضع الذى هو عليه ، ومن ناحية الإيمان برز ميل الى انجاز الواجبات التقليدية المرتبطة بهذا الموضع

ومن هنا فلم يبتعد المذهب اللوثرى كثيرا عن الكاثوليكية فى الإتجاه العام نحو المناشط الدنيوية الأكثر ملاءمة للبيروقراطية الرأسمالية . مع أن اللوثرية قد ألغت المكانة المتميزة دينيا للراهب Monk ، ومن ثم جعلت الموافقة الدينية على كل المهن الدنيوية مشروعة على أساس مساواتها ببعضها البعض . حيث اعتبر ذلك أساسا مشتركا بين كل الاتجاهات البروتستنتية ، غير أن الميل التقليدى للأخلاق اللوثرية منع تطورها لما هو أبعد فى اتجاه أكثر ملاءمة للبيروقراطية الرأسمالية (١٦٧) .

من هنا فقد اعتبر فيبر الكالفنية مصدر الالهام الحقيقى لنشأة النظام الرأسمالى . اذ يؤكد انها شكلت نسقا ثيولوجيا له معناه ، حيث احتوى هذا النسق على عدد من القضايا التى شكلت فى مجموعها نسقا منطقيا له تماسكه واتساقه ، هذه القضايا هى :

١ - ان هناك إلها واحدا ترنسندنتاليا ومطلقا ، هو خالق الكون وحاكمه ، حيث خصائص ومجالات فعله - بدون الوحى - بعيدة تماما عن الفهم البشرى المحدود .

٢ - ان هذا الاله قادر على كل الأرواح الانسانية لأسباب بعيدة تمام عن الادراك البشرى ، ويمثل الخلاص النهائى Eternal salvation و ( الموت والخطيئة الكاملة eternal sin and death ) اعتقادات ثابتة من الأزل الى الأبد ، وليس للايمان أو الارادة البشرية تأثير عليه .

٣ - ان الله لأسباب غامضة تتعلق بخلق العالم ، وضع الانسان داخله بمفرده ، وذلك لمضاعفة Glory مجده .

٤ - ولهذه الغاية فلقد قرر الله ان على الانسان ، دون اعتبار الى أنه قدر له الخلاص أم حلت عليه الادانة ، ان يعمل لتأسيس مملكة الله على الأرض ، وانه سوف يخضع أثناء

ذلك للقانون الالهى .

٥ - ان على الانسان ان يترك مسائل هذا العالم - ذات الطبيعة البشرية والجسدية لذاتها - تذهب الى غير رجعة ( الى الموت أو الخطيئة ) ، حيث لا مهرب منها إلا باللجوء الى تحقيق مجد الله (١٦٨) .

وقد شكلت العناصر السابقة فى مجموعها نسقا قيميا يحكم أو يضبط حركة التفاعل فى النسق الرأسمالى بمنطق سبرنطيقى . بحيث يتحكم فى مسارات تفاعله ، ويحكم بالتالى متضمنات السلوك الواقعى ، فى اطار النسق أو المجال الاجتماعى الذى شهد هو الآخر عوامل ذات صلة بنشأة النظام الرأسمالى ، أما انعكاسا لنسق الدين والقيم ، وأما لكونها ذات انبثاق مستقل فى اطار المجال الاجتماعى ، ولو أنها تتصل بشكل ما بنشأة البروتستنتية ذاتها .

من هذه العوامل مثلا سيادة النزعة التقشفية ، فنظرا للتعالى الكامل لله ، والانفصال بين المسائل الدنيوية والسماوية فان هذا الوضع استبعد تماما الاتجاه الصوفى للاتحاد بروح السماء ، والاستغراق فى اطارها . غير ان تدعيم هذه الحقيقة قد تحقق بتصور الخضوع للقانون من أجل مجد الله ، ثم التفسير المرتبط بذلك ، على أنه معين للانسان المختار وظيفة بناء مملكة الله فى الأرض والحفاظ عليها وفقا لارادة السماء . ومن ثم أصبحت الارادة هى علاقة الله الجوهرية بالانسان . وأصبح الانسان قبل كل شئ ، هو أداة الله ، المطيعة أو المتمردة وفقا لطبيعة الحال . وتصبح النتيجة الخالصة لذلك وفقا لما يذهب فيبر ، هى توجيه الطاقات الدينية نحو الاتجاه الايجابى التقشفى بدلا من الاتجاه الصوفى السلبى ، فالله لايمكن الاقتراب منه كلية ، وانما يمكن خدمته فقط . ووفقا لذلك فخدمة الله لايمكن أن تكون فى اتجاه الاستغراق الكامل فى المسائل الحسية لهذا العالم ، أو التكيف معها . ولكنها تكمن فى السيطرة على ما هو حى ، وفى الخضوع للنظام من أجل مجد الله ، وهذا مايعنيه فيبر بالنزعة الى التقشف (١٦٩) . يرتبط بذلك ان العلم من ناحية ( وهو قيمة كالفنية ، والتقشف وعدم انفاقه فيما هو دنيوى من ناحية أخرى يؤدى الى التراكم العقلانى لرأس المال ) (١٧٠) .

ويعتبر ازدهار العالم الحديث من العوامل الهامة لازدهار الرأسمالية الغربية . حيث يعتبر ذلك من نتائج الاعتقاد فى صيغة الاله الترنسندتنالى المتعال والازدواجية المصاحبة لذلك ( بين العالم السماوى والعالم الحسى ) . فما دام لعالم اللامتناهى هو من خلق الله ، أو هو اظهار لارادته ، فأفضل السبل لمعرفة الله هى ان ندرس أعماله . حقيقة ان قرارات الله أبدية لايستطيع البشر تغييرها أو حتى التدخل فى نظام الطبيعة . وفى ذات الوقت فالطبيعة هى

الطبيعة والله هو الله . ومن هنا فتقديس الظواهر الطبيعية يعتبر نوعا من عبادة الأوثان . ولقد أد هذا الاعتقاد فى النظام السماوى الى نتيجتين ، الايمان بنظام الطبيعة ، حيث أصبح ذلك بلا شك دافعا هاما بالنسبة لتأسيس العلم الحديث ، وأدى ذلك أيضا الى العداوة القوية نحو أية طقوس تتضمن نوعا من الوثنية أو الاعتقاد فى المسائل الغيبية . وعلى ذلك فالجهد المتقشف يؤدى فى خدمة ارادة الله ، ويتحول بعيدا عن المجالات الطقوسية الى نوع من التحكم الايجابى فى العلاقات الجوهرية المتعلقة بهذا العالم (١٧١) .

ويرتبط بالعلم ويستند اليه نشأة التكنولوجيا الحديثة أو مايمكن تسميتها بالتكنولوجيا العقلانية التى سادت المجتمع الغربى ، وأدت الى تأسيس تشكيلات انتاجية واجتماعية عديدة أسهمت فى مجموعها فى تأسيس النظام الرأسمالى . يرتبط بذلك عوامل كاصطباغ الحياة الاقتصادية بالطابع التجارى وتأسيس العمل الحر (١٧٢) . والى جانب اعتبار التكنولوجيا احدى نتائج العلم الحديث فهى تتضمن رفض المنطق التقليدى لانجاز الأعمال ، وتنطوى على أداء أكثر كفاءة لتحقيق مجد الله كما تملى ذلك القيم البروتستنتية فى مذهبها الكالفنى .

ويعتبر تقسيم العمل الاجتماعى كما هو ابان الثورة الصناعية ، بطبيعته التى هاجمها ماركس ، وباركها إميل دوركيم من أهم عوامل قيام النظام الرأسمالى من وجهة نظر ماكس فيبر ، اذ تعتبر ظاهرة تقسيم العمل والمهن فى المجتمع ، نتيجة مباشرة للتصور الالهى للأشياء . فتباين البشر الى الطبقات والمهن يعتبر بالنسبة لمارتن لوثر Luther نتيجة مباشرة لارادة السماء . فمواظبة الفرد ومثابرته فى موقعه فى اطار الحدود التى عينها الله له يعتبر بالنسبة له واجبا دينيا (١٧٣) . ومن ثم فالهدف الالهى لتقسيم العمل يعرف بنتائجه . وفيما يتعلق بهذه النقطة يعبر باكستر Baxter عن ذلك بعبارة تذكرنا كثيرا بتآليه آدم سميث Adam Smith لتقسيم العمل اذ يؤدى تخصص المهن - مادام هذا التخصص يجعل من الممكن تنمية المهارة - الى تحسينات كيمة وكيفية فى الانتاج . ومن ثم فهو يخدم الصالح المشترك الذى يتساوى وصالح أكبر عدد ممكن من البشر (١٧٤) . ومن ثم يصطبغ تقسيم العمل فى النهاية بوجهة نظر النفعية الاجتماعية .

ويكشف تحليل تقسيم العمل الاجتماعى عن تآزر ثلاثة عناصر أساسية: الأول هو

شخصية الرأسمالى والثانى هو العامل أما الثالث فيتمثل فى طبيعة المشروع الصناعى الذى يضمهما معا .

فعلى نقيض التصور الماركسى المتعلق بتنمية الرأسمالى لرأسماله من خلال استيعابه لفائض قيمة عمل البروليتاريا ، نجد أن ماكس فيبر يحاول بأسلوب واحض توضيح كيف نشأ الرأسمالى . اذ يؤكد أنه فى وقت ما جاب أحد صغار البشر البلاد ، واختار النساجين الذين يستخدمهم ، ثم زاد من دقة اشرافه عليهم وعلى عملهم ، ومن ثم حولهم من فلاحين الى عمال . ومن ناحية أخرى بدأ هذا الانسان يغير من أساليبه فى التسويق عن طريق الذهاب مباشرة الى المستهلك النهائى للسلعة ، حيث كان يتولى تفاصيل المقايضة بنفسه ، وكان هو بنفسه الذى يغرى المستهلكين ، يزورهم كل عام ، وقد يكيف نوعية الانتاج مباشرة وفقا لاحتياجاتهم ورغباتهم . وفى ذات الوقت بدأ فى التأكيد على الاثمان الرخيصة فى سبيل عائد كبير ، ووقعت النتائج المعتادة لمثل هذه العملية الرشيدة دائما . ومن ثم فقد كان على هؤلاء الذين لايتكيفون وفقا للمبادئ الجديدة ان يخرجوا من دائرة الأعمال . وانهارت حالة الرومانتيكية تحت وطأة الصراع التنافسى الأكثر قسوة ، ومن ثم تأسست ثروات طائلة لم تنفق ولكن أعيد استثمارها . وانتهى ذلك الفراغ القديم والاتجاه المريح نحو الحياة ، ليحل محله الاقتصاد ، والانفاق الصعب الذى يتحمله البعض من أجل الصعود الى القمة ، وأصبح الرأسماليون لايرغبون فى الاستهلاك ولكن فى جمع المال . بينما كان على هؤلاء الذين يرغبون فى الحياة وفقا للاساليب القديمة أن يختصروا انفاقاتهم (١٧٥) . وفى أعقاب توضيح فيبر للمنطق التاريخى الذى قاد الى ظهور ،٣٦٥الشخصية الرأسمالية فانه يتجه بعد ذلك الى توضيح الخصائص التى تتلاءم ونمو استمرارية النظام الرأسمالى . اذ يؤكد ان الرأسماليين بشر نشأوا فى مدرسة الحياة الصعبة ، فهم ذوو دقة وجرأة ، وقبل كل شئ فهم معتدلون ، ذوو ثقة بأنفسهم ويعتمد عليهم ، أذكياء يدخرون وقتهم كله لأعمالهم ، وذوو آراء ومبادئ برجوازية محددة . ثم يذهب الى انه من أهم ملامح الشخصية الرأسمالية أن لديها القدرة الى التحرر من التقاليد ، وهى ذات نظرة ليبرالية متنورة . وان ارتباطاتهم الدينية ضعيفة الى حد ما ، فمن الناحية الدينية ترى الرأسماليين لايهتمون اليوم كثيرا بالمسائل الدينية ، بل اننا نجد لديهم عداء للكنيسة . اذ يبدو الدين بالنسبة لهم وسيلة لجذب الناس بعيدا عن العمل فى هذا العالم ، فاذا سألتهم عن معنى جهدهم الذى لايتوقف ، لماذا لايقنعون بما لديهم ، فانهم قد يجيبونك ( لكى أوفر مايكفى أبنائى وأحفادى ) .

وتتمثل الخاصية الثانية فى العمل المستمر الدؤوب الذى يمثل نظرتهم الأساسية فى

الحياة . فالمصنع أو المشروع والعمل المستمر الذى يتم فى اطاره يشكل جانبا هاما من حياتهم ، وذلك هو فى الحقيقة الدافع الوحيد . ورغم ان هذه الحياة قد تبدو لا عقلانية تماما . حيث يوجد الانسان من أجل عمله وليس العكس (١٧٦) ، فانه لظروف عديدة ينشأ تقديس لها على هذا النحو . بل ان الثروة تصبح موضعا للادانة الأخلاقية اذا هى كانت طريقا الى البطالة والاستمتاع المذنب Sinful بالحياة . وامتلاكها يصبح سيئا حينما يكون الهدف من الحياة هو المرح والاستهانة . بالاضافة الى ذلك هناك تقدير أخلاقى كبير لانسان الطبقة الوسطى الصابر العصامى . ( فالله يبارك تجارته ) هى العبارة التى تشير الى هؤلاء البشر الذين اتبعوا بنجاح ارشادات الله (١٧٧) . بل ان من خواص الشخصية الرأسمالية التى تعمل وفقا للتعاليم البروتستنتية عدم استخدام الثروة فى اكتساب قوة أو مهابة اجماعية . فالنموذج المثالى لصاحب العمل الرأسمالى كما بدأ فى ألمانيا وفى أماكن كثيرة ، لايتصل أى صلة بطابع الانتهازية والتسلق . فهو يتجنب التظاهر والبذخ فى الانفاق ، كما يتجنب أيضا الاستمتاع الشعورى بقوته . وقد يصاب بالارتباك حينما يقابل بالتسليم الاجتماعى أو الترحيب الخارجى . ويتميز أسلوب حياته بالميل الى التقشف ، فهو لا يأخذ شيئا من ثروته لذاته ماعدا الاحساس غير الرشيد بأنه قد أنجز عمله بدرجة جيدة (١٧٨) .

ويعتبر العامل هو العنصر الثانى فى نظام تقسيم العمل الاجتماعى . وهو الآخر يمتلك عددا من الخصائص التى تيسر مشاركته فى نشأة النظام الرأسمالى وهى خصائص يشارك فيها الرأسمالى الى جانب العالم نذكر بعضها فيما يلى :

١ - أول هذه الخصائص فى وجود اعتراض أخلاقى على بعض السلوكيات منها الركون الى الدعه استنادا الى ما قد يملكه الشخص ، بالاضافة الى الاستمتاع بالثروة وما يتلو ذلك من تعطل وطأة اغراء الحياة ، وفوق كل شئ الابتعاد عن السعى الصحيح فى الحياة . وفى الحقيقة فانه بسبب تضمن الملكية لخطر الراحة ، فانه ينشأ اعتراض دائم عليها . فالملائكة هم الذين يستريحون تماما فى عالم الأخرة ، أما على الأرض فينبغى على الانسان ، لكى يتأكد من تحقيق مجد الله ان ( ينجز أعمال الله الذى خلقه فى يومها ) . فلا فراغ ولا متعة ، ولكن عليه ان يبذل النشاط فقط لمضاعفة مجد الله ، واظهارا لارادته الواضحة .

٢ - يرتبط بذلك ان اضاعة الوقت يعتبر ذنبا ، فحياة الانسان قصيرة جدا وقيمه ، ومن ثم فاضاعة الوقت ، من خلال الفراغ والترف أو النوم بأكثر مما تحتاجه الصحة ، يجلب

الادانة الأخلاقية الكاملة . فضياع ساعة وقت تعنى ضياع ساعة عمل فى تأكيد مجد الله ، وعلى ذلك فالتأمل السلبى لاقيمة له ، ويستحق الادانة اذا كان على حساب العمل اليومى ، فليس أسعد الله من الانجاز الايجابى لارادته (١٧٩) .

٣ – يرتبط بذلك ان هناك تبريرا دينيا واضحا لتحفيض الأجور واستغلال العامل . اذ يؤكد فيبر ان رفع أجر العالم يعنى أنه سوف يجد لديه أكثر مما يحتاجه لاشباع حاجاته التقليدية ، ومن ثم فسوف يدفعه ذلك الى التقليل من كم العمل (*) ( لأن الفرصة لأخذ أجر أكبر أقل جاذبية من العلم الأقل ) (١٨٠) . ومن هنا يرى فيبر ان تخفيض أجر العامل يعنى أنه سوف يعمل كثيرا لكى يحصل على ذات الأجر الذى يكفى بالكاد لاشباع حاجاته الأساسية . ثم يؤكد أن علينا أن نأخذ بالحكمة الكالفنية القديمة ( ان البشر يعملون فقط مادامو فقراء ) .

ويعتبر المشروع الرأسمالى هو المكون الثالث فى بناء تقسيم العمل الاجتماعى ، ومن ثم بناء النظام الرأسمالى . ويتميز المشروع الرأسمالى الناجح من وجهة نظر القيم البروتستنتية بعدة خصائص أساسية .

١ – اذا يتميز التنظيم الرأسمالى الرشيد والحديث باستخدام العمل الحر المأجور ، وهو فى ذلك يختلف عن التنظيمات العديدة والخاصة بالعمل والتى سادت القرون الوسطى ، كاستخدام العبيد . أو نظام العمل الذى يسود التنظيمات العائلية التقليدية ، وأسلوب العمل فى اطارها ، كما هو الحال فى الحضارات الصينية والهندية (١٨١) .

٢ – ان التنظيم العقلانى الحديث للمشروع الرأسمالى قد لايكون ممكنا بدون توافر عامل أساسى يتمثل فى انفصال العمل عن المنزل ، وهو مايميز الحياة الاقتصادية الحديثة . حقيقة ان الانفصال بين العمل والمنزل يوجد فى حضارات أخرى ، غير أن ما وجد ليس إلا بدايات بسيطة اذا ماقورنت بالوضع لغربى الحديث .

(*) يعطى فيبر مثالا على ذلك بقوله ان العامل الذى ينال ماركا واحدا كأجر مقابل حصاد فدان . فانه يقوم بحصاد ٢.٥ فدان من أجل الحصول على الـ ٢.٥ مارك الكافية لاشباع حاجاته اليومية . فاذا ارتفع الأجر الى ١.٢٥ مارك كأجر لحصاد الفدان ، فان العامل لن يحصد ثلاثة أفدنة من أجل الحصول على ٣.٧٥ مارك ، وأنما سوف يحصد فدانين فقط لكى يحصل على ٢،٥ مارك التى اعتاد عليها . فالعامل لايسأل نفسه ماذا يمكن ان آخذه اذا عملت بقدر الامكان ، ولكنه يسأل نفسه ماهو قدر العمل الذى ينبغى أن أبذله لكى أحصل على الـ ٢.٥ مارك التى كنت آخذها من قبل والتى تكفى لاشباع حاجاتى التقليدية .

٣ – يتميز المشروع الرأسمالى أيضا بخاصية التبادل والمقايضة الحرة ، سواء بين العناصر الأساسية التى تشكل فى مجموع نواتجها عملية الانتاج ، أو تلك التى بين المشروع كوحدة من ناحية والمشروعات الأخرى من ناحية أخرى فى اطار البناء الرأسمالى . فالمقايضة هى الأساس لتبادل السلع داخل المشروع وخارجه (١٨٢) .

والى جانب العناصر أو الخصائص المكونة للنظام الرأسمالى والمؤكدة أساس من قبل نسق القيم أو النسق الاجتماعى أو نسق الشخصية فاننا نجد ان بناء النسق الرأسمالى فى كليته قد يحتوى على بعض العوامل التى يسرت تأسيسه واستمراريته ، من هذه العوامل نذكر مايلى :

١ – ان ثمة صفات فارقة تميز الرأسمالية الحديثة عن كافة الرأسماليات السابقة ، فمثلا مايميز الرأسمالية الحديثة وجود الطبقة البرجوازية التى تتسم بأخلاق ذات طابع عقلانى فى انجازاتها . هذا بالاضافة الى ان المشروع الحر هو الوحدة الانتاجية الأساسية وليس الأفراد المنعزلين الذين يتبعون صاحب العمل . يضاف الى ذلك ان من أهم مميزات الرأسمالية الحديثة أو الرأسمالية البرجوازية الرشيدة هو ( وجود التنظيم العقلانى للعمل الحر ) . كل هذه الصفات استوجبت صفة أخرى مكملة تتمثل فى التنظيم الاجتماعى الذى يسميه فيبر البيروقراطية (١٨٣) .

٢ – يعتبر الاتجاه الى تراكم رأس المال من أهم خصائص وعوامل استمرار الرأسمالية الحديثة ، فما يشكل النظام الرأسمالى ليس فكرة الحد الأقصى للربح ، ولكن التراكم غير المحدود . فكل تاجر يريد ان يحقق ربحا بقدر مايستطيع فى مقايضاته . ومن ثم فما يميز الرأسمالى وفقا لرؤية فيبر هو أنه لا يحد شهوته من أجل الكسب حسب العادة أو التقاليد ، ولكننا نجده مدفوعا بالرغبة فى الابقاء على تراكم أكبر ومن ثم فالرغبة فى الانتاج تصبح غير محدودة (١٨٤) . وبذلك يصبح السعى لتراكم رأس المال غاية مدعمة أخلاقيا فى ذاتها ، فكسب المال اذن يعتبر التزاما أخلاقيا فى حد ذاته (١٨٥) .

٣ – مثلت النزعة الرأسمالية انهيارا للنزعة التقليدية . فالرأسمالى لايصاب أبدا بتخمة المال ، وانما يظل ساعيا بدأب نحوه . ففيما يتعلق بالمبدأ الاقتصادى الخاص باشباع الحاجات الأساسية ، نجده يتخذ فى النظام الرأسمالى وضعا مخالفا للأوضاع التقليدية . فمثلا يختلف رد الفعل الطبيعى لارتفاع مقابل وحدة الانتاج . ليس الرغبة فى العمل أكثر للحصول على عائد أكبر بالعمل الأقل للحصول على نفس الأجر الذى

كان يحصل عليه من قبل (١٨٦) . هذا الاتجاه التقليدى نجده ينهار فى اطار النظام الرأسمالى ، والنتيجة هى تحرر الكسب من أية قيود ويصبح عملية مستمرة بلا نهاية . ويتم ترشيد هذا الاتجاه نحو الكسب باعتباره التزاما أخلاقيا فى حد ذاته .

بالاضافة الى ذلك تعتبر روح الرأسمالية مضادة للنزعة التقليدية من خلال علاقتها بالعمليات الواقعية لمناشط الكسب . فبدلا من الموافقة التلقائية على أساليب انجاز الأعمال كما هى ، يقوم الاتجاه الرأسمالى بإعادة تنظيم مختلف الجهود لأداء نفس الوظيفة . فى اطار ذلك تصبح زيادة رأس المال غاية أبدية مقدسة لايمكن المساس بها ، أما الوسائل لتحقيق ذلك فلا تقديس لها ، وانما تختار من جديد بما يلائم كل موقف وسياق اجتماعى (١٨٧) . مثل هذا التناقض مع النزعة التقليدية يمنح الروح الرأسمالية طابعا ديناميا قويا يفى بكل الأغراض التى يوكلها فيبر لهذه الروح .

٤ - طبيعة النظرة الى العمل تعتبر من أهم الملامح التى ساعدت على دفع النظام الرأسمالى وتطويره . اذ تضمنت روح النظام الرأسمالى اتجاها خاصا الى العمل ، سواء كان الكسب هو الغاية المباشرة لهذا العمل أم لا . فلم يعد ينظر الى العمل على أنه شر لابد منه ، وانما أصبح العمل ينجز على أنه التزام أخلاقى ، أو مجال لتحقيق أكثر أهداف الانسان أخلاقية ، فالاتجاه الرأسمالى نحو العمل هو الذى يسميه فبلن Ve-blen ( روح العمل Spirit of workmanship ) حيث يعتبر أحد ملامحها ذلك الشعور الأخلاقى المضاد للتقاعد عن العمل الايجابى البناء ، فالانسان الذى لاينتج ، مادامت لديه الصحة والقدرة ، هو انسان يغفل مسئولياته الأخلاقية (١٨٨) .

٥ - خضوع الحياة الاجتماعية فى النظام الرأسمالى لدرجة عالية من الضبط فى اطار تنظيم عقلانى يعرف بالتنظيم البيروقراطى . ورغم وجود التنظيم البيروقراطى فى عهود سابقة كما كانت الحال فى أسر مصر الحديثة ، والامبراطورية الرومانية، والامبراطورية الصينية ، والكنيسة الرومانية والكاثوليكية ، نجد ان البيروقراطية كما تخيلها فيبر ذات سمات بنائية متميزة (١٨٩) . اذ يتطلب التنظيم البيروقراطى تكريسا حياديا ولا شخصيا للعمل ، واستعداد للتلاؤم مع متطلبات الموقف المعقد والمكون من المناشط المتخصصة والمتآزرة . ذلك يتضمن بالمثل الخضوع الكامل للنظام فى حدود الوظيفة . وتعتبر روح الرأسمالية بالنسبة لفيبر حالة خاصة من الروح المهنية Professional spir-it أو الحرفية ، وهى الاتجاه المحدد الذى تحتاجه البيروقراطية من أجل الأداء الوظيفى

الفعال (١٩٠) .

**ثانيا : دور الدين و القيم فى تأسيس النظام الرأسمالى .**

الذى لاشك فيه ان مجال علم الاجتماع الدينى ضم أكثر تحليلات ماكس فيبر عمقا وبصيرة ، بل لعلنا نؤكد ان علم الاجتماع الدينى بمعناه العقلانى قد أسس ميلاده ماكس فيبر . وقد ارتكز اهتمام ماكس فيبر بعلم الاجتماع الدينى على عاملين أساسيين ، الأول منهجى ويرتبط بأفكاره النظرية التى تؤكد ان أى اطار نحاول من خلاله ادراك الواقع ماهو إلا مجموعة من الفرضيات الانتقائية . ومن ثم فاذا أكدت الماركسية على أهمية الاقتصاد ووسائل الانتاج كعناصر محورية فى صياغة التفاعل الواقعى . فان ماكس فيبر فى مقابل ذلك أكد على الدين والقيم كعناصر محورية – اذا تضافرت مع عناصر أخرى – فانها سوف تلعب بلا شك دور المتغير المستقل فى قيادة التفاعل الاجتماعى . أما العامل الثانى فيتضح من كون علم الاجتماع الدينى المقارن لدى ماكس فيبر لايتكون فقط من سلسلة الدراسات للحالات التى تساعد على تحديد العناصر الدينية التى تعوق نمو الرأسمالية فى المجتمعات الحديثة غير الغربية . حيث كانت هذه الدراسات مهتمة أساسا بقضية النظام الرأسمالى الذى كان موضع تركيز إطاراتها النظرية (١٩١) . فى اطار ذلك نجد أن فيبر كان مهتما بانساق الأفكار الدينية كعناصر فارقه فى التطور الاجتماعى (١٩٢) .

بيد أننا فى هذه الفترة نرى ضرورة ان ينصب الاهتمام أساس ليس على البروتستنتية باعتبارها الأصل الثيولوجى للنظام الرأسمالى . ولكن نود توضيح نظرة ماكس فيبر الى الدين كنظام اجتماعى فى نشأته ومكانته بالنظر الى العناصر البنائية الأخرى . وفيما يتعلق بنشأة الدين نجد ان ماكس فيبر يؤمن بأن مختلف الأديان العالمية ذات أصل واحد . اذ يؤكد ان ثمة شيئا ما يعتبر نقطة ثابتة تعتبر الأصل المشترك لكل عمليات النشأة والتطور الدينى ، قد تعتبر هذه النقطة الديانة البدائية الشاملة . ووفقا لما يذهب اليه فيبر ، فانه يعتقد ان كل النماذج الممكنة للأنساق الدينية نشأت عن طريق التباين مع نقطة البداية الأساسية المشتركة هذه . ومن ثم تمثل الأديان الممكنات المحددة لهذا الأصل الدينى المشترك ، وبالتالى فان الاهتمام الحالى يجب أن ينصب ليس على التطبيقات التاريخية ، ولكن يجب ان ينصب على طبيعة العلاقات المنطقية لعناصر النموذج الدينى المختلفة (١٩٣) . وبذلك يهدف ماكس فيبر الى اعتبار النسق الدينى منذ البداية متغيرا مستقلا بدأ مع نشأة الوجود الاجتاعى ذاته ، ومن ثم فله تطوره

المستقبل الذى لا يجعل منه انعكاسا لعوامل مادية ، بقدر ما يكون هذا التطور مجرد تفرع جديد لأصل قديم ، موجود منذ الأزل يتمثل فى الديانة البدائية المشتركة .

بعد ذلك يحاول ماكس فيبر تحليل النسق الدينى من الداخل فى علاقته بالسياق المحيط . حيث ينقسم العالم من خلال الدين الى عالم ما فوق الطبيعة الذى يحتوى على مجموعة من الذوات التى تضم بينها الآلهة وحتى الشياطين . وهو يختلف عن العالم الأرضى واليومى الذى نعيشه عادة . أما كيف ندرك ذوات عالم مافوق الطبيعية ، ثم طبيعة علاقات هذا العالم بالعالم الطبيعى الذى نعيشه ، فهى مسائل ذات تنوع كبير (١٩٤) . يؤكد فيبر ان المانا Mana البدائية أو الكارزما الدينية الملهمة ماهى إلا وسيط بين عالم الطبيعة وذوات عالم مافوق الطبيعة . ثم يذهب الى أن خاصية التميز ، أو الكارزما عادة ماتنسب للأفعال أو الموضوعات أو الكائنات البشرية ، المتصلة بعالم الحياة اليومية . أما هذه الخاصية المشار اليها فعادة ماتكون اظهارا للقوى أو الذوات فوق الطبيعة ، ومن ثم فمن الضرورى فرض نوع من التمييز بين العناصر الطبيعية من ناحية وفوق الطبيعة من ناحية أخرى فى اطار هذه الموضوعات الواقعية (١٩٥) . ويعنى ذلك ان ماكس فيبر يخلق واسطة بشرية ذات قدرة أو امكانية على تجسيد مقتضيات الذوات الغيبية فى الواقع الدينوى . ومن ثم يصبح الواقع لديه اظهارا للفكرة على خلاف النظرية الماركسية التى تعاكس ذلك . ذلك يعنى ان ماكس فيبر يستعيد ثانية المثالية الهيجلية بأقوى ماتكون .

أما ذلك الشخص الكارزمى ذو التميز الخاص ، فهو أما أن يكون ساحرا أو نبيا ، وهو النبى فى الديانة السماوية والكتابية . ويعرف فيبر النبى على أنه الشخص الكامل للكارزما الذى بالنظر الى رسالته يبشر بالعقيدة الدينية أو بأوامر السماء . انه شخص له رسالته دائما ، ويشعر دائما بان له روابطه الخاصة مع الذات أو نظام ما فوق الطبيعة . وهو يبشر رسالته دونما تسلط بالاستعانة بأية وسائل انسانية ، حيث أنه يكون فى الحقيقة على رفض شعورى اكل ، ذه الوسائل ، فعيسى عليه السلام يقول ( أنه مكتوب .. وأنا أقرؤه عليكم ) .

ويميز ماكس فيبر بين نموذجين أساسيين للنبوة . فاما ان يشعر النبى بأنه وسيلة فى يد العناية الالهية ، بحيث يبلغ باسمها امرا أو معيارا ينبغى على البشر التطابق معه كواجب أخلاقى . هذه النبوة تسمى بالنبوة الأخلاقية Ethical Prophecy ( عيسى ، محمد ) . أو ان يكون النبى هو ذلك الشخص الذى يضح من حيث كونه مثالا للآخرين الطريق الى الخلاص الدينى ( بوذا Buddha ) وهو مايسميه فيبر بالنبوة المثالية Examplary prophecy . وأيا

كانت طبيعة النبوة موضع الاهتمام فالنبوة عادة ماتتضمن بالنسبة للنبى أولا ومن ثم لأتباعه اتجاها واحدا نحو الحياة يتحقق عن طريق موقف متعمد له معناه تجاه هذه الحياة . ومن ثم فالنشاط البشرى لكى يلبى الحاجات الدينية ، عليه أن يتكيف مع المعنى المتسق لهذا العالم المتضمن فى هذا الموقف .

ويشعر النبى الأخلاقى أنه وسيلة العناية الألهية ، ومن ثم فان جزءا من رسالته هو ان يمنح البشر المعايير الأخلاقية التى ينبغى عليهم التكيف معها ، وتختلف هذه المعايير بشكل واضح عن الحالة التقليدية السائدة أو التى تؤدى الى ترشيد الموقف فى اتجاه محدد . ومن ثم فالارادة التى يعتبر النبى وسيلتها ، والتى تعتبر مصدرا للمعايير الجديدة ، لايمكن ان تكون مجرد اظهار لنظام متكشف لهذا العالم بالنحو الذى هو عليه . ومن هنا فان ما يلائم النبوة الأخلاقية أو يرتبط بها هو تصور لشخصية ألهية ذات طبيعة ترنسندنتالية يهتم بالكون والنظام الانسانى الموجود ، وان لم تكن متضمنة فى اطاره أساسا (١٩٦) .

ولان النبوة تتضمن معنى جديدا لهذا العالم غير المعنى المخلوع عليه ، والذى أصبح تراثا وتقليدا ، فانها عادة ماتتصادم من حيث موقفها المضاد مع النظام القائم . ومن ثم يتخلق صراع بين المعنى الذى تأتى به الديانة الجديدة ومعانى الديانة القديمة ، وفى اطار هذا الصراع ينشأ اتجاهان أساسيان يتلاءمان مع النظرة العقلانية المتسقة مع ما هو قائم ، فمن الواضح أن نشأة النبوة لا تقود الى الموافقة على العالم كما هو . ومن ثم فبقدر الامكان يمكن ضبط الأمور الدنيوية والسيطرة عليها بالنظر الى الأفكار الدينية . أو أنها من ناحية أخرى قد تزدرى بشكل متطرف وتصبح غير ذات قيمة . وبتعبير ماكس فيبر يعتبر الاتجاه الأول تقشفيا بينما يعتبر الآخر تصوفا ، بحيث يمكن تقسيم كل منهما فرعيا الى نماذج عديدة (١٩٧) ويتحمل عبء كل من هذين الاتجاهيم بشكل راديكالى متطرف أقلية دينية مؤمنة . ويرتبط النموذج المتقشف للخلاص بالنبوه ، حيث يشعر الفرد بانه وسيلة للارادة الألهية ومن ثم فينبغى عليه ان يخضع للعرف الأخلاقى التقليدى لنقد صارم الى متطلبات هذه الارادة . وعليه ايضا ان يحدد لنفسه مثلا مختلفة عن تلك المثل السائدة . اذ يصبح العالم من وجهة نظره مخطئا Sinful ، وشرا بأكمله ، شيئا ماينبغى مقاومته والسيطرة عليه .

ووفقا لطبيعة الظروف السائدة تتخذ المقاومة أو الاتجاه للسيطرة أحد الاتجاهين اللذين أشرنا اليهما . فاما ان يكون العالم الذى يحارب وينبغى السيطرة عليه داخل الذات ، ومن ثم لايكون للإنسان على هذا النحو أية واجبات ايجابية خارج ذاته . فى اطار ذلك نجد ان

المتقشف يتجنب العالم ، كناسك أو راهب ، بيد انه حينما يستبعد الانعزال عن العالم كما هو الحال فى البروتستنتية، فان المسلك الوحيد ان الانسان لا يتجه الى السيطرة على الذات فقط ولكن على بقية العالم ، الذى يظل مع ذلك باقيا على خطيئته . وفى اطار الاتجاه الثانى تتأسس غاية الخلاص من خلال العمل على تحقيق مكانة استثنائية عليا من خلال ( خبرة التصوف Mystical Experience ) . ولا يستطيع الحصول على هذه المكانة سوى الأقلية فقط ، مستخدمين التأمل كوسيلة منهجية لتحقيق ذلك . وحيث تبدو الرغبات فى هذا العالم مجرد منغصات . فى هذا الأطار فان الفرد لايخبر هذه الرغبات وأنما يتجنبها . وتكون النتيجة عدم الأهتمام بهذا العالم ، أما عن طريق تجنبه بقدر الامكان كما هى الحال من خلال التصوف ، أو الحياة فى العالم ولكن ليس به ، ومن ثم سقوط أى ارتباط داخلى به . وإذا كان من الصعب تحليل علاقة هذه الأساليب المختلفة لتحقيق الخلاص بمختلف عناصر الحياة الأجتماعية ، فأنه يمكن القول بشكل عام أنه كلما كان الأنسان أكثر تصوفا كان من الصعب تأسيس تنظيم اجتماعى مستقر على أساس دينى وكان تاثير الأفكار الدينية على المجتمع ضئيلا ، يؤكد فيبر أن البوذية تمثل النموذج المتطرف فى هذا الأتجاه .

ذلك يعنى أنه اذا كان التقشف هو الاتجاه الغالب ، كلما تحقق العكس فى ظل ظروف اجتماعية أخرى . وعلى عكس التقشف المتعلق بالعالم الآخر والذى قد يصبح لا اجتماعيا بشكل متطرف ، يمثل التقشف المتعلق بهذا العالم – كالبروتستنتية – أكثر الاهتمامات الدينية امكانية فى صياغة وتنظيم الحياة فى هذه العالم على هيئة المثال الدينى الرشيد (١٩٨) .

مجمل القول ان النبوة والديانة الجديدة التى تشكل المعنى الجديد الذى تأتى به النبوة الى هذا العالم ، تعتبر ثورة دينية جديدة دائما ، لأنها تخاطب كل البشر وليس فئة منهم ، ولأنها أيضا تؤسس تناقضا بين هذا العالم والعالم الآخر . بين الأشياء الواقعية من ناحية ، وبين رؤية الكارزما من ناحية أخرى . وبرغم ذلك فان النبوة – على مايذهب فيبر – تثير مشاكل صعبة أمام العقل البشرى ، فلو سلم الانسان بوجود خالق واحد ، فكيف له ان يبرر الشر ؟ (١٩٩) . هذا بالاضافة الى تساؤلات أخرى كثيرة على النبوة أن تطرح أجابة لها ، كالسبب فى خلق الله للعالم الذى يواجه الانسان فيه بسوء الحظ ؟ ، وغير ذلك من التساؤلات المتعددة التى تحاول ان تستكشف علاقة الانسان بعالمه ، والعالم التى تسكنه الآلهة . جوهر القضية التى يريد فيبر تأكيدها فى هذا الاطار ان الديانة الجديدة تشكل مصدرا لتجديدات ابداعية كثيرة ، قد تؤدى هذه التجديدات الى نوع من عدم التكامل المؤقت . غير انها على المدى الطويل تسهم فى

صياغة التكامل لمجتمع جديد من نوع آخر (٢٠٠) . بذلك تصبح الديانة الجديدة فى مجملها أساسا لتنظيم اجتماعى جديد وليست مجرد أحد مظاهره فقط (٢٠١) .

وبهذه المقولة الأخيرة يرفض فيبر ان يكون الدين إنعكاسا للجوانب المادية والاقتصادية ، كما تذهب الماركسية . غير ان القضية الجوهرية التى تطرح نفسها ، انه اذا كان التنظيم الاجتماعى انعكاسا لرؤية حددتها العناية الآلهية ، التى تصل الى الواقع من خلال كارزما النبوة ، فما هى طبيعة المرحلة التى عادة ما تستدعى هذا التصور الجديد ، أو ما هى الشروط أو الظروف البنائية التى تستلزمه .

اجابة على ذلك يوجع ماكس فيبر ظهور النبوة ، وتبنى أفكار دينية جديدة بواسطة المجتمع الى ثلاثة شروط رئيسية . ويتعلق الشرط الأول بظهور النبوة ذاتها ، وربما العملية الدينية ككل ، حيث نسبتها بدرجة كبيرة الى طبيعة المواقف الاجتماعية السائدة . حينما تكون القيم التقليدية مهتزة . بحيث يدعو ذلك الى انفجار الصراع الصريح ، ومن ثم تظهر الحاجة الى موقف جديد فى مواجهة هذا الانهيار . أما الشرط الثانى فيتصل بأنه حينما يكون المجتمع متباينا فان القضايا المتعلقة بمعنى العالم لن تكون هى ذاتها بالنسبة لكل طبقات المجتمع . ومن ثم كان هناك ارتباط بين الدلالة الاجتماعية لنسق الأفكار الدينية وطبيعة المصالح السائدة . فان الأفكار التى سوف يرتبط بها الانسان سوف تعتمد على طبيعة المشاكل التى يواجهها . ليس بمعنى ان مصالح الطبقة تشكل أفكارها الدينية ، ولكن من وجهة نظر فيبر ، بمعنى ان أنماطا معينة من المواقف الطبقية تجعل أعطاءها أكثر قبولا لنمط معين من التفكير الدينى دون آخر ، أو لفكرة الخلاص ككل . أما الشرط الثالث فيتعلق بارتباط فرص انتشار وسيادة عقيدة دينية معينة فى اطار وجود ثقافى محدد بمركز الطبقة التى تبشر بها ، وفى اطار بناء القوة أو السلطة الاجتماعية (٢٠٢) . ويتضح ذلك من اتخاذ البراهما كمثال فى نسق العقيدة الهندى .

خاتمة المطاف اذن أن التنظيم الاجتماعى بأنساقه المتعددة يعتبر متغيراً تابعا لمتغير مستقل ، هو المثال الذى تفترضه العناية الآلهية للمجتمع الذى تتحقق فى اطاره ارادة السماء ، والتى ترسخ فاعليتها من خلال متغيرات وسيطة منها كارزمية الأنبياء ، وانهيار بناء الثقافة والقيم فى المجتمع ، وانتشار الصراع الاجتماعى فى المجتمع وتباين رؤية فئاته لمعنى الأشياء ، ومنها أيضا الوزن والقوة الاجتماعية للطبقة أو الجماعة أو حتى الفرد المبشر بالديانة الجديدة . بحيث يشير كل ذلك فى مجمله الى تأسيس موقف نظرى يرفض فى مجمله كل ما جاء فى المشروع الماركسى .

**ثالثا : الفعل الاجتماعى ، نماذجه الرئيسية**

يعتبر مفهوم الفعل الاجتماعى من المفاهيم الرئيسية التى أسهم بها ماكس فيبر فى بناء النظرية السوسيولوجية المعاصرة ، بل انه يعتبر العنصر الأساسى الذى يشكل جوهر المشروع النظرى لماكس فيبر . ونظرا لأن مفهوم الفعل يعتبر هو نقطة البدء المنطقية عند ماكس فيبر فاننا نجده يذهب الى اننا نطلق الفعل على أى اتجاه أو نشاط انسانى يخلع عليه الفاعلون أو مجموعة الفاعلين معنى ذاتيا (٢٠٣) . ويعتبر الفعل لاإجتماعيا اذا كان موجها فقط نحو سلوك الموضوعات غير الحية . أما الفعل الاجتماعى فنشير اليه بانه ذلك الفعل الذى – وفقا لمعناه الذاتى بالنسبة للفاعل أو مجموعة الفاعلين – يتضمن اتجاهات وأفعال الآخرين ، وهو بدوره موجه اليهم . بذلك يشكل الاتجاه الذاتى نحو الآخرين البعد الاجتماعى فى الفعل ، بشرط أن يكون موجها نحو سلوك الآخرين (٢٠٤) . ويختلف الفعل عن السلوك ، اذا حاولنا مقارنتهما معا ، اذ يعتبر السلوك هو ذلك الجزء من الفعل الذى يلاحظه الباحث حينما يستنتج دافعه . أما الفعل فهو الدافع والسلوك معا فى علاقة الوسائل بالغاية . ذلك لأن أى سلوك يعتبر بلا معنى بدون دوافعه ، والدافع أيضا لايمكن تحديده بدون سلوكه . بذلك يكون الفعل الاجتماعى هو الذى يجمع بين الدوافع الاجتماعية والسلوك . ومن ثم فاذا تناول الباحث الفعل فى ذاته فانه يكون ذلك الذى بين الدافع السيكولوجى والسلوك الفردى (٢٠٥) . ذلك يعنى ان السلوك فى حد ذاته يعتبر وحدة تحليلية غير مكتملة ، تكتمل أحيانا حينما يرتبط الدافع السيكولوجى بالسلوك الفردى ، ليصبح فعلا إنسانيا أنجزه فاعل . بينما يصبح هذا الفعل اجتماعيا اذا كانت الدوافع أو الغايات ذات طبيعة اجتماعية أساسا .

والحق ان ماكس فيبر قد أولى مسألة تصنيف الفعل أهمية كبرى ، استغرقت مايزيد على نصف عمله الفكرى . اذ يرى فيبر ان علم الاجتماعى هو فى النهاية ذلك العلم الذى يبحث عن الفهم التفسيرى Intrepertive understanding للفعل الاجتماعى من أجل الوصول الى التفسير السببى لمساره ونتائجه (٢٠٦) . وتنبثق أهمية الفعل كموضوع رئيسى لعلم الاجتماع – من وجهة نظر ماكس فيبر – من الاعتبارات الأساسية التالية :

١ – ينظر فيبر الى علم الاجتماع كعلم شامل Comprehensive للفعل الاجتماعى ، ومن ثم تصبح صياغة نماذج الفعل Typology of Action ، أكثر مستويات النسق التصورى تجريدا وملاءمة للمجال الاجتماعى . اذ يعتمد تصنيفه لنماذج السلطة والسيطرة مثلا –

السلطة العقلانية ، والتقليدية ، والكارزمية – على تصنيف نماذج الفعل الأربعة الأعلى من حيث مستواها التجريدى .

٢ – ان اعتبار علم الاجتماع علما شاملا للفعل ، يعنى ان صفة الشمول تشتق من تضمنه فهما للمعنى الذى يخلعه الانسان على سلوكه . وهنا نجد أنه بينما يحكم باريتو Pareto على منطقية الفعل من وجهة نظر الملاحظ ، نجد ان الهدف الأساسى بالنسبة لفيبر هو فهم المعنى الذى يخلعه كل انسان على سلوكه ، بحيث يصبح ذلك أساسا للفهم الشامل للمعانى الذاتية للفعل . ولكى يحقق الفاعل ذلك فان على الباحث ان ينجز تصنيفا للسلوك كمقدمة أساسية لفهم وادراك بناء السلوك .

٣ – الى حد ما يتصل تصنيف فيبر لنماذج الفعل بتفسيره لطبيعة المرحلة المعاصرة ، فوفقا لماكس فيبر نجد ان الخاصية الأساسية للعالم الذى نعيش فيه هى العقلانية . اذ يعتبر عن العقلانية المميزة للمجتمعات الحديثة . باتساع مجال الفعل العقلانى بالنظر الى الهدف ، ويميل المجتمع ككل نحو التنظيم العقلانى بالنظر الى الهدف وتكمن المشكلة الانسانية والوجودية والفلسفية فى أسلوب تحديد أقسام المجتمع التى يمكن ان يوجد فى اطارها نموذج آخر للفعل .

٤ – يرتبط تصنيف نماذج الفعل لدى فيبر بما يشكل جوهر تفكيره الفلسفى ، ونقصد بذلك علاقات الصلة بين العلم والسياسة من وجهة نظر ماكس فيبر (٢٠٧) ، ويضيف ماكس فيبر الفعل الاجتماعى الى أربعة نماذج أساسية نذكرها فيما يلى :

(أ) تتحدد عقلانية الفعل العقلانى بالنظر الى الهدف Rational Action in relation to goal من خلال توقع الفاعل لسلوك موضوعات البيئة الخارجية ، بحيث تلعب هذه التوقعات المتعلقة بسلوك موضوعات البيئة الخارجية ، أو سلوك الأشخاص الآخرين دورها كشروط أو وسائل لغايات عقلانية ، تقدر وتنجز بشكل عقلانى (٢٠٨) . بذلك نجد ان هناك صلة ما بين الفعل العقلانى بالنظر الى الهدف عند فيبر والفعل المنطقى عند باريتو . حيث نمثل لهذا الفعل بفعل المهندس الذى يبنى قنطرة أو الجنرال الذى يريد ان يحقق النظر . فى مثل هذه الحالات يتميز الفعل بحقيقة ان الفاعل يدرك هدفه بوضوح ، ومن ثم يجمع الوسائل لتحقيقه . وفيما يتعلق بهذا النموذج للفعل لايحدد فيبر بوضوح طبيعة الفعل الذى يختار لانجازه الفاعل وسائل غير ملائمة ، ربما بسبب عدم دقة المعلومات ، حيث يعتبر هذا الفعل فعلا غير عقلانى . بعبارة أخر نجد ان فيبر يحدد

العقلانية بالنظر الى قدر المعرفة التى لدى الفاعل ، وليست تلك التى لدى الباحث القائم بالتحليل كما يذهب باريتو .

(ب) أما الفعل العقلانى بالنظر الى القيمة Rational Action in relation to value ، فهو الفعل الذى ينجز من خلال الاعتقاد الشعورى بالقيم المطلقة ذاتها ، سواء فسر كفعل أخلاقى أو فعل تقشفى أو دينى ، حيث يتميز بالاعتقاد فى مسار محدد للسلوك فى ذاته دون اعتبار لنتائجه . والفعل العقلانى بالنظر الى القيمة يماثل الى حد كبير فعل لاسال Lassalle الذى عرض نفسه للقتل فى مبارزة ، أو فعل القائد البحرى الشجاع الذى يغرق نفسه مع سفينته . ويتكسب الفعل عقلانيته ليس من خلال محاولته تحقيق هدف خارجى محدد ، ولكن لأن التخاذل عن تحقيقه ( التراجع عن المبارزة فى حالة لاسال ، أو التخلى عن السفينة الغارقة ) ينظر اليه كنوع من العار ، ومن ثم نجد ان الفاعل يتصرف عقلانيا حتى يظل أمينا على فكرة أو قيمة الشرف لديه .

(ج) وفيما يتعلق بالفعل التأثرى Affective or errational Action ، وبخاصة العاطفى فانه يكون من خلال حالات معينة للشعور أو الوعى . ويطلق فيبر هذه التسمية على الفعل الذى يتأسس بناء على الحالة العقلية أو الانفعالية للفاعل . فصفعة الأم لطفلها ، لسوء سلوكه ، والضربة التى قد يوجهها لاعب لزميله بسبب افتقاده السيطرة على نفسه ، تعنى ان فعلا قد وقع أو تحقق ليس بالنظر الى الهدف أو الى نسق القيم ، ولكن بواسطة رد الفعل العاطفى للفاعل الذى وضع فى اطار ظروف محددة . وفى أحيان كثيرة نجد أن فيبر يعادل بين الفعل العاطفى والفعل اللاعقلانى .

(د) أما الفعل التقليدى Traditional Action ، فاننا نجد ان فيبر يطرح تعريفا كاملا وواضحا له ، من خلال توضيحه للنزعة التقليدية Traditionalism كمفهوم عام . فخلال مناقشته لمفهوم النظام المشروع Ligitmate order نجده يؤكد ان مشروعية أى نظام يمكن أن ينسبها فاعليه له بالنظر الى التقاليد . ومن هنا يساعد التقليد على الموافقة على الجانب المعيارى للنسق الاجتماعى صراحة وبصورة محددة . ومن ثم فالعادة ليست ذات طابع معيارى فى ذاتها ، وانما هى ميكانيزما ونمط واقعى للسلوك ، غير انها ليست أسلوبا ينبغى على البشر التصرف وفقا له (٢٠٩) . من هنا فالفعل التقليدى هو الفعل الذى تقره العادات والمعتقدات بحيث يصبح معتادا Habitual ويشكل طبيعة ثانية للانسان . ومن ثم يصبح الفاعل الذى يتصرف وفقا للتقاليد غير محتاج لأن

يتصور الهدف أو القيمة المتعلقة بفعله أو تصرفه . كذا لا يحتاج أن يندفع لتحقيق فعله بالنظر الى المشاعر والعواطف المباشرة وانما هو يطيع إراديا ما أصبح مفروضا عليه شرطيا (٢١٠) .

غير ان تصنيف ماكس فيبر لنماذج الفعل ينبغى النظر اليها من خلال الاعتبارات التالية :

١ – ان الفعل الاجتماعى وان كانت منطلقاته ودوافعه من خلال نسق الشخصية فى معظم الأحيان . إلا أنه كعملية تقع فى المجال الاجتماعى نجده يخضع لمجموعة من الشروط الموضوعية التى تكسبه طابعه الاجتماعى . وتتباين نماذج الفعل بالنظر الى درجة خضوعها لمجموعة الشروط الموضوعية الكائنة فى الموقف الاجتماعى .

٢ – ان ملامح نماذج الفعل تجرد عن عناصر الفعل الواقعى الأكثر أساسية ، ومن ثم ففى كل نموذج عناصر عديدة من النماذج الأخرى . وبذلك فان النموذج يصنف وفقا لطبيعة عناصره الأساسية الغالبة .

٣ – ان الفعل التأثرى على خلاف الفعل العقلانى بالنظر الى الهدف ينطلق أساسا بغريزية الكائن الفردى ، وهى أكثر ارتباطا بالشرائح البيلوجية والسيكولوجية للشخصية ، وأكثر انتشارا فى المجتمعات ذات السياقات البدائية أو المتخلفة .

٤ – انه ينبغى الحذر الشديد من الخلط بين النموذج المثالى للفعل والتشكل الواقعى الملموس لذات الفعل ، حيث عادة ما يكون هناك خلاف بينهما يعزى أساسا لديناميات عملية التجريد .

يؤكد دون مارتندال ارتباط كل من نماذج الفعل بسياق اجتماعى أكثر ملاءمة ، ومن ثم فهى لاتوجد متعايشة بشكل متوازن فى اطار ذات السياق الاجتماعى . فالنزعة العقلانية للفعل تشق طريقها عادة من خلال القضاء على الأنماط التقليدية للسلوك . ذلك ان تحديد الغايات قد يدعم انتشار العقلانية داخل مجالات الحياة ، بينما ييسر الفعل العاطفى المجال الاجتماعى لنماذج أخرى من الفعل التى تسود دائما سلوكيات الحشد Mob والفترات الثورية (٢١١) .

بيد أنه اذا كان لدينا وجود نسقى من ناحية ، وفعل فردى يأتيه فاعل فى مجال اجتماعى من ناحية أخرى ، اذن ماهى طبيعة الصلة التى تؤسس تشكل الأول من خلال الأخير ، كما يذهب فيبر ، أو تحدد طبيعة الأخير بواسطة الأول على مايذهب دوركيم . فى اطار ذلك نجد ان فيبر يرى ان هذه الصلة تتمثل فى مفهوم العلاقة الاجتماعية . حيث يؤكد ان مفهوم

العلاقات الاجتماعية هو قنطرة العبور من الفعل الاجتماعى الى الوجود الاجتماعى النسقى (٢١٢) . اذ يذهب فيبر الى أن العلاقة الاجتماعية هى العنصر الذى ييسر الانتقال من الأفعال الفردية الى أنماط السلوك . ومن ثم تعتبر العلاقة الاجتماعية مفهوما محوريا نتحرك بواسطته من الفعل الاجتماعى الى فعل الشخص أو الجماعة أو النظم والمجتمعات (٢١٣) .

ويحدد فيبر طبيعة العلاقة الاجتماعية بالنظر الى طبيعة العلاقات المتوقعة بين الأنا والآخر . من حيث ماهية طبيعتها ، أى من حيث كونها ذات طبيعة تعاونية أو تنافسية أو صراعية أو تتعلق بعلاقات الخضوع والسيطرة (٢١٤) . وفي هذا الاطار نجد ان فيبر يجعل من العلاقات الاجتماعية أساسا لعمليات اجتماعية ذات صلة بجوهر الوجود النسقى ، ثم مدى كونها علاقات مفتوحة أو مغلقة . ثم أن العلاقة الاجتماعية هى التى تحدد طبيعة الصلة بين النسق الذى تنتمى اليه هذه العلاقات والأفعال التى تشكل أطرافها من ناحية ، وبين البيئة المحيطة اجتماعية كانت أو بيئية من ناحية أخرى . بل ان فيبر يصل الى القول بأن طبيعة العلاقة الاجتماعية ه التى تحدد طبيعة الوجود النسقى وخصائص التفاعل السائد فى اطاره .

## رابعا : الانسان والمجتمع ، والحوار بين الارادة والحتمية .

يدخل اهتمام فيبر بمناقشة هذه القضية فى نطاق اهتمام النظرية السوسيولوجية فى هذه المرحلة بنشأة النظام الرأسمالى كأحد الأنساق الاجتماعية ، وهو النظام الذى عرض له ماركس بالتحليل أساسا ، وتناوله دوركيم قضيته الأساسية (٢١٥) . غير انه قبل الدخول فى سرد ملامح تصور ماكس فيبر لهذه القضية نرى ضرورة طرح بعض الاعتبارات الأساسية التى ييسر استيضاحها فهم وجهة نظر ماكس فيبر بشأنها .

١ - أول هذه الاعتبارات ، انه بالنظر الى ان نسق القيم يلعب دورا محوريا من وجهة نظر ماكس فيبر ، فاننا نجده يؤكد ان النظام الاجتماعى لديه ليس نسقا اجتماعيا شاملا ومتماسكا . يتضح ذلك من تباين أخلاق وقيم الاعتقاد التى تحكم فعل وسلوك الانسان العادى فى ساحة التفاعل الاجتماعى عن قيم وأخلاق المسئولية التى تحكم فعل وسلوك رجل الدولة . هذا بالاضافة الى تباين قيم كل فرد عن الفرد الآخر ، وهنا نجد ان ماكس فيبر لايرى فى نسق القيم نسقا قبليا سابقا على الأفراد عليهم ان يتطابقوا معه ، وانما هو ناتج للاختيارات الفردية . ووفقا لما يذهب اليه ريمون آرون فاننا نجد لدى فيبر تصورا اراديا للقيم التى يخلقها البشر . ومن ثم نجد ان فيبر ينكر وجود بناء من القيم

ذات الصدق الشامل ، وان كل انسان عليه أن يختار ، لأن القيم ليست مطابقة مع بعضها البعض (٢١٦) ، وفي ذلك ابراز للوجود الفردى على حساب الوجود النسقى .

٢ – يوحى تعدد نماذج الفعل عند فيبر بافتقاد النسق القيمى لأية قبلية ذات طابع حتمى . وإلا لو كان الأمر كذلك ، أى لو كان هناك نموذج واحد لفعل ، لكان معناه وجود نسقى متكامل ومتماسك يعكس الفعل الأحادى خصائصه (٢١٧) .

٣ – يؤكد فيبر تصويرا أسبقية الوجود الفردى على الوجد النسقى ، فبالنسبة لماكس فيبر نجد ان الأفراد والأفعال الفردية هى التى توجد فقط ، ومن ثم فليست هناك ذوات أخرى تعلو على الذوات الفردية Super individual entities (٢١٨) ، وذلك يعنى النظرة الى الانسان الاجتماعى على أنه خالق المجتمع . ويناقض فيبر بهذا الرأى الرؤية الدوركيمية التى تنظر الى ان الانسان الشخص الفاعل مشتق من المجتمع أساسا (٢١٩) ومعنى ذلك ان النسق الاجتماعى يعتبر نتاجا مباشرا للتفاعل الاجتماعى بين الأعضاء المشاركين فيه (٢٢٠) .

٤ – انه باكتمال نشأة النظام الرأسمالى فانه يبدأ فى امتلاك ميكانيزمات استمراره الخاصه به ، كالبيروقراطية ، وبناء السلطة ، والتنظيم العلمى ، والتقدم التكنولوجى . بحيث نجده يتحول من موقف المتغير التابع للخلق الفردى الى كونه متغيرا مستقلا يخضع له الوجود الفردى . ومن ثم فاذا بدأ الانسان بارادته فى تحليق النسق فانه ينتهى بالخضوع لحتمية النسق الذى تولى خلقه فى البداية . اذ نجد ان فيبر يذكر – فى هذه الحالة – تأكيدا على الجانب القهرى للنسق ، هذا التأكيد يذهب الى ماهو أبعد من مجرد الاتفاق ، وانما يصل الى حد تحتيم السلوك الفردى داخل النسق . وهو يعنى بذلك ان مسار الفعل يتحدد فى المقام الأول بواسطة طبيعة الموقف الذى يوجد فيه الفرد ، أى بواسطة الشروط الموقفية اذا استخدمنا الاصطلاحية الماركسية . وهو يعنى بذلك انه بمجرد اكتمال تأسس النسق فانه يصبح مدعما لذاته بالنظر الى قدرته القهرية على الأفراد (٢٢١) .

اذا فنقطة البدء فى تفاعل الانسان مع الموقف أو النظام الاجتماعى عند ماكس فيبر هو ان الفاعل له طبيعته الارادية التى توفر له امكانية الاختيار ، واختيار طريق البناء الرأسمالى ، بحيث ان هذه الارادية لها ملامحها وخصائصها الايجابية المتعددة . فالفرد يقف

فى هذا العالم يرفض الانغماس فى كل ماهو حسى ، ويرفض التكيف مع العالم كما هو ويحل محل ذلك اتجاه للسيطرة عليه . ومن ثم يتحول الجهد التقشفى الكائن فى خدمة الرب من الاطارات الطقوسية الى محاولة ايجابية للسيطرة على العلاقات الجوهرية بهذا العالم (٢٢٢) .

واذا كانت البروتستنتية تدعم فردية الانسان بشكل عام ، فان الكافنية فاقت اللوثرية فى هذا الصدد . اذ تمثل الكالفنية التطرف نحو العنصر الفردى فى بناء الشخصية الرأسمالية . ويرجع ذلك الى انها برفضها أن يكون الانسان طقوسيا فانها تفصل فرديته أكثر من لوثر عن حماية وتوجيه الكنيسة ورهبانها له . فوفقا لمنطق التقدير أو التحتيم Predestination ، ليس هناك من يساعده ، وليس هناك لأى هيئة أى نوع من التأثير على حالته الروحية . وفى ذات الوقت فان الشئ الرئيسى الذى يهتم به هو مصيره الأبدى ، وعلاقته الجوهرية بالله . غير ان علاقته بالله مكانها أعماق قلبه . ومن ثم فينبغى فصلها عن علاقاته بأى كائن بشرى . وفضلا عن ذلك ، ففى مثل هذا الموقف نجد ان الكائنات البشرية الأخرى ليست هامة بالنسبة له فقط ، ولكنها قد تكون خطرة عليه ، والنتيجة كما يذهب فيبر تحقق نوع من العزلة الداخلية للفرد ، تضعه مباشرة فى مواجهة مسئولياته فيما يتعلق بكافة الأمور . بحيث يتضمن ذلك استهانة جذرية بأكثر الروابط الانسانية قوة ، ذلك لأن الله يأتى فى مقدمة كل شئ (٢٢٣) .

ويتسق مع ذلك ماسبق أن أشرنا اليه من سيادة أخلاق الاقتناع لدى الفاعل البروتستنتى وهى الأخلاق التى تفرض عليه أن ينجز الفعل الذى يتسق وقيمه الخاصة دون اعتبار لقيم الآخرين . ذلك لأن غاية الفرد الرأسمالى لاتتفق عادة مع التقاليد السابقة على اكتمال تأسس النظام الرأسمالى (٢٢٤) . يضاف الى ذلك ان وسائل تحقيق الغاية من الفعل الرأسمالى – وهى الكسب الذى لا نهاية له – يعاد اختبارها من جديد وفقا لمتطلبات الموقف (٢٢٥) . بحيث يؤدى هذا الرفض المزدوج للنزعة التقليدية – السائدة فيما قبل المجتمع الرأسمالى والتى تعنى ان يكون الرفض على مستوى الغاية ومستوى ثبات الوسائل – الى تولد روح النظام الرأسمالى التى يعزى اليها تأثير سببى ذو طبيعية ديناميكية قوية ، تبتعد به كثيرا عن الارتباط بالتقاليد والتبعية لها بصفة عامة وشاملة (٢٢٦) .

ويؤكد فيبر ان هذا الموقف الايجابى من العالم قد تأسس بفعل عوامل متعددة منها ان الرأسمالى تتأسس قيم الاختيار لديه على العلم والمعرفة الحديثة (٢٢٧) ، بما يوفر له عقلانية

الاختيار والسلوك المحرر من التقاليد . ويضاف الى ذلك على مايذهب فيبر ان الانسان يستوحى قيم العناية الألهية التى تمثل لديه المتغير المستقل فى الموقف الكونى ، لكى يخلق الواقع وفقا لها ، وهو المتغير التابع . ومن ثم فلكى تأتى فعلا معبرا عن الارادة الألهية ، فلابد أن تكون أولا رشيدا ، وثانيا لابد ان تتجاوز التقاليد ، ومن ثم فهو لايتكيف واياها ، وانما يكون على هذه التقاليد التكيف والرؤية الألهية .

يضاف الى ذلك موقف الفرد البروتستنتى من السلطة الاجتماعية السياسة ، حيث نجده متحررا من قيودها هى الأخرى . فالعزلة الداخلية للمؤمن الكالفنى ، والتشكك فى كل شئ لمجرد أنه إنسانى ودنيوى ، ورفض عبادة الأوثان . كل ذلك يحول طاقته الى خدمة وانجاز غايات ليست شخصية ، بل انها تدفعه أيضا الى ممارسة نوع من التقشف المتشكك فى كل ماهو غنى وفخم Mighty ، وهو الأمر الذى يجعل من الحركة الكالفنية فى بعض الأحيان ذات خطورة بالنسبة للسلطة القائمة خاصة حينما تطلب الأخيرة نوعا من الولاء أو التقدير الشخصى الذى قد يذكر بالوثنية . ويعنى ذلك ان هناك فيما يتعلق بذلك اتجاها قويا لاهتمام الفاعل الكالفنى بأعماله . وأنه عادة مايفضل الانسحاب من الصراع حول السلطة الدنيوية إلا إذا كان الانسان يحارب معركة الله ، كما هى الحال فى جيش كرومويل Cromwell (٢٢٨) .

ماسبق يؤكد خاصيتين أساسيتين ميزتا الشخصية الرأسمالية بحيث خلقت لديها روح الارادية والمبادأة ، فهى أولا لا تربط نفسها بأية مسلمات أخلاقية مطلقة التصديق ، ولو كانت أفكارا دينية ، وانما تكون العلاقة بمثل هذه المسلمات سلبية تماما . ومن ثم نجد لدى هذه الشخصية ميلا نحو التحرر من التقاليد لتحل محلها نزعة ليبرالية متنورة تشكل أكثر المرتكزات ملاءمة لرجل الأعمال الرأسمالى . بل ان التقاليد – حتى فى حالة وجودها – لديه ليست مدعمة بالدين ، وقد يتجاوز الأمر ذلك حينما تتخلق لدى هذه الشخصية احيانا عدائية نحو الكنيسة (٢٢٩) . ويعنى غياب التقاليد من مجال حركة الانسان ان أداء الفعل يتم وفقا لقيمه الخاصة ، أعن ان تشكيل الواقع لايتم وفقا لرؤية عامة يخضع لها الفاعل ، وانما يتم وفقا لرؤية الفاعل وقيمه الخاصة . أما الخاصية الثانية فتتمثل فى موقف ذات الفرد من الواقع المحيط ، هل يعتبر نفسه جزئية ساكنة من مكونات هذا الواقع ، أم انه جزئية نشطة تهدف الى تغيير واقعها المحيط لتجعله أكثر ملاءمة . فى هذا الاطار ترى الشخصية البروتستنتية أنه من الملائم العمل والانتاج لصالح امداد الانسانية بالسلع المادية . يؤكد ذلك مايذهب اليه فرانكلين حول جهوده فى خدمة التحسينات المدنية ، فهو يؤكد انه لما يسعد الانسان ويشعره بالكبرياء أن

يوفر العمل لعديد من البشر وان تشارك فى التقدم الاقتصادى لمدينتك ، حيث يمكن ان يتحقق ذلك عن طريق مشاركة الكثيرين فى المشاريع الرأسمالية والتجارية الضخمة (٢٣٠) .

مجمل القول ان الخصائص السابقة تخلق موقفا يتضمن عنصرين أساسيين ، الأول خلو النسق الاجتماعى الشامل والموقف الاجتماعى - كما يعيشه الفرد - كوحدة مصغرة لهذا النسق من أية بناءات معيارية أو اجتماعية قد تتصل بالبناء السيكلوجى أو البيلوجى للانسان ، من شأنها أن تعوق سلوكه وفعله فى المجال الاجتماعى . والثانى ان الانسان بقيمه الخاصة - المستمدة من البروتستنتية وبخاصة الكالفينية كنسق معيارى - يطرح القيم أو الشروط التى تحكم سلوكه وفعله ، وبالتالى تؤسس التفاعل الاجتماعى الذى ييسر فى النهاية تخليق أو استمرار تخليق النسق الاجتماعى . وتصبح محصلة ذلك ان فعل الانسان يتميز بالارادية المطلقة والقدرة على الاختيار اتجاها محددا . بيد انه اذا كان الإنسان محررا فى مجاله الاجتماعى من أى وسيط بين رؤيته البروتستنتية وتشكل واقعه وفقا لهذه الرؤية ، فان الفرد تصبح اراديته فى النهاية محكومة بالفكرة أو القيمة المعيارية التى تفرضها البروتستنتية والتى تجعل منه مجرد وسيلة لتحقيق الرؤية الدينية فى الواقع الاجتماعى . فالانسان محكوم من داخله بواسطة القيم والاتجاهات الدينية ، بحيث تفرض عليه الاتجاه حتميا فى توجه محدد ، وأن بدا فعله حرا وإراديا فى ظاهرة ، حيث لا قيود على اختياره . ولكى يوضح فيبر هذه النظرة نجده يقارن حالة الانسان فى المجتمع الغربى الحديث بالانسان الصينى أو الهندى الذى لم يفلح فى تأسيس النظام الرأسمالى في اطار هذه الحضارات العريقة . من هذه العوامل مايلى :

١ - مايتعلق بالكونفوشية كنسق أخلاقى ودورها فى صياغة وجهة نظر الفاعل الصينى وخاصة ذلك الذى ينتمى الى طبقة الماندارين ، وهى الطبقة المؤهلة لكى تقود تطورا رأسماليا ، حيث تتبدى الكونفوشية من حيث كونها مذهبا أخلاقيا خالصا ، أو أنها مجموعة من المبادئ العملية التى تفتقد أى أساس ميتافيزيقى . اذا لم يهتم كونفوشيوس كثيرا بالتأملات الميتافيزيقية ، لأن هذه التأملات بدت - من وجهة نظره - غفل ولا نفع لها . ونظرا لطابع الكونفوشية العملى فانها افتقدت أى تصور عن المستقبل ، أو أية فكرة عن الخلاص . اذ اهتمت الكونفوشية بالسلوك اليومى فى ذاته وليس بالنظر الى زية غاية أبعد منه (٢٣١) . فلدى الكونفوشية اذن نوع من الاستغراق فى هذا العالم ، الذى شكل بالنسبة لها نظاما تحكمه السماء ، وان العالم الانسانى ليس

إلا تكوينا مصغرا لهذا العالم . ومن ثم يصبح على الفاعل الصينى ان يحاول الحياة وفقا لهذا النظام ، وهذا يعنى رفض التحرر من الضبط الذاتى الذى قد يخل بهذا التوازن . بالاضافة الى ذلك فان الانسان الرشيد يتجنب أى تأثير لعواطفه ، ومن ثم يظل دائما منضبطا ذا كبرياء ، ومؤدبا . ذلك يعنى أن عليه ان يلاحظ بدقة مقتضيات كل موقف ، حيث يتمثل هدفه الرئيسى فى أن يعيش فى حالة من الانسجام مع النظام الاجتماعى موضع الاتفاق العام . ذلك يني ان الكونفوشية تلغى أية رؤية مستقبلية للانسان وتقدس النظام القائم للأشياء ، ومن ثم يكتسب الفرد رقية اذا هو قد تطابق مع ماهو قائم . وبذلك تحرمه الكونفوشية من أية ارادية قد تفرض التجديد أو التغيير فيما هو قائم . ويصبح النموذج المثالى للانسان هو ذلك الذى يتطابق مع العالم كما هو . وهو يختلف فى ذلك مع الانسان البروتستنتى الذى يسعى لتغيير واعادة صياغة العالم المحيط وفقا لفكرة يحملها فى اطار ماينبغى ان يكون عليه الواقع المحيط .

٢ - أما فيما يتعلق بالبناء القيمى الكونفوشى ، فإننا نجد أنه هو الآخر غير ملائم لنمو النظام الرأسمالى فى اطار المجتمع الصينى القديم ، فتعاليمه لاتؤكد كثيرا على التخصص الفنى على الطارز الغربى . وانما ينصب التعليم أساسا على التعليم الشامل المتصل بالمعرفة العامة ، التى تجعله مختلفا عن الجماهير العريضة ، بحيث ينظر اليه ، اذا ما انجز التعليم المحدد له ، على انه قد إكتسب بعض المؤهلات السحرية أو الكارزمية (٢٣٢) . ومن ثم فافتقاد الانسان للمعرفة المتخصصة ، وامتلاكه لنوع من المعرفة العامة والشاملة لكل شئ يجعله عاجزا عن الاسهام الايجابى فى ترقية الواقع المحيط به ، ولعل الغرض الضمنى لهذه المقولة ان ماكس فيبر يرفض المقولة الماركسية التى ترى فى التخصص اغترابا ، لأنه يختزل ملكات الانسان . حيث يؤكد فيبر عدم فعالية عدم التخصص هذا ، بدلالة ان طبقة الماندارين الصينية تعتبر الطبقة التى أعاقت نمو الرأسمالية الصينية بالنظر الى الطبيعة الخاصة لعقلانيتها .

٣ - يبقى بعد ذلك ان نوضح افتقاد الانسان فى الحضارة الصينية القديمة لاراديته بالنظر الى قوة التنظيمات النسقية المحيطة به وتأثيرها الحتمى على سلوكه . فبدلا من ان يقود نمو الثروة الى الطريق الرأسمالى وفقا للاسلوب الغربى ، فانه اتجه أساسا الى الاستثمار فى زيادة ملكية الأرض ، وسائر الممتلكات المادية . لأن الملكية كانت من الشروط الأساسية لانتقاء المندارين الذى سوف يصبح فيما بعد جامعا للضرائب . ولقد

أدى ذلك الى ان أصبح للتنظيم الاجتماعى العائلى مصالح أساسية فى الأبقاء على نظام امتحانات الماندارين وسائر النظم التقليدية الأخرى ، التى تدعم المجتمع بكامله بواسطة مجموعة من الروابط القرابية الصارمة (٢٣٣) . يضاف الى ذلك ان الجماعة القرابية ذاتها تستند الى عبادة الاسلاف ، حيث تلعب أرواح الاسلاف دورها باعتبارها وسيطة بين الله وأحفادهم (٢٣٤) . ومن ثم أصبحت الكونفوشية والجماعة القرابية ومختلف العناصر التقليدية الأخرى أكثر قوة من البيروقراطية العقلانية . فمثلا كان الأمى المسن ذا مكانة وسلطة تفوق أكثر رجال الماندارين تعليما . وظل نظام التقاضى والعدالة الصينية أبويا أبعد مايكون عن العقلانية والرسمية (٢٣٥) .

ويعنى ذلك ان سياق الانسان الصينى هو الذى شكل بالنسبة له متغيرا مستقلا ، بحيث افتقد هذا الانسان ارادته فى مواجهة الحتمية النسقية . وأصبح التوازن والاستقرار والتكيف مع ماهو قائم أكثر بروزا من امكانية التغيير ، لأنه ليس هناك مثال تبنته الكونفوشية ينبغى أن يكون التغير والتجديد المستند الى الارادية وفقا له .

ولايختلف الفاعل الهندى كثيرا عن نظيره الصينى ، وان كان أكثر منه ملاءمة لامكانية تطوير نظام رأسمالى . فالبناء الطائفى صارم فى صياغة الفرد ، وتحديد مجال حركته (٢٣٦) ويضاف الى ذلك ماتفرزه الهندوكية من تقاليد تؤكد على احتقار هذا العالم وادانته ، ومن ثم ضرورة الانسحاب منه وعدم العمل على ترقيته والمشاركة فى تفاعله (٢٣٧) . ويعنى ذلك ان الهندوكية أكثر من الكونفوشية من حيث أنها أسهمت فى تأسيس فرد لا يتطابق ايجابيا مع النظام القائم كما تذهب الكونفوشية ، أو يخلقه من جديد كما تذهب البروتستنتية . وانما هى قد فرضت على فاعليها موقفا صوفيا ، يعيش فى العالم فى اطار قوقعة قيمية تجعله بعيدا عن هذا العالم ، يأكل منه ولايعمل له ، يعيش فيه ويتمنى أن لا يكون به ، يدينه ويحتقره ومن ثم يعجز عن المشاركة فيه أو التكيف وفقا له . بحيث يشير كل ذلك الى موقف سلبى كامل أمام الحتمية النسقية المتطرفة .

## خامسا : البيروقراطية والسلطة ، آلياتها فى الضبط والسيطرة .

انبثق اهتمام ماكس فيبر بالبيروقراطية والسلطة كوسائل فعالة للضبط والسيطرة من خلال اهتمام علم الاجتماع لديه بقضية الضبط فى مواجهة اهتمام علم الاجتماع أساسا بمشكلة النظام (٢٣٨) .

والحق ان النسق النظرى لماكس فيبر فيما يتعلق بهذه القضية قد مر بمرحلتين ، حيث اهتم فى المرحلة الأولى – وهى المرحلة التى كان الفرد البروتستنتى يتولى خلالها تأسيس النظام الرأسمالى بناء على قيمة البروتستنتية بقضية الضبط الاجتماعى . حيث يحاول الفرد من خلال تفاعله مع الآخرين السيطرة على أفعالهم ، ومن ثم يفرض عليهم المعانى أو التحديدات الخاصة به على المواقف التى تضمه والآخرين . وخلال هذه المرحلة يبدو النسق الاجتماعى كناتج للتفاعل الاجتماعى ، تتحدد طبيعته بالنظر الى علاقات الضبط والسيطرة بين البشر المشاركين فى تأسيس التفاعل (٢٣٩) .

بيد أنه فى أعقاب تأسيس النسق الاجتماعى ، واكتمال ميكانيزماته الطبقية ، تتحول العلاقة من كون النسق متغيرا تابعا للفرد الذى اعتبر المتغير المستقل الى كونه متغيرا مستقلا يصبح البشر فى اطاره متغيرات تابعه له ، وهى المرحلة الثانية فى نمو النسق الرأسمالى كما تصور ذلك المشروع النظرى لماكس فيبر . حيث يبدأ هذا النظام بمجرد اكتمال بنائه فى الاستمرار وفقا لميكانيزمات خاصة له تختلف كثيرا عن ميكانيزمات نشأته (٢٤٠) . فى هذه المرحلة تتخلق لدى البشر حاجة الى النظام الاجتماعى ، ويصبح الضبط ولا شئ غيره هو مايحتاجه البشر الذين قد يصيبهم القلق والتوتر اذا اهتز النظام الاجتماعى لفترة وجيزة ، ويصيبهم العجز اذا هو قد انهار أو تمزق من حولهم (٢٤١) ، وبالنسبة لماكس فيبر تصبح القضية الأساسية هى كيف نواجه هذا النظام الذى تؤدى البيروقراطية دورا محوريا على حماية البشر من بطش أسلوب الحياة البيروقراطى الذى يهدد بمحاصرة أرواحهم .

ذلك يفرض علينا توضيح أجهزة الضبط التى يمتلكها النظام الاجتماعى للسيطرة على أفراده واخضاعهم لتحقيق أهداف وغايات قد لا تنتمى الى فرديتهم ، ولكن تنتمى أساسا للوجود الجمعى الذى يشكلون جزءا منه . وتعتبر البيروقراطية والسلطة أهم أجهزة الضبط والسيطرة فى النظام الرأسمالى . حيث تلعب البيروقراطية دوراً هاما فى ضبط وتنظيم عمليات الانتاج وتفاعلاته ، كمجال اجتماعى . بينما تلعب السلطة دورها فى تنظيم وضبط التفاعل الاجتماعى الذى يشارك فيه الفاعل كحيوان اجتماعى / سياسى . ولتناول البيروقراطية كظاهرة وتنظيم رأسمالى ، نحاول استكشاف طبيعتها وماهيتها . فالبيروقراطية كما يعرفها فيبر هى ميكانيزم يستند الى النظام ، وفى موضع آخر يؤكد ان الخاصية الجوهرية للرأسمالية البرجوازية الرشيدة هى ( التنظيم الرشيد للعمل الحر ) وهى تعنى الشكل الرئيسى للتنظيم

الاجتماعى الذى نطلق عليه البيروقراطية .

والبيروقراطية كما يتناولها فيبر ظاهرة معقدة ، حيث تشير الى التنظيم الذى يهدف - من وجهة نظر المشاركين فيه - الى تحقيق غاية لا شخصية an impersonal end . ومن ثم فهى تستند الى أسلوب لتقسيم العمل يتضمن التخصص بالنظر الى عديد من الوظائف الواضحة التباين وفقا لبعض المحكات الفنية . وهذا التقسيم يرتبط به تقسيم آخر للسلطة ينتظم بشكل تدرجى ، بحيث يتضمن عضوا مركزيا على قمته ومؤهلات فنية من جانب المشاركين فيه . حيث يتحدد أو يدرك دور كل مشارك على أنه الوظيفة التى يتصرف من خلالها بالنظر الى السلطة المنسوبة لهذه الوظيفة وليس الى تأثيره الشخصى . ويتضمن ذلك تمييزا واضحا فى عديد من الجوانب بين علاقات الفاعل وتصرفاته فى وظيفته من ناحية ، وبين علاقاته وامكاناته الشخصية من ناحية أخرى ، وتتضمن البيروقراطية بشكل عام الفصل بين العمل والمنزل ، بين مالية الوظيفة وبين الثورة الخاصة والشخصية ، وقبل كل شئ بين السلطة فى المسائل المتعلقة بالوظيفة وبين التأثير الشخصى خارج نطاق العمل (٢٤٢) .

ويؤكد ماكس فيبر ان التنظيم البيروقراطى يمتلك بعدا تاريخيا بارزا ، ويذكر أمثلة على ذلك بست حالات تاريخية واضحة ، البيروقراطية التى سادت عصر الأسرة الحديثة فى مصر الفرعونية ، وكذا العصور الحديثة التى سادت الامبراطورية الرومانية ، والامبراطورية الصينية ، والبيروقراطية التى سادت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ثم البيروقراطية التى سادت الدولة الأوربية الحديثة ، ثم البيروقراطية التى سادت المشروع الرأسمالى الحديث ذا النطاق الشامل (٢٤٣) . ثم يتجه فيبر لتوضيح خصائص البيروقراطية - التنظيم والانتاجى والسلطوى للمشروع الرأسمالى - فيحددها بما يلى :

١ - ان المرتب Salary هو الخاصية الأساسية للبيروقراطية ، حيث يعتبر المرتب أسلوبها الوحيد فى المكافأة . بحيث لا ينظر الى المكافأة على انها تعادل التضحية بقدر اعتبارها أجرا يتصاعد بتصاعد المركز الاجتماعى للموظف فى اطار التنظيم . ويؤكد فيبر فى هذا الصدد على تباين التخصص والتدريب . واستقلال المكافأة ( المرتب ) عن أية مؤشرات غير بيروقراطية .

٢ - أنه عادة ماينظر الى الوظيفة على أنها عمل أو حرفة تتطلب اخلاصا موضوعيا محددا وأعمال الوظيفة التى تشكل التزامات مفروضة على القائم بها .

٣ – ان مايميز البيروقراطية الحديثة هو استقلالها النسبى عن الدولة ، فالمفروض ان التنظيم لايفرض عليه أسلوبه التنظيمى من الخارج بواسطة الدولة . أو أن هذا التنظيم ماهو إلا تقليد لبيروقراطية الدولة ، حيث تخضع الأخيرة لمؤثرات كثيرة . هذا وقد تخلقت من العوامل فى اطار كل من انجلترا والولايات المتحدة ما أدى الى اعتبار البيروقراطية الرأسمالية ذات نمو مستقل بشكل أساسى .

٤ – اباحة درجة معينة من التخصص الوظيفى وتقسيم العمل على أساس فردى بدون وحدات انتاجية عالية التنظيم ، ويصدق ذلك الى حد كبير على مرحلة الصناعة الحرفية . وفضلا عن ذلك شكلت المتطلبات الموضوعية المتعلقة بالكفاءة عاملا هاما فى التنظيم الدقيق للوحدة المنتجة التى اتخذت طريقها نحو الأشكال البيروقراطية .

٥ – تعتبر التكنولوجيا ، الى حد كبير ، ذات اتصال دقيق بالتنظيم البيروقراطى مادامت مسئولة عن كثير من تقسيم العمل الدقيق . فالمشروع موجه أساس نحو السوق الذى تسوده المنافسة فى حالة غياب الضبط . ومن هنا يصبح دور ميكانيزم الثمن مضمنا فى مفهوم فيبر عن النظام الرأسمالى ، أعنى تطوير وسائل فنية تيسر التبادل ، كالمال ، التسليف ، والبنوك .

٦ – ان البيروقراطية والدور الذى تؤديه فى اطار النظام الرأسمالى يماثل دور صراع الطبقات عند ماركس ودر المنافسة عند وارنر زومبارت (٢٤٤) من حيث كونها الظاهرة المحورية فى النسق ، والتى تشكل أساس التفاعل الاجتماعى .

بيد أنه أثر اكتمال بناء البيروقراطية واتساقها مع بناء النسق الرأسمالى فانها تبدأ فى ممارسة مجموعة من الضغوط على الفرد بحيث يستجيب لمتطلباتها . ذلك ان التنظيم البيروقراطى ، على مايذهب فيبر يتطلب تكريسا موضوعيا للوظيفة موضع التخصص والاستعداد لتلاؤم مع المتطلبات الرشيدة لاطار معقد من الجهود المتخصصة والمتآزرة ، وذلك يتضمن بالطبع خضوعا للنظام داخل حدود الوظيفة . ومن الواضح ان روح الرأسمالية تعتبر حالة خاصة من الروح الحرفية أو المهنية التى تعتبر اتجاها محددا يحتاجه الأداء الوظيفى الفعال للبيروقراطية (٢٤٥) .

وتكشف مقارنة البيروقراطية الرأسمالية بالبيروقراطية الصينية على سبيل المثال عن أنه وان امتلكت الأخيرة ميكانيزمات الضبط الملائمة والقادرة ، إلا أنها لم تسلك الطريق الذى يسلم

بالصين الى انتهاج الطريق الرأسمالى ، فما هى الخصائص التى أدت بها الى عكس أداء البيروقراطية الغربية . وتتمثل أولى خصائص البيروقراطية الصينية التى أعاقتها عن النمو العقلانى فى طبيعة دولة الامبراطورية الصينية ، اذ تميزت هذه الدولة بمظهرين أساسيين ، فهى من ناحية تتميز بكونها دولة ثيوقراطية ومن ثم فهى على هذا النحو تتميز عن البناء السياسى المسيحى . حيث يعتبر الامبراطور ابن السماء ، وينظر اليه على انه الوسيط الأساسى بين النظام الألهى من ناحية وبين المجتمع الانسانى الواقعى من ناحية أخرى ، ومن ثم يشكل الامبراطور جوهر الاهتمامات الطقوسية . حيث قد ينهار المجتمع اذا لم ينجز الطقوس المتعلقة به . ولقد أدى هذا الوضع الدينى الى عدم تركيز القوة Power السياسية فى يد الرهبنة الوراثية التى يمثل قمتها الامبراطور . وانما تركزت فى يد طبقة من الوزراء البيروقراطيين المسماه بالماندارين ، التى وان كانت لها ممارستها البيروقراطية المتميزة فى بعض الجوانب إلا أنها عجزت ان تقود تطورا بيروقراطيا علــى غرار البيروقراطية الغربية (٢٤٦) .

فمن أهم ملامح الماندارين انها فئة من المتعلمين تعليما نظريا يتأكد من خلال مرورهم بعدة امتحانات ، قد تلعب المحسوبية دورا فى شغلهم لمكانتهم فى اطار البناء البيروقراطى لثلاث سنوات يؤدى فيها دوره فى مقاطعة غير تلك التى ينتسب اليها ، وبعد هذه المدة ينتقل الى مقاطعة أخرى . وبرغم استقلال طبقة الماندارين عن السلطة السياسية العليا فانها لم تحاول احتكار الوظائف أو أن تكون ذات وزن سياسى ، وانما ظلت كطبقة مفتوحة تستوعب أى شخص يؤهله مستوى تأهليه أن ينجح فى اختبارات الماندارين . فى اطار ذلك نجد أنه قد ظهرت فى اطارها مجموعة من العوامل التى جعلتها عاجزة عن تطوير بناء بيروقراطى فعال وملائم ، من هذه العوامل مايلى :

١ - تشكلت البيروقراطية من مجموعة الماندارين الذين يمثلون قمة التنظيم البيروقراطى ، التى يخضع لها موظفين ، يعينهم عضو الماندارين من ذات المقاطعة التى يتولى أمرها ليقوموا بالوظائف والأعمال الأساسية . من هنا أصبح النسق الادراى فى موضع لايستطيع فيه ان يفرض سياسات قوية ضد المصالح المحلية أو أصبح مفروضا عليه أن يبيح قدرا كبيرا من الاستقلال للجماعات المحلية . ولذلك بقيت البيروقراطية بناء فوقيا لم يتغلغل بعمق فى البناء الاجتماعى لكى يفرض ضبطا أو سيطرة مباشرة على الفرد فى اطاره كما أنجزت البيروقراطية الغربية ذلك .

٢ - انه نتيجة لأنه مفروض على عضو الماندارين أن يرسل قدرا من الضرائب الى السلطات العليا ، بالاضافة الى مسئولية الانفاق على الموظفين الاداريين المحليين بما فيها مكافآته الشخصية . كل ذلك فى اطار قصر مدة احتلاله لوظيفته فى اطار المقاطعة . بحيث اندفع عضو الماندارين الى جمع أكثر قدر من الضرائب لكى يستعين بها فى مواجهة ماهو مطلوب منه ، وأيضا حينما يتقاعد عن الوظيفة . فى اطار ذلك فانه لم يكن يهتم بالاصطلاحات المتعلقة بتطوير المقاطعة .

٣ - ان البيروقراطية الصينية لم تكن بيروقراطية متخصصة ، فلم يكن ثمة حاجة لمؤهلات فنية خاصة تلزم وظائف محددة ، هذا بالاضافة الى أن التدريب الضرورى لشغل الوظيفة لم يكن بالضرورة فنيا أو متخصصا . اذ كان كل مايلزم المرشح لكى يقبل فى الجهاز البيروقراطى إن يحصل قدر من المعرفة الكلاسيكية التى تؤكد فيه أن يكون رجلا مهذبا يستحق مكانة الماندارين . ولقد زادت هذه الحالة من اعتماد الرئيس ( شخص الماندرين ) على موظفين ، وإصبح ذلك عائقا أمام نمو البيروقراطية والعجز عن ادراك تفاصيل الادارة الروتينية . ومن ثم فقد بقيت البيروقراطية الصينية على الحال التى أطلق عليها فيبر بيروقراطية أبوية Patrimonial (٢٤٧) .

ولاتختلف البيروقراطية الهندية كثيرا عن ذلك ، حيث شاركت البيروقراطية الصينية فى ذات العوامل التى أعاقت نموها وتطورها على الطريقة الغربية . ومن أهمها عدم التدريب المتخصص بالاضافة الى افتقاد أى تصور مستقبلى شامل يعتبر غاية للفعل البيروقراطى أو لمجموعة الأفعال الفردية المكونة .

أما فيما يتعلق ببناء السلطة وهى القضية الثانية التى أهتم بها فيبر فيرجع اهتمامه بها - ككل علماء الاجتماع الآخرين - من أمثال دوركيم ومـاركس ، توكفيل ، وكروبتكين وبورك وآخرين غيرهم - كرد فعل لأحداث الثورة الفرنسية . حيث تأثر جميع هؤلاء المفكرين بتيارات التغير الاجتماعى التى طرأت على المجتمع فى أعقاب الثورة الفرنسية ، اذ خضعت البناءات التقليدية للسلطة لتغيرات أساسية وفقا لتصورات متنوعة . وتخلق اتجاها ثوريا يرى استبدال البناء التقليدى ببناء يؤسسه العقل ، ومن ثم أفرز هذا الاتجاه أهمية بناء السلطة العقلانى ، بينما رأى آخرون ان الاستبدال يجب أن يكون بواسطة السلطة الكارزمية ، وهو الاتجاه الذى يرجع فى عمقه الى الحضور الفعال لشخصية نابليون . بذلك تخلقت ثلاثة تصورات أساسية للسلطة هى السلطة التقليدية والعقلانية والكارزمية ، اعتبرت المقولات الأساسية لعلم اجتماع

السلطة عند ماكس فيبر . مثلما شكلت المقولات الأساسية لرد فعل الفكر الغربى لأحداث الثورة الفرنسية خلال القرنى التاسع عشر والعشرين . وما فعله فيبر فى هذا الصدد أنه حولها الى نماذج تساعده على دراسة أنساق السلطة فى مختلف أقسام النظام الاجتماعى الأشمل ، خلال التاريخ الغربى وغير الغربى (٢٤٨) .

وفى تناوله لقضية السلطة يحاول فيبر التمييز بين مفهومين أساسيين فى هذا الصدد هما مفهوم القوة Power ومفهوم السلطة Authority أو السيطرة Domination . ويتحدد مفهوم القوة لديه من خلال فرصة الانسان لفرض ارادته على آخر ، حتى ولو كان ذلك فى مواجهة مقاومة الآخر . من هنا توجد القوة داخل اطار التفاعل الاجتماعى ، وتشكل أساس التمايز من خلال فرصة أحد البشر لفرض ارادته على الآخرين . هذا مع ملاحظة ان الفرد الذى يقصده فيبر قد يكون مجتمعا كالولايات المتحدة أو فرنسا أو جماعة من البشر فى اطار ساحة التفاعل الاجتماعى . وتتزايد فعالية القوة أو تتضاءل بالنظر الى قدرة الفاعل على تحقيق خضوع الآخر لارادته بدرجة أكثر أو أقل . أما بالنسبة للسلطة فهو يعرفها بفرصة السيد على تحقيق طاعة هؤلاء الذين يدينون نظريا له . ويكمن الاختلاف بين القوة والسلطة فى ان مفهوم القوة لا يتضمن فكرة الحق فى الأمر وواجب الطاعة ، بينما تتضمن السلطة امكانية تحقيق الطاعة الارادية من جانب الخاضعين (٢٤٩) ، فى اطار ذلك نجد ان هناك ثلاثة نماذج أساسية للسلطة نعرض لها بايجاز فيما يلى :

تعتبر السلطة التقليدية Traditional Authority أول نماذج السلطة فى هذا الصدد ، وهى تعرف بأنها تقليدية مادامت مشروعيتها تستند الى قدسية النظام . وان هذه القدسية المتعلقة بالنظام وبمكانة السلطة فى اطاره يعتقد فى وجودها نظرا لأنها منحدرة من الماضى (٢٥٠) . ويؤكد بارسونز فى هذا الصدد ان استخدام فيبر لمصطلح القداسة – المتعلقة بالجوانب التقليدية Sanctity يرتبط بالمشروعية ويبرز ارتباط ذلك بالجانب المعيارى . وبذلك يمكن أن يقال ان فيبر قد أسس ارتباطا قويا بين مشروعية احدى نماذج السلطة وبين النزعة التقليدية (٢٥١) .

ومن ثم فليست القوة أو القهر ، أو العقلانية المتضمنة هى المؤثر الفعال الذى يدعم السلطة التقليدية ، وانما هى تكتسب قدسيتها بالنظر الى القيمة أو الدعم الذى يتوفر لها من خلال البعد الزمنى الطويل الذى وجدت خلاله ، أو بالنظر الى عدد الأشخاص المقدسين الذين شاركوا فى تأسيسها . ومن ثم فالمشروعية هنا تتأسس بالنظر الى التقاليد ، والاعتقاد بأن

السلطة موضع اهتمام قد وجدت دائما . وفى اطار ذلك فاننا نجد أن أكثر المجتمعات فعالية لديها قدر من السلطة ذو طابع تقليدى ينبثق من الأفعال الأساسية لهؤلاء الذين يشاركون فى المجتمع ويعيشون فى اطاره (٢٥٢) . وتعتبر السلطة العقلانية Rational authority هى النموذج الثاني للسلطة ، ويرى فيبر ان أفضل تمثيل لهذا النموذج يتمثل فى البيروقراطية . وهو يؤكد اننا فى اطار هذا النموذج نواجه بنسق من القواعد التى تطبق قانونيا واراديا وفقا لمجموعة من المبادئ المؤكدة والثابتة بين كل أعضاء الجماعة (٢٥٣) . وكما يفترض مصطلح السلطة العقلانية ، يعتبر هدفها الأساسى فى هذا النطاق هو تأسيس مجموعة من العلاقات بالنظر الى مبادئ العقل والمعقولية ، ولا علاقة لهذه السلطة بالعمر أو الزمن أو درجة القداسة المتعلقة بالأشخاص المؤسسين لها . اذ يعتبر التنظيم البيروقراطى متفوقا فى ذاته اذا هو قد حدد المكانات والأدوار المتعلقة بالتنظيم وكذا المعايير التى تحكمه بالنظر الى التخطيط والحساب الخاضع للعقل . ويؤكد فيبر أنه لم يوجد تنظيم عقلانى بدرجة كاملة (٢٥٤) . أما النموذج الثالث الذى صاغه فيبر فهو نموذج السلطة الكارزمية Charismatic Authority التى تنتمى الى شخص ما يعتقد أنه يمتلك بالنظر الى قدراته السحرية Magical أو الدينية Religious أو العسكرية Military ، خاصيته تنبؤية سامية Genuis or prophetic يعتقد ان بقية البشر يفتقدونها . ويعتبر كل من يوليوس قيصر أو نابليون من بين الأمثلة الشهيرة للسلطة الكارزمية ، حيث يعتبر كل منهما مؤسسا لنسق من المعتقدات الذى يتطلب ولاء مابين البشر . وفيما مضى ارتبطت السلطة الكارزمية بالدين ،أما فى العصر الحديث فانها تميل لأن تتخذ طابعا سياسيا ، ولقد كان نابليون بقدراته الفعالة هو الذى ألهم كثيرا من مفكرى القرن التاسع عشر سواء منهم اليسار أو اليمين السياسى بهذا النموذج . ويعتقد ماكس فيبر ان معظم التغيرات الكبرى فى تاريخ المجتمع الانسانى كانت نتيجة لأفراد ذوى امكانات كارزمية ، وترجع نظريته عن التغير ذاتها الى فرض الانسان العظيم . ويعتبر فيبر أكثر من من أى عالم اجتماعى أخر اهتم بقضية التغير الاجتماعى ، ولكن من خلال فعالية الانسان الفرد . اذ نجده يؤكد كثيرا على أهمية الفرد المزود بامكانات كارزمية قادرة على اخضاع أعداد كبيرة من البشر (٢٥٥) .

ويؤكد فيبر ان المصير المحتوم للبيروقراطية الكارزمية ان تصبح روتينية ، أعنى أن تنتقل من الحضور الفعال للانسان الكارزمى الأصلى لكى تصبح تقاليد أو تتحول الى بناءات ذات طابع عقلانى عال . مثال على ذلك الكنائس الكبيرة الحديثة أو كثير من التنظيمات الرسمية الشاملة التى تأسست بشكل أساسى من خلال فاعلية ذوى الطاقات السامية نسبيا . ولقد

اعتقد فيبر ان السلطة الكارزمية أو القيادة الكارزمية ، والتغير ذو الأساس الكارزمى تنسحب الآن كلها من على المسرح الأوربى فى مقابل النمو السريع للبيروقراطية القوية فى كل أقسام المجتمع الغربى . وانه لم يعد هناك مجال لحياة الكارزما أو التقاليد ، حيث ستحل البيروقراطية محلهما معا ، وان القضية الأساسية التى سوف تطرح نفسها سوف تتعلق بكيف نحمى أنفسنا من السيطرة القوية لاسلوب الحياة البيروقراطى (٢٥٦) .

خاتمة لذلك نرى ضرورة توجيه الاعتبار الى مسألتين تتعلقان بعلاقة السلطة والبيروقراطية كميكانيزمات تنظمية للسيطرة والضبط بقضية النظام والفعل الاجتماعى كقضايا جوهرية لهذا الدراسة ،، أما المسألة الأولى فتتعلق بأن الانسان الذى أسسه فيبر بدأ بداية اختيارية وارادية على النحو الذى تصوره جان روسو فى علاقته بالنظام الاجتماعى ومن حيث طبيعة سلوكه . بحيث برزت الهوية الفردية على الذاتية النسقية . فى اطار ذلك فان النشأة المجتمعية تابعة للانسان ومن خلفه . غير أنه على الرغم من ذلك نجد ان فيبر ينتهى الى نهاية تقترب كثيرا من التصور الذى طرحه توماس هوبز والذى يرى خضوع الفرد للنظام بعد تأسسه واكتماله ، أى أن يصبح فعله لا اراديا يخضع لإطار الفعل الكلى للنظام . أما المسألة الثانية فتتعلق بالتمييز الذى صاغه فيبر بين أخلاق المسئولية وأخلاق الاعتقاد كموجهات للفعل . فاذا عبر الحاكم عن أخلاق المسئولية فهو بذلك يعبر عن أهداف ومصالح ترتبط بارادة المجتمع والصالح العام . ومن ثم فالفعل الذى تحكمه هذه الأخلاق يختلق كثيرا عن الفعل الذى تحكمه أخلاق الاعتقاد والذى يسود المجالات الفردية للتفاعل والسلوك . بيد ان المعضلة الأساسية فى هذا الصدد تتمثل فى ان فيبر عجز عن توضيح طبيعة العلاقة بين أخلاق المسئولية من ناحية وأخلاق الاعتقاد من ناحية أخرى . وهى فجوة ظلت واضحة فى بنائه الأخلاقى أو منظومة القيم التى تحكم حركة الانسان والمجتمع الفردى والفعل المجتمعى ، والتفاعل الاجتماعى الشامل .

**سادسا : نظرية ماكس فيبر ، نظرة عامة .**

المؤكد أن نظرية ماكس فيبر عن الفعل الاجتماعى كانت تشكل جوهر الاهتمام الأساسى فى كل تنظيره الفكرى ، ومن هنا وجدنا لديه بناء متكاملا من حيث مستوياته المنهجية أو العينية . والحق أنه يمكن القول ان هذه النظرية مثلت أكثر التنظيرات إكتمالا فيما يتعلق بالتفاعل الاجتماعى . فنحن نجد ان لديه منهجا واضحا لادراك هوية الفعل وان بدأ بداية ذاتية إلا أنه ينتهى بنهاية موضوعية أساسا ، وهى مزاوجة رائعة نجح فيها ماكس فيبر بحيث نستطيع

القول بأنه قد قدم حلا أساسيا وجوهريا لهذه المعضلة المنهجية . هذا بالاضافة الى ابتكاره للنموذج المثالى كوسيلة منهجية قياسية يقيس على أساسها نماذج الفعل الواقعى ، للكشف عن مدى انحرافها عن المثال وعوامل هذا الانحراف . هذا الى جانب ان النموذج المثالى كما طرحه ماكس فيبر كان يمثل اطارا موضوعيا – وان أسس ذاتيا – تشتق منه الفروض التى يمكن أن توجه البحث الواقعى ، وذلك كرد فعل للمواقف الايديولوجية التى بدأت تختلط بالقضايا العلمية للنظرية السوسيولوجية والتى سادت الماركسية والوضعية بامتداداتها الدوركيمية .

الى جانب ذلك أكد فيبر كثيرا على أن الرؤية العلمية هى دائما جزئية لأنها نسبية ، ومن ثم فقد طرح منطق امكانية صدق المواقف النظرية المتباينة ، بل ان مشروعه النظرى فى هذا الصدد لم يكن محاولة لرفض الماركسية على ما يذهب زايتلن مثلا ، ولكن اتجه أساسا الى تأكيد امكانية صدق فرضيات مضادة للفرضيات الماركسية ، مع التأكيد على صدق النظرية الماركسية ذاتها دون أخلاقها . ومن هنا فلقد أسس ركائز موضوعية لامكانية صياغة نظرية سوسيولوجية شاملة .

أما على المستوى العينى فلقد بدت اسهاماته عملاقة وراسخة ، فهو الذى بين الصلة الواضحة بين كون الفعل الفردى أساسا للنظام الاجتماعى والفعل الجمعى ، ثم كيف يتحول الفعل الفردى من موقف المبادأة الى الخضوع لميكانيزم التنظيم والسيطرة من قبل النظام الشامل الذى أسسه الفعل الفردى .

بالاضافة الى ذلك حدد فيبر الملامح التكوينية لنماذج الفعل الاجتماعى والأبنية الاجتماعية المرتبطة بها ، فى حالة من الثبات ، ثم فى حالة من الدينامية حينما أوضح كيف تنساب أو تتحول أى من نماذج الفعل هذه الى النماذج الأخرى .

ذلك كله فى اطار تحليلات مقارنة وشاملة . تضمنت الحضارات الصينية ، والهندية أو الفرعونية ، والحضارة الغربية الحديثة . ومن ثم فليس غريبا أن نجد أن النظرية السوسيولوجية الحديثة بكافة مواقفها النظرية المتباينة ، وظيفة ، كانت أو سلوكية ، أو راديكالية ، كما هو الحال فى الاتجاها النقدية ، كلها تستلهم المقولات النظرية لماكس فيبر الأكثر فعالية واثمارا .

## مراجع الباب الرابع


1. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 500
2. Don Martindale : The Nature and types of Sociological theory. p, 393.
3. Nisbet : The Social Philosophers, Community and Conflict in western thought. London. 1973. p, 442.
4. don Martindale : The Nature and types of Sociological theory. p, 377.
5. Freund, Julien : The Sociology of Max weber. Traus By M. Ilford. Penguin Books. 1972. pp, 37-38.
6. Don Martindale : Op, Cit. pp, 377-378.
7. Ibid. p, 379.
8. Aron-Raymond : Main Currents in sociological thought. Trans by Richard Howard & Helen waver. London, 1967. p, 182.
9. Ibid. p, 182.
10. Ibid. p, 208.
11. Ibid. p, 210.
12. Ibid. p, 210.
13. Mayer, J. P. : Max Weber and German Politics. London. Faber and Faber. 1934. p, 127.
14. Dawe, A : (The two sociologies). British Journal of Sociology. Vol. XXI. No 2. June. 1970. pp, 473-489.
15. Myrdal, G. : Value in Social theory . Routledge & Kegan Paul. 1957. pp, 119-165.
16. J. Freund : Op, Cit. pp, 60-61.
17. R. Aron : Op, Cit. pp, 179-180.
18. Giddens, Anthory : Max Weber and the Development of copitalism. Sociology. vol. 4. 1970 pp, 289-310 esp. 293.
19. R. Aron : Op, Cit. pp, 158-186.

20. Weber, Max : Objectivity in Social Science and Social Policy. in Methodology in the Social Sciences. Free Press. Chicago. 1949 p, 68.

21. Rex, John : (Typology and Objectivity : A Comment on Webers Four Sociological Method in Arun Sahay : Max Weber and Modern Sociology. Routledge & Kegan Paul. London. 1971. pp, 17-30. esp. 30.

22. Don Martindale : Op, Cit. p, 280.

23. Aron, Raymond : German Sociology. Trans by M. and t. Bottomore. Ill. The Free Press. 1957. p, 56.

24. M. Weber : Methodology of the social sciences. pp, 76-77.

25. Weber, Max : Economy and Society. Bedminster Press New York. 1968. p, 11-12.

26. Don Martindale :Op, Cit. p, 379.

27. T. Parsons : The Structure of Social Action pp, 516-517.

28. J. Freund : Op Cit. p, 41.

29. Don Martindale : Op, Cit. p, 378.

30. R. Aron : Op, Cit. pp, 206-207.

31. Ibid. p, 218.

32. don Martindale : Op, Cit. p, 381.

33. Lazars Feld & A. Obserschall : Max Weber and empirical Social research . Amer. Soc. Rex. Voo. 30. No. 2. April 1965. pp, 185-198.

36. J. Rex : Op, Cit. : p, 20.

37. Salomon, Alobert : German Sociology in George Gurvitch and Wilbert E. Moore : Twentieth - Century Sociology. New York. The Philosophical Library. 1945. p, 596. and See also . Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 117.

38. Irving Zeitlin : Op, Cit. pp, 111-112.

39. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 504.

40. Parson, T. : Capitalism in recent German Literature : Sombart and Max Weber, Journal

of Political economy. Vol. 1. No. 36. 1928. pp, 641-661. esp. 647.

41. R. Aron : Main Curents of Sociological thought. pp, 218-219.

42. J. Freund : Op, Cit. p, 65.

43. M. Weber : The Methodology of the Social Sciences. p, 103.

44. Weber, Max : The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism. Trans by : T. Parsons. New York. 1928. p, 23.

45. T. Parsons : Capitalism in vecent German Literature. p, 656.

46. Weber, Max : The Religion of India. Trams By : Hams Girth and Don Martindale. Gleonce. Ill. the Free Press. 1958. p, 111.

47. R. Aron : Main Currents of Sociological thought, p, 228.

48. Ibid. pp, 191-192.

49. Ibid. pp, 200-819.

50. M. Weber : The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism. p, 55.

51. T. Parsosns : The Structure of Social Action. p, 571.

45. T. Parsons : Capitalism in recent German Literature. p, 656.

53. R. Aron : Main Currents of Sociological thought. pp, 209-210.

54. M. Weber : The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism.

p, 160.

55. T. Parsons : The Structure of Social Action. pp, 506-507.

56. M. Weber : The Protestant Ethic and the spirit of Capitalism. pp, 66-68.

57. Ibid. pp, 60-72.

58. R. Aron : Main Currents of Sociological thought. pp, 207-208.

59. M. Weber : The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism. pp, 59-60.

60. T. Parsons : The Structure ofSocial Action. p, 505.

61. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 142.

62. Ibid. p, 143.

63. T. Pansons : The Structure of Social Action. p, 501.

64. Ibid. p, 669.

65. Ibid. p, 670.

66. R. Aron : Op, Cit. p, 191.

67. M. Weber : The Methodology of the Social Sciences. p, 90.

68. r. Aron : Op, Cit. p, 200.

69. Ibid. pp, 208-209.

70. J. Rex : Typology and Objectivity. pp, 27-28.

71. T. Parsons : The Structure of Social Action. pp, 620-621.

72. Giddens, A : Durkheim as a review Critic. Amer. Soc. Rev. Vol. 18. 1970 pp, 171 - 196.

73. R. Aron : Op, Cit. pp, 209-210.

74. RT. Parsons : The Structure of Social Action. p, 660.

75. Ibid. p, 661.

76. R. Nisbet : The Social philosophers. p, 437.

77. Ibid. p, 661.

76. R. Nisbet : The Social philosophers. p, 437.

77. Ibid. pp, 438-439.

78. Mayer, J. P. : Max Weber and German Politics. pp, 127-128.

79. R. Nisbet : The Social Philosophers. p, 439.

80. Ibid. p, 442.

81. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 156.

82. M. Weber : Theory of Social and economic Oerganization p, 118.

83. R. Aron : Op, Cit. p, 188.

84. Ibid. p, 183.

85. Ibid. pp, 183-184.

86. Ibid. p, 183.

87. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 600.

88. Giddens, A. : Politics and Sociology in the thought of Max Weber. London. 1972. p, 94.

89. T. Porsons : The Structure of Social Action. p, 641.

90. J. Freund : Op, Cit. pp, 56-57.

91. A. Giddens : Politics and Sociology in the thought of M. Weber. 63.

92. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 598.

93. Don Martindale : Op, Cit. p, 380.

94. J. Freund : Op, Cit. p, 41.

95. Ibid. p, 41.

96. Don Martindale. Op. Cit. p, 378.

97. Ibid. p, 388.

98. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 581.

99. Ibid. p, 586, and See M. Weber : The Methodology of the Social Sciences, p, 76, and See also R. Aron : Op, Cit. p, 186.

100. J. Freund : Op, Cit. p, 43.

101. M. Weber : The Methodology of the Social sciences, p, 174.

102. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 581.

103. Ibid. p, 583.

104. M. Weber : The Methdology of the Social Sciences. pp, 81-82.

105. Ibid. p, 72.

106. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 282.

107. Don Martindale : Op, Cit. p, 375.

108. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 587.

109. Ibid. p, 587.

110. Ibid. pp. 588-589.

111. J. Freund : Op, Cit. p, 40.

112. Ibid. p, 41.

113. R. Aron : Op, Cit. p, 190.

114. Bendix, Reinhard : Max Weber. An Intellectual Portrait. London. 1966. p, 56.

115. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 283.

116. J. Freund : Op, Cit. p, 42.

117. Ibid. p, 52.

118. M. Weber : The Methodology of the Social Sciences. p, 84.

119. Ibid. p, 85.

120. Ibid. p, 87.

121. Juliem Frund : Op, Cit. pp, 53-56.

122. Myrdal, G. : Value in Social theory. Routledge & Kedgan Paul. 1958. pp, 119-165.

123. J. Rex : Op, Cit. p, 19.

124. R. Aron : Op, Cit. p, 193.

125. J. Freund : Op, Cit. p, 48.

126. J. Rex : Op, Cit. p, 20.

127. R. Aron : Op, Cit. p, 200.

128. J. Freund : Op, Cit. p, 71.

129. Ibid. p, 76.

130. Luckman. T. : The Social Construction or reality - Allen lane, 1967. p, 47.

131. R. Aron : Op, Cit. p, 195.

132. Ibid. p, 196.

133. T. Luckman : Op, Cit. p, 63.

134. Max Weber : The Methodology of the Social Sciences. p, 76.

135. J. Freund : Op, Cit. pp, 49-50.

136. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 582.

137. J. Freund. Op, Cit. p, 73.

138. Ibid. p, 199.

139. Ibid. p, 200.

140. Ibid. p, 218.

141. Ibid. p, 219.

142. IIbid p, 200.

143. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 118.

144. Roymond Aron : Op, Cit. p, 195.

145. Ibid. p. 201.

146. R. Aron : Op, Cit. p, 207.

147. J. Rex : Op, Cit. p, 18.

148. M. Weber : The Methodology of the Social Sciences. p, 115.

149. R. Aron : Op, Cit. pp, 202-203.

150. M. Weber : The Methodology of the Social Sciences. p, 103.

151. J. Freund. Op, Cit. p, 60.

152. Sahay, Arun : The importance of Webers' Methodology. in A. Sahay. M. Weber and Modern Sociology pp, 72-73.

153. T. Luckman. Op, Cit. p, 92.

# الباب الخامس

## فلفريدو باريتو
## ودورة الصفوة فى اطار النظام

### المحتويات

**تمهيد :**

شكلت نظرية فلفريدو باريتو بداية الجدل مع عصر التنوير ومنجزاته . واذا كانت الأنساق الكلاسيكية للنظرية الاجتماعية قد شكلت التجسيد الفكرى والعلمى لمبادئ التنوير ، فإننا سوف تجد ان النسق النظرى لباريتو يقف بعيدا عن هذه الأنساق ، ويميل الى قيادة برهنة مخالفة أو مضادة . واذا كانت الأنساق الكلاسيكية للنظرية الاجتماعية – ماركس دوركيم ، فيبر – قد استمرت مستنده الى مبادئ التنوير، تحاول التفاعل من خلالها مع الواقع ، فإن القضايا النظرية التى قدمها فلفريدو باريتو كانت رفضا لقضايا هذه الأنساق النظرية ، واستكمالا لذلك تشكيكا فى بعض مبادئ التنوير الفاعله من خلال العلم الاجتماعى .

واذا كان فكر التنوير قد حاول إدراك الظواهر الاجتماعية – باعتبارها جزءا من ظواهر الكون – بالنظر الى مقولة السبب والنتيجة – مستلهما فى ذلك نموذج العلم الطبيعى المتطور – خلال هذه الفترة – وهى المقولة التى تحاول ادراك الأسباب المخلقة للواقعة الاجتماعية أو العوامل المؤثرة عليها من خارجها ، كما يحدث فى نطاق الظواهر الطبيعية . فإننا نجد أن فلفريدو باريتو يرى ان العامل الأساسى المحدد لكل الظواهر الاجتماعية يكمن فى عمق الذات البشرية ، راسب فيها يحدد سلوكيات الانسان وتبريراته المنطقية لسلوكياته وأفعاله . قد تكون هذه الرواسب مبادئ ذات طبيعة بيلوجية تدفع الانسان من داخله ، أو هى عواطف تشكل طاقة دافعة لسلوكيات الانسان فى الواقع الاجتماعى ، ومحاولتةاقناع الآخرين بهذه السلوكيات ومنطقها أمامهم . وهو بذلك – على مانرى – يسبح فى التيار المعاكس لفكر التنوير .

وإذا كان عصر التنوير قد رفع شعارات الحرية والأخاء والمساواة ، باعتبارها القضايا التى تشكل مقدمات دعوة الجماهير للمشاركة فى النظام السياسى والاجتماعى ، وهى الدعوة التى وجدت تجسيدا لها فى الثورة الفرنسية التى اعتبرت مدخلاً للمشاركة الجماهيرية فى صياغة القرار السياسى طالما أنها التى تتحمل معاناه تجسيد هذا القرار . فإننا نجد فلفريدو باريتو يجفل من هذه المشاركة الجماهيرية ، ويرى أن البشر فى المجتمع ينقسمون الى صفوة ولا صفوة ، الأولى هى التى تصنع التاريخ ، بينما تتلقاه الثانية مصنوعاً ، وليس عليها سوى الخضوع لحركته ومتطلباته . فالتاريخ من وجهة نظره نتاج لدورات الصفوات على خريطة الزمن ، أما الجماهير فهى بعيدة دائماً على هامش الدائرة أو على هامش التاريخ .

وإذا كان شعار التقدم والتطور من الشعارات الأساسية التى تميز بها عصر التنوير ، وهى الشعارات التى ورثتها كافة الأنساق الكلاسيكية للنظرية الاجتماعية . حيث النظر الى

المجتمع الانسانى من خلال منظور تطورى يرى ان المجتمع الانسانى ذاهب أبدا الى الكمال ، وان كل مرحلة من مراحل التطور ليست سوى خطوة على طريق التقدم نحو الكمال الانسانى والاجتماعى ، من هنا فالتطور هنا خطى له بداية وينشد الوصول الى نهاية . على خلاف ذلك نرى أن باريتو يؤكد على دورية التاريخ ، فالتاريخ ليس سوى دائرة تقود الصفوة المجتمع على محيطه ، ليس ثمة كمال انسانى ولكن هناك انتقال من حالة أو مرحلة الى أخرى ، كل مرحلة لها صفوتها التى تطبع نظرتها وأخلاقها على المجتمع والتاريخ حركة دائرية تشهد على تعاقب الصفوات .

ويعتبر العقل من المفاهيم أو الشعارات الأساسية التى أكد عليها عصر التنوير . فتحت وطأة التقدم الهائل الذى حققته العلوم الطبيعية ، ظهر ايمان بقدرة العقل المستند الى المعرفة العلمية على تنظيم المجتمع وقيادته وتجنيبه المشكلات المختلفة . بحيث نجد ان مختلف الاتجاهات الفكرية تؤكد على دور العقل ، فقد أكد ديكارت على دور الفكر أو العقل ، حتى جعلة أساساً للتثبت من حقيقية الوجود الانسانى ، وكانت الذى رأى ان العقل يدرك واقعه بناء على مقولات الادراك الثلاث التى تشكل جهازه المدرك للواقع ، وهيجل هو الذى أكد على تطور الأفكار باعتبارها القوة الدافعة للتفاعل والتطور الجدلى . ولاتختلف الوضعية عن ذلك ، فهى التى أكدت على أهمية العلم فى تنظيم استقرار المجتمع وتطوره ، بل ذهبت أحيانا الى المطالبة بحكم العلماء للمجتمع على نحو مايذهب سان سيمون .

فى مقابل ذلك نرى ان باريتو يخالف موقف التنوير المؤكد على دور العقل فى تأكيد استقراره وتطوره . وبديلاً لذلك نجده يطرح الرواسب باعتبارها عناصر بيلوجية خالصة كامنة فى عمق الذات البشرية وهى القادرة دائماً على تأكيد استقرار المجتمع أو تطوره أو شيوع حالة الفوضى فيه ، وذلك بناء على مجموعة الرواسب الشائعة فى الصفوة التى تتولى ضبط تفاعلاته والسيطرة عليه . فالرواسب بدلا من العقل ، هى الحاكمة لحركة المجتمع فى قلب التاريخ .

وإذا كان الاستقرار هو المنهج الذى أكد عليه التنوير نقلاً عن العلوم الطبيعية ، بحيث برز اتجاه الاستفادة منه فى نطاق العلوم الاجتماعى . ولما كان الاستقراء يحاول ادراك الحقيقة من خلال تجلياتها ومؤشراتها الخارجية ، فإننا نجد ان فلفريدو باريتو يؤكد أن فهم الفعل أو السلوك أو الظاهرة الاجتماعية يستوجب ادراك الرواسب التى تشكل مظاهر الظاهرة تجليات لها .. ومن ثم فعلى العلم الاجتماعى ان يركز على ادراك الرواسب المحددة للواقعة الاجتماعية ، لأنها هى التى تكسبها خصائصها . وهو بذلك يشكل بداية تيار فكرى كامل ، سوف يؤكد دائماً

على الادراك الذاتى للواقعة الاجتماعية ، وهو التيار الذى سوف يظل متناميا حتى ينادى بالغاء التنوير الفكرى ومنجزاته على نحو مافعل منظروا الفكر النقدى الحديث ، كما يتجسد ذلك فى مؤلف تيودور أدورنو ، وماكس هوركهايمر فى مؤلفهما « جدل التنوير » . وسوف نعرض خلال هذا القسم لطبيعة التيارات الفكرية التى شكلت فكر فلفريدو باريتو ، ثم نحدد قضايا المنهج والاجراءات المنهجية ، وفى النهاية نعرض لتصوره عن البناء الاجتماعى من حيث عناصره ، وطبيعة العلاقة بين هذه العناصر .

# الفصل الثالث عشر

## فلفريدو باريتو
## الجذور الفكرية والسياق الواقعى

### المحتويات

## مقدمة

الى حد كبير شكل تفكير باريتو جدلاً مع فكر التنوير ، وهو الفكر الذى سيطر على المرحلة التاريخية التى انتهت بقيام الثورة الفرنسية ..ونشأة النظرية السوسيولوجية ، أى قيام التفكير العلمى المنظم بشأن المجتمع . واذا تمثلت أفكار التنوير الرئيسية فى الإيمان بالعقل ، والايمان بالتقدم ، لأن ماهو أكثر اكتمالا مازال فى قلب المستقبل ، هذا الى جانب النظر الى التفكير العلمى الطبيعى باعتباره الفكر العلمى الذى يجب ان يحتذى فى التفكير والعمل ، لحساب التخلى عن الميتافيزيقا فكراً ومنهجاً .

ومنذ البداية نجد أن باريتو يتناقض مع أفكار التنيور ويرفض تأكيد التنوير على العقل كمدخل لفهم المجتمع ، باعتبار ان العقل ليس إلا عاملاً غير ملائم لفهم التاريخ (١) . واذا كان ثمة ايمان بعقلانية الانسان وكماله ، وهى القضية التى ركز عليها فكر التنوير فإننا نجد ان باريتو يرى الانسان غير عقلانى أساسا ، وأن التاريخ لايضيف اليه تقدماً . فهو كائن لايسيره العقل ، وإنما تسيره وتدفعه الرواسب الكامنة فى أعماقه (٢) . واذا كانت الأنساق النظرية التى شهدتها مرحلة التنوير – وهى المرحلة التى عايشت ميلاد النظرية الاجتماعية – قد أكدت على مبدأ التقدم أو التطور نحو الكمال الانسانى ، فإننا نجد ان باريتو على خلاف التنوير ينظر الى التاريخ باعتباره يسير دوريا ، ومن ثم فقد قدم نظريته عن الصفوة التى تناوب عناصرها مراكز القوة والسلطة فى المجتمع ، دون أن يكون لهذا التناوب أو التغير الناتج عنه أى تأثير على حالة البشر الذين يشاركون عضوية هذا المجتمع ، فهو الذى قال أكثر من مرة ان المضمون واحدا دائماً ، والأشكال هى التى تتغير فقط (٣) .

وفى محاولة رصد الاتجاهات النظرية التى عايشها باريتو ، والأحداث التى تفاعل معها ، باعتبارها العناصر التى أسهمت فى تشكيل أفكاره ، فإننا سوف نجد منذ البداية ان حياته لم تسر حسب وتيرة واحدة ، ولكنها خضعت لتحولات جذرية انعكست فى التحولات الفكر التى طرأت على مواقفه الفكرية والأيديولوجية .إضافة الى حالة عدم الاستقرار التى خضعت لها حياته الأكاديمية .

ويعتبر العلم الطبيعى أول الاتجاهات الفكرية التى كانت موضع تركيزه واهتمامه ، حيث شكل النموذج الفكرى الذى ينبغى تمثله لفهم الظواهر الاجتماعية . وتمثل الوضعية الاجتماعية – وبخاصة الفرنسية – كما أسسها سان سيمون وأوجست كونت ومن تأثر بهما مثل جيتانو موسكا ثانى هذه التيارات الفكرية . وقد كانت الماركسية هى التيار الفكرى الثالث الذى طرح

حلولا جزئية لتساؤلات أرهقت العقل الأوربى فى هذه المرحلة . هذا الى جانب كثير من الأفكار التى كان لها تأثيرها عليه ، وهى الأفكار التى تنتمى الى الفلسفة المثالية خاصة ماكس فيبر كتعبير سوسيولوجى عن هذه الفلسفة ، ثم الداروينية الاجتماعية كما قدمها هربرت سبنسر أحد روادها البارزين . هذا بخلاف الأحداث الواقعية التى فرضت طابعا معينا على تفكير باريتو على الأقل أنها فرضت عليه التفكير فى نطاق مجالات معينة ، وفيما يتعلق بقضايا محددة ، وهو ماسوف نعرض له فى الصفحات التالية :

## أولا : فلفريدو باريتو ، الأنسان والسياق (*)

مثلما تجاهل فلفريدو باريتو رواد علم الاجتماع الذين أخذ عنهم وتدرب على أفكارهم ، لم تردده كثيرا صفحات علم الاجتماع المعاصر . ولعل ذلك يرجع لأسباب عديدة ، منها أنه برغم اكتمال مؤلفه ( مقدمة عامة لعلم الاجتماع General treatise on sociology ) فى سنة ١٩١٢ ، فقد ظهر فى ١٩١٦ فقط أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولأنه قد نشر بالانجليزية فقد كان منطقيا أن يلقى استقبالا ملائما . غير أن ذلك لم يحدث بسبب رفض مدرسة دوركيم - التى كانت لها سطوتها فى فرنسا - لمدخل باريتو المختلف فى علم الاجتماع . ولعل قلة قراء علم الاجتماع فى ايطاليا ابان هذه المرحلة كان أحد هذه الأسباب أيضا (١) . غير أن سببا رئيسيا ثالثا يعتبر مسئولا عن عدم ذيوع أفكار باريتو أثناء هذه المرحلة ، هذا السبب يتمثل فى أن باريتو أسس بناءه النظرى حسب متغيرات لم يعمل بها منظروا عصره . فبينما تناول معاصروه ( ماركس ، دوركيم ، فيبر ) المتغيرات الى تقع فى اطار المشتقات - وهو نطاق المتغيرات التابعة من وجهة نظر باريتو - اتفاقا منهم وروح التنوير ، نجد أن باريتو قد أنجز تحليله حسب متغيرات من نوع مختلف . هذه المتغيرات نجد أصولها فى العواطف الداخلية لبناء الانسان ، أى الرواسب الأساسية الكامنة فى أعماقه باعتبارها المتغيرات المستقلة والمؤسسة للتفاعل الانسانى . والتى ينبغى تحديدها اذا رغبنا فى تحديد ملامح هذا التفاعل . اذا فبينما عملت النظريات الاجتماعية بمتغيرات ظاهرة للعيان لها مؤشراتها الواضحة كالاقتصاد أو السكان أو الثقافة والقيم ، نجد أن باريتو يتراجع عن روح التنوير وحاول ممارسة تحليله بالنظر

(*) ولد فلفريدو باريتو فى باريس ١٨٤٨ من أبوين أيطاليين ، وقد توفى فى سنة ١٩٢٣ من ٧٥ عاما . وقد تدرج فى المناصب حتى وصل الى أستاذ لعلم الاقتصاد والاجتماع فى جامعة لوزان Lausanne بسويسرا .

الى اطار نظرى يعمل بمتغيرات من مستوى أعمق من متغيرات التنوير ، أو لنقل بما هو كائن وكامن فى عمق الطبيعة البشرية . ومن ثم فليس صادقا ذلك القول الذى يذهب اليه ارفنج زايتلن حينما يعتبر تنظير باريتو ليس إلا حوارا مع أفكار الشبح الماركسى . ذلك أن باريتو قد مارس تحليله على أرضية جد مختلفة ، وبمتغيرات لم تستطع النظرية السوسيولوجية استيعابها فى هذه المرحلة . ذلك يفسر تجاهل باريتو لنظريات ماركس ، ودوركيم ، وفيبر . فقد كانت – من وجهة نظره – تنتمى الى نطاق آخر لم يرض لنفسه العمل فى اطاره .

وتكشف دراسة الموقف النظرى لفلفريدو باريتو عن تعرضه لمؤثرات عديدة . أول هذه المؤثرات تلك المتصلة اتصالا مباشرا بحياته . والتى فرضت على تفكيره أن يتميز بطابع خاص ، حيث تميزت حياته بدرجة عالية من التحولات وعدم الاستقرار . فمثلا انتقل أبوه من ايطاليا الى فرنسا فى الثلاثينيات من القرن الثامن عشر وظل بها حتى عاد الى ايطاليا فى ١٨٥٥(٢) . ومما لاشك فيه أن ذلك كان له وطأه وتأثيرا على الطفل باريتو سواء من حيث تغير القيم المجتمعية التى عايشها أو النظام التعليمى الذى تعلم فى اطاره .

ويشكل التعليم الأكاديمى الذى تلقاه باريتو التحول الثانى الذى تميزت به حياته . فقد درس الهندسة فى كلية الهندسة بتورين Turin polytechinical school . وتخصص كأبيه فى الهندسة المدنية ، حيث أنفق عامين كاملين فى دراسة الرياضة ، وهو أسلوب التفكير الذى كان له تأثيره على تفكيره المستقبلى . وقد اختتم باريتو هذه المرحلة بدراسة عن « المبادئ الأساسية لتوازن الأجسام الصلبة » حيث نجده فى مرحلة تالية ينقل هذه الرؤية الى علم الاقتصاد والاجتماع . غير أن التحول الرئيسى لحياته حدث بعد وفاة أبيه فى ١٨٨٢ . فتحت تأثير ذلك غير أسلوب حياته كلية ، ومن بينها تحوله الى الدراسة الجادة للاقتصاد (٣) . أما التحول الأخير الذى حدث له فى نهاية حياته العلمية فهو تحوله الى دراسة علم الاجتماع ، حيث تركزت محاضراته فى أواخر أيام حياته فى نطاق علم الاجتماع السياسى وتاريخ المذاهب الاجتماعية والاقتصادية (٤) .

غير أن هناك تحولا رئيسيا له فى حياته ، وهو التحول الذى يتمثل فى انتقاله من الحياة العصامية النشطة الى حياة أرستقراطية مترفة . فقد أصبح ثريا نتيجة لوصية بثروة كبيرة حصل عليها بعد وفاة أحد أعمامه . ومن ثم فقد بدأ يعيش حياة لم يكن يسمح بها مرتبه السابق إذ بنى منزلا فى سيلنى Celigny القريبة من لوزان Lausanne ثم قاد بعد ثرائه حياه مترفه ومنغمسة فى اللذات ، يشرب أفضل أنواع النبيذ والخمور . وبعد عدة أعوام من هذه الوصية

التى الت اليه نشر مؤلفه « النظم الاشتراكية Systems Socialists » ، حيث قدم تحليلا ونقدا مفصلا للمذاهب الاشتراكية ولكل المذاهب التى تبيح تدخل الدولة (٥) .

ويتمثل التحول الرابع الذى طرأ على حياته ، فى مجموعة التحولات الأيديولوجية التى طرأت على موقفه الاجتماعى . اذ نجده فى بداية حياته - اتباعا لأبيه - يلتحق بالصالونات الأرستقراطية ، حيث اختلط بالأوساط البرجوازية العليا ، وفى هذه المرحلة كان جمهوريا ديموقراطيا غيورا ، مؤكدا على النزعة السلامية (٦) . غير أننا نجده فى مرحلة تاريخية تالية يشن هجوما على النظريات - الليبرالية الديمقراطية والاشتراكية الماركسية خاصة - (٧) . بينما فى مرحلة تالية نجده ينقلب من اليسار الليبرالية ، فقد كان فى بداية حياته بلوزان يعتبر نفسه ليبراليا يساريا . إذ نجده فى هذه الفترة يوفر المأوى للاجئين اليساريين الذين فروا من ايطاليا بعد اضراب ميلانو فى ١٨٩٨ . غير أننا نجد أن آراؤه قد تغيرت بصورة جذرية وحادة ، فقد تخلى عن أمله فى اعادة بناء الجوانب الاقتصادية لايطاليا على الطريقة الليبرالية ، وتحول ضد أى شكل من أشكال الفكر الديمقراطى . حيث ميزت هذه الحالة من الكراهية المرضية لأفكار اليسار كل كتاباته التالية (٨) . ويتضح تحوله ضد النزعة الانسانية حينما نذكر ماكتبه فى شبابه وهو شاب فى فلورنسا كمدافع نشط عن النزعة الانسانية والسلامية « تعتبر الحرب والسلام المسلح رفاهية مكلفة تتمتع بها الطبقة الحاكمة على حساب الأمة » ويرتبط بذلك أنه فى هذه المرحلة كان معاديا للاستعمار . حيث أكد أن تونكين Tonkin تكلف فرنسا كثيرا . ولا تقدم تونس أية فائدة لايطاليا سوى بعض الوظائف الادارية لأبناء البرجوازية . غير أننا نجده فى فترة تالية ولسبب غير واضح يتحول عن موقفه السابق ليكشف عن كراهية حادة وادانة للنزعة الانسانية ، التى ليست سوى عاطفة الضعيف فى اطار الطبقة المحكومة أو عاطفة تشهد على تدهور الصفوة الحاكمة . ويؤكد بوسكيه Bousquet أنه رغم ذلك فقد تحول فى أيامه الأخيرة الى الحديث عن شرور الحرب ، غير أن آراؤه فى هذه المرحلة لا تتلاءم كثيرا مع امتداحه للقوة واستخدامها فى الصراع الطبقى أو الصراعات التى قد تظهر بين الأمم (٩) . وفى اطار ذلك فانه بامكاننا أن نصل الى استنتاج رئيسى يذهب الى أن باريتو كان ليبراليا انسانيا ديموقراطيا فى فترة حياته الأولى ، غير أنه حينما امتلك الثورة وعاش الحياة المريحة ، بدأ يمارس انعكاسا لهذه المرحلة ، حياة لا انسانية ، يؤكد فيه على الصراع والقوة والرواسب ذات الفاعلية فى حركة التاريخ والمجتمع .

ولعله من الضرورى – لفهم حياة باريتو وتفكيره – أن نتعرف على القراءات العلمية التى تعرض لها . وفى هذا الصدد نجد أن هناك ثلاثة مجموعات فكرية كانت لها وطأتها على تفكيره

**الأولى** : مجموعة قراءات الفكر الاغريقى والرومانى ، حيث كان باريتو على معرفة باللغة اليونانية واللاتينية وكانت لديه عاطفة قوية نحو التراث والتاريخ الأغريقى والرومانى . وقد اطلع على هذه المجموعة فى فترة شبابه عند بداية اهتمامه بالتاريخ والمجتمع . ومن ثم نجده يرى أن علم الاجتماع بالنسبة له يعتبر دراسة لأوربا القديمة بقدر ما هو دراسة للمجتمع الأوربى المعاصر ولعل قراءاته للاساطير اليونانية القديمة شكلت أساس لتصوراته عن الرواسب وعلاقتها بالمشتقات ، التى تتسم بالطبيعة غير العلمية .

**الثانية** : وهى المجموعة التى تعرض لها باريتو بالبحث والدراسة . وتتمثل هذه المجموعة فى مجموعة النماذج النظرية التى طرحها فكر التنوير . حيث هاجم باريتو فكر التنوير أيا كانت الأشكال التى اتخذها . فقد ذهب باريتو – مناقضا فى ذلك معظم مفكرى التنوير – الى القول بأن العقل يعتبر وسيلة غير ملائمة ، وربما غير صالحة لفهم المجتمع والتاريخ (١٠) . وبينما كان فكر التنوير يؤكد على العقلانية كمعيار رئيسى للفعل السلوك ، نجد أن باريتو يؤكد أن أفعالنا غير منطقية وأننا نطرح تبريرات لها فى صورة نظريات أو أيديولوجيات . واذا كان مفكرى التنوير قد أكدوا على النظريات والمبادئ ، فقد أكد باريتو على الرواسب باعتبارها طبقة قريبة للغاية من الغرائز فى تشكيل السلوك الانسانى والتأثير عليه .

**الثالثة** : وتتمثل فى المؤثرات الفعلية من داخل علم الاجتماع كنظام عقلى ، وهو التأثير الذى لم يسلم به باريتو أبدا . وربما لأنه كما ذهب ارفنج زايتلن قد شعر قد فاق كل السابقين عليه بما فيهم أرسطو Aristotle وميكيافيللى Macchiavelle وماركس وداروين وآخرون . اذ نجده وهو يكمل دراسته « مقدمة فى علم الاجتماع » لايقتبس من أى شخص آخر مؤكدا أن ذلك لا أهمية له فى الدراسة العلمية للظواهر الاجتماعية . وهو الأمر الذى دفع محرره ومترجمة أرثر لفنجستون Arthur Livingston الى القول ، بأنه فى اطار علم ضم ملايين الكلمات ، لم يذكر باريتو المفكرين العظام الذين أخذ عنهم ، فهو لم يذكر تأثره العام بكونت Conte ونظرية المشتقات لبنتام Bentham « حيث نقل باريتو بعض قضاياها حرفيا » ونظرية الدورة الطبقية لجيتانوموسكا Gaetano Mosca ونظرية الرواسب عن جيمس فريزر Frazer وآخرين غيرهم ، هذا بالاضافة الى كثير من التفصيلات التى أخذها عن هيجل ووليم جيمس وآخرين كثيرين (١١) .

وتشكل الحياة الأكاديمية والجامعية التى عاشها البعد الرابع الذى كان له تأثيره على طبيعة تفكيره . حيث نجده قد عاش حياة أكاديمية اتسمت نهايتها بالمرارة التى كان لها تأثيرها على تفكيره ومزاجه . فقد تعرف باريتو على ليون والراس Leon Walras أستاذ الاقتصاد السياسى بجامعة لوزان . وابتداء من هذه اللحظة بدأ باريتو فى كتابه مقالات فى النظرية الاقتصادية الى عدد من الصحف فى كل من ايطاليا وفرنسا ، بحيث عكست هذه المقالات وجهة نظر والراس . وفى عام ١٨٩١ قدمه صديقه مافو بانتاليونى Pantaleoni وهو ليبرالى اقتصادى الى والراس بقوله « أنه مهندس مثلك ، غير أنه اقتصادى يختلف عنك ، وهو يرغب فى أن يكون مثلك اذا أنت ساعدته على ذلك » (١٢) . ثم مرض والراس فدفعه صديقه الى ترشيح باريتو خليفة له ، ومن ثم عين باريتو فى ١٨٩٣ كأستاذ مرموق للاقتصاد السياسى ، وكان ذلك فى منتصف الأربعينات .

وفى أعقاب التحاقه بجامعة لوزان بدأ يشكو من الظروف السائدة هناك . فقد كتب فى رسالة له « توجد هنا مكتبة أحدث كتاب للاقتصاد السياسى بها هو كتاب جون ستيوارت مل » ، هذا الى جانب أن اختلافه ورفضه لآراء والراس عن التقدم والتطور جعله يختلف مع أفكار كانت تشكل مناخ هذه الفترة ، وهو ماسبب المتاعب له . إضافة الى أنه لما كان الاقتصاد هو العلم الأساسى فى كلية الحقوق ، فان باريتو وجد صعوبة كبيرة حين محاولته استبدال ودعم البحوث الاقتصادية بتطوير نظرية سوسيولوجية . هذا الى جانب أنه وجد نفسه وحيدا فى كلية تدرس القانون أساسا ، بل ان محاولته لفرض تعليم العلوم الاجتماعية وجدت مقاومة من زملائه ، ووصل الأمر الى أنه قد فشل حتى بعد أن أصبح عميدا فى أن يجد مكانا لاثنين من أصدقائه فى علم الاجتماع الأجرامى ، وقانون العقوبات . هذا الى جانب أنه قد قابل عدة صعوبات فى التدريس . فقد كان يلقى محاضرت على المبتدئين ، جعل منه ببغاء يحاضر أسلافا دارونيين . وقد دفعه عدم نجاحه فى التدريس الى التخفف من أعباء التدريس حتى أصبح يلقى محاضرة لساعة واحدة كل أسبوع فى الاجتماع السياسى وتاريخ المذاهب الاقتصادية والاجتماعية . ثم بلغ به الأمر الى أنه أصبح يحاضر ثلاثة شهور فقط فى السنة . حتى وصل فى النهاية الى ترك التعليم الجامعى كلية ، حيث استراح فى فيلته يحيا ( ككائن كسول فى صدفيته ) كما عبر هو عن ذلك (١٣) .

أما البعد الأخير الذى كان له تأثيره على حياته فيتمثل فى حالة العزلة التى تعرض لها باريتو فى نهاية حياته . ففى أعقاب عام ١٩٠٩ ، انسحب من كل الروابط التى كانت له مع

رفاقه ومعارفه . حقيقة أنه كان هناك بعض الزملاء من الجامعة الذين داوموا على زيارته ، أو بعض المفكرين من جامعات أخرى مثل روبرت ميشلز ، غير أن الدائرة ظلت تنكمش ، لأنه أصبح من الصعب عليهم أن يتحملوا هياجه وانفجاراته العصبية ، وحتى أصدقاءه أصبحوا موضوعا لهجومه . وحينما كان يحاول أى من أصدقائه أن ينبهه بلطف الى عدم لياقة ذلك كان يصرخ ( من الواضح أن التجاهل هو سلاح الأقلية ، أما معظم البشر الذين يضمون البلهاء والأوغاد ، فان على المرء ان يستخدم القوة لكى يبقهم فى حالة من النظام ، وفى فترات الانتقال حيث لايكون ذلك ممكنا ، فان مايبقى لنا هو أن نضحك أو نستهين بالبلهاء والأوغاد ) (١٤) . وقد انتهى به الأمر فى أواخر أيامه الى عزلته التامة عن الحياة الأكاديمية ، حيث بدأ ينكر أى قيمة علمية لآراء أى شخص لا يتفق مع أفكاره . وفى مقابل ذلك فانه حكم على هؤلاء الذين يتفقون معه حول المبادئ الأساسية مثل روبرت ميشلز Robert Michels وجورج سوريل George Sorel بأنهم يعملون بروح علمية حقيقية .

ويمكن القول بأن هذه الأبعاد ذات الطابع الشخصى كان لها – الى جانب الأفكار والاتجاهات النظرية التى سادت عصره – أثرها فى تشكيل موقفه النظرى . ويمكن القول بأن حالة عدم الاستقرار التى عاشها كان لها تأثيرها الواضح على طبيعة الشكل الذى اتخذته أفكاره ، كما يؤكد ذلك شهادة قرائه الذين واجهوا صعوبات بالغة فى الاطلاع على مؤلفاته وبخاصة مؤلفه الرئيسى « مقدمة فى علم الاجتماع العام » .

## ثانيا : فلفريدو باريتو والشوق الى نموذج العلم الطبيعى .

فيما يتعلق بالموقف من العلم الطبيعى نجد أن تالكوت بارسونز يؤكد أن باريتو – كما هو معروف – قد تدرب فى اطار العلم الطبيعى وذلك بمعهد الهندسة بمدينة تورين ، ثم عمل مهندسا لعدة سنوات . ومن هذه اللحظة نجده لم يغفل اهتمامه بالرياضة والعلوم الطبيعية ، بحيث يفرض ذلك علينا اعتبارها عنصرا أساسيا فى تفكيره ونموذجا لتفكيره الاجتماعى فيما بعد (١٨) . وقد اتضح التزام باريتو بالنزعة العلمية فى كتابة المقدمة ، حيث عرض لكثير من الملاحظات الناقدة لما يسمى بالنزعة العلمية الزائفة عند كل من كونت وسبنسر . كما نجد أيضا اشارات ساخرة للديانات ، العلمانية عن التقدم والإنسانية والديمقراطية . ويرى باريتو أن مايجنبنا الوقوع فى هذه الفجوات غير العلمية ، هو أن يستخدم علم الاجتماع المنهج التجريبى المنطقى الذى يعتمد أساسا على الملاحظة والاستنتاج المنطقى وفقا لقواعد الاستقراء

الأساسية كما حددها ستيورات مل . فالعالم التجريبى فى رأى باريتو يتكون من ظواهر وعلاقات من الممكن ادراكها بالحواس ، وعادة مايتيسر اخضاعها للقياس (١٩) .

ويعنى الالتزام بمنهج العلوم الطبيعية أيضا ، الا تكون هناك برهنة عقلية فقط ، وألا تكون هناك تأملات Speculations ، وأيضا لا تكون هناك محاولة لفرض رؤية أخلاقية فيما يتعلق ببعض القضايا الواقعية . اذ لاينبغى أن نعترف بشئ يتجاوز الحقائق أو لا يصف اطراداتها أو خصائصها وهى الممارسات التى يمكن أن تشكل عناصر فى نظرية علم الاجتماع المنطقى التجريبى . وبعبارة أخرى ، فنحن لا ينبغى أن نسمح بتدخل عنصر أو مبدأ مسبق فى نطاق علم الاجتماع . فقضايا علم الاجتماع وافتراضاته ينبغى ألا تكون أكثر من وصف الحقائق واطراداتها . وعلى هذا النحو فهى ليست مطلقة ولكنها نسبية ، معرضة للتغير طالما أظهرت حقائق جديدة عدم دقتها وكفاءتها . ومن ثم فينبغى اخراج مقولات مثل الضرورة Necessity والحتمية والحقيقة المطلقة من نطاق العلم . فقضايا هذا العلم ينبغى أن تكون احتمالية بدرجة أكثر أو أقل . اذ ينبغى أن يستند العلم الى النظرية الاحتمالية ، ويتبغى قياس صدق الحقيقة بحسب ذلك . كذلك لا ينبغى أن يدخل فى مجال هذا العلم كل مالا يخضع للتجريب أو الملاحظة . ذلك أن الموضوعات التى لا تخضع للتجريب أو الملاحظة لايمكن أن يقول العلم شيئا بشأنها اذا لايمكن أن يشكل مبدأ أو قيمة مطلقة أو تقويما أخلاقيا يتجاوز ممكنات الملاحظة والصدق التجريبى عنصرا فى علم الاجتماع التجريبى المنطقى (٢٠) .

غير أننا اذا اتفقنا على تأكيده على العلم الطبيعى كنموذج للعلم الاجتماعى ، فانه يستتبع ذلك الأخذ بمجموعة من الحقائق الرئيسية . وتتمثل الحقيقة الأولى فى أن الباحث لا ينبغى أن يهتم سوى بوصف العالم أو تحليله أو تفسيره ، أى أن يقف موقفا موضوعيا . وفى هذا الصدد يؤكد باريتو أن هدفه الرئيسى - الذى يركز عليه المرة تلو الآخرى - هو الحقيقة العلمية ، التى يمكن ادراكها فى المجال الاجتماعى اذا نحن طبقنا مناهج العلوم الطبيعية . حيث نلاحظ فى كل مؤلفاته تأكيدا على أنه لا يهتم بتغيير العالم أو تحسينه ، وهو أيضا لايهتم بتوفير توجيه نظرى يقود تفاعلاته الواقعية ، ولكنه يسعى لهدف رئيسى يتمثل فى دراسة اطرادات الظواهر الواقعية والحالية ، أى المعاشة فى الحاضر للكشف عن القوانين التى تحكمها (٢١) . .

أما المسألة الثانية التى تنبثق عن هذا الموقف المتمسك بنموذج العلم الطبيعى ، فتتمثل فى الحيادية ، وهو هنا يدرك الحيادية بمعنى خاص يتعلق به . وتتمثل فى ضرورة الفصل بين

صدق الفكرة ونفعها . اذ يؤكد أن نفع الفكرة وصدقها لايتطابقان فى المجال الاجتماعى ، فكلاهما كأمر واقعى ينفصل عن الآخر . وبصورة مستمرة يذكر باريتو قارئه ، أنه حينما يبرهن على عبث فكرة معينة ، فان ذلك لا يعنى أنها ضارة بالنسبة لأى شخص . وحينما يبرهن بأن فكرة معينة نافعة فان على القارئ ألا يفترض أنها صادقة تجريبيا . فمن الواضح أن هناك أفكار كثيرة شائعة بين البشر ، يعرف البشر أنها زائفة ، وأن صدقها النسبى مازال مجهولا (٢٢) .

أما المسألة الثالثة فتتعلق بتأكيده على القانون العلمى بصورة متطرفة . وفى هذا الصدد نجده يؤكد أن عنصر الضرورة فى القانون العلمى يعتبر عنصرا جوهريا فى بنائه المنطقى . وعلى هذا النحو فالقانون العلمى لا استثناء له . غير أن هذه الضرورة المنطقية ، والتى قد نسميها بالحتمية المنطقية Logical determinism (٢٣) ، ينبغى أن لا تنسحب على الظواهر الواقعية . ذلك أن النسق المغلق منطقيا والذى يتعلق ببناء النظرية العلمية لاينبغى أن يصبح نسقا امبيريقيا مغلقا بصورة تعسفية أو ارادية . فعلى العكس من ذلك يؤدى تطبيق النظرية امبيريقيا الى كم من الاحتمالات وليس الى الضرورات أو الحتميات (٢٤) .

خلاصة القول أننا نلمح تأثير منهجية العلوم الطبيعية على تفكير باريتو من زاويتين ، الزاوية الأولى وهى بطبيعتها زاوية عامة ، حيث نجد أن بعض جوانب الموقف المنهجى لباريتو قد أخذه عن منهج العلوم الطبيعية كما ناقشنا ذلك ، وكما سوف يتضح فى الفقرة التى سوف نقدمها عن المنهج خاصة فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية الحديثة التى تتسم بالدقة ، من حيث بنائها المنهجى (٢٥) . أما الزاوية الثانية فتتمثل فى أنه قد نقل الى بنائه النظرى مجموعة من المفاهيم الأساسية التى كانت تلعب دورا أساسيا فى العلوم الطبيعية . وفى هذا الصدد يؤكد لويس كوزر L. Coser أن فكرتى باريتو عن النسق System والتوازن Equilibrium ، قد أخذهما عن العلوم الطبيعية (٢٦) .

## ثالثا : باريتو والحوار مع الوضعية الاجتماعية .

وتعتبر الوضعية الاجتماعية كما طرحها سان سيمون وأوجست كونت خلال هذه الفترة الرافد الثانى الذى كان لباريتو موقفا واضحا معه . ومنذ البداية نجد أن باريتو كان لديه طموحا لخلق علاقة بين النظرية الاجتماعية الميكيافيلية ، وهى التى تنتمى الى الفكر الايطالى من ناحية ، وبين الفكر الوضعى بأشكاله المتعددة ، سواء كان السان سيمونية أو الوضعية الكونتية ، أو حتى تلك المتصلة بالداروينية الاجتماعية من ناحية أخرى (٢٧) . وحسبما تذهب

المراجع التاريخية ، هناك تأكيد لقراءته لكونت ، حيث لم يكن لديه شئ سوى احتقار النسق النظرى العام لكونت . اذ اعتقد باريتو أن علم اجتماع كونت ليس إلا نوعا من الدوجماطيقا التى تماثل الى حد كبير مؤلف بوسية Bosseut دروس فى التاريخ العام Discoures on Universal History ، أو هو حالة من ديانتين مختلفتين ، ولكنه يتصل بطريقة ما بالدين . ويؤكد باريتو أنة قد صدم بسبب اصرار كونت على أن العواصف وليست الأفكار هى المسئولة عن التماسك الاجتماعى . وهو فى ذلك يستند الى اقتباس عن كونت يؤكد على فكرة السيطرة الشاملة للعواطف . حيث استنتج باريتو أنه اذا كان كونت قد قنع بأن يكون عالما ، فانه قد كان عليه أن يكتب مؤلفا ممتازا حول قيمة الديانات ، حينئذ كان من الممكن أن يعلمنا أشياء كثيرة (٢٨) . ثم نجده يسخر من كونت باعتباره قد أصبح نبى الديانات الجديدة فبدلا من دراسة آثار الديانات التاريخية والمعاصرة نجده قد رغب فى خلق ديانة جديدة .. ومن ثم فقد فرض علينا مثالا آخر للضرر الذى وقع فى حق العلم ) (٢٩) . وبرغم ذلك - حسبما يذهب كوزر - فاننا نجد آن باريتو قد تعلم كثيرا من كتاب ( النظم ) لكونت برغم عداوته الشديدة له فيما يتعلق بنبوءات كونت الخاصة بديانة الانسانية أو بالنسبة للاعتقاد المتفائل فى التأكيد على قوة الأفكار كما يظهر خلال مولفه ( دروس فى الفلسفة الوضعية ) .

غير أننا نجد أن موقف باريتو من سان سيمون يتميز بكونه أكثر سوءا ، اذ نجده ينظر الى السان سيمونية بنوع من الازدراء معتبرا سان سيمون مهرجا Buffoon يكسو تصوراته الدينية والأخلاقية بمظهر علمى خادع . غير أن الاشارة الى سان سيمون على هذا النحو مسألة تثير الريبة ، خاصة اذا عرفنا أن فكرة دورة الصفوة مأخوذة عنه . وقد تألم جيتانو موسكا Gaetano Mosca - وهو أحد منافسى باريتو - لذلك ، حينما أشار الى سان سيمون باعتباره رائدا مبرزاً لنظرياته ، وهو الاعتراف الذى لم نجد نظيرا له عند باريتو . وتكشف المقارنة عن وجود تشابه كبير بين نظريات باريتو ، ونظريات هذا المفكر الفرنسى الذى أكد ان البشر يولدون وهم متباينون من حيث ملكاتهم . وأنه نتيجة لذلك ينبغى تنظيم المجتمع تنظيما متدرجا ، بحيث يتولى الأمر فيه هؤلاء ذوى القدرات العالية . ويعتبر تأكيد باريتو على الفرص الكاملة للحراك الاجتماعى ، والمراكز المفتوحة أمام الموهوبين من القضايا التى تتماثل الى حد كبير مع عبارة سان سيمون التى قالها لحوارييه المأثورين لديه ، والتى أكد فيها أنه جاهد طيلة حياته بهدف ( توفير أفضل فرصة ممكنة لكل أعضاء المجتمع من أجل تطوير ملكاتهم ) .

والحق أن اغفال باريتو للأفكار التى جاءت اليه من سان سيمون كانت خاصية عامة فى سلوكه الفكرى . اذ نادرا مانجده يقر بفضل السابقين عليه ، الذين قد أخذ عنهم بعض أفكاره . وهو الأمر الذى دفع أرثر لفنجستون ، وهو المحرر الأمريكى المعجب بأفكاره الى القول ( فى مؤلف يحتوى على ملايين الكلمات والهوامش الكثيرة ) ، والذى يحتوى على اشارات كثيرة لمفكرى فى الماضى والحاضر فاننا لا نعثر إلا على بضعة مئات قليلة من الكلمات التى تصف دين باريتو خاصة لكونت فيما يتعلق بمنهجه العام ، أو فيما يتعلق بالمشتقات التى أخذها عن بنتام ( والذى نقل باريتو بعض قضاياها حرفيا ) ونظريته عن دورة الصفوة التى أخذ بعض أفكارها عن جيتانو موسكا ، ونظرية الرواسب لفريزر . هذا الى جانب عدم تحديده لما يدين به فيما يتعلق ببعض القضايا والأفكار لهيجل Hegel ، ووليام جيمس William James ، وآخرين كثيرين (٣٠) .

يبقى بعد ذلك أن نوضح موقفه من جيتانو موسكا ، باعتباره المناظر الفكرى له ، والذى طرح نفس الأفكار تقريبا . والحق أن عدم اعتراف باريتو بتأثير بعض المفكرين عليه فيما يتعلق ببعض الأفكار كان أوضح مايكون بخصوص موقفه من جيتانو موسكا . فمازال هناك جدال بين مشايعى كل من باريتو وموسكا حول ادعاءاتهما المتبادلة حول نسبة بعض الأفكار - خاصة فيما يتعلق بنظرية الصفوة - لأى منهما . وبرغم أنه ليست هناك حاجة لأى شخص خارج هذا الحوار لاصدار أحكام محددة بهذا الصدد ، فمما لا جدال فيه أن موسكا قد سبق باريتو لسنوات كثيرة فى صياغة الخطوط العامة لنظرية الصفوة ، هذا برغم اختلافهما الواضح حول بعض القضايا والاعتبارات الأخرى .

فقبل أن يكتب باريتو شيئا حول هذا الموضوع فى ١٨٨٤ حدد موسكا - فى كتابه ( الطبقة الحاكمة The Ruling Class ) - أن الطبقة الحاكمة باعتبارها تتكون من هؤلاء الذين يمتلكون زمام القوة العامة ويمارسونها . وهم عادة مايكونوا قلة ، يخضع لهم طبقة كبيرة من الأشخاص الذين لايشاركون بأى معنى فى الحكومة ولكنهم يخضعون فقط لهذه الفئة القليلة ، وتسمى الطبقة الكبيرة الخاضعة بالطبقة المحكومة (٣١) . وقد كان عمر موسكا حينئذ خمسة وعشرون عاما فقط حينما قدم فكرته عن الطبقة الحاكمة الذى ظل يطورها بقية حياته . وفى هذا الصدد سلم بتأثره بسان سيمون الذى قال ( ان القوة فى كل المجتمعات المنظمة تنقسم الى مجموعتين . الأولى تتحكم فى القوة الفعلية والأخلاقية ، أما المجموعة الثانية فتتحكم فى القوى المادية للمجتمع . وكلا من هذه القوى أو السلطات تمارسها سلطات منظمة تشكل فى

مجموعها الطبقة الحاكمة (٣٢) . وباعتبار أنه كان دقيقيا فى تحديد مصدر الهامه ، نجد أن موسكا كان غاضبا للغاية حينما وجد أن باريتو قد استولى على معظم أفكاره الأثيرة لديه ، بل أصبح أكثر غضبا حينما رفض باريتو بغطرسة هذا الاتهام حينما وجه اليه . بل نجده يذهب الى أبعد من ذلك فيلغى أية أشارات لموسكا فى الطبعات الجديدة لمؤلفاته القديمة (٣٣) .

ولايعنى ذلك أن باريتو لم يتجاوز موسكا ، ولتحديد هذه العلاقة بشكل دقيق نستند فى هذا الصدد الى تقديراً دقيقا لطبيعة العلاقة بينهما قدمه ستيوارت هوغ Stuart Hughes حينما كتب قائلا ( تعتبر صياغة موسكا لهذه النظرية هى الصياغة الأولى والأكثر عمومية ، هذا الى جانب أنها تتميز بكونها تقع فى المجال السياسى أساسا ، وهى لم تفعل سوى النذر اليسير فى محاولتها تطوير ذاتها لكى تغطى تفاعلات المجتمع ككل .. وقد أكد موسكا فى كتابه الأول ( أن كل طبقة سياسية تتعقل قواعدها بالنظر الى صياغة سياسية مقنعه ، واستنادا الى ذلك تعتبر الليبرالية والديمقراطية ، والاشتراكية هى الأمثلة الواضحة فى عالمنا المعاصر ) غير أننا نجد أن موسكا لم يطور اكتشافه أكثر من ذلك . فهو لم يذهب أكثر من افتراض – مثلما فعل باريتو – أن الصيغة السياسية ليست ببساطة إلا مثالا واحدا لطائفة أشمل من الصياغات الرشيدة(٣٤) .

## رابعا : فلفريدو باريتو والداروينية الاجتماعية .

تعتبر الداروينية الاجتماعية من النماذج النظرية التى كان لباريتو علاقة واضحة بها . فهو قد أخذ عنها ورفض فيها أفكارا كثيرة . ويمكن القول بأن باريتو قد أعجب كثيرا بالداروينية الاجتماعية خاصة فى كتاباته الأولى ، وبهربرت سبنسر كأحد رواد الداروينية الاجتماعية . ويمكن القول بأن كتابات باريتو حتى ١٨٩٦ كانت تشير الى اعتقاد واضح فى ليبرالية القرن التاسع عشر ، وهو الاتجاه الفكرى الذى كان يفرض عليه ليس مجرد رفض تدخل الدولة أو مجرد النضال من أجل الحرية التجارية والحرية الفردية ، ولكن أيضا الاعتقاد فى التقدم كشعار أساسى يحكم تفاعل المجتمعات وتطورها . ومن الواضح أن قراءة أفكار باريتو تكشف مثلا أنه استفاد من مفهوم هربرت سبنسر عن التباين الاجتماعى ، مؤكدا ان المجتمعات تتحرك خلال التاريخ من مرحلة متجانسة وغير متباينة الى مرحلة غير متجانسة وأن الدافع وراء هذه الحركة التاريخية أن هناك درجة من التباين الاجتماعى المطردة التراكم بدأ منذ أيام الامبراطورية الرومانية وحتى الوقت الحاضر (٣٥) .

غير أننا نجد أن باريتو فى وقت متأخر حينما شرع فى كتابة مؤلفه ( المقدمة ) تخلى عن اعتقاده فى أفكار التقدم لصالح اعتناق النظرية الدورية الميكيافيلية فى التاريخ ، وأيضا لصالح الاعتقاد فى الدوام النسبى للخصائص الانسانية الأساسية . ويمكن القول بأن باريتو خلال هذه المرحلة كان ناقدا لسبنسر والداروينية الاجتماعية (٣٦) . فقد أكد بأنه ( اذا سلمنا بأن نظم المجتمع عادة ما تكون متلائمة من الظروف التى يتواجد فيها المجتمع وأن المجتمعات لا تمتلك فى العادة نوعا من النظم التى تختفى فجأة ، فاننا فى هذه الحالة نصل الى مبدأ .. يمكن ان يساعد على تأسيس العلم ) . غير أنه أكد أيضا أن الآمال العريضة فى هذا الاطار لم تعطى أية ثمار . اذ ينبغى تفسير أى شكل للتنظيم أو الحياة الاجتماعية ( على ماتذهب النظرية الداروينية ) بالنظر الى فائدته أو نفعه . ولكى نحقق هذه الغاية ، فانه ينبغى أن يؤدى التنظيم الدور المفترض أو المتخيل أن يؤديه ، والبحث فى الداروينية الاجتماعية يكشف أن هذه النظرية مجرد عودة الى الأسباب النهائية (٣٧) . ومن ثم فقد شعر باريتو خلال هذه المرحلة بضرورة أن تخضع الداروينية الاجتماعية لنوع من التعديل الواضح ، وأنها لاتستطيع أن تفسر أشكال النظم الاجتماعية ولكن ماتستطيع أن تفسره هى مجموعة التحديدات التى لاتستطيع أن تفسره هى مجموعة التحديدات التى لاتستطيع هذه النظم تجاوزها (٣٨) . فالبيئة لا تستطيع أن تحدد الأشكال الاجتماعية أو تفرضها ولكن كل ماتستطيعه هو مجرد وضع حدود معينة لا تتجاوزها التغيرات التى تستهدف القدرة على البقاء . ومن ثم لايمكن تفسير السلوك الاجتماعى بواسطة البيئة ، ولكن تفسير هذا السلوك يتطلب تحليل خصائص البشر الفاعلين فى المجتمع .

وبرغم أن باريتو قدم رفضا لفكرتى الداروينية الاجتماعية المتعلقتان بالتقدم والتطور الاجتماعى ، ثم أصبح ناقدا عنيدا لفكرة الداروينية التى تذهب الى أنه باستطاعة التغيرات البيئية أن تفسر التغير فى الملامح النظامية . ومع ذلك فقد ظل مدينا للداروينية والأفكار السبنسرية المتعلقة بالتساند المتبادل بين كل الظواهر الاجتماعية . وقد حبذ القول بهذه الفكرة من خلال دراسته للأنساق الفيزيقية . غير أننا نرى أنه الى حد كبير اقتنع بامكانية تطبيقها والاستفادة منها فى اطار المجتمعات الانسانية وذلك من خلال قراءته لأفكار دارون وسبنسر . وقد اشتق باريتو مثل كل معاصرية من الأمريكيين من أمثال كولى Cooly ، هربرت ميد Mead فى دراسته لسبنسر والداروينية وجهة النظر التى تؤكد على التداخل بين الأجزاء العديدة للكيان العضوى (٣٩) .

غير أننا نرى أن هناك مجموعة أساسية من الأفكار التى تأثر فيها باريتو بالداروينية أو على الأقل قدم رؤية مماثلة للداروينية بشأنها . وتتعلق الفكرة الأولى بتأكيد باريتو على الرواسب باعتبارها عناصر ذات طبيعة - بيلوجية سيكلولوجية - فطرية فى الكائنات البشرية ، وأن وظيفتها الأساسية تتمثل فى صياغة تكيف الكائن العضوى مع البيئة المحيطة ، ويمتلك الأشخاص الذين يمتلكون قدرا عاليا من الرواسب امكانية عالية على التكيف والواقع المحيط .

هذا بالاضافة الى أن باريتو يجعل دورة الصفوة السياسية والاجتماعية مستلهمة لقانون الانتخاب الطبيعى الذى يؤكد على البقاء للاصلح . فهو يذهب الى أن انتصار المغامرون ( الثعالب ) على المحافظون ( الأسود ) يتحقق اذا ضعفت الطبقات الحاكمة بسبب ضعف الرواسب الكامنة بداخلها . بيد أنه تظل هناك احتمالية عالية فى أن جماعة الصفوة التى تمتلك مستوى عال من الرواسب ، يمكن أن تنتصر فى الصراع الاجتماعى ومن ثم استيلاؤها على السلطة التى تسيطر عليها جماعة الصفوة ( الأسود ) التى ضعفت لديها بعض الرواسب .

أما الفكرة الثالثة فتتمثل فى أن باريتو رأى أن الصراع الاجتماعى من أجل التكيف هو المدخل الملائم لحل مشكلات النظام الاجتماعى . فسيطرة الصفوة غير الحاكمة على مقاليد الأمور يتم لامتلاكها رواسب أقوى ، ومن ثم مقدرات أقوى على التكيف ، وهى عادة ماتدخل فى صراع مع الصفوة الحاكمة التى ضعفت رواسبها ومن ثم امكانياتها على التكيف ، بحيث ينتهى الصراع بالقضاء على الصفوة الحاكمة واحتلال مكانتها .

هذا الى جانب اعتبار باريتو أن مجرد ظهور النزعات الانسانية من قبل الطبقات العليا نحو الطبقات الدنيا يعتبر دليلا واضحا على ضعفها . ثم نجده يرفض هذه المشاعر ، مؤكدا أن الصراع هو المدخل الوحيد لانتقاء أكثر الصفوات قوة والتزاما للسيطرة على الأمور وضبط نظام المجتمع بالقوة ، وفى ذلك ترديد لقدر كبير من الأفكار الداروينية .

## خامسا : باريتو والتحليل بمتغيرات غير ماركسية .

يعتبر الحوار مع النظرية الماركسية من المواجهات الهامة التى قادها فلفريدو باريتو خلال حياته العلمية ، حيث يتضمن مؤلفه النظم الاشتراكية كل جوانب الحوار الذى أسسه فيما يتعلق ببعض القضايا التى أثارها بشأن الماركسية . ويمكن القول بأنه يمكن ارجاع حواره مع

الماركسية الى عدة اعتبارات أساسية ، منها أن الماركسية شكلت فى ذاتها أحد النماذج النظرية التى تحتل مكانة أساسية فى بناء التفكير العقلى الذى أفرزته مرحلة التنوير فيما يتعلق بالانسان والمجتمع وطبيعة العلاقة بينهما . ثم أن الماركسية أيضا . من وجهة نظر باريتو - ليست إلا اشتقاقا أيديولوجيا يعبر عن رواسب المعاناة التى عاشتها جماهير المجتمع الصناعى خلال هذه المرحلة . ثم أن الماركسية من ناحية ثالثة تحاول تفسير تفاعلات النظام الاجتماعى القائم من منطق مختلف تماما .

ويكشف البحث فى أصل الحوار مع الماركسية عن تخلق مجموعة من الظروف الشخصية التى دعمت موقفه من نقد الاشتراكية ومن ثم الماركسية كأحد أشكالها . ففى ١٨٩٨ توفى أحد أعمامه الذى أوصى له بثروته ، ومنذ ذلك الحين بدأ باريتو يقود حياة مترفة لم يكن يتيحها له راتبه الأكاديمى البسيط ، ذلك أنه منذ أن أصبح بنى لنفسه منزلا فى سيلنى القريبة من لوزان فى مقاطعة جنوا حيث الضرائب أقل من لوزان . وتعرف هناك على رفيق له يسهر على حياته وراحته هو جان ريجيه Jane Règis . وفى فيلته التى بناها كان يعيش وحده مع مجموعة من القطط التى جلبها من أنقرة ، والتى كان يحب أن تكون دائما حوله . وفى هذه المرحلة ، عاش باريتو فعلا حياة مترفة ، يحتسى خلالها النبيذ الفاخر والخمور المعتقة ، وبعد أربع سنوات من حياته على هذا النحو ، أى فى ١٩٠٢ نشر كتابه النظم الاشتراكية Les Systems Socia-listes ، الذى يعتبر تحليلا ونقدا تفصيليا للمذاهب الاشتراكية وتدخل الدولة . حيث اتسم أسلوب هذا المؤلف بالنقد الساخر والغاضب لمذاهب الاشتراكية برغم ادعاء باريتو بأن هذا المؤلف له طابع التحليل العلمى (٤٠) .

ونستطيع أن نحدد مواجهة باريتو للماركسية فى مجالين . الأول المجال المنهجى ، أما الثانى فيمثل مجال القضايا المتعلقة بالواقع العينى المعاش . وفيما يتعلق بالجوانب المنهجية نجد أن باريتو يرفض اعتبار الجوانب الاقتصادية وبالتحديد وسائل الانتاج هى المتغير المستقل ومن ثم الضابط للتفاعل الاجتماعى . اذ اعتبر باريتو الاشتراكية العلمية وليدة الحاجة لاضفاء الطابع أو المظهر العلمى على الطموحات الإنسانية ( حيث أصبح الشكل العلمى هو أسلوب ( أو موضة عصرنا ) مثلما كان الشكل الدينى هو أسلوب أو موضة عصر سابق . ومن ثم - فمن وجهة نظر باريتو - تعتبر تحليلات ماركس للنسق الاقتصادى وللعلاقة بين الطبقات ،

ثم للاتجاهات البنائية للنسق ، ولمصادر القوة السياسية ، الخ .. مجرد ممارسات لامعنى لها بالنسبة لباريتو طالما أن التحليل العقلانى للظروف لا يدفع البشر أو يوجههم بأى معنى فى أى اتجاه (٤١) .

ثم يذهب الى أنه لايمكن تفسير الحقيقة الاجتماعية المعقدة بواسطة المتغيرات الاقتصادية فقط . حيث يتطلب ذلك دراسة سوسيولوجية تركيبية . فمن ناحية لا يستطيع علم الاجتماع أن يفسر الحقيقة الاجتماعية المعقدة ، اذا لم يأخذ فى الاعتبار قضايا الإقتصاد البحث كعلم ، تلك التى يدرسها بصورة منعزلة ، وفى اطار شروط مبسطة للغاية . ثم يؤكد أن التفسير الاقتصادى للتاريخ يصبح صحيحا طالما أن هناك اصرار على أهمية العوامل الاقتصادية فى تشكيل الظواهر الاجتماعية . ولكنه قد يخطئ الى حد بعيد اذا هو قد حاول تفسير هذه الظواهر من خلال العوامل الاقتصادية فقط . أو أن يجعلها سببا وحيدا لها ، بينما يجعل من العوامل الأخرى مجرد آثار أو نتائج (٤٢) .

أما الجانب المنهجى الثانى الذى واجه فى اطاره الماركسية فيتمثل فى التغير التاريخى وطبيعة العوامل المتحكمة فيه . ففى حين ترى الماركسية الجدل الذى يعبر عن التناقضات التاريخية باعتباره الوسيلة التصورية لوقوع التغير التاريخى . نجده يتصور هذا التغير تطورى الى الأمام ينشر الكمال الاجتماعى الانسانى ، فالماضى هو الذى يصنع الحاضر والمستقبل معا . هذا الى جانب تأكيد الماركسية على الطبيعة العقلانية للانسان ، باكتمال عقلانية الانسان أو رشده ، أى أن اكتمال وعيه سوف يعنى تأسيس التغير فى الاتجاه التاريخى الصحيح . ذلك يعنى أنه فى حين يرى ماركس الانسان كائنا عقلانيا يمتلك امكانية الكمال والاكتمال ، يراه باريتو كائنا لا عقلانيا أساساً وغير متغير . وفى مواجهة ذلك يقدم نظريته عن الرواسب بهدف شرح هذه القضية . وفى حين يرى ماركس الصراع الطبقى فى التاريخ باعتباره يقع فى الانساق الاجتماعية المطرد شيوعها أو شعبيتها ( على الأقل بمعنى زيادة شوق أو امكانية الانسان الى الحرية ، أو السيطرة على قدره ) ، ينظر باريتو الى التاريخ باعتباره دائريا Cyclical أساسا . وعلى نقيض مباشر لنظرية ماركس عن الصراع الطبقى قدم باريتو نظرية الصفوات .. حيث تعتبر دورة الصفوات هى المادة الحقيقية للتاريخ ، لها نتائجها أو آثارها القليلة على الشعب ، أو ربما ليس لها نتائج على الاطلاق (٤٣) .

ثم نجده يتقدم ليطرح العواطف الانسانية كمبدأ أساسـى للتفسـير . فخـلال مؤلفـه ( النظم الاشتراكية ) يؤكد باريتو أن العواطف تعتبر القوى الأساسية والمسيطرة على السلوك الاجتماعى . وأن المنطق والعقلانية لهما أهمية ضئيلة . وعلى الباحث ألا يتوقف عند تبرير البشر العقلى - الذى يعد لا شئ إلا أن يكون معقولا - وانما عليه أن يتجه الى تبرير العواطف الكامنة ، وعلى هذا النحو تصبح العواطف بالنسبة لباريتو ماكان عليه الأساس الاقتصادى بالنسبة لماركس . ولكن بينما تؤدى التغيرات فى النسق الاقتصادى الى تغيرات فى أخلاق البشر وبناؤهم السيكولوجى فى النهاية فان الأساس العاطفى لباريتو يظل هوية غير متغيرة ، فالذى يتغير هى التبريرات التى تفسر السلوك الانسانى .

وبايجاز يرى باريتو البشر - على خلاف ماركس - رؤية سيكولوجية مختلفة . حيث يختلف أبناء الطبقات العليا والسفلى من حيث بناؤهم السيكلوجى . وعادة مايكون ذلك نتيجة للعواطف غير المنطقية . حيث لا يحصل الأفراد من الطبقات الدنيا بصفة خاصة على أى قدر من الوعى أو الادراك العقلانى لظروف حياتهم أو وجودهم . ثم نجد باريتو يقدم لنا بعض مبادئ الحساب العلمى المنفعى . اذ يؤكد ان قدرا معينا من الارادة الخيرة من جانب الطبقات العليا نحو الدنيا قد يكون له نفع . غير أن أى زيادة قد تكون ضارة ومؤشرا على الانهيار . اذ تؤدى العواطف الانسانية فى كل فترات التاريخ الى ظهور نوع من اليقظة العاطفية . وحيثما يكون هناك قدرا خافتا من هذا الاتجاه فى الشعر والأدب و فان ذلك يكون دلالة على قوة الصفوة ودعم مكانتها . غير أنه بانهيار الصفوة فاننا نجد نموا للعاطفة الانسانية . تلك هى اذا فكرة باريتو الرئيسية ، أعنى نظريته عن العواطف ، التى تعد ( الرواسب ) و ( المشتقات ) تجليا لها .

وقد ينتاب العواطف تغيرا ضيئلا ، وقد لا تتغير على الاطلاق . أما مايتغير فهو الطلب المحدد على عواطف معينة ، أو التبريرات التى تطرح لبعض الأفعال التى تدفع اليها هذه العواطف . وفى هذا النطاق نجد أن باريتو يرى أن هناك فصلا حادا بين الصفوة واللاصفوة . اذ تتصرف الصفوة بوحى المصلحة الذاتية ، بينما تدفع الطبقات الدنيا الخاضعة الى حد كبير بواسطة العاطفة . ولكى توسع الصفوة مصالحها ، فان الصفوة تجد من الملائم أن تطلب الدعم من عواطف الطبقات الدنيا . وهنا تجد أن اللاصفوة nonelite تدفع الى الفعل بواسطة قوى

عمياء ، بينما تؤدى الصفوة دورها حسب ادراكها العقلانى لطبيعة الموقف . ولعله دليل يمكن الدفاع عنه أن الطبقات الدنيا من الناحية التاريخية قد رفعتها قوى لا عقلانية أساسا . أما الطبقات العليا فعادة ماتقودها الاعتبارات العقلانية . وبدلا من أن يرى باريتو هذه التشكيلات السيكولوجية المختلفة كنتائج للاختلافات فى ظروف الحياة الخاصة بكل من الطبقتين ، نجده يرى هذه الاختلافات السيكولوجية باعتبارها خصائص دائمة . فالعاطفة هى الأساس أما الباقى فمجرد مظهر خادع (٤٤) .

ويذهب باريتو الى القول بأن العواطف تختلف من حيث النفع ، وأنها غير موزعة بالتساوى فى المجتمع . حيث تعتبر التعديلات فى أشكال المجتمع نتيجة لانتقالات أو تحولات فى هذه العواطف . ويمكن للباحث أن يلاحظ هذه التذبذبات الهائلة التى تكررت فى التاريخ بدرجة أكثر أو أقل . فمثلا تستبدل فترات الشك بفترات من الايمان . ولما كان كل فرد يحتل مكانة محددة فى الهرم الاجتماعى ، ومن ثم فاذا رتب الباحث منا الأفراد حسب درجة التأثير والقوة السياسية فانه سوف يجد فى معظم المجتمعات أن هؤلاء الذين يملكون درجة أعلى من التأثير والقوة السياسية سوف يكونوا هم أنفسهم من الذين يملكون أكبر الثروات ، وتلك هى الصفوة . وفى ذلك نجد أن باريتو يشبه ماركس الى حد كبير فيما يتعلق بتأكيده على التلازم بين القوة الاقتصادية والسياسية . ولكن حيثما تميل القوة الاقتصادية بالنسبة لماركس الى تحديد القوة السياسية ، فان باريتو يرى أنهما يتحددان معا بواسطة وجود الأفراد الذين يمتلكون خصائص الصفوة ، أى الذين يمتلكون عواطف الصفوة (٤٥) .

الى جانب ذلك هناك مجموعة أخرى من الخلافات مع الماركسية على الجانب العينى ، أى فيما يتعلق بالتفاعل فى اطار الواقع الاجتماعى . ونخص بها ثلاثة وقائع أساسية ، الأولى وتتعلق بطبيعة تغير البنية الطبقية فى المشروع الماركسى ، وتتصل الثانية بطبيعة الصراع الطبقى ، أما الثالثة فتختص بطبيعة المجتمع الشيوعى الذى يتخلق عن الصراع الطبقى والثورة البروليتارية .

وفيما يتعلق بالصراع الطبقى نجد أن ماركس يؤكد أنه بمجرد إكتمال وعى البروليتاريا وادراكها لمصالحها ، فانها تقودة عادة الصراع والثورة . ومن ثم تغيير البنية الطبقية وبالتالى

البنية الاجتماعية . ذلك يعنى أنه اذا اتفقنا على أن الصراع الطبقى يعتبر مقولة رئيسية فى البناء النظرى الماركسى فان ذلك يدفعنا الى التساؤل المتعلق بموقف باريتو من هذه المقولة . اذ نجد باريتو يؤكد من ناحية على تناقض المصالح الطبقية ، ومن هذه الناحية نجده يقدر موقف ماركس فيما يتعلق بابرازه لدور هذا العامل (٤٦) . ثم يذهب الى التأكيد بأن الاشتراكية على حق تام فى تأكيدها على الدور الهام للصراع الطبقى ، أو اقرارها لهذا الدور باعتباره أكثر حقائق التاريخ أساسية ، ويذكر أن أعمال ماركس ولوريا Loria تستحق بالنظر الى ذلك اهتماما كبيرا (٤٧) . غير أنه عند هذا الحد يتوقف اتفاقه مع ماركس ويبدأ خلافه معه . حيث يرى باريتو أن الصراع الطبقى من المقرر أن يستمر أبدا ، وذلك على خلاف ماركس الذى يراه ظاهرة انتقالية ، أو لنقل ظاهرة تاريخية . وتأكيدا على ذلك يذهب باريتو الى أن أشكال البناء الطبقى قد تتغير بيد أن جوهره يظل كما هو . وذلك يرجع بالأساس الى أن الصراع له جذوره العميقة فى الطبيعة البشرية ، وهو أحد أشكال صراع البشر من أجل الحياة . فالصراع من أجل الحياة ، أو من أجل الوجود الأفضل ظاهرة مرتبطة بالكائنات الحية . وكل شئ نعرفه يرتبط بذلك يقودنا عادة الى التسليم باعتبار الصراع أعظم القوى الأساسية للحفاظ على بقاء الجنس وتحسينه . ومن ثم فمن غير المحتمل أن يتجاوز البشر هذه الحالة . وأن جهودنا لن تسفر عن تغيير جذرى فى طبيعته ، ولكن الى مجرد تعديلات طفيفة فى أشكاله . وهنا نجد أن باريتو ينظر الى الصراع الطبقى باعتباره جانبا لاينفصل عن صراع البشر مع الطبيعة ومن ثم فكلاهما حتمى ولا نهاية له . ذلك يعنى أن الصراعات الاجتماعية لها جذورها فى الطبيعة ، وليس فقط فى الطبيعة الأساسية للانسان ، الذى نجده مندفعا نحو انجاز فعله بواسطة قوى طبيعية ومن ثم ( غير منطقية ) (٤٨) .

أما فيما يتعلق بالتغيير الاجتماعى الذى يراه ماركس نتاجا للصراع الطبقى وتعبيرا عن وصول التناقض الطبقى الى منتهاه ، وهى العملية التى يساعد عليها ظرف تحقق الوعى الموضوعى لطبقة البروليتاريا وسعيها لتحقيق مصالحها ، ومن ثم فهى تطيح بالطبقة الأخرى من خلال التغير الثورى البروليتارى . فى مواجهة ذلك يطرح باريتو رؤية أخرى للتغير الاجتماعى ، أو للأسلوب الذى تنهار به الصفوة الحاكمة . اذ يؤكد أن الصفوات والطبقات

الأرستقراطية لاتدوم ، وانما تفنى بصورة سريعة . ومن ثم تبرز الحاجة أمام كل صفوة لتقوية نفسها بدعم من الطبقات الدنيا ، بل من أفضل عناصر هذه الطبقات . ويعبر انهيار الصفوة عن نفسه بظهور حالة متطرفة من النزعة الانسانية المرضية . بينما تتشكل الصفوة الجديدة الممتلئة بالقوة والحيوية فى قلب الطبقات الدنيا . ويكتب باريتو قائلا ان كل صفوة تكون غير مستعدة للدفاع عن موقعها فانها تسقط فى حالة من الانهيار التام . ولايكون أمامها سوى اخلاء مكانها لصفوة أخرى تمتلك خصائص القوة والحيوية التى افتقدتها الصفوة السابقة . فبواسطة القوة يمكن أن تتأسس النظم الاجتماعية . وبواسطة القوة أيضا يتم الحفاظ عليها . ويعتبر صراع الصفوات ودورتها هو المادة الدائمة للتاريخ . وحينئذ ، تعتبر الهبات الشعبية من الحركات التى قد لا تكون لها نتائج حقيقية بالنسبة للشعب ، غير أنها تساعد فقط على تسهيل سقوط الصفوة القديمة وصعود الصفوة الجديدة . وتستخدم الصفوات الطبقات الدنيا ، عن طريق اشباع بعض عواطفها ، لكى تحافظ على بقاء القوة أو الحصول عليها . ويكتب باريتو مؤكدا أن معظم المؤرخين لا يرون هذه الحركات ، وانما يصفون هذه الظاهرة كما لو أنها صراع الأرستقراطية أو الأولجاركية مع الشعب ، بينما هناك فى الحقيقة أرستقراطيتان تتصارعان من أجل السلطة ، ذلك أن الثورات العديدة التى وقعت فى التاريخ - منها مثلا انتصار البرجوازية على الارستقراطية الأقطاعية - لم تحقق شيئا للشعب ، ولن تحاول ذلك فى المستقبل (٤٩) . وهو مايعنى بالاضافة الى ذلك أن باريتو يحضر الصراع فى اطار الصفوات التى قد تستخدم الشعب آداة فى الصراع ، بينما يرى ماركس الصراع شعبيا أساسا تشارك فيه الأغلبية قيادة حركة الثورة ضد الأقلية .

وتشكل المرحلة الشيوعية فى النسق النظرى الماركسى القضية الثالثة التى شكلت اطارا للحوار بين كل من باريتو وماركس . واذا كانت الرؤية الماركسية قد أكدت على إنتفاء الطبقات ، ومن ثم الصراع الطبقى فى المجتمع الشيوعى ، باعتبار انتفاء التباين الاجتماعى والانسانى بين الأفراد وتحقق اكتمال الانسان . فى مواجهة ذلك نجد ان باريتو يذهب الى أنه ليس هناك تحريرا نهائيا للانسان وليس هناك مجتمعا لا طبقيا (٥٠) . ثم نجده يسخر من الاشتراكيين الذين يثقون بصورة كاملة بأفكار ماركس وانجلز باعتبارها مخزنا لكل المعرفة الانسانية (٥١) . ويذهب باريتو الى أنه وان سلم بفكرة الصراع الطبقى التى أثرت على حركة التاريخ بأسلوب

واضح ، إلا أن ماركس – نبى المجتمع اللاطبقى – ليس بالنسبة له سوى متعهد أساطير Purveyor to myth . ومن ثم فالقريب الى قلب باريتو الميكيافيلى هو ماركس المحلل القوى لصراع الطبقات من أجل امتلاك القوة فى المجتمع (٥٢) . وبصورة أكثر وضوحا يؤكد باريتو قائلا لنفترض أن الجماعية Collectivism قد تأسست وأن رأس المال لم يعد موجودا ، حينئذ يكون قد اختفى شكل واحد فقط للصراع الطبقى . وأن شكلا آخر سوف يظهر ليحل محله . اذ سوف تظهر صراعات جديدة بين الأنواع المختلفة من العمال والدولة الاشتراكية ، بين المثقفين وغير المثقفين ، بين رجال السياسة المتعددى الاتجاهات . بين رجال السياسة ورجال الادارة . بين المجددين والمحافظون ، الخ . ثم يتساءل هل هناك حقا هؤلاء البشر الذين يتخيلون بصورة جادة أنه بحلول الاشتراكية فان التجديد الاجتماعى سوف يتوقف ؟ هل لن تكون هناك رؤية لشروعات جديدة ، وهل لن تدفع المصالح البشر لتبنى هذه المشروعات بأمل الحصول على مكانة متميزة فى المجتمع ؟ ثم يتساءل باريتو لماذا هو مقدر أن يكون الصراع الطبقى أبديا فى المجتمع الانسانى ؟ ، ثم يجيب أن دوام الصراع لايرجع لكون المجتمع معقد ومتباين ، ومن ثم يضم عديدا من الجماعات ذات المصالح المتباينة والمتناقضة ، ولكن لأن الصراع له جذوره فى الطبيعة البشرية ، بل انه يعتبر أحد أشكال الصراع من أجل الحياة (٥٣) .

**سادسا : نظرية باريتو ، أبعادها الشخصية والاجتماعية .**

مما لاشك فيه أن هناك تأثير لبعض الأحداث على تفكير فلفريدو باريتو ، سواء تلك التى وقعت على بعد تاريخ الحياة الشخصية أو على البعد المجتمعى ، وهو ماسنعرض له بايجاز .

فعلى المستوى الشخصى نجد أن باريتو قد قاد حياة شخصية غير مستقرة تتميز بضعف علاقاتها بواقعها المحيط . ويتضح ذلك سواء خلال مرحلة الجامعة حيث انعزاله داخل الجامعة عن زملائه حتى بعد أن أصبح عميدا لكلية القانون . وهى العزلة التى أعجزته عن اجراء بعض التغييرات الرئيسية فى برامج الدراسة ، هذا الى جانب هرب زوجته منه مع أحد خدمة . كل ذلك فرض عليه احساسا بعدم الثقة بالآخرين بل وعدم التألم لآلام الآخرين ، ومن ثم كان اعجابه الدائم بالصفوة والقوة وقدرتها على اخضاع الآخرين .

أما المسألة الثانية على البعد الشخصى ، فهى حالة الثراء المفاجئ - نتيجة للأرث - التى أصابته ، والتى وفرت له أمانا اقتصاديا ملائما دفعه الى العزلة المترفه عن حياة الجماهير ومعاناتها . وهى الحالة الى نجد لها انعكاسا مباشرا فى نقده للمذاهب الاشتراكية ، وخاصة النظرية الماركسية ، والتأكيد على القوة أو السلطة القمعية للجماهير ، وادانته لكل المشاعر أو العواطف الانسانية بل إنه اعتبر ظهور هذه المشاعر فى اطار الصفوة الحاكمة دالة أساسية على ضعف هذه الصفوة .

هذا الى جانب العزلة الأكاديمية التى كانت ملامح شخصيته أحد أسبابها . وحسبما يؤكد لفنجستون ، فإنه قد أخذ عن كل السابقين عليه ولم يذكر ما أخذه عنهم ، وتتجلى هذه الحالة بأوضح ماتكون حينما اختلف مع جيتانو موسكا ، إذ نجده قد راجع كل مؤلفاته وألغى منها أى ذكر لموسكا ، وهو مايعنى تأكيده على أنانيته الشخصية ولو على حساب كثير من الاعتبارات الأكاديمية .

وعلى البعد الاجتماعى توجد بعض الوقائع التى كان لها تأثيرها على طبيعه تفكيره . من هذه الوقائع حالة التخلف العام الذى تعتبر من أهم مؤشراتها انتشار الأمية الى مايتجاوز ٧٠٪ ، خاصة فى جنوب ايطاليا ، وهى الحالة الثقافية الى أعجزت الجماهير عن المشاركة السياسية الفعالة ، مما دفع باريتو الى التأكيد على مسألتين الأولى غياب الجماهير أو الغالبية الفعالة عن بنائه النظرى ، فهو يرى أن حركة التاريخ تتكون أساسا من صراع الصفوات ودوراتها . أما المسألة الثانية - فتتمثل فى تأكيده على اللاعقلانية فى مقابل العقلانية التى قالت بها النظريات الأخرى ، وعلى الرواسب والعواطف الكامنة فى عمق الذات الانسانية ، باعتبار أن هذه العناصر هى العناصر الحقيقية الدافعة لحركة التاريخ .

أما الواقعة الثانية التى كان لها تأثيرها على تفكيره فتتمثل فى حالة الانهيار البنائى الذى عانت منه ايطاليا خلال هذه المرحلة ، وحالة التفتت التى عاشها المجتمع الايطالى خلال هذه الفترة . كذلك حالة الفساد التى انتشرت ، كل ذلك دفعه الى التأكيد على الصفوة وعلى استناد الصفوة الى القوة كميكانيزم أساسى للحفاظ على الوحدة الاجتماعية - وهو هنا مايذكرنا بأفكار توماس هوبز عن القوة والسيف - بحيث اعتبر أن مجرد رفع الصفوة لبعض

الشعارات الانسانية والعاطفية يعتبر دالة أساسية على انهيارها كصفوة وضرورة تغييرها بعناصر جديدة قادرة على الامساك بالقوة أو السلطة لفرض الوحدة والتكامل على النظام الاجتماعى .

ذلك يعنى أن كثيرا من أفكار فلفريدو باريتو ، أو على الأقل جوانب كثيرة منها تعتبر بالأساس انعكاساً لطبيعة التفاعلات التى عاشها سواء على المستوى الشخصى أو على مستوى الواقع الاجتماعى .

# الفصل الرابع عشر

## المنهج عند فلفريدو باريتو
## طبيعة القضايا الأساسية

### المحتويات

**مقـدمــة :**

ترتبط اسـهامـات فلفريدو باريتـو المنهجية بطبيعة القضـايا النظرية التى شكلت بنائه النظرى ، وطبيـعة تصـوره للواقع الاجـتمـاعى والتفـاعـلات الحـادثة فيه ، واذا كـانت قضـاياه النظرية قد اختلف فى طبيعتها عن مختلف التصورات النظرية التى عايشت عصره . فاننا نجد ان منهجيته قد اختلفت اختلافا واضحاً عن مختلف التوجهات المنهجية التى سادت عصره ، بحيث نجد أنه بموقفه النظرى واجراءاته المنهجية وقف بعيدا عن التيار الذى سار فيه مفكرون آخرون .

فمن ناحية رؤيته للحقيقة الواقعية ومحاولة تحديد المتغيرات المؤثرة فى تفاعلها نجد ان باريتو يتجاهل كافة المتغيرات التى عمل بها عصره ، وهى المتغيرات الكامنة خـارج الانـسان – العنصر الأساسى فى التفاعل – كالمتغيرات الاقتصادية والسياسية والثقافية والجغرافية وحتى الاجتماعية ، ويتجه الى التأكيد على أن كافة المتغيرات التى عمل بها المفكرون الآخرون هى مجرد نتائج لمتغيرات أساسية هى تلك الكامنة فى عمق الذات البشرية أو الإنسانية ، والتى تشكل بداية التفاعل ، وبداية الوجود الاجتماعى ذاته . وحسب طبيعة هذه المتغيرات الراسبة فى العمق تتحدد طبيعة المجتمع ، وتتحدد أيضا طبيعة النظام السياسى المحيط .

من ناحية ثانية نجد أن فلفريدو باريتو قد يبنى منهج العلوم الطبيعية من ناحية حيث التجربة هى المصدر الحقيقى للحقيقة ، ثم هو فى ذات الوقت اهتم بتطوير المفاهيم المعبرة عن الحقائق ، ثم بطبيعة العلاقات المنطقية التى تربط بين هذه المفاهيم لتشكل منها بناءاً تصوريا متكاملاً ، واذا كانت التجربة هى جوهر المنهج فى العلوم الطبيعية ، وإذا كان المنطق الرياضى هو جوهر علم الاقتصاد ، فقد كانت علوم الاقتصاد والطبيعة هى النماذج التى ينبغى ان تحتذيها الممارسة العلمية فى اطار علم الاجتماع .

اضافة الى ذلك فقد رفض باريتو التفسيرات الأحادية ، ورأى أن أى واقعة اجتماعية طرحت لها تفسيرات متنوعة ، وهو مايعنى أن تنوع العوامل يمكن أن يشكل عوامل مؤثرة فى الواقعة ، وهو هنا يؤمن بتعدد العوامل . اضافة الى تأكيده بأنه اذا عجز عامل أو قانون معين عن تفسير واقعة اجتماعية بحيث أعتبرت استثناءاً له ، فإنه بالتأكيد تكون خاضعة لفاعلية قانون أو عامل آخر .

ويتميز موقف باريتو من الأدوات المنهجية فى علم الاجتماع برفض الوسائل أو الأدوات التى تحاول استكشاف الواقعة الاجتماعية من خلال مظاهرها الخارجية ، بينما المظهر ماهو إلا تجليا لحقيقة أساسية راسبة ينبغى أن يتجه اليها استكشاف أدوات البحث ، وهو هنا ينتقد الاستبيان باعتباره يحاول التعرف على استجابات البشر اللفظية نحو موضوع معين ، حيث يؤكد أن هذه الاستجابات اللفظية ليست سوى تبريرات تعطى لأفعال أو سلوكيات معينة ، قد تكون هذه التبريرات صادقة أو زائفة ، غير أنها فى كل الأحوال لاتكشف عن الرواسب التى تشكل الدوافع الحقيقة للسلوك أو الفعل . وهى الجوانب التى سوف نعرض لها فى الصفحات التالية .

## أولا : علم الاجتماع ، مشروعيته ومجالاته .

من المنطقى أن تصبح قضية نشأة علم الاجتماع ، وتحديد مجالة من القضايا الرئيسية التى لابد أن يتعرض لها باريتو ، وذلك باعتبار أن هذه القضية كانت من القضايا الهامة التى شغلت النظرية الاجتماعية فى مرحلتها الكلاسيكية . وقد ظهر اهتمام باريتو بعلم الاجتماع نتيجة لاهتمامه بعلم الاقتصاد أساسا . فالمتغيرات التى تعمل بها النظرية الاقتصادية ، أقل من أن توفر فهما كاملا للسلوك البشرى . ذلك أن الاقتصاد وخاصة الاقتصاد الحديث قد خص نفسه بجانب واحد من الفعل أو السلوك الانسانى ، أعنى الفعل المنطقى أو العقلانى الذى يسعى الى امتلاك المصادر النادرة . وقد تحول باريتو الى علم الاجتماع حينما أدرك أن الأفعال غير المنطقية أو اللاعقلانية هى التى تتحكم فى التفاعل الاجتماعى ، وهى الأفعال التى استبعدت من مجال الدراسات الاقتصادية . ولهذا السبب فقد حاول فى مؤلفه ( المقدمة ) أن يفهم الجوانب غير العقلانية للسلوك الإنسانى ، بحيث الغى كلية الجوانب العقلانية للسلوك ، وذلك لاقتناعه بأنها قد درست بدرجة كافية بواسطة النظرية الاقتصادية (٥٤)

ذلك يعنى أن باريتو كان يبحث عن تحديد عقلانية اللاعقلانية السائدة . وهو فى ذلك لم يقصد أن يتخلى عن النظرية الاقتصادية ، على طريقة فبلن †Veblen ، ولكنه حاول استبدال تجريداتها بالمفاهيم السوسيولوجية والسيكولوجية التى قد تساعده على فهم جوانب السلوك البشرى . اذا فما كان يهدف اليه باريتو ، هو الفصل التحليلى بين العناصر الرشيدة أو غير الرشيدة للفعل أو السلوك ، وليس الى تصنيف السلوك الواقعى . ( فنحن لانسعى الى تصنيف الأفعال كما هى فى الواقع ، ولكننا نحاول تحديد العناصر التى تميزها ) (٥٥) .

واذا كان الانسان قد بقى دائما كائنا اقتصاديا ، غير أنه فى الواقع يعتبر كائنا أكثر تعقيدا من مجرد كونه كائنا يبحث عن اللذة . ولفهمه فان علينا أن نأخذ فى الاعتبار مشاعره وغرائزه وتحيزاته . ومن ثم فلكى نفهم الظواهر الاقتصادية الحقيقية والمعقدة ، فاننا ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار كل العوامل الهامة التى أغفلناها فى تحليلنا الاقتصادى . وهى العوامل التى توجد فى الواقع وتؤثر على الظواهر الاقتصادية الخالصة . وعلى هذا النحو يعتبر علم الاجتماع هو العلم الوحيد الذى يستطيع أن يأخذ فى الاعتبار كل النتائج التى وصلت اليها الدراسات الاقتصادية والعلوم الاجتماعية الأخرى ، بحيث يستطيع هذا العلم – علم الاجتماع – أن يؤسس تآليفا بين هذه المعطيات بما يساعد على فهم السلوك الانسانى .

وفى محاولة تحديد طبيعة العلم يرفض باريتو الطابع التأملى للتفكير ، مؤكدا على ضرورة أن يتميز العلم بالطبيعة التجريبية المنطقية . وهو مايعنى تضمن العلم لعنصرين رئيسيين : البرهنة المنطقية وملاحظة الحقيقة . وتعتبر البرهنة المنطقية بطبيعتها أسلوبا عاجزا عن تأسيس النتائج الضرورية التى تذهب أبعد من اللغو الكلامى . غير أنها برغم ذلك تعتبر عنصرا أساسيا فى البناء المنهجى لعلم الاجتماع . ومع ذلك ، فمن المعتقد أن تظل هذه البرهنة المنطقية خاضعة للعنصر الآخر الذى يتمثل فى الحقيقة (٥٦) التى تم الوصول اليها تجريبيا أو عن طريق الملاحظة .

وباعتبار أنه قد أكد على ضرورة أن يكون العلم تجريبيا – منطقيا فان ذلك يعنى ضرورة استناده الى الملاحظة والتجربة واستبعاده لكل تفكير أو تأمل يذهب بعيدا عن الحقائق موضع الملاحظة . اذ لا ينبغى أن تتضمن قضايا علم الاجتماع شيئا أكثر من وصف الحقائق واطراداتها . ومن ثم فعلى علم الاجتماع – اذا ماتأسس – أن يؤدى دوره بواسطة مفاهيم أو تصورات تتعلق بالاعتماد المتبادل ، والعلاقات الوظيفية المتبادلة ، والاطرادات والانتظامات ، والارتباطات فى الزمان والمكان ، وأيضا بواسطة القياس الكمى . ذلك يعنى ان على علم الاجتماع أن يستبعد الأفكار المتعلقة بالاعتماد الأحادى الجانب ، أو المتعلقة بالسبب أو النتيجة ، بالمفرد وغير المطرد والمتميز . وبهذه الطريقة سوف يكون علم الاجتماع قادرا على الوصول الى مجموعة من التعميمات التى تقترب من الواقع الاجتماعى المتشابك بصورة أكثر دقة (٥٧) .

واذا كان موضع اتفاق بين جمهرة الباحثين ، أن يصبح العلم علما اذا هو قد امتلك نظرية خاصة به ، ومنهجا يستند الى هذه النظرية فى ادراك واقع يتحدد كمجال لهذا العلم فاننا نرى أن تحديد باريتو لموقفه من هذه المكونات الثلاث ينم عن موقف متميز خص به نفسه

. ففيما يتعلق بالموقف من النظرية نجده يؤكد أن الحقيقة التجريبية لاتتضمن بالضرورة كلية الظاهرة الواقعية ، ومن ثم تتكون نظريات العلم التجريبى المنطقى من القضايا المتعلقة بالحقيقة بحيث تكون هذه القضايا مرتبطة ببعضها البعض بواسطة نوع من البرهنة المنطقية (٥٨) . غير أننا نصل الى الحقائق المتضمنة فى صياغة النظرية من خلال عملية التحليل ، ومن ثم فهى ليست بالضرورة توصيفات كاملة للظواهر الواقعية . ويذهب باريتو الى القول ( بأنه من المستحيل أن نتعرف على ظاهرة واقعية معينة بكل تفاصيلها ) . ولايعتبر نقدا للنظرية له قيمته حينما نذهب الى القول بأنها لا تفسر بصورة كاملة الظاهرة الواقعية ، بل على العكس من ذلك ، فانه يعتبر ميزة لها . وعادة ماتصف الحقائق أو القضايا الكائنة فى بناء النظرية ، العناصر أو الجوانب أو الخواص المتعلقة بالظواهر فى كليتها . وعلى هذا النحو نجد أن باريتو يرفض بوضوح النزعة الامبيريقية التى نجدها عند مارشال ، مؤكدا أن على العلم أن يحلل الظواهر الواقعية المعقدة أولا ، حتى يمكنه الوصول بعد تحليلها الى النظريات التحليلية ، التى يمكن من خلال التركيب أو التأليف بينها أن نصل الى تقدير علمى لأى من جوانب الحقيقة الواقعية (٥٩) .

ويحاول باريتو أن يعطى توضيحا لذلك من بناء النظرية الاقتصادية ، حيث يذهب الى القول ( بأننا اذا افترضنا (ق) باعتبارها نظرية الاقتصاد السياسى ، فان الظاهرة الواقعية لاتتضمن عادة العنصر الاقتصادى فقط (أ) ، ولكن يوجد بها عناصر سوسيولوجية أخرى مثل (ب) ، (ج) .. ، .. ، ويصبح من الخطأ أن نحاول أن نضمن فى الاقتصاد العناصر السوسيولوجية مثل (ب) (ج) .. ، .. ، كما يفعل كثيرون . ويتمثل الطريق الذى اتخذه باريتو لتأسيس النظرية التحليلية المجردة والتى يمكن أن تناظر النظرية الاقتصادية ، فى أنه لم يضع النظرية فى مواجهة الحقيقة . ولكنه حاول تضمين عنصر التجريد النظرى فى مفهومه عن الحقيقة ذاتها . وحسبما يذهب ، أنه اذا كانت مبادئ العلم التجريبى تعتمد كلية على الحقائق ، فان ذلك يصبح متيسراً فقط ، لأن الحقائق أصبحت ملاحظات بالنظر الى إطار تصورى ، ومن ثم فهى ليست توصيفات كاملة للظواهر الواقعية (٦٠) .

ثم ينتقل باريتو الى نقد النظريات القائمة فى علم الاجتماع مؤكدا أن معظم النظريات السوسيولوجية القائمة حتى الآن ليست قضايا تجريبية منطقية . وبدرجة ما يمكن القول بأنها كلها ذات طبيعة دوجماطيقية وميتافيزيقية ، وتجريبية غير منطقية ، ومطلقة وذات بعد أخلاقى . هذه النظريات عادة ما تتجاوز حدود الحقائق والملاحظة والتجريب ، وحتى المنطق . ومن وجهة

النظر هذه فان علم اجتماع هربرت سبنسر ، وأوجست كونت يفتقد الى حد كبير الطبيعة العلمية ، لأنه يمثال النظريات الثيولوجية والدينية التى ينتقدها . حيث أدخلت علوم الاجتماع هذه ( الخاصة بكونت وسبنسر ) فى نظريات عناصر تتجاوز الحقيقة تحت أسماء أخرى ، وتتجاوز التجريب أيضا . وهى ذات نزعة دوجماطيقية ، وأخلاقية ، مثل ديانة التطور والتقدم ، أو ديانة الوضعية ، وغير ذلك من المسميات . هذه النظريات لاتعتبر شيئا أكثر من مجموعة من القضايا المطلقة التى تحتوى على عناصر كثيرة تتجاوز الحقيقة والملاحظة . وأنها لا تختلف عن النظريات الدينية التى تنقدها سوى فى الصياغة اللفظية . فالنظريات السوسيولوجية المتعلقة ( بديانة الانسانية ) ( وديانة التضامن والاتحاد ) ( والديموقراطية ) . ومفاهيم ( التقدم ) ( الاشتراكية ) ( التطور ) ( الأخاء ) ( الحرية ) ( العدالة ) ( المساواة ) وغير ذلك من النظريات والمفاهيم التى تبشر بما ينبغى أن يكون وبما لاينبغى أن يكون ، أو تلك التى تقيم ماهو خير وماهو ضار ، أو كل القوانين المتعلقة بالتطور والنمو . هذه النظريات أو التصورات المنتشرة بوفرة على خريطة الفكر الاجتماعى والسوسيولوجى المعاصر ، نجدها كلها تأسيسات نظرية غير علمية ، وهى كأى ميثولوجيا . وذلك لأنها ليست إلا صياغة معاصرة لهذه الثيولوجيا . ومثل الثيولوجيا ، لا تعتمد هذه النظريات على الحقائق والملاحظات الواقعية ، هذا الى جانب أنها لاتصف خصائص أو اطرادات هذه الحقائق ، ولكنها عادة ماتوصى بما ينبغى أن يكون ، أو هى تفترض وجود كيانات خارج الملاحظة والتجريب (٦١) .

فاذا كان ماسبق هو موقف باريتو من النظرية العلمية ومنطق تأسيسها ، فما هو طبيعة موقفه من مجال دراسة هذا العلم . فى هذا الصدد يرى باريتو أن المجتمع يشكل مجال الفعالية الحقيقية لعلم الاجتماع . والمجتمع بالنسبة لباريتو هو عبارة عن نسق من القوى الموجودة فى حالة توازن . حيث يحتوى المجتمع على مجموعة من العناصر المتضمنة فى هذا النسق ، كالمجموعة الفيزيقية ( التربة ، المناخ ، النبات ، الحيوان ، التركيبة الجغرافية للبيئة ) ثم مجموعة العوامل أو العناصر الخارجية ( كالمجتمعات الأخرى التى قد تصبح على اتصال بالمجتمع ) والعناصر أو العوامل الداخلية ( التى تتضمن السلالة ، العواطف ، المشاعر ، الأيديولوجيات ) . وقد كان باريتو مهتما أساسا بدراسة العوامل الداخلية ، حيث نجده يؤكد أن طبيعة المجتمع - كنسق سلوكى - تتحدد داخليا بواسطة خصائص أفعال الأفراد الذين ينجزون فعلا فى اطاره . ولما كان هؤلاء الأفراد لا منطقيين ، فان العوامل غير المنطقية هى التى تحتل مكانة جوهرية فى بناء المجتمع . واستنادا الى ذلك أوقف باريتو جزءا كبيرا من

كتابه ( المقدمة ) لتوضح ان كافة التفسيرات التى حاولت تفسير السلوك الانسانى لم تلمس هذه العناصر الجوهرية (٦٢) .

واستنادا الى ذلك فان التصنيف الرئيسى للأفعال الذى ينبغى أن يأخذ به علم الاجتماع كعلم هو أن يصنف نماذج الفعل الى نماذج منطقية ونماذج غير منطقية . وقد اعتقد باريتو أن كل الجهود الانسانية لتفسير السلوك الانسانى قد سارت فى الاتجاه الخطأ . حيث اتجهت معظم التفسيرات الثيولوجية ، والفلسفية ، وحتى العلمية التى تجاهل العناصر غير المنطقية فى السلوك الانسانى . ويمكن أن نجد أمثلة على ذلك فى أعمال أرسطو Aristotle وأفلاطون Plato بوليبوس Polybuis ، فوستال دى كولانج Fustel do Coulange ، كونت Conte ، سبنسر Spencer .

وتشكل ( الرواسب Residues ) الملامح الأساسية للفعل وليست المشتقات Derivations . باعتبارهما العناصر المتغيرة ، نقطة البدء الحقيقية لعلم الاجتماع التجريبى المنطقى . وتعتبر الرواسب دوائم أو ثوابت غير منطقية ، وهى بطبيعتها تجليات للعواطف . وتتطابق الرواسب عند باريتو – من مختلف الجوانب – مع مايصفه شوبنهاور Schopenhauer ونيتشه Nietzsche ( بتجليات الارادة ) . ويعتقد باريتو أن الرواسب تعتبر القوى الحقيقية الكامنة وراء تأكيد التوازن الاجتماعى ، هذه الرواسب تنقسم الى ستة فئات :

١ – رواسب الترابط Residues of Combination .

٢ – رواسب استمرار التجمعات Residues of persistence of aggregates .

٣ – رواسب اظهار العواطف من خلال الأفعال الخارجية Residues Manifestation of Sentiments throught external acts .

٤ – رواسب الألفة Residues of Sociality .

٥ – رواسب التكامل الفردى Residues of individual integrity .

٦ – رواسب الجنس(٦٣) Sex Residues .

وينبغى أن لاتقتصر دراسة علم الاجتماع على الرواسب فقط وانما عليه أن يتجاوز ذلك لدراسة علاقة الرواسب بالمشتقات . هذه المشتقات تتكون من الأساليب التى يبرر بها البشر أفعالهم ويشرحونها . وفى اطار ذلك يؤكد باريتو أن هناك أنواعا عديدة من المشتقات ..

١ – التأكيد البسيط Simple Affirmation وهى القضايا المتعلقة بالحقائق الواقعية أو الخيالية .

٢ – السلطة Authority ، حيث التفسير الزائف للأحداث من خلال التأكيد على سلطة الماضى ، سلطة العادات والتقاليد ، أو سلطة الارادة الألهية .

٣ – السير حسب المبادئ والعواطف Accord with sentiments or principles ، وهى المشتقات التى تحاول طرح تبريرات للسلوك مستندة الى الحقيقة التى تفترض أن هذا السلوك من أجل فائدة الآخرين .

٤ – البراهين اللفظية Verbal proofs ، وهى التى تتكون من استخدام الألفاظ أو المصطلحات حسب الحقائق ، أو الشعارات وما الى ذلك .

وتتصل المشتقات أساسا بما يفضل الدارسون فى الغالب تسميته ( بالايديولوجيات ) حيث تعتبر هذه الأيديولوجيات تبريرات زائفة للسلوك (٦٤) .

ويتصل بذلك أن على علم الاجتماع أن يبحث فى طبيعة توزيع الرواسب فى المجتمع بما يساعد على خلق حالة من الاستقرار الاجتماعى أو حالة من التوازن بين الصفوات ( الأسود ، الثعالب ) . هذا الى جانب دراسة علم الاجتماع لحالات اهتزاز توزيع الرواسب على هذا النحو بما يفرض اهتزاز التوازن واقبال المجتمع على مايمكن أن يسمى بدوره الصفوة . فهو يهتم بقضايا الصفوة بين التوازن والتغير الاجتماعى . وهى موضوعات قدم فيها فلفريدو باريتو اسهامات بارزة وواضحة .

## ثانيا : المنهج فى علم الاجتماع ، الأبعاد والاجراءات .

لاتختلف البنية المنهجية للنسق اللنظرى عند فلفريدو باريتو عنها عند معاصريه . وذلك باعتبار كونها أنساقا نظرية عايشت الاتجاهات النظرية العامة ( المثالية ، النفعية ، الوضعية ، الامبيريقية ) ، وهى اتجاهات كانت لها مداخلها المنهجية المحددة . ومن ثم فقد كان منطقيا – أيا كان الانتماء النظرى للنسق النظرى – أن تنعكس منهجيات هذه الاتجاهات النظرية العامة بصورة متفاوتة داخل الأنساق النظرية للمرحلة الكلاسيكية . وهى الملاحظة التى تجسد نفسها فى البنية المنهجية لنظرية باريتو عن المجتمع . اذ يكشف فحص هذه البنية المنهجية عن تميزها بالملامح الأساسية التالية .

ويعتبر تبنى المدخل المنهجى الذى اتبعته العلوم الطبيعية والاقتصادية هو المدخل الملائم لدراسة الحقيقة الاجتماعية . ذلك أن باريتو كان يأمل فى خلق علم اجتماعى مكمل أساس لدراسات الاقتصاد السياسى . ويتخذ من العلوم الطبيعية مثالا له . وفى هذا الصدد نجده يؤكد فى كتابه ( المقدمة ) أن هدفه الوحيد الذى أصر عليه هو البحث عن فهم الحقيقة التجريبية ، وذلك عن طريق تطبيق المناهج التى أتبعت فى العلوم الفيزيقية والكيمياء والفلك ، والبيلوجيا ، وغيرها ، فى اطار العلوم الاجتماعية (٦٥) . ذلك يعنى أن هناك مصدران رئيسيان كان لهما تأثيرها على البناء المنهج لباريتو . **الأول** ويتمثل فى العلوم الفيزيقية الحديثة التى كانت قد تمكنت فى هذه الفترة من تطوير أساليب واجراءات منهجية دقيقة للغاية . ومن ثم فقد قدمت هذه العلوم النموذج العام الذى ينبغى احتذاؤه . ويتمثل المصدر **الثانى** فى النظرية الاقتصادية التى قدمت مثالا رائدا لعلم يتناول السلوك الانسانى . علم تمكن بالفعل من تطوير نظرية مجردة لا تتصل بالظواهر الاجتماعية الواقعية اذا هى لم تترابط مع بعض العناصر السوسيولوجية الأخرى المتعلقة بهذه الظواهر . ويمكن القول بأن الموقف من طبيعة تحليل النظرية الاقتصادية هو الذى شكل نقطة البدء فى التحليل العينى الذى قاده باريتو بعد ذلك (٦٦) .

ذلك يعنى أن وقوع باريتو تحت تأثير هذين المصدرين المفكرين أسسا لديه التزاما بعلم الاجتماع كعلم تجريبى منطقى يستند بالأساس على ملاحظة الحقائق والتجريب بشأنها . ومن ثم أن نرفض أى تأمل أو تفكير عقلى أو أخلاقى يتجاوز الحقائق ذاتها . أو لا يصف اطراداتها أو الخصائص المتعلقة بها ، باعتباره لايشكل عنصرا فى علم الاجتماع التجريبى المنطقى . وبعبارة أخرى ، فان علينا أن نرفض ، أى قضايا أو مبادئ مسبقة من أن تتدخل فى الفهم المتعلق بعلم الاجتماع . فقضايا ومبادئ علم الاجتماع ليست شيئا أكثر من وصف الحقائق واطراداتها . وعلى هذا النحو فهى ليست قضايا مطلقة ولكن نسبية ، وهى أيضا معروضة للتغير بمجرد ظهور حقائق جديدة تشكك فى دقتها . ومن ثم ينبغى أن يستبعد من مجال علم الاجتماع مقولات مثل الضرورة necessity ، الحتمية Invitability الصدق المطلق absolute truth . وذلك لأن قضايا العلم ينبغى أن تكون احتمالية (٦٧) ، وهو مايعنى ضرورة أن يتبنى علم الاجتماع المنهج التجريبى المنطقى الذى يعتمد أساسا على الملاحظة والاستنتاج المنطقى وفقا لقواعد الاستقراء الأساسية ، تلك التى حددها جون ستيورات مل . حيث يتكون العالم التجريبى – فى رأى باريتو – القابل للملاحظة من ظواهر وعلاقات من الممكن ادراكها بالحواس ، وعادة ما يتيسر اخضاعها للقياس (٦٨) . ومن هذا المنطلق كان نقده للأنساق

النظرية التى طورها كل من كونت وهربرت سبنسر ، وغيرهما من المفكرين الذين عايشوا هذه المرحلة .

واستنادا الى ذلك يرفض باريتو الاستقراء كمنهج يصل من خلاله الى تطوير اطاره التصورى لتحليل العنصر غير المنطقى فى السلوك أو الفعل الانسانى . اذ نجده بعد استعراض مجموعة هائلة من الحالات فى التاريخ الماضى والحاضر - متخذا موضوع دراسته النماذج العديدة للأيديولوجيات كالمعتقدات والمذاهب التى تدفع عادة الفعل البشرى الى أنماط معينة من السلوك أو الفعل - يصل الى نتيجة أن كل أنساق المعتقدات غير العلمية هذه ، وكل النظريات القائمة من النادر أن تشكل عوامل محددة أو محتمة للفعل أو السلوك ، وانما هى الى حد كبير تعبر عن عواطف كامنة فى العمق . وأن دورها الرئيسى يكمن فى تقديم الفهم المنطقى للسلوك بحيث تجعله يبدو وكأنه نتيجة منطقية لمجموعة من الأفكار (٦٩) . ذلك يعنى أن الاستقراء ينصب على البحث فى الحالات التاريخية فيما يتعلق بالعناصر الكامنة فى السلوك البشرى ، أو مايسميه باريتو بالرواسب ، وليس المشتقات . فما المشتقات سوى تبريرات منطقية للفاعلية الرئيسية لهذه الرواسب ، وهو الأمر الذى يلقى الضوء على موقف باريتو من بعض أدوات العلم الاجتماعى الحديث ، كالاستبيان ، باعتباره وسيلة غير كافية للكشف عن الحقيقة . إذ نجده يؤكد على استحالة استناد أى استنتاج علمى فيما يتعلق بالانسان أو الجماعة أو الفترة التاريخية المحددة ، الى ردود الفعل الكلامية فقط ، حيث أن ردود الفعل الكلامية هذه بالنسبة لباريتو تعتبر مجرد مؤشر مضلل للغاية ، فيما يتعلق بطبيعة الرواسب الكامنة التى نريد الكشف عنها أو فهمها (٧٠) .

ذلك يفرض ضرورة الاهتمام بتوضيح وجهة نظر باريتو فيما يتعلق بالحقيقة الاجتماعية التى ينبغى أن تكون موضوعا للاستقراء العلمى . حيث نجده فى مختلف كتاباته يحاول بدأب تقديم تحديد واضح لمجال الحقيقة العلمية . وفى هذا الصدد نجده لم يستخدم مصطلح ( المعطاه المحسوسة Sence Datum ) أو أى من المصطلحات المتصلة بها ، ولكن كانت الخبرة أو التجربة هى مصطلحه المفضل . وهو المصطلح الذى يشير بوضوح الى استقلال العواطف الذاتية للملاحظ وامكانية التحقق منها . ومن ثم فقد تمت معادلة التجربة بالملاحظة . التى عادة مايشار اليها باعتبارها تساعد البشر على الحكم بين الآراء المختلفة ، ونستنتج من ذلك تميز تصور باريتو بالشمول وقد تتضمن الحقيقة أى قضية يمكن التحقق منها وتتعلق بشىء أو واقعة خارجة عن الباحث الملاحظ ومستقلة عنه . بمعنى أنها :

(أ) فى وجودها وخصائصها ناتجة عن العواطف الخاصة ، عن الحب ، أو الكراهية ، فهى معطاه مفروضة Given على هذا النحو .

(ب) أنه كتأكيد لهذا الاستقلال فانه لباحثين أو أكثر من باحث يدرسا نفس الشئ أو الواقعة أن يصلا الى اتفاق فيما يتعلق بالأسس الرئيسية لتوصيفاتهم لهذه الحقيقة (٧١) .

وفى نطاق هذه الحقيقة الواقعية ، أو التعبير اللغوى عنها ، يمكننا التمييز بين مستويين أو نمطين من السلوك أو الفعل . الفعل أو السلوك المنطقى ، والفعل أو السلوك غير المنطقى . ويحدد باريتو الأولى بأنها الأفعال أو السولكيات التى تستخدم الوسائل الملائمة لتحقيق الغايات والتى تصل منطقيا بين الوسائل والغايات ، بحيث لايكون هذا الوصل المنطقى للوسائل بالغايات من وجهة نظر الانسان القائم بانجاز السلوك أو الفعل ، ولكن أيضا من وجهة نظر الأشخاص ذوى المعرفة العلمية الواسعة . ومن ثم تصبح الأفعال أو السلوكيات المنطقية منطقية من وجهة النظر الذاتية والموضوعية معا . أما الأفعال غير المنطقية فهى ببساطة الأفعال التى لاتدخل فى تحديد طبيعة الفعل المنطقى فهى فئة راسبة Residual Category (٧٢) .

ذلك يعنى أن هناك تناقضا بين نمطى السلوك أو الفعل ، أو أن هناك مستويين . الأفعال المنطقية التى تعتبر فى أساسها نتيجة لعملية برهنة ، أما الأفعال غير المنطقية فتنبثق أساسا عن حالة عقلية محددة ، عن العاطفة أو اللاشعور ، الخ ، ومن ثم يصبح على علم النفس أن يهتم بمثل هذه الحالة العقلية والأفعال أو السلوكيات الناتجة عنها (٧٣) . ترتيبا على ذلك نجد أن هناك مجالين أساسيين للسلوك الانسانى ، كل منهما منفصل عن الآخر . المجال الذى يقع فى نطاق المنطق أو العلم من ناحية ، ثم مجال العواطف من ناحية أخرى . واذا كان العلم يتضمن المنطق ، والملاحظة والتجربة الموضوعية ، والصدق المستند الى هذه العمليات ، فان المجال الآخر هو الفهم التجريبى غير المنطقى nonlogical - experimental وقد اختار باريتو العلم ، غير أنه رفض كلية امكانية أن يغنى العلم عن المجال الآخر . حيث تعتبر العاطفة فى الحقيقة هى القوة الرئيسية المسيطرة فى المجتمع ، أو هى العامل المحتم للسلوك البشرى . واستنادا الى ذلك يميز باريتو بدقة بين القضايا العلمية والقضايا غير العلمية . وفى هذا الصدد نجده يعتبر التجربة الموضوعية هى المحك الوحيد لبناء النظرية العامة ، التى يمكن أن نصل اليها استقرائيا عن طريق وصف العلاقات بين الحقائق . ومن ثم فالنظريات العلمية هى نظريات منطقية – تجريبية . غير أنه يؤكد أن النظريات الأخرى غير المنطقية – التجريبية قد تضيف الى التجربة وتحاول السيطرة على الحقائق . ويلتزم باريتو بوجهة النظر المنهجية التى تنظر الى

القوانين باعتبارها وسائل توجيهية أساسا ، وليست بالضرورة حاكمة لتفاعل الحقائق الواقعية . اذ أنه حينما تتضح العلاقات والاطرادات بين الحقائق ، فان القانون يستخدم عادة للتعبير عن هذه العناصر ، فالقانون ليس قوة تخضع لها الحقائق . ثم يصف أسلوب العالم فى الوصول الى القانون فيؤكد أن العالم يختار ظواهر معينة تصلح للملاحظة ، ثم ينظمها ويصنفها حسب اطار مختار بصورة ارادية ، بحيث تبدو الظواهر وكأنها خاضعة لقانون معين . واستنادا الى ذلك فليست هناك قوانين ضرورية ، ولكن بدلا من ذلك تتفاعل الظواهر وكأن هذه القوانين موجودة . ويحدد العالم درجة احتمالية أن تتبع الظواهر موضع الاهتمام نمطا محددا من التفاعل . وعلى هذا النحو تصبح النسبية الاجتماعية بالنسبة لباريتو كما هى بالنسبة لفيانجر Vaihinger وماخ Mach وبوانكارية الى آخر هؤلاء ، افتراضا أساسيا (٧٤) .

وتنعكس هذه النظرة الى طبيعة القانون ذاته ، حيث يضمن عنصر الضرورة بالنسبة للقانون العلمى فى بنيته المنطقية فقط ، وعلى هذا النحو فالقانون ليس له استثناءات . أما ما نسميه فى العادة استثناءا ليس فى الحقيقة سوى نتيجة للفاعلية أو التأثير الأقوى لقانون آخر غير القانون موضع الاهتمام ، وبهذا المعنى تصبح لكل القوانين العلمية استثناءات . غير أن هذه الضرورة المنطقية ، والتى يمكن أن نطلق عليها ( الحتمية المنطقية Logical determinism ) ينبغى أن لا تنقل – وفقا لهذا الاعتبار – الى مجال الظواهر الواقعية ، فنسق النظرية المغلقة من الناحية المنطقية ينبغى أن لا يتحول تعسفيا ليصبح نسقا أمبيريقيا مغلقا . اذ أنه على العكس من ذلك ، يمكن أن تقود النظرية العلمية فى حالة تطبيقها امبيريقيا الى قدر من الاحتماليات وليست الضرورات الملزمة (٧٥) .

ويحاول بيترم سروكن أن يحدد ملامح منهجية باريتو بتأكيده أنه تحت تأثير فنيارسكى Winiarsky وآخرين غيره من ممثلى الميكانيكا الاجتماعية نجد أن باريتو متبعا فى ذلك جوسن Gossen ، والراس Walras ، جيفونز Jevons ، كورنو Cournot ، ادجوورث Edgeworth ، قد قدم نظرية فى الميكانيكا العقلانية . ثم حاول أن يحدد اتجاهات أو منهجية البحث فى هذا الاطار بتأكيده على ضرورة دراسة نوعين من الحركات ، الحركات الواقعية real والمفضلة Ver- tual وتشكل الأولى تلك الحركات التى تقع واقعيا أما الثانية فهى التى ينبغى اتباعها فى ظروف معينة ، وباعتبارها متضمنة فى الفروض فانها سوف تساعدنا على فهم الخصائص الواقعية . وينبغى أن تكون دراسة تلك الحركات الواقعية وصفية خالصة ، فى حين ينبغى أن تكون دراسة الحركات المفضلة نظريا أساسا . الأولى قد تكون تركيبية ، أما الثانية فهى تحليلية

أساسا . وتنتج عن ذلك الحاجة الملحة لعزل الأجزاء العديدة للظاهرة بدرجة أكثر أو أقل ودراسة كل منهما منفصلة على أمل أن يعاد توحيدها ثانية للوصول الى تصور تركيبي للظاهرة الواقعية (٧٦) .

واذا كان باريتو قد أكد على ضرورة التركيب للظاهرة كمدخل الى فهمها ، فاننا نجده – بهدف طرح تصور بنائي متكامل للظاهرة التي نريد دراستها – يؤكد على ضرورة اهتمام علم الاجتماع بمفهوم العلاقات الوظيفية بين الظواهر الاجتماعية ، بدلا من الاهتمام بعلاقة سببية ذات اتجاه واحد . وفي هذا الصدد ينبغي تجاوز مفاهيم ( كالمتغير Variable ) ( والوظيفة Function ) . وبأسلوب منهجي خالص ، فانه من الضروري أن نعزل في البداية متغيرا محددا يوجد دائما كمكون في مجموعة الظواهر الاجتماعية ثم ندرس علاقته الوظيفية بالظواهر الأخرى ب ، ج ، د ، هـ . وينبغي أن نفعل نفس الشئ فيما يتعلق بالمتغيرات الأخرى ب ، ج ، د ، هـ . وحينما ننتهي من هذه المرحلة ، ينبغي تقديم مجموعة القضايا التي تم الحصول عليها بالعلاقة الوظيفية وذلك لدراسة مجموعة معقدة من الظواهر الاجتماعية المتساندة أ ، ب ، ج ، د وينبغي أن يتركز انتباهنا خلال هذه المرحلة التركيبية على العلاقات الاجتماعية المتبادلة والدائمة نسبيا . اذ علينا أن نلاحظ تغيراتها ، في الزمان والمكان . ثم طبيعة العلاقات والارتباطات المتساندة بين هذه المتغيرات . علينا أيضا أن نفهم الاطرادات المتكررة في تنوعاتها وتغيراتها المعقدة ، بحيث نصفها كيفيا ، ونقيسها كميا . أما فيما يتعلق بالحوادث والوقائع الفريدة ، أو غير المنتظمة وغير المتكررة ، أو التي تقع بحكم الصدفة العابرة ، فان علينا اغفالها على الأقل لمدة من الزمن ، حتى تتوفر لدينا صيغة تتعلق بمجموعة من الاطرادات الأكثر أهمية ، ذات مؤشرات كمية . وبهذه الطريقة فاننا سوف نتمكن من تحقيق سلسلة من الاقترابات المتعاقبة نحو الحقيقة الواقعية المعقدة . وعلى نقيض مداخل المنظرين الذين يميلون الى التبسيط ، فان هذه الاقترابات المتتالية سوف تكون أقرب مايكون الى الدقة ، هذا الى جانب أنها سوف تختلف عن النظريات التصويرية ( الوصفية ) في أنها سوف تتيح لنا تحديد العلاقات المتبادلة بين الظواهر ، واطراداتها ، ثم المؤشرات الدالة على هذه التفاعلات التي تصف الى حد كبير العمليات الاجتماعية الأكثر أساسية . وعلى هذا النحو يمكن ايجاز الملامح العامة لمنهجية باريتو على النحو التالي :

(أ) تصور الاعتماد المتبادل بدلا من الاعتماد من جانب واحد .

(ب) تصور العلاقة الوظيفية المتبادلة بدلا من علاقة السبب بالنتيجة .

(ج) دراسة العناصر الدائمة للنسق الاجتماعي بدلا من دراسة المكونات الفردية ، والعرضية غير المتكررة .

(د) دراسة الاطرادات والارتباطات المتعلقة بتغير هذه العناصر الدائمة ( فى الزمان والمكان ) .

(هـ) القياس الكمى للاطرادات ، من حيث تغيراتها وترابطاتها بدلا من الوصف الكيفى الخالص .

(و) أننا اذا اتبعنا هذا المنهج فسوف نستطيع الحصول على مجموعة الصياغات أو المعادلات Formulas التى سوف تمثل بالنسبة لنا اقترابات أو تناولات متتابعة للحقيقة الواقعية المعقدة للغاية من حيث دينامياتها الداخلية .

ومن الضرورى أن ندرك أن هذه القضايا المنهجية تتفق من الناحية العملية مع قضايا كل من بوانكارية H. Poincare ، وماخ ، ودهم Duhem ، وكارل بيرسون K. Pearson ، وكثير من علماء المنهج فى تاريخ العلم . هذا الى جانب أنها تتفق أيضا مع الاتجاهات الحديثة لتفسير العلاقة السببية والحتمية وغير ذلك فى اللوم الطبيعية . حيث بدأت هذه المفاهيم تفقد طبيعتها الميتافيزيقية المتعلقة ( بالتحتيم Inevitableness والضرورة Necessity ) بحيث تحولت الى نظريات عن العلاقات الوظيفية تستند الى المبادئ الاحتمالية . ويتفق مع مبادئ باريتو أيضا ذلك التطور الحديث الذى حدث للدراسات الكيفية للظواهر الاجتماعية ، وتلك الخاصة بالاحصاء الرياضى ،ونظرية الارتباط الرياضى ( التى تتضمن الارتباط الجزئى ) ، والميل الى الاكتمال فى النظريات الرياضية للمتغيرات (٧٧) .

ذلك يعنى أننا اذا حللنا البناء المنهجى الذى أسسه فلفريدو باريتو باعتباره المنهجية التى ينبغى أن تكون لعلم الاجتماع ، فسوف نجد أنه يتميز بخاصيتين :

١ – أنها منهجية تتصل الى حد كبير من حيث المدخل المنهجى ، أو من حيث طريقة التحليل والتركيب بالمنهجية المتبعة فى العلوم الطبيعية والتى رضيت بها الوضعية منهجا لعلم الاجتماع .

٢ – أنه برغم هذه الطبيعة الوضعية الصارخة ، نجد أن لدى باريتو تأثيرات مثالية ، كاعتبار الرواسب الكامنة المادة الحقيقية التى ينبغى أن يتناولها علم الاجتماع دون

المشتقات . وفى ذلك خلاف مع الموقف الوضعى وأيضا الموقف الذى ترضى به اللوم الطبيعية التى تكتفى بما هو ظاهر بغض النظر عن ماهو كامن .

٣ – أننا نلاحظ أن باريتو قد طور منهجية ذات طبيعة متطورة الى حد كبير ، كفكرة القول بالطبيعة المعية لجمع من المتغيرات فى صياغة التفاعل الاجتماعى ، هذا الى جانب معرفة تأثير كل من متغيرات الواقعة كل على حدة لمعرفة تأثيرها النسبى ، الى جانب التبشير بعلم الاجتماع الرياضى ، وغير ذلك من التطويرات .

غير أن القضية الرئيسية التى نلاحظها فى هذا الصدد تتمثل فى أن باريتو – ككل معاصريه – لم يطور منهجية ذات طبيعة وضعية أو مثالية خالصة . حيث قامت البناءات المنهجية لهذه المرحلة باعتبارها محاولات تركيبية لعناصر منهجية تنتمى لأنساق نظرية متباينة الى حد كبير .

## ثالثا : التفسير المنهجى ، مبادئه الرئيسية .

فى أعقاب تحديدنا لهوية علم الاجتماع عند باريتو ، وأيضا لطبيعة الادراك المنهجى الذى اتبعه فى النظر الى حقائق الواقع الاجتماعى وتناولها بالبحث والدراسة ، فاننا سوف نحاول فى هذه الفقرة تحديد مجموعة المبادئ المنهجية التى شكلت العمود الفقرى لنظرية باريتو عن الانسان والمجتمع . غير أننا قبل أن نشرع فى سرد هذه المبادئ نرى ضرورة تصنيفها الى نوعين أو طرازين من المبادئ ، مجموعة المبادئ المنهجية وهى التى تشكل الموجهات العامة لنظرة الباحث الى الحقيقة موضع الاهتمام والدراسة . ثم مجموعة المبادئ العينية التى تتصل بطبيعة العناصر المكونة للحقيقة أو بطبيعة العلاقة بين هذه العناصر ، وفيما يلى استعراض متتابع لمجموعة المبادئ المنهجية والعينية هذه .

١ – يعتبر رفض التفسير الأحادى هو البعد المنهجى الأول فى هذا الصدد . حيث يرفض فلفريدو باريتو كل صور التفسير السوسيولوجى التى تستند فى رؤيتها للواقع الاجتماعى بالنظر الى عامل واحد ، وهو نمط التفسير الذى يختزل الحياة الاجتماعية الى عوامل أو أسباب بعينها (٧٨) .

ويعتبر نقد مفهوم السببية الأحادية الجانب أحد الأجزاء الهامة فى منهجية باريتو الموجهة أساسا لدراسة الظواهر الاجتماعية . حيث يفترض ، مفهوم السبب والنتيجة علاقة اعتمادية من جانب واحد بين ظاهرتين أو أكثر . ذلك أن مثل هذه العلاقة ليست لها

وجود واقعى فيما يتعلق بالعلاقة بين الظواهر الاجتماعية ، حيث أن هذه العلاقات متساندة كقاعدة أساسية . وعلى سبيل المثال اذا أثرت خصائص أعضاء المجتمع على تنظيمه الاجتماعى ، فان التنظيم الاجتماعى يؤثر بدوره على خصائص الأفراد . ولهذا السبب فان تصور العلاقة السببية الأحادية الجانب لا يلائم الدراسة العلمية للظواهر الاجتماعية . وحينما يطبق هذا التصور فإنه يبرز النظرية التبسيطية أو النظرية التصويرية . فاذا أخذنا من المجتمع مثالا فاننا نجد أن طبيعته وتوازنه يتكون من أو يعتمد على البيئة الجغرافية (أ) والموقف الاقتصادى (ب) والشكل السياسى (ج) والدين (د) والأخلاق والمعرفة (هـ) ، وغير ذلك من المتغيرات . حيث تؤثر كل من هذه المتغيرات فى الأخرى وتعتمد عليها . ومن خلال تفاعلها فانها تغير على الدوام من طبيعة المجتمع وتوازنه . ومن ثم يتواجد لدينا اعتمادا متبادلا بين هذه المتغيرات ، وتوازنا ديناميا للمجتمع الذى يمكن أن يمر من حالة الى أخرى على النحو التالى :

أ ، ب ، ج ، د ، هـ

أ ، بَ ، جَ ، دَ ، هـَ

أ ، بً ، جً ، دً ، هـً

واستمرارا الى ما لا نهاية .

وعلى ذلك فالمنظر ( الذى يميل الى التبسيط المخل للتفاعل ) يأخذ عنصرا مثل (أ) معتبرا أياه سببا ، ثم ينظر الى ب ، ج ، د ، هـ باعتبارها نتائج لهذا السبب ، فى حين يذهب منظر آخر يميل الى التبسيط أيضا الى اعتبار (ب) أو (ج) أو (د) سببا ، ثم يحاول النظر الى المتغيرات الأخرى باعتبارها نتائج . وعلى هذا النحو تكون لدينا نظريات كثيرة ومتناقضة تقدم لنا النموذج التبسيطى للنظرية السوسيولوجية ( حيث كلها تعتبر نظريات من جانب واحد ، تحاول أن تفسر الحياة الاجتماعية ككل من خلال العامل الجغرافى ، السلالى ، الاقتصادى ، السياسى ، أو أى عامل آخر ) . وكنتيجة لهذه الممارسة ، تصبح النظرية ذات طبيعة أحادية ، فتعميماتها غير فعالة ، وتشخيصها زائف ، وقضاياها لا قيمة لها . هذا بخلاف الصراعات التى لاقيمة لها بين هذه النظريات الأحادية أو التبسيطية ، بسبب دفاع كل منها عن مواقعها .

أما ما نعنيه بزيف النظرية التصويرية Cinematographic فنعنى بها أن عالم الاجتماع يلاحظ ويصف الانتقال من ( أ ) الى ( أَ ) الى ( أً ) ، وانتقال ( ب) الى ( بَ ) وأيضا ( ج ) الى ( جَ ) الى ( جً ) مثلما نرى صورة تلو أخرى فى سلسلة من الصور الدرامية . وقد وصف هذا الانتقال بواسطة هذه النظريات التصويرية تحت اسم التطور ، فهم بهذا الوصف يقصرون مهتمهم على هذا الاطار ويعتقدون أن كل شئ قد اكتمل فى طريق الدراسة العلمية . ويكمن الزيف فى هذه النظريات - حتى ولو كانت أطرها التصورية دقيقة ( وهى مسألة نادرة الحدوث ) - فى سطحيتها . فهم لايستطيعون بها أن يقدموا أى تعميم أبعد من الوصف التاريخى والامبيريقى الخالص . هذا الى جانب عجزهم عن تقديم تحديد للاطرادات التى قد تحدث ، اضافة الى عدم تقديم تحليل للظواهر موضع الاهتمام [٧٩] .

٢ - وتعتبر علاقة الأفراد بالمجتمع المبدأ المنهجى الثانى الذى يحاول باريتو من خلاله ادراك التفاعل الاجتماعى . اذ تعتبر هذه القضية من القضايا الرئيسية التى أثارت جدلا خلافيا فى مرحلة الأنساق النظرية الكلاسيكية . واذا كانت الدوركيمية قد اتخذت موقف أولوية المجتمع على الفرد ، بينما رضى ماكس فيبر وكارل ماركس بموقف وسط متأرجح ، فاننا على خلاف ذلك نجد فلفريدو باريتو يحسم القضية على نقيض الموقف الدوركيمى . ومن ثم فنظريته عن المجتمع هى فى النهاية نظرية سيكولوجية . حيث يتحدد التوازن الاجتماعى عند باريتو بواسطة توزع الخصائص السيكلوجية بين الأفراد أو بصورة أكثر تحديدا يعتمد توازن المجتمع على طبيعة توزيع الأفراد الذين يمتلكون هذه الخصائص [٨٠] . فمثلا نجد أن الراسب الجنسى عند اتحادات الجنس أو الشوق الى التجمع ، ولكننا نجد أن له فاعليته أيضا فى بعض الحالات العقلية الرافضة للجنس [٨١] . ويضيع الباحث وقته اذا حاول تفسير تحريمات اجتماعية معينة أو ممارسات دينية خاصة بالنظر الى الظروف الاجتماعية والثقافية الأخرى . وفى هذا الصدد فان على الباحث أن يعلم أن الرواسب فعالة على مستوى الحديث أو الكتابة ، ولها وجودها أيضا وفاعليتها فى الأدب والتراث . وحينما يتحدث المتحدثون عن التراث اللا أخلاقى ، فان ذلك يعتبر فى غالب الأحيان نوعا من النفاق [٨٢] . ذلك يعنى أن تفسير السلوك والتفاعل الاجتماعى ليس بالنظر الى الحقائق الاجتماعية والثقافية ، فالحقائق

الاجتماعية ليست مفسرة لذاتها على مايذهب دوركيم وانما تفسرهم الرواسب الكامنة فى عمق الأفراد الذين يشكلون بناء المجتمع .

٣ – ويعتبر الموقف من الحقيقة الاجتماعية هو المبدأ المنهجى الثالث فى هذا الصدد ، وهى مسألة ينبغى التأكيد الواضح عليها على مايذهب باريتو ، فقد لا يتحد نفع فكرة معينة مع صدقها فى المجال الاجتماعى . فالمنفعة والحقيقة الصادقة ينفصل كل منهما عن الآخر واقعيا . ومن ثم نجده يذكر قارئه باستمرار بأنه اذا برهن على عبث فكرة معينة ، فان ذلك لايعنى أنها ضارة بالنسبة لأى شخص . وعلى العكس فانه اذا برهن على نفع فكرة معينة ، فان على القارئ أن لايفترض أنها صادقة تجريبيا . فمن الواضح أن هناك أفكارا كثيرة منتشرة بين الناس ، ومع ذلك فهى زائفة تماما ، أو أن صدقها مجهول نسبيا . فهناك قضايا حاول باريتو التأكيد على أهميتها بالنسبة له مثل ، من الذى يعتنق مذاهب معينة ولماذا ؟ وماهى نتائج الاعتقاد فى معتقدات مهينة ولصالح من ؟ ثم يؤكد أنه من الضرورى الاجابة على هذه التساؤلات من خلال علم اجتماع علمى (٨٣) .

اذا فعلى نقيض هؤلاء الذين يعتقدون أن كل ماهو حقيقى نافع ، فى حين أن كل ما هو غيبى ضار ، نجد أن باريتو يؤكد أن الموقف يختلف كثيرا عن ذلك . فهناك كثير من التحيزات ( المشتقات ) التى ساعدت على الحفاظ على تكامل النسق الاجتماعى ، فى حين يسرت ( الأساطير ) والبدع ، والمعتقدات القديمة ، والغيبيات التى تخلع مسحة من الجمال على الواقع ، هذا الى جانب مشاعر الحماس الملهمة . كل هذه المشتقات قد تكون مفيدة فى بعض الأحيان للمجتمع ، غير أننا نجد من ناحية أن الحقيقة العارية قد تصبح مدمرة للمجتمع . وفى اطار ذلك يصل باريتو الى نتائج قريبة الى حد كبير من تلك النتائج التى وصل اليها ميكيافيلى وسوريل G. Sorel ، وفريزر Frazer ، ليبون G. Lebon ، وآخرين . حيث تعتبر الأوهام والغيبيات – حسب هذا المنطق – ذات أهمية حيوية للمجتمع بنفس قدر أهمية الصدق المنطقى التجريبى (٨٤) .

واستنادا الى هذه المقارنة بين الحقيقة والمنفعة نجد أن باريتو يميز بين نوعين من النظريات . النظريات الزائفة علميا ، والنظريات التى تتجاوز التجربة . وفيما يتعلق بالنمط الأول من النظريات يؤكد باريتو أننا نتعامل مع نظريات تبدو وكأنها تحتل مكانة علمية ، غير أنها قد تفشل بوضوح فى الصمود أمام المحكات العلمية . هذه النظريات ترتبط فى النهاية بالحاجات والدوافع والملكات البيلوجية ، ويمكن تفسيرها مباشرة

بالنظر الى الرواسب الكامنة وراءها . ومن ثم فهذه النظريات مجرد تبريرات عقلانية أو رشيدة . أما فيما يتعلق بالنظريات التى تتجاوز الخبرة كالنظريات الدينية على سبيل المثال ، فاننا نجد أن باريتو يقدم برهنة مختلفة ، فهذه النظريات لا تدعى لنفسها الطبيعة أو المظهر العلمى ، ومن ثم يصبح جهدا عديم القيمة اذا حاولنا توضيح مدى ابتعادها عن المحكات أو المعايير العلمية . هذه النظريات تمثل فى الحقيقة قيما ثقافية ، أو هى تشكل البعد الثقافى فى السلوك أو الفعل الانسانى ، ومن ثم فهى تمثل اتجاهات قيمية . وحينما يؤكد باريتو أن الرواسب تكشف عن نفسها فى النظريات الزائفة عاميا ، فان ذلك يعنى أن وجود هذه النظريات يعتبر موشرا على الرواسب ، ودلالة على قدرتها على الخداع . غير أنه حينما يتحدث عن تجلى الرواسب فى النظريات التى تتجاوز التجربةج فيبدو أنه يعنى أنها تتجلى أو تعبر عن نفسها فى السلوك الطقوسى الرمزى (٨٥) .

ذلك يعنى أنه اذا نظر ماركس الى نفع الحقيقة وصدقها بالنظر الى البعد الطبقى ، واذا اتحد النفع مع الحقيقة عند دوركيم بالنظر الى الحقائق الاجتماعية فى اطار السياق الاجتماعى ، فاننا نجد أن الأمر مختلف وأن التأكيد على نفع نظرية أو أخرى ، أو صدق نظرية أو أخرى علميا ، انما يعتمد بالأساس على الرواسب البيلوجية الكامنة فى عمق الذات الفردية . والتى بالنظر اليها يتحدد المعنى الرئيسى لهذه النظريات ، وهو موقف يرتد به باريتو الى نوع من الحتمية البيلوجية .

ذلك يعنى أن الصدق التجريبى للنظرية ونفعها الاجتماعى مسألتان مختلفتان . فالنظرية الصادقة تجريبيا قد لا تكون فعالة للمجتمع أو تدعم تفاعله . وقد تكون النظرية صادقة تجريبيا اذا أكدت التجربة ذلك . لكنها قد تكون فى نفس الوقت ضارة اجتماعيا ، أو على عكس ماتذهب التجربة لكنها ذات فائدة اجتماعية . وعلى هذا النحو فتقدير النفع الاجتماعى ينبغى أن يكون منفصلا عن البحث عن المكانة المنطقية للنظريات أو الادراكات الذاتية للفاعلين الأفراد (٨٦) .

٤ – وتعتبر التفرقة بين السلوك أو الفعل المنطقى وغير المنطقى المبدأ المنهجى الرابع فى هذا الصدد . حيث يكون الفعل منطقيا اذا استطاع أن يحقق غاية بطريقة موضوعية . واذا كانت الوسائل المتبعة تتفق موضوعيا مع هذه الغاية فى اطار أفضل معرفة متاحة . أما الأفعال التى تخرج عن هذا النطاق فيعتبرها باريتو جميعا أفعالا غير

منطقية ، ( على أن ذلك لايعنى أنها أفعال مخالفة أو مضادة للمنطق ) ، واستنادا الى ذلك فلنا أن نتوقع أن تكون الأفعال المنطقية نادرة الى حد بعيد ، حيث لانجد فى كتابة ( المقدمة ) سوى أمثلة قليلة جدا لهذا الأفعال ، وأمثلة لها صياغة النظريات العلمية أو السلوك الاقتصادى ، وسلوك المحامين . وهو يعتقد أيضا أن دور القاضى ذاته يعتبر سلوكا غير منطقيا ، والسبب فى ذلك هو أن دور القاضى ينطوى على أمور تتجاوز مجرد التطبيق المنطقى للقواعد القانونية المجردة على الحالات الملموسة . ويذهب باريتو فى هذا الصدد الى أن أحكام القضاء تكشف بدرجة ملحوظة عن عواطف رجال القضاء ، بل أن الاحتكام الى القانون المكتوب يعد بمثابة تفسير بعدى لقرار أو حكم أمكن اتخاذه بأسلوب آخر (٨٧) .

ويرتبط السلوك غير المنطقى بالرواسب والمشتقات . وهذان الأخيران يعدان مظهران للعواطف غير المتناهية ، والتى تشكل حالات نفسية بيلوجية فى المحل الأول . وعلى الرغم من أن باريتو قد أعترف بأنه من العسير التعرف على هذه الحالات على نحو مباشر ، إلا أنه قد كشف عن الطبيعة المميزة لمظاهرها ، تلك الطبيعة التى تتجلى فى الرواسب والمشتقات والسلوك الانسانى . وهكذا يكون من الواضح أن باريتو قد اعتقد أن العواطف بمثابة غرائز أو ميول انسانية فطرية .. وهو يرى من ناحية أخرى أن الرواسب مرتبطة بالظروف التى تعيشها الكائنات الانسانية . وهو يعنى بذلك أن الأفعال التى تتبدى من خلالها تعمل على تدعيم هذه العواطف ، بل انها تثيرها عند الأفراد الذين لا تتحقق لديهم . كما أن العواطف يتحقق وجودها عن طريق استمرار الجماعات ودوامها ، ومن ثم تساعد هذه الجماعات على البقاء (٨٨) .

والحق أن التفرقة بين الأفعال المنطقية وغير المنطقية شكل مجالا لاهتمام كثير من مفكرى هذه المرحلة . وبغض النظر عن الموقف الماركسى المعقد فى هذا الصدد ، نجد أن دوركيم رأى أن المجتمع أو الآخر العام ، يعتبر محكا لقياس منطقية الأفعال أو لامنطقيتها . هذا فى حين أن فيبر قد ميز بين الأفعال تمييزا يقترب به كثيرا من وجهة نظر باريتو فى هذا الصدد . حيث الفعل العقلانى عند فيبر يناظر الفعل المنطقى عند باريتو ، وحيث الفعل العاطفى عند فيبر يناظر الفعل اللامنطقى عند باريتو . هذا الى جانب أن الأفعال العاطفية عند فيبر وغير المنطقية عند باريتو تتصل بالعواطف الأساسية للجماعة أو الفرد كما عند فيبر أو بالرواسب ذات الطبيعة الدائمة عند باريتو .

٥ – وتشكل مكونات الوجود الاجتماعى المبدأ المنهجى الخامس عند باريتو . والى جانب أن هذه المكونات مسئولية عن تخلق هذا الوجود فهى أيضا مسئولة عن تشكلاته العديدة . فهو يذهب الى أن الأشكال الواقعية للنسق الاجتماعى كثيرة ومتعددة . وحينئذ فان علينا أن نتساءل عن ما هى العوامل المسئولة عن أشكال محددة ؟ وللأجابة على ذلك يؤكد باريتو أن شكل المجتمع تحدده كل العناصر التى أثرت فيه . وبالتالى يكون لهذا الشكل – الذى اتخذه المجتمع – تأثير على هذه العناصر . هذا يومكن تصنيف هذه العناصر أو العوامل الى ثلاثة فئات .

(أ) ظروف التربة ، والمناخ ، النبات ، والحيوان . هذا بالاضافة الى الظروف الجيولوجية ، وغير ذلك من الظروف .

(ب) العناصر أو الظروف الأخرى الخارجة عن بنية مجتمع معين فى زمان بعينه . وذلك مثل المجتمعات الأخرى التى توجد خارج مجتمع بذاته وأيضا نتائج المراحل السابقة تاريخيا على هذه المرحلة التى يعيشها المجتمع .

(ج) العناصر الداخلية بالنسبة للنسق الاجتماعى ، كالسلالة ثم طبيعة الرواسب أو المشاعر ، والمصالح ، والأيديولوجيات والخصائص الأخرى للذوات الفردية التى تشكل النسق الاجتماعى .

ذلك يعنى أن باريتو يطرح تصورا تعدديا لمكونات النسق الاجتماعى ، حيث تستند هذه المكونات – كقاعدة أساسية – الى بعضها البعض . ومن ثم فلكى نفهم شكلا اجتماعيا معينا ، فانه يصبح من الضرورى معرفة العناصر العديدة المشكلة له كميا ، وأيضا تأثيرها ، وترابطاتها وعلاقاتها ، ولسوء الحظ ، فان هذه المعرفة ليست متوفرة . ومن أجل أن نوفرها فان علينا تبسيط الموقف ، بحيث نتناول أكثر هذه العناصر أهمية ونغفل ولو الى حين العناصر الأقل أهمية . وحينما تتم دراسة هذه العناصر الهامة وترابطاتها أو علاقاتها بعمق أو بصورة كمية ، فان التأليف السوسيولوجى المكتمل أو الناضج سوف يصبح ممكنا . وحتى يتحقق ذلك ، فان علينا أن نقنع أنفسنا بالدراسة المبسطة للنسق الاجتماعى ، وللعوامل الهامة التى تحكم فى توازنه (٨٩) .

وتطبيقا لذلك نجد أن باريتو يختار لنفسه الدراسة المتعمقة لأكثر العناصر أهمية فى تشكيل النسق الاجتماعى أو صياغة توازنه ، هذه العناصر هى :

(أ) الرواسب وهى التى تذكرنا بالميول الوراثية عند البورت ، والمركبات أو العقد عند المحللين النفسيين .

(ب) المشتقات هى التى تتضمن الأيديولوجيات وردود الفعل الكلامية .

(ج) العوامل الاقتصادية .

(د) تباين الكائنات البشورية والجماعات الاجتماعية .

(هـ) الحراك الاجتماعى ودورة الصفوة .

ومن غير الصحيح أن نعتقد أن باريتو يرى أن هذه العناصر تحتوى على كل العوامل الهامة المسئولة عن تشكيل النسق الاجتماعى . فهناك عوامل أخرى كثيرة ذات أهمية . غير أن باريتو لم يدرسها بسبب أن مجرد دراسة العوامل أو العناصر السابقة يعتبر فى حد ذاته جهدا صعبا ومعقدا للغاية . حيث يمكن أن يكمل علماء اجتماع آخرون دراسة العوامل الأخرى دراسة كمية دقيقة (٩٠) .

٦ – وتعتبر النظرة الى علاقة الحاضر بالماضى أحد المبادئ المنهجية الهامة فى النسق النظرى لباريتو . فالتاريخ وان تغيرت مظاهره الخارجية ، إلا أن هناك ثبات مؤكد فيما يتعلق بالعناصر الجوهرية التى تدفع حركته . ومعنى ذلك أن تفسير الماضى من خلال الحاضر هو أفضل من تفسير الحاضر على ضوء الماضى ، وهو مبدأ منهجى تغفله مناهج البحث فى علم الاجتماع (٩١) . ثم يذهب الى تأكيد برهنته بتأكيده قول اقليدس Ecclesiates ( أنه لا جديد تحت الشمس ) ، فليس هناك تغيرات جوهرية فى التاريخ . ويقصد بكلمة جوهرى هنا نسبة البشر الذين يعتقدون أو مازالوا مستمرين فى الاعتقاد فيما هو لا منطقى . اذ يكتب مؤكدا برغم أنه ليست لدينا إحصاءات دقيقة لكى تحدد العدد الدقيق من هؤلاء البشر ، ومن ثم لكى تحدد مدى تغير نسبتهم الى السكان ككل ، فانه من المؤكد بقاء النسبة على ماهى . وانها لن تنخفض فى المستقبل ، حيث سيظل البشر فى اطار هذه النسبة أغبياء معيبين على الدوام . فالديانات مثلا تعتبر أشكالا متنوعة لجوهر واحد .، فالاشتراكية قد تجد مكانا لها عن طريق اعادة تجميع فلول المؤمنين بالديانة الكاثوليكية السائدة أو أصحاب النزعة القومية ، بالاضافة الى امكانية استيعاب عناصر أخر كثيرة . ومن ثم يستند التوازن الاجتماعى عند باريتو الى العواطف الدائمة والثابتة . فكل الديانات تنبثق تقريبا من ذات العاطفة . ونتيجة لذلك ،

فان انهيار أى من أشكال المجتمع لابد وأن يصحبه ظهور شكل آخر . غير أن الديانة أو المجتمع تشكل ظواهر دائمة وعامة ، طالما أنها تتجدد أبدا بذات العواطف . وبالمثل فقد يتغير ولاء البشر ، غير أن العواطف التى أدت الى خضوع الطبقة الدنيا للطبقة العليا فى الماضى تعبر عن ذاتها اليوم عن طريق تأكيد خضوع الطبقات الدنيا لقادة النقابات والاحزاب السياسية (٩٢) .

ذلك يعنى أن لدى باريتو تصورا متشائما لحركة المجتمع فى التاريخ ، وعداء كامنا للنزعة التطويرية ، أو لكل التراث الفكرى الذى يؤكد أن المجتمع سائرا أبدا الى الكمال . ذلك أن المجتمع القائم الذى نعيشه سوف لانرى غيره أو نظيره اذا نحن قد توغلنا فى الماضى السحيق أو اذا قفزنا الى الحياة فى قلب المستقبل . ذلك يعنى أن تأكيد باريتو على دوام العناصر الأساسية أو الجوهرية فى بناء المجتمع وعدم تغيرها يطرح رؤية تؤكد على الاستقرار والثبات الاجتماعى ، وهى بطبيعتها رؤية مضادة للتغير الاجتماعى . هذه الأفكار التى طرحها باريتو تعد انعكاسا مباشر لحالة عدم الاستقرار التى عايشها باريتو فى سياقه الاجتماعى .

٧ - وتعتبر العواطف أو الرواسب هى المبدأ المنهجى السابع فى البناء النظرى لباريتو . حيث نجده يذهب الى التأكيد على أن العاطفة هى القوة المسيطرة التى لها وطأتها على السلوك الاجتماعى . ومن ثم فالعقلانية والمنطق يصبحا ذوى أهمية ضئيلة فى ضوء ذلك . فعلى الانسان أن لايهتم كثيرا بالتبريرات التى قد يبديها البشر ولكن عليه أن يفحص العواطف الكامنة وراء ذلك ، حيث تلعب هذه العواطف نفس الدور الذى يلعبه الأساس الاقتصادى بالنسبة لماركس . ولكن بينما تؤدى التغيرات فى النسق الاقتصادى - عند ماركس - فى النهاية الى تغيرات فى أخلاق البشر وأبنيتهم السيكولوجية ، يعتبر الأساس العاطفى عند باريتو كيانا ثابتا ، وأن مايتغير هو التبريرات ( المشتقات ) التى تحاول تبرير تغير أو تنوع السلوك البشرى (٩٣) .

ذلك يعنى أن باريتو كان يستخدم ( العاطفة ) كمبدأ تفسيرى أساسى فى كل الحالات . وفى نطاق ذلك نجده يطرح عدة ملاحظات يرفض من خلالها ماتقدمه وجهات النظر المادية والمثالية كمبادئ تفسيرية . فهو من ناحية ينقد النظرية المثالية باعتبارها نظرية خاطئة لكونها تنظر الى الرواسب باعتبارها سببا للحقائق أو الوقائع ، وبالمثل

ينقد النظرية المادية التى تعتبر الحقائق أو الوقائع سببا للرواسب . ثم يؤكد أن الحقائق تؤكد الرواسب وتدعمها ، وبالتالى تؤكد الرواسب على الحقائق تدعمها أيضا . وتحدث التغيرات بسبب وطأة تأثير فاعلية قوى جديدة أثرت على الحقائق أو الرواسب أو كليهما معا ، أى أن ظروفا جديدة هى التى فرضت التغير فى أسلوب الحياة القائم (٩٤) .

# الفصل الخامس عشر

# النظام الاجتماعى
# ودورة الصفوة فى اطاره

## المحتويات

## مقدمة :

اذا كان توماس هوبز قد حدد مشكلة النظام تحديد تصوريا وافتراضيا ، فان التفاعلات التى عاشها فلفريدو باريتو - وقت صياغته لنظريته - تؤكد أنه لمس الأبعاد الواقعية لمشكلة النظام الاجتماعى ، حيث عايش واقعا اجتماعيا منهاراً انطلق منه فى صياغة نظريته . بيد أنه برغم اختلاف نقطة الانطلاق بين هوبز وباريتو فيما يتعلق بتحديد مشكلة النظام الاجتماعى ، فإنه تبقى أمامنا بعض التماثلات .

فمن ناحية نجد أن فلفريدو باريتو قد تصور الأساس البيلوجي للطبيعة البشرية ، والمتمثل فى الغرائز أو الرواسب باعتباره المتغير الذى يتحكم فى تحديد طبيعة المجتمع القائم . فرواسب الأسود هى التى تحدد طبيعة النظام السياسى والمجتمع ، وكذلك تفعل رواسب صفوة الثعالب . ويتسق ذلك الى حد كبير مع تأكيد هوبز فى تحديد للطبيعة البشرية ، فى أنها أقرب ماتكون الى الحالة الحيوانية ، حيث الأنسان مجموعة من الغرائز الأنانية الشرهه ، وهى التى يحاول الانسان اشباعها ، هذه الغرائز البدائية هى العناصر الكامنة وراء تأسيس النظام السياسى لتأمين استمرار اشباعها ، وإلا إنحدر الانسان الى حرب الكل ضد الكل ، وواجه احتمالية الحرمان من الاشباع .

ويشكل الإيمان بدور الصفوة فى السيطرة على المجتمع وضبطه بغض النظر عن مشاركة الجماهير من القضايا العامة التى تشكل نطاق تماثل بين كلا المفكرين . فمن خلال العقد الاجتماعى يتخلى البشر أطراف التعاقد على حقهم فى حكم أنفسهم لهذا الرجل أو هؤلاء الرجال ، لكى يتولون حكمهم بما يضمن استقرار المجتمع . وهى نفس الصيغة التى نجدها عند باريتو ، حيث التاريخ تصنعه الصفوات المتعاقبة دون أن يكون للجماهير دور فى تشكيل التاريخ . وهو الأمر الذى يعنى اتجاها للايمان بالسلطة القاهرة والضابطة والقادرة على تأكيد تماسك المجتمع ووحدته واستمراره من قبل كلا المفكرين .

ان هناك تماثلا واضحا بين توماس هوبز وفلفريدو باريتو يتعلق بالقضية الخاصة بالأسبقية أو الأولوية بين الفرد والمجتمع . حيث نجد أن توماس هوبز يؤكد على أسبقية الفرد على المجتمع . فالأفراد قد وجدوا منعزلين فى حالة الطبيعة لايعرفون أية معانى أخلاقية الى أن قادتهم تهديدات حالة حرب الكل ضد الكل ، واحتمالات التأثير على تحقيق إشباع الحاجات الأساسية الى الاتفاق على تأسيس القواعد الأخلاقية المؤسسة للمجتمع ، من خلال صيغة العقد الاجتماعى . إتساقا مع ذلك نجد أن فلفريدو باريتو يؤكد على الرواسب الكامنة فى

أعماق الذات الفردية – وهى ذات طبيعة بيلوجية – باعتبارها التى تؤسس المشتقات أو المعانى الأخلاقية التى بناءً عليها تتولى الصفوة الحاكمة صياغة المجتمع . وحسب طبيعة الرواسب ، تتحدد الأخلاق ، وتتحدد طبيعة المجتمع .

وذلك يوحى بأننا أمام تشخيص متماثل لمشكلة النظام الاجتماعى ، وأسلوب متماثل لحل هذه المشكلة . الخلاف الأساسى بين كليهما أن توماس هوبز أدرك المشكلة ادراكا افتراضيا وقدم لها حلا افتراضيا . أما عند باريتو فقد كانت مشكلة النظام الاجتمعى لها وجودها الواقعى ، ومن ثم فالتشخيص الذى قد مه باريتو تميز بالواقعية كذلك ، وهو التصور الذى نعرض له فى الصفحات التالية :

## أولا : النظام الاجتماعى ، مشكلاته التحليلية والتاريخية .

ككل الأنساق النظرية فى هذه المرحلة أهتم باريتو بقضية النظام الاجتماعى ولو على طريقته الخاصة . ولقد دفع باريتو الى الاهتمام بهذه القضية نوعين من القضايا أو المشكلات . الأولى مايمكن أن نسميها بالمشكلات التاريخية ، ونقصد بها مجموعة التفاعلات التى خلقت مجموعة من العوامل التى ساعدت على انهيار النظام الاجتماعى فى المرحلة التاريخية التى عايشها باريتو ، وهو مايعنى بداية الاهتمام بقضية النظام الاجتماعى ، وماهى أفضل الظروف ملائمة لاستمرار النظام الاجتماعى بالحيوية المطلوبة . وتتمثل المجموعة الثانية فى المشكلات التحليلية ، وهى مجموعة المشكلات أو القضايا التى ينتفى عنه الطابع الواقعى ، والتى يكمن مصدرها فى التصورات التحليلية والنظرية للمفكر أساسا ، كتلك التصورات التى تتعلق بالطبيعة الانسانية ، أو التى تتصل بتوزيع الفرص فى المجتمع ، أو الخاصة باستمرارية الصفوة فى السلطة ، أو انهيارها لتحل صفوة جديدة فى اطار مايعرف بدورة الصفوة .

وفيما يتعلق بمجموعة المشكلات التاريخية نجد أن الواقع التاريخى لإيطاليا قد عانى من مشكلات عديدة خلال هذه المرحلة .

١ – وتتمثل أولى هذه المشكلات فى حالة اليأس العامة التى انتابت النظام الاجتماعى خلال هذه المرحلة . ففى ١٨٧١ حينما أصبحت روما عاصمة أيطاليا الموحدة كان ذلك يعنى أن الصراع الطويل من أجل التحرير والوحدة الإيطالية قد بلغ غايته . وبرغم انتشار حالة من الإبتهاج العامة فى إيطاليا ، فانه كانت هناك حالة من اليأس أيضا ، أو لنقل حالة من الحزن على انتهاء مرحلة ممتعة ومنعشة فى التاريخ الإيطالى . وقد صور بنديتو كروس Benedetto Croce بصورة دقيقة روح هذه المرحلة حينما كتب .

( تعنى نهاية كل فترات التاريخ موت شئ ما ، وبرغم أن هذه النهاية عادة ماتكون مرغوبة ويسعى الجميع من أجلها .. فككل موت نجدها عادة ماتكون مغلفة بمناخ من الأسى والحزن . فلم تعد هناك نضالات شابة الآن ، ولاسعيا متشوقا من أجل المثل الجديدة ، والبعيدة عن التحقيق . لم تعد هناك أحلام لا حدود لها المحيطات ، تشع بالخيال والجمال . لم تعد هناك أمال مرتعشة كتلك التى كانت فى السنوات ١٨٤٨ ، ١٨٩٥ . لم يعد هناك تسابقا كريما ، ولا اعلانا لأفكار البشر من أجل الاتحاد لهدف مشترك . لم تعد هناك تفاهمات أو اتفاقات ضمنية أو صريحة بين الجمهوريين والملكيين ، أو بين الكاثوليك والمفكرين الأحرار ، أو بين الوزراء والثوار ، أو حتى بين الملك والمتآمرون ، حيث تتشابه مواقف الجميع من حيث خضوعهم لسيطرة مشاعر التضحية من أجل هدف وطنى يشكل مصدرا لالهامهم ) (٩٥) .

فقد انتهت الآن الصحوة والاثارة الوطنية . وأصبح على الإيطاليين أن يكيفوا أنفسهم ومتطلبات الحياة السياسية العادية ... فتوحيد إيطاليا وهو الهدف الذى سعت اليه أجيال ايطالية وطنية عديدة أصبح الآن حقيقة مؤكدة (٩٦) . وحسبما تؤكد الحقائق السوسيولوجية فان غياب التهديد الخارجي ، قد يدفع فى ظروف معينة الى ظهور الانشقاقات الداخلية ، وعادة ماتكون نطاق الانشقاق هى مواطن الضعف فى البناء الاجتماعى ، وهى هنا الحد الفاصل بين الشمال والجنوب .

٢ – أنه منذ أصبحت الوحدة الإيطالية حقيقة مؤكدة ، أصبح واضحا أنه تحت سطح هذا الاتحاد الادارى توجد اختلافات عميقة وهائلة بين الشمال والجنوب . فالشمال – سواء فى بيد مونت Piedmont فى ظل حكم عائلة سافوى Savoy أو لمباردو فينيتا Lom-bardo Venetia فى ظل الادارة النمساوية كان متطورا اقتصاديا ، ومدارا بصورة جيدة ، وعلى طريق التحديث الاقتصادى والسياسى . غير أن الأحوال كانت مختلفة تماما فى الجنوب . فقد كان الجنوب على هامش الحضارة الأوربية الحديثة . فقد تم استغلال معظم الجنوب ، وبخاصة مملكة صقلية والولايات البابوية بقسوة من قبل الحكام . وكان الشعب يعيش فى حالة فقر وانحلال لايوصف . فقد كان الجنوب الى حد ما زراعيا ، والى حد كبير كان الفلاحين الجنوبيين أميين . ففى سنة ١٩١٨ تراوحت نسبة الأمية بين ٥٠٪ ، ٧٠٪ وذلك فى مقابل ١١٪ كنسبة للأمية فى مقاطعة بيد مونت .

اذا فبرغم الاتحاد الظاهرى ، فان الشمال والجنوب شكلا أمتين متباينتين من الناحية البنائية كل منها غريب على الآخر .

وقد حاولت جماعات اليمين التى كان عليها أن تقود إيطاليا عدة سنوات بعد التوحيد أن تؤسس سياسة يمكن تسميتها بسياسة تطوير إيطاليا على غرار بيد مونت Piedmontization of Italy . فقد رغب اليمين أن يفرض على كل المجتمع سياسة تنموية محددة نجحت فى الشمال ، ورأى أن يكون من شأن هذه السياسة أن تفرض استمرار الفكر الليبرالى لكافور Cavour الذى حول بيد مونت الى ولاية حديثة وذات حكم جيد وقوى . ولذلك فرض اليمين ضرائب ثقيلة على المواطنين وأسس بناء اداريا مركزيا ، وشجعت الحرية التجارية ، وظهر هناك سعى لتأسيس توازن فى الميزانية ، وسعى الجناح اليمين الى ابتاع سياسة خارجية تتسم بالحذر ، وقد تشكلت الحكومة التى قادت التطور فى هذا الاطار من صفوة متنورة تضم مجموعة من المتخصصين ذوى الامكانيات العقلية العالية ، والذين ينتمون الى الطبقة الوسطى ، هذه الصفوة كانت تضم أشخاصا ينتمون الى توسكا ، لمباردو أساسا ، وقد كانت بطبيعتها صفوة من الصعب أن تخفى ادانتها لتخلف الجنوب (٩٧) . وقد كان من الطبيعى أن تقود السياسات التى حاولت الصفوة الليبرالية انجازها الى تخلق توترات ورفض فى مقاطعات الجنوب ، هذه التوترات كان من الممكن أن تشكل مناخا ملائما لآية صفوات أخرى تحاول قيادة الجنوب نحو وضع يتمكن فيه من اشباع احتياجاته الاجتماعية والثقافية ، ونقيضا لمطلبات الصفوة السابقة من أجل التحديث .

٣ - شكل حكم اليسار لإيطاليا بعد التوحيد أحد المشكلات البنائية فيما بعد التوحيد . ففى مارس ١٨٧٦ كان على حكم اليمين أن يواجه نهايته بعد هزيمة السياسية فى البرلمان . ومن ثم بدأ ديبريتس ، الزعيم اليسارى ، تنظمي ادارة يسارية تامة . ولكى يؤمن سيطرة اليسار على السلطة ، أجرى انتخابات جديدة . وبرغم انخفاض المعايير الإيطالية فى مثل هذه الموضوعات فقد اشتهرت هذه الانتخابات بالتهديدات الحكومية والممارسات الفاسدة . حيث هدد حكام الأقاليم وتم ارهابهم أو رشوتهم لكى يصبحوا مساعدين للحكومة فى الانتخابات . وقد وعدت المقاطعات الموالية للحكومة بالخدمات الكثيرة كمكاتب البريد ، والمدارس ، وبعض المرافق العامة . أما المقاطعات غير الموالية ، فقد هددت بخفض الخدمات القائمة لديها ، اذا هى لم تسع الى مناصرة سياسات الحكومة

، ونتيجة لذلك حقق اليسار كل النتائج التى كان يرغبها ، حيث حصل على نحو ٤٠٨ مقعدا من مقاعد البرلمان فى مقابل تسعين مقعدا حصل عليها اليمين .

ولايمكن أن ننسب نجاح اليسار الى الفساد السياسى فقط ، ولكن كان هناك ظرف تخلق نتيجة لسياسات اليمين التى فرضت المعاناة ، فقد ظهر تعب عام من مثالية اليمين المجزدة ، وأيضا من سياساته وتنظيماته الصارمة . حيث احتاج دافعوا الضرائب الى اجراء اصلاحات من أجل الضرائب الثقيلة التى كان من الصعب تحملها ، هذا الى جانب أنه ظهرت هناك حاجة الى نوع من الأمن العام . وقد احتاج البشر فى الجنوب - والذين صوت غالبيتهم لصالح اليسار - الى المساعدة التنموية بالنسبة للجنوبيين وساد اعتقاد عند كل شخص بأن حكم اليسار سوف يجلب معه الرخاء والتقدم (٩٨) .

غير أنه واضحا أن حكم اليسار ، على العكس من ذلك تماما ، مماثل لحكم اليمين ، وليس أفضل منه . فالفساد أصبح منتشرا الآن فى كل مكان حتى أضحى فنا له تقاليده ووسائله . وقد كان ديبريتس ومن جاء بعده غارقين فى التحكم فى وسائل القوة ، غير أنهم كانوا عاجزين تماما عن تأسيس مجموعة من الاطلاحات تدعو الحاجة الماسة اليها . وقد وعدت الحكومة باصلاحات كيرة غير أنها لم تنجز سوي القليل . بل ان بناء الحزب أصبح ضعيفا ، وانشق عليه كثير من السياسيين فى البرلمان ، وساوموا الحزب على اعلان قوتهم السياسية وتجاوزه . ولم يجد اليسار أية اعتراضات لتوسيع عدد الناخبين . ومن ثم فقد وسعت قاعدة المنتخبين ليضم نحو٧٪ من السكان فى ١٨٨٢ . غير أن توسيع حق الانتخاب كان من الصعب أن يعنى مزيدا من المشاركة الشعبية فى الحكومة . ولكن كان يعنى فقط مزيدا من التحكم ، وأيضا مزيدا من المساوات السياسية الفاسدة . وكنتيجة لذلك ظهرت حالة من عدم الثقة التقليدية فى الدولة ، وبخاصة من قبل سكان الجنوب ، وتزايد هذا الاحساس مع الزمن وتراكم الفساد . وبدأ معظم السكان ينظرون الى الدولة باعتبارها جهازا هائلا يمتص ثروات البشر من خلال فرض الضرائب المتزايدة التى تنساب فى خزائن الصفوة الفاسدة .

٤ - ويعتبر فرض النظام العام ولو بالقهر هو المجال الوحيد التى نجحت فى اطاره الحكومات المتعاقبة . فحينما ثارت اضطرابات الفلاحين فى ١٨٩٤ غى صقلية ، تولى كويسبى القضاء عليها بلا رحمة بمساعدة العكسريين . وفى السنة التالية صدرت القوانين التى قضت على التنظيمات الاشتراكية والفوضوية . والتى قضت أيضا على

حرية الاجتماع والتعبير . وحينما انفجرت اضطرابات الخبز في عام ١٨٩٨ في أجزاء عديدة من المجتمع ، ووصلت الى حد الصراع الصريح في ميلانو في شهر مايو من نفس العام ، أصدر الحاكم الذى خلف كريسبى القانون المدنى ، والذى قتل نتيجة لتطبيق أحكامه ٤٠٠ شخص وجرح أكثر من ذلك قبل أن تستعاد الأوضاع العادية . وفى هذه المرحلة صدرت أحكام قاسية من المحكمة المدنية ، خاصة ضد الاشتراكيين . بحيث دفعت الكثير منهم الى الفرار الى سويسرا أو أية أمكنة أخرى يمكن اللجوء اليها (٩٩) .

٥ - وتعتبر الفضائح المالية التى وقعت خلال هذه المرحلة من المؤشرات التى شهدت على حالة من الانهيار البنائى . ففى ١٨٩٤ مرت إيطاليا بأزمة اقتصادية أقدم بسببها جوالتى Giolitti مدير بنك روما على تعيين تانلونجو Tanlongo سيناتور ، غير أن مجلس الشيوخ رفض هذا التعيين وقام ببحث فى أحوال تانلونجو وعدد آخر من السياسيين المرموقين والشخصيات العامة كشف أن تانلونجو قد أصدر مبلغا مزدوجا من أوراق البنكنوت . وكان الوزراء السابقون على وعى بذلك ، بحيث دفعت هذه الأوضاع البعض الى الشعور بالأسى . وفى ظل حكمه تم توسيع حق الانتخاب . ولكن ككل التعديلات الانتخابية السابقة ، لم يكن ذلك يعنى أية زيادة حقيقية فى المشاركة ، ولكنه كان يعنى فرصة لجوالتى لكى يمارس مهاراته فى لعبة الانتخابات هذه .

٦ - يضاف على ذلك تردى الظروف الاجتماعية والاقتصادية فى ايطاليا خلال هذه المرحلة . فبرغم الفساد وسوء الحكم ، حققت إيطاليا انجازات اقتصادية فى نصف قرن قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى . فقد طورت صناعة قوية للنسيج . وبدأت ميلانو تحل محل ليون باعتبارها مركزا لنسج الحرير . وحلت ميناء جنوا تدريجيا محل مرسيليا . وتأسست شبكة من الخطوط الجديدة اتسعت حتى غطت ايطاليا . غير أننا اذا نظرنا اليها من خلال النمو الصناعى الشامل لأوربا ، فاننا نجد أن إيطاليا ظلت مختلفة بالمقارنة . فمثلا بلغ متوسط نصيب الفرد من الدخل القومى فى التسعينات نحو ٤٠ دولار ،، فى حين بلغ هذا المتوسط بالنسبة لبريطانيا نحو ١٥٥ دولار ، وفرنسا نحو ١٣٠ دولار . وقد بلغت صادرات ايطاليا فى مطلع القرن أقل كثيرا من صادرات بلجيكا . وبرغم كل الحديث عن التنمية ، فان الفجوة بين الشمال والجنوب استمرت فى الاتساع اذ استمر الفلاحون يعيشون فى مناطق الجنوب فى حالة من البؤس الكامل . وقد تأجل الاصلاح الزراعى وهو الاجراء الذى كان الجنوب يحتاجه مرة تلو اخرى ، وذلك لأنه لم

يكن هناك أحد من السياسيين يجرؤ على مهاجمة امتيازات سادة الأرض الذين كانت لهم السيطرة السياسية والاقتصادية فى المناطق الزراعية ، فكيف يمكن أن ينجحوا فى الانتخابات بدون أن يدافعوا عن مصالح سادة الأرض ؟ . ويرتبط بذلك أنه صدر قانون التعليم الالزامى الاجبارى فى ١٨٧٧ ولكن نادرا مانفذ هذا الالزام . وقد قدر البرلمان التكاليف المطلوبة غير أن خوف كبار الملاك من إفتقاد قوة العمل الرخيصة بسبب التعليم الالزامى للأطفال القادرين على العمل ، هذا الى جانب خوف البرلمان من الناخب المتعلم الذى قد يصعب عليه أن يوافق على الأساليب العتيقة للسيطرة والتحكم فى الانتخابات . كل ذلك دفع الى عدم تنفيذ التعليم الالزامى . وان كان قد بذل جهد خلال هذه المرحلة لتحسين نظام الضرائب القاسى وغير العادل ، الذى كان يعمل على دعم الجهاز الادراى لإيطاليا ، وهو الجهاز الذى أصابه الغرور - من فرط قوة تحكمه - خلال هذه المرحلة (١٠٠) .

٧ - الى جانب ذلك غياب نظام قيمى متماسك يضم كلا من الشكال والجنوب فى وحدة واحدة ، هذا الى جانب غياب مجموعة القيم الأساسية التى تضم مجموعة الطبقات فى اطار حالة من الوحدة الثقافية والاجتماعية . هذا الى جانب أن غياب هذه الوحدة الثقافية عادة مايجعل السلوكيات الواقعية خالية من التوجه بآية مثاليات قيمية فعالة . ففترة الصراع السابق الذى قاد الى الوحدة الإيطالية كان من المنطقى أن تتواجد فى ظل بناء قيمى متماسك يوجه النضال ويقوده . وهو البناء القيمى الذى لم يعد موجودا فى الفترة اللاحقة على توحيد إيطاليا . ومن ثم تراجع التفاعل الاجتماعى عن السعى وراء تحقيق أهداف أو مصالح عامة الى محاولة تحقيق مصالح فردية ، وهو المناخ الذى ازدهر فى اطاره الفساد الى حد كبير .

٨ - بالاضافة الى ماسبق هناك عامل خارجى تعرض له المجتمع الإيطالى ، فعمق لديه مشكلة النظام الاجتماعى . إذ حاول بعض حكام ايطاليا خلال هذه المرحلة الدخول فى صراعات خارجية علها تؤسس الوحدة الداخلية للمجتمع الايطالى . فمثلا حاول كريسبى لكى يتجنب ضغوط التوترات المحلية أن يتبع سياسة استعمارية ذات طبيعة توسعية فى العالم الخارجى . وقد قاد ذلك الى الدخول فى حرب مهلكة مع أثيوبيا ، وهى الحرب التى أوصلتها الى معركة أدوء Adua ، حيث هزم نحو ٢٥,٠٠٠ ايطاليا مسلحا تسليحا حديثا بواسطة ١٠٠,٠٠٠ أثيوبى مسلحين تسليحا بدائيا تحت قيادة مينيليك Mene-

leg ، ثم الوصول الى معاهدة أديس أبابا حيث سلمت ايطاليا فى اطارها ، باستقلال أثيوبيا ، وانسحبت الى مستعمرة اريتريا Eritrea الصغيرة . ذلك يعنى أن المخططات الاستعمارية لايطاليا واجهت نفس التفاعلات التى من شأنها أن تعمق اشكالية النظام الاجتماعى وتزيد من انهياره .

أما المجموعة الثانية من المشكلات فهى ذات طابع تحليلى ، وهى تختلف عن مجموعة المشكلات التاريخية فى أنه ليس لها وجود واقعى داخل الزمان والمكان ، وان كان لها وجودها فى الطبيعة الأساسية للفرد أو المجتمع ، ومن ثم فعادة مايكون لها آثاره الاجتماعية والبنائية .

١ - وتتعلق الحقيقة التحليلية الأولى بطبيعة تصور الفكر الايطالى - بما فيه الأفكار الباريتوية - للطبيعة الانسانية . فالقليل من افكر الايطالى هو الذى حاول تناول سلوك الانسان بالنظر الى القوى الاجتماعية الموضوعية . وباستثناء الفيلسوف والمشرع جيوفانى فيكو Glovanni Vico نجد أن الفكر الايطالى لم يتصور الى حد كبير فكرة المجتمع كحقيقج موضوعية له قوانينه الخاصة به . وتتمثل نقطة بدء الفكر الايطالى الاجتماعى منذ ميكيافيلى فى تصور الانسان غير المنشأ اجتماعيا والذي يشارك فى نسيج العلاقات الاجتماعية ومن خلال هذه المشاركة تتولى النظم الاجتماعية تطبيعه وتشكيله ، هذا بالاضافة الى أخذ العناصر الأساسية المشكلة لطبيعته فى الاعتبار . ويشعر المفكرون الايطاليون بأن البشر لديهم بعض الخصائص الثابتة وأن على المفكر الاجتماعى أن يهتم أساسا بتوضيح وفحص الطبيعة الانسانية وذلك لكى يتعرف على أسلوب تأثيرها فى السلوك الاجتماعى فى ظل ظروف اجتماعية مختلفة . فقد أكد ميكيافيلى فى كتابه الأمير The Prince أن البشر كائنات عاقة Ungrateful ، وأنهم متقلبون Fickle كذابون Lying ، منافقون Hypocritical ، جبناء وشرهون . ومن ثم ينبغى أن يأخذ المنظرون الاجتماعيون هذه السمات البشرية فى الاعتبار . مثلما ينبغى أن يكون المهندس على وعى بالمواد التى يحاول بها بناء قنطرة . فالمعرفة الرشيدة - بالنسبة لميكيافيلى ومن جاء بعده - لاتسعى من أجل اكتشاف القوانين الاجتماعية التى تنظم الاستقرار والتغير ، وانما ينبغى أن تهدف أساسا الى تحليل طبيعة المادة التى تدخل فى بناء الكل الاجماعى . وفضلا عن ذلك . فينبغى أن لا ننظر الى النظام الاجتماعى باعتباره يظهر تلقائيا كنتيجة لفاعلية القوانين داخل الكيان الاجتماعى . ذلك يعنى أن السلطة الى قد يمتلكها بعض البشر على آخرين ، أو قدرة بعض البشر على

فرض ارادتهم على الآخرين ، تعتبر عنصرا أساسيا فى الفكر الايطالى الاجتماعى ابتداء من ميكيافيلى وحتى باريتو .

ذلك يعنى أن ادراك باريتو – والفكر الايطالى – للطبيعة الانسانية يعتبر ادراكا مشكلا ، يسير حسب ذات خطوط الفكر النفعى . ومن ثم فهو يؤسس بذلك برهنة منطقية تؤكد على ضرورة قيام نظام اجتماعى يتكامل وهذه الطبيعة البشرية . وهو فى ذلك يعكس أفكارا قريبة للغاية من الأفكار التى طرحها توماس هوبز فيما يتعلق بالطبيعة البشرية .

غير أنه فيما يتعلق بالنظام الاجتماعى والسياسى فاننا نجد أن الفكر الايطالى يصوغ مفارقة هامة عجز عنها الفكر النفعى على يد توماس هوبز ، وهى المفارقة بين الدولة والمجتمع . حيث كان الفكر الايطالى مهتم أساسا بالدولة وليس المجتمع . اذ أصبح ينظر الى النظام الاجتماعى باعتباره ملحقا بالدولة ، أو باعتباره المجال الذى يناضل فيه الأفراد والمجموعات من أجل السيطرة وتملك سلطة الدولة . فالقائم بالتحليل الاجتماعى من وجهة نظر التفكير الميكيافيلى ينبغى أن يمارس نوعا من التحليل الشكلى الدقيق بهدف التعمق فى الجذور العميقة للطبيعة البشرية . فاذا امتلك الباحث هذه المقدرة فانه سوف يكون بامكانه اقتراح الأساليب التى يمكن أن يتعلم بواسطتها الأفراد الأقوياء ذوى القدرات الاستثنائية كيفية الاستفادة من جهود البشر فى بناء جهاز الدولة القوى ، وهو الجهاز الذى سوف يكون بامكانه السيطرة على الاستعدادات الفردية الصارمة التراث . وهو مايعنى أن التكامل الاجتماعى يتم فرضه من الخارج بواسطة أمير أو بواسطة صفوة طبقية Class - Scelta . فهى التى يكون فى مقدورها تأسيس البناء الاجتماعى حسب قواعد تتطابق ومعرفتها الامبيريقية بالطبيعة البشرية ، وأيضا عن طريق فرض ارادتها على الجماهير المتمردة (١٠٢) .

٣ – وتتصل الحقيقة التحليلية الثالثة بطبيعة التغيرات التى تطرأ على بناد استعدادات أو اهتمامات الصفوة . حيث يرى أن الخطر يحدث حينما تكون المراكز التى ينبغى أن يحتلها بشر لديهم امكانيات حقيقية ، محتله بواسطة أفراد لايمتلكون أيا من هذه الملكات ( ففى البداية تعتبر الارستقراطيات العسكرية والدينية والتجارية أجزاء مكونة للصفوة الحاكمة ، بل أنها قد تشكل كل كيان الصفوة فى بعض الأحيان . حيث يعتبر المحارب المنتصر ، والتاجر الثرى ، وصاحب النفوذ بشرا يشكلون هذا العناصر . فذلك هو

مجالهم الذى يسمو أو يتجاوز الانسان العادى ) . وفى اطار هذه الظروف فان كلمة الصفوة تتصل عادة بالقدرة الحقيقية . ولكن مع مرور الزمن تحدث مفارقة بين القدرة ، وبين مفهوم ( الصفوة ) ذاته ، فالارستقراطية لاتدوم . ذلك أن التاريخ هو مقبرة الطبقات أو الصفوات الأرستقراطية . ولايحدث الانهيار فى العدد فقط ، ولكنه يحدث فى الكيف أيضا . وذلك بالمعنى الذى تكون فيه الصفوة قد فقدت عناصرها الجوهرية . وهو مايعنى أن هناك انهيار فى معدلات الرواسب التى تمكنها من كسب قوتها والتمسك بها . غير أنه يمكن للطبقة الحاكمة أن تستعيد أوضاعها من حيث العدد ، أو من حيث الكيف . ذلك عن طريق تعويض نفسها من الأسر التى ترتفع اليها من الطبقات الدنيا ، وأثناء صعودهم فإنهم يأخذون معهم نسبة من الرواسب الضرورية التى تساعدهم على الاحتفاظ بالسلطة . ويعتبر تراكم العناصر أو الرواسب المتفوقة فى الطبقات الدنيا ، أو تراكم العناصر أو الرواسب المتدنية فى الطبقات العليا أحد الأسباب الرئيسية وراء اهتزاز التوازن فى المجتمع (١٠٣) .

وحينما تحاول الصفوات الحاكمة أو غير الحاكمة الاقتراب من تدفق العناصر الجديدة والأكثر قدرة من البشر المكونين للمجتمع ، أو حينما تعاق درة الصفوات فان التوازن الاجتماعى يهتز وينهار النظام الاجتماعى . ويؤكد باريتو أنه اذا لم تعثر الصفوة الحاكمة على الأساليب التى تستوعب بواسطتها الأفراد ذوى القدرات الاستثنائية الذين يحتلوا مقدمة الطبقات المحكومة فان نوعا من عدم الاتزان الذى يخلق فى الكيان السياسى والاجتماعى يحدث اذا لم تصحح الشروط أو الظروف ، أما من خلال فتح قنوات جديدة للحراك أو من خلال الاطاحة بالصفوة الحاكمة والمؤثرة بواسطة صفوة جديدة قادرة على الحكم والسيطرة (١٠٤) .

٤ - ذلك ينقلنا الى قضية القوة Power باعتبارها قضية تحليلية تحتل مكانة هامة فى نظرية باريتو . فمنذ البداية تجد أن باريتو يركز كثيرا على عدم تلاؤم المصالح بين البشر فى المجتمع . وفى هذا الصدد نجده يقدر كثيرا موقف كارل ماركس باعتباره قد ركز على هذا العامل فى بنائه النظرى . ذلك يعنى أن باريتو أكد كثيرا على دور القوة والاغتيال فى الحياة الاجتماعية . وهو رأى يشارك فيه كلا من ميكيافيلى وهوبز . وهى الآراء التى تختلف بالتأكيد عن وجهة نظر الفرد مارشال فى هذا الصدد (١٠٥) .

ويحاول باريتو أن يعرض تحليليا لسياق استخدام القوة فى المجتمع فيؤكد أنه فى

أى مجتمع ينبغى أن يوجد ميكانيزما معينا يتم بالنظر اليه الفصل فى الادعاءات المتباينة للأفراد فى سعيهم الى السيطرة على الموارد غير البشرية المحدودة . وهناك طريقين بديلين للعملية التى يمكن أن يحدث بها تكييف هذه الادعاءات المتباينة ، فاما أن يحدث اتفاق كنتيجة لأن كل فريق يحاول تحقيق أهدافه فى ظل الظروف القائمة ، أو أنه قد يفرض مبدأ ما من خارج العملية التنافسية ذاتها ، والذى يكون من نتيجة الوصول الى موقف مستقر نسبيا . غير أن هؤلاء الذين قد يؤيدون الحل الأول قد يواجهون مشكلة أن هذا الحل لايوضح التحديد الذى قد يفرض على الوسائل التى يستخدمها فرد أو جماعة بهدف احكام سيطرتها على المصادر على حساب الادعاءات التى قد يطرحها أفراد أو جماعات أخرى . حيث أنه فى حالة غياب مثل هذا التحديد فانه لايكون ثمة عائق أمام الاستخدام الشامل من قبل كل طبقة للوسائل التى يمكن أن تكون ذات فعالية قهرية .

والى المدى الذى يسيطر فيه فرد أو جماعة على عناصر الموقف الذى يسلك فيه الآخر ، بالقدر الذى يؤثر فيه على تحقيق هذا الآخر لأهدافه . فانه يكون بامكانه استخدام هذه السيطرة كطريقة للتأثير على موقف هذا الآخر . على سبيل المثال أن يهدد بتغير طبيعة الموقف ، بما لايساعد الآخر على تحقيق أهدافه . وهو بذلك يجعل من المفيد بالنسبة للآخر أن يفعل مايريد ، وذلك لكى يتجنب التغيرات التى تهدد تحقيقه لأهدافه . وقد اتضح فى الأدب الكلاسيكى لهوبز ان هذا الاستخدام المحدد للقهر قد يؤدى الى الصراع الصريح الذى قد يدفع فى حالة غياب القوى ذات الطبيعة القهرية الى انحدار المجتمع الى حالة ( حرب الكل ضد الكل ) أعنى حكم القوة والاغتيال . وعلى هذا الأساس ، فطالما ان غايات الفعل أو السلوك هى عوامل ذات طبيعة واقعية فانه ينبغى أن تكون هناك سيطرة ما على ممارسة البعض للقوة القهرية على الآخرين اذا كان من الضرورى أن يكون هناك نظاما اجتماعيا (١٠٦) .

بالنظر الى هذا الموقف يضع باريتو حلا لمسألة استخدام القوة لترسيخ النظام الاجتماعى . فهو يؤكد أنه اذا كان هناك مجتمعا تصبح فيه الطبقة الحاكمة (أ) - لاعتبارات انسانية أو أية اعتبارات أخرى - عاجزة أو غير قادرة على استخدام القوة ، فانها فى هذه الحالة تهرب من واجبها كطبقة حاكمة . ويكون المجتمع فى هذه الحالة على طريق انهياره حينئذ فاننا نجد أن الطبقة المحكومة (ب) تحاول تطبيق

استـخـدام القـوة على أوسع مـدى ممكن . ولتـحـقيق ذلك فـهى لاتطيح فـقط بالطبـقـة الحاكـمـة ، ولكنها تقتل عددا كبيرا من أعضاءها . فاذا فعلت ذلك ، فـانها بذلك تؤدى خدمة اجتماعية وانسانية عامة ، أشبه ماتكون بتخليص المجتمع من نفايات حيوانية . وبسبب ذلك فـان النسيج الاجتمـاعى يكتسب استقرارا وقوة ، ويتم انقـاذ المجتمع من الدمـار ، أو يعـاد ولادته من أجل حـيـاة جـديدة . ومـرة أخـرى يعـتـبـر الاغـتـيـال والنهب مؤشـرات خـارجية على قدوم بشـر أقوياء وشجعـان الى الأماكن التى كـان يحتلها فيما مضى الضعفاء غير الأقوياء .

وفى تعليقه على الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ نجده يذهب الى أنه لو توفر لدى الطبقة الحاكمة ايمان يشـير عليـها باسـتـخدام القـوة أو ارادة اسـتـخـدام القـوة ، فـانـه كـان من المستحيل الاطاحة بها . أى أنه اذا تمكنت الطبقة الحاكمة من الحفاظ على امتيازها ، فـانهـا تكون قـد تمكنت من الحـفـاظ على فـرنسـا . ومع ذلك ، فـبـسـبب فـشلهـا فى أداء وظيفـتـهـا فـانـه من الأفـضل أن تتـخلى عن السلطة التى قـد يدهـا الى أشـخـاص لديهم امكانية اللجوء الى استخدام القوة (١٠٧) .

ذلك يعنى أن النظام الاجتـمـاعى لدى فلفريدو باريتـو يعـانى من مـشكلة بنائيـة لهـا عواملها التاريخية والتحليلية ، وهى العوامل التى نوجزهـا فيما يلى :

١ – فبالنسبة للعوامل التاريخية نجد العوامل التالية :

(أ) هناك الانقسام البنائى بين الشمال والجنوب ، فبرغم التوحيد السياسى مازال هناك نظاما اجتماعيا متباينا أو لايسوده التجانس .

(ب) ضـعف الصفوة الحاكمة ، سواء صـفوة اليمين أو اليسار . الأولى فرضت المعاناه فى مواجهة التخلف ، والثانية غرست الفساد طلبا لأحلام التقدم .

(ج) أن النظام الاجتماعى من الضـعف بحيث نجد أن الأحداث الخـارجية عمقت ضـعفه وانهـيـاره ( الحـرب مع أثيـوبيـا ) ولم تدعم تمـاسكه على مـا تؤكـد القـوانين السوسيولوجية .

(د) انتشار الفساد الاقتصادى والاجتماعى كنتيجة لغياب التوجيه الأيديولوجى والثقافى الملائم ، بسبب عدم صـلاحية أيديولوجيا وقيم ماقبل التوحيد ، أو عدم صـلاحيتها لقيادة تفاعلات مابعد التوحيد .

٢ – هذه المشكلة لها أيضا الأسباب التحليلية التالية :

(أ) أولها ، الطبيعة البشرية الشريرة للانسان الفرد مما يفرض استخدام القوة لفرض اتباع السلوك الاجتماعى الذى ينبغى أن يكون .

(ب) ضعف رواسب القوة والسيطرة عند الصفوة الحاكمة ، مما قد يفرض تجاوزها بصفوة أخرى تمتلك رواسب قوية للسيطرة والضبط .

(ج) أن هناك تناقض فى مصالح الجماعات وأن الطريقة لحل هذا التناقض يكون من خلال حل مفروض من الخارج بواسطة صفوة قوية ، تدافع عن مصالحها باعتبارها مصالح المجتمع .

بذلك نجد أن فلفريدو باريتو وان أكد على وجود مشكلة يعانيها النظام الاجتماعى الذى يفتقد الى الاستقرار والتوازن ، فانه يرى أن الحل الوحيد لفرض النظام والتوازن يتمثل فى أن تتولى السيطرة على المجتمع صفوة قوية تفرض الاستقرار بالقوة ، وتكتسب شرعيتها السياسية والاجتماعية ، ليس من المجتمع أو المصلحة الاجتماعية ولكن من خلال قوتها وامكانياتها على استخدام القوة لقهر الأخرين واخضاعهم .

**ثانيا : الرواسب ، كقوى دافعة للاستقرار والتغير .**

اذا اتفقنا على أن ثمة مشكلة للنظام الاجتماعى كما عرضنا فى الفقرة السابقة ، فانه من المنطقى أن يحدد باريتو المتغيرات الأساسية التى تتحكم فى التفاعل الاجتماعى . ومن ثم فأى اعاقة لهذه المتغيرات يعنى تخليقا لمشكلة نظامية ، وأن اباحة المجال لفاعليتها يعنى انتفاء امكانية قيام مشكلة نظامية أساسا .

ومثلما ذهب كارل ماركس الى التأكيد على وسائل الانتاج أو البناء التحتى باعتباره المتغير الحاكم للتفاعل الاجتماعى . أو مثلما ذهب فيبر الى التأكيد على القيم البروتستنتية باعتبارها المبدأ الذى يستند اليه قيام النظام الاجتماعى ، أو حسبما يذهب دوركيم الى القول بأن تقسيم العمل الاجتماعى هو مصدر مشكلة النظام الاجتماعى وهو طريق حلها أيضا ، فاننا نجد أن باريتو يرى أن الرواسب هى المبادئ الأساسية أو المتغيرات الحاكمة للتفاعل فى اطار النظام الاجتماعى .

فما هى اذا الرواسب التى تشكل المبادئ الأساسية الكامنة وراء وجود المجتمع وجودا منظما مستمرا .فى هذا الصدد نجد أن هناك من يؤكد أن الرواسب ليست سوى تجليات

للعواطف أو على الأقل لها ارتباط بها ، غير أنها بالتأكيد لا تشكل نظائر لهذه العواطف . وعلى هذا النحو تعتبر الرواسب متغيرات وسيطة بين العواطف التى لا تستطيع التعرف عليها بصورة مباشرة من ناحية ، وبين أنساق المعتقدات والأفعال التى نعرفها ونستطيع تحليلها من ناحية أخرى . وفضلا عن ذلك تتصل الرواسب بغرائز الانسان غير أنها لاتتصل بكل غرائزه ، طالما أنه بامكاننا أن نكشف تلك الغرائز التى يمكن صياغتها عقليا فى شكل نظريات ، بينما أخرى تظل كامنة (١٠٨) .

ويحاول بيترم سروكن تقديم شرح لطبيعة هذه الرواسب فيؤكد أن الأفعال الانسانية عادة ماتعتمد على طبيعة دوافعها . ومن بين هذه الدوافع ، هناك بعد الدوافع التى لها أهميتها الخاصة ، وهى الدوافع التى تتميز بالداوم النسبى ، هذه الدوافع هى الرواسب Residues . والرواسب عند باريتو ليست غرائز ، وليست عواطف أيضا ، انها نوع من الدوافع الدائمة نسبيا ، تلك التى توجد بين أعضاء المجتمع ، بغض النظر عن مسألة نسبية دوامها للغرائز أو لأى شئ آخر . اذ تتصل الرواسب بما يسميه البورت ستايلز Allport Styles ( ردود الفعل اللاارادية القوية Pre potent reflexes ) أو مايسميه بتراجسكى Petrajitzky المشاعر emo-tions أو مايسميه علماء النفس ( بالمركبات أو العقد Complexos ) كمركب أو عقدة النقص . أو مايسميه لوويل A. L. Lowell بالاستعدادات أو الاهتمامات dispositions . غير أنه فى التحليل النهائى نجد أن الرواسب تستند الى الغرائز ، بيد أنها على النقيض منها ، اذ تتميز تجلياتها بأنها ليست صارمة . وهى تختلف الى حد كبير حتى أنها قد تتخذ أشكالا متباينة الى حد التناقض . فمثلا نجد أن الرواسب الجنسى على العكس من الغريزة الجنسية قد يتجلى ليس فقط فى أفعال الجماع الجنسى Copulation ( وهو الشكل الملائم للاشباع ، أو التجلى المعتاد للغريزة الجنسية ) . ولكن التجلى بالنسبة للراسب الجنسى قد يتخذ شكل التقشف الجنسى أو تشويه وبتر Mutilation الأعضاء الجنسية أو الادانة المتقشفة للشهوة الجنسية أو الحياة الجنسية كلها . ونفس الشئ يمكن أن يقال فيما يتعلق بالرواسب الأخرى فى علاقتها بالغرائز ، اذ تعتبر الرواسب تجليا للغرائز والعواطف ، وهى فى ذلك تناظر ارتفاع الزئبق فى الترمومتر كتجلى لارتفاع درجة الحرارة (١٠٩) . ذلك يعنى أن الرواسب تعتبر تجليا للعواطف Sentiments ، باعتبارها القوى التى تحدد طبيعة التوازن الاجتماعى (١١٠) . ذلك يعنى أن الرواسب هى مجموعة من المبادئ العامة ذات الأساس البيلوجى داخل الكائن الانسانى ، لكنها تتجلى فى شكل سلوكيات اجتماعية محددة تصنع فى مجموعها الوجود الانسانى والاجتماعى

برمته . فقد يشارك الانسان الحيوان فى الأساس البيلوجى للرواسب ، لكنه يختلف عنه فى قدرة الرواسب فى اطار العالم الانسانى على أن تتخذ تجليات متباينة ومتنوعة .

ذلك يفرض علينا ضرورة أن نحدد طبيعة هذه الرواسب كما رآها باريتو ، حيث نجد من خلال قراءة أفكاره أنها تتصف بعدة خصائص رئيسية نذكر بعضا منها فيما يلى :

(أ) أول هذه الخصائص أنها تتميز بالثبات النسبى وليس المطلق . وبرغم أنها قد تخضع للتغير مثل المشتقات ، إلا أن معدلات التغير ونطاقه عادة مايكون أكثر بطأ ومحدودية اذا قارناها بالمشتقات التى تعتبر أكثرتغيرا وتنوعا . وفضلا عن ذلك فقد أوضح باريتو أنه برغم اختلاف المشتقات من حيث أشكالها الواقعية بين الأزمنة والشعوب المختلفة ، فاننا نجد أن فئات الرواسب الأساسية التى تتعلق بالأيديولوجيات عادة مايكون لها دوامها النسبى . فمن الملاحظة السطحية نجد أنه ليس هناك اختلاف كبير بين البدائى الذى يؤله معبوده أو مليكه من ناحية ، وبين الاشتراكى المتحمس الذى يعيش فى زماننا الحالى ، فكلاهما لديه راسب التألية (١١١) .

(ب) على عكس المشتقات أيضا نجد أن الرواسب غير متنوعة . ففى الماضى كان راسب الطاعة يكشف عن نفسه فى الخضوع أساسا للملوك أو القساوسة أو النبلاء . أما الآن فقد تم القضاء على هذه الأشكال من الطاعة . غير أن الراسب مازال باقيا ، وأخذ يكشف عن نفسه فى طاعة الزعماء العقائدين أو الخضوع لقادة النقابات أو لرجال الصناعة وما الى ذلك ، فالأشكال قد تختلف أو تتنوع ، لكن الراسب دائم وثابت . فراسب فرض الوحدة أو التألف على افراد المجتمع قد تجلى فى الماضى من خلال عدم التسامح الدينى أو القضاء على من يهاجم الثروة الخاصة ، وما الى ذلك . أما الآن فنحن نملك قدرا من التسامح فى هذا الصدد ، غير أننا مع ذلك أيضا أصبحنا لا نتسامح فى مواجهة بعض السلوكيات كتعاطى المخدرات ، أو نقد المصلحين أو الذين ينادون بديانات الانسانية أو التقدم . فقد تغيرت المشتقات لكن الرواسب ظلت كما هى (١١٢) .

(ج) أن الرواسب الستة ليست موزعة بالتساوى بين أفراد المجتمع . أو بين مختلف الطبقات الاجتماعية أو الجماعات المختلفة . اذ يوجد الأفراد أو الجماعات التى تمتلك قدرا كبيرا من الرواسب القوية من الفئة الأولى ( رواسب الترابط ) ، بينما هناك أفراد آخرون أو

جماعات لديهم عددا كبيرا وقويا من رواسب الفئة الثانية ( رواسب التجمع ) . ويصدق نفس الأمر بالنظر الى فئات الرواسب الأخرى ، وتتضح أهمية ذلك من خلال أن الراسب السائد هو الذى يشكل طبيعة الشخصية الانسانية للفرد أو الجماعة . فهو يطبعهم بطابع خاص ، ويحدد بقدر كبير السلوك الفردى أو طبيعة التنظيم الاجتماعى للجماعة . ويكشف فحص هذه الرواسب الستة ادراك أن أهمها يتمثل فى مجموعة رواسب الفئة الأولى ورواسب الفئة الثانية . واستنادا الى ذلك ميز فيبر بين نموذجين اجتماعيين لشخصية الأفراد ، المضاربون أو الثعالب Speculatore والمحافظون أو الأسود Ren-tiers . حيث ينتمى النموذج الأول لهؤلاء الذين تقوى لديهم رواسب الترابط ، وتضم هذه الفئة كل هؤلاء الذين يشجعون على قيام أية ارتباطات أو ترابطات جديدة Combina-tions ، كالمقاولين، أو المدبرين للمكائد . يعنى ذلك أن هذه الفئة تضم كل الذين يبحثون عن صياغة ترابطات أو تأسيسات جديدة ( مالية كالمشروعات ، فكرية كالمخترعات ، أو سياسة كتأسيس التنظيمات ، أو دبلوماسية أو أى تنظيمات من أى نوع غير ذلك ) .

أما المحافظين فهم الذين يقوى لديهم راسب استمرار التجمع أو الترابط ، ولهذا السبب فهم من الناحية السيكولوجية يمتلكون نموذج المحافظ . وفى العادة لايهتم هؤلاء بالاختراعات ، والترابطات أو التأسيسات الجديدة ، ولكنهم يحاولون دائما الحفاظ على ماهو قائم أو انقاذه اذا تعرض للخطر تأكيدا لضرورة استمراره . فهم أشخاص لديهماإحساس قوى بالواجب ، ولديهم ارادة حديدية وصارمة ، وهم جادون صارمون فى أفعالهم . ويمكن أن يوجد من بينهم كثير من ذوى الأفق الضيق ، أو القادة الحديديون لأية حركة ، فهم صارمون فى سلوكياتهم ، وهم فى غالب الأحيان خياليون (١١٣) .

(د) أن هناك صلة بين توزع الرواسب من ناحية . وبين دورة الصفوة فى المجتمع من ناحية أخرى . ومن ثم علاقة ذلك بقضية التغير الاجتماعى . اذ تعتبر هذه الرواسب عنصرا أساسيا لتفسير دورة الصفوة فى المجتمع . وفى هذا الصدد يؤكد باريتو أنه ليس فقط أن الذكاء والاستعدادات موزعة بشكل متباين بين أعضاء المجتمع ولكننا نجد أن الرواسب هى الأخرى ليست موزعة بصورة عادلة بين أفراد المجتمع ، ففى ظل الظروف العادية نجد أن رواسب المحافظة من الفئة الثانية هى التى تنتشر بين الجماهير . ومن ثم تخلق لديهم احساسا بالخضوع . ومع ذلك ، فانه لكى تصبح الصفوة الحاكمة مؤثرة ، فانها ينبغى أن تتكون من الأفراد الذين لديهم خليطا قويا من عناصر أو رواسب تنتمى

الى الفئة الأولى وأخرى تنتمى الى الثانية . فانتشار الاهتمامات الصناعية والتجارية يعمل أساسا على اثراء الطبقة الحاكمة بالأذكياء ، والحاسمين الذين يمتلكون قدرا كبيرا من غرائز الترابط ، وهى الغرائز التى تزود المجتمع بأفراد أقوياء . ويستطيع الفرد أن يخمن أنه اذ سيطر على الحكم ، الأفراد المخادعون ، والماكرون والمؤسسون للترابط ، فان سيطرة الطبقة التى يسودها راسب الفئة الأولى سوف تستمر لفترة طويلة . غير أن الحكم يعنى الى جانب ذلك القوة ، وكلما كان الراسب من الفئة الأولى ينمو بقوة أكثر ، فان الراسب من الفئة الثانية يكون أضعف من حيث نموه . وهو ما يعنى أن الأفراد الذين يحتلون السلطة يصبحون فى العادة أقل ميلا لاستخدام القوة وينتج عن ذلك توازنا غير مستقرا . وقد تحدث الثورات لتجاوز هذا الوضع القلق ، اذ تحمل الجماهير التى لديها رواسب الفئة الثانية قوية ، نفسها الى الطبقة الحاكمة ، أما من خلال التسلل التدريجى أو من خلال الانفجار المفاجئ عن طريق الثورات (١١٤) .

(هـ) عادة ماتشكل الرواسب أساس للمشتقات . فالرواسب هى العناصر الدائمة وراء المشتقات المتغيرة . هذه الرواسب تعرف عادة باعتبارها ثوابت أو دوائم Constants ، ولا يهتم باريتو كثيرا فى تناوله للرواسب اذا كان التعبير عنها يتخذ شكل عبادة الأوثان أو تحية العلم الوطنى ، أو دعما للخلاص الانسانى ، أو تصويتا لصالح الاشتراكية الخ . حيث تعتبر هذه الأشكال كلها مشتقات متنوعة لذات الحالة السيكولوجية غير المتغيرة نسبيا للانسان . فكل هذه الأفعال ، أيا كان الاختلاف الذى تتبدى به تتحرك بنفس القوة الدافعة ، نفس الراسب الثابت والدائم . أما ما يتغير أو يتنوع تاريخيا ، فيتمثل فى التفسيرات explanations ، أو الأسباب reasons أو التبريرات النظرية التى يمكن أن يقدمها البشر لأفعالهم . غير أن هذه المشتقات Derivations كما يسميها باريتو ( على الأقل باعتبارها من وجهة نظره مشتقة عن العواطف ) ينبغى أن ينظر اليها فى ظل كل الظروف باعتبارها نتائج أو آثار العاطفة ، أو هى السبب النهائى لكل من الأفعال غير المنطقية والتفسيرات غير المنطقية . ويعتبر كل من العقل ( الراسب ) أو التعبير اللغوى المقدم لتبريره ( المشتقات ) غير قابلة للملاحظة . غير أن كليهما يعتبر تجليا لقوة دائمة غير ملحوظة تسمى بالعاطفة . بيد أننا نجد أن باريتو لم يوضح لنا كيف يمكن لهذه الرواسب أو ( الثوابت ) أن تحدد أفعالنا العديدة ، ووفقا لأى منطق يمكن للرواسب أن تحدد الأفعال والمشتقات (١١٥) .

ويوضح سـروكن ذلك مـؤكـدا أن طبـيـعة الرواسب هى التى تحـدد طبـيـعـة الأفـعال الانسانية . حيث تعتبر هذه الأفعال الى حد ما تجليا لهذه الرواسب ، وعادة مايتخذ هذا التـجلى فى اطار الكائنات البـشـرية شكلين رئيـسـيين . الشكل الأول ، الأفـعـال التى لاتتبعها ردود فعل كلامية ، أو الأفعال التى لاتتبعها عمليات وعى ذاتية ، وذلك مثل الفعل التلقـائى أو الغـريـزى ، حـيث (أ) الراسب يقـود الى (ب) الفـعل أو السلوك . أما الشكل الثانى فيتمثل فى الأفعال التى تتبعـها فى العادة ردود فعل كلامية وأيديولوجيات أو تبريرات ، ودوافع ونظريات وعمليات سيكولوجية تتصل بالضمير الفردى ، وعديد من ردود الفعل الكلامية وغير الكلامية ، الصريحة والضمنية (١١٦) .

(و) تعكس الرواسب والمشـتقـات فى العـادة عـلاقة الوجـود الاجـتمـاعى الخـارجى بالتكوين الداخلى للفرد ، وهو مايعنى أن باريتـو يحـاول أن يجـعل العنـاصـر الفـردية البـيلوجية والسيكولوجية أساسا لكل التكوينات الثقافية والحضارية الخارجية ، وهو مـايعنى تأكيدا على المداخل الفردية التى تذهب الى اعتبار الفرد أصلا للوجود الاجتمـاعى . وفى هذا الصـدد نجد أن فلفريدو باريتو يعيد الى الأذهان نفس المداخل الفردية التى أكد عليها مـاكس فيبر وبرنسلاو مـالينوفسكى . حـيث يذهب فيبر الى القول بأن القيم من داخل التكوين الفردى هى التى تشكل أساسا للوجود الاجتمـاعى . فالقيم البروتستنتيـة هى التى شكلت من خـلال الفـرد النظام الرأسـمـالى الحـديث . هذا فى حين نجـد أن مالينوفسكى يؤكد أن سعى الفرد لأشباع حـاجاته البيلوجية التى تتطلب اشباعا ، يؤدى كنتيجة تالية الى صنع الحضـارة والثقافة ليس من خـارج الذات الفردية ، ولكن من داخل التكوينات العـمـيـقـة داخل عمق الذات الفـردية . ذلك يعنى أنه وان اخـتلف العلمـاء عن بعضـهم البـعض فى تحـديد طبيـعـة العنـاصـر التى تخـتـار كمـبـادئ مـفـسـرة للوجـود الاجتمـاعى والتفاعلات التى تتم فى اطاره ، فـان هناك اتفاقـا على انطلاق هذه المبادئ أو المتغيرات من داخل الفرد الى المجتمع .

يبقى بعد ذلك أن نحدد طبيعة هذه الرواسب ، ثم ماهى الوظائف الرئيسية التى تقوم بها فى اطار الوجود الاجتماعى الحى والمتفاعل . استكشاف وجهة نظر باريتو فى هذا الصدد ، يصل بنا الى أنه يطرح ستة فئات من الرواسب . باعتبارها الرواسب الحاكمة لديناميات استقرار المجتمع وتغيره ، هذه الفئات يمكن ذكرها فيما يلى :

١ – الميل الغريزى لتأسيس الترابطات .

ويعنى الميل الى تأسيس الترابطات القدرة على التفكير ، والابداع والخيال ، وامتلاك العبقرية ، والأصالة . وهى القدرات التى لها متتالياتها التى تنعكس فى شكل دفع هذه الفئة من الرواسب للتقدم الانسانى ، وهو المفهوم – التقدم – الذى يحدده فلفريدو باريتو (١١٧) .

وتقود غرائز رواسب الترابط الميل الى تأسيس الترابطات بين كل أنواع العناصر المشتته . وذلك بدون أى معرفة مسبقة عن الصلات الجوهرية التى بين هذه العناصر . ويرتبط بذلك الميل الى التجديد ، وتأسيس الاختراعات ، وصياغة الأطر العامة وبناء المشروعات . ويعمل هذا الميل لتحقيق هذه الغايات بالاستناد الى المهارة ، الدهاء بدلا من الاصرار والعناد . يعمل هذا الميل أيضا بالطرق غير المباشرة وليست المباشرة ، ويميل البشر الذين توجد لديهم هذه الرواسب بقوة الى تجنب الصراع الصريح ، ويميلون الى الدوران حول المشاكل والعقبات ، لكنهم يجفلون من المواجهة المباشرة لها (١١٨) .

وحسبما يذهب باريتو فان محاولة تحليل هذه الفئة من الرواسب تكشف أنها تضم ثلاثة عناصر أساسية ، هذه العناصر هى :

(أ) الميل الى تأسيس الارتباطات بين العناصر المشتتة كما أشرنا .

(ب) البحث الدائم عن الارتباطات والارتباطات الأفضل .

(ج) الميل الى الاعتقاد فى أنهم ينجزون ماهو متوقع منهم .

ويكشف البحث فى طبيعة هذه الفئة أنها ذات طبيعة تجريبية ، ليس بالمعنى التجريبى – المنطقى ، ولكن بمعنى محاولة اجراء كل أنواع الارتباطات ، وتأسيس الصلات والعلاقات بين الأشياء وذلك من أجل الوصول الى اكتشافات جديدة وغير متوقعة ، فهم عادة ماينجزون الأشياء غير المتوقعة . ومن الطبيعى أن تؤدى نتائج هذه التفاعلات الى تحقيق التقدم . ويؤكد باريتو أن راسب الترابط يعتبر هو الأساس المشترك بين الثيولوجيا ، الميتافيزيقا ، العلم التجريبى ، حيث يمكن اعتبار هذه الأنواع الثلاثة من النشاط – باحتمال كبير – تجليات لنفس الحالة العقلية . ومع ذلك فنحن لانعرف كيف يمكن للانسان ، الذى يمتلك ذات الحالة العقلية أن يتجه الى تأسيس نشاطات مختلفة تماما عن آخر يمتلك ذات الحالة العقلية .

وبرغم الانبثاق عن نفس الظروف أو الحالة السيكولوجية فان هناك عائقا لايمكن تجاوزه بين ماهو منطقى وماهو غير منطقى . فمثلا اذا ظهرت (أ) فى حالة ارتباط دائم مع (ب) . فان العلم المنطقى – التجريبى يستنتج أنه من المحتمل بدرجة عالية أن يستمر هذا الارتباط . حيث نجد استمرارا فعليا لظهور المتغيرين مع بعضهما . غير أنه ليست هناك ضرورة يمكن نسبتها الى هذه القضية ، حيث نجد أن الانسان يفرض بقوة شيئا ما – ليس تجريبيا – على القضية ، وهو تأثير الايمان . ومن الطبيعى أن يضيف العالم المبدع شيئا ما ، فهو يتخيل ، ويخترع غير أن ذلك لا ينشأ عن فراغ . وانما نجده فى جهده هذا موجها بتخميناته وافتراضاته وتصوراته القبلية . ومع ذلك فاننا نجد أن باريتو يؤكد أن التجربة فى هذه الحالة سوف تظل باقية لكى تصحح أى خطأ قد ينشأ عن العواطف التى قد يخضع الباحث لتأثيرها .

وعلى النقيض من ذلك فاننا نجد أن العواطف تلعب دورا رئيسيا بالنسبة لغير العالم ، حيث تتم الموافقة على القضايا – فى هذا الاطار – بالنظر الى الايمان ، فتلك هى القاعدة التى يخضع لها غالبية البشر . وكلما كان الاتصال قويا بين العالم الباحث والبشر فى المجتمع ، كلما كانت هناك احتمالية أكبر فى امكانية استسلامه للتصورات الشعبية ، ولكما كان أكثر ميلا لاغفال الصراع الذى قد ينشأ بين التجربة والمعتقدات المستندة الى العاطفة . وذلك هو سبب أن الدارس فى العلوم الاجتماعية يجد من الصعب عليه التمسك بالأسلوب المنطقى – التجريبى أكثر من الكيميائى أو العالم الطبيعى على سبيل المثال (١١٩) .

٢ – غريزة استمرار الجماعة أو التجمع .

وتشكل هذه الفئة . من الرواسب جوهر المجموعة الثانية . وهى مضادة فى فاعليتها لرواسب المجموعة الأولى . واذا نظرنا اليها من الداخل فسوف نجد أنها تضم العناصر التالية :

(أ) دوام العلاقات بين الشخص والأشخاص الآخرين ، أو بين الفرد والآخرين .

(ب) العلاقات التى تسود الجماعات الأسرية والقرابية .

(ج) العلاقات بالأماكن التى يكون الشخص قد ارتبط بها .

(د) العلاقات التى تسود الطبقة الاجتماعية .

(هـ) استمرار العلاقات بين الأحياء والأموات .

(و) استمرار العلاقات بين الشخص المتوفى وبين الأشياء التى كانت تنتمى اليه أثناء حياته .

(ز) بقاء واستمرار التجديدات التى تمت .

(ح) استمرار أو بقاء الأشكال والتشكلات .

(ط) تحول العواطف الى حقائق موضوعية .

(ى) التشخصيات Personifications .

(ل) الحاجة الى تجريدات جديدة (١٢٠) .

ومن الطبيعى أن تكون فعالية فئة الرواسب الثانية المتعلقة باستمرار التجمعات Persistence of aggregates ، مضادة لفاعلية المجموعة الأولى من الرواسب . ذلك لأن الفئة الثانية من الرواسب تتضمن استمرار الترابطات بمجرد تأسيسها ، هذا الى جانب التمسك بها . أيضا من خصائص أفراد هذه الفئة السلوك المباشر ، والرغبة فى الصراع الصريح والموافقة عليه . هذا الى جانب الميل الى تجاوز العقبات وليس الدوران حولها ، ثم الميل الى استخدام القوة ، أيضا الميل الى النزعة التقليدية بدلا من الميل الى التجديد . وتضم هذه الفئة أيضا غياب المهارة والدهاء عن أصحابها (١٢١) .

بالاضافة الى ذلك يعنى راسب استمرار التجمعات التأكيد على العادات والتقاليد ، وكافة الممارسات والمعتقدات الأخرى التى تستمر عبر فترة طويلة من الزمن . ويعد وجود رواسب الاستمرار وتعمقها وانتشارها فى اطار الجماعير مسألة أساسية بالنسبة لنظرية باريتو عن التوازن الاجتماعى أو دورة الصفوة . ويفسر لفنجستون Livingston ذلك فيؤكد أن اتجاه العقل ( الغريزة العاطفة ، الدافع ) هو المسئول عن خلق الوحدات أو العناصر ، ذات الأهمية الرئيسية والثانوية فى تحقيق التوازن الاجتماعى . اذ يحدد عمق العاطفة أو الدافع مايمكن أن نسميه عادة بالطابع Character على المستوى الفردى ، وهو الذى يشكل نموذج الحضارة أو الثقافة التى تسود مجتمعا معينا . وقد يسود تجمع العناصر المستمرة الى الاعتقاد فى الشر devil أو الديمقراطية ، فالأمر سواء بالنسبة لباريتو ، فهى عناصر غير منطقية يمكن استيعابها بصورة سلبية والموافقة عليها ، ومن ثم التمسك بها بقوة . ثم يحاول باريتو تتبع هذه العناصر حتى يسلمها الى مصدرها الكائن فى الغريزة ، اذ يؤكد باريتو ، أنه بعد تشكل الجماعة ،

فـان الغـريزة تبـدأ فى أداء دورها بطاقـات مـتنوعـة ، وذلك لمنع الأشـيـاء أو العناصـر المترابطة من التفكك . ويمكن مقارنة هذه الغريزة بصورة فجة بفاعلية القصور الذاتى فى الميكانيكا ، ذلك أنها تميل الى مقاومة الحركات التى تثيرها غرائز أخرى .

والى حد كبير تصبح لمجموعة الرواسب هذه فعاليتها بين الجماهير . ويعتمد التوازن الاجتماعى ، وأيضا انهيار احدى الصفوات أو صعود أخرى على درجة النجاح التى تستطيع أن تحققه من خلال ابتكار الصفوة لصياغة يمكن بواسطتها أن تخاطب عواطف الجماهير . فى مقابل ذلك تقف الجماهير موقفا سلبيا فيما يتعلق باستيعابها لهذه العواطف المتغيرة أساسا ثم الاحتفاظ بها . وتكمن فعالية الصفوة أساسا فيما يتعلق بالعواطف المتغيرة ، حيث تعتبر الصفوة فعالة فى استغلال هذه العواطف من حول صياغتها الذكية . وطالما أن العواطف تظل غير متغيرة ، فان نفس الأمر يحدث بالنسبة للجماهير بغض النظر عن تغيير الصفوات لمواقعها . وفى التحليل النهائى ، فاننا نجد أن الشروط الوجودية للجماهير ليست هى التى تحدد عواطفها ، ولكن على العكس من ذلك تماما ، اذ تظل الجماهير دائما عمياء وغير عقلانية وذلك لأنها محكومة بواسطة عواطف ، غرائز ، دوافع ، أو قوى لاشعورية تدفعها ، فالجماهير محكوم عليها أن تظل كذلك دائما ، وهذا قدرها (١٢٢) .

ذلك يعنى أن باريتو يرى أمامه دائما صفوتين ، وجماهير خاضعة صفوة تحكم مزودة برواسب الترابط ، تجدد وتملك مهارة الحكم وأساليب الخداع للمحافظة على السلطة فى يدها . غير أن هذه الصفوة قد تضعف رواسبها بمرور الأجيال ، ومن ثم يصبح مقدورا عليها أن تخلى الطريق لصفوة جديدة تمتلك رواسب قوية تؤهلها للسيطرة والحكم . كل ذلك والجماهير بعيدة تماما عن اللعبة السياسية ، تحكمها فئات من الرواسب مختلفة تماما . حيث رواسب تؤكد على ما هو قائم . وذلك يعنى أن ثمة رواسب يطرحها باريتو للتغيير وفرض الانهيار على الوجود الاجتماعى القائم فى مواجهة رواسب أخرى تفرض الحفاظ عليه والتمسك به . غير أن القضية الحادة التى تواجهنا فى هذا الصدد تتمثل أن باريتو وأن أوضح تبدل رواسب الصفوة ومن ثم دورة الصفوة إلا أنه لم يوضح بصورة حاسمة كيف تدوم عواطف الجماهير من غير تبديل أو تغيير .

٣ – الحاجة الى التعبير عن العواطف بأفعال خارجية .

وتشكل رواسب هذه الفئة المجموعة الثالثة من الرواسب ، ووظيفتها الأساسية ربط

الانسان الفرد من داخله بالوجود الاجتماعي الخارجي بالنسبه له ومن مظاهر هذه الرواسب الأبعاد التالية .

(أ) الحاجة الى فعل شئ مايعبر عن الذات الانسانية من خلال تأسيس الترابطات المختلفة ، ويدخل فى هذا الاطار أيضا الانجذاب الدينى (١٢٣) .

(ب) اللجوء الى طقوس معينة مثل التصفيق أو صيحات الغضب أو المرح للتعبير عن مشاعر وعواطف وتفاعلات داخلية (١٢٤) .

(ج) تعنى هذه المجموعة ايضا حاجة الانسان الى التعبير عن عواطفه بأفعال خارجية يدخل فى نطاقها التبريرات العقلية أو التعبير عن الذات (١٢٥) .

(د) من شأن هذا التعبير الخارجى أن يدعم هذه العواطف إلا أنه قد يثيرها أيضا . فالبشر قد تكون لديهم حاجة فى بعض الأحيان الى فعل شئ ما ، وهم اذا فعلوا شيئا ما ، فان من شأن ذلك أن يدعم هذه الحاجة الى التعبير عن مجموعة الرواسب هذه (١٢٦) .

غير أن التعبير بأفعال خارجية عن العواطف الداخلية قد يتخذ شكلين رئيسين ، الأول التعبير الفردى ، الذى يدعم توازن الذات الفردية . فقد يعانى الفرد من توترات معينة ، قد تتخذ شكل الانفجار الغاضب مما يدفعه الى سلوكيات اجتماعية محددة ، يستعيد فى أعقابها الانسان توازنه مباشرة ، ومن ثم فهذا الشكل عادة مايستهدف الحفاظ على الذات الفردية فى حالة من التوازن . أما الشكل الآخر فيتمثل فى التعبير عن الذات من أجل الآخر ، يدخل فى ذلك التعبير بسلوكيات معينة للتعبير عن حب الآخرين ، أو كراهيتهم ، وطلب القبول أو الموافقة منهم . فى كل هذه الحالات فان التعبير عن الذات الفردية لايستهدف فى هذه الحالة توازن الذات الفردية ، ولكنه يستهدف بالأساس توازنا اجتماعيا . واستقرارا لوجود الانسان فى اطار السياق الاجتماعى ، والعلاقات الاجتماعية التى تغلف وجوده .

٤ – الرواسب المرتبطة بالألفة الاجتماعية .

وتشير مجموعة الرواسب هذه الى الحاجة للاتحاد والتوافق مع الآخرين فى اطار حالة الاجتماع ، ويدخل فى اطارها المظاهر التالية :

(أ) الاشفاق على الذات ورفض المعاناة .

(ب) الترهب والزهد وعمق البعد الغيرى لدى الانسان والتقشف .

(ج) قبول مشاركة الآخرين للفرد فى ثروته الخاصة .

(د) الحاجة الى قبول الجماعة واستحسانها .

(هـ) عواطف الشعور بالتفوق على الآخرين .

(و) مشاعر الشعور بالدونية بالنسبة للآخرين (١٢٧) .

ويؤكد باريتو أن هذه الفئة من الرواسب تتكون من مجموعة الرواسب التى ترتبط بالحياة فى مجتمع ، أيا كان المعنى الذى يوحى به ذلك . ثم يضيف أننا نلاحظ الحاجة الى اتحادات معينة بين معظم البشر ، وهذه الاتحادات من أنواع كثيرة . بعض هذه الاتحادات قد يكون لمجرد التسلية ، بينما بعضها الآخر قد يتأسس لتحقيق فوائد تعود على الأفراد الأعضاء ، بينما هناك جماعات واتحادات أخرى ذات أهداف دينية أو سياسية أو أدبية . اذا فلدى البشر حاجة قائمة ودائمة لتأسيس اتحادات معينة . وسواء التحق الانسان منا بالكنيسة أو الحزب السياسى أو النادى الاجتماعى .. الخ ، فان نفس الشئ قائم ، طالما أن التحاقه بهذه الجماعة أو الاتحاد ، يتحدد بواسطة الحاجة المشتركة الى ذلك .

ويحاول باريتو أن يحصر الفئات الفرعية الأخرى لهذا الراسب فيؤكد أن منها الحاجة الى الاتحاد ، التوافق ، التقليد ، هذا الى جانب توسيع نطاق الاشفاق على الذات ليشمل الآخرين . كل ذلك يدعم ظاهرة النزعة الانسانية ، مثال على ذلك غريزة رفض المعاناة ( التى تعنى الشعور بعدم الرضا عند رؤية المعاناة سواء كانت هذه المعاناة مفيدة أم لا ) وغالبا ماتلاحظ هذه العاطفة فى الأفراد الضعفاء ، الخاضعين ، فاذا توفرت لهم الفرص لتجاوز هذه المعاناة ، فانهم عادة مايميلون الى التصرف بقسوة ، وذلك يفسر ملاحظة يسمع عنها الانسان فى العادة وهى التى تتعلق بأن المرأة عادة ماتكون رقيقية طيبة القلب غير أنها فى ذات الوقت قد تصبح – فى ظل ظروف معينة – أكثر قسوة من الرجل .

ويدخل فى اطار هذه الفئة أيضا عواطف ، ومن ثم رواسب الترتيب الاجتماعى ، أى تدرجة البشر الى متفوقين وغير متفوقين ، راغبين فى استحسان الجماعة أو زاهدين فيه . هذه العواطف يراها باريتو ظاهرة انسانية فريدة استكشاف قدرا كبيرا منها .

وبرغم أن باريتو قد نسب الى الممارسات الصوفية فوائد متنوعة ، حيث تناولها باعتبارها نتائج لذات الراسب ، ومن ثم اعتبرها سلوكا لا عقلانيا أساسا ، غير أنه فشل – كما حدث فى أماكن أخرى – أن ينبه الى امكانية أن تكون هناك أفعالا ذات طبيعة تقشفية ، ومع ذلك فهى عقلانية أساسا . على سبيل المثال الاضراب عن الطعام من أجل أهداف سياسية معينة ، وهو الأمر الذى يختلف فى معناه عن كل الأمثلة التى اختارها لكى تبرز هذه الطبيعة اللاعقلانية . فالزهد والنسك كما يراه باريتو هو انحراف عن غريزة الألفة الاجتماعية Sociality ، حيث أنه بدون هذه الغريزة فان المجتمع الانسانى قد يتوقف عن الوجود (١٢٨) .

٥ – رواسب تكامل الفرد مع توابعه .

وتتعلق هذه الفئة بوجود نوع من التكامل بين الفرد وأتباعه أو ممتلكاته . وهى مجموعة الرواسب التى تعمل على دفع الانسان لاتيان أفعال معينة تعمل على استعادة التكامل اذا طرأ عليه تغيير ، مثل الأفعال التى تعتبر مصدرا للقانون الجنائى (١٢٩) .

وتتكامل هذه الفئة من الرواسب مع المجموعة الرابعة السابقة ، وتشير الى العواطف ( الفطرية أو المكتسبة ) التى تدفع الانسان الى الدفاع عن ممتلكاته ، والنضال من أجل زيادتها كميا . ومن الطبيعى أن يؤكد باريتو على العلاقة القائمة بين هذه الرواسب والتوازن الاجتماعى .

ويحاول باريتو أن يوضح ذلك ، فيؤكد أنه فى النظام العبودى كما هى الحال فى اليونان القديمة ، فان الشخص ولو لم يكن مالكا للعبيد ، فانه قد يشعر أن مالك العبيد قد أخطأ لأنه وافق على أن يستولى الآخرون على العبيد منه . وذلك ينبثق من عاطفة مقاومة أى تغير فى التوازن الاجتماعى السائد . ومثال التوازن الجزئى يتجسد فى الشكل الذى يستطيع فى اطاره المواطن اليونانى أن يحيل كل اليونانيين الآخرين الى رجالا أحرارا وكل البرابرة على عبيد . أما شكل التوازن المثالى الكلى ، فهو الشكل الذى يسود فى بعض الفترات التاريخية التى شهدت الحاجة الى الألغاء الكلى لنظام العبودية . فاذا اهتز التوازن القائم أو تغير ، فان هناك قوى تبدأ فاعليتها لكى تستعيد تأسيس هذا التوازن . وهذه القوى بالطبع هى العواطف التى تكشف عن نفسها فى الأشكال العديدة من الرواسب . وهى الرواسب التى تختفى تحت قناع المشتقات . ومن الطبيعى أن لا تعرف الجماهير شيئا عن ( التوازن ) ، ( القوى ) .. الخ ، اذ أن هذه

تعتبر مصطلحات علمية يستخدمها العالم الباحث . فمفاهيم مثل ( العـدل ) ، ( الظلم )، ( الحق ) ، ( الخطأ ) ، هى عبارة عن كلمات يستخدمها البشر المتنورين لكى يعبروا عما اذا كانوا يوافقون على شئ ما أو أن شيئا ما يؤذى عواطفهم . وفى هذا الصدد لم يحدد لنا باريتو شيئا عن تصوره فيما يتعلق بالتوازن الاجتماعى . غير أن الأمثلة والتوضيحات التى استخدمها تتلاءم وتصوره للانسان باعتباره كائنا غير عادل . فالانسان من وجهة نظر باريتو ليس ملهما بواسطة مثل كالعدل ، والحق ، ولكنه مدفوع بغريزته للحفاظ على الذات . وهى غريزة يشترك فيها مع الحيوان . وليس لها أية صلة بأية مثل تتعلق بالعدل أو الحق (١٣٠) .

فالحفاظ على الذات – وهو مفهوم يشبه الى حد كبير المفاهيم البيلوجية – هو الذى يتلاءم مع هدفه . ذلك لأن هذا المفهوم يساعد على ابراز الطبيعة الشبيهة بالطبيعة الحيوانية فيما يتعلق بالفعل أو السلوك البشرى بصفة عامة . ومرة أخرى نجد أن باريتو يحاول أن يحذف تماما من قضية التوازن الاجتماعى أى عنصر يتصل من قريب أو بعيد بالمصلحة بالمعنى العقلانى لذلك . فهو يتجنب باصرار النظر الى التصرفات والسلوكيات البشرية بأى صورة قد تعكس الاقتراب من درجة معينة من العقلانية (١٣١) .

٦ – راسب الجنس .

وفى هذا الصدد يكتب باريتو أن مجرد الرغبة الجنسية – برغم كونها قوية فى الجنس البشرى – ليست ذات أهمية بالنسبه له . ويؤكد باريتو أن راسب الجنس قد يكون منطقة للغريزة ، فيختفى حينئذ تحت قناه من الزهد والتنسك ، فهناك بعض البشر الذين قد يبشرون بالفضيلة كوسيلة للتسامى بالنسبة لأفكارهم خاصة مايتعلق بالجنس . وهنا نجد أن باريتو يستخدم بوضوح مفهوم الراسب باعتباره اظهارا أو تجليا لباعث غريزى له جذوره فى العمليات الجسمية ، البيلوجيا والكيميائية . فاذا كان باريتو لم يحدد – كما بدا ذلك – عما اذا كانت الغريزة قوة بيلوجية أو عاملا ثقافيا ، فانه فيما يتعلق براسب الجنس نجده يؤكد على طبيعته البيلوجية . اذ تؤدى غريزة الجنس الى ظهور الأفعال ذات الطبيعة الدائمة ، والتى استمرت خلال التاريخ ، ومازال لها وجودها البارز فى الوقت الحاضر . وتعتبر هذه الأفعال والرواسب الكامنة خلفها محاولات للسيطرة على غريزة طبيعية أو تنظيمها أو قهرها أو التسامى بها . بل أن الأمر قد يتصاعد ليصل الى نتيجة مؤداها وجود ديانة للجنس ، كما فى كل الديانات الأخرى . ذلك يعنى أن عدم

مرونة الأشكال الاجتماعية للجنس تؤدى بالتأكيد الى الانحراف والنفاق . هذا وتعتبر التحريمات العديدة المتعلقة بالجنس ، وبالمثل أشكال الاحتشام المفرط ، والامتناع ، والتنسك ، مجرد أساليب عديدة لاخفاء الرغبة الجنسية ، وتلك أساليب عديدة لردود فعل غير منطقية لقوى داخلية ذات طبيعة عارمة .

وهنا نجد تأكيد باريتو الذى يذهب الى أن راسب الجنس له فاعليته ليس فقط من خلال الحالات العقلية التى تبحث عن اتحاد الأجناس ، أو التريث فى اعادة جمع هذه الأشياء أو العناصر . ولكن لها فاعليتها أيضا فى الحالات العقلية التى تبرهن على انتهاك . أو رفض أو كراهية المسائل الجنسية . وهنا نجد أن زايتلن ينتقد باريتو حول هذا المنطق فى التفسير مؤكدا أن الانسان يبحث سدى اذا حاول أن يفسر بعض الممارسات الصوفية أو الوصايا أو حتى تحركات معينة ، الخ ، عن طريق نسبتها الى الظروف الاجتماعية والثقافية . يعنى ذلك أن غياب مثل هذه المحاولة سوف يطرح مسألة تصدمنا للغاية ، حينما يحاول الباحث أن يدرك أن باريتو قد شرف بأن يكون أحد مؤسسى التحليل الوظيفى فى علم الاجتماع . وفى الحقيقة لايجد الباحث منا أى تحليل من هذا النوع فى كتابات باريتو ، ولكن مايجده هو مجرد توضيحات للرواسب ذات الأهمية البارزة ، ومن ثم نتعلم منه أن الراسب يكون فعالا من خلال الحديث والكتابة ، ونجد له ظلاله فى الأدب . وحينما يتحدث البعض عن الأدب اللا أخلاقى فان هذا فى غالب الأحيان يعتبر مجرد نوع من النفاق ، حيث يجعل البشر من الكلمة وليس من الشئ ذاته الهدف الأساسى . انهم قد يفعلون الشئ ، لكنهم يتجنبون الحديث عنه ، وهنا نجد أن باريتو يوكل الى نفسه مهمة المغامرة بخلع الأقنعة . حيث تعتبر الفضيلة والأخلاق الجنسية ليست إلا بلاغة لغوية مصاغة بدرجة واعية لكى تخفى جوهر الانسان .

ويعتبر راسب الجنس راسب دائم ككل الرواسب الأخرى ، وذلك واضح على مايذهب باريتو من الأنماط الدائمة لرد الفعل الذى يشاهده الانسان خلال التاريخ كنتيجة لانتهاك بعض هذه التحريمات . حيث تسلم هذه الانتهاكات الى تأسيس معتقدات ديانة الجنس كردود فعل لا تختلف كثيرا عن ردود الفعل التى تتم نتيجة لانتهاك ديانة أخرى . حيث ينبغى النظر الى التغيرات عبر الزمان فيما يتعلق بالأخلاق الجنسية والتنوع الذى نواجهه من ثقافة الى أخرى باعتباره مجرد تغير فى الشكل (١٣٢) .

وبالنسبة لباريتو يعكس راسب الجنس بصورة قوية الطبيعة العامة للرواسب ، حيث القوة الدائمة التى لايمكن اعاقتها ، وأيضا التى لاسيطرة للانسان عليها أو أن سيطرته ضعيفة عليها ، فالمشتقات هى التى تتغير فقط . غير أن المشتقات ليس له تأثير أساسى على طبيعة وجود الانسان (١٣٣) .

ويؤكد تيماشيف أن تصنيف باريتو على ما أوضح أحد دراسيه ( يمثل عملا جادا وهاما لواحد من الرواد ) فعلى الرغم من الاضافات والتعديلات التى أدخلت على هذا العمل الهام ، إلا أنه من غير المتوقع أن يحاول الباحثون تطوير هذا الجانب من أعمال باريتو نظرا لما ينطوى عليه من أخطاء واضحة .

حيث كان تصنيف باريتو معتمدا الى حد ما على دراسته لبيانات مستمدة أساسا من مؤلفين قدامى . فقد ذهب الى أن هناك تراثا هائلا يصور الحياة الواقعية عموما ، وبالتالى فالتركيز على دراسة هذا الراث الكلاسيكى لايفصح مجالا للتحيز . ولما كانت الرواسب هى القضايا الدائمة ( العامة ) فمن اليسير اشتقاقها من التحليل الدقيق للتراث الكلاسيكى . وكل عنصر نختاره من هذه المصادر يتعين أن نفسره منذ البداية بأنه مظهر لعاطفة معينة ، ومن ثم نخضع العناصر الجزئية للمقارنة ، ثم نؤلف من مجموعات العناصر المتشابهة فئات محددة أو فئات فرعية . والواقع أن هذا الاجراء ( والذى ) يصعب اعتباره خطوة متقدمة على مايعرف الآن بتحليل المضمون ، هو أقرب شئ للمنهج الاستقرائى يمكن أن نعثر عليه فى أعمال باريتو (١٣٤) .

**ثالثا : المشتقات ، التعبير الظاهرى عن عواطف كامنة .**

استنادا الى مايذهب اليه باريتو تعتبر المشتقات هى التعبير أو التجلى الخارجى للرواسب . ويحاول باريتو أن يحدد المشتقات فيؤكد أن البشر يحتاجون فى العادة أن يجعلوا سلوكهم غير منطقى يبدو منطقيا . ومن ثم فهم يقدمون حينئذ تفسيرات منطقية زائفة لأفعالهم ، ثم يعتقدون عن خطأ فى هذه التفسيرات باعتبارها سببا لسلوكهم . وتشتق المشتقات قوتها ليس من الاعتبارات المنطقية التجريبية ولكن من العواطف (١٣٥) .

وتنتشر المشتقات ، لأنها بالاضافة الى الرواسب ، تعتبر تجليا للعواطف . وهى منتشرة ليس لأنها مشتقة من العواطف الخاصة بالأفراد ، ولكن لأنها تستند الى العواطف السائدة ، أعنى لأنها تستند الى سلطة المأثورات السائدة فى المجتمع ، أو الى سلطة الأفراد المسيطرين

فيه ، أو الى سلطة كائنات ماوراء الطبيعة . غير أن كل هذه المشتقات يعتبر مجرد لغو كلامى لا ثقة فيه يخفى وراءه السبب الحقيقى المتمثل فى العواطف . ويؤكد باريتو أنه حينما يرغب دارس السلوك البشرى أن يدرس الظواهر الاجتماعية فان عليه أن يهتم باظهارات أو تجليات النشاط الاجتماعى ، أعنى المشتقات ، ثم يؤكد أنه لا يدهشنا أن نعرف أن الراسب يعتبر قوة تتجاوز الثقافات المختلفة . أو بعبارة أخرى ، فان الرواسب تعتبر المحور الرئيسى للفعل فى كل الثقافات ( الصينية ، الإسلامية ، الكالفنية ، الكاثوليكية أو الهيجلية أو المادية ) . فمثلا نجد أن كل هذه الثقافات تجفل من السرقة . غير أن كل منها يقدم تفسيرا مختلفا لسلوكه . وبعبارة أخرى ، فان الحالة الحقيقية تتمثل فى وجود عدد من المشتقات التى ترتبط براسب واحد له فاعليته فيها كلها ، مع التأكيد على نتيجة واحدة توافق كل هذه المشتقات أو التفسيرات (١٣٦) .

وبالنظر الى هذه التفسيرات - المشتقات المتنوعة - التى تقدم لنفس الخصائص الثابتة ، يستنتج باريتو أن السبب الحقيقى للسلوك ينبغى البحث عنه فى الرواسب الدائمة والكامنة وراء المشتقات المتباينة . ثم يبرهن على أن اتباع المدارس الفكرية المختلفة يشتركون فى الحاجة الى الحفاظ على تكامل شخصياتهم وأيضا الحاجة الى الحفاظ على الاعتبار الذاتى ، وهو مايعنى أن مجموعة الرواسب من الفئة الرابعة قادرة على تفسير سلوكها .

ثم يؤكد باريتو أن البشر فى كل مكان وزمان يعتقدون فى الحقيقة الموضوعية المتعلقة بالآلهة والأرواح والتقدم والحرية والعدل . قد تتغير أسماء هذه العناصر مثلما تفعل النظريات الدينية والفلسفية والأخلاقية لتفسير هذه المعتقدات . غير أننا سوف نكتشف دائما وجود اعتقاد مشترك يؤكد على وجود جذور كل هذه التكوينات المتباينة فى عنصر واحد ، ثابت ودائم لايتغير . وهو فى هذه الحالة الفئة الثانية من الرواسب التى تؤكد على الميل المحافظ لاستمرار الجماعة أو التكامل الاجتماعى .

ويكرر باريتو أنه من غير المفيد ، أو من قبيل ضياع الوقت أن نناقش مصداقية مذهب أو عقيدة مع معتنقيه . فلم تنهار المسيحية بسبب البراهين التى تناقش الواقعية التاريخية للنبى عيسى عليه السلام . ذلك يعنى أن على الاستراتيجية العلمية أن تتبع عديدا من أنساق المعتقدات عن طريق نسبتها الى مصادرها المشتركة المتمثلة فى الرواسب الأساسية ، ذلك فقط هو الذى يمكن أن يساعد على تقدم العلم ، وأيضا على تحقيق درجة من التنوير (١٣٧) .

غير أن السؤال الذى نطرحه فى هذا الصدد يتمثل فى الأسلوب الذى وصل من خلاله باريتو الى تحديد المشتقات . وحسبما يذهب لويس كورز ، نجده يؤكد أن باريتو قد وصل الى

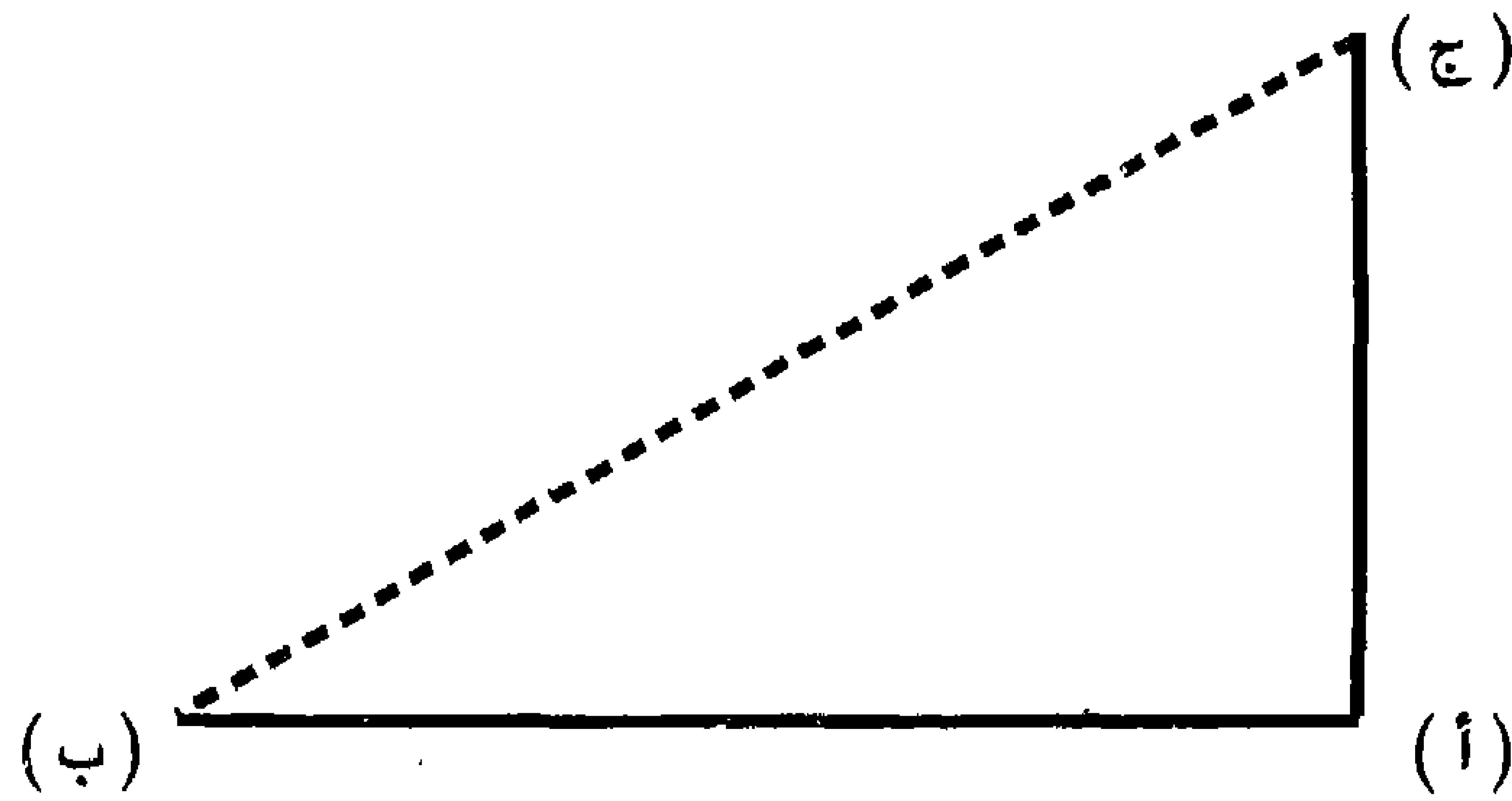
تحديده للمشتقات من خلال فحص مختلف المذاهب التى ترتبط بذات الفعل أو السلوك ، على سبيل المثال فهو قد فحص العقيدة المسيحية أو النظرية السياسية الليبرالية ، ومن خلال فحص هذه النظريات نجده يعزل العناصر التى تتصل بمعايير العلم التجريبى المنطقى ، ومن ثم نجده يستبعد العناصر غير العلمية ، مؤكدا على اعتبارها عناصر دائمة أو رواسب ، فاصلا عن عناصر أخرى متغيرة أو مشتقات . حيث تظهر المشتقات فقط حينما تظهر الحاجة الى برهنة أو حوار أو تبرير أيديولوجى . وحينما يتواجد التبرير الأيديولوجى ، فاننا نجد أن التحليل الذى قدمه باريتو يبحث عن العناصر الدائمة نسبيا والكامنة وراء الرواسب (١٣٨) .

غير أننا اذا اتفقنا على أن كل الأفعال أو التبريرات التى تقدم تستند فى التحليل النهائى بشكل ما الى الرواسب أو العواطف ، فان السؤال الذى نطرحه يتعلق بطبيعة العلاقة بين هذه المكونات الثلاث . فى هذا الصدد نجد أن باريتو يؤكد على الفارق بين نظرته للأفعال الانسانية ، وبين التفسير العقلى الذى يقدم لها . اذ يفترض هذا التفسير الأخير أن الناس يتجهون الى التفكير أولا ، أو أنهم يصوغون – بداءة – الأفكار والنظريات ، ثم يتصرفون بعد ذلك وفقا لها . إلا أن باريتو يذهب الى أن السلوك يتبع عملية عكسية ، فالتصرف يسبب التبرير العقلى . ذلك يعنى أن باريتو يذهب الى أنه ليست هناك علاقة سببية مباشرة بين النظرية والفعل ، فكلاهما ينتج عن عواطف أساسية تبدو فى الفعل بطريقة دائمة أو ثابتة فى حين تتجلى العواطف على مستوى النظرية فى التبرير العقلى على نحو غير منظم (١٣٩) .

والحقيقة فى رأى باريتو أن البشر لايقومون فى البداية بصياغة أفكار ونظريات ثم يتصرفون تبعا لما تمليه عليهم أفكارهم ونظرياتهم ، ولكن العكس هو الصحيح . فالبشر يتصرفون تبعا لما تمليه عليهم أفكار ونظريات تبرر تصرفاتهم (١٤٠) . وتأكيدا لذلك يذهب بيتروم سروكن الى القول بأن فئة الرواسب هى التى تحدد طبيعة الأفعال الانسانية ، التى تعتبر الى حد ما تجلياتا لهذه الرواسب ، وفى اطار الكائنات البشرية تتخذ هذه التجليات أيا من الأشكال التالية . فإما ان تتخذ شكل الأفعال التى لاتتبعها ردود فعل كلامية ، أو عمليات ذاتية شعورية كالغريزة أو الأفعال التلقائية . بحيث نوضح ذلك بالشكل التالى : (أ) الرواسب يؤدى الى (ب) السلوك .

راسب ( أ )　　　　　　( ب ) فعل أو سلوك

أما الشكل الثانى فيتمثل فى الأفعال التى تتبعها أيديولوجيات وردود فعل كلامية ، أو بعض العمليات السيكولوجية الشعورية أو النظريات ، أو تقديم الدوافع ، المقاصد أو الأهداف للاقناع بالفعل . أو غير ذلك من ردود الفعل الكلامية الأخرى الصريحة والضمنية . حيث نوضحها بالشكل التالى : (أ) الراسب يؤديا تزامنيا - فى نفس الوقت - الى (ب) السلوك أوالفعل ، وأيضا الى (ج) ردود الفعل الكلامية . ونوضحها بالشكل التالى :




حيث تسمى ردود الفعل الكلامية هذه بالمشتقات ، وهى تقود الى علم اجتماع الأفكار والأيديولوجية عند باريتو . أو الى علم إجتماع ردود الفعل البشرية الكلامية .

واستنادا الى علاقة الرواسب بالمشتقات على هذا النحو لاحظ بعض المفكرين وجود تشابه كبير بين باريتو وكارل ماركس . اذ نجد أن باريتو لم يعين قيمة كبيرة للمشتقات أو الأيديولوجيات . حيث أنها بالنسبة لباريتو ليست إلاتجليات للرواسب . فالرواســـب هـــى أب Father الأيديولوجيات . حيث تعتبر المشتقات نوعا من المؤشرات التى تتحول بحسب اتجاه ريح الرواسب . ولايعتبر تأثير المشتقات معدوما ، ولكن مانقصده أن تأثيرها أقل كثيرا عن مايتصوره الكثيرين . فمن شأن المشتقات أنها متغيرة وأكثر مرونة من الرواسب . بالاضافة الى ذلك فاننا نجد أن نفس الراسب قد يشكل أصلا لمشتقات عديدة أو يختفى فى اطارها ، والعكس صحيح . وفى بعض الأحيان تنتج رواسب عديدة بنفس المشتقات المتماثلة . ويمكن للمثال التالى أن يوضح هذا الموضع ، فالراسب الذى يتخذ شكل الرعب من قتل الانسان قد يتجلى فى اطار المشتقات التالية :

– لاتقتل وإلا ذهبت الى الجحيم .

– لاتقتل لأن القتل يحرمه الله .

– لاتقتل لأن ذلك يعتبر لا أخلاقيا .

– لاتقتل لأن ذلك عملا لا انسانيا ضد القانون والتقدم والعدل .

– لاتقتل .

حيث تعتبر كل هذه المشتقات مجرد أقنعة تخفى الفاعل الحقيقى الذى يمنع فعل القتل ، وهو الراسب موضع الاهتمام ، وحسب الظروف فقد يشكل الراسب مصدرا لعديد من الأيديولوجيات الأخرى . وبرغم الاختلافات الكثيرة ، فان الأيديولوجيات ليست شيئا سوى مظاهر عديدة لنفس الراسب .

فردود الفعل الكلامية للكاثوليكى الأرثوذكسى الذى لايبيح التسامح الدينى ، وكذلك ردود الفعل الكلامية للشيوعى المتحمس الذى يهاجم بعنف عدم التسامح ، مختلفة تماما . وبرغم ذلك ، فإن رواسبهم هى ذاتها . وهى التى تتمثل فى الدافع الى فرض معتقداتهم ومعاييرهم فى السلوك على الآخرين . وتعتبر ردود الفعل الكلامية لكثير من الزاهدين فيما يتعلق بالجنس ذات أهمية محورية ، غير أن الحقيقة الواضحة أنهم يتحدثون عن الجنس أو يعلنون ادانتهم القوية له . بما يوحى باعتبار ذلك مؤشرا على راسب هذه المشتقات هو ذاته الذى يتعلق بردود الفعل الكلامية لفعل الدعارة الذى قد يرتكبه شخص خليع .

وطالما تعتمد الأفعال والمشتقات على الرواسب ، فانه ينتج عن ذلك سلسة من النتائج الهامة للغاية فيما يتعلق بالرواسب أو بديناميات الأيديولوجيات . وتتمثل أول هذه النتائج فى أن الرواسب غالبا ماتتناقض مع بعضها البعض داخل نفس الشخص ، ومن ثم فعادة ما تكون سلوكياتنا وأفعالنا متناقضة وغير منطقية فى غالبها . فاذا حددنا الأفعال المنطقية باعتبارها الأفعال التى يتطابق فى اطارها الفرض الذاتى المقصود لفعل ما مع النتائج الموضوعية التى تتحقق نتيجة لانجاز هذا الفعل ، فان قدرا كبيرا من أفعالنا ، على حد ما يوضح باريتو أكثر من أى مفكر آخر ، تعتبر غير منطقية . وباعتبار أننا نندفع لانجاز أفعالنا تحت تأثير حالة الفعالية الواضحة للرواسب ، فاننا ننجز قدرا كبيرا من الأفعال التى هى بطبيعتها غير منطقية، أو تلك التى يتصادف أن يكون الفرض الذاتى للفعل ( الأيديولوجيا ) مختلفا تماما عن نتائجه الموضوعية . فهما يتطابقان فى اطار السلوك المنطقى التجريبى فقط ، أو فى مجال الانجازات

العلمية . وبعيدا عن ذلك ، وفى اطار بعض الحالات القليلة الأخرى ، يعتبر السلوك الانسانى متناقضا وغير منطقيا أساسا ، وذلك لأن رواسبنا عادة ماتكون متناقضة بنفس القدر . ومن وجهة النظر المنطقية تعتبر أفعالنا غير متسقة ، وذلك لأن رواسبنا تخضع لحالة ذات طبيعة دينامية . حيث يمكن فى لحظة سريعة أن يعقب وجود راسب قوى ومسيطر راسب آخر مختلف عنه تماما . وتحت تأثير الراسب الآخر فاننا قد نتصرف بطريقة مختلفة تماما . وبايجاز فان تحليل باريتو للعلاقة بين ديناميات الرواسب والفعل من ناحية ، وبين نتائجه فيما يتعلق بالأفعال غير المنطقية للبشر ، يمثل بقدر ما ، تحليلا للسلوك الاجتماعى لا نظير له .

ويمكن القول ، بدرجة عالية من الثقة ، بأن ماسبق يتعلق بطبيعة نظرية باريتو عن المشتقات ( الأيديولوجيات ) . وطالما أن العلاقة بين الرواسب معقدة للغاية ، بل غالبا ماتكون متناقضة ، فانه من المتوقع أن يندر أن تكون المشتقات البشرية ( الأيديولوجيات والتعبير الكلامى ) منطقية ودقيقة من وجهة النظر التجريبية – المنطقية . ومن الواضح أن قدرا كبيرا من هذه المشتقات بما فيها المشتقات الاقتصادية والسوسيولوجية والدينية والسياسية ( وكل مالا يشكل نظريات ) ليست منطقية ، وغير متسقة ، بل متناقضة فى ذاتها ، وزائفة من الناحية العلمية . فهى لا تصف الحقائق التى تمت دراستها بدقة ، ولكنها تمثل نوعا من الدافع أو التبرير أو التعقل ، أو اضفاء الطابع الأخلاقى أو المثالى لنوع من السلوك نندفع اليه بفاعلية رواسبنا . واذا كانت الرواسب تتغير ، فان نظرياتنا الزائفة علميا تتغير هى الأخرى أيضا . فأحد الرواسب يفسح الطريق لراسب آخر مضاد ، وأن نظريتنا القائلة بأن (أ) هى (ب) تفسح الطريق لنظريتنا التى تذهب الى أن (أ) ليست (ب) ، ومن ثم فان منطق البرهنة البشرية فى أغلب الحالات أبعد مايكون عن اعتباره منطقيا . وغالبا ماتتم الموافقة على أيديولوجيا معينة أو ترفض لأنها فى غالب الحالات ليست صحيحة أو زائفة ، ولكن لأنها تتفق أو تختلف مع رواسبنا . وذلك يفسر تأثير الدعاية الصحفية أو الأحاديث الحماسية ، وكل أنواع الكلام الذى يؤثر على مشاعرنا أو عواطفنا . فبدلا من البرهنة العلمية ، نجدها تستخدم السلطة الكاملة للبرهنة اللفظية الزائفة ، تلك التى تستثير ميولنا . وبرغم كل ذلك ، فان هذه المشتقات غالبا ماتكون أكثر اقناعا من البراهين العلمية ، اذا كانت المشتقات على اتفاق والرواسب المسيطرة . وفى هذه الحالة ، فاننا اذا رغبنا فى تغيير آراء وأيديولوجيات انسان أو جماعة معينة ، فان المدخل الأفضل هو أن نغير الرواسب ، فاذا تغيرت الرواسب أو حطمت ، فان المشتقات الأيديولوجيات ، المرتبطة بها سوف تتغير أيضا . ومن وجهة النظر هذه يعتبر علم اجتماع كونت بكل مثالياته ( مشتقاته ) الخاصة بالوضعية ، التقدم ، ديانة الانسانية ، ليست علميا على

الاطلاق وهو فى ذلك يماثل العقيدة الفشتية الفجة . وتعتبر النظريات المتعلقة بالتقدم ، التضامن ، الديمقراطية ، العدالة ، الاشتراكية والقومية ، والوطنية ، والنزعة العالمية ، وما الى ذلك مشتقات غير منطقية من نفس النوع . وهى تختلف من حيث الشكل فقط عن المعتقدات الدينية والخاصة بالسحر البدائى ، التى تدينها هذه النظريات . وغالبا مايكون المناضلون المتحمسون ضد كل التحيزات والغيبيات ليسوا هم إلا ضحايا لأحد أنواع الغيبيات ، وغالبا مايشبهوا أصحاب العقول الجامدة التى يناضلون ضدها . فاذا أخذنا فى الاعتبار على التتابع كل المفكرين الاجتماعيين المعاصرين الأكثر شهرة مثل كونت ، سبنسر ، سمنر ، هذا بخلاف العدد المتنوع من الأيديولوجيات ، فاننا نجد أن باريتو يوضح بصورة مقنعة عدم اتساق قضاياهم ، وتناقضها ، وزيفها وعدم منطقيتها ، فى حين نجده يوضح أن الرواسب هى المسئولة عن هذه النزعة العلمية الزائفة . وقد أوضح باريتو أكثر من أى مفكر آخر الطبيعة العلمية الزائفة لمفاهيم آلهة التقدم ، والتطور والديمقراطية والتضامن والعدل والقانون ، والحقوق الطبيعية والأخلاق وما الى ذلك . وتعتبر هذه المفاهيم والنظريات بالنسبه له زائفة كأى غيبيات فجة ، فهى نفس المشتقات غير المنطقية ، غير أنها تلبس ثوبا أو طابعا معاصرا ، ذلك هو الاختلاف الرئيسى . وهو أيضا يوضح استحالة اسناد أى تعميم علمى عن الانسان أو الجماعة أو الفترة التاريخية على ردود الفعل الكلامية المتصلة به فقط ، اذ تعتبر بالنسبة له مقياسا مضللا لا يحدد طبيعة الرواسب الكامنة وراءه .

ماسبق يوضح السبب فى أن باريتو لم يعط اعتبارا كبيرا للمشتقات . اذ نجد أنه قد كرس قدرا كبيرا من انتاجه لدراسة تغيرات وتقلبات المشتقات فى علاقتها بالرواسب . وبرغم أن الرواسب تتغير أيضا ، إلا أن معدل وفعالية تغيرها عادة مايكون أكثر بطئا ومحدودية اذا قورن بتغير المشتقات وتقلبها ، فالمشتقات ذات قابلية عالية للتنوع والتغير . وفضلا عن ذلك ، ويوضح باريتو أنه برغم تنوع وتباين المشتقات من حيث أشكالها الواقعية بين مختلف الشعوب والأزمنة ، فان الفئات الأساسية للرواسب التى تندثر فى أيديولوجيات عادة ماتكون ذات دوام نسبى . ولاشك أنه بالنسبة للملاحظة السطحية توجد اختلافات هائلة بين البدائى الذى يؤله وثنة أو مليكه من ناحية وبين الاشتراكى المتحمس الذى نعايشه فى عصرنا من ناحية أخرى . اذ يمكن القول استنتاجا من ذلك أن كليهما لديه نفس رواسب التأليه و غير أن الاختلاف الوحيد بينهما يكمن فى أن البدائى يؤلة وثنا معينا ، ولتعزيز عقيدته فانه عادة مايستند الى ( ناموس السحر ) . فى حين أن الاشتراكى المتحمس يؤله ماركس ، لينين ، وروسو ، ومن أجل تعزيز قضيته نجده يقتبس من مؤلف رأس المال لماركس أو مؤلفات روسو . فى الماضى كان راسب

الطاعة يتجلى أساسا فى الخضوع للملك والقساوسة والنبلاء ، ولما كان هؤلاء لم يعد لهم وجود الآن ، فان الراسب مازال باقيا ، ويظهر نفسه من خلال طاعة الزعماء العقائديين ، أو قادة النقابات العمالية أو رجال الصناعة ، وما الى ذلك ، قد تختلف المظاهر لكن الراسب واحد . واذا كان راسب فرض الاتحاد على أعضاء المجتمع قد تجلى فى الماضى من خلال التعصب الدينى ، أو من خلال القضاء على أى اعتداء موجه الى الثروة الخاصة ، أو الطلاق ، وما الى ذلك ، فاننا الآن أكثر تسامحا فى هذا الصدد . غير أننا لا نتسامح بدلا من ذلك فيما يتعلق بتعاطى المخدرات ، أو فيما يتعلق بتشويه انجازات المصلحين أو اتباع ديانة الانسانية أو التقدم وما الى ذلك ، تغيرت المشتقات وظلت الرواسب هى ذاتها . ومع ذلك فان هذا التصور لايعنى بالنسبة لباريتو أن كل هذه المشتقات غير كافية بكل تأكيد ، أو أنها ضارة اجتماعيا . فهو يؤكد أنها تمتلك قدرا من الكفاءة ، ولكن ليس قدرا كبيرا كما قد يعتقد الكثيرون . وفضلا عن ذلك يؤكد باريتو ، على نقيض كل المفكرين الذين يعتقدون أن كل حقيقة نافعة ، بينما كل ماهو غيبى ضار . ثم يذهب الى أن واقع الأمر مختلف ، فقد وقعت كثير من التحيزات - المشتقات - لأنها ذات نفع بالنسبة لتكامل النسق الاجتماعى . بينما نجد أن كثيرا من الحقائق الثابتة والصادقة يسرت انهياره . وبعبارة أخرى ، فان المشتقات ( الأسطورة ، الخرافة ، العقيدة الحماسية ، الغيبيات التى تحمل وجه الواقع ، والتى تستثير الحماس ) قد تكون مفيدة للجماعة . ومن ناحية أخرى فان الحقيقة الصريحة قد تكون مدمرة . وفيما يتعلق بهذه القضية يصل باريتو الى نتائج تماثل الى حد كبير تلك التى وصل اليها ميكيافيلى ، جيمس فريزر ، ليبون ، سوريل ، وآخرون . وحسب تفكيرهم فان الغيبيات والبدع قد تكون ذات أهمية حيوية بالنسبة للمجتمع بنفس أهمية الصدق التجريبى المنطقى . ماسبق يطرح الخطوط العامة لأفكار باريتو فى هذا الصدد (١٤٠) ، غير أن هناك قضايا أخرى هامة تتعلق بهذه القضية كتلك التحليلات التى قدمها باريتو حول تأثير الرواسب على المشتقات ، أو تأثير الرواسب على الرواسب الأخرى ، أو تأثير البيئة على الرواسب ، أو تأثير المشتقات على المشتقات ، وتأثير المشتقات على الرواسب . أو تلك التى تتعلق بتغير وانتشار كل من الرواسب والمشتقات وهو ماسوف نحاول التعرض له بالتفسير فى موضع آخر .

مابقى اذا أن نقدم بايجاز أنماط المشتقات كما قدمها باريتو . اذ نجده يطرح علينا أربعة فئات أساسية للمشتقات هى :

١ – المشتقات المتعلقة بالتأكيد ( على موضوعات معينة ) أى ذكر حقائق واقعية أو متخيلة . Simple - Affirmation .

٢ – اللجوء الى السلطة Authority أى التفسير الزائف للأحداث عن طريق الاستعانة بقوة وسحر الماضى والتقاليد والعادات أو الارادة الألهية .

٣ – الاتفاق مع العواطف أو المبادئ Accord with Sentiments or Principles ، وهى المشتقات التى تحاول تبرير الأفعال المنطقية على أساس الحقيقة المفترضة بأنها من أجل صالح الآخرين .

٤ – البراهين اللفظية Verbal Proofs وهى التى تعنى باستخدام ألفاظ لا تتفق مع الحقائق ، واستخدام التشبيه والبلاغة (١٤٢) .

وقد أوضحت الأمثلة المختلفة التى قدمها باريتو لهذه الأنواع العديدة من التفسيرات اللفظية للسلوك امكانية تداخل هذه الفئات . غير أنه من الضرورى أن نلاحظ أنه ليست هناك علاقة وثيقة بين فئات الرواسب – التى عرضنا لها من قبل – وبين فئات المشتقات . فكل منهما مستقل عن الآخر (١٤٣) .

**رابعا : دورة الصفوة ، والتأرجح بين الثعالب والأسود .**

اذا اتفقنا على أن كارل ماركس يعتبر المفكر الذى نظر للبروليتاريا ، فانه يمكن بنفس القدر اعتبار باريتو المفكر الذى نظر للبرجوازية . واذا كان كارل ماركس قد شخص أحوال البروليتاريا ورسم لها الطريق الى السلطة ، وذلك من خلال ( بلترة ) البرجوازية . فاننا نجد أن باريتو قد ناضل ليرسم استراتيجية تستطيع بها الصفوات البرجوازية تبادل السلطة وامكانات القوة عازلة الجماهير عن هذه الحركة التاريخية المتفاعلة .

ويتطلب فهم نظرية الصفوة عند باريتو ضرورة التعرف على عدة قضايا أساسية . أولها ، ماهى طبيعة الصفوة ، وملامح تحديدها اللمى ، ثم ماهى الاعتبارات الأساسيةالتى يمكن بالنظر اليها تناول قضية الصفوة ، ثم ماهى خصائص الصفوات ، ثم ما هى خطوط دورة الصفوة فى النموذج النظرى لباريتو ، وسوف نحاول فيما يلى تناول كل من هذه القضايا على حدة .

(أ) ففيما يتعلق بطبيعة الصفوة نجد ان فلفريدو باريتو يحاول أن يقدم تحديدا موضوعيا لمفهوم الصفوة . حينما يذهب الى أن مصطلح الصفوة Elite ليست له أية دلالة أخلاقية أو شرفية . وانما هى تشير ببساطة الى فئة من البشر المتفوقين فى مختلف فروع النشاط الانسانى (١٤٤). ولتحديد هوية الصفوة فى المجتمع الذى يضمها نجد أن باريتو يذهب الى انقسام المجتمع تعسفيا الى فئتين ، الصفوة واللاصفوة non - elite أو الجماهير . وتتكون الصفوة من هؤلاء الذين يتفوقون على الجماهير فى جوانب معينة ، وفى العادة تشكل الصفوة أقلية صغيرة نسبيا ، وتنقسم الصفوة بدورها الى الصفوة الحاكمة ، والصفوة غير الحاكمة . وتضم الصفوة الحاكمة هؤلاء الذين يؤثرون بدرجة مباشرة أو غير مباشرة على تسيير ارادة شئون الحكومة ( أما الصفوة غير الحاكمة فهى تلك التى تمتلك امكانية الادارة لكنها لا تشارك فيها بصورة مباشرة أو غير مباشرة ) . ومن المهم أن ندرك ان البناء التكوينى للصفوة يتحدد بالنظر الى فئتى الرواسب الأولى والثانية (١٤٥) .

وفى محاولة التحديد الدقيق لمفهوم الصفوة أو لمن هم الصفوة فى المجتمع نجد أن باريتو يؤكد دعنا نفترض أنه يمكن اعطاء درجة لكل فرد فى كل فرع من مجالات النشاط الانسانى . بحيث تعتبر هذه الدرجة مؤشرا لقدرته ، بطريقة تشبه الى حد كبير الدرجات التى تمنح للتلاميذ فى الاختبارات المدرسية . فمثلا المحامى من النموذج ذو الكفاءة العالية سوف يمنح عشر درجات ، فى حين يمنح المحامى الذى لم يستطع الحصول على زبون واحد درجة واحدة ، محتفظين بالدرجة صفر للشخص المعتوه عقليا . سوف نعطى الشخص الذى استاع تأسيس تراكم رأسمالى يصل الى عدة ملايين – بطريقة أمينة أو منحرفة – أيا كان الأمر نحو عشر درجات ، أما الشخص الذى استطاع توفير عدة آلاف فسوف نعطيه ستة درجات ، وبالنسبة للشخص الذى يعيش بالكاد فى اطار بيت فسنعطيه درجة واحدة ، محتفظين بصفر لهؤلاء الذين يستحيل عليهم انجاز ذلك . وبالنسبة للمرأة التى تعمل فى السياسة ، والتى تحاول أن تفتن رجل السلطة لتسيطر عليه وتلعب دورا فى طريقة أدائه لوظيفته ، فاننا سوف نعطيها درجة عالية وليكن ثمانى درجات أو تسع درجات ، أما البغى Strumpet التى تعمل فقط على اشباع شهوات هذا الانسان ، دونما أن تحاول التأثير على ادارته لشئون المجتمع ، فاننا سوف نعطيها صفرا . وبالنسبة للوضيع Rascal الذى يعرف كيف يغافل البشر دونما أن يعرفوا هويته سوف نعطى ثمانية أو تسع درجات أما

بالنسبة للص الجبان الذى يخطف قطعة من الفضة من على منضدة مطعم ويهرب ثم يقع فى أيدى الشرطة فاننا سوف نعطى درجة واحدة (١٤٦) .

ذلك يعنى أننا اذا تصورنا انقسام المجتمع الى عدة مجالات فانه من الممكن أن نميز فى كل من هذه المجالات الصفوات المؤهلة بأفضل العناصر من حيث الفاعلية فى اطار هذا المجال ، وهى الصفوة التى تساهم بقدر كبير فى صياغة تفاعله . هذا الى جانب وجود الصفوات المؤهلة بالعناصر لكنها لاتساهم بشكل مباشر فى صياغة هذا التفاعل . ثم الجماهير العريضة فى هذا المجال ، تلك الجماهير التى ليس أمامها سوى الخضوع لهذه الصفوات الأكثر فاعلية وقدرة . هذا مع الضرورى أن نأخذ فى الاعتبار أنه بغض النظر عن طبيعة المجال ، فان لكل مجال صفوته فمجالات الانحراف لها صفواتها ، ومجالات السواء لها صفواتها أيضا .

(ب) بعد أن انتهينا من تحديد طبيعة الصفوة ، نرى ضرورة التوضيح بأن تناول باريتو لقضية الصفوة قد تم فى ضوء الاعتبارات الأساسية التالية :

١ – يتمثل أول هذه الاعتبارات فى تأثر تناول باريتو لقضية الصفوة بعاملين أساسيين لهما الطابع التاريخى ، العامل الأول يتعلق بتأثير تعاقب صفوات اليمين واليسار على حكم ايطاليا بعد التوحيد ، ثم تناوب هذه الصفوات فى السيطرة على السلطة ، فى مقابل غياب الجماهير – خاصة جماهير الجنوب – عن المشاركة الفعالة – الحقيقة – على نحو ما أشرنا سابقا ، بيحث دفع ذلك باريتو الى التأكيد على دورة الصفوة واغفال الجماهير . أما العامل الثانى فيرجع ايمانه بالقوة كوسيلة أساسية للحفاظ على وحدة المجتمع الايطالى ، الحديث التوحيد ، وان أى تهاون فى التأكيد على وحدة المجتمع ولو بالقوة سوف تكون له آثاره على انهيار بناء المجتمع . ذلك يثير قدر من الشك حول الادعاء القائل بنقل باريتو لنظرية الصفوة عن معاصرة جيتانو موسكا .

٢ – أن دورة الصفوة لها علاقة بطبيعة النموذج البنائى السائد ، فكل المجتمعات سواء كانت مجتمعات الطائفة Caste System أو المجتمعات ذات البناء الطبقى المفتوح تحدث فيها دورة الصفوة . لكن الفارق بينهما يتمثل فى سرعة دورة الصفوات وأيضا فى حجم الآثار التى تنتج عن الدورة . بيد أن باريتو قد اعتقد أنه فى المجتمعات المفتوحة – طبعا – بصورة كاملة ، أى المجتمعات التى يسودها حراك اجتماعى كامل ، نجد أن مراكز الصفوة ترتبط عادة بالقدرات أو الطاقات المتفوقة للأفراد . أعنى أن

الصفوة فى هذه الحالة تتكون من أكثر البشر قدرة على الحكم والسيطرة فى المجال المحدد . بيد أن هناك حقيقة واقعية تتمثل فى أن العقبات التى قد تظهر فى المجتمع مثل الثروة الموروثة ، والارتباطات العائلية وكل العوامل الشبيهة هى التى من شأنها أن تعوق دورة الأفراد لاحتلال مختلف مراتب أو درجات المجتمع . ومن ثم نجد أن المسافة بين هؤلاء الذين يحملون لقب صفوة من ناحية ، وبين هؤلاء الذين يمتلكون القدرات العالية تميل الى الاتساع بدرجة أكبر أو أقل (١٤٧) ، وهو الأمر الذى يحدث عادة فى المجتمعات الانتقالية أو المجتمعات التى تعيش فى حالة من إزدواج المعايير .

٣ - أن التجسيد الواقعى للأفكار التحليلية التى طرحها باريتو تكشف أنه ليست هناك صفوات مؤهلة برواسب معينة بينا أخرى مؤهلة برواسب مختلفة ، فذلك أمر قد يصدق على المستوى التجريدى . بينما تشهد التفاعلات الواقعية على أن الصفوة تمر بثلاثة حالات ، الحالة الأولى تكون فيها رواسب الصفوة أقوى ماتكون ، هذه الحالة هى حالة من فرض الاستقرار الاجتماعى أو هى حالة ( الأسود ) فى السياسة أو ( المحافظون ) فى الاقتصاد . أما الحالة الثانية التى تنتقل اليها الصفوة ، فهى الحالة التى تحاول الصفوة بواسطتها الامساك بمقاليد القوة سواء بأساليب الخداع أو عن طريق ابتكار نظريات وأفكار ( مشتقات ) تؤكد فاعليتها . فى الحالة الأولى تمتلك الصفوة فئة الرواسب الثانية ، والتى تؤكد على استمرار التجمع والاستقرار ، وفى الحالة الثانية تسود مجموعة رواسب الفئة الأولى ، التى تؤكد على تأكيد الترابطات ، والمغامرة والمخاطرة والتجريب . وبين الحالتين تسود حالة انتقالية تختلط فيها رواسب الحالتين معا - وان كانت هذه الحالة الانتقالية هى الحالة الأصل ، بينما الحالات المستقطبة ، التى تكون فيها رواسب الصفوة نقية ، هى التى تسود الفترات الاستثنائية فى تاريخ المجتمعات - حيث تكون الصفوة فى هذه المرحلة خليط من الأسود والثعالب ، أى خليطا من البشر الخياليين الذين يميلون الى التجديد - الأسود - لتأكيد استقرار وتوازن البناء الاجتماعى . غير انه حينما تحدث بعض العوائق فى دورة الصفوة تمنعها من تحقيق هذا الخليط الممتاز بين الحالتين ، فاننا نواجه بأحد احتمالين ، فاما أن ينهار النظام الاجتماعى ويميل الى حالة من المحافظة الشديدة الثبات حيث البيروقراطية المتضخمة والعاجزة عن التكيف أو تأسيس أى تجديد . أما الاحتمال الثانى فهو الانحدار الى حالة من حياة المجتمع فى ظل نظم اجتماعية تضم كثيرا من البلاغيين المنازعين والعاجزين عن الفعل القوى والصارم . واذا حدث ذلك ، فان المحكومين سوف

يكونوا قادرين على الاطاحة بحكامهم ، لكى تصعد صفوة جديدة وقادرة على تأسيس نظام اجتماعى أكثر فعالية (١٤٨) .

٤ – أنه الى جانب دورة حالات الصفوة الواحدة ، هناك دورة للصفوات ذاتها . وفى هذا الصدد يمتلك كل مجتمع بصورة دائمة نموذجين للصفوة ، نمط المجددون أو المضاربون Speculator ، ونمط المحافظون Rentier . وحينما يمتلك المجتمع نموذجى الصفوة هذين ، فانهما يتناوبا حكم المجتمع بعيدا عن مشاركة الجماهير . وحينما يكون النموذج الأول ( المجددون أو المضاربون ) ، هو المسيطر على الحكومة أو هو النمط الذى يسود الحكومات الديمقراطية أو حكومات الصفوات الثرية ، حيث توضح المجموعة الأولى ميلا نحو تأسيس الارتباطات الجديدة . ومن خلال احتلالها للسلطة فانها عادة تدعم الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية ، وهم عادة مايخدعون الجماهير المحكومة من خلال الوعود والآليات الانسانية والديموقراطية العديدة ، وما الى ذلك .

ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك الى الفساد ونصب المكائد التى تؤدى إن عاجلا أو آجلا الى نتائج مهلكة . وهو مايدفع الى التجاوز الحتمى للطبقة العليا بواسطة النموذج المضاد ، المحافظون . وبهذه الطريقة فان تبدل هذه النماذج يحدث فى مختلف الأزمنة والمجتمعات ، ومازال مستمر حتى الآن . وحسب ما يذهب باريتو ، فان غالبية الحكومات الديموقراطية فى فترة ماقبل الحرب كانت تتكون من المضاربين الفاسدين ، ومدبرى المؤمرات البرلمانيين . حيث امتلكوا القدرة على تأسيس الارتباطات ، برغم فسادهم البين خلال هذه الفترة . غير أنهم كانوا فى ذات الوقت ذوى قلوب رحيمة وذوى نزعات انسانية ، حتى أنه تم تجاوزهم بواسطة المحافظون ( وبغض النظر عن مميزات مثل هذا الموقف أو مساوئه ) فان الأحداث أكدت الى حد كبير توقعات باريتو (١٤٩) .

غير أنه ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار أن دورة الصفوة ودورة الصفوات ليست لها مداراتها المتباينة ، وانما نجدها تدور فى مدار واحد . وفى هذا الصدد نجد أن الصفوة قوية خلال الحالات الثلاث اذا هى حافظت على رواسبها . بيد أنها حينما تدخل فى المرحلة الثانية – وهى المرحلة التى تشهد انهيار هذه الرواسب – فانها بذلك تمهد للانتقال الى المرحلة الثالثة حيث محاولة جذب عناصر من الطبقات الدنيا مزودة برواسب جديدة ، تعمل على دعم قوتها بها . غير أنه أحيانا ماتحدث عوائق تؤخر وصول الدعم من أسفل أو تمنعه تماما ، هنا تصل الصفوة الى أدنى مستوياتها ضعفا ، بحيث تشكل

بذلك هدفا لقفز الصفوة المتربصة على السلطة والاطاحة بالصفوة الضعيفة ، ومن ثم تكتمل دورة الصفوات لكى تبدأ دورة حالات الصفوة من جديد .

٥ – ان الصفوة عند باريتو ليست الصفوة السياسية فقط – حيث أكدت معظم التحليلات النظرية التى تناولت قضية الصفوة على هذا الجانب فقط – ولكن هناك أيضا الصفوة الأقتصادية . واذا كانت دورة الصفوة السياسية بين الثعالب والأسود ، فان دورة الصفوة الاقتصادية تكون عادة بين المضاربون والمحافظون . ومن الطبيعى أن تدور الدائرتين فى مدارات متوازية . حيث تتداخل المراحل السياسية للدورة بدقة مع المراحل الاقتصادية ، ومن ثم تترابط الصفوات . فمثلا الصفوة التى تدعم تأسيس الارتباطات Combina-tion Type تضم بداخلها المضاربون Speculators على الجناح الاقتصادى والثعالب Foxes على الجناح السياسى(١٥٠) . فى حين تتداخل مرحلة الأسود Lions على الصعيد السياسى مع صفوة المحافظون أو المدخرون على الصعيد الاقتصادى وذلك فى اطار صفوة الحفاظ على استمرار التجمع . ويرتبط بذلك صفوة ثالثة وموازية ، وهى الصفوة الثقافية ، حيث يتوازى مع ثعالب السياسة ومضاربى الاقتصاد مجموعة المثقفين الذين لديهم ايمان كامل بالنظرية العلمية ، أو الذين يتخذون الشك مدخلا لادراك الحقيقة . وذلك فى مقابل توازى المؤمنون بالخبرة الدينية ، الذين يتخذون الايمان مدخلا الى الحقيقة ، مع أسود السياسة ومحافظوا الأقتصاد ، وهو مايعنى طرح باريتو لمفهوم تعددية الصفوة بصورة مبكرة للغاية .

(ج) أما القضية الثالثة والتى تتعلق بخصائص الصفوة فأننا نجد أنه اذا كانت خصائص الصفوة هى ذاتها خصائص الجماهير ، فاننا نجد أن الرواسب عند الصفوات أقوى منها عند الجماهير . وهو مايفصل الصفوة عن جماهيرها . هذا الى جانب أن الصفوات تختلف عن بعضها بالنظر الى طبيعة وقوة الرواسب التى لديها . وفى هذا الصدد سوف نعرض لثلاثة قضايا أساسية . الأولى تتعلق بأنماط الصفوة بالنظر الى خصائص كل نمط ، ثم نعرض الي الوظيفة الاجتماعية للصفوات بالنظر الى خصائص كل منها ، ثم قضية اختلاط الصفوات .

١ – وفيما يتعلق بالقضية الأولى نجد أن الصفوة التى تعكس رواسب الفئة الأولى ، هى عادة الصفوة التى ينتمى أفرادها الى الثعالب فى السياسة والمضاربون فى الاقتصاد ، والشك أو الايمان بالفكر العلمى فى نطاق الثقافة والفكر ، ومن الطبيعى أن

تمتلك هذه الفئة من الصفوة عدة خصائص أساسية . فرواسبها تفرض عليها أن تجبر البشر على بناء النسق أو النظام ، أعنى تأسيس مجموعة الارتباطات المنطقية الزائفة بين الأفكار . هذه الفئة عادة ماتقودها رواسبها الى محاولة السيطرة على مختلف العناصر المكونة للخبرة الواقعية والتحكم فيها . أيضا تدفع رواسب هذه الفئة أفرادها للمشاركة فى الاحتكارات الكبرى ، اذ نجدها تدمج المشروعات ، وتربط فيما بينها ، وتعيد الربط بينها وبين مجموعة ثالثة من المشروعات . على الجانب السياسى نمثل لهذه الفئة بهؤلاء الذين أطلق عليهم ميكيافيلى الثعالب ، القادرون دائما على التجربة والتجريب ، والانحراف أو الابتعاد عن ماهو سائد .

هذه الفئة تتسم عادة بعدة خصائص أساسية ذات طبيعة أخلاقية . منها افتقادها الولاء للمبادئ . أو لتلك القيم المحافظة التى تؤكد على الاستقرار الاجتماعى (١٥١) . وفى هذا الصدد يؤكد تالكوت بارسونز أن الأشخاص الذين تقوى لديهم رواسب الترابط عادة مايهتمون بالحاضر على حساب المستقبل . يؤكدون على ماهو حالى أفضل مما هو مرجأ فى المستقبل البعيد ، يؤكدون على السلع والاشباعات المادية وليست المثالية أو المعنوية ، يؤمنون بتفوق المصالح الفردية على مصالح الجماعة ، أيا كانت طبيعة الجماعة ، سواء كانت العائلة أو المجتمع المحلى أو حتى الدولة . يتميز أفراد هذه المجموعة أيضا بالميل الى التجديد والابداع ، وتأسيس التصورات ، والتوقعات ، وعادة ماتكون لديهم ميول قوية لتحقيق أهدافهم وذلك لامتلاكهم المهارة والدهاء (١٥٢) .

٢ - وتضم المجموعة الثانية الصفوة التى تعكس رواسب الفئة الثانية ، وهى الفئة التى تؤكد على استمرار التجمعات Persistence of aggregates . وتضم هذه المجموعة تلك الصفوة التى تؤكد على قوى المحافظة على الوضع القائم ، ويمثلها البشر الذين تظهر لديهم رواسب الفئة الثانية قوية ، حيث التأكيد على دوام التجمعات . وعادة مايتميز البشر المكونين لهذه الصفوة بمشاعر قوية نحو العائلة ، القبيلة ، المدينة أو الأمة . وهم يلعبون دورا رئيسيا فى تأكيد الوحدة والتضامن الطبقى ، ولديهم احساس كبير بالوطنية، وأيضا يسود لديهم شعور بالحماس الدينى ، وهم لايخافون من استخدام القوة متى فرضت الضرورة ذلك ، وهؤلاء نمثل لهم بالأسود عند ميكيافيلى (١٥٣) .

وتتميز هذه الصفوة من الناحية الأخلاقية بالمحافظة على استقرار الترابطات أو التجمعات متى تشكلت . وعادة مايتميز أعضاؤها بالثبات على مواقفهم ، والنزعة

المباشرة لتناول الأحداث ، وأيضا الارادة القوية للموافقة على الصراع الصريح متى فرضت الظروف ذلك . ولديها ميل لتجاوز العقبات ، ومن ثم استخدام القوة ، يؤمنون بالتقاليد أكثر من ايمانهم بالتجديد ، يعزفون فى العادة عن الحيل والمكر والدهاء فى معالجتهم للمسائل . بالاضافة الى ذلك فهم فى العادة يخضعون مصالحهم لمصالح الجماعة ، أيا كانت طبيعة الجماعة التى ينتمون اليها (١٥٤) .

٣ - أنه بالنظر الى هذه الخصائص المنسوبة لكل من جماعات الصفوة ، فاننا نجد أنها تقوم بوظائف مختلفة بالنسبة للمجتمع . حيث تؤدى مجموعتى الصفوة وظائف ذات نفع مختلف بالنسبة للمجتمع . فجماعة ( المضاربون فى الاقتصاد والثعالب فى السياسة ) عادة مايكونون مسئولين أساسا عن التغير ، وأيضا عن التقدم الاجتماعى والاقتصادى . أما جماعة ( المحافظون فى الاقتصاد والأسود فى السياسة ) فعادة مانجدهم بدلا من ذلك يشكلون عنصرا قويا فى الاستقرار اجتماعى ، وعادة مايشكلون مواجهات قوية لمخاطر ( دخول المضاربون ) فى مغامرات ذات طبيعة طفرية وخطيرة . وعادة مايظل المجتمع اذى يسيطر عليه ( المحافظون ) ثابتا ومستقرا ، أما المجتمع الذى يسيطر فيه ( المضاربون ) فعادة مايكون مجتمعا يفتقد الاستقرار ، ويعيش حالة من اهتزال التوازن ، الذى قد ينهار كلية بفعل عوامل ذات طبيعة عرضية من الخارج أو من الداخل (١٥٥) .

غير أن ذلك قد يعنى أيضا أن تقع أو تؤدى هذه الوظائف فى مرحلتين من حياة الصفوة الواحدة . فمرحلة البناء والتأسيس فى تاريخ أى نظام اجتماعى وسياسى عادة ماتتلوها مرحلة من الاستقرار لاستيعاب التفاعلات التى تمت خلال مرحلة التأسيس هذه . أو أن هذه الوظائف تؤديها صفوتين فى تاريخ المجتمع الواحد . هذه الأفكار نجد نظيرا لها فى أنماط السلطة عند ماكس فيبر ، وهو ماعرضنا له سابقا .

٤ - أن الخصائص التى عرضنا لها لا توجد فى العادة نقية فى الواقع على النحو الذى عرضنا له ، وانما عادة مايحدث تداخل فى خصائص الصفوات فى حالتين . الحالة الأولى ، فى المراحل الانتقالية حيث تحاول الصفوة احتلال مكان صفوة أخرى ، أما الحالة الثانية فهى الحالة التى تدخل فيها الصفوة احدى مراحل ضعف خصائصها ، ومن ثم تحاول دعم خصائصها بأفراد من الطبقات الدنيا . ويحدد هذا الوضع بالتفرقة بين حالتين تمر بهما الصفوة فى هذا الاطار ، حالة تطابق الصفوة مع كفاءتها ، وحالة انفصال طبيعة الصفوة عن كفاءتها أو بعض خصائصها .

ولتوضيح ذلك نجده يؤكد ان جماعة الأثرياء ، والأرستقراطيات التجارية والدينية ، والعسكرية ، يمكن أن تشكل فى البداية عناصر من الصفوة الحاكمة ، وفى بعض الأحيان تشكل كيانها بأكمله . اذ يعتبر المحارب المنتصر ، والتاجر الثرى ، والوافرى الثراء بشرا يشكلون هذه العناصر ، كل فى مجال اهتمامه ، باعتباره يسمو بقدراته على أصحاب القدرات العادية أو المتوسطة . فى مثل هذه الظروف نجد أت مفهوم الصفوة يتصل الى حد كبير بقدراتها الحقيقية . ولكن بمرور الزمن ، تحدث اختلافات واضحة للغاية بين مفهوم وخصائص الصفوة من ناحية وبين قدراتها من ناحية أخرى . فالأرستقراطيات لاتدوم ، ذلك لأن التاريخ هو مقبرة للأرستقراطيات ، ومن ثم تنهار هذه الأرستقراطيات ليس من حيث عددها فقط ، ولكنها تنهار كيفيا أيضا ، بمعنى أنها تبدأ فى افتقاد جوهرها ، وهو مايعنى تضاؤل فى نسب أو مقادير الرواسب التى مكنتها من كسب السلطة والحفاظ عليها . بحيث يفرض عليها ذلك ضرورة أن تستعوض نفسها من العناصر ذات الرواسب القوية من الطبقة الدنيا والتى تحضر معها جوهر ونسب الرواسب الضرورية للحفاظ على الصفوة فى مواقع السلطة والقوة ، ومن ثم فاذا لم يحدث دعما لها من الطبقات الدنيا فان ذلك قد يعتبر أحد الأسباب الرئيسية لاهتزاز التوازن الذى يتمثل فى تراكم العناصر السامية ذات التفوق فى رواسبها فى الطبقات الدنيا ، والعكس صحيح ، تراكم العناصر المتدنية فى الطبقات العليا (١٥٦) .

(د) وفى أعقاب تحديدنا لطبيعة أو ماهية الصفوة ، وخصائصها والاعتبارات الأساسية التى تتناول من خلالها الصفوة ، نعرض الآن لقضية دورة الصفوة باعتبارها قضية مترتبة على القضايا السابقة . ولتوضيح ذلك يؤكد باريتو أن الرواسب تتغير فى المجتمع ككل ، غير أن ذلك يتم ببطئ ، وببطئ أكثر تتغير معظم فئات الرواسب كل فى علاقتها بالأخرى . غير أنه بسبب ضعف حجم الصفوة أو قوة رواسبها ، فان ذلك من شأنه أن يدفع الى ظهور حقيقة تتمثل فى خضوع معظم المجتمعات لعملية مستمرة هى ( دورة الصفوة Circulation of the elite ) التى يصعد من خلالها بعض الأفراد – الذين يشكلون صفوة – الى مواقع الصفوة ، بينما يهبط آخرون – الذين كانوا يشكلون صفوة أيضا – من مواقع الصفوة الى القاع ، وخلال هذه العملية قد تتغير راديكاليا طبيعة الصفوة فى وقت قصير نسبيا .

ويدرك باريتو هذه العملية باعتبارها ذات طبيعة دائرية أساسا ، وهو يدركها من

خلال ثلاثة مراحل متداخلة نعرض لها فيما يلى :

١ - وتتعلق المرحلة الأولى بمكانة الصفوة الحاكمة كما هى عليه . وتتحدد بداية التحليل من تلك المسلمة العامة التى تذهب الى التأكيد بأن هناك قدرا من التناقض الطبقى حتى أن الحكومة لاتعتبر مجرد ادارة روتينية ولكنها تستهدف الحصول على بعض الوسائل التى تيسر لها امتلاك السلطة والحفاظ عليها . وتنقسم هذه الوسائل بالنسبة لباريتو الى وسيلتين رئيسيتين هما القوة Forcc ، الخداع Ruse . ولاتحتاج القوة الى توضيح ، فهى تعبر عن ممارسة القهر الفيزيقى أو التهديد به فى بعض الظروف الحرجة التى تتطلب ذلك . وذلك كوسيلة للحصول على الولاء والخضوع . بينما يعنى الخداع أسلوبا كاملا يبدأ من البراعة فى الخداع والمناورة التى تخاطب العواطف والمصالح ويصل الى حد الاحتيال الصريح .

ومن الواضح تماما أنه طالما أن فئتى الرواسب منفصلتين عن بعضهما - وهما كذلك الى حد كبير بالنسبة لباريتو - فان البشر الذين يمتلكون رواسب استمرار التجمع سوف يميلون الى استخدام القوة والمخاطبة المباشرة لعواطف التجمع الذى يشاركون فيه . بينما سوف يستخدم البشر ذوى رواسب الترابط الخداع أساسا ، حيث يعملون على استغلال المصالح والعواطف التى لايشاركون فيها .

وحينئذ تتمثل الدورة فى تبدل سيطرة فئتى الرواسب على الصفوة الحاكمة . ويبدأ باريتو بملاحظة أن الصفوة الحاكمة التى لاتكون راغبة أو تكون عاجزة عن استخدام القوة للحفاظ على مراكزها ، تطرح نفسها فريسة سهلة لجماعة صغيرة ، جيدة التنظيم وذات قيادة فعالة ، ولديها استعداد لاستخدام القوة لتحقيق غاياتها ، وهو يسمى هؤلاء البشر بالأسود . وتبدأ الدورة بصعود هذه الجماعة الى سدة السلطة من خلال استخدام القوة أو التهديد بها ، وعادة مانجد أن هؤلاء البشر أقوياء فيما يتعلق برواسب استمرار التجمعات التى لديهم ، هذا بالاضافة الى أن لديهم ايمان عميق يشتركون فيه مع أتباعهم .

غير أن هذه الخصائص ، برغم فعاليتها ، فى مساعدة حاملها على الصعود والامساك بالسلطة ، إلا أنها ليست فعالة بنفس القدر فى تمكين الجماعة الحاكمة فى الحفاظ على السلطة والابقاء عليها تحت سيطرتها . حيث أنه اذا كان بامكانها استخدام

القوة بفاعلية أكثر بالنسبة لمن لها سيطرة عليهم أو الداخلين فى اطارها ، غير أن استخدام القوة لن تكون له هذه الفاعلية لمن هم ليسوا اتباعا أو ضد المواطنين الآخرين خلال فترة أو عملية فرض النظام فى المجتمع أثناء وجود هذه الصفوة فى السلطة . وهنا يظهر لديها ميل قوى لاحياء غرائز الترابطات Combinations ، أى القدرة على الخداع . ومما لا شك فيه أن هذه الظروف تساعد على تغير دورة الصفوة ، حيث يؤدى الاعتماد على أساليب المكر والخداع كوسيلة للحكم ، وأداة لفرض النظام والسيطرة ، الى ظهور فئة من البشر فى اطار الصفوة الحاكمة محنكون فى عمليات المكر والخداع ، غير أنهم لم يشاركوا فى الايمان الذى شركت فيه الصفوة الأولى المؤسسة للنظام . ومن ثم نجد أن رواسب استمرار التجمع تبدأ فى الخفوف فى بناء الصفوة الحاكمة ، وذلك بالنظر الى حقيقة أن ضرورات الموقف الذى تعيش فى اطاره تتطلب بدرجة أقل الخصائص أو الرواسب المرتبطة بها - رواسب استمرار التجمع . وأيضا لأن هذه الرواسب قد خفت حدتها بسبب الأشخاص الذين صعدوا اليها من أسفل ودخلوا الى بناء الصفوة بسبب ضعف الأخيرة ، برغم اختلاف رواسبهم عنها . ومن ثم فاذا نشأ عداء أو تناقض مع قوى خارجية أو داخلية فاننا نجد أن الصفوة الحاكمة تلجأ الى التعامل معه من خلال المكر والخداع بدلا من تجاوزه باستخدام القوة . ومن ثم يظهر اتجاه مؤداه أن عمليات الحكم تصبح مكلفة بدرجة أكثر فأكثر ، وذلك من طبيعته أن يفرض عبئا على الامكانيات التى يعتقد أنها ملائمة للبحث عن أساليب لا تتضمن استخدام القوة لفرض النظام .

وأخيرا فإنه ارتباطا بهذه العناصر ، تتجلى حقيقة أن مجرد الامساك بالسلطة والسيطرة عليها بصورة سهلة ، فان ذلك من شأنه أن يضيف رواسب الاستمرار فى بناء الصفوة الحاكمة . فاذا كانت السلطة - وهى الهدف المباشر - قد تم الحصول عليها ، فان الأهداف العليا التى كانت قريبة ، تصبح بعيدة ، وبالتالى يركن أعضاء الصفوة الى الدعة ، ويجنون ثمار انتصارهم . ذلك أمر حقيقى طالما أنه يحدث فى الغالب ارتباطا بين عمليات اضعاف رواسب الاستمرار من ناحية ، وازدهار الثمار النهائية للحضارة من ناحية أخرى ، وهى المسألة التى من الطبيعى أن نجد صدى لها بصفة خاصة لدى الصفوة الحاكمة .

بالاضافة الى ذلك تقع نفس العملية ، لكنها معكوسة ، على جانب المحكومين . فمن ناحية ، نجد أن العواطف التى على أساسها احتلت الصفوة الحاكمة ، مواقع السلطة يتم ازدراؤها وذلك بسبب تخفيف dilution رواسب الاستمرار ، وأيضا تحول الخداع وتعمقه بحيث أصبح نوعا من الاحتيال . ومن ناحية أخرى يؤدى تغير شروط دورة الصفوة الى تراكم البشر القادرين فى الطبقات الدنيا الذين لديهم رواسب استمرار التجمع قوية ، والذين يشاركون فى ذات العواطف ، ولديهم رغبة قوية فى استخدام القوة . ويعتمد مدى اعتبار الموقف غير مستقر الى حد كبير ، بالقدر الذى تكون فيه الصفوة قادرة على حرمان المحكومين من قياداتهم . فاذا كانت الصفوة مفتوحة وأباحت صعود هؤلاء البشر اليها ، فان الأمر قد يستمر على هذا النحو لوقت طويل جدا . غير أن تعرض الصفوة لهذا التعديل ، قد يؤدى الى زيادة سيطرة البشر الذين يضمون رواسب الترابط بقوة ( الثعالب ) ، ومن ثم فسوف يؤدى ذلك الى تخفيض امكانية المقاومة بالقوة . ومن ناحية أخرى ، تتزايد احتمالية العداء المزود بالقوة أما من الخارج ، أو من أسفل من الطبقة الدنيا ، وتكون النتيجة هى الاطاحة الحتمية بالصفوة الحاكمة ، ومن ثم بداية دورة جديدة .

٢ – واذا كان ماسبق يمثل الوجه أو المرحلة السياسية فى الدورة ، فانه ارتباطا بهذا الجانب السياسى للدورة يوجد جانب اقتصادى آخر . حيث نجد أن نموذج الصفوة الذى تسود لديه رواسب تأسيس الترابطات ( المضاربون ) حيث هم القسم الاقتصادى المقابل ( للثعالب السياسيون ) . حيث يؤدى التغير العام فى طبيعة الصفوة الحاكمة – الذى يلقى بظله على الصفوة غير الحاكمة – الى احتلال قمة السلطة بواسطة فئة المقاولين من هذا النوع ، هؤلاء المقاولون عادة مايكونوا قادرين على تأسيس المشروعات من كل نوع . وتكون النتيجة الحتمية لذلك هو انتشار حالة من الرخاء ، طالما أن هؤلاء البشر يتولون توجيه دفة الأمور الاقتصادية أو سحبها من يد أصحاب العقول التقليدية . ويميل ظهور هذه الفئة الى التطابق مع صعود فئة الثعالب . وذلك لأن السياق الاجتماعى العام يكون ملائما لكلا نموذجى الصفوة . وأيضا بسبب طبيعة العلاقة المتبادلة بين الصفوتين . ومن ناحية أخرى ، فان الحكومة عادة ماتكون لها السلطة الكاملة على الفرص الاقتصادية ، ويمكن أن تعتبر سياساتها وسائل هامة للغاية لفتح الأبواب أمام المضاربين . ومن ناحية تالية ، فان تنامى تكاليف الحكومة يجعل ( المضاربين ) مرتبطين بالمثل بالثعالب ، ومن ثم فانتشار سيطرة كل منهما تميل الى التطابق . ويمكن القول بأنه

ليس هناك مكان محدد فى النشاطات الاقتصادية البحتة لجماعة الأسود ، طالما أن استخدام القوة كوسيلة للتملك ينقل الفعل من المجال الاقتصادى الى المجال السياسى . غير أن هناك بلا شك نموذج يتميز بانتشار رواسب الاستمرار يسميه باريتو المحافظون Rèntieas . وبرغم أنهم ليسوا أفرادا يفضلون استخدام القوة ، فاننا نجدهم تقليديون محافظون يرفضون تجديد المضاربين ، وتكمن أهميتهم الوظيفية فى الاطار الاجتماعى ، فى حقيقة أنهم المدخرون . فى حين أن المضاربون ، برغم كونهم منتجين عظاما فهم مسرفون ، يستغلون المدخرات ، وبالنسبة لدورهم فى دورة الصفوة فهم يعتمدون على تراكم المدخرات . ويؤكد باريتو كثيرا على التمييز بين المضاربين والمحافظين - بين المقاول والمدخر - حيث أن الصراع بينهما قد يصبح فى بعض الأحيان أكثر أهمية من الصراع الذى تؤكد عليه النظرية التقليدية والذى يدور حول الخلاف بين العمل ورأس المال .

ويتميز النموذج المحافظ بالميل الى الادخار ، وذلك نتيجة للحساب الاقتصادى الرشيد ، وأيضا بسبب القوى غير المنطقية الكائنة بداخله . وهم كفئة ، حسبما يذهب باريتو ، يعيشون من أجل مصالحهم ، وتكمن نقطة الضعف الهائلة فيهم ، فى أنه من الممكن استغلالهم من قبل المضاربين . ومن ثم فطالما أن دورة الصفوة تتجه الى مرحلة المضاربة ، فان الخطر الذى يبرز هو احتمالية استنزاف المدخرات ، وعادة مايتخذ ذلك على الجانب السياسى شكل ضعف نظام حكم ( الثعالب ) عن نفسه ضد القوة التى تفرض حدا لمرحلة الترابطات فى الدورة . أما على الجانب الاقتصادى فان هذه النهاية توضع بسبب عدم قدرة المضاربين على الادخار . وعلى ذلك فمن الممكن أن يتصل العنصران بقوة ببعضهما لبعض . وبرغم أن المحافظين يتصفون بصورة عامة بالجبن والقابلية للاستغلال ، إلا أنه من الممكن فى ظروف معينة اثارتهم ودفعهم الى النشاط السياسى ، بحيث يشكلون من أنفسهم عنصرا هاما يدعم ( الأسود ) السياسيون ضد ( الثعالب ) .

٣ - ويتمثل الوجه الثالث للدورة فى الوجه الثقافى والأيديولوجى أو مايعرف بالمشتقات ، حيث تشهد هذه المرحلة أو هذا الوجه ، ظهور الأيديولوجيات التى تمهد السبيل الى العناصر الهامة فى التفسير النظرى . ويمكن النظر الى هذه الأيديولوجيات ، أو نظريات التحليل السابق من زاويتين ، الداخلية والخارجية . حيث

تتصل الأولى بمدى اتصال الأيديولوجيات أو النظريات بالحقائق ، أما الثانية فتهتم بالقوى المسئولة عن انتاجها ، والموافقة عليها فى اطار سياق اجتماعى بعينه .

وبرغم أن كل النظريات المعنية ليست علمية إلا أنه يمكن التمييز الواضح بين نموذجين أساسيين من هذه النظريات ، حيث تتسم نظريات النموذج الأول بالطبيعة غير العلمية الصريحة أو الواضحة . وهذه النظريات تميل عادة الى التقليل من قيمة وأهمية العلم الوصفى لصالح ذوات entities تعلو علـى ذلـك ( كالحـدس ) ، ( الخبرة الدينية ) ( المطلق ) ، ( العلم اللدن ) .. الخ . ودائما مايكون متضمنا فى اطار ذلك نطاقا أعلى متخلفا أو مفترضا ، يختلف عن عالم الحقيقة التجريبية . أما المبادئ التى تدعمها هذه النظريات ، فهى تلك المبادئ التى تفترض شيئا أعلى من الحقائق ، وليس العكس ، كما هى الحال بالنسبة للعلم . ومن ناحية أخرى ، نجد أن النموذج الآخر من النظريات ، برغم أنها نظريات لم تكتسب الشرعية العلمية ، كالنظريات العلمية الزائفة ، فانها تحاول أن تماثل نفسها قدر الامكان بالعمل ، حيث تعمل على دعم سلطة العقل ، وكل مايمكن أن يصبح ذواتا حقيقية . وهى تتضمن أيضا تشهيرا كاملا بنظريات النموذج الأول ، ومن ثم نجد أن باريتو يتحدث عن بعض الأزمنة ، حيثما تسود النظريات الأولى ، باعتبارها ( أزمنة الايمان Faith ) ، بينما تميز سيادة النظريات الأخيرة عصور ( الشك Skepticism ) .

ومن وجهة النظر الخارجية نجد أن هذين النموذجين من النظريات يرتبطان ، بقدر ما ، برواسب الاستمرار ، وأيضا برواسب تأسيس الترابطات . وبطبيعة الحال ، بالعواطف المتصلة بهذه الرواسب ، اذ تعتبر الفترة التى يسود فيها ( الثعالب ) أو ( المضاربون ) فترة تتميز بالشك ، بينما عصر ( الأسود ) ( المحافظون ) عصرا يتميز بالايمان . ذلك يقدم المفتاح الأساسى للتفسير النظرى للدورة العامة ، اذ يوضح التمييز بين نموذجى النظريات أن فئتى الرواسب التى ترتبط بها لا تقع على نفس المستوى التحليلى . وانما تتحدد أساسا بواسطة حضور أو غياب خصائص معينة ، كالايمان فيما يتعلق بواقعية بعض الذوات غير التجريبية على سبيل المثال . وفى هذا الاطار تعتبر الغايات المثالية هى العنصر الرئيسى - على الأقل - فى رواسب استمرار التجمعات ، حيث غالبا ماتفترض الطبيعة الترنسندنتالية لهذه الغايات . ومن ثم يعتقد أن هذه الغايات المثالية ، تمارس نوعا من التنظيم على السلوك ، ويرتبط بذلك أن تتجلى

نفس العواطف ، التى تتجلى فى مثل هذه الغايات المثالية ، فى قدر كبير من الطقوس التى تنجز بالنظر الى دوافع - تتجاوزالدوافع النفعية - تتعلق بالايمان أساسا .

وفى مقابل ذلك ، فان سيادة غريزة الترابطات ، من ناحية أخرى ، نمثل الى حد كبير حالة تشهد على غياب الضبط الفعال الذى يمكن أن تمارسه هذه الغايات المثالية . أو العناصر القيمية على السلوك . وهنا نجد أن تركيز الانتباه عادة مايكون على ماهو حاضر ومباشر أكثر من التركيز على ماهو نهائى ، أو مستقبلى ، أعنى التركيز على اشباع الشهوات والسعى من أجل الثروة والسلطة (١٥٧) .

ذلك يعنى أننا فى مواجهة دورة معقدة للصفوة تتسم بالملامح الرئيسية التالية :

(أ) أن هناك صفوتين على المستوى السياسى ، احداهما مزودة برواسب القوة - رواسب استمرار التجمعات - من الفئة الثانية للرواسب . وأنها صفوة تعكس نمط شخصية الأسود الذين تحدث عنهم ميكيافيلى ، وهم عادة تقليديون ، مؤمنون ، حاملى قيم يعملون دائما على استقرار النسق الاجتماعى .

(ب) ذلك فى مقابل الثعالب - الذين حدد أوضاعهم ميكيافيلى أيضا - وهم المزودين برواسب الترابطات ، من الفئة الأولى ، وهم يمثلون الصفوة الديناميية فى تصور باريتو للصفوات . وهم عادة مخادعون ، يمارسون امتلاكهم للسلطة والحفاظ بها على أساس من المكر والخداع ، شكيون ، رافضون التقاليد ، مؤمنون بالعلم ، وبالاشباع الحالى والحاضر .

(ج) أن الانتقال من الصفوة الأولى الى الثانية عادة مايكون سببه ضعف رواسب الصفوة ، ومن ثم اذا هى عجزت عن جذب أعضاء من الطبقة الدنيا لديهم رواسب قوية ، فانها تجد نفسها تعمل برواسب غير رواسبها ، ومن ثم تجد نفسها وقد تحولت الى ممارسات الثعالب ، وبذلك تصبح فريسة سهلة لصفوة أسود قوية برواسبها وقيادتها .

(د) أنه يرتبط بذلك ، دورة أخرى أو مناظرة للصفوة ولكن فى المجال الاقتصادى ، حيث المحافظون مدخرون ، متقشفون يعملون على استقرار النظام الاقتصادى ، وهم هنا يناظرون أسود السياسة ، ويحتاجهم الأخرون . وذلك فى مقابل المضاربون أو المقاولون ، الذين يستغلون مدخرات المحافظين فى تأسيس المشروعات واشاعة حالة من البذخ ، لكن افلاسهم يقود الى ضرورة تجاوزهم من قبل صفوة اقتصادية جديدة .

(هـ) أن كل من هذه الصفوات لديها أيديولوجياتها أو نظرياتها أو لنقل مشتقاتها . فالأسود عادة مايؤمنون بالنظريات التى تركز على الحدس ، الخبرة الدينية ، والايمان العميق بذوات غير واقعية ، ولديهم أيضا ايمان بالمثل والغايات العليا التى توجه سلوكهم . أما الثعالب ، فلديهم ايمان بالنظريات العلمية ، الشك مدخلهم الى ادراك الحقيقة ، تنتفى لديهم المثل العليا التى توجه سلوكياتهم الواقعية ، ويوضح الشكل التالى دورة الصفوة بأقسامها الأساسية على مختلف المستويات الاجتماعية .

**خامسا : النسق الاجتماعى بين التوازن والتغير .**

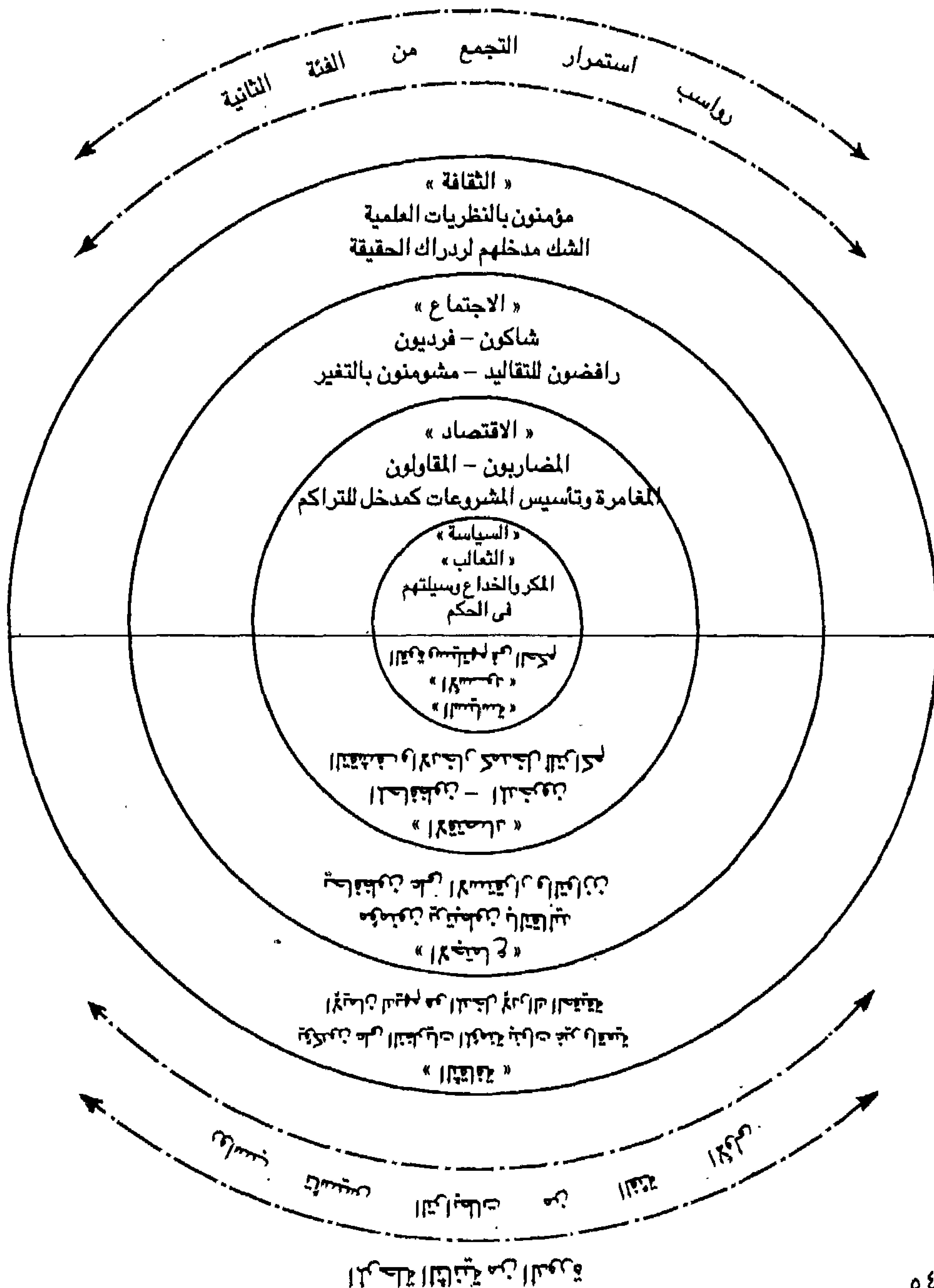
تكشف دراسة أفكار باريتو عن تغير أو عدم ثبات الظواهر الاجتماعية العديدة ، عن تطويره لمجموعة من النظريات الدائرية فيما يتعلق بعديد من العمليات الاجتماعية . ومن الواضح أن التطور الخطى Linear ظل غريبا عليه فيما يتعلق بالتغير الاجتماعى ، فقد أوضح فى أماكن كثيرة من كتاباته زيف الاتجاهات أو القوانين التاريخية المتعلقة بالتطور . بالاضافة الى ذلك فقد أبدى سخريته من النظريات التطورية التى تؤكد على مراحل محددة للتقدم . وهو يذهب الى أن ما هو حقيقى فى التاريخ يتمثل فى تلك التقلبات أو التأرجحات التى تمتد لفترات زمنية قد تطول أو تقصر ، والتى تختلف من حيث مدى التغيرات التى تفرضها أيضا ، اذ لم يرى باريتو أى دليل يؤكد على وجود تطور دائم ومستمر للمجتمع أو النظم الاجتماعية حسب خطوط محددة (١٥٨) .

ويكشف البحث فى نظرية باريتو عن التغير الاجتماعى أن نظريته لا تنفصل كثيرا عن أفكاره النظرية فيما يتعلق بتوازن النسق الاجتماعى وتأكيد استقراره . بل ان التحليل الصحيح لأفكار فلفريدو باريتو تكشف أن ماقدمه فى الأساس هو نظرية عن التغير الاجتماعى . غير أننا اذا تفحصنا أفكار باريتو فيما يتعلق بالتغير الاجتماعى فاننا سوف نجد أن هناك عدة حقائق بارزة فيما يتعلق بتصوره للتغير الاجتماعى . نعرض لها فيما يلى :

(أ) وتتمثل الحقيقة الأولى فى استناد نظريته فى التغير الاجتماعى ، الى مفهوم الرواسب . ومن الطبيعى أنه اذا كانت الرواسب تلعب دورا أساسيا فى صياغة التفاعل الاجتماعى القائم فى المجتمع ، فانه من المنطقى أن يكون لها دورها الواضح فى تأسيس التغير الاجتماعى . ويتحدد دور الرواسب فى التغير الاجتماعى ، من خلال بعدين أساسيين ، الأول يتمثل فى خفوت فاعلية الصفوة الحاكمة ، مما يجعلها فى بعض المراحل التاريخية صفوة بغير رواسب ، ومن ثم تجد نفسها فريسة سهلة لصفوة ذات رواسب

# دورة الصفوة فى إطار النظام

## المرحلة الأولى من الدورة



قوية تصعد اليها من القاع . اذا فلحظة التغير تقع فى اطار النسق النظرى لباريتو ، حينما تكون هناك صفوتان تشتركان فى ذات الرواسب . احداها تتولى مقاليد السلطة ، لكن ضعفت لديها رواسب الحكم ، والثانية لاتمسك بمقاليد السلطة ، ومع ذلك هى تمتلك رواسب الصفوة متأججة لديها ، بما يجعل تجاوز الصفوة الحاكمة انجازا سهلا ، بل ومطلبا بنائيا .

(ب) أما البعد الثانى للتغير ، فيتعلق بدورة الصفوة ، فالتغير يحدث فى اطار الصفوات . إذ تتناوب السيطرة على المجتمع صفوتان على مايذهب باريتو ، صفوة ( الثعالب ) أو ( المضاربون ) وهى صفوة مغامرة تفضل المخاطرة أو تأسيس المشروعات والترابطات الجديدة . غير أنه بسبب ضعف الرواسب لديها تتخلق حالة تعقبها فيها صفوة الأسود ، المحافظون التقليديون ، الذين يؤكدون دائما على الاستقرار والتقاليد والذين تتيح سيطرتهم على السلطة مسألتين : الأولى ، التهيئة لفترة يأتى بعدها المضاربون والثعالب ، يعنى أنه على الناحية الاقتصادية ، تحتاج المضاربة والمشروعات الجديدة الى المدخرات التى يكون المحافظون قد وفروها ، ليأتى المضاربون ونمط المقاولون كى يؤسسوا المشروعات ناشرين بذلك حالة من الرخاء . أما المسألة الثانية فتتصل بجوهر التنظيم الاجتماعى ، فالتجديدات التى حققها الثعالب والمضاربون تحتاج الى فترة لاستيعاب نتاجها فى البنية الاجتماعية ، حتي تدعم بذلك قوتها على الاستيعاب ، وتكون بذلك مؤهلة للدخول فى فترة جديدة من المخاطرة والتجديد والتغير . بحيث نجد أنه فى كل مرة يحدث تجديد ، ثم يستوعب ، ثم تجديد آخر فاستيعاب ، وهكذا بما يعنى تضخم الحجم الاجتماعى للمجتمع نتيجة للاضافات التدريجية التى تضاف اليه من خلال التغير .

(ج) أن التغير عند باريتو يضم نمطى التغير ، التغير التدريجى والذى نرى مظاهره فى خفوت كثافة وعمق رواسب الصفوة الحاكمة من ناحية ، وهو تغير على الجانب السالب فى مقابل ارتفاع كثافة هذه الرواسب لدى الصفوة غير الحاكمة ، ولكن على الجانب الموجب . وحاصل طرح كثافة الرواسب على الجانبين هو الذى يحدد طبيعة وحجم التغير المتوقع . فكلما كان الفارق بين خفة الرواسب لدى الصفوة الحاكمة ، وارتفاع كثافتها عند الصفوة المحكومة ضيئلا ، كلما توقعنا درجة معتدلة من التغير بسبب اباحة الصفوة الحاكمة لأفراد من الطبقات الدنيا للصعود اليها لدعم رواسبها كى تظل قوية . أما اذا

توقفت هن هذا الاجراء ، فانها بذلك تترك الباب مفتوحا لاتساع الهوة ومن ثم امكانية أن يقع تغيرا ثوريا عنيفا فى بناء المجتمع .

أما التغير الثورى فيقع حينما تكون الصفوة الحاكمة واعية بدعم نفسها عن طريق استيعاب فئة الرواسب الأولى ( الترابطات ) أعنى قبول الأفراد الذين يمتلكون هذه الرواسب ، والذين لديهم الامكانية على الحكم ، فاننا نجد أن الطبقة المحكومة تظل كما هى خاضعة ليس فقط بسيبب افتقادها لعناصرها ولكن بالنظر الى حقيقة أنه برغم كونها لديها أفراد مزودين بغرائز الرابطات ( التجديد أو المخاطرة ) فان أعمال هذه الرواسب عادة ما تبتعد عن مجال السياسة ، ومن ثم يتركز أساسا فى الفن والتجارة ، وهى مجالات منفصلة عن السياسة . مثل هذا الظرف يساعد على تخلق الاستقرار فى المجتمع . فهو يساعد الطبقة الحاكمة ، لأنه يحرم الطبقة المحكومة من قيادتها – التى صعدت الى أعلى فى فترة سابقة – غير أنه على المدى الطويل نجد ان الاختلاف فى المزاج أو الطباع بين الصفوة الحاكمة والصفوة المحكومة يميل لأن يتزايد ويبرز . ومن ثم تميل غرائز الترابط الى الانتشار لدى الطبقة الحاكمة ، فى حين تنتشر غرائز استمرار الجماعة لدى الصفوة المحكومة . وحينما تصبح الاختلافات كبيرة بما فيه الكفاية فان الثورة تقع ، وتلك هى نظرية باريتو فى الثورة . وهى النظرية التى تستند الى الرواسب والعواطف والمزاج السائد ، فهو يؤكد لنا أن هذه القاعدة العامة يمكن أن تطبق على مستوى الدولة ، فسوف ينتصر هؤلاء الذين لم يفقدوا امكانية استخدام القوة ، على هؤلاء الذين افتقدوا هذه المقدرة . وعلى المدى الطويل ، فان هذا الموقف الأخير سوف يقود المجتمع الى الانهيار . وبصفة عامة ، فان الاستبدال المثالى لاستخدام القوة بواسطة القانون غير المسلح ، يعتبر نوعا من الخيال المحزن .

(د) ويتعلق البعد الرابع بحدود التغير الاجتماعى كما يراه باريتو ، فهو تغير يستهدف بالأساس استرجاع التوازن الذى اهتز فى بناء النسق ، وخلق وضع جديد تستقر فى اطاره الصفوات . بيد أن القضية التى تستحق الاعتبار تتمثل فى أن التغير كما يتصوره باريتو ينحصر فى اطار الصفوات الحاكمة وأن الصفوة التى تنتصر هى التى تفرض رؤيتها على المجتمع ، ومن ثم يحدث التغير الاجتماعى ، اذا فالتغير الاجتماعى كما يراه باريتو يحدث على مرحلتين أو مستويين ، المستوى الأول ، وهو مستوى التغير فى اطار الصفوات . وعادة ما يشكل التغير فى قوة الرواسب مصدرا للتغير فى اطار

الصفوة ، ثم المستوى الثانى ، وهو التغير الاجتماعى الذى تفرضه الصفوة بدورها على الواقع الاجتماعى ، وهو عادة ما يكون انعكاسا لتصوراتها أو نظرياتها التى تعتبر مشتقات لرواسبها الأساسية .

وبالاضافة الى الأبعاد الأساسية السابقة التى تناول باريتو بالنظر اليها قضية التغير الاجتماعى نجد أنه يؤكد على ثلاثة عوامل أساسية باعتبارها العوامل التى تؤسس التغير فى بناء النسق ، سواء على مستوى الصفوات أو على مستوى المجتمع ونذكرها فيما يلى :

(أ) ويتمثل العالم الرئيسى فى اثارة التغير فى بناء النسق فى تغير رواسب الصفوة الحاكمة . فمثلا اذا كانت الصفوة الحاكمة تتكون من الأسود وهى صفوة لها نظرتها القيمية والأيديولوجية المحددة ، فان ضعف رواسبها الأساسية ( رواسب الفئة الثانية ) وميلها لتبنى رواسب الفئة الثانية يفرض عليها أولا تغيير نظرتها للحياة أو لطبيعة النظريات التى تتبناها ، وهو الأمر الذى يكون له انعكاسه على بناء المجتمع والمرحلة التالية للتفاعل . وثانيا فان تبينها لرواسب غير رواسبها ، يجعلها معرضة لتجاوزها بواسطة صفوة القوة وهى التى مازالت لديها رواسب ( الفئة الثانية ) فعالة وقوية .

(ب) أما العامل الثانى فيتمثل فى اهتزاز التوازن فى النسق الاجتماعى . ويحدث ذلك حينما تحاول الصفوة الحاكمة أو غير الحاكمة أن تغلق أبوابها فى وجه أى قادمون جدد من أكثر أفراد المجتمع المحكومين قدرة وفعالية ، أو حينما تعاق دورة الصفوة . هنا نجد أن التوازن يهتز وينهار النظام الاجتماعى . ويؤكد باريتو أنه اذا لم تجد الصفوة الحاكمة الطريق الذى من خلاله تستطيع استيعاب الأفراد ذوى القدرات الاستثنائية والذين يصعدون اليها من الطبقات الدنيا والخاضعة ، فان حالة من عدم الاتزان تتخلق فى الكيان الاجتماعى والسياسى ، وذلك الى أن يمكن اصلاح هذه الحالة . من خلال فتح قنوات جديدة – وهو مايعنى تغيرا – للحراك . أو من خلال الاطاحة العنيفة بالصفوة الحاكمة غير الفعالة وغير المؤثرة بواسطة صفوة جديدة تمتلك امكانات الحكم (١٥٩) .

(ج) ويتمثل العامل الثالث فى امتلاك القوة لفرض التغير الاجتماعى . ويمكن الكشف فى كتابات باريتو عن معنين لاستخدام القوة . ويتعلق المعنى الأول بالقوة التى تستخدمها الصفوات ذات الرواسب القوية ، والتى تقضى بواسطتها على الصفوات الضعيفة لتغيير احكام السيطرة على التفاعلات الكائنة بالسياق الاجتماعى ، وهو مايعنى أنها صفوة تمتلك إمكانات القوة ولا تتردد فى استخدامها .

أما المعنى الثانى لاستخدام القوة فيطرحه باريتو ، بحيث استنادا اليه تستخدم الصفوة الحاكمة القوة لفرض عدم تغييرها ، أو استعادة الأوضاع عن طريق السيطرة على التفاعل الاجتماع بعد أن كانت هذه السيطرة ضعيفة . وفى هذا الاطار يؤكد أنه فى مجتمع تكون فيه الصفوة (أ) لأسباب انسانية أو لأية اعتبارات أخرى غير قادرة على استخدام القوة ، فانها بذلك تتهرب من أحد الواجبات الأساسية للطبقة الحاكمة . مثل هذا المجتمع اذا ظل على هذا النحو ، فهو حتما فى طريقه الى الفناء ، غير أننا نجد أن الصفوة المحكومة (ب) قد تعمل على تطبيق استخدام القوة الى أبعد حد ممكن ، وهى فى استخدامها للقوة لاتطيح بالصفوة (أ) فقط وانما نجدها تقتل أكبر عدد من أفرادها . واذا فعلت ذلك فهى فى الحقيقة تنجز خدمة عامة ومفيدة ، أعنى أنها تفعل شيئا تخلص فيه المجتمع من حيوانات غير مفيدة ، وبسبب ذلك فان النسيج الاجتماعى يكتسب قوة واستقرارا ، حيث ينقذ المجتمع من الدمار وتعاد ولادته من جديد . ويتضح ذلك من تعليق باريتو على احداث الثورة الفرنسية ، فى ١٧٨٩ ، حيث يؤكد أنه لو توفر نوع من الايمان لدى الطبقة الحاكمة ، يشير عليها باستخدام القوة وارادة استخدامها ، فانه كان من الصعب الاطاحة بها ، وكان من الممكن أن تحافظ على امتيازاتها وامتيازات فرنسا فى ذات الوقت . ومع ذلك فقد أدى فشلها فى انجاز هذه الوظيفة ، الى حدوث شئ عظيم يتمثل فى ظهور مجموعة سعت الى امتلاك السلطة وأوضحت ايمانها وارادتها على مواجهة الأمر باستخدام القوة لفرض النظام على الواقع (١٦٠) .

خلاصة الأمر أن باريتو يقدم لنا نظرية فى التغير الاجتماعى تضم مستويين رئيسيين ، الأول قضايا لمعالجة التغير الاجتماعى على مستوى الصفوات فى المجتمع ، وهو التغير الذى قد يتم على مستوى الصفوة إلا أن له انعكاسه الذى يشمل كلية الواقع الاجتماعى والتفاعلات التى تحدث فى اطاره . أما المستوى الثانى فيضم قضايا التغير الاجتماعى والحضارى على مستوى فترة تاريخية يتحرك فى اطارها المجتمع ، وهو ما يعنى تقديم باريتو لرؤية فى التغير الاجتماعى أكثر شمولا وفعالية .

## سادسا : نظرية فلفريدو باريتو ، رؤية نقدية .

برغم الانجاز الهائل الذى حققه باريتو فاننا نجد أن الفترة التاريخية السابقة قد شهدت تجاهلا لأفكاره ، وكأن الصاع يرد بصاعين . فمثلما تجاهل هو فكر معاصريه ، تجاهله الورثة الفكريون لعصره . غير أننا برغم ذلك نجد أن باريتو قدم أفكارا مازالت لها وجاهتها فى اطار

النظرية الاجتماعية المعاصرة ، هذا الى جانب أن كثيرا من أفكاره شكلت أساسا لنظريات اجتماعية عديدة كانت عبارة عن انجازات عظيمة حققها الفكر الاجتماعي .

فمن انجازاته تصوره للعلاقة بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الخاصة ، وهو التصور الذى يعتبر أفضل كثيرا من التصورات التى طرحتها النظريات الاجتماعية الأخرى ذات الصلة بالموضوع . هذا الى جانب اتفاق نظريته عن الاعتماد المتبادل بين مختلف الظواهر الاجتماعية ، وأيضا تأكيده على المناهج الكمية والوظيفية لدراستها ، مع الاتجاهات المعاصرة الآن فى العلوم الاجتماعية والطبيعية للدراسة . بل أن صحة وشموخ أفكاره تتبدى من خلال تحليله للسلوك الانسانى أو لدور الرواسب والمشتقات ، وللأفعال المنطقية وغير المنطقية . بل اننا نجد أن نقده الحاد والصارم للطبيعة غير العلمية لكثير من النظريات السوسيولوجية التى سادت عصره مازالت لها وجاهتها الى حد كبير . هذا الى جانب تأكيده القيم على توجيه اهتمامنا للعناصر ذات الدوام النسبى فى بناء النسق الاجتماعى ، بالاضافة الى نظريته المتعلقة بتباين البشر الأفراد ، ونظرياته فيما يتعلق بالتدرج الاجتماعى ودورة الصفوة ، ونقد أيديولوجيات التقدم والديمقراطية والتضامن ، وما الى ذلك ، وهو أمر شارك فيه الكثيرين ، بل أن هناك من تقدموا لتطوير الكثير من أفكاره ، حيث كانت بعض هذه التطويرات مستقلة عن فرضياته بينما تمت الأخرى تحت تأثير أفكاره (١٦١) .

الى جانب ذلك قدم باريتو نقدا للتفسيرات السوسيولوجية العاملية ، والتى تحاول اختزال الحياة الاجتماعية الى عوامل أو أسباب بعينها . ومع ذلك فقد قدم الينا عددا محدودا من العوامل التى أعتقد أنها تتحدد وضع المجتمع والتغير الاجتماعى . فبالنسبة للتغير نجده يؤكد فكرة وجود وانتشار رواسب معينة أو الميل نحو التصرف بأساليب معينة . ويقصد بذلك تلك التى تحقق لدى الصفوة الحاكمة ، واذا فالتغير الذى يطرأ على الصفوة يبدو وكأنه نتيجة لضرورة داخلية (١٦٢) .

هذا الى جانب أن باريتو قد قدم مساهمات أساسية تتلخص فى تأكيده على ضرورة خضوع علم الاجتماع للمتطلبات العلمية وتصوره للمجتمع كنسق يحقق توازنا ديناميا . وفيما يتعلق بالمفهوم الأخير ، نجد أن القضايا التى قدمها باريتو تصور ميل الأنساق الاجتماعية نحو استعادة توازنها اذا ما طرأ عليها أى اختلال . بالاضافة الى العوامل التى تسهم فى تحديد ظروف الأنساق الاجتماعية ، وأهمية السلوك غير المنطقى فى الحياة الاجتماعية والطابع

الدورى للتغير الاجتماعى الذى يتميز بوجود فترات تغير بطئ ، تتبعها تعديلات سريعة . كل هذه القضايا يمكن اعتبارها صياغات جديدة تتسق عموما مع الظروف الواقعية (١٦٣) .

هذا بالاضافة الى أن قوله بالرواسب كعامل مفسر لاستقرار وتغير المجتمع ، يعتبر طرحا لمتغير جديد يمكن أن يفيد فى فهم الواقع الاجتماعى . واذا كانت النظريات العاملية قد ارتكبت خطأ النظر الى الوجود الاجتماعى من زاوية ضيقه ، فانها أفادت فى أنها القت الضوء واضحا على متغيرات ذات أهمية وفاعلية فى صياغة التفاعل الاجتماعى ومنها الرواسب . ومن ثم فيمكن القول بأن باريتو قد قدم اسهاما واضحا فى اطار النظرية العامة عن طريق القائه الضوء الواضح حول فاعلية أحد متغيرات الوجود الاجتماعى .

غير أننا مع ذلك نجد أن باريتو قد سقط فى بعض الأخطاء الأساسية ، فمفهومه عن الرواسب ظل مفهوما غير محدد الى حد ما ، هذا الى جانب أنه مفهوم ذاتى فى جوهره . بمعنى أن باريتو تناوله باعتباره نوعا من الدوافع الداخلية ( العاطفة ، الغريزة ) التى تستعصى على القياس والدراسة الموضوعية . ومثل كثير من علماء النفس وضع باريتو هذه الرواسب فى الانسان ، وبدأ يستنبط منها مايريد . ولهذا السبب فكل الاعتراضات التى نطرحها فى مواجهة التفسيرات السيكولوجية نطرحها فى مواجهة نظرية ومنهج باريتو . ذلك أن باريتو لم يستطع تجاوز أخطاء النزعة السيكولوجية ، من ذلك أنه من المستحيل مثلا دراسة هذه الدوافع الداخلية كميا وموضوعيا . وبرغم ميل باريتو الى هذه الدراسة الكمية فانه لم يستطع أن يقدم بحثا كميا لمثل هذه الرواسب ، وذلك هو السبب فى أن تصنيف باريتو للرواسب يبدو تعسفيا وناقصا ، وموضع شك . ومن الطبيعى أن هذا التصنيف قد أثر بنفس الطريقة على كثير من استنباطاته واستنتاجاته .

من الصعب أيضا أن نميز بين الرواسب عند باريتو والمصالح باعتبارها عوامل اقتصادية ، اذ أن الخط الفاصل بينها غير محدد بطريقة واضحة . ولهذا السبب أصبح من الصعب أن تحدد درجة التأثير التى مارسها كل من هذه العوامل فى تحديد التوازن الاجتماعى .

بالاضافة الى ذلك نجد أن باريتو قد أكد مرارا على حقيقة أن نفس الراسب يمكن أن يتشح بمشتقات مختلفة ، ولهذا السبب فانه من غير المؤكد بصورة محددة تحديد أى من الرواسب مصدرا لأى من المشتقات . وقد جعلت هذه الحقيقة كثيرا من اسنادات باريتو للمشتقات لرواسب معينة موضع تساؤل وشك قد تكون نتائجه صحيحة أو خاطئة . ولهذا السبب

فنحن كمن يسبح فى البحر لايعرف العلاقات الحقيقية بين الرواسب والمشتقات .

وأخيرا فاننا نجد أن نظرية باريتو فيما يتعلق بدورة الصفوة عامة للغاية وناقصة ، وتحتاج الى تصحيحات وتطويرات كثيرة .

ماسبق اذا يحاول أن يوضح نقاط الضعف فى نظرية باريتو ، ومع ذلك فان هذا النقد لايلغى الاسهامات المنهجية القيمة التى قدمها للعلم الاجتماعى . وأيضا اسهاماته فى علم اجتماع الأيديولوجيات وردود الفعل الانسانية اللفظية . أو اسهاماته فى دراسة الظاهرة الاجتماعية ككل . حيث تعتبر انجازاته فى هذه الصدد أفضل استمرار لخطة عمل الفيزيقا الاجتماعية التى طورها مفكروا القرن السابع عشر ، حيث حاول باريتو تنفيذ هذه اللحظة (١٦٤) .

ويمكن القول بأنه منذ نشر كتاب س . رايت ميلز عن ( صفوة السلطة Power Elite ) يوجد اتجاه لاعادة احياء انجازات باريتو فى أمريكا . حيث ظهرت مؤلفات كثيرة منها مؤلف سوزان كيلر Suzzanne Keller ( ماوراء الطبقة الحاكمة ) وكتاب بوتومور عن ( الصفوة والمجتمع ) وبالمثل اختيارات فاينر S. E. Finer وجوزيف لوبيريتو Joseph Lopreto من أعماله . وقد حدث نفس الشئ فى أوربا ، حيث نجد تجديدا للاهتمام بباريتو ، تشهد على ذلك أعمال ريمون آرون فى فرنسا وأعمال جيجى Jaeggi وأيزرمان Eisermann فى ألمانيا . وحسبما يذهب لويس كوزر ، أنه اذا تأكد لنا أن الزمن قد حيد التحيزات الأيديولوجية لباريتو فانه قد بقى لنا فكرة شامخا - يمارس تأثيره الفعال على العلوم الاجتماعية (١٦٥) .

## مراجع الباب الخامس


1. Coser, L : Masters of Social Thought, Harcourt Brace, Jovanovich. Inc. New York. 1977. p, 422.

2. Ibid. pp, 402-403.

3. Ibid. p, 403.

4. Ibid. p,

5. Martindale, Don : The Nature and Types of Sociological theory Routledge & Kegan Paul, 1967. p, 101.

6. Lewis Coser : Op, Cit. p, 421.

7. Ibid. p, 40.

8. Ibid. p, 405.

9. Barnes, H. E. : Social thought From Lore to Seience. Routledge & Kean Poul. Vol. 2. 1957. p, 409.

10. Zeitlin, I : Ideology and The development of Sociological Theory. Prentice-Hall -New Delhi, 1969 p, 160.

11. Ibid. p, 160.

12. L. Coser. p, 418.

13. Ibid. p, 421.

14. Ibid. p,·421.

15. Ibid. p, 412.

16. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 165.

17. Ibid. p, 165.

18. L. Coser : Op, Cit. p, 402.

19. H. E. Barnes : Op, Cit. p, 430.

20. Parsons, T. : The Structure of Social Action. The Free Press, New York, 1937. p, 270.

21. L. Coser : Op, Cit. p, 387.

22. Sorokin, P. : Contemporary Sociological Theories. Harper & Row. New York. 1928.

p, 40.

23. T. Parsons : Op, Cit. p, 181.

24. Ibid. p, 181.

25. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 179.

26. L. Coser : Op, Cit. p, 407.

27. Ibid. p, 410.

28. P. Sorokin : Op, Cit. p, 41.

29. Ibid. p, 41.

30. L.Coser : Op, Cit. p, 411.

31. H. E. Barnes : Op, Cit. p, 422.

32. Don-Martindale : Op, Cit. p, 111.

33. L. Coser : Op, Cit. p, 411.

34. Ibid. pp, 411-412.

35. Ibid. p, 409.

36. Ibid. p, 409.

37. H. E. Barnes : p, 411.

38. T. Parsons : Op, Cit. p, 220.

39. Ibid. p, 221.

40. L. Coser : Op, Cit. p, 420.

41. I, Zeitlin : Op, Cit. p, 159.

42. Ibid. p, 159.

43. Ibid. p, 159.

44. Ibid. p, 168.

45. Levingston, Arthur (ed) : Mind and Society, New York, 1935, Vol. 2. p, 311.

46. Ibid. p, 309. and See also T. Parsons : Op, Cit. p, 179.

47. Aron, Raymond : Main Currents in Social thought. New York Basic Books, Vol. 2. p, 134, and See also L. Coser : Op, Cit. p, 412.

48. I. Zeitlin : Op, Cit. pp, 165-166.

49. Ibid. p, 168.

50. Ibid. p, 168.

51. T. Parsons : Op, Cit. p, 179.

52. L. Coser : Op, Cit. p, 312.

53. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 165.

54. R. Aron : Op, Cit. p, 146.

55. L. Coser : Op, Cit. p, 389.

56. Henderson, L. J. : Parco's General Sosiology. Prentice Hall. New York. 1968. p, 134.

57. Don Martindale : Op, Cit. p, 102.

58. L. J. Henderson : Op, Cit. p, 71.

59. T. Parsons : Op, Cit. p, 71.

60. T. Parsons : Op, Cit. p, 183.

60. P. Shokin : Op, Cit. p, 41. and See also Don Martindale : Op. Cit. p, 102.

62. L. J. Henderson : Op, Cit. p, 89.

63. Don Martindale : Op, Cit. p, 103.

64. Ibid. pp, 103-104.

65. Finer, S. E. : Vilfredo Pareto, Sociological writtings. New York Praeger, 1966. p, 173.

66. T. Parsons : Op, Cit. p, 220.

67. P. Sorokin : Op, Cit. pp, 40-41.

٦٨- نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع، طبيعتها وتطورها، ترجمة محمود عودة وآخرون، دار المعارف، الطبعة الخامسة، ١٩٧٨، ص ص ٢٣٩-٢٤٠.

69. L. Coser : Op, Cit. pp, 382-389.

70. P. Sorokin : Op, Cit. p, 53.

71. T. Parsons : Op, Cit. pp, 181-182 and See also S. E. finer : Op, Cit. p, 170.

72. L. coser : Op, Cit. p. 389.

73. T. Parsons : Op, Cit. p, 197.

74. I. Zeitlin : Op, Cit. pp, 162-163.

75. T. Parsons : Op, Cit. p, 185.

76. P. Sorokin : Op, Cit. p, 37.

77. Ibid. pp, 44-46.

٧٨- نيقولا تيماشيف : مرجع سابق، ص ٢٤٨.

79. P. Sorkin : Op, Cit. pp, 43-44.

80. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 186.

81. Meisel, J. E. : Pareto and Mosca. Englewood-Cliffs, New Jersey. Prentice-Hall. 1965. p, 84.

82. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 181.

83. Ibid. pp, 163-164.

84. P. Sorokin : Op, Cit. p, 181.

85. L. Coser : Op, Cit. p, 394.

86. Ibid. p, 395.

٨٧- نيقولاتيماشيف : مرجع سابق ، ص ٢٤٢.

٨٨- نفس المرجع : ص ٢٤٣.

89. P. Sorokin : Op, Cit. p, 47.

٩٠- نيقولا تيماشيف : مرجع سابق، ص ٢٤٠.

91. J. E. Meisel : Op, Cit. p, 87.

92. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 186.

93. Ibid. p, 166.

94. Ibid. pp, 176-177.

95. L. Coser : Op, Cit. p, 413.

96. Ibid. pp, 413-414.

97. Ibid. p, 414.

98. Ibid. p, 414.

99. Ibid. p, 415.

100. Ibid. p, 414.

101. Ibid. p, 415.

102. Ibid. p, 417.

103. S. E. Finer : Op, Cit. p, 170.

104. E. Parsons : Op, Cit. p, 179.

105. R. Aron : Op, Cit. p, 137.

106. T. Parsons : Op, Cit. p, 235.

107. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 191.

108. R. Aron : Op, Cit. p, 120.

109. P. Sorokin : Op, Cit. pp, 48-49.

110. T. Parsons : Op, Cit. p, 200-201.

111. P. Sorokin : Op, Cit. p, 53.

112. Ibid. p, 54.

113. Ibid. pp, 55-56.

114. L. Coser : Op. Cit. pp, 398-399.

115. I. Zeitlin : Op, Cit. pp, 169-170.

116. P. Sorokin : Op, Cit. pp, 49-50.

117. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 174.

118. T. Parsons : Op, Cit. p, 279.

119. I. Zeitlin : Op, Cit. pp, 174-175.

120. Ibid p, 174.

121. T. Parsons : Op, Cit. p, 279.

122. I. Zeitlin : Op, Cit. pp, 175-176.

123. Ibid. p, 174.

١٢٤- سمير نعيم : النظرية فى علم الاجتماع، دار المعارف. الطبعة الثانية ١٩٧٩، ص ١٣٨.

١٢٥- نيقولا تيماشيف : مرجع سابق، ص ٢٤٤.

126. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 177.

127. Ibid. p, 174.

128. Ibid. pp, 177-178.

١٢٩- نيقولا تيماشيف، مرجع سابق، ص ص ٢٤٤-٢٤٥.

130. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 178.

131. Ibid. p, 179.

132. Ibid. p, 181.

133. Ibid. p, 182.

١٣٤- نيقولا تيماشيف، مرجع سابق . ص ٢٤٤.

١٤٠- سمير نعيم : مرجع سابق، ص ص ١٤١-١٤٢.

141. P. Sorokin : Op, Cit. pp, 49-54.

١٤٢- سمير نعيم : مرجع سابق، ص ١٤١.

١٤٣- نيقولا تيماشيف : مرجع سابق . ص ٢٤٦.

144. L. Coser : Op, Cit. p, 397.

145. t. Parsons : Op, Cit. pp, 279-281.

146. L. Coser : Op, Cit. p, 497.

147. Ibid. pp, 397-398.

148. Ibid. p, 399.

149. P. Sorokin : Op, Cit. p, 56.

150. T. Parsons : Op, Cit. p, 282.

151. L. Coser : Op, Cit. p, 396.

152. T. Parsons : Op, Cit. p, 279.

153. L. Coser : Op, Cit. p, 393.

154. T. Parsons : Op, Cit., p, 579.

155. L. Coser : Op, Cit. p, 399.

156. Ibid. p. 398.

157. t. Parsons : Op, Cit. pp, 280-286.

158. P. sorokin : Op, Cit. p, 328.

160. I. Zeitlin : Op, Cit. p, 191.

161. P. Sorokin : Op, Cit. p, 60.

١٦٢- نيقولا تيماشيف : مرجع سابق، ص ٢٤٩.

١٦٣- نفس المرجع : ص ٢٥٠.

164. P. Sorokin : Op, Cit. pp, 59-62.

165. L. Coser : Op, Cit. pp, 425-426.